تفسير

مقتنيات الدرر

تأليف

الحاج مير سيد علي الحائري الطهراني

المعروف بالمفسر

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

2273
.948
v.7-8

2273.948 v.7-8
al-Tihrānī
Muqtanayāt al-durar

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 072714031

al-Ṭihrānī, ʿAlī ibn Ḥusayn

Muqtanayāt al-durar

الجزء السابع

من كتاب التفسير
المسمى بمقتنيات الدرر

تأليف

الحاج مير سيد على الحائرى الطهرانى

أعلى الله مقامه

المعروف بالمفسر

الناشر

الشيخ محمد الآخوندى

مدير

دار الكتب الاسلامية

بازار سلطانى - طهران

مطبعة الحيدرى بطهران

١٣٣٨ هـ ش

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى نزل القرآن نوراً و سراجاً و قمراً منيراً . و الصلاة و السلام على رسوله الذى انزل عليه الكتاب بياناً للناس و هدى وموعظة للمتقين ، وعلى آله الطيبين ؛ ثانى الثقلين . و لعنة الله على اعدائهم اجمعين .

و بعد فقد بذل علماء الاسلام قديماً و حديثاً جهدهم فى تفسير علوم القرآن و تبيين لغاته و مشكلاته ؛ ففريق فسروا الفاظه و بينوا حقائقه من مجازه ، و جمع جمعوا احكامه و بينوا حلاله و حرامه ، و طائفة كشفوا عن تاويلاته قناعه . و كيفما كان ما وصلوا الا الى مبلغ علمهم و منتهى هممهم و انى لهم الوصول الى حقائق التنزيل و دقائق التاويل ؟ لان القرآن هو النور الذى انزل الله على قلب حبيبه محمد صلى الله عليه و آله . الا ان المتمسكين بولاء اهل بيت الوحى المستضيئين بنور علمهم المامورين بالتمسك بهم فى حديث الثقلين قد اغترفوا من بحار علوم اهل بيت النبى غرفاً وغاصوا فيها و اقتنوا منها دررا ؛

وها هى المقتنيات الدرر قد اقتناها علم من الاعلام : ثمرة الشجرة الطيبة ، و النخبة من السلالة الطاهرة . «الحاج المير سيد على الحائرى» تغمده الله بغفرانه ، و اوتى كتابه هذا بيمينه ؛ قد اقتنى من الدرر اغلاها و من الغرر اسناها ؛ فحقيق ان يتنافس المتنافسون فى الاستفادة منها .

و قد وفق الله تلميذه المستضىء بنور علمه المقتفى اثره الحاج ميرزاعبدالحسين المعروف بمحسنيان لبذل الجهد باحياء هذا السفر الجليل القيم .

هذا و منّ الله سبحانه على عبده الزاكى صاحب الهمة القعساء و ارومة الفضل الحاج محمود الكاشانى ؛ فانعم عليه وشرفه باعطاء نفقة طبع الكتاب خدمة للدين و اتحافاً للطيفة والده السعيد الحاج محمد حسين الكاشانى طيب الله رمسه . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

و نشكر جميل مساعى الشاب الفاضل الاريب السيد الكاظم الموسوى المياموى حيث بذل جل اوقاته لمقابلة اجزاء الكتاب مع نسخة الاصل و تخريج الايات المنثورة فى ثناياه و اسناد مايهم من رواياته و بعض الاصلاح فيه . ونسأل الله تعالى ان يوفقنا لاتمامه بمحمد و آله .

محمد الاخوندى

اعوذ بالله من الشيطان الرجيم

سورة مريم

☼(هي مكية)☼

فضلها اُبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : من قرأها اُعطي من الأجر بعدد من صدّق بزكريّا و كذّب به و يحيى و مريم و عيسى و موسى و هارون و إسحاق و يعقوب وإسماعيل عشر حسنات وبعدد من دعا لله ولداً و من لم يدع له ولداً . وقال الصادق عليه السلام : من أدمن قراءة سورة مريم لم يمت في الدنيا حتّى يصيب منها ما يغنيه في نفسه و ماله و ولده وكان في الآخرة من أصحاب عيسى بن مريم واُعطي من الأجر في الآخرة بمقدار ملك سليمان بن داود في الدنيا .

2273
.948

٧٠٧-٨

بسم الله الرحمن الرحيم

كهيعص(١) ذكر رحمة ربك عبده زكريا (٢) اذ نادى ربه نداء خفيا (٣)

في الإكمال عن الحجّة القائم عليه السلام في حديث أنّه عليه السلام سئل عن تأويلها فقال: هذه الحروف من أنباء الغيب اطّلع الله عبده زكريّا عليها ثمّ قصّها على محمّد صلى الله عليه وآله.

و ذلك أنّ زكريّا سأل ربّه أن يعلّمه أسماء الخمسة الطيّبة فأهبط الله جبرئيل فعلّمه إيّاها؛ فكان زكريّا إذا ذكر محمّداً و عليّاً و فاطمة و الحسن صلوات الله عليهم أجمعين سري عنه همّه و انجلى كربه و إذا ذكر الحسين عليه السلام خنقته العبرة و وقعت عليه البهرة و الحيرة فقال ذات يوم: إلهي ما بالي إذا ذكرت أربعاً منهم تسلّيت بأسمائهم من الهموم و إذا ذكرت الحسين تدمع عيني وتثور زفرتي؟ فأنبأه تعالى عن قصّته فقال:

[كهيعص] فالكاف اسم كربلا و الهاء هلاك العترة و الياء يزيد لعنه الله و هو ظالم الحسين و العين عطشه و الصاد صبره؛ فلمّا سمع بذلك زكريّا لم يفارق مسجده ثلاثة أيّام و منع فيها من الدخول عليه الناس و أقبل على البكاء و النحيب و كانت ندبته: إلهي أتفجع خير خلقك بولده؟ أتنزل بلوى هذه الرزيّة بفنائه؟ إلهي أتلبس عليّاً و فاطمة ثياب هذه المصيبة؟ إلهي أتحلّ كرب هذه الفجيعة بساحتهم؟ ثمّ كان يقول: إلهي ارزقني ولداً تقرّ به عيني عند الكبر و اجعله وارثي و وصيّي و اجعل محلّه منّي محلّ الحسين فإذا رزقتنيه فافتنّي بحبّه ثمّ فجّعني به كما تفجع محمّداً حبيبك صلى الله عليه وآله بولده، فرزقه يحيى و فجّعه به؛ وكان حمل يحيى ستّة أشهر و حمل الحسين عليهما السلام كذلك. و في المناقب عنه عليه السلام مثله.

و في معاني الأخبار عن الصادق معنى «كهيعص»: أنا الكافي الهادي الوليّ العالم الصادق الوعد و عنه عليه السلام: كاف لشيعتنا هاد لهم وليّ لهم عالم بأهل طاعتهم صادق لهم

وعده حتّى يبلغ بهم المنزلة الّتي وعدهم إيّاها في بطن القرآن .

و عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال في دعائه : يا كهيعص .

[ذكر رحمة ربّك عبده زكريّا] أي هذا ذكر رحمة ربّك وبيان رحمته لزكريّا ؛ و يعني بالرحمة إجابته إيّاه حين سأله الولد .

وقد اختلف العلماء في حروف المعجم الّتي في القرآن من فواتح السور و قد شرح مفصّلاً في سورة البقرة لكنّ الّذي يختصّ بهذا الموضع ما ذكر في حديثين قبيل هذا عن الحجّة عليه السلام .

وقد روى ابن عبّاس أنّ هذه الكلمات ثناء من الله على نفسه ؛ و كلّ حرف ينبىء عن معنى مثلاً « الكاف » كفاية الله عبده مثلاً وهكذا . وبعض أنكروا هذا القول ويقولون : لايجوز أن يودع في معاني الألفاظ مالا تدلّ عليه اللغة لا بالحقيقة ولا بالمجاز ويقولون : ليست دلالة الكاف على الكافي أولى من دلالته على الكريم أوعلى الكبر فيكون حمله بعضاً دون البعض تحكّماً إلّا أن يكون ورد هذا المعنى والتأويل عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أو المعصوم فذلك دليل صحيح قاهر .

و بالجملة ففي كلمة « ذكر » أربعة أوجه و بالوجوه يختلف الإعراب والمعنى في الجملة « ذكر » بصيغة المصدر وبصيغة الماضي مخفّفة أومشدّدة وبصيغة الأمر ، أمّا صيغة المصدر فلابدّ من ذكر رحمة ربّك على الإضافة وأمّا صيغة الماضي مشدّدة فلابدّ من نصب رحمة على المفعوليّة و رفع زكريّا على الفاعليّة و أمّا بصيغة الماضي المخفّف رفع الباء في ربّك على الفاعليّة و نصب زكريّا على المفعوليّة و أمّا صيغة الأمر فلابدّ من نصب رحمة .

والحاصل بناءً على أنّ « كهيعص » اسم للسورة فالمعنى هذا المعلوم مسمّى « بكهيعص » فهذه الحروف مرفوعة على الخبريّة تقديره : هذا كهيعص ؛ و إنّما صحّت الإشارة إليه مع عدم جريان ذكره لأنّه على جناح الذكر فصار في حكم الحاضر كقولك : هذا ما اشترى فلان والحال أنّه بعد ما اشترى ؛ أو على أنّه مبتدأ و خبره « ذكر رحمة ربّك » أي المسمّى به ذكر رحمة ربّك و لكنّ الأوّل أولى ؛ وعليك بتعبير

المعنى على الوجوه الأربعة المذكورة ؛ فرحمته سبحانه لعبده زكريّا حين دعا ربّه دعاءً خافياً سرّاً غير جهر في نفسه لايريد به رياء ، وفي هذا دلالة على أنّ المستحبّ في الدعاء الإخفاء ، و أنّ ذلك أقرب للإجابة كما في الحديث : خير الدعاء الخفيّ و خير الرزق مايكفي .

و قيل : إنّما أخفى دعاءه لئلاّ يهزأ به الناس فيقول : انظروا إلى هذا الشيخ الكبير يسأل الولد . و قيل : أسرّه خوفاً من مواليه . و قيل : خفي صوته قهراً لضعفه و هرمه كماجاء في صفة الشيخ : صوته خفات و سمعه تارات .

وإن قيل : من شرط النداء الجهر فكيف الجمع بين كونه نداءً و خفيّاً ؟

فالجواب أنّه أتى بندائه أقصى ما قدر عليه من رفع الصوت إلّا أنّ الصوت كان ضعيفاً بسبب الكبر ؛ فكان نداءً بحسب قصده وخفيّاً بحسب الواقع .

قوله تعالى : قال رب انى و هن العظم منى و اشتعل الرأس شيبا ولم اكن بدعائك رب شقيا (٤) و انى خفت الموالى من ورائى وكانت امراتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا (٥) يرثنى و يرث من آل يعقوب و اجعله رب رضيا(٦) .

و قد ذكرنا في الحديث السبب في دعوته الولد و سؤاله من الله قال زكريّا في دعائه حال الصلاة : ربّ إنّ عظمي ضعيف . و إنّما أضاف الوهن إلى العظم ؛ لأنّ العظم مع صلابته إذا ضعف فكيف باللحم و العصب ، والبطش إنّما يكون بالعظم دون غيره [واشتعل الرأس شيباً] أي عمّ الرأس البياض من الشعر وهو نذير الموت ، و تلألأ الشيب لكثرة بياضه ؛ وغرضه إظهار عجزه و تذلّله لاتعريفاً .

[ولم أكن] بدعائي إيّاك فيما مضى من الأيّام مخيباً محروماً ؛ و إنّك عوّدتني بحسن الإجابة و ما خيّبتني فيما سألتك بل استجبت لي ولم أكن محروماً ؛ يقال : شقي فلان بحاجته إذا تعب ولم يحصل مطلوبه .

[و إنّي خفت الموالي من ورائي] الموالي هم الكلالة ؛ و قيل : العصبة ؛ و قيل : العمومة وبنو العمّ عن أبي جعفر عليه السلام و قيل : بنو العمّ وكانوا أشرار بني إسرائيل و قيل :

الورثة و هم الّذين يلونه في النسب . والموالي يراد به الّذين يخلفون بعده إمّا في السياسة والدّين أو في المال الّذي كان له . قيل : إنّه خاف منهم بعده على إفساد الدين . و قيل : خاف أن ينتهي أمره إليهم بعد موته في ماله لأنّهم ما كانوا صالحين .

[و كانت امرأتي] أي امرأتي في الحال ذاعقر لاتحول ولوداً ؛ ففي الإخبار عنها بلفظ الماضي لتقادم العهد وإشعاراً بهذا المعنى .

[فهب لي من لدنك وليّاً] أي ولداً يلي أمري و يكون أولى بميراثي [يرثني] قرىء مجزوماً أي إن تهبه لي يرثني ؛ وإن قرأته مرفوعاً جعلته صفة «ولي» و المعنى اجعل لي وليّاً وارثاً لي غير هؤلاء الموجودين و قيل : طلب من يقوم مقامه ولداً كان أو غيره ، والأقرب هو الأوّل يرثني من مالي [و يرث من آل يعقوب] النبوّة و يرث منّي النبوّة . « يعقوب » هو يعقوب بن ماثان و أخوه عمران بن ماثان أبو مريم أُمّ عيسى عليه السلام . و قيل : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم لأنّ زكريّا كان متزوّجاً بأُخت مريم و نسبها يرجع إلى يعقوب ؛ لأنّ نسبها من ولد سليمان بن داود و هو من ولد يهودا بن يعقوب . و زكريّا من ولد هارون و هو من لاوي بن يعقوب .

و استدلّ أصحابنا بالآية على أنّ الأنبياء يورّثون المال و أنّ المراد بالإرث المذكور في الآية المال دون العلم والنبوّة ؛ لأنّ لفظ الميراث في اللغة و الشريعة لايطلق إلّا على ماينتقل من المورّث إلى الوارث كالأموال و لايستعمل في غير المال إلّا على سبيل التوسّع والمجاز ، و لايعدل عن الحقيقة إلى المجاز بغير دلالة .

و أيضاً فإنّ زكريّا عليه السلام قال في دعائه : [و اجعله ربّ رضيّاً] أي اجعل يا ربّ ذلك الوليّ الّذي يرثني مرضيّاً عندك ممتثلاً لأمرك ؛ و متى حملنا الإرث على النبوّة لم يكن لذلك معنى و كان هذا الكلام لغواً ألاترى أنّه لا يحسن أن يقول أحد : اللّهمّ ابعث لنا نبيّاً و اجعله صالحاً عاقلاً مرضيّاً في أخلاقه و إنّ زكريّا كان يخاف الموالي بسبب عدم استحقاقهم بوراثة المال و إلّا فهو أعلم بالله أنّه سبحانه لايبعث من ليس بأهل النبوّة .

فإن قيل : إنّ هذا الخوف إضافة الظنّة و البخل إليه .

قلنا : معاذ الله لايمتنع أن يأسي على بني عمّه وأقاربه إذا كانوا من أهل الفساد أن يظفروا بماله فيصرفوه فيما لاينبغي بل في ذلك غاية الحكمة .

فإذا كان وثبت أنّ الأنبياء يتوارثون ويتورّثون فمن أين ثبت هذا الخبر المطعون فيه حيث حرموا من حرموا ؟ و على أن يكون خوف زكريّا من وراثة النبوّة و العلم والمال فالآية صريحة أيضاً بوراثة الأنبياء .

والعجب أنّ الرازيّ استدلّ بأنّ لفظ الإرث يستعمل في وجوه : المال والمنصب و النبوّة و السيرة الحسنة كلّها أمّا في المال لقوله تعالى : « أورثكم أرضهم و ديارهم و أموالهم » (١) و أمّا في العلم فلقوله : « ولقد آتينا موسى الهدى و أورثنا بني إسرائيل الكتاب (٢) » و قوله تعالى : « و ورث سليمان داود (٣) » و هذا وراثة الملك و النبوّة والعجب من الفاضل أنّه كيف خالط البعض في البعض والحالة أنّ العلم والسيرة والنبوّة لا تورّث بل يجعلها الله حيث يشاء و يكمل بالاكتساب فوجب حمل الإرث على المال وإذا استعمل في غير المال فذلك توسّع والّذي حمله على هذا المعنى الركيك المخلّ لإيراد ذلك المجعول في مورد الحديث فتأمّل .

و في الصافي في قوله تعالى : « و اجعله رب رضيّاً » أي ترضاه قولاً و فعلاً .

القميّ : لم يكن يومئذ لزكريّا ولد يقوم مقامه و يرثه وكانت هدا يا بني إسرائيل و نذورهم للأحبار وكان زكريّا رئيس الأحبار وخوف زكريّا كان من أخلافهم و فعالهم و إنفاقهم ماله في معصية الله .

قوله تعالى : يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا (٧) قال رب انى يكون لى غلام و كانت امراتى عاقرا و قد بلغت من الكبر عتيا (٨) قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل و لم تك شيئا (٩) قال رب اجعل لى آية قال آيتك الا تكلم الناس ثلاث ليال سويا (١٠) فخرج على قومه من المحراب فاوحى اليهم ان سبحوا بكرة و عشيا (١١)

(١) الاحزاب : ٢٧ .
(٢) المؤمن : ٥٣ .
(٣) النمل : ١٦ .

المعنى ههنا حذف وتقديره : فاستجاب الله دعاء زكريّا وأوحى إليه يا زكريّا إنّا نخبرك على ألسنة الملائكة بخبريرى السرور بذلك الخبر في وجهك و هو أن يولد لك ابن اسمه يحيى ، ولم يسمّ أحد قبله باسمه .

و في هذا الكلام تشريف له من وجهين :

أحدهما أنّ الله سبحانه تولّى تسميته و لم يكلها إلى الأبوين .

والثاني باسم لم يسبق إلى ذلك الاسم أحد قبله ؛ قال أبو عبدالله الصادق عليه السلام : و كذلك الحسين عليه السلام لم يكن له من سميّ و لم تبك السماء إلّا عليهما أربعين صباحاً قيل له : و ما بكاؤها ؟ قال : كانت تطلع حمراء و تغيب حمراء وكان قاتل يحيى ولد زنا و قاتل الحسين ولد زنا .

و روى سفيان بن عيينة عن عليّ بن زيد عن عليّ بن الحسين قال : خرجنا مع الحسين عليه السلام ، فما نزل منزلاً و لا ارتحل منه إلّا ذكر يحيى بن زكريّا و قال يوماً : و من هوان الدنيا على الله عزّ وجلّ أنّ رأس يحيى أهدي إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل !

و قيل : إنّ معنى قوله : [ولم نجعل له من قبل سميّاً] لم تلد العواقر مثله ولداً و هو كقوله : «هل تعلم له سميّاً[1]» أي مثلاً .

و اختلفوا في المنادى فقيل : هو الله و ذلك لأنّ ماقبل الآية يدلّ على أنّ زكريّا إنّما كان يخاطب الله و يسأله بقوله : « ربّ إنّي وهن العظم » و قوله : « ولم أكن بدعائك ربّ شقيّاً » و قوله : « فهب لي » فما بعد الآية و ما قبلها يدلّ على أنّه كان يخاطب الله فيلزم أن يكون النداء من الله للترتيب والنظم .

و قيل : هذا نداء الملك و الدليل قوله تعالى في سورة البقرة : « فنادته الملائكة وهو قائم يصلّي في المحراب أنّ الله يبشّرك بيحيى[1] » و كذلك أنّ زكريّا قال : « أنّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيّاً * قال كذلك قال ربّك هو عليّ هيّن » و هذا لا يجوز أن يكون كلام الله فوجب أن يكون كلام الملك .

لكن يمكن الجمع بان يقال : حصل النداء أنّ نداء الله نداء الملائكة .

(١) آل عمران : ٣٩ .

و في وجه تسميته عليه السلام يحيى ذكر الثعلبي وجوهاً : أحدها عن ابن عبّاس لأنّه أحيا عقر اُمّه وقيل : أحيا قلبه بالطاعة والإيمان والله سبحانه سمّى المطيع حيّاً والعاصي ميّتاً بقوله تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه[1] » وقال : « إذا دعاكم لما يحييكم[2] » و إحياؤه بالطاعة حتّى لم يعص ولم يهمّ بمعصية و قيل : استشهد والشهداء أحياء عند ربّهم و قيل : إنّ يحيى أوّل من آمن بعيسى فصار قلبه حيّاً بذلك الأمر وذلك أنّ اُمّ يحيى كانت حاملاً به فاستقبلها مريم و قد حملت بعيسى فقالت لها اُمّ يحيى : يا مريم أحامل أنت ؟ فقالت : لما ذا تقولين ؟ فقالت : إنّي أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك . ولكن هذه الوجوه استحسانات ضعيفة لأنّ أسماء الألقاب لايطلب فيها وجه الاشتقاق و لهذا قالوا : أسماء الألقاب قائمة مقام الإشارات وهي لاتفيد في المسمّى صفة البتّة .

قوله تعالى : [قال ربّ أنّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً] قال زكريّا : من أين لي غلام ؟

فلو قيل : كيف تعجّب مع أنّه هو الّذي طلب الغلام و بشّر به فكيف يتعجّب ؟

فالجواب أنّه قال ذلك لا على وجه الاستعجاب بل مقصوده الاستخبار عن كيفيّة وقوع الأمر لا أنّه تعجّب من قدرة الله أو كان شاكّاً في وقوع الأمر بل مقصوده أن يستعلم هل يعادان شابّان أم يرزقان الولد شيخين ؟

قوله : « عاقر » لأنّ ما كان على فاعل من صفة خاصّة بالتأنيث ممّا لم يكن للمذكّر أبداً فإنّه لا تدخل فيه الهاء نحو حائض قال الخليل : هذه صفات مذكّرة وصفت بها المؤنّث كما وصفوا المذكّر بالمؤنّث حين قالوا : رجل ملحة و ربعة و غلام يفعة .

قوله : [و قد بلغت الكبر عتيّاً] و العاقر هو الّذي غيّره طول الزمان إلى اليؤس و ليل عاقر أي طويل و قد بلغت الكبر حال اليبوس و الجفاف . قيل : كان له عليه السلام تسع و تسعون سنة .

قوله تعالى : [قال كذلك] أي قال الله سبحانه : الأمر على ما أخبرتك من هبة

(١) الانعام : ١٢٢ .
(٢) الانفال : ٢٤ .

الولد على الكبر و ردّ قوّتك [علي] أمر [هيّن وقد خلقتك من قبل و لم تك شيئاً] أي أوجدتك و لم تك شيئاً موجوداً فإزالة عقر زوجتك و إرجاع قوّتك أيسر في الاعتبار من ابتداء الإنشاء .

[قال] زكريّا : [ربّ اجعل لي] علامة أستدلّ بها على وقت كونه قال الله : علامتك [أن لا تكلّم الناس ثلاث ليال] و أنت سويّ صحيح سالم من غير علّة قال ابن عبّاس : اعتقل لسانه من غير مرض ثلاثة أيّام . قالوا : اعتقل لسانه ثلاثة أيّام من غير بأس و لاخرس فإنّه كان يقرء الزبور و يدعو إلى الله و يسبّحه و لكنّه لا يمكنه أن يكلّم الناس . و اختلفوا في معنى « سويّاً » فقال بعضهم : هو صفة لليالي الثلاث ولكنّ الأكثر قالوا : صفة لزكريّا .

قوله : [فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبّحوا بكرة و عشيّاً] فخرج زكريّا على قومه قيل : كان له موضع ينفرد فيه بالصلاة و العبادة و لمّا يفرغ من عبادته ينتقل إلى قومه فعند ذلك أوحى و أشار إليهم . و قيل : كان موضعاً يصلّي فيه هو و غيره إلّا أنّهم كانوا لا يدخلونه للصلاة إلّا بإذنه و أنّهم اجتمعوا ينتظرون خروجه للإذن فخرج إليهم وهو لايتكلّم فأوحى إليهم . و المراد بالوحي ههنا لا يمكن أن يحمل على الكلام بل المراد الرمز والإشارة لأنّ الكلام كان عليه ممتنعاً فعلم يومه أن قد كان ما بشّر به فكما حصل السرور له حصل لهم و ظهر لهم إكرام الله تعالى لزكريّا بالإجابة فأشار إليهم و أومأ بيده و قيل : كتب لهم على الأرض أن صلّوا صلاة الفجر و صلاة العصر و يحتمل أن يكون أنّهم كانوا يأتمّون به محرابه في هاتين الصلاتين فلما اعتقل لسانه خرج على عادته وأذن لهم من غير كلام فعرفوا ذلك و إنّما سمّي المحراب محراباً لأنّ المتوجّه إليه في صلاته كالمحارب للشيطان على صلاته و الأصل فيه مجلس الأشراف الّذي يحارب دونه ذبّاً عن أهله .

و بالجملة فسكت ثلاثة أيّام و السبحة استعملت في الصلاة . و عن عائشة في صلاة الضحى : إنّي لأسبّحها .

قوله تعالى : يا يحيى خذ الكتاب بقوة و آتيناه الحكم صبيا (١٢)

وحنانا من لدنا و زكوة و كان تقيا (١٣) و برا بوالديه و لم يكن جبارا عصيا (١٤) و سلام عليه يوم ولد و يوم يموت و يوم يبعث حيا (١٥) .

وصف سبحانه يحيى في هذه الآية و شرّفه بتشريفات أوّلها كونه مخاطباً من الله بقوله :

[يا يحيى خذ الكتاب بقوّة] و هذا تشريف عظيم و الكتاب المذكور يحتمل أن يكون هو التوراة الّتي أنعم الله بني إسرائيل بها و يحتمل أن يكون كتاباً خصّ الله يحيى به كما خصّ الله كثيراً من الأنبياء بذلك و لكن أطبق المفسّرون أنّ المراد بالكتاب التوراة ، و معنى بقوّة أي أنت قادر على أخذه قويّ العمل به و خذه بجدّ و صحّة عزيمة على القيام بما فيه .

[و آتيناه الحكم صبيّاً] و المراد من الحكم قيل : الحكم و هو الفهم في التوراة و الفقه في الدين . و قيل : المراد العقل . لكنّ القول الصحيح : المراد من الحكم النبوّة فإنّ الله أحكم عقله في حال صباه و أوحى إليه .

و قد بعث سبحانه يحيى و عيسى نبيّاً و هما صبيّان و بعث موسى و محمّداً و قد بلغا الأشدّ . و الحكم هوما يصلح لأن يحكم به على غيره على الإطلاق و ذلك لايكون إلّا بالنبوّة .

فإن قيل : كيف يعقل حصول العقل و الفطنة و النبوّة حال الصبا .

قيل : إنّ بناء النبوّات على المعجزات فإنّه ليس استبعاد صيرورة الصبيّ عاقلاً نبيّاً أشدّ من استبعاد انشقاق القمر و انفلاق البحر .

قوله تعالى : [وحناناً من لدنّا] الحنان أصله من الحنين و هو الجزع للفراق كما يقال : حنين الناقة و هو صوتها إذا اشتاقت إلى ولدها و منه حنّت خشبة الجذع لمّا اتّخذوا له المنبر و تحوّل إلى المنبر فاستعمل التحنّن على التعطّف و الرحمة و الحنان في الآية إمّا صفة لله أو صفة ليحيى فإن كان صفة لله فالتقدير : وآتيناه الحكم حناناً و رحمة منّا عليه و قيل : معناه تحنّناً منه على العباد و رقّة قلب عليهم . و هذه صفة يحيى ليدعوهم إلى الطاعة . و قيل : معنى تحنّن الله عليه كان كلّما كان يحيى

يقول : يا الله ، قال الله : لبّيك يا يحيى . و هو المرويّ عن الباقر عليه السلام .

[و زكاة] أي و آتيناه عملاً مزكّى صالحاً مهذّباً بحسن الثناء عليه أو العمل لمن فعل ديته زكاة و مقبولاً أو وجود يحيى صدقة تصدّق الله به على أبويه . و قيل : معناه هو بركة و نماء كما قال عيسى : « و جعلني مباركاً أينما كنت [1] » .

قوله : [و كان تقيّاً] أي كان يحيى مطيعاً متّقياً لما نهى الله عنه قالوا : و من تقواه أنّه لم يعمل خطيئة قطّ و لم يهمّ بها و إنّما أضاف الله كونه زكاة إلى نفسه و هو كان زكيّاً و مطيعاً بفعله لأنّه إنّما صار عليه السلام كذلك في حال الصغر بألطاف الله و لذا نسبه إلى نفسه .

قوله : [و برّاً بوالديه] أي بارّاً محسناً إليهما مطيعاً لهما طالباً مرضاتهما [ولم يكن جبّاراً] متكبّراً متطاولاً على الخلق و إنّما وصفه بالبرّ بالوالدين لأنّه لا عبادة بعد تعظيم الله مثل تعظيم الوالدين كما قال سبحانه : « و قضى ربّك أن لا تعبدوا إلّا إيّاه و بالوالدين إحساناً [2] » و إنّما نزّهه عن التجبّر لأنّ رأس العبادات معرفة الإنسان نفسه بالذلّ و معرفة ربّه بالعظمة فإنّ إبليس لمّا تجبّر تمرّد و صار مبعداً عن الرحمة و الجبّار هو الّذي يعاقب على غضب نفسه من غير حقّ و لا يرى لأحد حقّاً على نفسه عن أن يلزمه قضاه .

و قوله : [عصيّاً] مبالغة من العاصي كما أنّ العليم أبلغ من العالم .

قوله : [و سلام عليه] أي سلام عليه منّا قيل : وسلامة وأمان له [يوم ولد] من عبث الشيطان و إغوائه إيّاه [و يوم يموت] من بلاء الدنيا و من عذاب القبر [و يوم يبعث حيّاً] من هول المطّلع و عذاب النار و قوله : « حيّاً » تأكيد لقوله : « يبعث » و قيل : يعني أنّه يبعث مع الشهداء لأنّهم وصفوا بأنّهم أحياء .

قال سفيان بن عيينة : أوحش ما تكون الإنسان في ثلاثة مواطن : يوم ولد فرأى نفسه خارجاً ممّا كان فيه و يوم يموت فيرى قوماً لم يكن رآهم و أحكاماً ليس له بها عهد

---

(١) مريم : ٣١ .

(٢) الاسراء : ٢٣ .

و يوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم فخصّ الله سبحانه يحيى بالكرامة و السلامة في المواطن الثلاثة و السلام الأوّل يوم الولادة بفضل و تشريف و الثاني و الثالث على وجه الثواب و الجزاء و هذا السلام و البشارة يمكن أن يكون من الله و أن يكون من الملائكة و على التقديرين فدلالة شرفه و فضله ثابتة لأنّ الملائكة لا يسلّمون إلّا عن أمر الله .

و في هذه الآية دلالة على آداب الدعاء أحدها : نداء خفيّاً و هو يدلّ على أنّ أفضل الدعاء ما هذا حاله و يؤكّده قوله : « ادعوا ربّكم تضرّعاً و خفية [١] » ، و لأنّ رفع الصوت مشعر بالقوّة و إخفاء الصوت مشعر بالانكسار و عجز النفس .

و كذلك يستفاد من الآية أن يذكر في مقدّمة الدعاء عجز النفس و ضعفها كما في قوله تعالى عنه : « وهن العظم منّي و اشتعل الرأس شيباً » .

ثمّ يستفاد من آداب الدعاء أنّه أن يكون الدعاء لأجل شيء متعلّق بالدين لا لمحض الدنيا كما قال : « و إنّي خفت الموالي من ورائي » و كذلك أن يكون بلفظ يا ربّ .

و أيضاً في هذه القصّة دلالة على أنّ البنية ليست شرطاً في الإيجاد و القدرة و الوسائط عند القدرة ملغاة . و أيضاً ردّ على الطبايعين .

و في الكافي عنهم عليهم السلام فيما وعظ الله عيسى عليه السلام : و نظيرك يحيى من خلقي و هبته لأُمّه بعد الكبر من غير قوّة بها أردت بها بذلك أن يظهر لها سلطاني و تظهر فيك قدرتي .

و في تفسير الإمام في سورة البقرة عند قوله تعالى : « و استشهدوا شهيدين من رجالكم [٢] » قال : ما ألحق الله صبيّاً برجال كاملي العقول إلّا هؤلاء الأربعة : عيسى ابن مريم و يحيى بن زكريّا و الحسن و الحسين عليهم السلام .

قوله تعالى : و اذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من اهلها مكانا

(١) الاعراف : ١٥٤ .
(٢) البقرة : ٢٨٢ .

شرقياً (١٦) فاتخذت من دونهم حجاباً فارسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا (١٧) قالت انى اعوذ بالرحمن منك ان كنت تقياً (١٨) قال انما انا رسول ربك لاهب لك غلاما زكيا (١٩) قالت انى يكون لى غلام و لم يمسسنى بشر ولم اك بغيا (٢٠).

هذه قصّة ثانية خارجة عن مناهج العادات وإنّما قدّم قصّة يحيى على قصّة عيسى لأنّ خلق الولد من شيخين فانيين أقرب من تخليق الولد من غير أب و أحسن الطريق إلى بيان الأمر الأخذ من الأقرب فالأقرب ثمّ إلى الأصعب فالأصعب فعطف قصّة عيسى على يحيى عليه‌السلام فقال سبحانه :

و ليتنه علمك يا محمّد في قرآنك هذا حديث [مريم] و ولادتها عيسى و صلاحها في الدين ليقتدي الناس بها و ليكون علمك بأحوالها من غير تعليم معلّم معجزة لك [إذا انتبذت] و انفردت [من أهلها] إلى جهة المشرق و قعدت ناحية منهم و لذا اتّخذت النصارى المشرق قبلة ، وفلان خلّى نبذة من الناس أي ناحية أي اتّخذت مكاناً للعبادة متباعدة لئلاّ تشتغل بكلام الناس ، أو تباعدت عن قومها للعبادة حتّى لا يروها .

ثمّ إنّها مع ذلك اتّخذت و جعلت بينها و بينهم [حجاباً] و حائلاً أي جعلت بين نفسها و بينهم ستراً . و قيل : إنّها لما رأت الحيض تباعدت عن مكانها المعتاد المعدّ للعبادة لكي تنتظر الطهر فتغتسل ثمّ تعود إلى مكانها فلمّا طهرت جاءها جبرئيل . و قيل : قعدت في مشرقة للاغتسال من الحيض محتجبة بستر تستر بها . وقيل : إنّ زكريّا زوج اُختها كان رتّب لها محراباً على حدة تسكنه بقربه و تعبد فيه و كان زكريّا إذا خرج أغلق عليها فأرادت مريم أن تجد خلوة في الجبل لتمشط رأسها فانفجر السقف لها فخرجت من المكان إلى المفازة فجلست في المشرقة فتمنّت وراء الجبل فأتاها الملك و المكان الشرقيّ هو الّذي يلي شرقيّ بيت المقدس .

و لمّا جلست ذاك المكان [فأرسلنا إليها روحنا] يعني جبرئيل و سمّاه الله روحاً لأنّه روحانيّ و أضافه إلى نفسه تشريفاً له كبيتي وعبدي . وقرىء روحنا بالفتح لأنّه سبب لمافيه روح العباد ولا شكّ أنّه من المقرّبين « فأمّا إن كان من المقرّبين * فروح

وريحان و جنّة نعيم[١] » و لا يلزمنا هذه التكلّفات وقد سمّاه الله تعالى الروح قال : « نزل به الروح الأمين[٢] » ثمّ إنّه قال : « إنّما أنا رسول ربّك لأهب لك غلاماً زكيّاً » ولا يليق ذلك لجبرئيل .

و اختلفوا في أنّه كيف ظهر لها أي بصورة أيّ إنسان . قيل : إنّه ظهر لها بصورة شابّ أمرد حسن الوجه سويّ الخلق . و قيل : ظهر لها بصورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس ولا دلالة في اللفظ على التعيين فانتصب بين يديها جبرئيل بصورة آدميّ صحيح لم ينقص منه شيء فلمّا رأته مريم أنكرته فاستعاذت بالله منه .

[قالت إنّي أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيّاً] أرادت إن كان يرجى منك أن تتّقي الله فإنّي عائذة بالله منك لأنّها علمت أنّ الاستعاذة تؤثّر في التقي كقوله « وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين[٣] » أي شرط الإيمان يوجب هذا . وقيل : معناه إن النافية أي ما كنت تقيّاً حيث استحللت النظر إليّ و خلوت في منزلي . و قيل : إنّه كان في ذلك الزمان إنسان فاجر اسمه تقيّ يتبع النساء فظنّت مريم عليها السلام أنّه هو ذلك التقيّ .

وههنا بحث و هو أنّه جاء في الأخبار أنّ جبرئيل عليه السلام شخص عظيم الجثّة فذلك الشخص العظيم كيف يصر بدنه في مقدار جثّة الإنسان أبأن تساقطت أجزاؤه و تفرّقت بنيته فحينئذ لا يبقى جبرئيل أو بأن تداخلت أجزاؤه وذلك توجب تداخل الأجزاء و الأجسام وهو محال فكيف الأمر ؟

والجواب أنّه لا يمتنع أن يكون جبرئيل له أجزاء أصليّة وأجزاء فاضلة والأجزاء الأصليّة قليلة فيكون متمكّناً من التشبّه بصورة الإنسان و هذا إذا جعلناه جسمانيّاً أمّا إذا جعلناه روحانيّاً فأيّ استبعاد في أن يبدو تارة بالهيكل العظيم و أخرى بالهيكل الصغير .

والحاصل فلمّا سمع جبرئيل عليه السلام منها هذه الاستعاذة [قال] لها : [إنّما

---

(١) الواقعه : ٨٨ ، ٨٩ .
(٢) الشعراء : ١٩٣ .
(٣) البقرة : ٢٧٨ .

أنا رسول ربّك لأهب لك] ولداً طاهراً من الأدناس نامياً في أفعال الخير . و قيل : يريد نبيّاً .

[قالت] مريم : [أنّي يكون لي غلام] و كيف يكون لي ولد ؟ [ولم يمسسني بشر] على وجه الزوجيّة ولم أكن زانية ، و إنّما قالت ذلك لأنّ العادة أن يكون الولد من إحدى هاتين الجهتين . وإنّما يقال : للفاجرة بغيّ لأنّها تطلب و تبغي الزنا .

و في هذه الآيات دلالات على جواز إظهار المعجزات لغير الأنبياء خلافاً لمن قال : إنّ المعجزة خاصّة بالنبوّة لأنّ من المعلوم أنّ مريم ليست نبيّة و أنّ رؤية الملك على صورة البشر و بشارة الملك إيّاها و ولادتها من غير وطيء من الآيات الّتي آتاها الله من أكبر المعجزات .

و أجاب الّذي أنكر المعجزة لغير النبيّ وقالوا : إنّها معجزات لزكريّا .

و ردّ هذا القول : لأنّ المعجز إذاكان مفعولاً للنبيّ أولأجل النبيّ فأقلّ مافيه أن يكون عليه السلام عالماً به و زكريّا ما كان عنده علم بهذه الوقائع فكيف يجوز جعلها معجزاً له ؟ بل يمكن إرهاصاً لعيسى عليه السلام أو كرامة لمريم .

قوله تعالى : قال كذلك قال ربك هو على هين و لنجعله آية للناس و رحمة و كان امرا مقضيا (٢١) فحملته فانتبذت به مكاناقصيا (٢٢) فاجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت ياليتنى متقبل هذا و كنت نسيا منسيا (٢٣) فناداها من تحتها الا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا (٢٤) و هزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا (٢٥) فكلى و اشربى و قرى عينا فاما ترين من البشر احدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن اكلم اليوم انسيا(٢٦) فاتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقدجئت شيئا فريا (٢٧) يا اخت هارون ما كان ابوك امرء سوء و ما كانت امك بغيا (٢٨) فاشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا (٢٩) قال انى عبدالله آتانى الكتاب و جعلنى نبيا (٣٠) .

المعنى : [قال] لها جبرئيل حين سمع تعجيبها من هذه البشارة : الأمر [كذلك] و كما وصفت لك و إحداث الولد من غير زوج للمرأة سهل منّا لا يشقّ عليّ [ولنجعله

آية] و علامة ظاهرة و آية باهرة [للنّاس] و على نبوّته و براءة على فعل مريم و لنجعله نعمة [منّا] على الخلق يهتدون بسببه [وكان] خلق عيسى [أمراً] كائناً لامحالة محتوماً قضى الله بأنّه يكون .

فحملت مريم بعيسى في الحال . قيل : أخذ جبرئيل ردن قميصها بإصبعه فنفخ فيه فحملت من ساعتها و وجدت حسّ الحمل . و قيل : نفخ في كمّها فحملت . و روي عن الباقر عليه السلام أنّ جبرئيل تناول جيب مدرعتها فنفخ فيه نفخة فكمل الولد في الرحم من ساعته كما يكمل الولد في أرحام النساء تسعة أشهر فخرجت من المستحمّ وهي حامل مثقل فنظرت خالتها فأنكرتها ومضت مريم على وجهها مستحيية من خالتها و من زكريّا و خالتها زوجة زكريّا [فانتبذت به مكاناً قصيّاً] تنحّت بالحمل إلى مكان بعيد حياء من أهلها و خوفاً من أن يتّهموها بسوء .

و اختلفوا في مدّة حملها ؛ فقيل : ساعة . قال ابن عبّاس : لم يكن بين الانتباذ والحمل إلّا ساعة واحدة لأنّه تعالى لم يذكر فصلاً لأنّه قال : فحملته فانتبذت به فأجاءها المخاض ، والفاء للتعقيب . وقيل : كانت مدّة حملها تسع ساعات و هذا مرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام . و قيل : ستّة أشهر . و قيل : ثمانية أشهر و هذا القول : بعيد . قال ابن عبّاس : نظرت مريم إلى أكمة فصعدت مسرعة إليها فإذا عليها جذع نخلة نخرة ليس بها سعف .

فلمّا ولدت قالت : [ياليتني متّ قبل هذا و كنت نسياً منسيّاً] و في التهذيب عن السجّاد عليه السلام خرجت من دمشق حتّى أتت كربلا في موضع قبر الحسين ثمّ رجعت من ليلتها .

قوله : [فأجاءها المخاض] أي ألجأها وجع الولادة إلى جذع النخلة لتستند إليها فلمّا ولدت [قالت ياليتني متّ قبل هذا و كنت نسياً منسيّاً] أي شيئاً متروكاً لم أك في الذكر . قيل : و إنّما تمنّت الموت كراهية أن يظنّوا بها سوءاً .

وفي علّة الانتباذ قالوا وجوهاً : أحدها مارواه الثعلبيّ في العرايس عن وهب قال : إنّ مريم لمّا حملت بعيسى و كانت ثلاثة عشر سنة أو عشرين سنة وكان قد رأت حيضتين وكان مع مريم ابن عمّ لها يقال له : « يوسف النجّار » و هو يعبد في المسجد الّذي كان

تعبد فيه مريم قرب جبل صهيون ولا يعلم في أهل زمانها أحد أشدّ اجتهاداً و عبادة منهما .

و أوّل من عرف حمل مريم يوسف فتحيّر في أمرها فكلّما أراد أن يتّهمها ذكر صلاحها و عبادتها و أنّها لم يغب عنه ساعة قطّ و أنّها ما فترت عن العبادة وقتاً و إذا أراد أن يبرأها رأى الّذي ظهر بها من الحمل فتكلّم يوماً و قال : إنّه وقع في نفسي من أمرك يا مريم شيء أخبريني يا مريم هل نبت الزرع بغير بذر و هل تنبت شجرة من غير غيث و هل يكون ولد من غير ذكر ؟ قالت : نعم ألم تعلم أنّ الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر و هذا البذر إنّما حصل من الذرع الّذي أنبته من غير بذر ألم تعلم أنّ الله أنبت الشجرة من غير غيث و بالقدرة جعل الغيث حياة الشجر بعد ما خلق كلّ واحد منهما على حدة أو تقول : إنّ الله لا يقدر على أن ينبت الشجرة و يخلق الزرع حتّى استعان بالماء والبذر و لولا ذلك ما كان قادراً ؟ فقال يوسف : لا أقول هذا ، ولكنّي أقول : إنّ الله قادر على مايشاء فيقول : كن فيكون . فقالت له مريم : ألم تعلم أنّ الله خلق آدم وامرأته من غير ذكرولا اُنثى ؟ فعند ذلك البيان زالت الشبهة عن قلب يوسف وكان ينوب عنها في خدمة المسجد بسبب الحمل .

فلمّا دنا نفاسها أوحى الله إليها أن اخرجي من أرض قومك لئلاّ يقتلوا ولدك فاحتملها يوسف إلى أرض مصر على حمار له فلمّا بلغت تلك البلاد أدركها النفاس فألجأها إلى أصل نخلة و ذلك في زمان برد فوضعت عندها .

والحديث الصحيح أنّها خرجت بأمر الله إلى كربلا في ليلة واحدة ووضعت ورجعت في ليلتها .

و قيل : السبب في خروجها أنّها كانت مشهورة في بني إسرائيل بالزهد و تشاحّ الناس في تربيتها ثمّ تكفّل زكريّا بها و لأنّ الرزق يأتيها من عند الله و هذه الاُمور والمزايا كلّها في نهاية الشهرة استحت من هذه الواقعة فذهبت إلى مكان بعيد لايراها زكريّا . و هذه الوجوه كلّها محتملة وليس في القرآن ما يدلّ على شيء من السبب .

و معنى المخاض تمخّض الولد في البطن و حركته للولادة .

قال في الكشّاف : جذع نخلة يابسة كانت في الصحراء على اختلاف الصحراء وليس

لها رأس و لا ثمر ولا خضرة وكان الوقت شتاء و إنّ الله أرشد ها إلى هذه النخلة ليطعمها منها الرطب والنخلة لا تثمر إلّا عند اللقاح و لا تلقح ولا تطلع إلّا في الربيع و إذا قطع رأسها لم تثمر قطّ و تموت فالله سبحانه أرشد ها إلى هذه النخلة ليدلّ على جوازظهور الولد من غير حياة و لقاح و أب كما أنّ الرطب حصل من جذع النخلة .

و بالجملة فلو قيل : لمَ قالت : « يا ليتني متّ قبل هذا » مع أنّها كانت تعلم أنّ الله بعث جبرئيل إليها و وعد بأن يجعلها و ابنها آية للعالمين ؟

الجواب قيل : أنساها كربة الغربة . و قيل : إنّ عادة الصالحين إذا وقعوا في بلاء أن يقولوا ، قال أميرالمؤمنين يوم الجمل : يا ليتني متّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة . و عن بلال : ليت بلالاً لم تلده أمّه . و كذا قال عليّ بن الحسين عليه السلام يوم ورد إلى الشام .

و قوله : «نسياً» قرىء بكسر النون أيضاً قيل : معناه خرقة ملقاة من خرق الطمث . قال صاحب الكشّاف : النسي ما من حقّه أن يطرح و يلقى كالذبح اسم لما شأنه أن يذبح . و قيل : الحليب المخلوط بالماء الكثير ينساه أهله لإعراضهم عنه .

و بالجملة قال ابن عباس : فسمع جبرئيل كلامها وعرف جزعها [فناداها من تحتها] وكان أسفل منها تحت الأكمة [ألّا تحزني] و هذا قول جماعة : إنّ المنادي جبرئيل ناداها من سفح الجبل . وقيل : المنادي المولود عيسى : لا تغمّي [قد جعل ربّك تحتك] أي تحت قدميك نهراً تشربين منه شديد الجري تطهّرين به ، قالوا : وكان نهراً قد انقطع الماء عنه فأرسل الله الماء فيه لحاجة مريم و أحيا ذلك الجذع حتّى أثمر وأورق . و قيل : ضرب جبرئيل برجله فظهر ماء عذب . وقيل : بل ضرب عيسى عليه السلام برجله فظهر عين ماء يجري و هو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام . و قيل : السريّ عيسى و معناه الشريف الرفيع .

قوله : [وهزّي إليك بجذع النخلة] أي اجذبي إلى نفسك جذع النخلة و الباء زائدة [تساقط عليك رطباً] طريّاً [جنيّاً] وقرىء بالكسر من الجيم للإتباع فقال الباقر عليه السلام : لم يستشف النفساء بمثل الرطب . و هذه معجزات تنوف على عشرة متوالية معجزة إثر معجزة .

قوله : [فكلي] يا مريم من هذا الرطب [و اشربي] من هذا الماء أو من عصيره

[و قرّي عيناً] أي طيّبي نفساً وبرّدي عينيك سروراً بهذا الولد الّذي عندك لأنّ دمعة السرور باردة و دمعة الحزن حارّة .

قوله : [فامّا ترين] أصله ترأين والاستعمال بغير الهمزة ، و الياء ضمير المؤنّث و إنّما حرّكت الياء لالتقاء الساكنين و هما الياء و النون الأولى و النونان أحدهما نون الرفع و الآخر التأكيد كما تقول : ارضينّ زيداً للمرأة . وإن شرطيّة أي إذا رأيت آدمياً كان من كان فقولي : ان استنطقك و سئلك عن ولدك :

[إنّي نذرت] لله و أوجبت على نفسي صمتاً والصوم على هذا القول : معناه الصمت ، و قيل : الصوم في ذلك الزمان كان يلزمه الصمت و كان في بني اسرائيل من أراد أن يجتهد صام عن الكلام كما يصوم عن الطعام فلا يتكلّم الصائم حتّى يمسي .

[فلن اُكلّم اليوم إنسيّاً] وكان قد أذن لها أن يتكلّم بهذا القدر ثمّ تسكت ولاتتكلّم بشيء آخر . قيل : كان الله أمرها أن تنذر لله الصمت و الصوم و إذا كلّمها أحد تؤمي بأنّها نذرت صمتاً لأنّه لايجوز أن تخبر بالكذب .

قوله : [فأتت] مريم بعيسى وذلك أنّها لفّته في خرقة وحملته إلى [قومها] راجعة إليهم حاملة لعيسى [قالوا] موبّخين لها : [يامريم] لقد فعلت أمراً عظيماً بديعاً منكراً فرى الجلد إذا قطعه . وقيل : إنّ يوسف انتهى بمريم إلى غار فأدخلها فيه أربعين يوماً ثمّ أتت بعد أن طهرت من النفاس و كلّمها عيسى في الطريق وقال : يا اُمّاه ابشري فانّي عبدالله و مسيحه .

و الحاصل لمّا رأوه القوم وبّخوا مريم و أكّدوا توبيخهم ثانياً بقولهم [يا اُخت هارون ماكان أبوك] فيه أقوال :

أحدها أنّ هارون هذا كان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل ينسب إليه كل من عرف بالصلاح ، عن جماعة هذا المعنى مرفوعاً عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم حتّى قيل : إنّه لمّا مات شيّع جنازة هذا الصالح أربعون ألفاً كلّهم يسمّى هارون تبرّكاً باسمه فحينئذ المعنى : يا شبيهة بهارون في الصلاح ماكان هذا الأمر معروفاً عنك .

و **ثانيها** أنّ هارون كان أخاها لأبيها ليس اُمّها و كان معروفاً بحسن الطريقة .

و **ثالثها** أنّ هارون المراد أخو موسى عليه السلام و نسبت إليه لأنّها من ولده و أعقابه و إنّما قيل: يا اُخت كما يقال: يا أخا همدان أي يا واحداً منهم.

و **الرابع** أنّ هارون كان رجلاً معلناً بالفسق فنسبت إليه تشبيهاً لانسبة.

و بالجملة جاء بنو إسرائيل و رأوها أنّ عيسى في صدرها و أقبلن مؤمنات بني - إسرائيل يبزقن في وجهها فلن تكلّمهنّ حتّى دخلت في محرابها فجاء إليه زكريّا وقالت: بنو إسرائيل ما قالت.

[فأشارت] و أومأت مريم إلى عيسى أي هذا الّذي يجيبكم. روي أنّه لمّا أشارت إليه غضبوا غضباً شديداً و قالوا: لسخريّتها بنا أشدّ من زناها.

و في ذلك الوقت كان عيسى يرضع فلمّا سمع ذلك ترك الرضاع و أقبل عليهم بوجهه و اتّكأ على يساره وأشار بسبّابته و كلّمهم بذلك ثمّ لم يتكلّم حتّى بلغ مبلغاً يتكلّم فيه الصبيان. و قيل: إنّ زكريّا عليه السلام لمّا رأى مناظرة اليهود إيّاها فقال لعيسى: انطق بحجّتك إن كنت اُمرت بها فقال عيسى عند ذلك: إنّي عبدالله.

و المراد بالمهد قيل: هو حجرها لما روي أنّها أخذته في خرقة فلمّا رأوها وقعت هذه المحاورات و لم يكن بعد له منزل و مهد معدّ و المراد الّذي من شأنه النوم في المهد كيف نكلّمه؟

فوصف عيسى نفسه بصفات عديدة لأنّ الكلام مثل ذلك الوقت من الرضيع موهم بعض الاُمور فابتدأ عليه السلام ابتداء بما يرفع ذلك الوهم فقال: [إنّي عبدالله] فنصّ على نفسه بالعبوديّة و جعل إزالة هذه الشبهة أولى من إزالة التهمة عن الزنا مع أنّ الله أعطاه هذه القوّة لإزالة تهمة الزنا عن اُمّه.

الصفة الثانية قوله: [آتاني الكتاب] و اختلف الناس فيه الجمهور على أنّه قال هذا الكلام حال ما تكلّم، وقال البلخيّ: إنّما قال حين كان كالمراهق الّذي يفهم. و قيل: إنّه كان في ذلك الصغر نبيّاً. و قيل: إنّ مراده حال صغره، قال: بأنّه سيبعثني نبيّاً.

و احتجّ من نصّ على فساد القول بنبوّته حال صغره باُمور:

أحدها أنّه لو كان نبيّاً في هذا الصغر لكان كمال عقله مقدّماً على ادّعائه للنبوّة إذ النبيّ لابدّ و أن يكون كامل العقل و كمال عقله ذلك الوقت خارق للعادة فيكون المعجز متقدّماً على التحدّي و إنّه غير جائز .

الثاني أنّه لو كان نبيّاً في ذلك الوقت لوجب أن يشتغل ببيان الأحكام و تعريف الشرائع و لو وقع ذلك لاشتهر و لنقل فحيث لم يحصل ذلك علمنا أنّه ما كان نبيّاً في ذلك الوقت .

و أجابوا عن الوجه الأوّل بأنّه إذا أكمل الله عقله قبل دعواه يكون معجزة لزكريّا أو إرهاصاً لنبوّته أو كرامة لمريم . وعن الوجه الثاني أنّه يجوز تجرّد بعثته إليهم من غير بيان شيء من الشرائع ثمّ بعد البلوغ أخذ في شرح الشرائع فحينئذ لايمتنع نبوّته في صغره .

و اختلفوا في الكتاب قيل : هو التوراة لأنّ الألف واللام في الكتاب تنصرف للمعهود والكتاب المعهود لهم هو التوراة . و قيل : المراد الإنجيل لأنّ الألف و اللام للجنس يعني آتاني من هذا الجنس .

الصفة الثالثة قوله : [وجعلني نبيّاً] .

قوله تعالى : و جعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلوة والزكوة مادمت حياً (٣١) و براً بوالدتي و لم يجعلني جباراً شقياً (٣٢) و السلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم ابعث حياً (٣٣) ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون (٣٤) ماكان لله ان يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون (٣٥) .

الصفة الرابعة [و جعلني مباركاً أينما كنت] والبركة في اللغة الثبات وأصله من بروك البعير أي جعلني ثابتاً مستقرّاً على دين الله ويعلّم الناس دينهم و يدعوهم إلى طريق فإن ضلّوا فمن قبل أنفسهم .

عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : أسلمت مريم عيسى إلى المعلّم و قالت : أدفعه إليك على أن لا تضر به . فقال له المعلّم : اكتب . قال عيسى : أيّ شيء أكتب ؟ فقال : اكتب أبجد

فرفع عيسى رأسه و قال : هل تدري‌ما «أبجد» فعلاه المعلّم بالدرّة ليضربه فقال : يامؤدّب لا تضربني إن كنت لاتدري اسألني أنا اُعلّمك : الألف من آلاء الله والباء من بهاء الله والجيم‌من جمال الله والدال من أداء الحقّ إلى الله .

« و جعلني‌مباركاً » أي مادمت في الدنيا صغيراً أكون أو كبيراً مستعلياً بالحجّة و إذا جاء وقت المفارقة عن الكون في الدنيا يكرمني الله بالرفع إلى السماء أو جعلني مباركاًعلى الناس بحيث‌يحصل‌بسبب دعائي إحياء الموتى وإبراء الأكمه و الأبرص .روي أنّه رأته امرأة و هو يحيي الموتى و يبرء الأكمه و الأبرص فقالت : طوبى لبطن حملتك و ثدي أرضعتك ، فقال عيسى عليه‌السلام مجيباً لها : طوبى لمن تلا كتاب الله و اتّبع مافيه و لم يكن‌جبّاراً شقيّاً .

الصفة‌الخامسة : [و أوصاني بالصلاة و الزكاة] فإن قيل : كيف اُمر بالصلاة و الزكاة مع أنّه كان طفلاً صغيراً و القلم مرفوع عنه ؟ فالجواب أنّ الكلام لايدلّ على كون الصلاة و الزكاة عليه في الحال بل بعد البلوغ أو أنّ الله جعله لمّا انفصل عن اُمّه بالغاً كاملاً في العقل مكلّفاً بالأحكام كخلقة آدم تامّاً كاملاً مكلّفاً دفعة . و قوله : [مادمت‌حيّاً] يؤيّد هذا المعنى‌فانّه يفيد أنّ هذا التكليف متوجّه‌عليه في جميع زمان حياته و لم يتغيّر حين كان في الأرض و حين رفع إلى السماء و حين ينزل إلى الأرض مرّة اُخرى .

الصفة السادسة قوله تعالى : [وبرّاً بوالدتي] أي‌جعلني بارّاً و محسناًبهااُؤدّي شكرها في ما قاسته بسببي .

الصفة السابعة : و ما جعلني متكبّراً بل متواضعاً لها ولو كنت جبّاراً لكنت عاصياً شقيّاً قال عيسى : قلبي ليّن و أنا صغير في نفسي . قال بعض أهل المعرفة : لا تجد العاقّ إلاجبّاراًشقيّاً .

الصفة الثامنة [والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوماُ بعث حيّاً] أي‌السلامة عليّ من‌الله في‌هذه‌الأحوال‌الثلاث‌وقدمرّ بيانه في‌أحوال يحيى . و قيل : اللام‌لام التعريف في السلام للعهد يعني‌السلام‌الموجّه إلى يحيى في‌المواطن الثلاث موجّه إليّ أيضاً ، و قال

صاحب الكشّاف: اللام للاستغراق أي و كلّ السلام عليّ و على أتباعي وإنّما قال هذا القول تعريضاً باللعن على من اتّهم مريم أُمّه بالزنا و كان يليق به في هذا المقام مثل هذا التعريض إزالة للشبهة نظير قول موسى عليه السلام: «و السلام على من اتّبع الهدى [(١)]» بمعنى أنّ العذاب على من كذّب وتولّى، فكأنّه سأل ربّه السلامة و طلب منهما أخبر الله فعله بيحيى.

و في هذه الآيات دلالة على أنّه يجوز أن يصف الإنسان نفسه إذا أراد أن يعرّفها إلى غيره لا على وجه الافتخار بل على وجه حاجة لا تنقضي تلك الحاجة إلّا ببيان ذلك الوصف أو في مقام زوال التهمة عن نفسه و أمثال هذه الموارد فإذاً لا بأس بأن يصف الإنسان نفسه و يعرّف غيره بنفسه كما أنّ عيسى لمّا كلّمهم بهذه الكلمات علموا براءة مريم.

و اعلم أنّ اليهود و النصارى ينكرون أنّ عيسى تكلّم في زمان الطفوليّة واحتجّوا عليه بأنّ هذا من الوقائع العجيبة الّتي تتوفّر الدواعي على نقله فلو وجدت لنقلت إلينا بالتواتر و لعرفه النصارى و هم أشدّ الناس بحثاً و غلوّاً في عيسى.

فالجواب أوّلاً أنّ عدم الوجدان عندنقلهم وأخبارهم لا يستلزم عدم الوجود والعقل يحكم على أنّه تكلّم فإنّه لولا كلامه الّذي دلّهم على براءة أُمّه من الزنا لما تركوا في ذلك الزمان إقامة الحدّ على أُمّه و لما سكتوا عن مثل هذا الأمر الفظيع و لما استسلموا الأمر لمريم وما عظّموها هذا التعظيم الوافر بحيث يعرفون لها بالتثليث، والقرآن مصرّح ناطق بنطقه و الإجماع من قاطبة المسلمين، والسنّة مشحونة بهذا الأمر ثمّ إنّه يمكن أن كان الحاضرون حينئذ عند كلام عيسى قليلين و غالط اليهود و قتئذ لعداوتهم و لذلك لم يشتهر عند النصارى و لم يبلغ إلى حدّ التواتر فانقطع الخبر عن الطبقات كما حصل مثل هذا في قصّة شقّ القمر.

قوله تعالى: [ذلك عيسى بن مريم قول الحقّ الّذي فيه يمترون] أي ذلك الّذي قال هذه الكلمات و الموصوف بهذه الصفات الّتي منها إقراره بأنّي عبدالله، عيسى بن مريم و ولد هذه المرأة الموصوفة لا أنّه ابن الله وأنّ كلامه هذا لهو الحقّ المبين، أو المعنى

(١) طه: ٤٧.

أنّ نفس عيسى قول الحقّ لأنّ الحقّ اسم الله فالمعنى أنّ عيسى كلمة الله و لا فرق بين الكلمة و بين القول في هذا المقام .

و هذا البيان لأجل شبهات النصارى حيث بعضٌ أثبتوا الاُلوهيّة وبعضٌ جعلوا فيه جزءاً من الاُلوهيّة ، وبعض اليهود إنّهم أضافوا إليه عليه السلام اُموراً قبيحة فهذا البيان ردّ لعقائدهم الفاسدة و هو معنى قوله : « الّذي فيه يمترون » و يشكّون في حقيقته فكذّبهم الله بقوله :

[ما كان لله] اتّخاذ الولد و لاينبغي له لأنّ الولد لابدّ و أن يكون من جنس الوالد و مشابه و متشاكل له و الله تعالى ليس كمثله شيء و قوله : [من ولد] هذه أي كلمة «من» هذه هي الّتي تدلّ على نفي الواحد و الجماعة .

ثمّ بيّن سبحانه السبب في كون عيسى من غير أب فقال : السبب في تكوين عيسى لا يلزم أن يكون من أب بل السبب إذا قضى أمراً كان و لا يتعذّر عليه شيء إذا أراد حصل بغير سببيّة الاُبوّة بل يحصل بسببيّة الإرادة المحضة فقوله : « ما كان لله أن يتّخذ من ولد » كقولنا : ما كان لله أن يظلم أي لايليق بإلهيّته وهو أمر ممتنع الحصول وبيان جهة امتناعه غير واحد و لاعشرة .

و احتجّ الأشاعرة بقوله : [إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون] على قدم كلام الله قالوا : لأنّ الآية تدلّ على أنّه إذا أراد إحداث شيء « قال له كن فيكون » فلو كان قوله : « كن » محدثاً لافتقر حدوثه إلى قول آخر ولزم التسلسل و كأنّه خلق مخلوق مخلوقاً .

و أجاب المعتزلة بالآية على حدوث الكلام من وجوه :

أحدها أنّه أدخل عليه كلمة «إذا» وهذه الكلمة دالّة على الاستقبال فوجب أن لا يحصل القول إلّا في الاستقبال و هذا هو الحدوث .

والثاني : الفاء في الكلام للتعقيب و الفاء في قوله : « فإنّما يقول له كن » يدلّ على تأخّر ذلك القول عن القضاء والمتأخّر عن غيره محدث .

والثالث الفاء في قوله : « فيكون » يدلّ على حصول ذلك الشيء عقيب ذلك

القول من غير فصل فيكون قول الله متقدّماً على حدوث الحادث تقدّماً بلافصل والمتقدّم على المحدث تقدّماً بلا فصل يكون محدثاً فقول الله محدث.

و بالجملة قال الرازيّ : فقوله : «كن فيكون» من الناس من أجرى الآية على ظاهرها فزعم أنّه تعالى إذا أحدث شيئاً قال له : «كن» و هذا ضعيف لأنّه إمّا أن يقول له «كن» قبل حدوثه أو حال حدوثه، فإن كان قبل حدوثه كان ذلك خطاباً مع المعدوم و هو عبث و إن كان الثاني فهو حال حدوثه قد وجد بالقدرة والإرادة فأيّ تأثير لقوله : «كن» ، و قال آخرون : «كن» عبارة عن نفاذ قدرة الله و مشيّته في الممكنات فإنّ وقوعها بتلك القدرة و الإرادة يجري مجرى العبد المسخّر المطيع لمولاه فعبّر الله عن ذلك المعنى بهذه العبارة على سبيل الاستعارة.

و ههنا بيانٌ مختصرٌ للرازيّ في أقوال النصارى فاعلم أنّ مذهب النصارى متخبّط جدّاً.

روي أنّ عيسى عليه السلام لمّا رُفع إلى السماء بعد أن صلبوه بزعمهم حضر أربعة من أكابر علمائهم فقيل للأوّل : ما تقول في عيسى؟ فقال : هو إلهٌ والله إلهٌ و اُمّه إله فتابعه على ذلك جملةٌ من الناس و هم الإسرائيليّة أهل التثليث. وقال العالم الثاني : هو الله و هم اليعقوبيّة. وقال الثالث : هو ابن الله و هم النسطوريّة. وقال الرابع : هو عبدالله و هم المسلمون منهم. و أظنّ أنّ الّذين نسبوا الابنيّة تشريفاً لا حقيقةً هم النسطوريّة ثمّ قالوا : بالابنيّة حقيقةً بجهلهم بعد مدّة قليلة.

و قد اتّفقوا على أنّه سبحانه ليس بجسم ولا متحيّز ومع ذلك فإنّا نذكر تقسيماً حاصراً يبطل مذهبهم لأنّهم إمّا أن يعتقدوا كونه متحيّزاً أولا فإن اعتقدوا كونه متحيّزاً فيفسد قولهم حدوث الأجسام و حينئذ يبطل كلّ ما فرّعوا عليه و إن اعتقدوا أنّه ليس بمتحيّز فحينئذ يبطل ما يقوله بعضهم من أنّ الكلمة اختلطت بالناسوت اختلاط الماء بالخمر و إسراج النار بالفحم و ذلك لا يعقل إلّا في الأجسام فإذا لم يكن جسماً استحال ذلك، و من النصارى قالت : عيسى ابن الله و هم النسطوريّة و منهم قالت : هو الله هبط إلى الأرض ثمّ صعد إلى السماء و هم اليعقوبيّة و منهم الملكانيّة هو عبد الله

و نبيـّه معتقدهم .

ثمّ للناس في الإنسان قولان : منهم من يقول : هو هذه البنية أو جسم موجودٌ في داخلها ، ومنهم من يقول : إنّه جوهرٌ مجرّد عن الجسميّة و الحلول يكون في الأجسام .

فنقول : هؤلاء النصارى إمّا أن يعتقدوا أنّ الله أوصفة من صفاته اتّحد ببدن المسيح أو بنفسه أو يعتقدوا أنّ الله أوصفة من صفاته حلّ في بدن المسيح أو في نفسه أو يقولوا : لا نقول بالاتّحاد ولا بالحلول ولكن إنّه تعالى أعطاه القدرة على خلق الحياة و الأجسام و القدرة و كان لهذا السبب إلهاً ، أولايقولوا بشيء من ذلك ولكن قالوا : إنّه على سبيل التشريف اتّخذه ابناً كما اتّخذ إبراهيم على سبيل التشريف خليلاً .

فهذه الوجوه المنقولة في هذا الباب والكلّ باطل :

أمّا القول الأوّل بالاتّحاد فهو باطلٌ قطعاً لأنّ الشيئين إذا اتّحدا فهما حال الاتّحاد إمّا أن يكونا موجودين أومعدومين أو يكون أحدهما موجوداً والآخر معدوماً فإن كانا موجودين فهما اثنان لاواحد فالاتّحاد باطل و إن عدما و حصل ثالثٌ فهو أيضاً لا يكون اتّحاداً بل يكون قولاً بعدم ذينك الشيئين و حصول شيء ثالث و إن بقي أحدهما و عدم الآخر فالمعدوم يستحيل أن يتّحد بالموجود لأنّه يستحيل أن يقال : المعدوم بعينه هو الموجود فظهر من هذا البرهان الباهر أنّ الاتّحاد محال .

و أمّا الحلول ففيه مقامان فلا بدّ من البحث عن ماهيّة الحلول حتّى يمكننا أن نعلم أنّه هل يصحّ على الله أولا يصحّ فذكروا للحلول تفسيرات ثلاثة :

أحدها : كون الشيء في غيره ككون ماء الورد في الورد والدهن في السمسم والنار في الفحم ؛ واعلم أنّ هذا باطلٌ لأنّ هذا إنّما يصحّ لوكان الله جسماً وهم وافقونا على أنّه ليس بجسم .

و ثانيها : حصوله في شيء على مثال حصول اللون في الجسم فنقول : المعقول من هذه التبعيّة حصول اللون الّذي هو تابع لذلك الحيّز لحصول محلّه فيه وهذا القسم إنّما يعقل في الأجسام لا في حقّ الله .

و ثالثها : حصوله في الشيء على مثال حصول الصفات الإضافيّة للذوات و هذا

أيضاً باطل لأنّ المعقول من هذه التبعيّة الاحتياج فلو كان سبحانه حلّ في شيء بهذا المعنى لكان محتاجاً و مفتقراً إلى المؤثّر و ذلك محال ولا يتصوّر من الحلول غير هذه الأقسام الثلاثة .

ثمّ احتجّ الأصحاب في المقام الثاني على نفي الحلول مطلقاً بطريق آخر بأن قالوا : لوحلّ سبحانه لحلّ إمّا مع وجوب أن يحلّ أو مع جواز أن يحلّ و القسمان باطلان لأنّه مع فرض وجوب أن يحلّ يقتضي إمّا حدوث الله أوقدم المحلّ و كلاهما باطلان لأنّا دلّلنا على أنّ الله قديم و الجسم محدث .

ثمّ أنّه لوكان حلوله واجباً لكان محتاجاً إلى المحلّ و المحتاج إلى الغير ممكن لذاته و الممكن لايكون واجباً ولو قلنا بجواز أن يحلّ و ذلك أيضاً لايجوز لأنّه لمّا كانت ذاته واجبة الوجود لذاتها و حلوله في المحلّ أمر جائز و الموصوف بالوجوب غير ما هو موصوف بالجواز فيلزم أن يكون حلوله في المحلّ أمراً زائداً على ذاته .

و ذلك محال لوجهين و بيان الوجهين أعرضنا عن تفصيله و من أراد فليراجع المفاتيح للرازيّ في تفسير الآية .

و ذكروا في إبطال قول النصارى وجوهاً اُخر : أحدها أنّهم وافقونا على أنّ ذاته سبحانه لم تحلّ في ناسوت عيسى عليه السلام بل قالوا : الكلمة حلّت فيه و المراد من الكلمة العلم ، فنقول : العلم لمّا حلّ في عيسى ففي تلك الحالة إمّا أن يقال : إنّه بقي في ذات الله أو ما بقي فيها فإن كان الأوّل لزم حصول الصفة الواحدة في محلّين و ذلك غير معقول و إن كان الثاني لزم أن يقال : إنّ الله لم يبق عالماً بعد حلول علمه و ذلك ممّا لا يقوله عاقلٌ .

قال الرازيّ : و قد جرت مناظرة بيني و بين بعض النصارى فقلت له : هل تسلّم أنّ عدم الدليل لايدلّ على عدم المدلول أم لا فإن أنكرت لزمك أن لا يكون الله قديماً لأنّ دليل و جوده هذا العالم فإذا لزم من عدم الدليل عدم المدلول لزم من عدم العالم في الأزل عدم الصانع في الأزل و إن سلّمت أنّه لايلزم من عدم الدليل عدم المدلول فنقول : إذا جوّزت اتّحاد الله بعيسى أو حلولها فيه فكيف عرفت أنّ كلمة الله ما حلّت

في زيد و عمر بل ما حلّت في هذه الهرّة .

فقال النصراني : إنّ هذا الكلام لا يليق بك لأنّا أثبتنا ذلك الاتّحاد والحلول بناءً على ما ظهر على يد عيسى من إحياء الأموات و إبراء الأكمه و الأبرص فإذا لم نجد شيئاً من هذه الآيات على يد غيره فكيف نثبت الاتّحاد أو الحلول ؟

فقلت له : قد عرفت أنّك ما عرفت أوّل الكلام لأنّك سلّمت لي أن عدم الدليل لايدلّ على عدم المدلول فإذا كان هذا الحلول غير ممتنع في الجملة فأكثر ما في الباب أنّه وجد ما يدلّ على حصوله في حقّ عيسى و لم يوجد ذلك الدليل في حقّ زيد وعمر و السنّور ولكن عدم الدليل لايدلّ على عدم المدلول و لايلزم من عدم ظهور هذه الخوارق على يد زيد و الهرّة عدم ذلك الحلول فثبت أنّك مهما جوّزت القول بالاتّحاد والحلول لزمك تجويز حصولهما في حقّ كلّ واحدٍ منهم بل في حقّ كلّ حيوان ونبات والمذهب الّذي يسوق قائله إلى هذا القول الركيك يكون باطلاً قطعاً .

ثمّ قلت له : و كيف دلّ إحياء الموتى و إبراء الأكمه والأبرص على ما قلت ؟ أليس انقلاب العصا ثعباناً أبعد من انقلاب الميّت حيّاً ؟ فإذا ظهر ذلك على يد موسى و لم يدلّ على إلهيّته فبأن لايدلّ هذا على إلهيّة عيسى أولى .

ثمّ تحقيق آخر ههنا و هو أنّا نقول : دلالة أحوال عيسى على العبوديّة أقوى من دلالتها على الربوبيّة لأنّه كان مجتهداً في العبادة والعبادة لاتليق إلّا بالعبيد وأنّه كان عليه السلام في نهاية البعد عن الدنيا و في نهاية الوحشة عنها حتّى زعمت النصارى أنّ اليهود قتلوه و من كان في الضعف هكذا فكيف يليق به الربوبيّة ؟

ثمّ أيّها الّذي تدّعي لعيسى الربوبيّة هل المسيح قديمٌ أوحادثٌ والقول بقدمه باطل بالضرورة لأنّا نعلم أنّه وُلِدَ و كان طفلاً ثمّ صار شابّاً و كان يأكل و يشرب و يعرض له ما يعرض البشر و إن كان محدثاً كان مخلوقاً ولامعنى للعبوديّة إلّا ذلك .

فإن قيل : المعنيّ بإلهيّته أنّه حلّت صفة الإلهيّة فيه .

قلنا : هب إنّه كان كذلك لكنّ الحالّ هو صفة الإله و المسيح هو المحلّ والمحلّ مخلوق محدث والمحلّ غير الحال فمن أين له الربوبيّة ، النهاية أنّ الله منحه بصفة يجري

على يده بقدرة الله و هذا الأمر سار وجار في سائر الأنبياء الأكمل فالأكمل على قدر درجاتهم بل في الأولياء أين التراب و ربّ الأرباب ؟

الخامس أنّ الولد لابدّ و أن يكون من جنس الوالد فإن كان لله ولد فلابدّ أن يكون من جنسه فإذا اشتركا في بعض الوجوه فإن لم يتميّز أحدهما عن الآخر بأمرمّا فكلّ واحد منهما هوالآخر و إن حصل الإمتياز فما به الامتياز غير ما به الاشتراك فلزم وقوع التركيب في ذات الله و كلّ مركب من ممكن فالواجب ممكن وهذا خلفٌ محال .

هذا كلّه على الحلول و الاتّحاد . أمّا الاحتمال الآخر وهوأن يقال : معنى كون عيسى إلهاً أنّ الله خصّ نفس عيسى و بدنه بالقدرة على خلق الأجسام و فعل ما يريد والتصرّف في هذا العالم والمراد من الاُلوهيّة هذا المعنى .

قلنا : هذا أيضاً باطل لأنّه لوكان قادراً على التصرّف في هذا العالم مطلقاً أو كان قادراً على خلق الأجسام لما قدر اليهود على صلبه و كان يذبّ عن نفسه و يخلق لنفسه عسكراً و يعارضهم . بقي احتمال آخر و هو أنّه سبحانه اتّخذه ابناً لنفسه على سبيل التشريف كما قاله قوم من النصارى يقال لهم : الارميوسيّه ، وهذا القول ولو كان فيه خطاء إلّا أنّه ليس فيه خطاء كثير لكنّه قول قبيح وسوء أدب في اللفظ .

فهذا جملة الكلام على النصارى وبهذا البيان ثبت قوله : «إنّي عبدالله» .

قوله تعالى : و أن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم (٣٦) فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم (٣٧) أسمع بهم و أبصر يوم ياتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين (٣٨) و أنذرهم يوم الحسرة اذ قضى الامر و هم في غفلة وهم لايؤمنون (٣٩) انا نحن نرث الارض ومن عليها و الينا يرجعون (٤٠) .

قُرىء إنّ بكسر الهمزة والواو عطف على قول عيسى . تقدير الآية : قال : « إنّي عبدالله آتاني الكتاب و أنّ الله ربّي و ربّكم » كأنّه أخبر قومه عن بعثه و مولده و وصف ربّه بقوله : « إنّ الله ربّي » و يجوز أن يكون إنّ مفتوحة عطفاً على قوله :

« و أوصاني بالصلاة » و أوصاني بأن لا تعبد و اغير ربكم لأن الله ربي وربكم ، ويجوز أن يكون ابتداء كلام من الله أمر نبيه محمد صلى الله عليه وآله بأن يقول لهم :

[إن الله ربي و ربكم فاعبدوه] و هذا الكلام يدل على أن مدبر الناس و مصلح اُمورهم هو الله خلاف قول المنجمين حيث يقولون : إن مدبر الناس ومُصلح اُمورهم في السعادة والشقاوة هي الكواكب ويدل على أن الإله واحد لأن لفظ «الله» اسم علم له سبحانه .

أما قوله : « فاعبدوه » فقد ثبت في اُصول الفقه أن ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعرٌ بالعلّية أي مشعرٌ بعلّية ذلك الوصف للحكم فههنا الأمر بالعبادة وقع مرتباً على ذكر وصف ذاتٍ متصفٍ بصفة الربوبية فدل على أنه إنما تلزمنا عبادته لكونه رباً لنا و منعماً على الخلايق باُصول النعم و فروعها .

قوله : [هذا صراطٌ مستقيم] يعني القول بالتوحيد و نفي الولد و الصاحبة و التثليث و التشريك طريقٌ مستقيمٌ لا اعوجاج فيه و مؤدٍ إلى الحق و الجنة إن شاء الله .

[فاختلف الأحزاب من بينهم] أي تحزبوا أهل الكتاب ، و الحزب المنقطع في رأيه عن غيره فصاروا حزباً حزباً كما ذكرنا من اختلاف علمائهم من اليعقوبية و النسطورية و المثلثة و غيرهم و إنما قال سبحانه : [من بينهم] لأن منهم مَن ثبت على طريق الحق وقيل : «من» زائدة .

[فويلٌ] أي فشدة عذاب و هي كلمة وعيدٍ [للذين كفروا] بقولهم الباطل [من مشهد يومٍ] أي حضورهم ذلك اليوم العظيم و هو يوم القيامة لشدة أهواله و عظم خوفه .

[أسمع بهم و أبصر يوم يأتوننا] و كلمة «بهم» جارٌ و مجرور في موضع رفع وفاعل أسمع أي ما أبصرهم وأسمعهم يوم القيامة و إن كانوا في الدنيا صماً و بكماً و التقدير هؤلاء الكفار صاروا ذوي سمعٍ وبصرٍ غاية وللتعجب صيغتان : ماأفعله وأفعل به والتعجب من الله غير واقع معناه أن هذا الأمر لوصدر من الخلق لكان في موضع العجب كثيراً وبهذا

المعنى يضاف إليه المكر و الاستهزاء و مالا يليق إلى الله .

قوله : [لكن الظالمون اليوم] في الدنيا جاهلون و في الآخرة عارفون حيث لا ينفعهم معرفتهم هذا على أن يكون « أسمع بهم و أبصر » كلمة التعجّب و على قول : الأمر أي اسمع الناس يا محمّد بهولاء الأنبياء و بيّن لهم فيعرفوهم فيؤمنوابهم ولا يضلّوا و القول الأوّل أوجه و أظهر .

[و أنذرهم يوم الحسرة] الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه و آله أي خوّف يا محمّد كفّار مكّة يوم يتحسّر المسيء هلاّ أحسن العمل ؟ و المحسن هلاّ ازداد العمل ؟ وهويوم القيامة و روى مسلم في الصحيح بالإسناد عن أبي سعيدالخدريّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله إذا دخل أهل الجنّة الجنّة وأهل النار النار قيل : يا أهل الجنّة فيشرفون وينظرون فيجاء بالموت كأنّه كبشٌ أملح فيقال لهم : أتعرفون فيقولون : هذا هذا و كلٌّ قد عرفه قال : فيقدّم فيذبح ثمّ يقال : يا أهل الجنّةخلودٌ فلا موت و يا أهل النار خلودٌ فلا موت قال : و ذلك قوله : « و أنذرهم يوم الحسرة » و رواه أصحابنا عن أبي جعفر و أبي عبد الله عليهما السلام ثمّ جاء في آخر الحديث فيفرّح أهل الجنه فرحاً لو كان أحدٌ يومئذ ميّتاً لماتوا فرحاً و يشهق أهل النار شهقةً لو كان أحدٌ ميّتاً لماتوا .

[إذا قضي الأمر] و انقطعت الآمال وأُدخل قوم النار وقوم الجنّة وقيل : حكم بين الخلايق معناه أي قضي على أهل الجنّة الخلود و قضي على أهل النار بالخلود [وهم في غفلة] في الدنيا عن ذلك و مشغولون اليوم بما لا يغنيهم ولا يصدّقون بذلك .

ثمّ أخبر سبحانه عن نفسه فقال : [إنّا نحن نرث الأرض و من عليها] أي نميت سكّانها و نرثها و من عليها من العقلاء يعني نميت مَن يعقل و مَن لا يعقل و نُهلك الجميع فلا يبقي فيها مالكٌ و متصرّفٌ [و إلينا] يردّون بعد الموت إلى حيث لا يملك الأمر و النهي غيرنا .

قوله تعالى : و اذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقاً نبياً (٤١) اذ قال لابيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع و لا يبصر ولا يغني عنك شيئاً (٤٢) يا أبت اني قد جاءني من العلم مالم ياتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً (٤٣)

يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصياً (٤٤) يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً (٤٥) قال أراغب أنت عن الهتى يا ابراهيم لئن لم تنته لارجمنك و اهجرنى ملياً (٤٦) قال سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفياً (٤٧) و اعتزلكم و ما تدعون من دون الله و ادعوا ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً (٤٨) فلما اعتزلهم و ما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحاق و يعقوب و كلا جعلنا نبياً (٤٩) و وهبنا لهم من رحمتنا و جعلنا لهم لسان صدق علياً (٥٠) .

النظم : هذه هي القصّة الثالثة بعد قصّة زكريّا و عيسى والغرض بيان التوحيد و النبوّة و الحشر .

و أعلم أنّ المشركين فريقان فمنهم من أثبت معبوداً سوى الله حيّاً عاقلاً فاهماً و هم النصارى و منهم من أثبت معبوداً غير الله جماداً ليس بحيّ ولا عاقلٍ ولا فاهم و هم عبدة الأوثان . و الفريقان و إن اشتركا في الضلال إلّا أنّ ضلال فريق الثاني أعظم و أقبح فلمّا بيّن تعالى الفريق الأوّل بيّن ضلال فريق الثاني و هم عبدة الأوثان فقال :

[و اذكر في الكتاب] و الواو عطف على قوله « ذكر رحمة ربّك عبده زكريّا » أي بعد ذكر حال زكريّا و عيسى فاذكر حال إبراهيم و إنّما أمر بذكره لأنّه عليه السلام ما كان هو و قومه و لا أهل بلدته مشتغلين بمطالعة الكتب فإذا أخبر عن هذه القصّة من غير زيادة و نقصان كان ذلك إخباراً عن الغيب و معجزاً قاهراً على نبوّته .

و لأنّه كان إبراهيم أب العرب فكأنّه قال : إن كنتم مقلّدين لآبائكم على قولكم « إنّا وجدنا آباءنا على اُمّة و إنّا على آثارهم مقتدون [١] » فأشرف آبائكم و أجلّهم إبراهيم فقلّدوه أيضاً في ترك عبادة الأوثان فإن كنتم من المستدلّين فانظروا في هذه الدلائل الّتي ذكرها إبراهيم لتعرفوا فساد عبادتكم و إمّا تقليداً له لأنّ كثيراً من قومه صلى الله عليه وآله وسلم في زمانه كانوا يقولون : كيف نترك دين آبائنا و أجدادنا .

(١) الزخرف : ٢٣ .

خلق فيترك و ما يعزب عن علمه مثقال ذرّة .

و قيل : [و ما كان ربّك نسيّاً] ابتداء كلام منه تعالى في مخاطبة الرسول ، و يتّصل به [ربّ السماوات و الأرض و ما بينهما فاعبده] فأمره بالعبادة و المصابرة على مشاقّ التكليف و الإبلاغ .

فإن قيل : إذا كان قوله : « و ما نتنزّل إلّا بأمر ربّك » كلام غيره فكيف جاز عطف هذا على ما قبله و هو قوله : « تلك الجنّة الّتي نورث من عبادنا من كان تقيّاً » من غير فصل ؟

فالجواب إذا كانت القرينة ظاهرة لم يضرّ كما في قوله تعالى : « و إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون [(١)] » هو كلام و قوله : « و أنّ الله ربّي و ربّكم [(٢)] » كلام غير الله وأحدهما معطوف على الآخر .

وبالجملة ثمّ خاطب نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم [هل تعلم] لربّك [سميّاً] أي من يكون مثلاً و شبيهاً في القدرة ويكون لهعلامة مثله ويستحقّ أن يكون إلهاً إلّا هو ؟ وهذا استفهام بمعنى النفي أي لا تعلم من يسمّى و يتّسم بصفة القدرة و الخلق و الرزق و الإحياء و الإماتة و الثواب و العقاب فإذا كان الأمر كذلك فالزم عبادته و اصطبر عليها .

قوله تعالى : و يقول الانسان ائذ امامت لسوف اخرج حياً (٦٦) أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل و لم يك شيئاً (٦٧) فوربك لنحشرنهم و الشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً (٦٨) ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيـاً (٦٩) ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً (٧٠) .

هذه الآية جواب لمنكري الحشر و يكذّبون القيامة و إذا كان كذلك فما فائدة العبادة و قد أمر بالعبادة ؟ فلهذا حكى الله قول منكري الحشر .

و المراد بالإنسان نوع القائلين بعدم البعث و لو أنّ كلّ نوع الإنسان لا يقول بهذا القول : لأنّه لمّا كانت هذه المقالة موجودة في نوعهم صحّ إسنادها إلى جميعهم

(١) البقرة : ١١٨ . آل عمران : ٤٧ مريم : ٣٥ . المؤمن : ٦٨ .
(٢) آل عمران : ٥١ .

كما يقال : بنو فلان قتلوا فلاناً و إنّما كان القاتل رجلٌ منهم أو أنّ هذا الاستبعاد ابتداءً موجود في طبع كلّ إنسان إلّا أنّ بعضهم ترك الاستبعاد المبنيّ على الطبع بالدلالات القاطعة الّتي قامت على صحّة القول به .

هذا إذا كان المراد نوع الإنسان و إذا كان المراد شخص مخصوص كما قيل : إنّها نزلت في اُبيّ بن الخلف الجمحيّ و ذلك أنّه أخذ عظماً بالياً فجعل يفتّته بيده ويذريه في الريح و يقول : يزعم محمد أنّ الله يبعثنا بعد أن نموت و نصير عظاماً مثل هذا إنّ هذا شيء لا يكون أبداً و هذا استفهام بطريق الإنكار و الاستهزاء [أئذاما متّ لسوف اُخرج حيّاً] .

مجيباً لهذا الكافر : أولا يتذكّر هذا الإنسان القائل الجاحد حال ابتداء خلقه ليستدلّ بالابتداء على الإعادة كما بدأنا هم أوّل مرّة نعيدهم ثاني مرّة فحصول البدء من العدم يدلّ على إمكان العود فرضاً من العدم .

قال بعض المتكلّمين : لو اجتمع كلّ الخلائق على إقامة حجّة في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها إذ لا شكّ أنّ الإعادة ثانياً أهون من الإيجاد أوّلاً و هذا معنى إعجاز القرآن .

أولم يتذكّر و يتدبّر هذا الإنسان [لم يك من قبل شيئاً] موجوداً حيّاً أي قدّرناه في العلم حيث كان الله و لم يك معه شيء فكلّ يعلم هذا الأمر .

ثمّ أردف الدليل بالتهديد بالقسم و العادة جارية بتأكيد الخبر باليمين و في هذا اليمين و الإضافة تفخيم لشأن الرسول و رفع لدرجته . و الواو في [والشياطين] يجوز أن يكون للعطف وأن يكون بمعنى «مع» وبمعنى مع أوقع أي أنّهم مع قرنائهم من الشياطين الّذين أغووهم يقرن كلّ كافر مع شيطان في سلسلة .

[ثمّ لنحضرنّهم حول جهنّم جثيّاً] باركين على ركبهم كصورة الذليل العاجز وهذا الإحضار يكون قبل إدخالهم جهنّم .

[ثمّ لننزعنّ من] كلّ جماعةٍ وفرقةٍ شايعت و تبعت غاوياً من الشياطين والغواة من كان أشدّ عتوّاً وتمرّداً .

[ثمّ لنحن أعلم بالّذين هم أولى] بالنار [صليّاً] عذاباً و بلزوم النار الأعتى فالأعتى منهم و العتيّ من العتوّ .

قوله تعالى : و ان منكم الا واردها كان على ربك حتماً مقضياً (٧١) ثم ننجي الذين اتقوا و نذر الظالمين فيها جثياً (٧٢) و اذا تتلى عليهم اياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً و أحسن ندياً (٧٣) و كم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا و رئيا (٧٤) قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً حتى اذا رأوا ما يوعدون اما العذاب و اما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا و أضعف جنداً (٧٥) .

المعنى : لمّا بيّن سبحانه في الآية السابقة بيان الحشر فقال : وما من أحدمنكم إلّا وارد جهنّم .

و اختلف العلماء في معنى الورود فقال بعضهم : لايجوز للمؤمنين أن يردو النار و الدليل على أنّ المراد بالورود القرب لا الدخول قوله تعالى : « إنّ الّذين سبقت لهم منّا الحسنى اُولئك عنها مبعدون[1] » و المبعد عنها لا يوصف أنّه واردها . الثاني قوله تعالى : « لا يسمعون حسيسها [2] » و لو وردوا جهنّم لسمعوا حسيسها . الثالث قوله : « و هم من فزع يومئذ آمنون[3] » فهذه الآيات تدلّ على أنّ المراد بالورود غير الدخول .

واحتجّوا أيضاً على أنّ الورود قديراد به القرب لقوله تعالى : « فأرسلوا واردهم [4] » ومعلوم أنّ ذلك الوارد ما دخل الماء و قال تعالى : « ولمّا ورد ماء مدين وجد عليه اُمّة من الناس يسقون [5] » وأرادبه القرب و يقال : وردت القافلة البلدة وإن لم تدخلها ، فعلى هذا معنى الآية أنّ الإنس والجنّ يحضرون حول جهنّم .

كان ذلك على ربّك حتماً مقتضياً واجباً . ثمّ ننجّي الّذين اتّقوا و نبعدهم عن جهنّم وهو المراد من قوله تعالى : « اُولئك عنها مبعدون » .

---

(١) الانبياء : ١٠١ . (٢) الانبياء : ١٠٢ .
(٣) النمل : ٨٩ . (٤) يوسف : ١٩ .
(٥) القصص : ٢٢ .

وقال الأكثرون : إنّ المراد بالورود الدخول ويدلّ عليه الآية والخبر :

أمّا الآية فقوله : « إنّكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنّم أنتم لها واردون [١] » وقال تعالى : « فأوردهم النار و بئس الورد المورود [٢] » و يدلّ عليه قوله : « اُولئك عنها مبعدون » والمبعد وهو الّذي لولا التبعيد لكان في النار .

وقوله : [ونذر الظالمين فيها جثيّاً] وهذا يدلّ على أنّهم قد دخلوا النار .

وأمّا الخبر فهو أنّ عبدالله بن رواحة قال للنبيّ صلى الله عليه وآله : أخبر الله عن الورود ولم يخبر عن الصدور فقال صلى الله عليه وآله : يا ابن رواحة اقرأ مابعدها « ثمّ ننجّي الّذين اتّقوا » . وذلك يدلّ على أنّ ابن رواحة فهم من الورود الدخول و النبيّ صلى الله عليه وآله ماأنكر عليه في ذلك .

وعن جابر أنّه سئل عن هذه الآية فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : الورود الدخول لايبقى برّ ولا فاجر إلّا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً حتّى أنّ للناس ضجيجاً من بردها فحينئذ المؤمنون يدخلون النار من غير خوف و ضرر بل مع الغبطة والسرور لأنّ الله أخبر عنهم « أنّهم لايحزنهم الفزع الأكبر [٣] » و لأنّ الآخرة دار الجزاء لادار التكليف ، وإيصال الغمّ والحزن إنّما يجوز في دار التكليف .

وقد وردت الرواية عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّ الملائكة يبشّر في القبر من كان من أهل الثواب بالجنّة حتّى يرى مكانه في الجنّة ويعلمه .

ثمّ اختلفوا في أنّه كيف يندفع عنهم ضرر النار فقال بعضهم : البقعة الّتي سمّيت جهنّم لا يبعد أن يكون في خلالها مالا نار فيه و يكون من المواضع الّتي يسلك فيها إلى دركات جهنّم و إذا كان كذلك لم يمتنع أن يدخل الكلّ في جهنّم فالمؤمنون يكونون في تلك المواضع الخالية عن النار و الكفّار يكونون في النار أو أنّ الله يخمد النار فيعبرها المؤمنون و تنهار بالكافرين .

---

(١) الانبياء : ٩٨ .

(٢) هود : ٩٩ .

(٣) الانبياء : ١٠٣ .

قال ابن عبّاس : يردونها كأنّها هالة أو أنّ حرارة النار ليست بطبعها فالأجزاء الملاصقة لأبدان الكفّار يجعلها الله عليهم موذية محرقة و الأجزاء الملاصقة لأبدان المؤمنين يجعلها الله برداً و سلاماً كما في حقّ إبراهيم و كما أنّ الكوز الواحد من الماء كان يشربه القبطيّ فكان يصير دماً والاسرائيليّ يشربه فكان يصيرماءً عذباً كما أنّه لابدّ من أحد هذه الوجوه في الملائكة الموكّلين بالعذاب حتّى يكونوا في النار مع المعاقبين .

فإن قيل : إذا لم يكن على المؤمنين عذاب في دخولهم النار فما الفائدة في ذلك ؟

فيه وجوه : أحدها أنّ ذلك ممّا يزيدهم سروراً إذا علموا الخلاص منه وفيه مزيد غمّ للكافرين حيث يرون المؤمنين الّذين هم أعداؤهم يتخلّصون منها و هم يبقون فيها وأنّ المؤمنين كانوا يخوّفونهم من النار و الحشر والنشر و ما كانوا يقبلون منهم الدلائل فإذا دخلوا جهنّم معهم أظهروا لهم أنّهم صادقين و الغلبة على الخصم من اللذائذ لهم و مزيد العذاب عليهم ، ثمّ إنّ المؤمنين إذا شاهدوا ذلك العذاب صار ذلك سبباً لمزيد التذاذهم بنعيم الجنّة كما قيل : «و بضدّها تتبيّن الأشياء» فقوله تعالى : « اُولئك عنها مبعدون » المراد : عن عذابها مبعدون ؛ فلا ينافي الدخول .

قوله تعالى : [كان على ربّك حتماً مقضيّاً] كائناً لا محالة واقعاً قد قضى به و كلمة « على » معناه الوجوب و المحتوم و فيه دلالة على أنّه يجب عليه سبحانه أشياء من طريق الحكمة و اللطف خلافاً لما ذهب إليه أهل الجبر .

[ثمّ ننجّي الّذين اتّقوا] قال ابن عبّاس : أي الّذين اتّقوا الشرك و صدّقوا و آمنوا ، قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : يرد الناس النار ثمّ يصدرون بأعمالهم فأوّلهم كالبرق اللامع ثمّ كمرّ الريح ثمّ كمحضر الفرس ثمّ كالراكب ثمّ كشدّ الرحل و عدوه ثمّ كمشيه .

و عن رسول الله مرفوعاً : تقول النار للمؤمن يوم القيامة : جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي .

[و نذر الظالمين فيها] جاثين و في الاعتقادات رُوي أنّه لا يصيب أحداً من أهل التوحيد ألم من الدخول في النار إذا دخلوها و إنّما يصيبهم الألم عند الخروج منها فتكون تلك الآلام جزاء بما كسبت أيديهم « و ما الله بظلّام للعبيد » .

و من المعتزلة مَن تمسّك في الوعيد بقوله : « و نذر الظالمين فيها جثيّاً » ولفظ

« الظالمين » لفظ جمع دخل عليه حرف التعريف فيفيد العموم انتهى .

قوله تعالى : [و إذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات] أي إذا تتلى على الكافرين آياتنا المنزلة في القرآن ظاهرات الحجج بحيث يمكن تفهّمها [قال الّذين كفروا للّذين آمنوا أيّ الفريقين خيرٌ مقاماً و أحسن نديّاً] لو كنتم أنتم على الحقّ و كنّا على الباطل لكان حالكم في الدنيا أحسن و أطيب من حالنا ، و يوقعون هذه الشبهة في الناس وكانوا يقولون : إنّ الحكيم لا يليق به أن يوقع أوليائه المخلصين في الذلّ و الفقر و العذاب و أعداءه المعرضين عن خدمته في العزّ و الراحة و لمّاكان الأمر بالعكس وكان الكفّار في النعمة و الراحة و الاستعلاء و المؤمنون في ذلك الوقت في الخوف و الذلّ لبسوا على الضعفاء بأنّهم على الحقّ .

روي أنّهم كانوا يرجّلون شعورهم و يدّهنون و يتطيّبون و يتزيّنون بالزينة الفاخرة ثمّ يدّعون مفتخرين على فقراء المؤمنين أنّهم أكرم على الله ، فأجاب الله عن شبهتهم بقوله :

[و كم أهلكنا قبلهم من قرن] بأنواع العذاب فلو دلّ حصول النعمة على كونه محبوباً صاحبه عند الله لوجب أن لا يعذّبهم ولا يصل إليهم مكروهاً و اُولئك الّذين أصابهم المكروه و العذاب منّا كانوا أجمل و أكثر مالاً منكم و متاعاً و مقاماً [و رئياً] أي هيئةً و منظراً . و قُرىء « ريّاً » على القلب وريّاً من النعمة والترفّة ، و قُرىء بالزاي اُخت الراء من الزيّ والمعنى : محاسن مجموعة و الشأن .

[قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدّاً] هذا هو الجواب الثاني عن تلك الشبهة و تقريره أنّه نفرض أنّ هذا الضّالّ المتنعّم في الدنيا قد مدّ الله في أجله و أمهله مدّة مديدة فلا بدّ و أن ينتهي إلى العذاب إمّا في الدنيا و إمّا في الآخرة بعد ذلك .

[فسيعلمون] بعد ما رأوا العذاب أنّ الأمر بعكس ماز عموا وقوله : [مَن هو شرّ مكاناً] مذكور في مقابلة « خير مقاماً » و قوله : [أضعف جنداً] في مقابلة قولهم : « أحسن نديّاً » و الحاصل أنّهم و إن ظنّوا في الحال أنّ منزلتهم أفضل من حيث إنّه

فضّلهم الله بالمقام والنديّ فسيعلمون أنّهم شرّ مكاناً لأنّه لا مكان شرّ من النار .

و قوله : « فليمدد » أمرٌ معناه الخبر و تأويل المعنى أنّ من كان في الضلالة و اختار ها على الهدى حقّه أن نمدّ له و نتركه فيها كقوله : « و نذرهم في طغيانهم يعمهون (١) » و لفظ الأمر يؤكّد معنى الخبر فكأنّ المتكلّم يقول : أفعل ذلك لأجل ذا .

و بالجملة اُخرج الخبر بلفظ الأمر إيذاناً بوجوب ذلك و وقوعه لقطع معاذ يرهم ويقال لهم : أولم نعمّركم لتتأمّلون و تنبّهون ؟

وقوله : [حتّى إذا رأوا مايوعدون إمّا العذاب] قيل المراد عذاب الاستيصال . وقيل : عذاب القبر . و قيل : عذاب السيف والذلّ . والمراد من العذاب غيرعذاب القيامة [وإمّا] عذاب [الساعة] فهو أوّل عذاب القيامة فهذه معاملتنا مع الكفّار .

قوله : و يزيد الله الذين اهتدوا هدى و الباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً و خير مرداً (٧٦) .

في الكافي عن الصادق عليه السلام قال : كلّهم كانوا في الضلالة الّذين لا يؤمنون بولاية عليّ حتّى إذا رأوا ما يوعدون بخروج القائم و ما ينزل بهم من العذاب فسيعلمون من هو إلخ . و أمّا مع المؤمنين [فيزيد الله] المهتدين بالإيمان والتصديق بالنبوّات [هدىً] على هداهم مثلاً الإيمان هدىً و الإخلاص في الإيمان زيادة هدىً .

هذا إذا فسّرنا الهداية على ظاهره و إذا فسّرنا الهداية على الثواب فواضح .

ثمّ شرح سبحانه أنّ المهتدين الّذين يعملون الأعمال الصالحة الباقية و تدوم ولا تبطل وهي الإيمان و الفرائض و السنن كالصلوات و الصلاة و التسبيح .

و عن أبي الدرداء قال : جلس رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ذات يوم و أخذ عوداً فأزال الورق عنه ثمّ قال : إنّ قول لا إله إلّا الله والله أكبر و سبحان يحطّ الخطا يا حطّاً كما يحطّ ورق هذه الشجرة الريح خذهنّ يا أباالدرداء قبل أن يحال بينك وبينهنّ ، هنّ الباقيات الصالحات و هنّ من كنوزالجنّة . وكان أبوالدرداء يقول : لأعملنّ ذلك و لأكثرنّ منه حتّى إذا رآني جاهل حسب أنّي مجنون .

---

(١) الانعام : ١١٠ .

والمراد أنّها خير ممّا ظنّه الكفّار بقولهم : « خير مقاماً و أحسن نديّاً » فأخبر أنّها خير ثواباً وخير مرجعاً .

قوله : أفرأيت الذى كفر بآياتنا و قال لاوتين مالا و ولداً (٧٧) أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً (٧٨) كلا سنكتب ما يقول و نمد له من العذاب مداً (٧٩) و نرثه ما يقول و ياتينا فرداً (٨٠) .

النزول : عن خباب بن الأرت قال : كان لي على عاص بن وائل دينٌ فاقتضيته و كنتُ رجلاً غنياً فلمّا أتيته أتقاضاه قال لي : لا أقضيك حتّى تكفر بمحمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم فقلت له : لن أكفر به حتّى نموت و نبعث قال عاص : فإنّي لمبعوث بعد الموت فسوف أقضيك دينك إذا رجعت . فنزلت الآية .

لمّا ذكر سبحانه الدلائل على صحّة وشبهة المنكرين[1] ذكر ماذكروه على سبيل الاستهزاء طعناً في القول بالحشر فقال :

[أفرأيت] و هذه الكلمة تستعمل في التعجّب و معناه : أرأيت هذا الكافر الّذي كفر بأدلّتنا من القرآن و مَن هو مثله و بصفته في الكفر [قال] على سبيل الاستهزاء : لأُعطينّ [مالاً و ولداً] ألستم تزعمون أنّ في الجنّة الذهب و الفضّة و الحرير ؟ قال خباب : بلى قال : فموعد مابيني وبينك الجنّة فوالله لأُوتينّ فيها خيراً مما اُوتيت في الدنيا فأنكر الله سبحانه عليه وقال :

[أطّلع الغيب] و بلغ شأنه إلى أن ارتقى إلى عالم الغيب حتّى ادّعى أنّه يؤتى في الآخرة مالاً و ولداً و تألّى عليه [أم اتّخذ عندالله عهداً] قيل : بعمل صالح ٍ أم عهدالله إليه أنّه يدخل الجنّة . و قيل : أم قال : لا إله إلّا الله فيرحمه الله بها .

[كلّا] و كلّا تستعمل بمعنى « لا » و هو معنى الإنكار و الردع ، و تارة تستعمل بمعني « ألا » للتنبيه فقال سبحانه : ليس الأمر كذلك [سنكتب] أي سنأمر الحفظة بإثبات [ما يقول] لنُجازيه عليه [ونمدّ له من العذاب مدّاً] أي نصل إليه بعض العذاب بالبعض و نزيد عذاباً فوق العذاب دائماً .

[و نرثه ما يقول] أي نرث ما عنده من المال والولد بإهلاكنا إيّاه لأنّه

(١) كذا .

كان يقول : « لأُوتين مالاً وولداً » فيقول الله : نحن نرث المال والولد و يبقى في الآخرة وحيداً بلاعدة ولا عدد يأتينا فنعدّ به .

قوله تعالى : و اتخذوا من دون الله الهة ليكونوا لهم عزآ (٨١) كلا سيكفرون بعبادتهم و يكونون عليهم ضدآ (٨٢) ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا (٨٣) فلا تعجل عليهم انما نعدلهم عدآ (٨٤) يوم نحشر المتقين الى الرحمن و فدآ (٨٥) و نسوق المجرمين الى جهنم وردآ (٨٦) لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدآ (٨٧) وقالوا اتخذ الرحمن ولدآ (٨٨) لقد جئتم شيئاً ادا (٨٩) تكادالسموات يتفطرن منه و تنشق الارض و تخر الجبال هدا (٩٠) ان دعوا للرحمن ولدآ (٩١) و ما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدآ (٩٢) .

المعنى : حكى الله عن عبدة الأصنام أنّهم إنّما اتّخذوا آلهة لأنفسهم ليكونوا عزّآ لهم حيث يكونون لهم شفعاء في الآخرة و ليصيروا بسببهم إلى العزّ أو ليمنعوهم منّي و ينقذوهم من المهالك فأجاب الله بقوله :

[كلاّ] و هو ردعهم من هذا الاعتقاد و قرء ابن نهيك : كلاً أي كلّهم [سيكفرون بعبادتهم] أي ليس الأمر كما زعموا بل صاروا بهم إلى الذلّ والعذاب .

و اختلفوا في الضمير في « يكفرون » قيل : إلى المعبود و قالوا : إن الله يحيي هذه الأصنام يوم القيامة حتّى يوبّخوا عابديهم و يتبرّؤوا منهم فيكون ذلك أعظم لحسرتهم .

و من الناس يقولون : إنّ الضمير يرجع إلى العابدين أي إنّ المشركين يوم القيامة ينكرون أنّهم عبدوا الأصنام .

أمّا قوله : [و يكونون عليهم ضدّاً] فذكر ذلك في مقابلة قوله : « لهم عزّاً » أي يكونون عليهم ضدّ ماقصدوه . والضدّ يكون واحداً وجمعاً كالعدوّ .

و لمّا ذكر حال المشركين مع الأصنام ذكر بعده حالهم مع الشياطين في الدنيا فإنّهم ينقادون للشياطين فقال : [ألم تر أنّا أرسلنا الشياطين] أي خلّينا بينهم و بين الشياطين إذا وسوسوا إليهم .

قال القاضي : إذا حملنا لفظ الإرسال على الحقيقة فكان يجب في الكافر أن يكون بقبوله من الشيطان مطيعاً لله وذلك كفر لأنّ الكافر لايكون إلّا عاصياً متمرّداً ، و هذه التخلية تسمّى إرسالاً في سعة اللغة كما إذا لم يمنع الرجل كلبه من دخول بيت جيرانه يقال : أرسل عليه كلبه ، و إن لم يرد أذى جاره ، وهذه التخلية وإن كان فيها تشديد للمحنة عليهم و لكنّهم متمكّنون من أن لايقبلوا منهم و يكون ثوابهم على ترك القبول أعظم و الدليل عليه قوله : « وما كان لي عليكم من سلطان إلّا أن دعوتكم فاستجبتم لي (١) » و ذلك مثل جعل قوّة الزنا في الإنسان لكنّه لايضطرّ الإنسان بجعل القوّة إلى الزنا بحيث لم يتمكّن من تركه .

قوله تعالى : [تؤزّهم أزّاً]أي تزعجهم إزعاجاً من الطاعة إلى المعصية . الأزّ والهزّ والاستفزاز أخوات في معنى التهييج أي تغريهم و تحثّهم بالوساوس و التسويلات تقول لهم : امض امض لا يفوتك هذا الأمر ، حتّى توقعهم في النار .

[فلا تعجل عليهم إنّما نعدّ لهم عدّاً] معناه فلتطب نفسك يا محمد و لا تستعجل لهم العذاب فإنّ مدّة بقائهم قليلة فإنّا نعدّ لهم الأيّام و السنين و الأنفاس و ما دخل تحت العدّ إلى الأجل الّذي أجّلناه لعذابهم . نزلت في المستهزئين بالقرآن وهم خمسة رهط ، وكان ابن عبّاس إذا قرأ الآية بكى و قال : آخر العدد خروج نفسك آخر ، العدد دخول قبرك ، آخر العدد فراق أهلك . قال ابن السماك : إذا كانت الأنفاس بالعدد و لم يكن لها مدد فما أسرع ماتفقد .

[يوم نحشر المتّقين إلى الرحمن وفداً] ثمّ بيّن حال ماسيعدّ للمتّقين والمجرمين فقال : « يوم نحشر » أي اذكر يوم نحشر المتّقين إلى محلّ كرامة الرحمن و إلى دار ثوابه وفوداً و جماعات ؛ عن أمير المؤمنين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : والّذي نفسي بيده إنّ المتّقين و هم الّذين اجتنبوا الشرك والمعاصي في الدنيا إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة عليها رحال من الذهب .

[و] كذلك [نسوق المجرمين] على المسير [إلى جهنّم ورداً] عطاشاً كالإبل الّتي

(١) سورة ابراهيم : ٢٢ .

ترد عطاشاً إلى الماء و هم يساقون بإهانة و استخفاف و « الورد » اسم للعطاش لأنّ من يرد الماء لايرده إلّا للعطش وحقيقة الورود السير إلى الماء فسمّي به الواردون ، ذكر السبب و أراد المسبّب .

فلو قيل : إنّ الكلام يستقيم في قوله : « يوم نحشر المتّقين إلى الرحمن » إذا كان الحاشر غير الرحمن فالجواب أنّ التقدير : إلى كرامة الرحمن .

[لايملكون الشفاعة] قيل : فلا يشفّعون ولا يشفع لهم و لكنّ الظاهر أنّ أحداً لا يملك أن يشفع لهم لأنّ معنى الأوّل يجري مجرى إيضاح الواضحات و إذا ثبت ذلك دلّت الآية على حصول الشفاعة لأهل الكبائر لأنّه قال عقيبه :

[إلّا من اتّخذ عند الرحمن عهداً] والتقدير : إنّ هؤلاء لايستحقّون أن يشفع لهم غيرهم إلّا اذا كانوا قد اتّخذوا عند الرحمن عهداً للتوحيد والنبوّة .

و ممّا يؤكّد قولنا ما روى ابن مسعود أنّه صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه ذات يوم : أيعجز أحدكم أن يتّخذ كلّ صباح ومساء عند الله عهداً ؟ قالوا : و كيف ذلك ؟ قال : يقول كلّ صباح ومساء : اللّهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة إنّي أعهد إليك بأنّي أشهد أن لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك و أنّ محمّداً عبدك و رسولك فإنّك إن تكلني إلى نفسي تقرّبني من الشرّ وتبعّدني من الخير و إنّي لا أثق إلّا برحمتك فاجعل لي عهداً توفّيته يوم القيامة إنّك لاتخلف الميعاد ، فإذا قال ذلك طبع الله عليه بطابع و وضع تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى مناد : أين الّذين لهم عند الرحمن عهدٌ فيدخلون الجنّة؟

فظهر بهذا الحديث أنّ المراد من العهد كلمة الشهادة و ظهر وجه دلالة الشفاعة في الآية لأهل الكبائر خلافاً للقاضي عبدالجبّار المعتزليّ .

و في الآية قول آخر أنّ معنى « إلّا من اتّخذ عند الرحمن عهداً » أي إلّا من وعد له الرحمن بإطلاق الشفاعة كالأنبياء و الشهداء والعلماء و المؤمنين على ما ورد به الأخبار .

قال عليّ بن إبراهيم بن هاشم في تفسيره : حدّثني أبي عن الحسن بن محبوب عن سليمان بن جعفر عن أبي عبد الله عن آبائه عليهم السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من لم يحسن وصيّته عند الموت كان نقصاناً في مروءته قيل : يا رسول الله و كيف يوصي الميّت ؟

قال : إذا حضرته الوفات و اجتمع الناس إليه قال : اللّهمّ فاطر السماوات و الأرض عالم الغيب و الشهادة الرحمن الرحيم اللّهمّ إنّي أعهد إليك في دار الدنيا إنّي أشهد أن لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك و أنّ محمّداً عبدك و رسولك و أنّ الجنّة حقّ و أنّ النار حقّ و أنّ البعث حقّ و الحساب حقّ و القدر حقّ و الميزان حقّ و أنّ الدين كما وضعت و أنّ الإسلام كما شرّعت و أنّ القول كما حدّثت و أنّ القرآن كما أنزلت و أنّك أنت الله الحقّ المبين جزى الله محمّداً عنّا خير الجزاء وحيّى الله محمّداً و آله بالسلام اللّهمّ يا عدّتي عند كربتي و يا صاحبي عند شدّتي و يا وليّ نعمتي إلهي و إله آبائي لا تكلني إلى نفسي طرفة عين فإنّك إن تكلني إلى نفسي أقرب من الشرّ و أبعد من الخير و آنس في القبر وحشتي و اجعل لي عهداً يوم ألقاك منشوراً ، ثمّ يوصي بحاجته و تصديق هذه الوصيّة في سورة مريم في قوله : « لا يملكون الشفاعة إلّا من اتّخذ عند الرحمن عهداً » فهذا عهد الميّت و الوصيّة حقّ على كلّ مسلم و حقّ عليه أن يحفظ هذه الوصيّة و يعملها فقال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : علّمنيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و قال : علّمنيها جبرئيل .

وعن أبي حمزة عن أحدهما عليهما السلام قال : إنّ الله يقول : تطوّلت عليك بثلاثة : سترت عليك مالو علم به أهلك ما واروك و أوسعت عليك فاستقرضت منك لك فلم تقدّم خيراً و جعلت لك نظرة عند موتك في ثلثك فلم تقدّم خيراً .

و عن معاوية بن عمّار عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كان في وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعليّ عليه السلام يا علي اُوصيك في نفسك بخصال فاحفظها - ثمّ قال : اللّهمّ أعنه - :

أمّا الاُولى فالصدق ، لا يخرجنّ من فيك كذبة أبداً .

و الثانية الورع ، لا تجترء على جناية أبداً .

و الثالثة الخوف من الله كأنّك تراه .

و الرابعة كثرة البكاء لله يبنى بكلّ دمعة بيت في الجنّة .

و الخامسة بذلك مالك ودمك دون دينك .

و السادسة الأخذ بسنّتي في صلاتي و صيامي و صدقتي : فأمّا الصلاة فالخمسون

ركعة و أمّا الصوم فثلاثة في كلّ شهر خميس في أوّله وأربعاء في وسطه وخميس في آخره و أمّا الصدقة فجهدك حتّى تقول : قد أسرفت و لم تسرف ، و عليك بصلاة الليل و عليك بصلاة الليل و عليك بصلاة الليل وعليك بصلاة الزوال و عليك بصلاة الزوال وعليك بصلاة الزوال و عليك بتلاوة القرآن على كلّ حال و عليك برفع يديك في صلاتك و تقلّبها و عليك بالسواك عند كلّ وضوء و عليك بمحاسن الأخلاق فاركبها و مساوي الأخلاق فاجتنبها فإن لم تفعل فلا تلو منّ إلّا نفسك .

و عن سليم بن قيس الهلالي قال : شهدت وصيّة أمير المؤمنين حين أوصى إلى ابنه الحسن قال : أمرني رسول الله ﷺ أن اُوصي إليك و أن أدفع إليك كتبي و سلاحي كما أوصى إليّ رسول الله ﷺ و دفع إليّ كتبه وسلاحه و أمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفع ذلك إلى أخيك الحسين .

قال : ثمّ أقبل على ابنه الحسين فقال : و أمرك رسول الله أن تدفعه إلى ابنك هذا ثمّ أخذ بيد ابن ابنه عليّ بن الحسين و هو صبيّ فضمّه إليه ثمّ قال لعليّ بن الحسين : يا بنيّ وأمرك رسول الله ﷺ أن تدفعه إلى ابنك محمّد بن عليّ فاقرأه من رسول الله السلام .

ثمّ أقبل على ابنه الحسن فقال : بنيّ أنت وليّ الأمر و وليّ الدم فإن عفوت فلك و إن قتلت فضربة مكان ضربة ولا تأثم ثمّ قال : اكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصى به عليّ بن أبي طالب أوصى أنّه يشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له و أنّ محمّداً عبده و رسوله أرسله بالهدى و دين الحقّ ليظهره على الدين كلّه و لو كره المشركون ثمّ إنّ صلاتي و نسكي و محياي و مماتي لله ربّ العالمين لا شريك له و بذلك اُمرت و أنا من المسلمين .

ثمّ إنّي اُوصيك يا حسن و جميع ولدي و أهل بيتي ومَن بلغه كتابي من المؤمنين بتقوى الله ربّكم ولا تموتنّ إلّا و أنتم مسلمون .

و اعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا فإنّي قد سمعت رسول الله ﷺ يقول : إصلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة و الصوم و إنّ البغضة خالقة الدين وفساد ذات

البين ولا قوّة إلّا بالله انظروا ذوي أرحامكم فصلوهم يهوّن الله عليكم الحساب .

و الله الله في الأيتام فلا تغبّوا أفواههم ولا يضيّعوا بحضرتكم فقدسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : من عال يتيماً حتّى يستغني أوجب الله له الجنّة كما أوجب لآكل مال اليتيم النار .

و الله الله في القرآن فلا يسبقنّكم إلى العمل به غيركم .

و الله الله في بيت الله فلا يخلونّ منكم ما بقيتم فإنّه إن يترك لم تناظروا و أدنى ما يرجع به من اُمّة أن يغفر له ماقد سلف .

و الله الله في الصلاة فإنّها خير العمل و إنّها عمود دينكم .

و الله الله في الزكاة فإنّها تطفىء غضب الربّ .

و الله الله في شهر رمضان فإنّ صيامه جنّة من النار .

و الله الله في الفقراء و المساكين فشاركوهم في معيشتكم .

و الله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم و أنفسكم فإنّما يجاهد في سبيل الله رجلان إمام هدى و مطيع له يقتدي بهداه .

و الله الله في ذرّيّة نبيّكم صلى الله عليه وآله وسلم فلا يظلمون بين أظهركم و أنتم تقدرون على الدفع عنهم .

و الله الله في أصحاب نبيّكم الّذين لم يحدثوا حدثاً و لم يرووا محدثاً فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوصى بهم و لعن المحدث منهم و من غيرهم و المؤمي للمحدث .

و الله الله في النساء و ما ملكت أيمانكم و لا تخافنّ في الله لومة لائم فيكفيكم الله من أرادكم و بغى عليكم و قولوا للناس حسناً كما أمركم الله .

ولا تتركنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولّي الله الأمر شراركم وتدعون فلا يستجاب لكم .

و عليكم يا بنيّ بالتواصل و التباذل و التبارر و إيّاكم و النفاق و التدابر و التقاطع و التفرّق و تعاونوا على البرّ و التقوى و لا تعاونوا على الإثم و العدوان

و اتّقوا الله إنّ الله شديد العقاب حفظكم الله من أهل بيت و حفظ فيكم نبيّكم أستودعكم الله و أقرأ عليكم السلام .

ثمّ لم يزل يقول : لا إله إلّا أنت حتّى قبض عليه‌السلام في أوّل ليلة من العشر الأواخر في شهر رمضان ليلة الجمعة سنة أربعين من الهجرة .

اللّهم إنّ كاتب هذه الأحرف في هذه الورقة و ناقلها عن التهذيب ينشدك و يقسم عليك بحقّ هذا الموصي والموصى له وأهل بيته أن تغفر سيّئاته الّتي إذا حاسبته يوم المحاسبة بالمناقشة فهي أكثر من رمال عالج و لكنّه يعلم إنّ عفوك وسعة رحمتك لمن أحبّ عليّاً أكثر و أعظم من رمال عالج يسألك العفو العفو العفو و الإصلاح فيما أفسده من دينه و دنياه انتهى .

قوله تعالى : [و قالوا اتّخذ الرحمن ولداً] هذا إخبار عن اليهود و النصارى و مشركي العرب فإنّ اليهود قالوا : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، وقال مشركو العرب : الملائكة بنات الله .

[لقد جئتم شيئاً إدّاً] أي شيئاً منكراً هو عظيم فظيع شنيع ، و حذف الباء من «بشيء» فنصبه بالفعل [تكاد السموات يتفطّرن منه] أي أرادت السماوات أن تنشقّ لعظم فريتهم إعظاماً لقولهم الفاسد وكادت الأرض تنشقّ والجبال تسقط [هدّاً] أي كسراً شديداً و هدماً عظيماً لأنّ [دعوا للرحمن ولداً] لأن أخرجوه من صفة الإلهيّة لأنّ اتّخاذ الولد يدلّ على الحاجة تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ، وتكرّر لفظة الرحمن مراراً في الآية تنبيهاً على أنّ أُصول النعم ليس إلّا منه .

و حاصل المعنى أنّه لولا حلمي لكنت أفعل بالسماوات و الجبال و الأرض عند وجود هذه الكلمة فكيف بمن تفوّه بها ولكنّي لا أعجل العقوبة .

قوله تعالى : [إن كلّ من السماوات و الأرض إلّا آتي الرحمن عبداً] أي ما كلّ مَن في السماوات و الأرض من الإنس والجنّ و الملائكة إلّا و يأتي الله سبحانه عبداً مملوكاً خاضعاً ذليلاً و هذا كقوله تعالى : « و كلّ أتوه داخرين [1] » و البنوّة ـ بتقديم

(١) النمل : ٨٧ .

الباء ـ و العبوديّة لا تجتمعان .

[لقد أحصاهم وعدّهم عدّاً] أي علم تفاصيلهم و أعدادهم ولا يخفى عليه شيء من أحوالهم [و كلّهم آتية يوم القيامة فرداً] يأتي المحشر فرداً وحيداً ليس له مال ولاولد ولا ناصر ، مشغول بنفسه لا يهمّه همّ غيره .

قوله تعالى : ان الذين آمنوا و عملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً (٩٦) فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين و تنذر به قوماً لداً (٩٧) و كم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً (٩٨)

لمّا شرح في الآيات السابقة حال الكفّار ختم السورة بذكر أحوال المؤمنين فقال : [إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات] و الطاعات [سيجعل لهم الرحمن ودّاً] وللمفسّرين في قوله : « ودّاً » أقوال :

القول الاول ـ و هو الصحيح ـ أنّه خاصّة في عليّ بن أبي طالب فما من مؤمن إلّا و في قلبه محبّة لعليّ عليه السلام عن ابن عبّاس ، و في تفسير أبي حمزة الثماليّ قال : حدّثني أبوجعفر الباقر قال : قال رسول الله لعليّ عليه السلام : قل : اللّهم اجعل لي عندك عهداً و اجعل لي في قلوب المؤمنين ودّاً فقالها عليّ عليه السلام فنزلت هذه الآية و روي مثلها عن جابر بن عبد الله .

القول الثاني أنّها عامّة في جميع المؤمنين يجعل الله في قلوبهم المحبّة والمقة(١) بعضهم بعضاً ، قال هرم بن حيّان : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلّا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتّى يرزقهم مودّتهم ورحمتهم . قال الربيع بن الأنس : إنّ الله إذا أحبّ مؤمناً قال لجبرئيل : إنّي أحببت فلاناً فأحبّه فيحبّه جبرئيل ثمّ ينادي في السماء ألا إنّ الله أحبّ فلاناً فأحبّوه فيحبّه أهل السماء ثمّ يوضع له قبول في أهل الأرض من المؤمنين فعلى هذا يحبّهم الله و يحبّهم الناس .

القول الثالث أنّ الله سيجعل لهم ودّاً في الآخرة فيحبّ بعضهم بعضاً كمحبّة الوالدة للولد في ذلك أعظم السرور ، و يؤيّد هذا القول ما صحّ عن أمير المؤمنين أنّه

(١) مصدر قولك : ومق يمق .

قال : لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني و لو صببت الدنيا بجملتها على المنافق على أن يحبّني ما أحبّني وذلك أنّه قضى على لسان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : لا يبغضك مؤمن ولا يحبّك منافق .

ثمّ قال : [فإنّما يسّرناه بلسانك] أي يسّرنا القرآن بلسانك بأن أنزلناه بلسانك و هو لغة العرب ليسهل عليهم معرفته أو المعنى مكنّاك من قراءته و حفظه [لتبشّر] بالقرآن الّذين يتّقون الشرك و الكبائر وتخبرهم بما أعدّه الله لهم و تخوّف و تنذر به قوماً شديد الخصومة يعني قريشاً ذوي جدل .

ثمّ أنذرهم سبحانه بقوله : [و كم أهلكنا] قبل هؤلاء المخاصمين المجادلين [من قرن] و جيل مكذّبين بالرسل ، والغرض تسلية النبيّ أي لا يهمّك كفرهم و نفاقهم فإنّ و بال ذلك راجع إليهم و أهلكنا قبلهم مَن كان مثلهم [هل تحسّ] و تبصر [منهم] أحداً [أو] هل [تسمع لهم ركزاً] وصوتاً فلم يغنهم مالهم ولا خصومتهم و قدرتهم فحكم هؤلاء من قومك كحكمهم « و الركز » الصوت الخفيّ و المراد بالإهلاك بالعذاب و بالموت و من ذلك المعنى الركاز لأنّ الركاز المال المدفون المخفيّ .

تمّت السورة بعون الله و الحمد لله ربّ العالمين .

سورة طه

٭ (مكية) ٭

فضلها : اُبيّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال من قرأها اُعطي يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار . أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّ الله قرأ طه و يس قبل أن يخلق آدم عليه السلام بألفي عام فلمّا سمعت الملائكة القرآن قالوا : طوبى لاُمّة نزل هذا عليها طوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسن يتكلّم بهذا . وعن الحسن قال : قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : لايقرأ أهل الجنّة من القرآن إلّا يس وطه .

و روى إسحاق بن عمّار عن الصادق عليه السلام لا تدعوا قراءة طه فإنّ الله تعالى يحبّها ومن قرأها و أدمن على قراءتها أعطاه يوم القيامة كتابه بيمينه و لم يحاسبه ممّا عمل في الإسلام و اُعطي من الأجر حتّى يرضى .

التفسير : ختم الله سورة مريم بالبشارة للمتّقين والإنذار للكافرين وابتدأ وافتتح هذه السورة بالسعادة وأنّه ما أنزل القرآن للمشقّة عليه فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

طه (١) ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى (٢) الا تذكرة لمن يخشى (٣) تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى(٤) الرحمن على العرش استوى(٥) له ما في السموات و ما في الارض و ما بينهما و ما تحت الثرى (٦) وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى(٧) الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى(٨)

في لغات « طه » قراءات : بفتح الطاء وسكون الهاء على أنّ أصله طء الأرض بقدميك جميعاً فاُبدلت الهمزة بالهاء لأنّه صلّى الله عليه وآله كان يرفع إحدى رجليه في الصلاة ليزيد تعبه أوكان يقف على أصابع رجليه في الصلاة فأنزل الله عليه : « طه » إلخ .

ويجوز أن يكون « طه » أمر من و طأيطأ فالأمر على قول من لم يهمز « طه » فزيدت الهاء في الوقف ، وقرأ أبو عمرو بفتح الطاء و كسر الهاء وأهل المدينة بين الفتح والكسر وقرأ ابن عامر بفتح الطاء والهاء وقرأ حمزة والكسائيّ بكسر الطاء والهاء .

واعلم أنّ للمفسّرين في هذه الكلمة أقوالاً :

الأوّل أنّه من حروف التهجّي ومن المرموزات وقد تقدّم الكلام فيها في سورة البقرة .

والقول الآخرون : فيها معان قال الثعلبيّ : الطاء شجرة طوبى ، والهاء هاوية فكأنّه سبحانه أقسم بالجنّة والنار .

والثاني : قال جعفر بن محمّد عليهما السلام : الطاء طهارة أهل البيت والهاء هدايتهم .

الثالث : خطاب النبيّ يامطمع الشفاعة للاُمّة وياهادي الخلق إلى الملّة .

الرابع : وهو قول سعيد بن جبير هو افتتاح اسمه المبارك بالطيّب الطاهر الهادي .

الخامس : الطاء من الطهارة والهاء من الهداية ومعناه : ياطاهراً من الذنوب وياهادياً إلى علاّم الغيوب ، وهذا القول قريب من قول الثاني .

السادس : الطاء طول القرّاء والهاء هيبتهم في قلوب الكفّار من قراءة القرآن .

السابع : الطاء تسعة في الحساب والهاء خمسة تكون أربعة عشر ومعناه : ياأيّها البدُر أو الأئمّة الأربعة عشر المعصومون .

الثامن : طه بلغة الطيء معناه يا محمّد ، نزلت هذه الكلمة بلغة طيء .

التاسع : معناه يارجل بلغة النبطيّه ، عن ابن عبّاس والحسن والمجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكليني إلّا أنّه قال عكرمة : هي بلغة الحبشة ، وقتادة قال : بلغة السريانيّة ، والكلبي قال : بلغة عكّ واستشهد بقول شاعرهم :

إنّ السفاهة طه في خلائقكم ＊ لاقدّس الله أرواح الملاعين

وإذا كان بهذا المعنى فلا يجوز الحمل إلّا بلغة عكّ لأنّ القرآن نزل بلغة العرب ويمكن أنّه يوافق في هذه الكلمة لغة العرب مع الحبشة والسريانيّة وإلّا لايصحّ .

وفي الكافي عن الباقر عليه السلام قال : كان رسول الله عند عايشة ليلتها فقالت : يارسول الله لمَ تتعب نفسك وقد غفر الله لك ماتقدّم من ذنبك وماتأخّر ؟ فقال : ياعايشة أفلا أكون عبداً شكوراً ؟

و في الاحتجاج عن الكاظم عليه السلام عن أمير المؤمنين لقد قام رسول الله عشر سنين على أطراف أصابعه حتّى تورّمت قدماه واصفرّ وجهه يقوم الليل كلّه حتّى عوتب في ذلك بقوله سبحانه :

[طه ＊ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى] بل لتسعد به ، والشقاء بمعنى التعب شائع ومنه أشقى من رابض المهر ، و سيّد القوم أشقاهم .

المعنى : سبب النزول قيل : سبب ماذكرناه من أنّه كان صلى الله عليه وآله يقوم على أصابعه ، فنزلت الآية .

وقيل : كان إذا قام من الليل ربط وعلق صدره بحبل حتّى لاينام فقال له جبرئيل: ابق على نفسك فإنّ لها حقّاً عليك .

أي ما أنزلناه لتهلك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقّة الشديدة وما بعثت إلّا بالحنيفيّة السمحة .

وقيل : المعنى لاتشقّ على نفسك ولا تعذّبها بالأسف على كفر هؤلاء فإنّا إنّما أنزلنا عليك القرآن لتذكّر به فمن اتّقى و أصلح فلنفسه فمن كفر فلا يحزنك كفره فما عليك إلّا البلاغ كقوله . « فلعلّك باخع نفسك ، الآية[١] » .

وقيل : إنّ الآية ردّ قول المشركين و ذلك أنّ أباجهل والوليد بن مغيرة ومطعم ابن عديّ والنضر بن الحارث قالوا لرسول الله : إنّك لتشقى حيث تركت دين قومك ، فقال عليه السلام : بل بعثت رحمةً للعالمين ، قالوا : بل أنت تشقى ، فنزلت الآية .

وقيل : إنّ هذه السورة من أوائل مانزل بمكّة وفي ذلك الوقت كان صلى الله عليه وسلم مقهوراً تحت ذلّ أعدائه فنزلت الآية أنّه لاتظنّ أنّك تبقى على هذه الحالة أبداً في العناء والتعب بل يعلو أمرك ويظهر قدرك وإنّا ماأنزلنا عليك القرآن لتبقى شقيّاً بينهم بل تصير معظّماً مكرّماً .

وأمّا قوله : [إلّا تذكرةً لمن يخشى] قيل : «إلّا» ههنا استثناء منقطع بمعنى لكن أو التقدير : ماأنزلنا عليك القرآن لتحمّل التعب والأذيّة وما أنزلنا إلّا ليكون تذكرة ليعتبر بك غيرك وإنّما خصّ من يخشى لأنّهم المنتفعون بهذه التذكرة وإن كان الحكم عامّاً في الجميع وهو كقوله : « هدى للمتّقين[٢] » .

قوله تعالى : [تنزيلاً ممّن خلق الأرض والسماوات العلى] تقديره : أنزلناه تنزيلاً ممّن خلق الأرض وبدأ بالأرض ليستقيم رءوس الآي والسماوات الرفيع العالية ، نبّه بذلك للدلالة على عظم خالقهما .

ثمّ أكّد بقوله : [الرحمن على العرش استوى] أي هو الرحمن أقبل على خلق العرش ، قال أحمد بن يحيى: الاستوء الإقبال على الشيء والتوجّه والاستيلاء .

[له] ملك [مافي السماوات ومافي الأرض] وتدبيرها وعلمها [وما بينهما] من المخلوق والهوى [وماتحت الثرى] أي التراب الندى وما وارى الثرى من كلّ شيء وما ضمّن من الكنوز والأموات .

---

(١) الكهف : ٦ . الشعراء : ٢ .

(٢) البقرة :٢ .

[وإن تجهر بالقول] وترفع صوتك أولا تجهر به [فإنّه يعلم السرّ وأخفى] من السرّ ، قالوا : السرّ ماحدّث به الإنسان غيره في خفية وأخفى منه ماأضمرت في نفسك ولم تحدّث به غيرك أو الوسوسة وحديث النفس .

قال الباقر والصادق عليهما السلام : السرّ ماأخفيته في نفسك وأخفى ماخطر ببالك ثمّ نسيته والله هو العالم بجميع المعلومات ؛ فهذه الآية إمّا نهي عن الجهر الفاحش في ذكر الله كقوله : « واذكر ربّك في نفسك تضرّعاً وخيفة و دون الجهر من القول[1] » وإمّا المراد أنّ الجهر ليس لاستماع الله وإنّما لغرض آخر وأنّه عالم لذاته في كلّ الأوقات بعلم واحد وذلك العلم غير متغيّر لأنّه عين ذاته من غير أن يكون موصوفاً بالحدوث والإمكان والخلق بأسره لايشارك الربّ إلّا في السدس الأوّل وهو أصل العلم ثمّ هذا السدس بينه وبين خلقه أيضاً نصفان فخمسة دوانيق ونصف منه مسلّم له والنصف الواحد لجملة خلقه ثمّ هذا الجزء الواحد مشترك بين الخلائق أجمعون من الملائكة الكرّوبيّة والملائكة الروحانيّة وحملة العرش و سكّان السماوات وملائكة الرحمة والعذاب وجميع الأنبياء أوّلهم آدم وآخرهم محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم وكذا جميع الخلائق من البشر والجنّ في علومهم الضروريّة والنظريّة والحرف والصناعات والتركيبات وجميع الحيوانات في إدراكاتها وشعوراتها والاهتداء إلى مصالحها في معاشها وتغذيتها ومضارّها فكلّ على قدر رتبته يحصل له من ذلك الجزء والحاصل لك من ذلك الجزء أقلّ من الذرّة المؤلّفة ثمّ إنّك إذا عرفت بهذه الذرّة صفاته الواجبة والجائزة والمستحيلة فكيف يكون علمه بخمس دوانيق ونصف ؟ أفلا يعلم أسرار عبوديّتك وخضوعك ؟

فهذا تحقيق قوله : «وإن تجهر بالقول فإنّه يعلم السرّ و أخفى » بل الحقّ أنّ الدينار بتمامه له لأنّ الّذي تعلّمته بتعليمه ، ولهذا التحقيق مثال و هو الشمس فإنّ ضوءها يجعل العالم منوّراً ولاينتقص من ضوئها شيء البتّة فكذاههنا ، انتهى .

قوله : [الله لاإله إلّا هو له الأسماء الحسنى] ثمّ ذكر الموصوف بالعلم المذكور والقدرة هو الله واحد لاشريك له وهو الّذي يستحقّ العبادة لاغيره .

---

(١) الاعراف : ٢٠٤ .

وههنا تحقيق وهو أنّ مراتب التوحيد أربع : أحدها الإقرار باللسان والثاني الاعتقاد بالقلب والثالث تأكيد الاعتقاد بالحجّة والرابع أن يصير العبد مغموراً في بحر التوحيد بحيث لايدور في خاطره شيء غير عرفان الأحد الصمد .

أمّا الإقرار باللسان إذاكان خالياً عن الاعتقاد بالقلب فذلك هو المنافق ، و أمّا الاعتقاد بالقلب إذا وجد خالياً عن الإقرار باللسان ففيه صُور :

الصورة الأُولى أنّ من نظر وعرف الله ومات قبل أن يمضي عليه من الوقت مايمكنه التلفّظ به فقال قوم : إنّه لايتمّ إيمانه والحقّ أنّه يتمّ لأنّه أدّى ما كلّف به وعجز عن التلفّظ .

قال الرازيّ : ورأيت في الكتب أنّ ملك الموت مكتوب على جبهته : لاإله إلّاالله ، لكي إذا رآه المؤمن تذكّر كلمة الشهادة فيكفيه ذلك التذكّر عن الذكر .

الصورة الثانية أنّ من عرف الله ومضى عليه من الوقت ما يمكنه التلفّظ بالكلمة ولكنّه قصّر فيه .

قال الشيخ الغزاليّ : يحتمل أن يقال : اللسان ترجمان القلب فإذا حصل المقصود في القلب كان امتناعه من التلفّظ جارياً مجرى امتناعه من الصلاة والزكاة وكيف يكون من أهل النار وقد قال ﷺ : يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرّة من الإيمان ؟ وقلب هذا الرجل مملوّ من الإيمان . وقال آخرون : الإيمان والكفر أُمور شرعيّة نحن نعلم أنّ الممتنع من هذه الكلمة كافر .

الصورة الثالثة من أقرّ باللسان واعتقد بالقلب من غير دليل فهو مقلّد والاختلاف في صحّة إيمانه مشهور .

أمّا المقام الثالث من المقامات الأربعة وهو إثبات التوحيد بالحجّة وقد شرح الله هذه الحجّة بقوله : « لوكان فيهما آلهة إلّاالله لفسدتا[1] » وهو دليل التمانع وقدشرحوا هذا البيان والمطلوب بالدلائل العقليّة والسمعيّة .

وأمّا المقام الرابع وهو الفناء في بحر التوحيد فقال المحقّقون : العرفان مبتدأ من

---

(١) الانبياء : ٢٢ .

تفريق وبغض وترك ورفض ممكن في جميع صفات هي من صفات الحق للذات المُريدة منته بالصدق إلى الواحد القهّار وحينئذ تكون الأسماء والأذكار والتهليلات كاشفة عن هذا المعنى من القلب وحاكية عنه.

قال رسول الله ﷺ: أفضل الذكر لا إله إلّا الله وأفضل الدعاء أستغفر الله ثمّ تلا هذه الآية: «فاعلم أنّه لا إله إلّا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات [1]».

قال النبيّ ﷺ: إنّ الله تعالى خلق ملكاً من الملائكة قبل أن خلق السماوات والأرض وهو يقول: أشهد أن لا إله إلّا الله مادّاً بهذه الكلمة صوته لا يقطعها ولا يتنفّس فيها ولا يتمّها فإذا أتمّها اُمر إسرافيل بالنفخ في الصور وقامت القيامة تعظيماً لله تعالى.

وروي عن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ أنّه قال: مازلت أشفع إلى ربّي و يشفّعني حتّى قلت: يا ربّ شفّعني فيمن قال: لا إله إلّا الله قال: يا محمّد هذه ليست لك ولا لأحد و عزّتي و جلالي لا أدع أحداً في النار قال: لا إله إلّا الله.

قال الثوريّ: سألت جعفر بن محمّد عليه السلام عن «حم عسق» قال: الحاء حكمه والميم ملكه و العين عظمته و السين سناؤه والقاف قدرته يقول الله: جلّ ذكره بحكمي وملكي و عظمتي و سنائي و قدرتي لا اُعذّب بالنار من قال: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله.

و عن عمر روى عن رسول الله ﷺ قال: من قام في السوق فقال: لا إله إلّا الله وحده لا شريك له له الملك و له الحمد يحيي و يميت وهو حيّ لا يموت بيده الخير وهو هو على كلّ شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة و محا عنه ألف ألف سيّئة وبنى له بيتاً في الجنّة.

أقول: و لا تغفل أيّها الإنسان من شروط لا إله إلّا الله و هي الولاية الولاية الولاية ولو أنّك طول عمرك بل عمر الدهر تقول: لا إله إلّا الله عن عقيدتك بقلبك ولسانك و توقّفت في ولايتهم و ليس معنى الولاية أنّك تحبّهم بل معنى الولاية أن تعتقد أنّ الأئمّة الاثني عشر خلفاء الله بعد النبيّ في أرضه و سمائه فلو توقّفت بهذا الأمر أو شككت أو تركت واحداً منهم فما ينفعك أمر قط لأنّ الله قرن طاعتهم بطاعته وقد جعلهم

(١) محمد: ١٩.

الله من شروط لا إله إلّا الله .

و ينبغي لأهل هذه الكلمة التصديق و التعظيم و الحلاوة والحرّيّة فمن ليس له التصديق فهو منافقٌ و من ليس له التعظيم فهو مبتدع و من ليس له الحلاوة فهو مراء و من ليس له الحرّيّة فهوفاجر .

قال المفسّرون و المحقّقون في قوله : « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيّبة كشجرة طيّبة (١) » أنّه لا إله إلّا الله ، و قوله : « إليه يصعد الكلم الطيّب و العمل الصالح يرفعه(٢) » لا إله إلّا الله ، و قوله : « و تواصوا بالحقّ (٣) » لا إله إلّا الله ، و« قل إنّما أعظكم بواحدة (٤) » لا إله إلّا الله ، وقيل : المراد بواحدة فاطمة ، و قولهتعالى : « و قفوهم إنّهم مسئولون(٥) » عن قول لا إله إلّا الله ، و قوله : «بل جاء بالحقّ وصدق المرسلون (٦) » هو لا إله إلّا الله « يثبّت الله الّذين آمنوا بالقول الثّابت في الحياة الدنيا و في الآخرة (٧) » هو لا إله إلّا الله « و يضلّ الله الظالمين(٨) » عن قول لا إله إلّا الله .

و في الحديث أنّ موسى بن عمران عليه السلام قال : يا ربّ علّمني شيئاً أذكرك بهفقال الله تعالى : قل : لا إله إلّا الله ، قال موسى : كلّ عبادك يقولون : لاإله إلّا الله ، فقال الله : قل : لاإلهإلّا الله ، قالموسى : إنّماأردت شيئاً تخصّني به ، قال : ياموسىلوأنّ السماوات السبع و من فيهنّ في كفّة و لاإله إلّا الله في كفّة لمالت بهنّ لا إله إلّا الله .

فائدةنحوية و هيأنّه منإعراب هذه الكلمة تبيّنمعناه : قالوا : كلمة «لا» ههنا دخلت على الماهيّة فانتفت الماهيّة و إذا انتفت الماهيّة انتفت كلّ أفرادها وأمّا كلمة « الله» فإنّه اسمعلمللذات المعيّنة إذلوكان اسماًمعيّناً لكان كلّها محتملاً للكثرة فلم تكن مفيدة للتوحيد .

و كلمة «لا » نفي الماهيّة استحقّت عملإنّ لمشابهتها لها من وجهين : أحدهما ملازمة الأسماء والآخر تشاركهما في التأكيد فإنّ أحدهما لتأكيد الثبوت و الآخر

(١) ابراهيم : ٢٤ .
(٢) فاطر : ١٠ .
(٣) العصر : ٤ .
(٤) سبا : ٤٦ .
(٥) الصافات : ٢٤ .
(٦) يس : ٥٢ .
(٧) ابراهيم : ٢٧ .
(٨) ابراهيم : ٢٧ .

لتأكيد النفي و من عادتهم تشبيه أحد الضدّين بالأخرى في الحكم إذا ثبت هذا فقوله : إنّ زيداً ذاهب كان يجب أن يقول : لا رجلاً ذاهب حالة الإعراب منوّناً لكنّهم جعلوا مدخول « لا » مبنيّاً أمّا البناء فلشدّة اتّصال حرف النفي بمدخوله فصارا كأنّهما اسم واحد و أمّا الفتح فللخفّة وللفرق بين حركة الإعراب و البناء .

ثمّ إنّ خبره محذوف والأصل : لا إله في الوجود وهذا يدلّ على أنّ الوجود زائد على الماهيّة .

و لو قيل : تصوّر الثبوت مقدّم على تصوّر السلب فإنّ السلب مالم يضف إلى الثبوت لايمكن تصوّره فكيف قدّم ههنا السلب على الثبوت ؟ لأنّ هذا السلب من مؤكّدات الثبوت لا جرم قدّم عليه قوله تعالى : « له الأسماء الحسنى (١) » أي الأسماء الدالّة على توحيده و إنعامه على العباد والمعاني الحسنة بأيّها دعوتم جاز .

روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال : إنّ لله تعالى تسعة و تسعين اسماً من أحصاها دخل الجنّة ، تأويله من وحّد الله و ذكر هذه الأسماء يريد بها إعظامه دخل الجنّة . و قد جاء في الحديث : من قال : لا إله إلّا الله مخلصاً دخل الجنّة ، فهذا لمن ذكر اسم الله موحّداً له به فكيف لمن ذكر أسماءه كلّها يريد بها توحيده و الثناء عليه .

و إنّما قال : « الحسنى » بلفظ المفرد و لم يقل : الأحاسن لأنّ الأسماء إذا كانت مؤنّثة فباعتبار الجماعة يقع مفردة مؤنّثه كأنّه اسم واحد للجمع كقوله : « حدائق ذات بهجة (٢) » و « مآرب اُخرى (٣) » .

و قال ﷺ : إذا كان يوم القيامة نادى مناد أيّها الناس أنا جعلت لكم نسباً وأنتم جعلتم لأنفسكم نسباً أنا جعلت أكرمكم عندي أتقاكم و أنتم جعلتم أكرمكم أغناكم فالآن أرفع نسبي و أضع نسبكم أين المتّقون الّذين لا خوف عليهم و لا هم يحزنون .

و اعلم أنّ الأشياء في قسمة العقول على ثلاثة أقسام : كامل لايحتمل النقصان فهو

(١) طه : ٨ .
(٢) النمل : ٦٠ .
(٣) طه ١٨ .

الله و ذلك في حقه بالوجوب الذاتي ، ثم بعده الملائكة لكن بالوجود الإمكاني فإن من كما لهم أنهم لا يعصون الله ما أمرهم و من صفاتهم أنهم عباد مكرمون و من صفاتهم أنهم يستغفرون للذين آمنوا ، وأما الناقص الذي لا يحتمل الكمال فهو الجمادات و النبات والبهائم ، وأما الذي يقبل الأمرين جميعاً فهو الإنسان فتارة يكون في الترقي بحيث يخبر عنه بأنه « في مقعد صدق عند مليك مقتدر (۱) » و تارة في التسفل بحيث يقال : « ثم رددناه أسفل سافلين (۲) » و إذا كان الأمر كذلك فاستحال أن يكون الإنسان كاملاً لذاته و ما لا يكون كاملاً لذاته استحال أن يصير موصوفاً بالكمال إلى أن يصير منتسباً إلى الكامل لذاته و الانتساب قسمان : قسم يعرض للزوال وقسم لا فالذي يعرض للزوال فلا فائدة فيه كالجمال و المال و الصحة و أما الذي لا يعرض للزوال فعبوديتك لله فإنه كما يمتنع زوال صفة الإلهية عنه يمتنع زوال العبودية عنك مادمت عبداً فهذه النسبة لا تزول مادامت العبودية كما أن المنتسب إليه و هو الحق لا يقبل الخروج عن صفة الكمال .

و أنت أيها الإنسان إذا كنت في بلدة نزهة أو كنت منتسباً إلى قبيلة شريفة فلا تزال تبالغ في مدح تلك البلدة و القبيلة بسبب ذلك الانتساب العرضي الزائلي فأن تشتغل بذكر الله و نعوت كبريائه بسبب النسبة الدائمي الغير الزائلي كان أولى فلهذا قال : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها (۳) » و قال : « الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى (٤) » .

و جملة « لا إله إلا هو » بيان أن ما ذكر من صفات الكمال من الخالقية والرحمانية و المالكية و العالمية أسماؤه و صفاته من غير تعدد في ذاته فإنه روي أن المشركين حين سمعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « يا الله يا رحمن » قالوا : ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخر .

قال الرازي في المفاتيح : يقال : إن لله أربعة آلاف اسم : ألف لا يعلمها إلا الله وألف لا يعلمها إلا الله و الملائكة و ألف لا يعلمها إلا الله و الملائكة و الأنبياء و أما الألف

(۱) القمر : ٥٥ .
(۲) التين : ٥ .
(۳) الاعراف : ۱۷۹ .
(٤) طه : ۸ .

الرابع فان المؤمنين يعلمونه فثلاثمائةمنها في التوراة وثلاثمائة في الانجيل وثلاثمائة في الزبوروماثة في القرآن تسع وتسعون منها ظاهرة وواحد مكتوم فمن أحصاها دخل الجنة .

و الأسماء الواردة في القرآن منها ماليس بانفراده ثناء و مدحاً كقوله : «جاعل» و « فالق » فإذا قيل : « فالق الإصباح و جاعل الليل سكناً (١) » صار مدحاً و منها ماهو مدح فإذا قرن بغيره صار أبلغ كقولنا : «حي» فإذا قيل : « الحي القيوم (٢) » أو «الحي الذي لا يموت » كان أبلغ ، و منها ما يكون اسم مدح مفرداً أو مقروناً كقولنا : « الرحمن الرحيم » .

و ليس حسن الأسماء حسناً يتعلق بالصورة و الخلقة فإن ذلك محال على من ليس بجسم بل حسن يرجع إلى معنى الإحسان مثلاً اسم الستار و الرحيم والغفار إنما كانت حسناء لأنها دالة على معنى الإحسان .

قيل : إن حكيماً ذهب إليه قبيح و حسن و التمسا الوصية و الموعظة منه فقال للحسن : أنت حسن والحسن لا يليق به الفعل القبيح ، وقال للآخر : أنت قبيح والقبيح إذا فعل القبيح عظم قبحه . فنقول : إلهنا يكفينا قبح أفعالنا و سيرتنا فلاتضم إليه بسبب استحقاقنا وحشة العذاب .

ذكر أن صياداً كان يصيد السمك فصاد سمكة وكان له ابنة فأخذت السمكة و طرحها في الماء و قالت : إنها ما وقعت في الشبكة إلا لغفلتها . إلهنا تلك الصبية رحمت غفلة هاتيك السمكة و كانت تلقاها مرة اُخرى في البحر و نحن قد اصطادتنا وسوسة إبليس و أخرجنا من بحر رحمتك فارحمنا بفضلك ، و ألقنا في بحار رحمتك مرة اُخرى .

و حكاية بشر الحافي و هي معروفة و أصلها أنه رأى كاغذاً مكتوباً فيه « بسم الله الرحمن الرحيم» في الأرض فرفعه وطيبه بالمسك وقيل : بلعه ، فرأى في النوم قائلاً يقول : يا بشر طيبت اسمنا فنحن نطيب اسمك في الدنيا والآخرة .

و قد ذكر الله سبحانه في الفاتحة من الأسماء خمسة و هي الله و الرب و الرحمن

---

(١) الانعام : ٩٦ .
(٢) البقرة : ٢٥٧ .

والرحيم و المالك ومن أراد الاستقصاء في الأسماء والصفات فعليه بكتاب لوامع البيّنات في الأسماء والصفات ، انتهى .

قوله تعالى : و هل اتاك حديث موسى (٩) اذ رأى نارا فقال لاهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى (١٠) فلما اتاها نودى يا موسى (١١) انى انا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى (١٢) و انا اخترتك فاستمع لما يوحى (١٣) اننى انا الله لا اله الا انا فاعبدنى و اقم الصلوة لذكرى (١٤) ان الساعة آتية اكاد اخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى (١٥) فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها و اتبع هواه فتردى (١٦) .

المعنى : خاطب الله نبيّه تسليةً له ممّا ناله من أذى قومه و تثبيتاً له بالصبر على أمر ربّه كما صبر موسى حتّى نال الفوز في الدنيا و الآخرة كما قال سبحانه : «و كلاًّ نقصّ عليك من أنباء الرسل ما نثبّت به فؤادك[1] » وبدأ بموسى عليه السلام لأنّ المشقّة الحاصلة له كانت أعظم فقال : و هل سمعت بخبر موسى إذ رأى ناراً ؟

عن ابن عبّاس قال : كان موسى رجلاً غيوراً لا يصحب الرفقة لئلاّ ترى امرأته فلمّا قضى الأجل وفارق مدين خرج ، وقيل : استأذن موسى شعيباً عليه السلام في الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج فولد له في الطريق ابن و كان معه غنم له و أهله على أتان و على ظهرها جوالق فيها أثاث البيت فأضلّ الطريق في ليلة مظلمة باردة و تفرّقت ماشيته و لم ينقدح زناده[2] كلّما قدح و امرأته في الطلق وبينا هو كذلك إذ نظر ناراً من بعيد عن يسار الطريق فظنّ أنّها نار من نيران الرعاة و هي عند موسى عليه السلام كانت ناراً و عند الله نوراً .

قيل : النار أربعة أقسام : نار تأكل و لا تشرب و هي نار الدنيا و نار تشرب و لا تأكل وهي نار الشجر كالمرخ و أمثاله لقوله تعالى : «و جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً[3] » و نار تأكل و تشرب و هي نار المعدة و نار لا تأكل و لا تشرب و هي نار موسى عليه السلام.

---

(١) هود : ١٢٠ .
(٢) العود الذى يقتدح به النار .
(٣) يس : ٨٠ .

و أيضاً باعتبار آخر ينقسم إلى أربعة اُخرى : نار لها نور بلاحرقة وهي نارموسى عليه السلام و ثانيها حرقة بلانور و هي نار جهنّم . و ثالثها الحرقة و النور و هي نار الدنيا و رابعها لاحرقة ولانور نار الأشجار .

و بالجملة فلمّا أبصرموسى النار توجّه نحوها [فقال لأهله] والخادم و أمثاله : [امكثوا] و أقيموا مكانكم و الفرق بين الإقامة و المكث أنّ الإقامة تدوم و المكث لايدوم . قوله : [إنّي آنست ناراً] أي أبصرت ناراً و الإيناس الإبصار الّذي لا شبهة فيه . و منه إنسان العين فإنّه يتبيّن به الشيء و يظهر . و الإنس يقال لظهورهم كما قيل الجنّ لاستتارهم و خفائهم و أيضاً هو من مادّة الاُنس و الإيناس .

و لمّا كان الإيناس بالقبس مترقّباً و متوقّعاً بنى الأمر فيه على الطمع و الرجاء فقال : [لعلّي آتيكم منها بقبس] أي بجذوة أو برأس عود أو فتيلة منها [أو أجد على النار] هادياً يدلّني على الطريق لأنّ النار لاتخلو من أهل لها و ناس عندها . والهدى اسم مصدر لما يهتدى به .

[فلمّا أتاها] أي أتى النار فإذا النار في شجرة عنّاب فوقف متعجّباً من حسن ضوء تلك النار و شدّة خضرة تلك الشجرة فسمع النداء من الشجرة و هو قوله : [نودي يا موسى * إنّي أنا ربّك] كقولك : يافلان أنا ربّك الّذي خلقك ، فأجاب سريعاً مايدري من دعاه فقال : إنّي أسمع صوتك و لا أرى مكانك فأين أنت ؟ فقال : أنا فوقك و معك و أمامك و خلفك و أقرب إليك من نفسك فعلم موسى إنّ ذلك لا ينبغي إلّا لربّه و أيقن به .

و قيل : إنّه لمّا رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها يتوقّد فيها نار بيضاء و سمع تسبيح الملائكة و رأى نوراً عظيماً لم يكن الخضرة تطفىء النار و لاالنار تحرق الخضرة تحيّر و علم أنّه خارق العادة و معجز و إنّه أمر عظيم فاُلقيت عليه السكينة و إنّما كرّر الكناية لتاكيد الدلالة و إزالة الشبهة و تحقيق المعرفة .

[فاخلع نعليك]وانزعهما والسبب في هذا الأمر قيل : إنّما كانتامن جلد حمار ميّت ، عن كعب وعكرمة وروي ذلك عن الصادق عليه السلام . و قيل : كانتاز كيّة ولكنّه اُمر بخلعهما

ليباشر بقدميه الأرض فتصيبه بركة الوادي المقدّس . و قيل : لأنّ الحفاء من علامة التواضع [إنّك بالواد المقدّس طوى] أي واد كثير البركة مطهّر و « طوى » اسم للوادي و قيل : «طوى» الوادي بالبركة .

[و أنا اخترتك] و اصطفيتك للرسالة [فاستمع لما يوحى] إليك من كلامي وأصغ إليه ، و لمّا أمره باستماع الوحي فابتدأ سبحانه بالتوحيد فقال : [إنّني أنا الله لا إله إلّا أنا] ولا يستحقّ العبادة غيري [فاعبدني] خالصاً ولا تشرك في عبادتي غيري أحداً .

و ههنا مسألة قال الأشعريّ : إنّ الله أسمعه الكلام القديم الّذي ليس بحرف و لاصوت و المعتزلة أنكروا وجود ذلك الكلام و قالوا : إنّ الله سبحانه خلق ذلك الصوت و النداء في جسم من الأجسام كالشجرة لأنّ النداء كلام الله و الله قادر عليه و متى شاء فعله .

و أمّا أهل السنّة من أهل ما وراء النهر فقد اعتقدوا بقدم الكلام إلّا أنّهم زعموا أنّ الّذي سمعه موسى صوت خلقه الله في الشجرة و احتجّوا بالآية على أنّ المسموع هذا النداء و الصوت المحدث و أنّه رتّب النداء على أنّه أتى النار و المرتّب على المحدث محدث فالنداء محدث .

و استدلّت المعتزلة بقوله : « فاخلع نعليك » على أنّ كلام الله تعالى ليس بقديم إذ لو كان قديماً لكان الله قائلاً قبل وجود موسى : فاخلع نعليك يا موسى ، و معلوم أنّ ذلك باطل فإنّ الرجل لا يقول ولا ينادي في الدار الخالية : يا زيد و إذا قال يحسب سفهاً فكيف يليق بالإله سبحانه ؟ ولأنّ الأمر في ذلك الوقت ماكان له متعلّق .

و في قوله : «إنّني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني » دلالة على أنّ علم الاُصول مقدّم على علم الفروع والفاء في قوله : « فاعبدني » تدلّ على التعقيب .

[و أقم الصلاة لذكري] أي اذكرني في الصلاة بالتسبيح و التعظيم لأنّ الصلاة لا يكون إلا بذكر الله و قيل : معناه « أقم الصلاة » لأن أذكرك بالمدح والثناء . و قيل : معناه صلّ لي و لا تصلّ لغيري ولاتذكّر لغيري كما يفعله المشركون . و قيل : أقم الصلاة متى ذكرت أنّ عليك صلاة و هو المرويّ عن الباقر عليه السلام و يؤيّده مارواه أنس عن النبيّ

صلى الله عليه وآله وسلم قال : من نسي فليصلّها إذا ذكرها .

ثمّ أخبر سبحانه لموسى بمجيء الساعة فقال : [إنّ الساعة آتية] و جائية لامحالة [أكاد اُخفيها] أي اُريدأن اُخفيها عن الناس لئلاّ تأتيهم إلّا بغتة قال ابن عبّاس : معناه المبالغة في الخفاء أي أكاد لا اُظهر علمها أحداً حتّى من نفسي إذا كدت أن اُخفيها من نفسي فكيف أظهرها لك ؟ [لتجزى كلّ نفس بما تسعى] و تعمل من خير وشرّ .

[فلا يصدّنّك] عن الصلاة ولا يصرفنّك [من لايؤمن] بالساعة ، وقيل : الضميران راجعة كلاهما إلى الساعة قوله : [و اتّبع هواه] و لا يمنعك عن هذه الخصال من بنى أمره على متابعة الهوى دون الحقّ [فتردى] وتهلك حينئذ بسبب المخالفة وترك التأهّب والخطاب لموسى عليه السلام و هو من سائر المكلّفين .

قوله تعالى : و ما تلك بيمينك يا موسى (١٧) قال هى عصاى أتوكأ عليها واهش بها على غنمى ولى فيها مآرب اخرى (١٨) قال القها يا موسى(١٩) فالقاها فاذا هى حية تسعى (٢٠) قال خذها و لا تخف سنعيدها سيرتها الاولى(٢١) واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية اخرى (٢٢) لنريك من آياتنا الكبرى (٢٣) اذهب الى فرعون انه طغى (٢٤) قال رب اشرح لى صدرى (٢٥) و يسرلى امرى (٢٦) و احلل عقدة من لسانى (٢٧) يفقهوا قولى (٢٨) و اجعل لى وزيرا من اهلى (٢٩) هرون اخى (٣٠) اشدد به ازرى (٣١) واشركه فى امرى (٣٢) كى نسبحك كثيرا (٣٣) ونذكرك كثيرا (٣٤) انك كنت بنا بصيرا (٣٥) قال قد اوتيت سؤلك ياموسى (٣٦) .

المعنى : كلمة « تلك» قيل : إشارة ، و قيل : موصولة أي ما الّتي في يمينك ؟ أو بالإشارة : ما تلك في يمينك ؟ و السؤال إنّما يكون لطلب العلم و هو على الله محال لكنّه أراد أن ينبّهه على وقوع أمر عظيم لكي لا يدهش بسبب ذلك الأمر العظيم ويعلم أنّ هذا الأمر إنّما وقع بطريق المعجزة فلا يخاف أنّ الخشبة اليابسة تنقلب ثعباناً عظيماً .

و لمّا تكلّم معه بهيبة الإلهيّة و ألزمه التكاليف الصعبة من علم المبدأ و المعاد و الوسط و ختمه بالتهديد العظيم حيث قال : « لتجزى كلّ نفس » إلى آخر الآية ،

تحيّر موسى و دهش من التحيّر بحيث كاد أن لايعرف اليمين من الشمال .

فلوقيل : إنّ الله تعالى خاطب موسى من غير واسطة ولم يحصل ذلك لمحمد ﷺ فيلزم أن يكون موسى أفضل من محمد .

فالجواب أنّه كما خاطب سبحانه موسى فقد خاطب محمداً في قوله تعالى : « فأوحى إلى عبده ما أوحى [(١)] » و الفرق بينهما أنّ الّذي ذكره مع موسى أفشاه إلى الخلق و الّذي ذكره مع محمد ﷺ كان سرّاً لم يستأهل له أحد من الخلق واُمّة محمد يخاطبون الله مرّات في الليل و النهار كماقال ﷺ : المصلّي يناجي ربّه و في يوم القيامة يكلّم الله المتّقين من اُمّته بقوله تعالى : « سلام قولاً من ربّ رحيم [(٢)] » .

و الصحيح أنّ « تلك » مبتدأ و« ما» خبره مقدّم عليه لما فيه من معنى الاستفهام .

فأجاب موسى [هي عصاي] أعتمد عليها إذا مشيت و التوكّؤ التحامل على العصا في المشي و أخبت بهاورق الشجر لترعاه غنمي و قرىء « أهسّ » بالسين المهملة زجر الغنم [ولي] فيها فوائد اُخرى و لم يقل : « اُخر » بالجمع لتوافق رءوس الآي .

قال ابن عبّاس : كان يحمل عليها زاده و يركزها فيخرج منه الماء و يضرب بها الأرض فيخرج ما يأكل و يطرد بها السباع و إذا ظهرعدوّ حاربت و إذا أراد الاستسقاء من بئر طالت و صارت شعبتاها كالدلو و كان يظهر عليها كالشمعة فتضيء بالليل و كان تحدّثه و تؤنسه و إذا طالت شجرة جناها بمحجنها و كانت هذه الفوائد لعصا بعدأن صار موسى موسى .

قال الله تعالى : [ألقها يا موسى] و لعلّ التأويل أنّ من كان قلبه مشغولاً بالعصا و منافعها و النعلين كيف يكون مستغرقاً في بحر معرفة الله فألق هذه العلائق عنك وأنّ محمداً ﷺ لمّا عرض عليه الجنّة و النار لم يلتفت إلى شيء منها : « و ما زاغ البصر وما طغى [(٣)] » .

---

(١) النجم : ١١ .

(٢) يس : ٥٨ .

(٣) الشعراء : ٧٧ .

و أيضاً في تأويل إلقاء العصا أنّ كلّ ما سوى الله فالالتفات إليه شاغلٌ و هو كالحيّة المهلكة لك كما قال الخليل : « فإنّهم عدوّ لي إلّا ربّ العالمين[١] » و في الحديث : يجاء يوم القيامة بصاحب المال الّذي لم يؤدّ زكاته ويأتي ذلك المال على صورة شجاع أقرع الحديث .

و من قوله : « ألقها يا موسى » يتبيّن أنّ الاستطاعة قبل الفعل لأنّ القدرة على إلقاء العصا إمّا يوجد و العصا في يده أو خارجة من يده فإن أتته القدرة و هي في يده فثبت المطلوب و أنّ الله ليس بظلّام للعبيد . وإذا أتته و ليست في يده و إنّما استطاع أن يلقي من يده ما ليس في يده فذلك محال .

فإن قيل : إنّ الثعبان والجانّ بينهما تناف لأنّ الثعبان هو العظيم من الحيّات و الجانّ الدقيق منها و الصغير منها و أنّ وقت انقلاب العصا كانت حيّة صغيرة دقيقة ثمّ تورّمت و تزايد جرمها حتّى صارت ثعباناً .

فالجانّ [٢] أوّل حالها و الثعبان مآلها على أنّها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجانّ و الدليل على هذا المعنى قوله تعالى : « فلمّا رآها تهتزّ كأنّها جانّ[٢] » و أمّا صفتها : كان لها عرف كعرف الفرس وكان بين لحييها أربعون ذراعاً و كانت تبتلع كلّ ما مرّت به من الصخور و الأحجار حتّى سمع موسى صرير الحجر في فمها وجوفها .

[قال خذها و لا تخف سنعيدها سيرتها الأولى] لمّا نودي موسى و خصّ بتلك الكرامات العظيمة و علم أنّه مبعوث من الله إلى الخلق فلمّا خاف و كان ذلك الخوف من نفرة الطبع و مقتضى البشريّة و الخوف دليل لصحّة نبوّته و صدق ادّعائه لأنّ الساحر يعلم أنّ الّذي أتى به تمويه فلا يخافه البتّة .

فلمّا سمع : « خذها » أدخل يده بين أسنانها فانقلب خشبة و لمّا قال له ربّه : « لا تخف » بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده في فمها و أخذ بلحييها

(١) جواب لما اورد .
(٢) النمل : ١٠ . القصص : ٣١ .

فعادت عصاً و نصب « سيرتها» بنزع خافض أي إلى سيرتها و حالتها الاُولى و على موسى يومئذ مدرعة من صوف قد خلّها بخلال فلمّا أمره سبحانه بقوله : « خذها » لفّ طرف المدرعة على يده فقال الله : يا موسى أرأيت لو أذن الله ممّا تحاذر كانت المدرعة تغني عنك شيئاً ؟ قال : و لكنّي ضعيف ومن ضعف خلقت فكشف عن يده ثمّ وضعها في فم الحيّة فإذا يده في الموضع الّذي كان يضعها إذا توكّأ عليها بين الشعبتين .

و قيل : كانت العصا من اُسّ الجنّة أخرجها آدم و توارثها الأنبياء إلى أن بلغ شعيباً فدفعها إلى موسى عليه السلام و قيل : كانت من عوسج و كان طولها عشرة أذرع على مقدار قامة موسى و المراد من الذراع من المرفق إلى رءوس الأصابع لا الذراع الاصطلاحيّ .

قوله تعالى : [واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية اُخرى] اعلم أنّه يقال : لكلّ ناحيتين جناحان كجناحي العسكر لطرفيه و جناحا الإنسان جنباه و الأصل المستعار منه جناحا الطائر لأنّه يجنحهما و يميل بهما إلى الحركة أي واجمع يدك إلى ما تحت عضدك أو إلى جنبك أو إلى جيبك ادخل يدك تخرج بيضاء لها نور ساطع تضيء بالليل و النهار أشدّ من نور الشمس و القمر من غير بياض كالبرص ففعل فخرجت يده كما قال الله ثمّ ردّها فعادت إلى لونه الّذي كانت عليه ، آية اُخرى زيادة على آية العصا .

[لنريك من آياتنا] أي خذها لنريك بعض آياتنا [الكبرى] و الكبرى بمناسبة الآية و نعت الآية فلو قيل : نعت الآيات فكقوله : « مآرب اُخرى» و «الأسماء الحسنى»

و بالجملة لمّا أظهر سبحانه له هاتين الآيتين أمره بالذهاب [اذهب إلى فرعون] و بيّن العلّة في ذلك و قال : [إنّه طغى] وتكبّر في كفره .

[قال] موسى عند ذلك [ربّ اشرح لي صدري] و وسّعه حتّى أتحمّل ولا أخاف و سهّل عليّ إذا كلّفتني بالرسالة و أطلق عن لساني العقدة الّتي فيه حتّى يفهموا كلامي و كان في موسى رتّة لايفصح معها بالحروف شبه التمتمة و سبب ذلك جمرة طرحها في فيه لمّا أراد فرعون قتله لأنّه أخذ بلحية فرعون و نتفها و هو طفل فقالت آسية بنت مزاحم : لا تفعل لأنّه صبيّ لا يعقل و علامة جهله أنّه لا يميّز الدرّة من الجمرة فأمر

فرعون حتّى اُحضر الدرّة و الجمرة بين يديه فأراد موسى أن يأخذ من الدرّة فضرب جبرئيل يده إلى الجمرة فأخذها و وضعها في فيه فاحترق لسانه .

و بالجملة فأجاب الله مسؤوله بقوله : « قد اُوتيت سؤلك » و هناك ومن مسؤولاته : [و اجعل لي و زيراً من أهلي * هارون أخي] أتقوى به وبرأيه و كونه من أهله يوجب أن يكون له أولى ببذل النصح و كان هارون أخاه لاُمّه و أبيه [و أشركه] معي في الأمر و النبوّة و المراد من الشركة النبوّة و لولا ذلك لكان يجوز له أن يستوزره من غير مسألة لأنّ الوزارة الإعانة و الاستعانة لا يلزم الرخصة و كان هارون أكبر من موسى بثلاث سنين و أتمّ طولا و أبيض جسماً و أفصح لساناً [كي] نتنزّهك عمّا لا يليق بك وإنّما سأل هذه الحاجات ليتوصّل بها إلى الطاعات لأنّها موجبات لها لا للرياسة [ونذكرك كثيراً * إنّك كنت بنا بصيراً] بأحوالنا و عالماً باحتياجنا بهذه الاُمور .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : كن لما لا ترجوا أرجى منك لما ترجوا فإنّ موسى عليه السلام خرج يقتبس لأهله ناراً فكلّمه الله فعاد وهو نبيّ ، وخرجت ملكة سبأ كافرة فأسلمت مع سليمان عليه السلام ، و خرج سحرة فرعون يطلبون العزّة و يعارضون الربّ فرجعوا مؤمنين .

فانظر في فضيلة التسبيح و الدعاء أنّ مثل هذا النبيّ المكرّم الّذي كلّمه الله تعالى و أنعم عليه بهذه النعم العظيمة من المعجزة و الرسالة و قبول مسؤولاته قابل هذه النعم بالذكر و الدعاء فقال : نسبّحك كثيراً .

قوله تعالى و لقد مننا عليك مرة اخرى (٣٧) اذا اوحينا الى امك ما يوحى (٣٨) ان اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدولى و عدوله و القيت عليك محبة منى و لتصنع على عينى (٣٩) اذ تمشى اختك فتقول هل ادلكم على من يكفله فرجعناك الى امك كى تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدريا موسى (٤٠) و اصطنعتك لنفسى (٤١) اذهب أنت و أخوك بآياتي ولا تنيا في ذكرى (٤٢) اذ هبا الى فرعون انه طغى (٤٣) فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى (٤٤) .

المعنى : لمّا أخبر سبحانه بأنّه أتاه طلبته بقوله : « قد اُوتيت سؤلك يا موسى»

عقّبه في هذه الآية بأنّ نعمتنا جارية عليك قديماً و حديثاً و عدّد تلك النعمة بقوله :

[و لقد مننّا عليك مرّة اُخرى] قبل هذه المرّة « و المرّة » الكرّة الواحدة و ذلك حين ألهمنا اُمّك ما كان فيه نجاتك من القتل قيل : رأت بالمنام أن تفعل هكذا أو اُلقي هذا الأمر في خاطرها أو أنّه سبحانه أوحى إلى بعض الأنبياء في ذلك الزّمان كشعيب عليه‌السلام و غيره و ذلك النبيّ عرّفها .

ثمّ فسّر ذلك الإيحاء بقوله : [أن اقذفيه في التابوت] واجعليه بأن ترميه فيه و اقذفي التابوت و الصندوق [في اليمّ] يراد به النيل روي أنّها اتّخذت تابوتاً وجعلت فيه قطناً محلوجاً و وضعت فيه موسى و قيّرت شقوقه و رأسه ثمّ ألقته في النيل و الّذي صنع التابوت قيل : حزقيل مؤمن آل فرعون .

[فليلقه اليمّ بالساحل] و الساحل بمعنى المسحول سمّي بذلك لأنّ الماء يسحله فكأنّه سبحانه أمر اليمّ كما أمر اُمّ موسى ، و المعنى أنّها متى تلقيه في البحر يلقيه اليمّ في الساحل حتماً و اليمّ اسم يقع على البحر و النهر العظيم [يأخذه] بعد إلقائه في اليمّ [عدوّلي و عدوّله] يعني فرعون كان عدوّاً لله و لأنبيائه و عدوّاً لموسى خاصّة لتصوّر أنّ ملكه ينقرض على يده لأنّ فرعون خوفاً من هذا الأمر كان يقتل غلمان بني إسرائيل ثمّ خشي أن يفنى نسلهم فكان يقتل بعد ذلك في سنة ولا يقتل في سنة فولد موسى في السنة الّتي كان يقتل الغلمان فيها فنجاه الله فهذه المنّة الاُولى .

[و ألقيت عليك محبّة منّي] أي جعلتك بحيث يحبّك من يراك حتّى أحبّك عدوّك فرعون وأحبّتك امرأته آسية فربّتك في حجرها و أنّ البحر ألقى التابوت بموضع من الساحل فيه فوهة نهر قصر فرعون و أدّاه النهر إلى بركته فلما رآه أخذه قيل : جعل الله موسى محبوباً إلى الناس فلا يلقاه أحد مؤمن ولا كافر إلّا أحبّه و قيل : كانت ملاحة في عين موسى فما رآه أحد إلّا أحبّه .

قوله : [و لتصنع على عيني] أي و لتربّى و تغذّى بمرءى منّي و يجري أمرك على ما اُريد من الرفاهة في غذائك و ذلك أنّ من صنع الإنسان شيئاً و هو ينظر إليه صنعه كما يحبّ قال القفّال : معناه لترى على عيني و وفق إرادتي و المراد من العين العلم أي

ترى على علم منّي كما أنّ العالم بالشيء يحرسه عن الآفات كما أنّ الناظر إليه يحرسه عن الآفات فالعين كأنّها سبب الحراسة فأُطلق اسم المسبّب مجازاً و قيل: المعنى أن تربى و تغذّى بحياطتي و حفظي كما يقال: عليك عين الله و قوله: إذ تمشي اُختك فتقول هل أدلّكم على من يكفله فرجعناك إلى اُمّك، فصار ذلك تفسيراً لحياطة الله. و « لتصنع » قرىء بكسر اللام و جزم العين بصيغة الأمر و بفتح التاء و النصب أي وليكون تصرّفك و عملك على علم منّي.

و بالجملة لمّا فشا الخبر بمصر أنّ آل فرعون أخذوا غلاماً في النيل وهو لا يرتضع من ثدي كلّ امرأة يؤتى بها لأنّ الله حرّم عليه المراضع غير اُمّه اضطرّوا إلى تتبّع النساء فلمّا رأت اُخت موسى جاءت إليهم منكّرة فقالت: [هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لكم] ثمّ جاءت بالاُمّ فقبل ثديها فرجع إلى اُمّها بلطف الله [فرددناك إلى اُمّك كي تقرّ عينها ولا تحزن].

ومن المنن قوله تعالى: [وقتلت نفساً] خطاءً وهو الّذي وكزه موسى وكان قبطياً كافراً فخاف موسى أن يقتلوه به [فنجّيناك] من خوف الاقتصاص [وفتنّاك فتوناً] واختبرناك اختباراً وعاملناك معاملة المختبر حتّى خلصت للاصطفاء بالرسالة وهذه النعمة الأخيرة من أعظم النعم وقيل: امتحنّاك في تشديد المعاش حتّى رعيت لشعيب عشر سنين.

ثمّ شرح سبحانه في ذلك فقال: [فلبثت سنين في أهل مدين] حين كنت راعياً لشعيب [ثمّ] بعد ذلك [جئت على قدر موسى] أي في الوقت الّذي قدّر لإرسالك نبيّاً قال الشاعر:

نال الخلافة إذ كانت له قدراً ❊ كما أتى ربّه موسى على قدر

وقيل: جئت على الوقت الّذي يوحى فيه إلى الأنبياء وهو على راس أربعين سنة.

[واصطنعتك] واتّخذتك صنيعتي وأخلصتك لتشتغل بإرادتي وإقامة حجّتي وجعلتك بيني وبين خلقي.

[اذهب أنت] وهارون بحججي و آياتي [ولا تنيا] أي ولا تضعفا ولا تفترا في أمري ولا تقصّرا.

[اذهبا إلى فرعون] كرّر الأمر بالذهاب للتاكيد وقيل : إنّ في الأوّل اختصّ موسى بالأمر وفي الثاني أمرهما ليصيرا شريكين في الأمر [إنّه طغى] وجاوز الحدّ في الطغيان .

[فقولا له قولاً ليّناً] لهأي ارفقا في الدعوة والقول ولاتغلظاله وقيل : معنا كنّياه وكنيته أبوالوليد وقيل : أبو العبّاس وقيل : أبومرّة [لعلّه يتذكّر] ما أغفل عنه من عبوديّة نفسه وربوبيّة الله سبحانه ويخشى العقاب والعذاب وقيل : إنّ هارون كان بمصر فلمّا أوحى الله إلى موسى أن تأتي مصر أوحى إلى هارون أن يتلقّى موسى فتلقّاه على مرحلة وذهبا إلى فرعون .

وقال يحيى بن معاذ في قوله تعالى : « لعلّه يتذكّر أو يخشى » إلهي هذا رفقك بمن يدّعي الاُلوهيّة فكيف رفقك بمن أقرّ بالعبوديّة ؟

قيل : إنّ موسى أتاه وقال له : تسلم وتؤمن لربّ العالمين على أنّ لك شبابك فلا تهرم وتكون ملكاً لاتنزع الملك حتّى تموت ولا تنزع منك لذّة الطعام والشراب والجماع حتّى تموت فإذا متّ دخلت الجنّة فأعجبه ذلك وكان لايقطع أمراً دون هامان وكان غائباً فلمّا أقدم هامان أخبره بالّذي دعاه إليه وأنّه يريد أن يقبل منه فقال هامان : قد كنت أرى أنّ لك عقلاً وأنّ لك رأياً بينا أنت ربّ تريد أن تكون مربوباً و بينا أنت تُعبد تريد أن تعبد ؟ فقلّبه عن رأيه ولا ينافي هذه التوصية من الله تعالى لموسى في قوله : « قولاً ليّناً لعلّه يتذكّر أو يخشى » مع علمه بأنّه لايؤمن لأنّه أراد أن يتمّ الحجّة عليه لئلاّ يكون للناس على الله حجّة .

قوله تعالى : قالا ربنا اننا نخاف ان يفرط علينا اوان يطغى (٤٥) قال لاتخافا انني معكما اسمع وارى (٤٦) فاتياه فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم قدجئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى (٤٨) انا قداوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى (٤٨) قال فمن ربكما ياموسى (٤٩) قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى (٥٠) قال فما بال القرون الاولى (٥١) قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى (٥٢) الذى جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلاوأنزل من

السماء ماء فاخرجنا به ازواجا من نبات شتى (٤٣) كلوا وارعوا انعامكم ان في ذلك لايات لاولى النهى (٥٤) منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى (٥٥) ولقد ارينا‌ه آياتنا كلها فكذب و أبى (٥٦) .

لمّا أمر الله موسى وهارون أن يمضيا إلى فرعون ويدعواه إليه [قالا ربنا إنّنا نخاف أن يفرط علينا] ونخشى أن يسبقنا بعذاب ويعجل بعقوبة علينا .

[قال] سبحانه : [لاتخافا إنّني معكما] بالنصرة والحفظ [وأسمع] مايسأله عنكما فألهمكما جوابه [وأرى] ماقصده بكما فأدفعه عنكما قوله : [فأتياه] أي فأتيا فرعون [فقولا] : أرسلنا إليك خالقنا بما ندعوك إليه [فأرسل معنا بني إسرائيل] أي أطلقهم ولا تعذّبهم بالأعمال الشاقّة .

واحتجّ القائلون بعدم فوريّة الأمر بهذه الآية لأنّه لوكان يقتضي الفوريّة لماجاز لهم أن يسألوا ما يزيدهم الاطمينان والثبات ولكانوا يمضون سريعاً إلى حيث أمرهم الله خصوصاً إذا ضمّت إليه مايدلّ على أنّ المعصية غير جائزة على الرسل انتهى .

قوله : [قدجئناك بآية من ربّك] ودلالة واضحة ولائحة من الله يشهدلنا بالصدق والنبوّة [والسلام على مَن اتّبع الهدى] قالوا : لم يرد بالسلام هنا التحيّة بل معناه أنّ من اتّبع الهدى سلم من عذاب الله ويدلّ على هذا المعنى بعده [إنّا قد أُوحي إلينا أنّ العذاب على من كذّب وتولّى] أي إنّما يعذّب الله من كذّب بما جئنابه وأعرض عنه فأمّا من اتّبعه فإنّه يسلم من العذاب .

وفي الكلام حذف وتقدير وهو فأتياه [قال فمن ربّكما] قال لهما فرعون : فمن ربّكما ياموسى ؟ واكتفى بذكر موسى للتغليب والشمول لهارون ولتسوية رءوس الآي . وأراد فرعون من هذا الكلام أنّ ربّكما من أيّ جنس من الأجناس حتّى أفهمه .

فبيّن موسى أنّه تعالى ليس له جنس وإنّما يعرف بأفعاله فقال : [ربّنا الّذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى] أي كلّ شيء قدّره بالصورة فهداه إلى مطعمه ومشربه ومنكحه وغير ذلك من ضروب الهداية الموجبة لبقاء وجوده ووجود نوعه من أُمور معاشه بعضاً و أُمور معاشه ومعاده بعضاً كالإنسان ليتوصّل بها إلى الآخرة و نعيمها أوالآية

بالتقديم والتأخير أي أعطى خلقه كلّ شيء يحتاجون إليه .

[قال] فرعون : [فما بال القرون] الماضية فإنّها لم تقرّ بالله وما تدعو إليه كعبدة الأوثان ومثل قوم نوح وعاد وثمود وأمثالها [قال] موسى : [علمها عند ربّي] أي أعمالهم محفوظة عندالله يجازيهم على أعمالهم والتقدير : علم أعمالهم عند ربّي [في كتاب] أي في اللوح المحفوظ أوما يكتبه الملائكة لايخطىء ربّي [ولا ينسى] أي لايغفل ولا يترك شيئاً [الّذي جعل لكم الأرض مهداً] .

وههنا مسألة وهي أنّه كيف يتصوّر أنّ الّذي يميّز أنّ العشرة أكثر عدداً من الخمسة أن يعتقد نفسه أنّه إله العالمين وهو يدرك عجزه في تدبير بدنه ولكلّ أحد يحصل علم الضروري بأنّه ليس خالقاً وموجداً للعالم فكيف جهل فرعون هذا الأمر وادّعى الربوبيّة ؟ فيحتمل أنّه كان دهريّاً نافياً للمؤثر أصلاً ويحتمل أنّه كان فلسفيّاً قائلاً بالعلّة الموجبة ويحتمل أنّه كان من عبدة الكواكب ويحتمل أنّه كان من الحلوليّة المجسّمة وادّعاؤه الربوبيّة لنفسه بمعنى أنّه يجب عليهم طاعته والانقياد له في تمام الأمور وعدم الاشتغال بطاعة غيره وهذا من أقبح أقسام الشرك والكفر لأنّه قد عرف أنّ ربّه وخالقه غيره وقد جحده وادّعى الإطاعة والعبادة لنفسه .

وقيل : إنّ موسى عليه السلام لمّا دعا فرعون إلى الإقرار بالبعث قال فرعون : [فما بال القرون الأولى] فلمَ لم يبعثوا ؟ فجاوبه موسى : [لايضلّ ربي] إذ لايذهب عليه شيء .

وبالجملة ثمّ زاد موسى في الإخبار عن الله وقال : [الّذي جعل لكم الأرض مهداً] ومقرّاً [و سلك لكم فيها سبلاً] أي أدخل لأجلكم في الأرض طرقاً تسلكونها وسهّل لكم فيها طرقاً من الجبال والأودية والبراري [وأنزل من السماء ماءً] يعني المطر ، تمّ كلام موسى .

ثمّ أخبر الله عن نفسه [فأخرجنا] بذلك الماء [أزواجاً] أي صنوفاً وأقساماً من النبات مختلفة الألوان والطعم والشكل فمنها مايصلح لطعام الإنسان ومنها مايصلح لغير الإنسان [كلوا] ممّا أخرجنا لكم بالمطر من النبات والثمار [وارعوا أنعامكم]وأسيموا مواشيكم واللفظ بالأمر والمراد الإجابة والتذكير بالنعمة إنّ [في ذلك] المذكورات

دلالات لأهل العقل وقيل . لذوي الورع والتقوى .

[منها] أي من الأرض [خلقناكم] أباكم آدم و في الأرض [نعيدكم] إذا أمتناكم [و منها نخرجكم] دفعة اُخرى إذا حشرناكم .

قوله : [ولقد أريناه] أي فرعون [آياتنا كلّها] يعني الآيات التسع [فكذّب] فرعون بجميع ذلك [و أبى] أن يؤمن به فجحد الدليل و إنّما أراد بالآيات الّتي أعطاها موسى .

فإن قيل : إنّ فرعون خاطب الاثنين بقوله : « فمن ربّكما » ثمّ لمَ وجّه النداء إلى أحد هما و هو موسى ؟ لأنّه لخبثه كان يعلم الرتّة الّتي في لسان موسى عليه السلام فأراد استنطاقه للفضيحة كما أنّه لمّا قهره موسى بالحجّة بقوله : « ربّنا الّذي أعطى كلّ شيء خلقه » خاف فرعون أن يزيد موسى بالحجّة و يظهر للناس صدقه و فساد طريقة فرعون فصرفه عن ذلك الكلام شغله بالحكايات بقوله : « فما بال القرون الاُولى » فلم يلتفت إليه موسى جاوبه بقوله : « علمها عند ربّي في كتاب » أي لايتعلّق غرضي بأحوالهم و عاد إلى تتميم كلامه الأوّل و إيراد الدلائل الباهرة كقوله : « ربّنا الّذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى » .

و هذا الدليل ذكره الله لمحمّد صلى الله عليه و آله و سلم في قوله : « سبّح اسم ربّك الأعلى * الّذي خلق فسوّى * و الّذي قدر فهدى[1] » و قال إبراهيم في حججه لنمرود : « فإنّهم عدوّ لي إلّا ربّ العالمين * الّذي خلقني فهو يهدين[2] » لأنّك إذا نظرت إلى أضعف الخلق مثلاً كالبقّ و البعوضة كيف تهتدي إلى مصالح أنفسها من الميل إلى ما ينفعها و الإعراض عن مايضرّها و كذا هداية الحيوانات من عطف الاُمّهات إلى الأولاد وهدى الأولاد لثدي الاُمّهات لبقاء النوع و دوام التناسل و ضروب الانتفاعات من الجوارح لعرفت أنّ ذلك لا يمكن إلّا بإلهام من مدبّر عالم بجميع مايحتاج يكون من غير سنخها و شبهها من جميع جهات المخلوقيّة .

(١) الاعلى : ١ ـ ٣ .

(٢) الشعراء : ٧٧ ، ٧٨ .

و بيانه أنّ دلالة هذه الأشياء و الأمور على وجود المدبّر الصانع القديم المختار بسبب أنّ اتّصاف كلّ جسم من هذه الأجسام بتلك الصفة المخصوصة من التركيب والشكل والقوّة و الهداية إمّا أن يكون واجباً أوجائزاً والأوّل باطل لأنّا نشاهد تلك الأجسام بعد الموت منفكّة عن تلك التراكيب والقوى فدلّ على أنّ ذلك جائز والجائز لا بدّ له من مرجّح و ليس ذلك المرجّح هوالإنسان ولا أبواه لأنّ فعل ذلك يستدعي قدرة عليه و علماً بما فيه من المصالح و المفاسد و كلاهما نائيان عن الإنسان لأنّه بعد كمال عقله يعجز عن تغيير شعرة واحدة و بعد البحث الشديد عن كتب التشريح لايعرف من منافع الأعضاء و مصالحها إلّا القدر القليل فلابدّ أن يكون المتولّي لتدبيرها موجوداً آخر و ذلك الموجود لا يجوز أن يكون جسماً لأنّ الأجسام متساوية في الجسميّة فاختصاص ذلك الجسم بتلك المؤثريّة لابدّ و أن يكون جائزاً فلمّا صار جائزاً افتقر إلى سبب آخر والدور والتسلسل محالان فلابدّ من الانتهاء في سلسلة الحاجة إلى موجود مؤثّر و مدبّر ليس بجسم ولاجسمانيّ . ثمّ تأثير ذلك المؤثّر إمّا أن يكون بالذات أو بالاختيار و الأوّل محال لأنّ الموجب لايميّز مثلاً عن مثل وهذه الأجسام متساوية في الجسميّة فلمَ اختصّ بعضها بالصورة الفلكيّة و بعضها بالصورة العنصريّة و بعضها بالنباتيّة و بعضها بالحيوانيّة فثبت أنّ المؤثّر و المدبّر قادر و أن يكون واجب الوجود بالذات و إلّا لافتقر إلى مدبّر آخر و يلزم التسلسل وهو محال . انتهى .

قوله تعالى : قال اجئتنا لتخرجنا من ارضنا بسحرك ياموسى (٥٧) فلناتينك بسحر مثله فاجعل بيننا و بينك موعدا لا نخلفه نحن ولاانت مكانا سوى (٥٨) قال موعدكم يوم الزينة و ان يحشر الناس ضحى (٥٩) فتولى فرعون فجمع كيده ثم اتى (٦٠) قال لهم موسى و يلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب و قد خاب من افترى (٦١) فتنازعوا أمرهم بينهم واسروا النجوى (٦٢) قالوا ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من ارضكم بسحرهماويذهبا بطريقتكم المثلى(٦٣)فاجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا و قد افلح اليوم من استعلى (٦٤) قالوا يا موسى اما ان تلقى واما ان نكون

اول من القى (٦٥) قال بل القوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى (٦٦).

ثمّ حكى سبحانه عن فرعون أنّه نسب موسى إلى السحر تلبيساً على قومه [قال] فرعون : [أجئتنا لتخرجنا من] أرض مصر لنأتينّك مثل ما أتيتنا فاجعل . وإنّما قال اللعين : « لتخرجنا » لإلقاء الشبهة في مسامع أهل مصر ما يصيرون مبغضين لموسى جدّاً لأنّ هذه الأمر صعب نهايةً بحيث جعله الله تعالى مساوياً للقتل في قوله : « أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم[١] » ثمّ أورد الشبهة الطاعنة لنبوّته حيث نسبه إلى السحر لا المعجز .

قوله : [فاجعل بيننا و بينك موعداً لا نخلفه نحن و لا أنت] و الموعد يمكن أن يكون مصدراً ويجوز أن يكون اسماً لمكان الوعد كقوله : « وإنّ جهنّم لموعدهم[٢] » و يجوز أن يكون اسم زمان الوعد كقوله « إنّ موعدهم الصبح[٣] » و الّذي في هذه الآية بمعنى المصدر أي اجعل بيننا و عداً لأنّ الوعد هو الّذي يصحّ وصفه بالخلف .

قوله : [سوى] قرىء بضمّ السين و بكسرها لغتان مثل طوى و طوى و قرىء منوّناً و غير منوّن قيل : المراد مكاناً مستوياً لا يحجب العين ما فيه من الارتفاع والانخفاض أي لايكون فيه ارتفاع و انخفاض حتّى يشاهد كلّ الحاضرين ما يجري أو المعنى مكاناً يستوي حالنا في الرضا و الانتصاف و يكون نصفاً بيننا و بينك . و قيل : متساوي المسافة على الفريقين .

[قال] موسى : [موعدكم يوم الزينة] وكان يوم عيد لهم يسمّى يوم الزينة لأنّ الناس كانوا يتزيّنون فيه و يزيّنون أسواقهم و يوم [يحشر الناس] حال اجتماعهم في الضحى . و قيل : يوم الزينة كان عيدهم يوم النيروز . و قيل : يوم سوق لهم و قيل : يوم عاشورا و إنّما وعدهم ذلك اليوم موسى لتكون كلمة الله هي العليا و يظهر الحقّ من الباطل على الرءوس في المجمع العامّ ليحدّثوا بذلك الأمر العجيب .

(١) النساء : ٦٥ .
(٢) الحجر : ٤٣ .
(٣) هود : ٨١ .

[فتولّى فرعون] و انصرف و فارق موسى على هذا الموعد ثمّ جمع حيلته و مكره و ذلك جمع السحرة [ثمّ أتى] و حضر الموعد في الموضع بالسحرة و بالقوم وبالآلات .

قال ابن عبّاس : كانوا اثنين و سبعين ساحراً مع كلّ واحد منهم حبل و عصا . و قيل : كانوا أربعمائة . وقيل : أكثر من ذلك . ثمّ ضُربت قبّة لفرعون فجلس فيها ينظر إليهم وكان طول القبّة سبعين ذراعاً .

ثم بيّن موسى عليه السلام قبل كلّ شيء الوعيد والموعظة ممّا قالوه وحذّرهم فقال : [ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب و قد خاب من افترى] و أنّ الّذي تزعمون ليس بحقّ وأنّه سحر ولا يمكنكم أيّتها السحرة معارضتي . و معنى « ويلكم » أي ألزمكم الله الويل و يجوز على النداء، و قوله : « فيستحكم بعذاب » والسحت استقصاء الشعر في الحلق أي يستأصلكم العذاب ويهلككم .

قوله : [فتنازعوا أمرهم بينهم] أي تشاوروا و تفاوضوا في حديث موسى و هارون و فرعون أو تشاورت السحرة في ما هيّأوه للمعارضة مع موسى فيمن يبتدي في الإعمال والإلقاء .

[وأسرّوا النجوى] يعني أنّ السحرة أخفوا كلامهم و تناجوا في ما بينهم سرّاً من فرعون فقالوا : إن غلب علينا موسى اتّبعناه لأنّ موسى لمّا قال لهم : « و يلكم لاتفتروا على الله كذباً » قال السحرة بعضهم لبعض : ما هذا بقول ساحر .

[قالوا إن هذان لساحران] و في رفع « هذان » ذكروا وجوهاً :

الأوّل أنّ كلمة « إن » ضعيفة في العمل لأنّها تعمل بسبب المشابهة للفعل لا بالإصالة و إذا كان عملها بالمشابهة لا بالإصالة فهي ضعيفة في العمل فجاز بقاء المبتداء على حاله .

و قيل : « إن » في الآية وقعت موقع نعم أي نعم هذان لهما ساحران واللام دخلت على المبتدأ و هو ضميرهما لا على الخبر و ذكروا و قالوا : « إن هذان لساحران » مثل « إنّ الّذين آمنوا والّذين هادوا و الصابئون والنصارى (١) » ومثل قوله : « لكن

(١) المائدة : ٧٢ .

الراسخون في العلم منهم ـ إلى قوله : ـ والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة [١] » .

و قيل : « إن هذان لساحران » بالتخفيف أي ما هذان إلّا ساحران .

و قال الأخفش : [إنهذان لساحران] خفيفة في معنى ثقيلة لغةً يرفعون بها و يدخلون اللام ليفرّقوا بينهما وبين الّتي تكون في معنى « ما » .

وقيل : وهو الأقوى إنّ هذه لغة لبعض العرب لغة لحارث بن كعب و كنانة وخثعم وبعض بني عذرة وبني ربيعة ، واستشهد الفرّاء بقولهم :

تزوّد منّا بين اُذناه ضربة ❊ دعته إلى هاتى التراب عقيم

وقال الجاهليّ من بني ضبّة :

أعرف منه الجيد والعينانا ❊ ومنخرين أشبها ظبيانا

وقال الآخر :

كان يميناً سجل ومضيفه ❊ يراق دملن يبرح الدهر ثاويا

وأنشدوا :

إنّ أباها وأبا أباها ❊ قدبلغا في المجد غايتاها

وقال ابن جنّي : عن قطرب صاحب كتاب مثلّث :

هناك أن تبكي بشعشعان ❊ رحب الفؤاد طائل اليدان

و أمثاله كثيرة : وبالجملة قالوا : إن هذان لساحران [يريدان أن يخرجاكم] من ملك مصر [و يذهبا بطريقتكم المثلى] الشريفة قال الفرّاء : الطريقة الرجال الأشراف الّذين هم قدوة لغيرهم يقال : هم طريقة قومهم وللواحد هو طريقة قومه .

وحاصل المعنى أنّهم أظهروا بأنّ موسى وهارون يريدان أن يذهبا بأشراف قومكم وأكابركم وهم بنو إسرائيل لقول موسى : « أرسل معنا بني إسرائيل » و بنو إسرائيل كان يومئذ أكثر عدداً وأموالاً

(١) النساء : ١٦١ .

ومن المفسّرين من فسرّ الطريقة المثلى بالدين وكان عندهم دينهم الطريقة المثلى الأمثل الأشبه بالحقّ ومنهم مَن فسّر الطريقة بالمال والجاه وغرضهم منهذا البيان تنفير الناس عن اتّباع موسى .

[فأجمعوا كيدكم] أي لا تدعوا من كيدكم شيئاً إلّاجئتم به [ثمّ ائتوا] مصطفّين مجتمعين لكي يكون أنظم لأمركم وأشدّ لهيبتكم [وقد أفلح اليوم من استعلى] وغلب وعلا وهذا قول بعض السحرة .

[قالوا ياموسى إمّاأن تلقي وإمّا أن نكون أوّل من ألقى] أي إمّا أن تلقي مامعك أو نلقي مامعنا وهذا التخيير مع تقديمه في الذكر حسن أدب منهم وتواضع منهم لموسى لاجرم أنّ الله رزقهم الإيمان ثمّ إنّ موسى قابل أدبهم بأدب بقوله :

[قال بل ألقوا] فلو قيل : كيف أمرهم موسى بإعمال السحر والكفر فإنّهم قصدوا بذلك تكذيب موسى ؟ والجواب أنّ موسى لمّا علم أنّ إلقاءهم لا يترتّب عليه أمر بل يحصل الخذلان لهم وإبطال معتقداتهم ويظهر الحقّ والباطل منهذا الإلقاء ثمّ هذ الأمر مشروط بكونهم محقّين كقوله تعالى : « فأتوا بسورة من مثله إن كنتم صادقين (١) » أي قادرين وكان هذا الإلقاء طريقاً إلى دفع الشبهة فله أن يأمرهم به .

وههنا حذف في الكلام وتقديره : فألقوا مامعهم [فإذا حبالهم وعصيّهم يخيّل إليه من سحرهم أنّها تسعى] والضمير في « إليه » راجع إلى موسى وقيل : إلى فرعون أي كان يرى الحبال أنّها تسير وتعدو مثل الحيّات .

وإنّما قال : « يخيّل إليه » لأنّها لم تكن تسعى حقيقة وإنّها تحرّكت لأنّهم جعلوا داخلها الزيبق فلمّا حميت الشمس طلب الزيبق الصعود والخروج فحرّكت الشمس ذلك قال ابن عبّاس : ألقوا حبالهم وعصيّهم فخيّل إلى موسى أنّ الأرض كلّها حيّات وأنّها تسعى فخاف فلمّا قيل له : « ألق ما في يمينك » .

وذلك قوله تعالى :

فاوجس فى نفسه خيفة موسى (٦٧) قلنا لاتخف انك انت الاعلى(٦٨)

(١)

والق مافى يمينك تلقف ماصنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث اتى (٦٩) فالقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى (٧٠) قال آمنتم قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلاقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف ولاصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً و أبقى (٧١) قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحيوة الدنيا (٧٢) انا آمنا بربنا ليغفرلنا خطايانا و ما اكرهتنا عليه من السحر والله خيروابقى (٧٣) انه من يات ربه مجرماً فان له نارجهنم لا يموت فيها ولايحيى (٧٤) ومن ياته مؤمنا قدعمل الصالحات فاولئك لهم الدرجات العلى (٧٥) جنات عدن تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى (٧٦).

المعنى : [فأوجس في نفسه] أي أحسّ موسى في نفسه خوفاً و وجد في نفسه ما يجده الخائف و السبب في ذلك أنّه خاف أن يلتبس على الناس أمرهم فيتوهّموا أنّهم فعلوا مثل فعله فيظنّوا المساواة ولايتّبعونه وقيل : خوف الطباع البشريّ أوخاف أن يتفرّق الناس قبل إلقائه العصا و يبقوا في الشبهة .

قلنا وخاطبناموسى : [لاتخف إنّك أنت الأعلى] عليهم بالظفر والغلبة وألق العصا تبتلع و تلقف ما صنعوا من السحر و لمّا ألقى عصاه صارت حيّة و طاف حول الصفوف حتّى رآها الناس كلّهم ثمّ قصدت الحبال و العصيّ فابتلعها كلّها على كثرتها .

قوله : [إنّما صنعوا كيد ساحر] و العرب تقول في الكذب : هو كلام مصنوع و موضوع و مجعول أي أنّ صنيعهم حيلة ومكر [ولايفلح الساحر] بمقصوده و بغيته إذ لاحقيقة له حيث كان من الأرض و [حيث أتى] بسحره لافوز له لأنّ الحقّ يبطله .

فلمّا ألقى عصاه وابتلع ماصنعوه [فألقي السحرة] حال كونهم ساجدين وخرّوا لأنّهم كانوا من الطبقة العليا في السحر فلمّا رأوا ما فعله موسى عرفوا أنّه خارج عن الصناعة و ليس أمره من السحر فاستدلّوا بفناء أجسام الحبال والعصيّ العظيمة على القادر العالم و بظهورها على يد موسى على كونه رسولاً من عندالله فلاجرم تابوا و آمنوا بربّ العالمين .

قال الزمخشري : ما أعجب أمرهم ! قد ألقوا حبالهم و عصيهم للكفر والجحود ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر و السجود فما أعظم الفرق بين الإلقاءين !

و روي أنهم من سرعة ما سجدوا أُلقوا ولم يرفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار .

عن عكرمة : لما خر واسجداً أراهم الله منازلهم ، و هذا بعيد لأنهم لو كانوا كذلك لما يليق أن يقولوا : « إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا » ولو أنه جاز منهم هذا القول كما قال إبراهيم : « والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي (١) » فلمَ لا يجوز في مثل السحرة ؟

قوله : [قالوا آمنا برب هارون وموسى] واستدلوا بهذه الآية التعليمية أنهم آمنوا بالله الذي عرفوه من قبل هارون وموسى ، فدل ذلك على أن معرفة الله لا يستفاد إلا من الإمام ، و الحق أن هذا القول قوي ويؤيد هذا القول قولهم عليهم السلام : بنا عرف الله و لولانا ما عرف الله .

و بالجملة [قال] فرعون للسحرة : قد صدقتم لموسى قبل إذني . و قد بلغ من الجهل أنه لا يُعتقد دين إلا بإذنه و الفرق بين الإذن و الأمر أن في الأمر دلالة على إرادة الآمر المامور به وليس في الإذن ذلك . وقيل : قال اللعين ذلك لأن يموه على الناس بقوله : [إنه لكبيركم الذي علمكم السحر] وأنتم تلامذته لأنه خاف أن يفعل الناس ما فعلوا فألقى هذه الشبهة و تصلف باقتداره و تمويهه بهذا الكلام .

[فلأُقطعن أيديكم و أرجلكم من خلاف] والقطع من خلاف أن يقطع اليد اليمنى و الرجل اليسرى لأن كل واحد من العضوين خلاف الآخر أي لأُقطعنها مختلفات و اليمين خلاف الشمال . و جملة « من خلاف » منصوبة على الحال و اتصفت بالاختلاف .

[ولأُصلبنكم في جذوع النخل] فشبه اللعين و قوع الصلب و تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعى في وعائه قال الرازي هذا المعنى ، و قال : والذي يقال في المشهور أن في بمعنى على فضعيف .

---

(١) الشعراء : ٨٢ .

ثمّ قال : [ولتعلمنّ أيّنا أشدّ عذاباً و أبقى] و أدوم أنا أم ربّ موسى ؟

فلو قيل : إنّ فرعون مع نقض عهده في تلك الساعة بمشاهدة انقلاب العصا ثعباناً و قصد ابتلاعها قصر فرعون وآل الأمر أن استغاث بموسى كيف يعقل أن يهدّد السحرة و يبالغ هكذا في وعيد هم إلى هذا الحدّ و يستهزىء بموسى في قوله : « أيّنا أشدّ عذاباً و أبقى » ؟

قلنا : إنّه كان في أشدّ الخوف في قلبه إلّا أنّه كان يظهر الجلادة تمشية لأمره و ناموسه و خوفاً من أن ينقلب الناس دفعة واحدة عليه، وأمّا حال السحرة قال ابن عبّاس : كانوا في النهار سحرة كفرة و في آخره شهداء بررة .

[و قالوا] لفرعون : [لن نؤثرك] و نفضّلك على ما آتانا من الأدلّة الدالّة على صدق موسى [فاقض ما أنت قاض] أي فاصنع ما أنت صانعه ، فأيّ شيء تصنع بنا ؟ فإنّا لانرجع عن الإيمان إنّما تقضي وتصنع بسلطانك في هذه الحياة الدنيا دون الآخرة .

[إنّا آمنّا بربّنا ليغفرلنا خطايانا] من الشرك و المعاصي [و ما أكرهتنا عليه من السحر] و إنّما قالوا ذلك لأنّ الملوك كانوا يجبرون بعض الناس على تعليم السحر كيلا يخرج السحر من أيديهم حتّى يعجزون عن تمويه النّاس في دعاويهم الباطلة . قيل : إنّ السحرة قبل أن يقابلوا موسى قالوا لفرعون : أرنا موسى إذا نام فأراهم إيّاه فإذا هو نائم و عصاه تحرسه ، فقالوا : ليس هذا بسحر إنّ الساحر إذا نام بطل سحره ، فأبى إلّا أن يعملوا فذلك إكراههم .

[والله خير] لنا [و أبقى] وهذا جواب قوله : «ولتعلمنّ أيّنا أشدّ عذاباً و أبقى» انتهى الإخبار عن السحرة .

ثمّ قال الله سبحانه : [إنّه من يأت ربّه مجرماً] قيل : إنّه من بقيّة قول السحرة ، قيل : المجرم هنا الكافر ، و قيل : الّذي أجرم و فعل مثل فعل فرعون [فإنّ له جهنّم لايموت فيها] فيستريح من العذاب [و لايحيا] حياة فيها راحةٌ بل هو معاقب بأنواع العذاب ، والهاء ضمير الشأن .

قال بعض المفسّرين : سبحان الله ! القوم كفّار وهم أشدّ الكافرين أثبت في قلوبهم

الإيمان في طرفة عين فلم يتعاظم عندهم أن خاطبوا فرعون بقولهم : « فاقض ما أنت قاض » في ذات الله و إنّ أحدكم اليوم ليصحب القرآن ستّين عاماً ثمّ أنّه يبيع دينه بثمن حقير .

استدلّت المعتزلة بهذه الآية في القطع على وعيد أصحاب الكبائر ، قالوا : صاحب الكبيرة مجرم و كلّ مجرم فإنّ له نار جهنّم لقوله : « إنّه من يأت ربّه مجرماً » و كلمة «من» في معرض الشرط تفيد العموم بدليل أنّه يجوز الاستثناء في كلّ واحد منها والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل .

و اعترض بعض المتكلّمين على هذا الكلام فقال : لانسلّم أنّ صاحب الكبيرة مجرم والدليل عليه أنّه تعالى جعل المجرم في مقابلة المؤمن فإنّه قال في هذه الآية : « و من يأته مؤمناً قد عمل الصالحات » و قال : « إنّ الّذين أجرموا كانوا من الّذين آمنوا يضحكون [1] » و أيضاً فإنّه قال : « فإنّ له جهنّم لايموت فيها و لايحيى » والمؤمن صاحب الكبيرة و إن عذّب بالنار لايكون بهذا الوصف و في الخبر الصحيح : يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرّة من الإيمان .

و هذا الجواب ليس جواباً للمعتزلة لأنّهم يقولون : إنّ صاحب الكبيرة ليس بمؤمن و إنّ هذا الجواب جواب من يعتقد أنّ الكبيرة لا يخرج صاحبها عن الإيمان .

و بالجملة ثمّ ذكر حال المؤمنين فقال : [و من يأته مؤمناً] مصدّقاً بالله و بأنبيائه [قد عمل الصالحات] أي أدّى الفرائض [فاُولئك لهم الدرجات العلى] أي درجات الجنّة و بعضها أعلى من بعض و العلى جمع العليا و هي تأنيث الأعلى [جنّات عدن] و إقامة و دوام [تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكّى] وتطهّر بالإيمان و الطاعة عن دنس الكفر ، و قيل : من تزكّى طلب الزكاء بالعمل .

قوله تعالى : و لقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبسا لا تخاف دركاً ولاتخشى (٧٧) فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ماغشيهم (٧٨) واضل فرعون قومه وماهدى (٧٩) يابنى اسرائيل

(١) المطففين : ٣٠ .

قد أنجيناكم من عدوكم و و اعدناكم جانب الطور الايمن و نزلنا عليكم المن والسلوى (٨٠) كلوا من طيبات ما رزقناكم ولاتطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى (٨١) .

المعنى : لمّا وقعت هذه القضيّة و رأى فرعون من الآيات فلم يؤمن هو و قومه و استجاب بعض بني إسرائيل موسى فأراد الله تمييزهم من طائفة فرعون و خلاصهم فأوحى الله إلى موسى أن أسر بهم أي المستجيبين ليلاً أي في الليل من البحر و إنّما أمره بالإسراء لئلاّ يكون اجتماعهم بمشهد فرعون فيمنعهم عن استكمال مرادهم و بسبب سراهم بالليل يكون فرعون عائقاً عن طلبهم ولوتقارب العسكران لايرى عسكر موسى عسكر فرعون فيهابوهم ، فأمر الله موسى أن يضرب عصاه في البحر و اُريد بضرب الطريق جعل الطريق بالضرب يبساً . و « يبساً » قرىء بسكون الباء وفتح الياء ، واليبس و اليابس شيء واحد و المعنى : طريقاً ذايبس ، ومن قال بتسكين الباء فالمراد : ما كان فيه وحل ولا نداوة فضلاً عن الماء .

قوله [لا تخاف دركاً و لا تخشى] أي لا تخاف أن يدركك فرعون فإنّي أحول بينك و بينه بالتأخّر عنك أي غير خائف و لاخاش و في قوله « لا تخشى » مستأنفة كأنّه و أنت لا تخشى «لا» بمعنى النفييّة لا النهييّة . و قيل : بمعنى الناهية ، فحينئذ الألف ليست الألف المنقلبة من لام الفعل بل زائد للإطلاق من أجل الفاصلة مثل « فأضلّونا السبيلا [١] » و مثل « و تظنّون بالله الظنونا» [٢] .

[فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليمّ ماغشيهم] و ألحق جنوده بهم و بعث بجنوده في أثرهم فأحاطهم و لحقهم مالحقهم ، وفي البيان تهويل وتعظيم للواقعة مثل قول أبي النجم : « أنا أبوالنجم و شعري شعري » أي تعلم شعري أيّ شعر . فهلك فرعون و قومه و نجا موسى و قومه فليعتبر المعتبرون .

[و أضلّ فرعون قومه و ماهدى] أي صرفهم عن الحقّ و ما هداهم إلى طريق

(١) الاحزاب : ٦٧ .
(٢) » : ١٠ .

النجاة. قال القاضي: لوكان الضلال من خلق الله لما جاز أن يقول: «و أضلّ فرعون قومه» و إنّه تعالى ذمّه بذلك فكيف يجوز أن يكون خالقاً للكفر؟ و إنّما قال: «وما هدى» بعد قوله «أضلّ» ليتبيّن أنّه استمرّ على ذلك. وحذف المفعول لمكان رأس الآية، و إنّما قال سبحانه هذا الكلام تكذيباً لقول فرعون إذكان يقول لقومه: «و ما أهديكم إلّا سبيل الرشاد[1]».

قال ابن عبّاس: لمّا أمر الله موسى أن يقطع بقومه البحر وكان موسى وبنو إسرائيل استعاروا من قوم فرعون الحليّ والدوابّ لعيد يخرجون إليه فخرج بهم ليلاً وهم ستّمائة ألف وثلاثة آلاف ونيّف ليس فيهم ابن ستّين ولا عشرين، وقدكان يوسف عليه السلام عهد إليهم عند موته بجسده أو بعظامه ـ على أنّ معنى العظام الجسد ـ معهم من مصر فلم يخرجوا بها فتحيّر القوم حتّى دلّتهم عجوز على الموضع فأخذوها فقال موسى للعجوز: احتكمي، فقالت: أكون معك في الجنّة.

و بالجملة و خرج فرعون في طلب موسى عليه السلام وعلى مقدّمته ألف ألف وخمسمائة ألف سوى الجنبين و القلب فلمّا انتهى موسى إلى البحر قال: ههنا اُمرت ثمّ قال موسى للبحر: انفرق، فأبى فأوحى الله إليه: أن اضرب بعصاك البحر، فضربه فانفلق فقال لهم موسى: ادخلوا فيه، فقالوا: كيف وأرضه رطبة؟ فدعا الله فهبّت عليها الصبا فجفّت فقالوا: نخاف الغرق في بعضنا، فجعل بينهم كوى[2]، حتّى يرى بعضهم بعضاً ثمّ دخلوا حتّى جاوزوا البحر فأقبل فرعون إلى تلك الطرق فقال قومه له: إنّ موسى قدسحر البحر فصار كماترى، وكان على فرس حصان و أقبل جبرئيل على رمكة في ثلاثة و ثلاثين من الملائكة فصار جبرئيل بين يدي فرعون و أبصر الحصان الرمكة فاقتحم بفرعون على أثرها و صاحت الملائكة في الناس: الحقوا الملك، حتّى إذا دخل آخرهم و كاد أوّلهم أن يخرج التقى البحر عليهم فغرقوا فسمع بنو إسرائيل خفقة البحر عليهم فقالوا: يا موسى ما هذا؟ قال: فأغرق الله فرعون وقومه فرجعوا لينظروا إليهم فقالوا: يا موسى ادع الله أن يخرجهم لنا

---

(١) المؤمن: ٢٩.
(٢) جمع الكوة: الخرق في الحائط.

حتّى ننظر إليهم فدعا فلفظتهم البحر إلى الساحل و أصابوا من سلاحهم .

و ذكر ابن عبّاس أنّ جبرئيل قال : يا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم لورأيتني وأنا أدسّ فرعون في الماء و الطين مخافة أن يتوب و سيأتي تمام القصّة في سورة الشعراء .

قوله تعالى : [يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوّكم و واعدناكم جانب الطور الأيمن] فشرح الله نعمة بإزالة العدوّ عنهم أوّلاً ثمّ ثنّى بذكر المنفعة الدينيّة لأنّه سبحانه أنزل عليهم كتاباً فيه بيان دينهم و شرح شريعتهم ثمّ ثلّث بذكر المنفعة الدنيويّة بقوله :

[ونزّلنا عليكم المنّ والسلوى] يعني في التيه[كلوا من طيّبات ما رزقناكم]صورته صورة الأمر والمراد الإباحة كقوله :«و إذا حللتم فاصطادوا»[1] [ولا تطغوا فيه] ولا تتعدّوا عن الحلال إلى الحرام و لا تتناولوا من الحلال للاستعانة به على المعصية فيجب عليكم عقوبتي و [يحلّ عليكم غضبي] ومن ضمّ الحاء فالمعنى : فينزل عليكم عقوبتي [و من يحلل عليه غضبي فقد هوى] وهلك و إنّما نسب إلى الطور جانب اليمين و ليس للجبل يمين و يسار فالمراد أنّ طور سيناء واقع عن يمين من انطلق من مصر إلى الشام و كان موسى خارجاً من مصر وقاصداً بلاد المقدّسة ، و قرىء الأيمن بالكسر على جرّ الجار نحو جحر ضبّ خرب .

قوله تعالى : وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى (٨٢)

اعلم أنّ الله وصف نفسه في القرآن بكونه غفّاراً و غفوراً و غافراً وعبّر عنه بلفظ الماضي و المستقبل و الأمر والمصدر . في هذه الآية « و إنّي لغفّار ، إلخ» والمصدر قوله : « غفرانك ربّنا[2] » والمغفرة : « وإنّ ربّك لذو مغفرة للنّاس[3] » و بصيغة الماضي قوله في حقّ داود : « فغفرنا له ذلك[4] » و بصيغة المستقبل : « إنّ الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر مادون ذلك[5] » و الاستغفار : « و استغفر لذنبك و للمؤمنين

(١) المائدة : ٣ .　(٢) البقرة : ٢٨٦ .
(٣) الرعد : ٧ .　(٤) ص : ٢٥
(٥) النساء : ٤٧ و ١١٥ .

والمؤمنات (١) » و في حقّ نوح : « استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً (٢) » و في الملائكة : « و يستغفرون لمن في الأرض (٣) » والأنبياء عليهم السلام طلبوا المغفرة ؛ أمّا آدم عليه السلام فقال : « و ان لم تغفرلنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين (٤) » و أمّا نوح فقال : « و إلّا تغفرلي و ترحمني (٥) » و أمّا إبراهيم فقال : « والّذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين (٦) » و أمّا يوسف فقال في إخوته : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم (٧) » و أمّا موسى ففي قصّة القبطيّ : « ربّ اغفرلي ولأخي (٨) » و أمّا داود : « فاستغفر ربّه وخرّ راكعاً و أناب (٩) » و أمّا سليمان : « قال ربّ اغفرلي وهب لي ملكاً (١٠) » و أمّا عيسى : « و إن تغفر لهم فإنّك أنت العزيز الحكيم (١١) » و أمّا محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم فقوله : « واستغفر لذنبك و للمؤمنين والمؤمنات (١٢) » .

و بالجملة [و إنّي لغفّار لمن تاب] و رجع عن الشرك و المعصية و آمن و صدّق بوحدانيّته و صدّق رسله و عمل صالحاً وأدّى الفرائض [ثمّ اهتدى] أي أدام على الهدى و لزم الإيمان إلى أن يموت لايكون يرجع بعد التوبة إلى المعصية و الشرك أي بشرط أن يبقى على هدايته بسبب التوبة و الإيمان و العمل ، و المراد من الاهتداء الاستعانة على التوبة و الإيمان و يؤيّد هذا القول قوله تعالى : « إنّ الّذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا (١٣) » كأنّه قال تعالى الإتيان بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ممّا قديتّفق لكلّ أحد إنّما الحكم و الصعوبة في المداومة على ذلك و الاستمرار عليه : فالأوّل الرجوع و الندم ثمّ الإذعان والتصديق بما جاء به النبيّ و ما أمر الله و هوالإيمان ، والثالث العمل بالفرايض حسب ماورد من أعمال الجوارح ، والرابع البقاء على هذه الأمور الثلاثة

(١) محمد : ١٩ . (٢) نوح : ١٠ .
(٣) الشورى : ٥ . (٤) الاعراف : ٢٢ .
(٥) هود : ٤٧ . (٦) الشعراء : ٨٢ .
(٧) يوسف : ٩٢ . (٨) الاعراف : ١٥٠ .
(٩) ص : ٢٦ . (١٠) ص : ٢٥
(١١) المائدة : ١٢١ . (١٢) محمد : ١٩.
(١٣) فصلت : ٣٠ . الاحقاف : ١٣ .

و هذا الأخير من ما يتعلّق بتطهير القلب من الأخلاق الذميمة و هوالمسمّى في لسان العرفاء بالطريقة؛ فبعدانكشاف حقايق الأشياء للسالك بسبب المداومة على هذه الطريقة فذلك الانكشاف يسمّى بلسان العرفاء الحقيقة .

و عن ابن عبّاس في تفسيرقوله « ثمّ اهتدى» أي أخذ بسنّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ولم يسلك سبيل البدعة ، عن ابن عبّاس والرّبيع بن أنس .

و قال أبو جعفر الباقر عليه السلام : ثمّ اهتدى إلى و لايتنا أهل البيت ؛ فوالله لو أنّ رجلاً عبدالله عمره ما بين الركن و المقام ثمّ مات و لم يجيء بولايتنا لأكبّه الله في النار على وجهه . رواه الحاكم أبوالقاسم الحسكاني بإسناده و أورده العيّاشي في تفسيره عن عدّة طرق .

و في المجالس عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال لعليّ عليه السلام في حديث : ولقد ضلّ من ضلّ عنك و لن يهتدي إلى الله من لم يهتد إليك و إلى ولايتك و هو قول ربّي عزّ وجلّ : « و إنّي لغفّار لمن تاب وآمن و عمل صالحاً ثمّ اهتدى» إلى ولايتك .

و في المناقب عن السجّاد عليه السلام في هذه الآية « ثمّ اهتدى» قال: إلينا أهل البيت

و في المحاسن عن الصادق عليه السلام « ثمّ اهتدى »قال: إلى ولايتنا .

و في الكافي عن الباقر عليه السلام قال ـ وهومستقبل البيت ـ:إنّما اُمر الناس أن يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها ثمّ يأتونا فيعلمونا ولايتهم لنا و هو قول الله: « وإنّي لغفّار لمن تاب و آمن وعمل صالحاً ثمّ اهتدى » ـ ثمّ أومأ بيده إلى صدره ـ إلى ولايتنا .

و العيّاشي عن الصادق عليه السلام قال : لهذه الآية تفسير يدلّ ذلك على أنّ الله لا يقبل من أحد عملاً إلّا ممّن لقيهمنه بالوفاء بذلك التفسير و ما اشترط منه على المؤمنين .

و في الكافي عن الصادق عليه السلام قال : إنّكم لا تكونون صالحين حتّى تعرفوا و لا تعرفون حتّى تصدّقوا و لا تصدّقون حتّى تسلّموا أبواباً أربعة لايصلح أوّلها إلّا بآخرها ضلّ أصحاب الثلاثةوتاهوا تيهاًعظيماًإنّ الله لايقبل إلّا العمل الصالح و لا يقبل الله إلّا بالوفاء بالشرط والعهد فمن وفى الله بشرطه وعهده و استعمل ماوصف في عهده نالما عنده و استكمل وعده إنّ الله أخبر العباد بطرق الهدى وشرع لهم فيها المنار و أخبرهم كيف

يسلكون فقال: « وإنّي غفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثمّ اهتدى » و قال: « إنّما يتقبّل الله من المتّقين» (١) فمن اتّقى الله فيما أمره لقي الله مؤمناً بما جاء به محمّد صلى الله عليه وآله هيهات هيهات ! فات قوم وماتوا قبل أن يهتدوا وظنّوا أنّهم آمنوا و أشركوا من حيث لا يعلمون إنّه من أتى البيوت من أبوابها اهتدى و من أخذ في غيرها سلك طريق الردى وصل الله طاعة وليّ أمره بطاعة رسوله و طاعة رسوله بطاعته فمن ترك طاعة ولاة الأمر لم يطع الله ولا رسوله و هو الإقرار بما نزل من عندالله .

قال الفيض قدس سرّه : المراد بالأبواب الأربعة في الحديث الترتيب في الآية : التوبة من الشرك ، والإيمان بالوحدانيّة ، و العمل الصالح و الاهتداء إلى الحجج الاثني عشر عليهم السلام و أصحاب الثلاثة إشارة إلى من جمع الثلاثة من التوبة و الإيمان و العمل و لم يأت بالرابع إذهي كلّها شروط للمغفرة . انتهى .

قوله تعالى : و ما أعجلك عن قومك يا موسى (٨٣) قال هم اولاء على أثرى و عجلت اليک رب لترضى (٨٤) قال فانا قدفتنا قومك من بعدك و أضلهم السامرى (٨٥)فرجع موسى الى قومه غصبان أسفا قال يا قوم الم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهدام أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فاخلفتم موعدى (٨٦) .

المعنى : اعلم أنّ في قوله تعالى: « و ما أعجلك من قولك يا موسى» دلالة على أنّه قد تقدّم موسى قومه في المسير إلى المكان الموعود الّذي نبّه عليه في قوله : « و واعدنا كم جانب الطور الأيمن » في هذه السورة و في سائر السور كقوله : « و واعدنا موسى ثلاثين ليلة (٢) » يريد الميقات عند الطور .

قال ابن إسحاق :كانت المواعدة أن يوافي الميعاد هو وقومه أو المختارون من وجوه قومه فعجل موسى من بينهم شوقاً إلى ربّه و خلّفهم ليلحقوا به فقيل له : [ما أعجلك عن قومك يا موسى] و بأيّ سبب خلّفت قومك و سبقتهم و جئت وحدك ؟

قال موسى في الجواب : [هم اُولاء على أثري] ومن ورائي يدركونني عن قريب

(١) المائدة : ٣ .
(٢) الاعراف : ١٤١ .

ما تقدّمتهم إلّا بخطىً يسيرة . وقيل : المعنى هم ينتظرون من بعدي ما الّذي آتيهم به ، وليس يريد أنّهم يتبعونه و لمّا كان السؤال عن سبب التقدّم و نفس العجلة فقال : ليس بيني و بينهم إلّا تقدّم يسير، ثمّ عقّبه بجواب للسؤال عن العجلة فقال : [و عجلت إليك ربّ لترضى] .

و اختلفوا في المراد بالقوم فقال بعضهم: هم النقباء السبعون الّذين قد اختارهم الله ليخرجوا معه إلى الطور فتقدّمهم موسى عليه السلام شوقاً إلى ربّه . و قال آخرون : إنّ القوم جملة بني إسرائيل و هم الّذين خلّفهم موسى عليه السلام مع هارون عليه السلام فيهم خليفة له إلى أن يرجع هو مع السبعين فقال: « هم اُولاء على أثري» وقريبون منّي ينتظرونني وإنّ المسارعة إلى امتثال أمرك موجبة لمرضاتك .

وفي مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام قال : المشتاق لايشتهي طعاماً و لايلتذّ شراباً و لا يستطيب رقاداً ولا يأنس حميماً ولا يأوي داراً و لا يسكن عمراناً و لا يلبس لباساً ولايقرّ قراراً و يعبد الله ليلاً ونهاراً إلى أن يصل إلى مايشتاق إليه و يناجيه بلسان شوقه معبّراً عمّا في سريرته كما أخبر الله عن موسى في ميعاد ربّه بقوله « عجلت إليك ربّ لترضى» ، و فسّر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن حاله أنّه ما أكل و لا شرب ولا نام ولا اشتهى شيئاً من ذلك في ذهابه و مجيئه أربعين يوماً (١) شوقاً إلى ربّه .

قوله تعالى: [قال فإنّا قدفتنّا قومك من بعدك وأضلّهم السامريّ] أي امتحنّاهم و شدّدنا عليهم التكليف بما حدث فيهم من أمر العجل فألزمناهم بالحجّة والنظر ليعلموا أنّ العجل ليس بإله من بعد انطلاقك ، والسامريّ دعاهم إلى الضلال فقبلوا منه فأضاف الضلال إلى السامريّ و الفتنة إلى نفسه ليدلّ سبحانه على أنّ الفتنة غير الضلال . ومعنى الامتحان ذكرناه مراراً أي عاملناهم معاملة المختبر المبتلي ليظهر لهم ولغيرهم من الخلق المنافق منهم والمخلص ليترتّب الجزاء .

قالت المعتزلة : لا يجوز أن يكون المراد أنّ الله خلق فيهم الكفر لوجهين :

---

(١) هذا بعيد و لم نظفر عليه ، نعم فى البحار ج ٥ فى احواله عليه السلام انه لم يا كل شيئاً ثلاثة ايام .

الاول الدلائل العقليّة الدالّة على أنّه لا يجوز من الله أن يفعل ذلك لأنّه ظلم إذا عذّبهم بعد خلق الكفر فيهم .

الثاني أنّه تعالى قال : « و أضلّهم السامريّ » و لو كان الله خلق الضلال فيهم لم يكن لفعل السامريّ فيه أثر وكان يبطل قوله: « وأضلّهم السامريّ » و أيضاً فلأنّ موسى لمّا طالبهم بذكر سبب الفتنة قال : « أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربّكم » فلو حصل ذلك بخلق الله لكان لهم أن يقولوا: السبب فيه أنّ الله خلقه فينا لاماذكرت فكان يبطل تقسيم موسى ، وأيضاً فقال : «أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربّكم» ولو كان ذلك بخلقه لاستحال أن يغضب عليهم فيما هو الخالق له .

قال ابن عبّاس و سعيد بن جبير : كان السامريّ علجاً من أهل كرمان وقع إلى مصر و كان من قوم يعبدون البقر . و الأكثرون أنّه من عظماء بني إسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة . و قيل :كان من القبط جاراً لموسى وقد آمن به . والّذين خلّفهم موسى مع هارون و أضلّهم السامريّ على ساحل البحر ستّمائة ألف افتتنوا بالعجل غير اثني عشر ألفاً وإنّ الجماعة أقاموا بعد مفارقة موسى عشرين ليلة و حسبوها أربعين مع أيّامها و قالوا : قد أكملنا العدّة و السامريّ شرع في تدبير الأمر لمّا غاب موسى و عزم على إضلالهم .

فلمّا استخبر موسى بالفتنة رجع إلى قومه من الميقات حزيناً شديد الغضب متلهّفاً على مافاته لأنّه خشي أن لايمكنه تدارك الأمر قال : يا بني إسرائيل [ألم يعدكم ربّكم وعداً حسناً] و هو إيتاء التوراة لتعلموا و تعملوا ، أو المراد النجاة من فرعون و قومه و المغفرة لمن تاب و تمسّك بالدين [أفطال عليكم العهد] حتّى قست قلوبكم بسبب زيادة العشرة [أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب] فهذا لا يمكن إجراؤه على الظاهر؛ لأنّ ليس أحد يريد ذلك لكن مريد السبب مريد للمسبّب بالعرض .

و احتجّ العلماء بأنّ الغضب من صفات الأفعال لامن صفات الذات و لذا فرّقوا بين الغيظ و الغضب و أنّ الله لا يوصف بالغيظ و يوصف بالغضب لأنّ الغضب إرادة الإضرار بالمغضوب عليه والغيظ تغيّر يلحق المغتاظ و ذلك لا يصحّ إلّا على الأجسام كالضحك

و البكاء تعالى الله عن ذلك .

قوله تعالى : [فأخلفتم موعدي] أي تخلّفتم ما وعدتموه لي من حسن الخلافة بعدي بمفارقتي إيّاكم و هو أنّه أمرهم أن يتمسّكوا بطريقة هارون و طاعته إلى أن يرجع ، و يؤيّد هذا المعنى قوله : «بئسما خلفتموني من بعدي»(١).

قوله تعالى : قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا و لكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى (٨٧) فاخرج لهم عجلاجسداً له خوار فقالوا هذا الهكم و اله موسى فنسى (٨٨) أفلا يرون ألا يرجع اليهم قولا و لا يملك لهم ضرا و لا نفعا (٨٩) و لقد قال لهم هرون من قبل يا قوم انما فتنتم به و ان ربكم الرحمن فاتبعونى و اطيعوا امرى (٩٠) قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى (٩١) قال يا هرون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا (٩٢) ألاتتبعن أفعصيت أمرى (٩٣) قال يا بنؤم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل و لم ترقب قولى (٩٤) قال فما خطبك يا سامرى (٩٥) قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها و كذلك سولت لى نفسى (٩٦) .

قرىء الملك بضمّ الميم و بكسرها و معناه واحد وقرىء بفتح الميم .

المعنى : قيل: قال الّذين عبدوا العجل . وقيل : قال الّذين لم يعبدوا العجل، وكانوا اثني عشر ألفاً : [ما أخلفنا موعدك] و كانوا و عدوه من الإقامة على دينه إلى أن يرجع إليهم من الطور أي ما أخلفنا موعدك [بملكنا] أي بأمر كنّا نملكه إنّ الشبهة قويت على عبدة العجل فلم نقدر على منعهم عنه لكثرتهم وقلّتنا لأنّ عبدة العجل كانوا ستّمائة ألف رجل . و من قرأ بضمّ الميم و الكسر فمعناه بسلطاننا و قدرتنا و بفتح الميم بمعنى أمرنا و ما كان ملاك الأمر في يدنا للرهبة منهم لكثرتهم و قلّتنا و لم نقدر أيضاً على مخالفتهم لأنّا خفنا أن يصير ذلك سبباً لوقوع التفرقة و زيادة الفتنة .

ثمّ فسّروا السبب الموجب لهذا الأمر فقالوا: [ولكنّا حمّلنا أوزاراً من زينة القوم] أي حملنا أثقالاً من حليّ آل فرعون ، وقرىء حملنا مخفّفة فمعناه حملنا مع أنفسنا ما استعرناه .

(١) الاعراف : ١٤٩ .

و بالتشديد أي حملنا أثاثاً من حليّ القوم لأنّهم استعاروا حليّاً من القبط ليتزيّنوا بها في عيد كان لهم ثمّ لم يردّوها عليهم عند الخروج من مصر مخافة أن يعلموا بخروجهم فحملوها و كان ذلك ذنباً منهم إذكانوا مستأمنين فيما بينهم .و قيل : إنّهم كانوا في حكم الأُسراء فيما بينهم وكان يحلّ لهم أخذ أموالهم . فعلى هذا لايمكن حمله على الإثم .

و قيل : إنّ هذه الحليّ هي ما ألقاه البحر على الساحل من ذهبهم و فضّتهم و حليّهم بعد إغراق فرعون فأخذوها ولهذا كانت أثقالاً . وقيل : إنّ موسى أمرهم باستعارة الحليّ و الخروج بها فكأنّه ألزمهم ذلك و إنّها لكثرتها كانت أثقالاً . وقيل : سمّيت أثقالاً لأنّ المغانم كانت عليهم محرّمة فكان يجب عليهم حفظها من غيرفائدة فكانت أثقالاً .

وروي أنّ هارون عليه‌السلام قال : إنّها نجسة فتطهّروا منها . وقيل: إنّ ذلك الحليّ كان القبط يتزيّنون به في مجامع لهم يجري فيها الكفر لاجرم و صفت بكونها أوزاراً .

[فقذ فناها فكذلك ألقى السامريّ] أي فقذفنا الحليّ في النار رجاء للخلاص عن تبعتها و ذنبها فألقى السامريّ مثل ما قذفنا ما معه منها يوهم لهم أنّه فعل مثل مافعلوا و إنّما كان الّذي ألقى هي التربة الّتي أخذها من أثر الرسول جبرئيل .

و سبب إلقاء الحليّ في النار لأنّ السامريّ قال لهم : إنّما تأخّر موسى عنكم لما معكم من الأوزار فالرأي أن نحفر حفيرة و نسجر فيها ناراً و نقذف فيها كلّ ما معنا ، ففعلوا وفعل السامريّ مثلهم بزعمهم . وقيل : إنّ بني إسرائيل أمرهم هارون أن يحفروا حفيرةً و يجمعوا الحليّ فيها إلى أن يرجع موسى فما أمرهم به فعلوا فغرّهم السامريّ بهذه الحيلة لمّا كان هو يعبد العجل سرّاً ويظهر الإيمان فلمّا عبر بنو إسرائيل البحر و رأوا قوماً يعبدون التماثيل عجبهم هذه العبادة فانتهز السامريّ حينئذ الفرصة و غرّهم بهذه الحيلة .

أمّا قوله : [فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوارٌ] أي أخرج لهم من ذلك عجلاً جسيماً أي من تلك الحليّ المذابة صورة عجل لها منافذ و مناخر بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج صوت يشبه صوت العجل ، هذا قول أكثر المفسّرين .

و قال بعضهم : كان ذلك الجسد حيّاً و خار كما يخور العجل و احتجّوا بقوله : « فقبضت قبضة من أثر الرسول » و لو لم يصر حيّاً لماكان لهذا الكلام فائدة . واحتجّوا أيضاً أنّه تعالى سمّاه عجلاً والعجل حقيقة في الحيوان .

وقال منكرو الحياة : إنّه لايجوز إظهارمثل هذا الأمروخرق العادة على يدالضالّ مثل السامريّ إذ الحياة ليست من فعله بل فعل فعل الله وليست الحياة كالسحر والتمويهات و إنّ للحياة حقيقة و لايقدر عليها أحد إلّا الله .

و أجاب المثبتون بأنّ ظهور خوارق العادة على يد مدّعي الإلهيّة جائز لأنّه لايحصل الالتباس مع النظروههنا كذلك فلايمتنع وقوعه . وقيل : ماكان حيّاً إلّا أنّ هارون مرّ بالسامريّ وهويصنع العجل فقال : ماتصنع؟ فقال السامريّ : أصنع ما ينفع ولايضرّ فادع لي ، فقال : هارون اللّهم أعطه ماسأل ؛ فلمّا مضى هارون قال السامريّ : اللّهم إنّي أسألك أن يخور فخار . روى عكرمة عن ابن عبّاس .

قوله تعالى : [فقالوا هذا إلهكم و إله موسى] أي فقال السامريّ و من تبعه من السفلة والعوامّ : هذا العجل معبود كم و معبود موسى . فلو قيل : إنّ القوم إن كانوا في الجهالة بحيث اعتقدو أنّ ذلك العجل المعمول في تلك الساعة حضوراً بالمرأى منهم هوالخالق للسماوات والأرض فهم مجانين و ليسوا بمكلّفين و إنّ مثل هذا الجنون على مثل ذلك الجمع العظيم محال فكيف قالوا : « هذا إلهكم و إله موسى » و اعتقدوا هذا الأمر الفاسد ، فالسبب أنّهم كانوا من الحلوليّة وهم يجوّزون حلول الإله أوحلول صفة من صفاته في الجسم على أنّهم كانوا في نهاية البلادة و الجلافة .

قوله : [فنسي] فيه قولان :

أحدهما أنّه قول السامريّ و من تبعه أي نسي موسى أن يقول لكم : إنّه الإله .

و قيل : المعنى قال السامريّ : فنسي و أخطأ موسى و ترك إلهه هنا وخرج يطلبه .

والقول الثاني : أنّه من قول الله أي فنسي السامريّ ، و معنى النسيان الترك أي ترك الإيمان الّذي بعث الله به موسى و نسي الاستدلال على حدوث العجل و ترك

هذا الأصل الأصيل : إنّ الحادث لايجوز أن يكون إلهاً .

ثمّ احتجّ سبحانه عليهم أي على عبدة العجل فقال : [أفلا يرون] ويبصرون أنّ العجل الّذي اتّخذوه إلهاً لايردّ عليهم جواباً و لايقدر أن يضرّ و ينفع و وجوده لاجاء و لاساء و من كان بهذه الصفة كيف يعقل أن يكون إلهاً ؟ قال بعض المفسّرين : لمّا مضى من موعد موسى خمسة و ثلاثون يوماً أمر السامريّ بني إسرائيل أن يجتمعوا وصاغ ما استعاروه من حليّ آل فرعون كماذكرنا سابقاً و صاغه عجلاً في السادس و الثلاثين والسابع و الثامن و دعاهم إلي عبادته في التاسع فأجابوه و جاء هم موسى بعد استكمال الأربعين .

[و لقد قال لهم هارون من قبل] عود موسى من الطور : [يا قوم إنّما فتنتم] بالعجل و ضللتم بسببه و وقعتم في الفتنة فاعلموا أنّ إلهكم الله الواحد [و إنّ ربّكم الرحمن فاتّبعوني و أطيعوا أمري] في عبادة الله و لاتطيعوا السامريّ في عبادة العجل . و إنّما قال ذلك شفقة على نفسه و على الخلق أمّا شفقته على نفسه فلأنّه كان مأموراً من عندالله عموماً و خصوصاً بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر أمّا عموماً فواضحٌ وأمّا خصوصاً لأنّه كان نبيّاً و خليفة موسى فلولم يشتغل بهذا العمل لكان مخالفاً لأمرالله و متخلّفاً عن أمر موسى حين قال له : اخلفني في قومي وأصلح ولاتتّبع سبيل المفسدين ، و ذلك ماكان يجوز له أما سمعت أنّ الله أوحى الى يوشع بن نون : إنّي مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم وستّين ألفاً من شرارهم فقال يوشع : يا ربّ هؤلاء الأشرار فمابال الأخيار ؟ فقال الله : إنّهم لم يغضبوا لغضبي .

قال ثابت البنانيّ عن أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من أصبح و همّه غير الله فليس من الله في شيء و من أصبح لايهتمّ بالمسلمين فليس منهم . وعن طرق العامّة قال الشعبيّ عن النعمان بن بشير عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : مثل المؤمنين في توادد هم و تراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضوٌ منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

و قال أبوعليّ الحسن النغوريّ : كنت في بعض المواضع فرأيت زورقاً فيها دنان مكتوب عليها لطيف فقلت للملاّح : إيش هذا ؟ فقال : أنت صوفيّ فضوليّ و هذه خمور

المعتضد فقلت له : أعطني ذلك المدرى فقال لغلامه : أعطه حتّى نبصر إيش يعمل فأخذت المدرى و صعدت الزورق فكنت أكسر دناً دناً و الملاّح يصيح حتّى بقي واحدة فأمسكت فجاء صاحب السفينة فأخذني و حملني إلى المعتضد و كان سيفه قبل كلامه فلمّا وقع بصره عليّ قال : من أنت؟ قلت: المحتسب، قال : من ولاّك الحسبة؟ قلت : الّذي ولاّك الخلافة! قال : لمَ كسرت هذه الدنان ؟ قلت : شفقة عليك إذ لم تصل يدي إلى دفع مكروه عنك، قال : فلمَ أبقيت واحدة منها ؟ قلت : إنّي لمّا كسرت هذه الدنان فإنّي كسرتها حميّة في دين الله فلمّا وصلت إلى هذا أُعجبتُ فأمسكت ولو بقيت كما كنت لكسرته، فقال : اخرج ياشيخ فقد ولّيتك الحسبة ، فقلت : كنت أفعله لله تعالى فلا أُحبّ أن أكون شرطيّاً. وأمّا الشفقة على المسلمين فلأنّ الإنسان يجب أن يكون رقيق القلب مشفقاً على أبناء جنسه و أيّ شفقة أعظم من أن يرى جمعاً يتهافتون على النار فيمنعهم منها ؟

و عن أبي سعيد الخدريّ عنه ﷺ يقول الله تعالى : اطلبوا الفضل عند الرحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم فإنّي جعلت فيهم رحمتي ولا تطلبوها في القاسية قلوبهم فإنّ فيهم غضبي .

و روي أنّه بينا رسول الله جالس ومعه أصحابه إذ نظر إلى شابّ على باب المسجد فقال : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا . فسمع الشابّ ذلك فولّى و قال : إلهي وسيّدي هذا رسولك يشهد عليّ بأنّي من أهل النار و أنا أعلم أنّه صادق فإذا كان الأمر كذلك فأسألك أن تجعلني فداء أُمّة محمّد ﷺ و تشعلني بالنار حتّى تبرّ يمينه ولا تشعل النار بأحد آخر فهبط جبرئيل عليه السلام و قال : يا محمّد بشّر الشابّ بأنّي أنقذته من النار بتصديقه لك وفدائه نفسه لأُمّتك و لشفقته على الخلق .

و بالجملة إنّ هارون لمّا رأى أنّ الناس متهافتين على النار لم يبال بكثرتهم وأمر بمعروف دينه وصرّح الحقّ بقوله : « يا قوم إنّما فتنتم بالعجل » ثمّ دعاهم إلى معرفة الله ثانياً بقوله « و إنّ ربّكم الرحمن » ثمّ دعاهم ثالثاً بمعرفة النبوّة بقوله « فاتّبعوني » ثمّ دعاهم رابعاً إلى الشرائع بقوله : « و أطيعوا أمري » وهذا هو الترتيب الجيّد لأنّه قبل كلّ شيء لابدّ من إماطة الأذى و القذورات عن الطريق و دفع الشبهات ثمّ معرفة الله

فإنّها هي الأصل ثمّ النبوّة ثمّ الشريعة و إنّما قال: «إنّ ربّكم الرحمن» وخصّ هذا الموضع باسم الرحمن لأنّه كان ينبئهم بأنّهم إن تابوا قبل الله توبتهم.

ثمّ إنّهم لجهلهم قابلوا هذا الترتيب الحسن بهذا الكلام الركيك الّذي ينبىء عن التقليد والجحود [فقالوا لن نبرح عليه عاكفين حتّى يرجع إلينا موسى] فقالوا: نستديم على عبادة العجل إلى أن يأتي موسى.

قوله تعالى: [قال ياهارون ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا * أن لاتتّبعن] ولا زائدة [أفعصيت أمري].

و اعلم أنّ الطاعنين في عصمة الأنبياء خذلهم الله انتهزوا فرصة في ظاهر الآية و جالوا في الكلام و قالوا: إنّ موسى إمّا أن يكون قد أمر هارون باتّباعه أولم يأمره فإن أمر به فإمّا أن يكون هارون قداتّبعه أولم يتّبعه فإن اتّبعه كانت ملامة موسى لهارون معصية و إن لم يتّبعه كان هارون تاركاً للواجب فكان منه معصية و أيضاً إنّ هارون قال: لاتأخذبلحيتي ولا برأسي فإن كان الأخذ بلحيته و برأسه جائزاً كان قول هارون عليه السلام: «لاتأخذ» منعاً له عمّا كان له أن يفعله فيكون ذلك معصية من هارون عليه السلام و إن لم يكن ذلك الأخذ جائزاً كان موسى عليه السلام فاعلاً للمعصية. هذه مناقشات الطاعنين في العصمة.

و الجواب عن الكلّ قد ذكر في سورة البقرة في قوله: «فأزلّهما الشيطان عنها[1]» و أنّه لا يجوز صدور المعصية من الأنبياء ببراهين ثابتة و اُصول محكمة و دلائل منفصلة الّتي توجب التأويل في ظاهر الآية و معارضة ما يبعد عن التأويل بما يتسارع إليه التأويل غير جائز. إذا ثبتت هذه المقدّمة:

فالجواب عن هذه المناقشات وجوه و هو أنّه بتقدير ما أوردتموه لا يوجب صدور المعصية منهما بل يحصل ترك الأولى منهما أومن أحدهما لأنّ الفعل الّذي فعله أحدهما و منعه الآخر أعني موسى وهارون عليهما السلام كان أحدهما أولى والآخر ترك الأولى بل يمكن أن لا يكون أيضاً ترك أولى منهما مثلاً في قول موسى لهارون عليهما السلام: «ما منعك إذ رأيتهم

---

(١) الآية ٣٦.

ضلّوا * أن لا تتّبعن أفعصيت أمري » يجوز أن يكون موسى عليه السلام أمر هارون عليه السلام باللحاق به بشرط المصلحة و رأى هارون عليه السلام الإقامة أصلح . والشاهد يرى مالا يراه الغائب كما أنّه بيّن هارون عذره في عدم اللحاق بموسى و الإقامة معهم بقوله : [إنّي خشيت أن تقول فرّقت بين بني إسرائيل] و يمكن أن يكون لم يأمره موسى بذلك و إنّما أمره بأن يتّبعه أي يجاهد مع القوم و يزجرهم فخاف من استتباع القتال و الجدال من التفريق الّذي لا يرجى بعده الاجتماع فلذلك استأنيتك و داريت معهم إلى أن ترجع إليهم لتكون أنت المتدارك للأمر حسب مارأيت لا سيّما و القوم في غاية القوّة و نحن على الضعف كما يعرب عن هذا المعنى : « إنّ القوم استضعفوني و كادوا يقتلونني » .

و إنّما خصّ هارون عليه السلام بالّلائمة لأنّ موسى خلّف هارون عليه السلام فخصّه بالعتاب و اللوم تشديداً للقوم و بياناً لقبح ما ارتكبوا و أجراه مجرى نفسه إذا غضب في القبض على لحيته و كان وقوع هذا الأمر من جرّ الرأس و الأخذ باللحية من شدّة تصلّبه في دين الله فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلاً من دون الله من بعد مارأوا الآيات العظام أن ألقى التوراة لمّا غاب على ذهنه هذا الأمر الشنيع و الدهشة العظيمة حميّة على دين الله و لذا أقبل على أخيه بهذا النوع من استنكار فعل القوم وهذه الأمور كلّها غير قبيحة بل حسنة .

و قد قيل : إنّ موسى لمّا رجع من الميقات و أتى بالتوراة و رأى ما وقع من فعل السامريّ أخذ برأس أخيه ليدنيه فيتفحّص عن كيفيّة الواقعة فخاف هارون عليه السلام أن يسبق إلى قلوب بني إسرائيل مالا أصل له فقال إشفاقاً على موسى عليه السلام : لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي لئلاّ يظنّ القوم ما لا يليق بك لأنّ بعض بني إسرائيل كانوا يزعمون أنّ موسى عليه السلام يكره هارون عليه السلام كما اتّهموه في فوت هارون عليه السلام و قالوا : إنّ موسى عليه السلام قتله .

و بالجملة لمّا ظهرت معاذير هارون عليه السلام و براءة ساحته أقبل موسى عليه السلام على السامريّ [قال] له : [ما خطبك يا سامريّ] و ما شأنك و ما دعاك إلى ما صنعت و ما

حملك عليه ؟ [قال] السامريّ : [بصرت] أمراً لم يروه [فقبضت قبضةً] من تراب [من أثر] قدم حافر دابّة جبرئيل [فنبذتها] و « قبضة » قرىء بضمّ القاف و هي اسم للمقبوض من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الأمير و قرىء « قبصة » بالصاد المهملة والفرق في المعنى أنّ الضاد بجميع الكفّ و الصاد المهملة بأطراف الأصابع .

و اختلفوا أنّه متى رأى موضع حافر دابّته فقال الأكثرون : إنّما رآه يوم فلق البحر . وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال : إنّ جبرئيل لمّا نزل ليذهب بموسى إلى الطور أبصره السامريّ من بين النّاس .

و أمّا كيف اُختصّ هذا اللعين بالرؤية من بين سائر النّاس فقال ابن عبّاس في رواية الكلبيّ : إنّما عرف جبرئيل لأنّه رآه في صغره وحفظه من القتل حين أمر فرعون بذبح أولاد بني إسرائيل فكانت المرأة تلد و تطرح ولدها حيث لا يشعر به آل فرعون فيأخذ الملائكة الولدان فيربّونهم حتّى يترعرعوا و يختلطوا بالنّاس فكان السامريّ ممّن أخذه جبرئيل و جعل كفّ نفسه في فيه و ارتضع منه العسل و اللبن فلم يزل يختلف إليه حتّى عرفه فلمّا رآه عرفه ، قال ابن جريج: فعلى هذا قوله : « بصرت بما لم يبصروا به » . ومن فسّر الكلمة بالعلم فهو أيضاً صحيح في هذا المعنى . و روي أنّ موسى عليه السلام همّ بقتل السامريّ فأوحى الله إليه : لا تقتله يا موسى فإنّه سخيّ .

و لمّا أوحى الله إلى موسى عليه السلام بقوله : « قد فتنّا قومك من بعدك » فقال موسى عليه السلام : يا ربّ العجل من السامريّ فالخوار ممّن ؟ فقال : منّي يا موسى إنّي لمّا رأيتهم قد ولّوا منّي إلى العجل استحقّوا أن أزيدهم فتنة .

و قال أبو مسلم الإصبهانيّ : ليس في القرآن تصريح لهذا الّذي ذكره المفسّرون فههنا وجه آخر و هو أن يكون المراد بالرسول موسى و بأثره سنّته فيكون المعنى أن يكون السامريّ قال : عرفت أنّ الّذي أنتم عليه ليس بحقّ فأخذت شيئاً من سنّتك و قذفته و طرحته .

و الحقّ أنّ هذا المعنى ركيك جدّاً لأنّ السنّة و الدين ليس شيء يقبض باليد و يقذف في النّار .

و بالجملةفقال السامريّ: [و كذلك سولّت لي نفسي] أي كما أخبرتك زيّنت لي نفسي بهذه الأُمور الّتي فعلتها .

قوله تعالى : قال فاذهب فان لك في الحيوة أن تقول لامساس و ان لك موعداً لن تخلفه و انظر الى الهلك الذى ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً (٩٧) انما الهكم الله الذى لا اله الا هو وسع كل شيء علماً (٩٨) كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق و قد آتيناك من لدنا ذكراً (٩٩) من أعرض عنه فانه يحمل يوم القيمة وزراً (١٠٠) خالدين فيه وساء لهم يوم القيمة حملا (١٠١) يوم ينفخ في الصور و نحشر المجرمين يومئذ زرقاً (١٠٢) يتخافتون بينهم ان لبثتم الا عشراً (١٠٣) نحن أعلم بمايقولون اذ يقول أمثلهم طريقة ان لبثتم الا يوماً (١٠٤) و يسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً (١٠٥) فيذرها قاعاً صفصفاً (١٠٦) لاترى فيها عوجاً و لا أمتاً (١٠٧) .

المعنى : لمّا سمع موسى عليه السلام هذا الكلام من السامريّ أجابه : [فاذهب فإنّ لك في الحياة] ومادمت حيّاً في الدنيا قيل : معناه أنّه عليه السلام أمر الناس بأمر الله أن لايخالطوه ولايجالسوه تضييقاً عليه و المعنى: أن تقول : لاأمسّ ولا أُمسّ مادمت حيّاً ، والمساس فعال من المماسّة أي لايمسّ بعضنا بعضاً فصار السامريّ مقيم في البرّيّة مع الوحش لايمسّ أحداً ولايمسّه أحد ؛ عاقبه الله بذلك وكان إذا لقي أحداً يقول : لامساس أي لاتقربني ولاتمسّني و لو مسّه أحدٌ أو أحداً منهم أي من أولاده حمّ كلاهما في الوقت . و قيل : معناه أنّ السامريّ خاف و هرب في البرّيّة ولا يجد أحداً من النّاس يمسّه حتّى صار في البعد عن الناس كالقائل : لامساس . وقيل : إذا مسّه أحدهم حمّ الماسّ والممسوس فكان إذا أراد أن يمسّه أحدصاح : لامساس خوفاًمن الحمّى وبالجملةخرج طر بداً إلى البراريّ هو وأهله هذا شرح حاله في الدنيا .

و أمّا في الآخرة قوله : [وإنّ لك موعداً لن تخلفه] و الموعد بمعنى الوعد أي هذه عقوبتك في الدنياولك الوعد بالمصير إلى عذاب الآخرة فأنت ممّن خسر الدنياوالآخرة و لن يتأخّر عنك و لن تتخلّف عنه .

[و انظر إلى إلهك الّذي] صنعته و [ظلت عليه] بكسر الظاء و فتحها و أصله ظللت فحذفت اللاّم الأولى و كذا الحكم في المضاعف تقول : مست ومسست ، أي انظر إلى معبودك الّذي كنت تعبده مقيماً يعني العجل [لنحرّقنّه] بالنار [ثمّ لننسفنّه] أي لنذرينّه كالذرّة ننشره في البحر .

و في قوله « لنحرّقنّه » وجهان . المراد إحراقه و هذا آخرما يدلّ على أنّه صار حيواناً و لحماً و دماً لأنّ الذهب لا يمكن إحراقه بالنار قال السدّيّ : أمر موسى بذبح العجل فذبح فسال منه الدم ثم أُحرق ثمّ نسف رماده . والقول الثاني أنّ المراد من الحرق البرد أي لنبرّدنّه بالمبرد ففعل و ذراه في البحر وعاد إلى بيان الدين الحقّ فقال : [إنّما إلهكم] المستحقّ للعبادة [الله الّذي لا إله إلّا هو وسع كلّ شيء علماً] و يعلم من يعبده ولا يعبده و يعلم كلّ شيء علماً .

ثمّ قال عزّ وجلّ لنبيّه [كذلك نقصّ عليك عن أنباء ما قد سبق] أي مثل ما قصصنا عليك يا محمّد من نبأ موسى و قومه نقصّ عليك من أخبار ما قد مضى من الأُمم والأُمور تبصرة لك و للمتبصّرين من أُمّتك [و قد آتيناك من لدنّا ذكراً] أي القرآن لأنّ فيه ذكر كلّ ماتحتاج إليه من أُمور الدّين .

ثمّ أوعد على من أعرض من هذا الذكر بأنّه [يحمل يوم القيامة] حملاً ثقيلاً من الإثم [خالدين] في ذلك الوزر و عذابه و جزائه و هم مخلّدون في النار بسبب ذلك الوزر . و يمكن أن يكون ذلك الوزر ينقلب بالنار و بئس الحمل أي بئس المحمول هذا الحمل لهم يوم القيامة وساء ماحملوا على أنفسهم من الإثم وهو كفرهم بالقرآن .

و ذكر في تسمية القرآن بالذكر وجوه : الأوّل أنّه كتاب فيه ذكر مايحتاج إليه الناس من أمر دينهم و دنياهم . و الثاني يذكر أنواع آلاء الله و فيه التذكير و المواعظ و فيه الذكر و الشرف لك وللمؤمنين .

قوله : [يوم ينفخ في الصور] بدل من يوم القيامة و قرىء ننفخ بصيغة المتكلّم و نحشر ، و قرىء « الصور » بفتح الواو جمع الصورة فحينئذٍ النفخ نفخ الروح والقراءة المشهورة في الصور و هو قرن ينفخ فيه يدعى به النّاس المحشر للحضور و المراد من هذا

النفخ هو النفخة الثانية لأنّه يقول بعد ذلك :

[ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً] أي زرق العيون سود الوجوه وهي زرقة تتشوّه خلقتهم ، والزرقة الخضرة تكون في سواد العين كعين السنّور ، والمعنى تشويه الخلقة . و قيل : معناه عطاشاً يظهر في عيونهم كالزرقة . وقيل : المراد من الزرقة العمى أي يخرجون بصراء في أوّل مرّة ثمّ يعمون و يذهب سواد العين و تزرق العين . أو المراد بالزرقة شخوص أبصارهم . ويمكن كلّها لأنّ مواقف القيامة كثيرة . وقيل : المراد من المجرمين يتناول الكفّار والعصاة فيدلّ على عدم العفو عن العصاة و قال ابن عبّاس: يريد بالمجرمين الّذين اتّخذوا مع الله إلهاً آخر ، والقول الأوّل قول المعتزلة ويقولون : الآية تدلّ على عدم العفو عن العصاة .

قوله : [يتخافتون بينهم إن لبثتم إلّا عشراً] أي يتسارّون و إنّما يتسارّون لأنّه امتلئت صدورهم من الرعب و الهول أو لأنّهم بسبب الخوف صاروا في نهاية الضعف فلا يطيقون الجهر إن لبثتم في الدنيا أو في القبر ما لبثتم إلّا عشر ليال أو عشر ساعات قال ابن عبّاس : المراد من النفخة الاُولى إلى الثانية و ذلك أنّه يكفّ عنهم العذاب في ما بين النفختين و هو أربعون سنة .

ثمّ قال سبحانه : [نحن أعلم بما يقولون] و يتسارّون بعضهم بعضاً [إذ يقول أمثلهم طريقة] أي أو فرهم عقلاً وأصلحهم رأياً وفهماً : [ما لبثتم إلّا يوماً] وإنّما قال ذلك لأنّ اليوم الواحد و العشرة إذا قوبلا بيوم القيامة و ما بعدها كان اليوم الواحد أقرب إليه و هو كقوله : « لم يلبثوا إلّا عشيّة أوضحاها [(١)] » .

قوله : [ويسألونك عن الجبال] أي يسألونك منكر و البعث عند ذكر القيامة عن الجبال ما حالها [فقل] يا محمّد : [ينسفها ربّي نسفاً] أي يجعلها الله ربّي بمنزلة الرمل ثمّ يرسل عليها الرياح فتذريها كتذرية الطعام من القشور و التراب فلا يبقى على وجه الأرض منها شيء ويصيرها كالهباء فيدعها أماكنها من الأرض [قاعاً] ملساء منكشفة [صفصفاً] أي مستوية ليس للجبل فيها أثر ، وقيل : القاع والصفصف بمعنى واحد وهو المستوي الّذي لا نبات فيه .

---

(١) النازعات : ٤٦ .

[لاترى فيها عوجاً ولا أمتاً] أي ليس فيها منخفض ولا مرتفع و العوج ماانخفض من الأرض و الأمت ما ارتفع من الروابي . و هذه الآية ردّ لشبهة جالينوس في أنّ السماوات لاتفنى قال : لأنّها لوفنيت لا بتدأت بالنقصان فحينئذ تقرير الجواب أنّ بطلانها قد يكون بطلاناً توليدياً فحينئذ يجب تقديم النقصان على البطلان و قد يكون بطلاناً يقع دفعة واحدة و على هذه الصورة لا يجب تقديم النقصان على البطلان فأجاب سبحانه عن هذه الشبهة أنّه سبحانه يفرّق هذه التركيبات دفعة واحدة .

قوله تعالى : يومئذ يتبعون الداعي لاعوج له و خشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الاهمساً(١٠٨) يومئذ لاتنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن و رضى له قولا (١٠٩) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً (١١٠) و عنت الوجوه للحى القيوم و قد خاب من حمل ظلماً (١١١) ومن يعمل من الصالحات و هو مؤمن فلا يخاف ظلماً و لاهضما (١١٢) وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً و صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً (١١٣) فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل رب زدنى علماً(١١٤) و لقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً (١١٥) .

المعنى : [يومئذ] ظرف ليتّبعون ثمّ وصف سبحانه القيامة فقال : يوم القيامة [يتّبعون] صوت داعي الله الّذي ينفخ في الصور و هو إسرافيل [لاعوج له] أي لدعاء الداعي و لايعدل عن أحد بل يحشرهم جميعاً و لا عوج و ميل لهم عن دعائه أي لايعدلون و لا يميلون عن ندائه و يتّبعونه سراعاً ولا يلتفتون يميناً ولاشمالاً .

[و خشعت الأصوات] لعظمة [الرحمن فلا تسمع إلّا همساً] و هو صوت الأقدام أي لا تسمع من صوت أقدامهم إلّا صوتاً خفيّاً كما تسمع من وطء الإبل .

[يومئذ لا تنفع الشفاعة إلّا من أذن له الرحمن و رضي له قولاً] أي لا تنفع ذلك اليوم شفاعة أحد في غيره إلّا شفاعة من أذن الله له في أن يشفع [و رضي له قولاً] فيها من الأنبياء و الأولياء و الصلحاء و الصدّيقين والشهداء .

القمي عن الباقر عليه السلام : إذا كان يوم القيامة جمع الله الناس في صعيد واحد حفاة عراة متوقفون في المحشر حتى يعرقوا عرقاً شديداً و تشد أنفاسهم فيمكثون في ذلك مقدار خمسين عاماً و هوقول الله تعالى : «وخشعت الأصوات للرحمن فلاتسمع إلا همساً» .

قال : ثم ينادي مناد من تلقاء العرش: أين النبي الأمي فيقول الناس: قد أسمعت فسم باسمه فينادي أين نبي الرحمة أين محمد بن عبدالله ؟ فيتقدم رسول الله صلى الله عليه وآله أمام الناس كلهم حتى ينتهي إلى حوض طوله ما بين أيلة و صنعاء فيقف عليه فينادي صاحبكم فيتقدم علي عليه السلام أمام الناس فيقف معه ثم يؤذن للناس فيمرون فبين وارد الحوض و بين مصروف عنه يومئذ فإذا رأى النبي صلى الله عليه وآله من يصرف عنه من محبينا بكى فيبعث الله ملكاً إليه فيقول : ما يبكيك يا محمد ؟ فيقول : يا رب شيعة علي أراهم قد صرفوا تلقاء أصحاب النار ومنعوا ورود الحوض ، فيقول له الملك : إن الله يقول : يا محمد إن شيعة علي قد وهبتهم لك يا محمد وصفحت لهم عن ذنوبهم بحبهم لك و لعترتك و ألحقتهم بك و بمن كانوا يقولون به و جعلناهم في زمرتك فأوردهم حوضك قال أبوجعفر عليه السلام : فكم من باك يومئذ وباكية ينادون : يا محمداه إذا رأوا ذلك ولا يبقى أحد يومئذ يتولانا و يحبنا ويتبرأ من عدونا و يبغضهم إلا و معنا و يرد حوضنا .

و في قوله « لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن » قيل : المعنى لا تنفع الشفاعة من الشفيع للمشفوع له إلا أن يكون الشفيع مأذوناً في الشفاعة و مرضياً قوله .

و قيل : إن هذا المعنى توضيح الواضح بل المعنى أن يكون المشفوع له يؤذن في حقه الشفاعة و يكون مرضياً قوله مثل أن يكون من أهل الشهادات لأنه حينئذ يصدق عليه أنه مرضي القول .

و قال الرازي : ههنا مسألة : قالت المعتزلة : إن الفاسق غير مرضي عند الله فوجب أن لا يشفع الرسول في حقه لأن هذه الآية تدل على أن المشفوع له لابد و أن يكون مرضياً عند الله .

و قال أهل الجماعة : إن هذه الآية من أقوى الدلالة على ثبوت الشفاعة في حق الفساق لأن قوله و رضي له قولاً يكفي في صدقه قولاً واحداً من أقواله و هو شهادة أن

لا إله إلّا الله فوجب أن يكون الشفاعة نافعة له لأنّ الاستثناء من النفي إثبات .

فإن قيل : إنّه تعالى استثنى عن النفي بشرطين : أحدهما : حصول الإذن . و الثاني : أن يكون قد رضي له قولاً ، فهب أنّ الفاسق قد حصل فيه أحد الشرطين و هو « قد رضي له قولاً » فمن أين حصل فيه الإذن ؟

فالجواب أنّ أحد الأمرين و هو أنّه رضي له قولاً كاف في حصول الاستثناء لقوله تعالى : « ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى [١] » فاكتفى هناك بهذا القيد .

و دلّت هذه الآية على أنّه لابدّ من الإذن فظهر من مجموعها أنّه إذا رضى له قولاً يحصل الإذن في الشفاعة و إذا حصل القيدان حصل الاستثناء و تمّ المقصود .

أقول : إنّ في هذا البيان الّذي يقوله الرازي : «فظهر من مجموعهما أنّه إذا رضي له قولاً يحصل الإذن في الشفاعة» تأمّل لأنّه من أين أثبت هذه الملازمة فلو أثبت الملازمة من الآية فغير محقّقة لكن قد وردت أخبار صحاح على أنّ الشفاعة تنال الفسّاق من أهل الإيمان و القبلة وعندنا أنّ الفسق لايخرج العبد من الإيمان إذا لم يكن الفاسق مستحلاً .

قوله : [يعلم مابين أيديهم وما خلفهم] الضمير يرجع إلى الّذين يتّبعون الداعي أي يعلم سبحانه منهم جميع أقوالهم و أفعالهم قبل أن خلقهم و بعد أن خلقهم و ما كان في حياتهم و بعد مماتهم .

[ولا يحيطون] بالله [علماً] أي لا يعلمون بمقدوراته و بكنه عظمته في ذاته و أفعاله ، و قيل : ولا يحيطون علماً بما في بين أيمانهم وخلفهم إلّا من اطّلعه الله على ذلك [و عنت الوجوه] و ذلّت خضوع الأسير الوجوه أي أرباب الوجوه و استسلموا [للحيّ القيّوم] وحكمه .

و إنّما أُسند الفعل إلى الوجوه لأنّ أثر الذلّ يظهر على الوجوه قبل كلّ عضو .

و قيل : المراد من الوجوه الرؤساء و القادة و الملوك أي يذلّون و ينسلخون عن ملكهم و عزّهم ، والعنو الذلّة و منه أخذوا العاني للأسير ، و تفسير الحيّ القيّوم قدتقدّم .

روى أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : اطلبوا اسم الله الأعظم في هذه

---

(١) الانبياء : ٢٨ .

السور الثلاث : البقرة و آل عمران و طه . قال الراوي : فوجدنا المشترك في السور الثلاث « الله لا إله إلّا هو الحيّ القيّوم » .

و المراد من معنى الآية أنّ ذلك اليوم حال الإنسان مخالفة للحال الّتي كان عليها في الدنيا غير مختار لنفسه في المعصية و الطاعة و ليس له الاختيار لنفسه .

[وقد خاب] وحرم من الثواب [من حمل ظلماً] و لم يتب عنه .

و استدلّت المعتزلة بهذه الآية في المنع من العفو وقال : «وقد خاب من حمل ظلماً» يعمّ كلّ ظالم و قد حكم الله فيه بالخيبة و العفو ينافيه . قال الطبرسيّ : أي و قد خاب عن ثواب الله من حمل شركاً إلى يوم القيامة ، عن ابن عبّاس . وقيل : قد خسر الثواب من جاء يوم القيامة كافراً ظالماً .

هذا حال الكافرين العاصين و أمّا حال المؤمنين فقال :

[و من يعمل من الصالحات] و الطاعات [و هو مؤمن] عارف بالله تعالى مصدّق بما يجب التصديق به و إنّما قيّد سبحانه بهذا القيد لأنّه لاتنفع الطاعات من غير إيمان و لا بدّ أن يكون العمل الصالح مقروناً بالإيمان [فلا يخاف ظلماً] أن يظلم ويزاد عليه في سيّئاته [و لاهضماً] ولايخاف أن ينقص من حسناته وقوله «لايخاف» في موضع الجزم لكونه في موضع جواب الشرط و قرىء بصيغة النهي «فلا يخف» أي فليأمن و النهي عن الخوف أمر بالأمن . و في هذه دلالة على بطلان التحابط .

قوله : [و كذلك أنزلناه قرآناً عربيّاً] أي و كما أخبرناك بأخبار القيامة أنزلنا هذا الكتاب قرآناً عربيّاً بلسان العرب و كرّرنا [و بيّنّا فيه من الوعيد] بوجوه مختلفة و بألفاظ متفرّقة [لعلّهم] يخافون و[يتّقون] المعاصي و يتّقي العرب من قبل أن ينزل بهم مثل ما نزل بأُولئك [أو يحدث لهم ذكراً] أو يجدّد القرآن لهم عظة و اعتباراً و يذكروا به عقاب الله للأُمم .

فلو قيل : حدوث الذكر و التقوى لا منافات بينهما و كلمة أو للمنافاة .

فالجواب هذا كقولهم : جالس الحسن أو ابن سيرين أي لاتكن خالياً منهما فكذا ههنا .

و قيل يحدث لهم شرفاً بإيمانهم كما قال سبحانه في موضع آخر: « و إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً (١) ».

[فتعالى الله الملك الحقّ] أي ارتفع صفاته عن صفة المخلوقين فلا يشبهه أحدٌ في صفاته لأنّه أقدر من كلّ قادر وأعلم من كلّ عالم.

قوله : [ولاتعجل بالقرآن] فيه وجوه :

الأوّل : قالوا : «و يسألونك» إلى ههنا كلام ثمّ ينقطع ويستأنف بقوله : «و لاتعجل بالقرآن.

الوجه الثاني : روي أنّه صلى الله عليه وآله كان يخاف من أن يفوته من القرآن شيءٌ فيقرأ مع الملك فأمره بأن يسكت حال قراءة الملك ثمّ يأخذ بعد فراغه في القراءة أي تفهّم ما يوحى إليك إلى أن يفرغ جبرئيل من قراءته و إبلاغه ولا تخف النسيان و السهو فإنّا نصونك عنه.

وقيل : معناه : ولا تسأل إنزال القرآن قبل أن يأتيك وحيه لأنّه تعالى ينزله وقت الحاجة.

[و قل ربّ زدني علماً] أي استزد من الله علماً إلى علمك روت عائشة عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً يقرّبني إلى الله فلا بارك الله لي في طلوع شمسه. و قيل : معناه : زدني قرآناً لأنّه كلّما ازداد من نزول القرآن عليه ازداد علماً.

قوله : [ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي و لم نجد له عزماً] و ذكروا في تعلّق هذه الآية بما قبلها وجوهاً :

أحدها : لمّا قال : « كذلك نقصّ عليك من أنباء ما قد سبق » فذكر قصّة آدم إنجازاً للوعد.

و ثانيها : أنّه سبحانه لمّا قال : « وصرّفنا فيه من الوعيد لعلّهم يتّقون » أردفه بقصّة آدم و بيّن أنّ إطاعة بني آدم للشيطان و تركهم التحفّظ من وساوسه أمر

(١) الانفال : ٢.

قديم فإنّا عهدنا و بيّنّا من قبل حيث قلنا له: «إنّ هذا عدوّ لك و لزوجك» ثمّ إنّه مع ذلك نسي و ترك ذلك العهد و ما تحفّظ له.

«و لم نجد له عزماً» فيه وجوه: أحدها أنّه أوصينا إليه أن لا تقرب الشجرة ولا تأكل منها فترك الأمر و لم نجد لم عزماً و عقداً ثابتاً وقيل: معناه فنسي من النسيان الّذي هو السهو و لم نجد له عزماً على الذنب و أخطأ ولم يتعمّد. و قيل: ولم نجد له حفظاً لما أمر به. و قيل: معناه صبراً.

و من حمله على النسيان فما الّذي نسيه فيه أقوال: أحدها أنّه نسي الوعيد بالخروج من الجنّة إن أكل. و الثاني نسي قول الله سبحانه: «إنّ هذا عدوّ لك و لزوجك». والثالث أنّه نسي الاستدلال على أنّ النهي عن الجنس وظنّ أنّه عن العين. هذا هو المرّة السادسة من بيان قصّة آدم في القرآن تحذيراً و عظة للنّاس: أوّلها في سورة البقرة، ثمّ في الأعراف، ثمّ في الحجر، ثمّ في الإسراء ثمّ في الكهف، ثمّ ههنا.

قال ابن عبّاس: من قبل أن يأكل من الشجرة عهدنا إليه أن لا يأكل منها.

قوله تعالى: و اذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس أبى (١١٦) فقلنا يا آدم ان هذا عدولك و لزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى (١١٧) ان لك الاتجوع فيها ولا تعرى (١١٨) وأنك لاتظمؤ فيها ولا تضحى (١١٩) فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد و ملك لا يبلى (١٢٠) فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة و عصى آدم ربه فغوى (١٢١) ثم اجتباه ربه فتاب عليه و هدى (١٢٢) قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلايضل ولايشقى (١٢٣) و من أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكاً و نحشره يوم القيامة اعمى (١٢٤) قال رب لم حشرتنى أعمي و قد كنت بصيراً (١٢٥).

اعلم أنّ سبب عداوة إبليس لآدم العمدة منها أنّه بسبب عدم السجود لآدم طرد عن رحمة الله فحصل له العداوة. ثمّ إنّ اللعين لمّا رأى آثار نعم الله على آدم و حرمان

نفسه حسده فصار عدوّاً له . والثالث أنّ آدم كان شابّاً عالماً لقوله : « و علّم آدم الأسماء كلّها [١] » و إبليس كان شيخاً كبيراً جاهلاً لانّه أثبت فضله بفضيلة أصله ولم يعلم أنّ الفضيلة ليست بالبنية.

و إنّما اُسند الاخراج إلى إبليس لانّه هوالّذي فعل مايترتّب عليه فصحّ ذلك . و الشقاء التعب و إنّما اُسند إلى آدم وحده لأنّ الرجل قيّم باُمور المعاشيّة للمرأة فاختصّ الإسناد إليه مع المحافظة على رعاية الفاصلة في الآي . والمراد من الشقاء المشقّة في طلب القوت .

قال سعيد بن جبير : اُنزل على آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه و يرشّح العرق عن جبينه .

واذكر إذ وصّينا لآدم بأنّ الشيطان [عدوّ لك و لزوجك] فلا يخرجنّك بسبب الوسوسة و يغرّ كما فتقع حينئذٍ في تعب القوت والمعاش و الاكتساب لنفسك ولزوجك [و إنّ لك أن لاتجوع] في الجنّة ولاتصير عارياً من اللباس لسعة طعام الجنّة و ثيابها و لا تعطش في الجنّة و لايصيبك حرّ الشمس لأنّه ليس في الجنّة شمس و إنّما فيها ضياء و نور و ظلّ ممدود من غير شمس .

و هذه الأشياء كأنّها تفسير الشقاء المذكور لأنّ الشبع و الريّ والكسوة و الاكتنان في الظلّ هي الأقطاب الّتي يدور عليها أمر الإنسان بالراحة فذكر الله حصولها من غير تعب بذكر أضدادها نفياً الّتي هي الجوع والعرى و الظماء والضحى . و حذّر سبحانه آدم عنها حتّى يبالغ الاحتراز عن السبب الموقع .

[فوسوس إليه الشيطان] وكانت تلك الوسوسة بتطميعه في أمرين : أحدهما قوله : [هل أدلّك على شجرة الخلد] أي من أكل منها صار مخلّداً و لم يمت ، الثاني : [وملك لا يبلى] أي من أكل منها لا يضعف ولا يهرم .

[فأكلا منهافبدت لهما سوآتهماوطفقايخصفان عليهما من ورق الجنّة] مرّ تفسيره في سورة الأعراف مفصّلاً و إجماله أنّه بعد أن أكلا ظهرت عورتهما ونزع لباس الجنّة

---

(١) البقرة : ٣١ .

عنهما و ظلاّ عاريين فشرعا و أخذا من ورق تين الجنّة ويلزقان ويجعلان الأوراق على عورتهما حياءً عن العري .

[و عصى آدم ربّه فغوى] معناه : خالف أمر ربّه فخاب من ثوابه ، و المعصية مخالفة الأمر سواء كان الأمر واجباً أو ندباً ولا يمتنع أن يسمّى تارك النفل عاصياً كما يسمّى بذلك تارك الواجب يقولون : فلان أمرته بكذا و كذا من الخير فعصاني . و استعمل لفظة « غوى » في الخيبة ، قال الشاعر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره * ومن يغو لايعدم على الغيّ لائماً

و يجوز أن يكون المراد فخاب ممّا كان يطمع فيه بأكل الشجرة من الخلود .

و قال بعض أهل السنّة و الجماعة : و في وصف آدم عليه السلام بالعصيان والغواية مع صغر زلّته تعظيم لها و زجر بليغ لأولاده عن أمثالها .

قال الرازيّ في المفاتيح : إنّ مذهبنا أنّ واقعة الزلّة إنّما وقعت قبل رسالته لابعدها . و قالت المعتزلة : إنّها وقعت صغيرة لا كبيرة . وقال أبومسلم الإصفهانيّ : بأنّه عصى في مصالح الدنيا لا فيما يتّصل بالتكاليف و كذلك القول في غوى ، والغيّ ضدّ الرشد فمن توصّل بشيء إلى شيء ثمّ حصل لضدّ مقصوده كان ذلك غيّاً . وعلى التقادير لم يجز بعد أن قبل الله توبته واجتباه للرسالة إطلاق هذا الاثم عليه مطلقاً .

فعاد سبحانه عليه بالرحمة والمغفرة بقوله : [ثمّ اجتباه ربّه] واصطفاه للرسالة [فتاب عليه] و قبل توبته و هداه للكلمات الّتي تلقّاها منه سبحانه والتثبّت بأسباب العصمة .

[قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوّ] الخطاب من الله لآدم و حوّاء أو لآدم و حوّاء و إبليس و لمّا كانا أصلي الذرّيّة خاطبهما مخاطبتهم والخطاب يعمّ المبشّر .

[فمن اتّبع] هدايتي و ديني [فلا يضلّ] في الدنيا [ولا يشقى] في الآخرة بسبب قبول الدين [ومن أعرض عن ذكري] والذكر يشمل كتب الله جميعاً و القرآن [فإنّ له معيشة ضنكاً] أي ضيّقاً و هو أن يمسكه ولا ينفقه على نفسه فضلاً عن غيره ومن غلبة الحرص عليه و على الجمع و الطلب يضيق المعيشة عليه . و قيل : المراد من هذا الضيق عذاب القبر . و قيل : هو طعام الضريع و الزقّوم في جهنّم و إن كان في سعة في الدنيا .

و قيل : هو الحرام الّذي ينفقه ولا خلف له ويؤدّي إلى النار . و قيل : إنّهم بسبب إعراضهم عن الدين تنقص بركاتهم كما قال : « و لو أنّهم أقاموا التوراة و الإنجيل و ما اُنزل إليهم من ربّهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم [١] » وقال تعالى: « ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض [٢] » و قال تعالى : « استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً * و يمدد كم بأموال وبنين [٣] » و قال تعالى : « و أن لو استقاموا على الطريقة لأسقينا هم ماء غدقاً [٤] » .

و أمّا القول بأنّ المراد من عيشة الضنك عذاب القبر فهو قول جماعة من أصحاب الحديث مثل عبدالله بن مسعود و أبي سعيد الخدريّ وعبدالله بن عبّاس و رفعه أبوهريرة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله قال : إنّ عذاب القبر للكافر قال : والّذي نفسي بيده إنّه ليسلّط عليه في قبره تسعة و تسعون تنّيناً .

قال ابن عبّاس نزلت الآية في الأسود بن عبدالعزّى المخزوميّ والمراد ضغطة القبر تختلف أضلاعه . وقيل : المراد الضيق في كلّ ذلك أوأكثره . روي عن أمير المؤمنين عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : عقوبة المعصية ثلاثة ضيق المعيشة والعسر في الشدّة وأن لايتوصّل إلى قوته إلّا بمعصية الله .

قوله : [ونحشره يوم القيامة أعمى] أي أعمى العين أي يحشر بصيراً فإذا سيق إلى المحشر عمي . وقيل : المراد عمى البصيرة لا البصر ؛ لاحجّة له يهتدي بها . وروى معاوية ابن عمّار قال : سألت أباعبدالله عن رجل لم يحجّ وله مال ؟ قال : هو ممّن قال الله : « ونحشره يوم القيامة أعمى » فقلت : سبحان الله أعمى ! قال : أعماه الله عن طريق الحقّ . فهذا القول مطابق قول من قال : أعمى عن جهات الخير لايهتدي بشيء منها .

قوله تعالى : قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها و كذلك اليوم تنسى (١٢٦)

---

(١) المائدة : ٦٩ .
(٢) الاعراف : ٩٥ .
(٣) نوح : ١٠ ، ١١ ، ١٢ .
(٤) الجن : ١٦ .

وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الاخرة اشد وأبقى (١٢٧) أفلم يهدلهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ان فى ذلك لايات لاولى النهى (١٢٨) ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى (١٢٩) فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس و قبل غروبها ومن آناء الليل فسبح و أطراف النهار لعلك ترضى (١٣٠).

قال : ابن عبّاس ضمن الله سبحانه لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لايضلّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة قال : [كذلك أتتك] آياتي ، هذا جواب من الله لمن يقول يوم القيامة : «لمَ حشرتني أعمى» أي كما حشرناك أعمى جاءك محمّد والقرآن والآيات الدالّة فأعرضت عنها وتعرّضت انسيانها فإنّ النسيان ليس من فعل الإنسان فيوعد عليه لكن يفعل فعلاً يوجب النسيان فتعمّد لحصول النسيان [وكذلك اليوم تنسى] و تترك في العذاب بمنزلة المنسيّ .

قوله : [وكذلك نجزي من أسرف] أي مثل ذلك الجزاء الموافق كما ذكرنا من العمي والنسيان نجزي من أسرف وجاوز العصيان [ولم يؤمن بآيات] الله ولم يصدّق بحجج ربّه ورسله .

واختلفوا في معنى الإسراف أي أشرك و كفر ، وبعضهم قال : أسرف في معصية الله .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام : المراد من أشرك بولاية أمير المؤمنين عليه السلام غيره ولم يؤمن بآيات ربّه وترك الأئمّة عليهم السلام معاندة ولم يتّبع آثارهم ولم يتولّهم .

قوله : [ولعذاب الآخرة أشدّ و أبقى] ولمّا بيّن سبحانه بأنّ العيش الضنك و العمى للمتجاوزين المشركين بالله وبالولاية بيّن من بعد ذلك أنّ عذاب الآخرة المتأخّرة أشدّ وأبقى أمّا الأشدّ فلعظمه وأمّا الأبقى فلأنّه غير منقطع ومن المعلوم أنّ عذاب جهنّم أشدّ من عذاب الدنيا وعذاب القبر لأنّه لايزول .

قوله : [أفلم يهدلهم كم أهلكنا] وقرىء نهد بالمتكلّم والمعنى أفلم يتبيّن لهم طريق الاعتبار و كثرة إهلاكنا [من القرون قبلهم] بسبب تكذيبهم رسلنا ويعتبرون بما فعل

بأسلافهم فيؤمنوا ولا يكذّبوا [وقوله يمشون في مساكنهم] يريد أهل مكّة كانوا يتّجرون إلى الشام فيمرّون بمساكن العاديّين والثموديّين وغيرهم ويرون علامات الإهلاك أفلا يخافون أن تقع بهم مثل ماوقع بأولئك ؟

[إنّ في ذلك لآيات لأولي النهى] إهلاكنا إيّاهم لعبرة ودلالات لأهل العقل والأقرب أنّ للنهية مزيّة على العقل، والنُهى لايقال إلّا فيمن له عقل ينتهي عن القبائح كما أنّ لقولنا : اُولي العزم مزيّة على اُولي الجزم فلذلك قال بعضهم : أهل الورع وأهل التقوى .

ثمّ بيّن سبحانه السبب الّذي لأجله لاينزل العذاب معجّلاً على من كذّب و كفر بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم فقال : [ولولا كلمة سبقت من ربّك لكان لزاماً وأجل مسمّى] وفيه تقديم و تأخير والتقدير : ولولا كلمة سبقت من ربّك وأجلٌ مسمّى لكان نزول العذاب ملازماً لهم والكلمة هي إخبار الله ملائكته وكتبه في اللوح المحفوظ أنّ اُمّته وإن كذّبوا و كفروا فيؤخّرون ولا يفعل بهم مايفعل بغيرهم من الاستئصال .

واختلفوا فيما لأجله يؤخّر العذاب عنهم قال بعضهم: لأنّه علم أنّ فيهم من يؤمن . وقال آخرون : المصلحة فيه خفيّة لايعلمها إلّا هو. وقال أهل السنّة : له بحكم المالكيّة أن يختصّ من شاء بفضله ومن شاء يعذابه من غير علّة وقالوا : لو كان فعله لعلّة لكانت تلك العلّة إن كانت قديمة لزم قدم الفعل وإن كانت حادثة افتقرت إلى علّة اُخرى ولزم التسلسل فلهذا قالوا : كلّ شيء صنعه لا لعلّة .

قوله : « وأجل مسمّى » أي لايهلك أحداً قبل استيفاء أجله .

[فاصبر على مايقولون وسبّح بحمد ربّك قبل طلوع الشمس] وأمره بالصبر على مايقولون ويكرهه من أقوالهم الشنيعة كقولهم : ساحر أوشاعر أومجنون أوغير ذلك أو المراد تكذيبهم لرسالته وتركهم القبول منه لأنّ كلّ ذلك ممّا يهمّه ، وأمره بالدعاء والتسبيح أي دم لربّك بالحمد له والثناء عليه واحمده في هذه الأوقات .

واختلفوا في التسبيح على وجهين فالأكثرون على أنّ المراد منه الصلاة وهؤلاء اختلفوا على ثلاثة أوجه :

أحدها أنّ الآية تدلّ على أنّ الصلوات الخمس لاأزيد ولا أنقص فقال ابن عبّاس : دخلت الصلوات الخمس فيه فقبل طلوع الشمس هو صلاة الصبح و قبل غروبها هو الظهر والعصر لأنّهما جميعاً قبل الغروب [ومن آناء الليل فسبّح] أي المغرب والعشاء الآخرة . وقوله [وأطراف النهار] كالتوكيد للصلاتين الواقعتين في طرفي النهار وهما صلاة الفجر وصلاة المغرب والتكرار في هاتين للخصوصيّة والتأكيد بهما كما اختصّت في قوله : « والصلاة الوسطى » بالتأكيد .

والقول الثاني : أنّ الآية تدلّ على الصلوات الخمس وزيادة أمّا دلالتها على الصلوات الخمس فلأنّ الزمان إمّا أن يكون قبل طلوع الشمس أوقبل غروبها فالليل والنهار داخلان في هاتين العبارتين فأوقات الصلوات الواجبة دخلت فيهما بقي قوله : « ومن آناء الليل فسبّح وأطراف النهار لعلّك ترضى » للنوافل .

والقول الثالث : أنّها تدلّ على أقلّ من الخمس بقوله قبل طلوع الشمس للفجر وقبل غروبها للعصر ومن آناء الليل للمغرب والعشاء فيبقى الظهر خارجاً .

هذا كلّه إذا حملنا التسبيح على الصلاة والأليق الأقرب حمله على التنزيه والإجلال والمعنى اشتغل بتنزيه الله تعالى في هذه الأوقات أراد بذلك المداومة على التسبيح والتحميد في عموم الأوقات لعلّك ترضى بجميع ما وعدك الله وبالشفاعة والدرجة الرفيعة و لعلّك تنال عند الله ما به رضاء نفسك .

في الخصال عن الصادق عليه السلام : سئل عن هذه الآية فقال: فريضة على كلّ مسلم أن يقول قبل طلوع الشمس وقبل غروبها عشر مرّات : «لاإله إلّاالله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حيّ لايموت بيده الخير وعلى كلّ شيء قدير» .

وفي الكافي عن الباقر عليه السلام في قوله : «وأطراف النهار» أي تطوّع بالنّهار فلو قيل :إنّ النهار ليس له غير طرفين كما قال : «وأقم الصلاة طرفي النهار» قيل : إنّما جمع لأنّه متكرّر في كلّ نهار ويعود أوالجمع المنطقيّ اثنان .

قوله تعالى : ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجاً منهم زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى(١٣١) وأمر أهلك بالصلوة

واصطبر عليها لانسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى (١٣٢) و قالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة مافي الصحف الاولى (١٣٣) ولوانا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل و نخزى (١٣٤) قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى و من اهتدى (١٣٥) .

لمّا صبّر سبحانه نبيّه على أكاذيب قومه وأمره أن يعدل إلى التسبيح والاشتغال بعبادته أتبع في هذه الآية بنهيه عن مدّ عينيه إلى مامتّع به القوم قيل : المراد من المدّ ليس هو النظر بل هو الأسف أي لاتأسف على مافاتك ممّا نالوه من حظّ الدنيا .

النزول : قال أبورافع : نزل ضيف بالنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم فبعثني إلى يهودي فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : قل : إنّ رسول الله يقول : بعني كذا و كذا من الدقيق أو أسلفني إلى هلال رجب فأتيته فقلت له ، فقال : والله لاأبيعه ولا أسلفه إلّا برهن فأتيت رسول الله وأخبرته فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : والله لو باعني أو أسلفني لقضيته وإنّي لأمين في السماء وأمين في الأرض ، اذهب بدرعي الحديد إليه ، فنزلت الآية تسلية له عن الدنيا .

قال اُبيّ بن كعب في هذه الآية : من لم يتعزّ بعزاء الله تقطّعت نفسه حسرات على الدنيا ، و من يتبع بصره ما في أيدي الناس طال حزنه ولايشفى غيظه ، و من لم ير لله عليه نعمة إلّا في مطعمه و مشربه نقص علمه و دنا عذابه و قد فعل نظّارة قارون حيث قالوا : « يا ليت لنا مثل ما اُوتي قارون إنّه لذو حظّ عظيم [١] » . حتّى واجههم اُولو العلم و الايمان بقولهم : « ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً [٢] » .

و لقد شدّد المتّقون في وجوب غضّ البصر عن أبنية الظلمة و زينة الفسقة في اللّباس و المركوب و غير ذلك قال عيسى عليه السلام : لاتتّخذوا الدنيا ربّاً فتتّخذ كم عبيداً .

و عن عروة بن الزبير : أنّه إذا كان رأى ما عند السلاطين والاُمراء يتلو هذه الآية و قال : الصلاة يرحمكم الله .

(١) القصص : ٧٩ .
(٢) « : ٨٠ .

[إلى ما متّعنا به أزواجاً] أي أصنافاً من الكفرة و أشباهاً و المزاوجة من المشاكلة لأنّ الكفّار متشاكلون في الذهاب عن الحقّ و الدين والتمتّع المراد منه الاستلذاذ من المناظر الحسنة و الأصوات المطربة و شمّ الروائح الطيّبة و المناكح و الملابس وأمثالها.

قوله : [زهرة الحياة الدنيا] و قرىء بفتح الهاء و الزهرة النور [1] الّذي يروق عند الرؤية ، أزهر اللون أي منير اللون والزهراوان : البقرة و آل عمران ، و الزهرة بالتحريك الزينة و البهجة كما جاء في الجمهرة ويصحّ أن يكون جمع زاهر وصفاً لهم بأنّهم زهرة هذه الدنيا لصفاء ألوان الكفّار و تهلّل وجوههم بخلاف ما عليه الصلحاء من شحوب الألوان والتقشّف في الثياب .

أمّا قوله : [لنفتنهم] أي لنعاملهم معاملة المختبر و نجعل ذلك امتحاناً و فتنة لهم قال الكلبيّ و مقاتل : معناه تشديداً في التكليف عليهم لأنّ الإعراض عن الدنيا عند حضورها و الإقبال إلى الله أشدّ من ذلك عند عدم حضورها و أسبابها و لذلك كان رجوع الفقراء إلى خدمة الله و التضرّع إليه أكثر من تضرّع الأغنياء و لأنّ على من اُوتي الدنيا ضروباً من التكاليف لولاها لما لزمتهم تلك التكاليف و لأنّ القادر على المعاصي يكون الاجتناب عنها أشقّ عليه من العاجز القصير فمن هذه الجهات يكون الزيادة في الدنيا تشديداً في التكليف .

ثمّ قال لرسوله : [و رزق ربّك خيرٌ و أبقى] أي ما نصبك من الثواب خير من مطلوبهم و أبقى لأنّه يدوم ولا ينقطع و ليس حال ما اُوتوه من الدنيا كذلك أو المراد أنّ ما اُعطيت من الكرامة و النبوّة خير لك ممّا متّعنا به هؤلاء .

قوله : [و أمر أهلك بالصلاة] أي فأمر يا محمّد أهل بيتك وأهل دينك بالصلاة ؛ روى أبو سعيد الخدريّ قال : لمّا نزلت هذه الآية كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يأتي باب فاطمة و عليّاً تسعة أشهر عند كلّ صلاة فيقول : الصلاة رحمكم الله إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس و يطهّركم تطهيراً . و قال أبو جعفر عليه السلام : أمره الله أن يخصّ أهله دون الناس ليعلم الناس أنّ لأهله منزلة ليست للنّاس فأمرهم مع الناس عامّة في موضع آخر ثمّ

(١) بفتح النون .

أمرهم خاصّة .

قوله : [و اصطبر عليها] أي كما تأمرهم فحافظ عليها فعلاً فإنّ الوعظ بلسان الفعل أتمّ منه بلسان القول .

ثمّ بيّن سبحانه أنّه يأمرهم بذلك لمنافع و أنّه متعال عن المنافع بقوله : [لا نسألك رزقاً] لخلقنا ولالنفسك بل كلّفناك العبادة وضمنّا رزق الجميع [نحن نرزقك] و نرزقهم جميعاً لا نسترزقكم كما يريدون السادة من العبيد الخراج و هذا المعنى كقوله : «وما خلقت الجنّ والإنس إلّاليعبدون * ماأُريد منهم من رزق وما أُريد أن يطعمون[1]» و قيل : إنّ المعنى : لانسألك رزقاً لنفسك ولا لأهلك بل نحن نرزقك ففرّغ بالك لأمر الآخرة . و قيل : معناه أنّا لمّا أمرناك بالصلاة فليس ذلك الأمر لأنّا ننتفع بصلاتك فعبّر عن هذا المعنى بقوله : « لانسألك رزقاً» .

قال عبد الله بن سلام : كان النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إذا نزل بأهله ضيّق أوشدّد أمرهم بالصلاة و تلا هذه الآية .

ثمّ قال : [والعاقبة للتّقوى] أي لأهل التقوى العاقبة المحمودة .

قوله تعالى : [و قالوا لولا يأتينا بآية من ربّه] الّتي اقترحناها كما أتى بها الأنبياء .

فأزال الله شبهتهم الّتي أوردوها بأنّه يكلّفهم الإيمان و التصديق من غير آية فأجاب بقوله : [أولم تأتهم بيّنة مافي الصحف الأُولى] وفيه وجوه :

أحدها أنّ ما في القرآن إذا وافق مافي كتبهم مع أنّ الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يشتغل بالدراسة والتعلّم وما رأى اُستاذاً البتّة كان ذلك إخباراً بالغيب فيكون معجزاً .

و ثانيها أنّ بيّنة مافي الصحف الأُولى ما فيها من البشارة بمحمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ونبوّته.

و ثالثها : ذكر ابن جبير والقفّال ، والمعنى: أولم تأتهم بيّنة ما في الصحف الأُولى من أنباء الأُمم الّتي أهلكناهم لمّاسألوا الآيات واُوتوا بهافكفروا بها كيف عاجلناهم بالعقوبة فما ذا يؤمّنهم أن يكون حالهم في سؤال الآيات واقتراحها كحال اُولئك ؟ وإنّما

(١) الذاريات : ٥٥ ، ٥٦ .

أتاهم هذاالبيان في القرآن فلهذا وصف القرآن بكونه بيّنة ما في الصحف الاُولى كأنّ المعنى يقول : ألم يأتهم نبأ سائر الآيات الّتي وقعت قبلهم أولم تأتهم خاصّة بيّنة ما في الصحف الاُولى في قرآنك ·

ثمّ أزاح لهم العذر في التكليف فقال : [و لو أنّا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً] والمراد كان لهم أن يقولوا ذلك فيكون عذراً لهم فأمّا الآن و قد أرسلنا و بيّنّا على لسانك ما عليهم و مالهم فلا حجّة لهم بل الحجّة عليهم ، ومعنى «من قبله» أي من قبل إرساله و من قبل إظهاره القرآن و البيّنات فقطعنا عذرهم و لم يبق لهم .

قوله : [فنتّبع آياتك من قبل أن نذلّ] بالعذاب[ونخزى] في جهنّم أوالمراد من قبل أن نذلّ في الدنيا بالقتل و الأسرونشقى في الآخرة بالعذاب .

قال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : يحتجّ على الله يوم القيامة ثلاثة : الهالك في الفترة يقول: لم يأتني رسول و إلّا كنت أطوع خلقك لك و تلا قوله تعالى «لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك » . و المغلوب على عقله يقول: يا ربّ لم تجعل لي عقلاً أنتفع به . و الصبيّ يقول : كنت صغيراً لا أعقل ولا اُميّز فحينئذ ترفع لهم نار و يقال لهم : ادخلوها ، فيدخلها من كان في علم الله أنّه سعيد ويبقى من في علمه أنّه شقيّ فيقول الله تعالى لهم : عصيتم اليوم أمري فكيف برسلي لوأتوكم ؟

و بعض طعنوا في هذا الخبر كالقاضي عبدالجبّار و قالوا : لايحسن العقاب على من لا يعقل .

قال الجبّائيّ : هذه الآية تدلّ على وجوب فعل اللطف إذ المراد أنّه يجب أن يفعل بالمكلّفين ما يؤمنون عنده و لولم يفعل لكان لهم أن يقولوا : هلّا فعلت ذلك لنؤمن و هلّا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك .

قال الكعبيّ : قوله : «لولا أرسلت إلينا رسولاً » أوضح دليل على أنّه تعالى يقبل الاحتجاج من عباده وأنّه ليس قوله : «لا يسأل عمّا يفعل» كما ظنّه أهل الجبر من أنّ ما هو جورٌ منّا يكون عدلاً منه بل معناه أنّه لايقع منه إلّا العدل فإذا ثبت أنّه تعالى

يقبل الحجّة فلو لم يكونوا قادرين على ما اُمروا به لكان لهم فيه حجّة و أعظم حجّة .

و قد ختم الله السورة بضرب من الوعيد فقال : [قل] يا محمّد : [كلّ] منّا و منكم منتظر عاقبة أمره بعد الموت و هو ظهور أمر الثواب و العقاب فإنّه يتميّز في الآخرة المحقّ من المبطل بما يظهر على المحقّ من أنواع الكرامة وعلى المبطل من أنواع العذاب والإهانة [فستعملون] عند ذلك [مَن أصحاب الصراط السويّ] أي من أهل الدين المستقيم [و مَن اهتدى] إلى طريق الجنّة نحن أم أنتم ؟

و في ثواب الأعمال والمجمع عن الصادق عليه السلام قال : لا تدعوا
قراءة سورة طه فإنّ الله يحبّها و يحبّ من
قرأها و من أدمن قراءتها أعطاه الله
يوم القيامة كتابه بيمينه
ولم يحاسبه بما عمل
في الإسلام .
تمّت السورة

سورة الانبياء

(مكية كلها)

فضلها : قال اُبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من قرأها حاسبه الله حساباً يسيراً و صافحه وسلّم عليه كلّ نبيّ ذكر اسمه في القرآن .

وقال أبوعبدالله عليه السلام : من قرأها حبّاً لها كان ممّن يوافق الأنبياء أجمعين في جنّات النعيم وكان مهيباً في أعين الناس حياة الدنيا .

بسم الله الرحمن الرحيم

اقترب للناس حسابهم و هم فى غفلة معرضون (١) ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه و هم يلعبون (٢) لاهية قلوبهم و أسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا الا بشر مثلكم أفتاتون السحر وأنتم تبصرون (٣) قال ربى يعلم القول فى السماء و الارض و هو السميع العليم (٤) بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما ارسل الاولون (٥) .

القرب لا يعقل إلّا في المكان و الزمان و القرب المكاني هٰهنا ممتنع فتعيّن القرب الزماني فالمعنى : [اقترب للناس] وقت [حسابهم] .

فلو قيل : كيف وصف بالاقتراب وقد مضى من هذا القول أكثر من ألف سنة ؟

فالجواب من وجوه :

أحدها أنّه مقترب عند الله وأنّ يوماً عند ربّك كألف سنة ممّا تعدّون و كلّ ما هو آت قريب وإن طالت أوقات ترقّبه و إنّما البعيد هو الّذي انقرض .

فلا زال ما تهواه أقرب من غد ❊ ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس

و ثانيها أنّ المعاملة إذا كانت مؤجّلة إلى سنة مثلاً ثمّ انقضى منها شهر فإنّه لا يقال : اقترب الأجل ، أمّا إذا كان الماضي أكثر من الباقي فإنّه يقال : اقترب الأجل ، فقرب القيامة من هذا الوجه و لهذا المعنى أشار ﷺ قال : « بعثت أنا و الساعة كهاتين » لأنّ الباقي من مدّة التكليف أقلّ من الماضي .

ثمّ إنّه سبحانه ذكر هنا الاقتراب لهذا البيان الّذي ذكرنا على أنّ ذكر الاقتراب لما فيه من المصلحة للمكلّفين لتلا في الذنوب و تداركها و التحرّز عنها خوفاً من ذلك و إنّما لم يعيّن الوقت لأجل أنّ كتمانه أصلح كما أنّ كتمان وقت الموت أصلح [و هم في غفلة معرضون] وصفهم بأمرين : الغفلة و الإعراض أمّا الغفلة لأنّهم غافلون

و ساهون و ناسون لا يتفكّرون في حسابهم مع اقتضاء عقولهم ملازمة جزاء المحسن و المسيء ثمّ إذا انتبهوا عن سنة الغفلة بمايتلى عليهم من الآيات و المواعظ أعرضوا ولم يقبلوا بوجه القبول والتدارك .

قوله : [ما يأتيهم من ذكر من ربّهم محدث] و من في «من ذكر» زائدةٌ للتأكيد و «ذكر» محلّه الرفع و المراد من الذكر القرآن فدلّ النصّ بحدوث القرآن لأنّ الله يجدّد لهم الذكر وقتاً فوقتاً و آية بعدآيةٍ و سورة بعد سورةٍ ، واحتجّ المعتزلة بحدوث القرآن [إلّا استمعوه و هم يلعبون لاهية قلوبهم] أي لم يستمعوا استماع تدبّر و نظرٍ و قبول و إنّهم استمعوه استماع اشتغال ولهوٍ و استهزاء غافلة قلوبهم .

[و أسرّوا النجوى] أي تناجوا بينهم المشركون فبيّن المتناجين فقال : [الّذين ظلموا] وأشركوا تناجوا فقوله « الّذين ظلموا» بدل من« أسرّوا» أوجاء على لغة أكلوني البراغيث أو أسرّوا خبر مقدّم و الّذين ظلموا مبتدأ مؤخّر و إنّما أسرّوا لوجهين : الأوّل أنّه كان كالتشاور والتحاور فيطلب الطريق إلى هدم أمرالقرآن و عادةالمتشاورين أن يجتهدوا في كتمان سرّهم عن أعدائهم أوكانوا يسرّون القول لأن يقولوا لرسول الله والمؤمنين : إن كان ما تدّعونه حقّاً فأخبرونا بما أسررناه .

فإن قيل : إنّ النجوىاسم من التناجي و لايكون إلّا خفية فما معنى « وأسرّوا النجوى » ؟ فالمعنى : بالغوا في إخفاء كلامهم وجعلوها بحيثلايفطنأحد كلامهملتناجيهم بل هم يستمعون كلامهم بينهم بالمشقّة .

ثمّ إنّهم كانوا يناقشونفينبوّته ﷺ بأمرين : أحدهما أنّهبشر مثلهم . والثاني أنّ الّذي أتى به سحرٌ .

و كلاهما فاسدأمّا الأوّل لأنّ النبوّة تقف صحّته على المعجزة و الدلائل لا على الصور و إنّما يعلم كونه نبيّاً بالمعجزة و العلم فإذا ظهرت الأمور من البشر فيكون هو الأولى من الملك لأنّ المرء من أشكاله آنس وإلى القبول عن سنخه أقرب .

و أمّا الثاني و هو أنّ ما أتى به الرسول أي القرآن سحرٌ و هذا الكلام جهلٌ لأنّه ﷺ كلّ ماأتىبه منالقرآنظاهرالحال ويتحدّاهم حالاً بعدحال مدّة من الزمان

فهلاّ قابلوه و هم أرباب الفصاحة و البلاغة و كانوا في نهاية الحرص على إبطال أمره وأقوى الأمور في إبطال أمره كان معارضة القرآن فلو قدروا على المعارضة لامتنع أن لا يأتوا بها لأنّ الفعل عند توفّر الداعي واجب الوقوع فلمّا لم يأتوا بها دلّ ذلك على أنّه في نفسه معجزة و أنّهم عرفوا و علموا حقيقة الأمر و ما ذكرنا يدلّ على أنّهم كانوا عالمين بصدقه إلّا أنّهم كانوا يموّهون على الضعفاء لأغراض كانت لهم في تلك المكابرة .

[قال ربّي يعلم القول في السماء] وقرأ بعض : قل ربّي فإذا كان « قال ربّي » حكاية لقول الرسول وإن كان الكلّ يكون يقولون هذا أي إنكم و إن أخفيتم قولكم وطعنكم فإنّ ربّي عالم بذلك وهو السميع لأقوالهم العليم لضمائرهم .

[بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه] ثمّ أضربوا عن القولين وهماً لكونه بشراً ليس بنبيّ وأنّ القرآن ليس بمعجز بل سحرٌ و « قالوا أضغاث أحلامٍ » أي تخاليط أحلامٍ يراها في المنام ثمّ قالوا : لا « بل » هو « افتراه » وافتعله وتخرّصه . ثمّ قالوا : لا [بل هو شاعر] تقوّله وهذا قول المتحيّر الّذي بهره ماسمع فمرّة يقول : سحر ومرّة يقول : شعرٌ ومرّة يقول : حلمٌ ولا يجزم على أمرٍ واحد .

ولمّا فرغوا من هذه الاحتمالات قالوا : [فليأتنا بآيةٍ كما أُرسل الأوّلون] أي طلبوا آيةً جليّة كالآيات المنقولة عن موسى وعيسى عليهما السلام مثل الناقة والعصا و اقترحوا الآيات الّتي ليس معها إمهال و لابدّ إذا صدرت ولم يؤمنوا يأخذهم العذاب لأنّ حكم الله فيمن كذّب بعد الإجابة إلى مااقترحه من الآيات أن ينزل به عذاب الاستئصال وقد مضى حكمه في أُمّة محمد خاصّة بخلافه فلذلك لم يجبهم .

قوله تعالى : ماآمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون (٦) وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون (٧) وما جعلناهم جسداً لايأكلون الطعام وما كانوا خالدين (٨) ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين (٩) لقد أنزلنا اليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون (١٠) .

المعنى : أجاب سبحانه عن الكفّار الّذين اقترحوا الآيات بقولهم : « فليأتنا بآيةٍ كما أُرسل الأوّلون » .

[ماآمنت قبلهم] أي لم يؤمن قبل هؤلاء الكفار [من] أهل [قرية] جاءتهم الآيات الّتي اقترحوها و طلبوها فأهلكناهم مصرّين على الكفر [أفهم يؤمنون] عند مجيئها أي هؤلاء سبيلهم سبيل من تقدّم منهم ومن المعلوم أنّهم لايؤمنون فلذلك لم يأت هؤلاء بالآيات المقترحة .

[وما أرسلنا قبلك إلّا رجالاً نوحي إليهم] هذاجواب عن قولهم : « ماهذا إلّا بشر مثلكم » أي هذه عادة الله في الرسل أن يبعث من البشر من قبيل محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم .

[فاسألوا أهل الذكر] في الكافي عن الباقر عليه السلام قيل له : إنّ من عندنا يزعمون أنّ قول الله « فاسألوا أهل الذكر » أنّهم علماء اليهود و النصارى قال : إذاً يدعوكم إلى دينهم ثمّ أومأ بيده إلى صدره نحن أهل الذكر ونحن المسئولون . و عن عليّ عليه السلام أنّه قال :نحن أهل الذكر. ويعضده أنّ الله سمّى النبيّ ذكراً رسولاً وقيل : أهل الذكر المراد أهل التوراة والإنجيل وقيل : أهل العلم بأخبار من تقدّم من الاُمم . وقيل : أهل القرآن والذكر هو القرآن وهم العلماء بالقرآن .

قوله : [و ما جعلنا هم جسداً لايأكلون الطعام و ما كانوا خالدين] هذا جواب و ردّ من الله لقولهم : « مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق[1] » و معناه : ما جعلنا الأنبياء قبلك ذوي أجساد لا يأكلون الطعام و لا يموتون حتّى يكون أكلك الطعام و شربك وموتك علّة لترك الإيمان بك فإنّا لم نخرجهم عن حدّ البشريّة بالوحي . والجسد المجسّد الّذي فيه الروح ويأكل و يشرب فحينئذ جسمٌ . وقيل : الجسد مالايأكل و لايشرب فحينئذ نفس . ووحّد لفظ الجسد لإرادة الجنس بتقدير ذوي جسد والحاصل من المعنى : ما جعلنا الأنبياء ذوي جسد غير طاعمين .

[ثمّ صدقنا هم الوعد فأنجيناهم و من نشاء] بأنّ العاقبة المحمودة كانت لهم و أنجزنا ما وعدنا هم من النصر والظهور على الأعداء فأنجينا هم من أعدائهم و المؤمنين بهم [و أهلكنا المسرفين] على أنفسهم بتكذيبهم الأنبياء ، و قيل : المراد من المسرفين المشركين .

(١) الفرقان : ٧ .

ثمّ ذكر سبحانه نعمته عليهم بإنزال القرآن فقال : [لقد أنزلنا إليكم كتاباً] يا معشر الناس [فيه ذكركم] أي في اتّباع القرآن ذكركم و شرفكم و فيه ذكر ما تحتاجون إليه في أمر دينكم و دنياكم و فيه مكارم الأخلاق و محاسن الأفعال [أفلا تعقلون] ما فضّلتم به لتفوزوا بالجنّة بعمله لأنّ دفع الضرر عن النفس من لوازم العقل .

قوله : و كم قصمنا من قرية كانت ظالمة و أنشأنا بعدها قوماً آخرين (١١) فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون (١٢) لا تركضوا و ارجعوا الى ما اترفتم فيه و مساكنكم لعلكم تسئلون (١٣) قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين (١٤) فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين (١٥) .

لمّا أبطل شبهاتهم بالغ سبحانه في زجرهم فقال :

[و كم قصمنا] القصم أقطع الكسر و هو الّذي لا يلتئم الأجزاء بخلاف الفصم و ذكر القرية توسّعاً والمراد أهلها فالمعنى: أهلكنا قوماً و أنشأنا قوماً آخرين ، والمراد من القرية أهل القرية لأنّ القرية لا تكون ظالمة ولا مكلّفة .

[فلمّا أحسّوا] عذابنا و [بأسنا] و هذه البيانات قرائن دالّة على أنّ المراد أهل القرية و إلّا لما جاز منه ذكر المجاز لأنّه موهم للكذب و المراد من البأس في الآية القتل بالسيف و المراد بالقرية بلدة حضور و سحول في اليمن ينسب إليهما الثياب و في الحديث : كفّن رسول الله صلّى الله عليه و آله في ثوبين سحوليّين ، وروي : حضوريّين .

و بعث الله فيها نبيّاً يقال له حنظلة فقتلوا نبيّهم فسلّط الله عليهم بخت النصّر حتّى قتلهم و سباهم ونكأ فيهم حتّى خرجوا من ديارهم منهزمين فبعث الله ملائكة حتّى ردّهم إلى مساكنهم فقتل صغارهم و كبارهم حتّى لم يبق لهم اسمٌ و لارسمٌ روي أنّه لمّا أخذتهم السيوف نادى مناد من السماء : يا لثارات الأنبياء .

هذا على أنّ المراد من العذاب القتل و أمّا إذا كان المراد من البأس غير القتل فالمراد عذاب الاستئصال والقرية غير منحصرة في القريتين بل مطلق القرى المعذّبة ولعلّ ابن عبّاس ذكر حضور بأنّها إحدى القرى الّتي أرادها الله بهذه الآية .

فلمّا أحسّوا بأسنا [إذا هم منها يركضون] والمعنى لمّا علموا شدّة عذابنا مشاهدة ركضوا في ديارهم والركض ضرب الدابّة بالرجل ومنه قوله : «اركض برجلك»[1] فيجوز أن يكونوا ركبوا دوابّهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم .

قوله : [لا تركضوا وارجعوا إلى ما أُترفتم فيه ومساكنكم] كلمة « قال » محذوف و القائل إمّا بعض الملائكه أو المؤمنين الّذين من شأنهم أن يقولوا ولم يقولوا أو يقوله الله ويسمعه الملائكة فيحدّثون به أنفسهم لثبات دينهم أي ارجعوا إلى نعمكم ومساكنكم من العيش و الرفاهية و الحال الناعمة ، و الإتراف إبطار النعمة و هي الترفّه [لعلّكم تسألون] فهو تهكّم بهم و توبيخ لهم أي ارجعوا إلى مساكنكم حتّى تسألكم الناس في أنديتكم لتعاونوهم في نوازل الخطوب و يستعينوكم بآرائكم أو يسألكم الوافدون عليكم الطامعون فيكم إمّا لأنّهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رئاء الناس طلباً للثّناء أو للبخل فقيل لهم ذلك تهكّماً إلى تهكّم .

فلمّا رأوا و شاهدوا العذاب [قالوا يا ويلنا إنّا كنّا ظالمين] على سبيل التندّم إنّا ظلمنا أنفسنا حيث كذّبنا رسل ربّنا .

[فما زالت تلك دعواهم] ولم يزالوا يقولون ياويلنا وتلك إشارة إلى هذه الكلمة ، الويل أي ياويل احضر فهذا وقت حضورك ويكرّرون هذه الكلمة فلم ينفعهم ذلك إلى أن [جعلناهم حصيداً] محصوداً مقطوعاً [خامدين] ساكني الأنفاس والحركات ميّتين كما تخمد النار إذا طفئت .

قوله : و ما خلقنا السماء والارض و ما بينهما لاعبين (١٦) لوأردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين (١٧) بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون (١٨) و له من فى السموات والارض و من عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون (١٩) يسبحون الليل والنهار لايفترون (٢٠) .

وجه التعلّق في هذه الآية بما قبلها أنّه لمّا بيّن إهلاك القوم لأجل تكذيبهم بيّن

(١) سورة ص : ٤٢.

في هذه الآية على أنّ ذلك الفعل عدلاً منه و مجازاة على فعلهم فقال :

[و ما خلقنا السماء و الأرض] و ما سوّينا هذا السقف المرفوع و هذا المهاد الموضوع و ما بينهما من العجائب كما يفعل الجبابرة سقوفهم و فروشهم للّهو و إنّما سوّينا ها لفوائد دينيّة و دنيويّة لتفكّرون في خلق السماوات و الأرض و تنتفعون منها منافع .

[لو أردنا أن نتّخذ لهواً لاتّخذناه من لدنّا] اللهو المرأة . وقيل: هو الولد . وقيل : اللهو داعي الهوى . والمعنى: لو اتّخذنا نساء أوولداً لاتّخذناه من أهل السماء و لم نتّخذه من أهل الأرض أي من الروحانيّين لامن الجسمانيّين لأنّ ذلك أليق بحضرتنا . و أصل اللهو معناه الجماع ؛ قال امرؤ القيس :

ألا زعمت بسباسة اليوم أنّني * كبرت وأن لايحسن اللهو أمثالي

و تأويل الآية : لمّا قالت في المسيح و اُمّه ماقالت قال الله عزّ وجلّ : لو أردنا أن نتّخذ صاحبة و ولداً كمايقولون لاتّخذنا ذلك من عندنا ولم نتّخذ من عندكم [إن كنّا فاعلين] هذاالفعل وقيل: «إن» نافية وهذا البيان ردّ لمن قال بولادة المسيح و عزير .

قوله : [بل نقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه] و كلمة «بل» إضرابٌ عن اتّخاذ اللهو و اللّعب و تنزيه من اللهو لذاته بل من عادتنا أن نغلب اللعب بالجدّ و ندحض الباطل بالحقّ . واستعار لفظ القذف والدمغ بياناً لإبطال ما تصوّروا في اتّخاذ الولد فجعل الحقّ كالجسم الصلب مثل كالصخرة وقذف به على جرمٍ رخو أجوف أي يبطل اللهو الباطل المدفوع بالرمي الشديد بالجرم الصلب كالصخرة و هو الحقّ فإذا الباطل زاهق و ذاهب بالكلّيّة و يؤدّي الأمر إلى زهوق روح الباطل واضمحلاله .

قوله : [و لكم الويل ممّا تصفون] أي ولكم العذاب الشديد ممّا تصفون الله به من اتّخاذ الولد و الصاحبة و تكذيب الرسول و القرآن و نسبة السحر إلى القرآن و أمثاله

[و له من في السماوات و الأرض] لمّا حكى كلام الطاعنين في النبوّة و تمرّدهم عن الطاعة ذكر في هذه الآية أنّه تعالى منزّه عن طاعتهم وأنّه المالك لجميع المخلوقات و يعبده من هو أطوع و الملائكة مع جلالتهم خائفون مطيعون له فالبشر مع نهاية

الضعف أولى أن يطيعوه و كلّ المكلّفين في السماء و الأرض عبيده و يجب على الكلّ الانقياد لحكمه .

والمراد من الآية نفي النبوّة عن الملائكة بقوله : [لا يستكبرون عن عبادته] أي لايأنفون لأنّ أحداً لايستعبد ابنه [ولايستحسرون] أي لايعيون ولايملّون ولاينقطعون ، مأخوذ من الحسر و هوالبعير المنقطع بالإعياء .

[يسبّحون] الله و ينزّهونه عمّا لايليق على الدوام [لايفترون] و لا يضعفون عنه . قال عبدالله بن الحرث بن نوفل : قلت لكعب الأحبار : أرأيت قول الله : «يسبّحون الليل والنهار لايفترون» ثمّ قال : «جاعل الملائكة رسلاً»[١] أفلا تكون تلك الرسالة مانعة لهم عن هذا التسبيح ؟ و أيضاً قال سبحانه : « اُولئك عليهم لعنة الله و الملائكة[٢] » فكيف يشتغلون باللعن حال اشتغالهم بالتسبيح ؟ فقال كعب : التسبيح لهم كالتنفّس لنا فكما أنّ التنفّس لنا لايمنعنا من الكلام فكذلك اشتغالهم بالتسبيح لا يمنعهم سائر الأعمال .

فإن قيل : هذا القياس غير صحيح لأنّ الاشتغال بالتنفّس لايمنع من الكلام وآلة التنفّس غير آلة الكلام فيمكن الجمع و لكنّ التسبيح و اللعن فهما من جنس الكلام و اجتماعهما محال .

و الجواب أنّه لايستبعد أن يخلق الله لهم ألسنة كثيرة ببعضها يسبّحون وببعضها يلعنون .

قوله تعالى : أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون (٢١) لوكان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون (٢٢) لايسئل عما يفعل و هم يسئلون (٢٣) أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لايعلمون الحق فهم معرضون (٢٤) و ما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لااله الا أنا فاعبدون (٢٥) و قالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون (٢٦) لا يسبقونه

(١) فاطر : ١ .
(٢) البقرة : ١٦١ .

بالقول و هم بأمره يعملون (٢٧) يعلم مابين أيديهم و ماخلفهم ولايشفعون الا لمن ارتضى و هم من خشيته مشفقون (٢٨) و من يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين (٢٩) أو لم يرالذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقاً ففتقنا هما و جعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون (٣٠).

اعلم أنّ الكلام من أوّل السورة إلى ههنا كان في النبوّة و ما يتّصل بها سؤالاً و جواباً فشرع سبحانه في بيان التوحيد و نفي الأنداد.

« أم » ههنا هي المنقطعة الكائنة بمعنى «بل» للإنكار لما بعدها و ليست المعادلة بهمزة الاستفهام حتّى يكون مثل : أزيد قائم أم عمرو أي لم يتّخذوا آلهة من الأرض يحيون الأموات يعني أنّ هؤلاء إذاكانوا لايقدرون على إحياء الأموات و يميتوا ويضرّوا و ينفعوا فأيّ عقل يجوّز اتّخاذهم آلهة ؟

قوله «من الأرض» نسبتها إلى الأرض للإيذان بأنّها الأصنام الّتي تعبد في الأرض منحوتة من بعض الحجارة أو معمولة من بعض جواهر الأرض ، وقرىء ينشرون بفتح الياء يقال : أنشر الله الموتى و نشرها.

قوله [لو كان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا] و «إلّا » ههنا بمعنى «غير» أي لوكان يتولّاهما شيء غير الله الواحد الّذي هو فطرهما لفسدتا ولا يجوز أن يكون بمعنى الاستثناء لأنّه لوحمل على الاستثناء لكان المعنى : لو كان فيهما آلهة ليس معهم الله لفسدتا وهذا يوجب بطريق المفهوم أنّه لو كان فيهما آلهة معهم الله أن لايحصل الفساد و ذلك باطل ؛ لأنّه لوكان فيهما آلهة إلّا الله فسواء لم يكن الله معهم أو كان الله فالفساد لازم فيجب أن يكون معناه غيره.

ذكر سبحانه الدليل على توحيده وهذا هو دليل التمانع الّذي بنى عليه المتكلّمون مسألة التوحيد و تقرير ذلك أنّه لو كان مع الله إله آخر لكانا قديمين والقدم من أخصّ الصفات فالاشتراك فيه يوجب التماثل فيجب أن يكونا قادرين عالمين حيّين ، و من حقّ كلّ قادرين أن يصحّ كون أحدهما مريداً لضدّ ما يريد الآخر من إماتة وإحياء أو تحريك أو تسكين أو إفقار أو إغناء فإذا فرضنا ذلك فلامحالة إمّا أن يحصل مرادهما

و ذلك محال و إمّا أن لايحصل مرادهما فينتقض كونهما قادرين و إمّا أن يقع مراد أحدهما و لا يقع مراد الآخر فينتقض كون من لم يقع مراده من غير وجه منع معقول قادراً فإذاً لايجوز الإله إلّا واحداً .

و لو قيل : إنّهما لا يتمانعان ؛ لأنّ ما يريد أحدهما يكون حكمة فيريده الآخر بعينه .

فالجواب أنّ كلامنا في صحّة التمانع لافي وقوع التمانع و صحّة التمانع يكفي في الدلالة لأنّه يدلّ على أنّه لابدّ من أن يكون أحدهما متناهي المقدور فإذا كان كذلك فلا يجوز أن يكون إلهاً . انتهى كلام الطبرسيّ .

قال الرازيّ وذكر بعض الوجوه الإقناعيّة :

لو كان كلّ واحد من الإلهين قادراً على مالا نهاية له امتنع كون أحدهما أقدر من الآخر بل لابدّ و أن يستويا في القدرة و إذا استويا في القدرة استحال أن يصير مراد أحدهما أولى بالوقوع من مراد الثاني و إلّا لزم ترجيح الممكن من غير مرجّح .

و أيضاً إذا قدّرنا إلهين لوجب أن يكون كلّ واحد منهما مشاركاً للآخر في الإلهيّة و لابدّ وأن يتميّز كلّ واحد منهما عن الآخر بأمرمّا و إلّا لماحصل التعدّد فما به الممايزة إمّا أن يكون صفة كمال أولا يكون فإن كان صفة كمال فالخالي عنه يكون خالياً عن الكمال فيكون ناقصاً و الناقص لايكون إلهاً و إن لم يكن صفة كمال فالموصوف به يكون موصوفاً بما لايكون صفة كمال فيكون ناقصاً . و يمكن أن يقال : ما به الممايزة إن كان معتبراً في تحقّق الإلهيّة فالخالي عنه لا يكون إلهاً و إن لم يكن معتبراً في الإلهيّة لم يكن الاتّصاف به واجباً فيفتقر إلى المخصّص فالموصوف به مفتقر و محتاج .

ثم ههنا دليل آخر وهوأنّا لو فرضنا إلهين لكان لابدّ و أن يكونا بحيث يتمكّن الغير من التميّز بينهما لأنّه إن تساويا في كلّ الجهات لما حصل الاثنينيّة ، و الامتياز لايحصل إلّا بالتباين في المكان أو في الزمان أو في الوجوب والإمكان وأمثالها و كلّ ذلك على الإله محال فيمتنع حصول الامتياز .

و الرابع من الدليل أنّ أحد الإلهين إمّا أن يكون كافياً في تدبير العالم أولا يكون فإن كان كافياً كان الثاني ضائعاً وغير محتاج إليه و ذلك نقص لأنّ وجود المهمل ناقص والناقص لا يكون إلهاً .

و الخامس أنّ العقل يقتضي و يحكم باحتياج المحدث إلى الفاعل ولا امتناع في كون الفاعل الواحد مدبّراً لكلّ العالم فأمّا ما وراء ذلك فليس عدد أولى من عدد فيفضي ذلك إلى وجود أعداد لا نهاية لها و ذلك محال فالقول بوجود الآلهة محال .

و السادس أنّ أحد الإلهين إمّا أن يقدر على أن يستر شيئاً من أفعاله عن الآخر أو لا يقدر فإن قدر لزم أن يكون المستور عنه جاهلاً وإن لم يقدر لزم كونه عاجزاً .

و السابع أنّا لو فرضنا معدوماً ممكن الوجود ثمّ قدّرنا إلهين فإن لم يقدر واحدٌ منهما على إيجاده كان كلّ واحد منهما عاجزاً و العاجز لايكون إلهاً و إن قدر أحدهما دون الآخر فهذا الآخر لايكون إلهاً و إن قدرا جميعاً فإمّا أن يوجداه بالتعاون فيكون كلّ واحد منهما محتاجاً إلى إعانة الآخر و إن قدر كلّ واحد على إيجاده بالاستقلال فإذا أوجده أحدهما فإمّا أن يبقى الثاني قادراً عليه و هو محال لأنّ إيجاد الموجود محال و إن لم يبق فحينئذ يكون الأوّل قد أزال قدرة الثاني وعجزه فيكون مقهوراً تحت تصرّفه فلايكون إلهاً .

فإن قيل : الواحد إذا أوجد مقدوره فقد زالت قدرته عنه فيلزمكم العجز .

قلنا : الواحد إذا أوجده فقدنفذت فنفاذ القدرة لايكون عجزاً أمّا الشركة فإنّه لمّا نفذت قدرته لم يبق لشريكه قدرة في إيجاده البتّة فزالت قدرة الثاني بسبب قدرة الأوّل و إيجاده فيكون إيجاد الأوّل تعجيزاً للثاني .

و الثامن و هو أن نعيّن جسماً مثلاً و نقول : هل يقدر كلّ واحد منهما على خلق الحركة فيه بدلاً عن السكون وبالعكس فإن لم يقدر كان عاجزاً وإن قدر فنقول : إذا خلق أحدهما فيه حركة امتنع على الثاني خلق السكون فالإله الأوّل أزال قدرة الثاني و عجزه .

و التاسع أنّ الشركة صفة نقص و التوحيد صفة الكمال و كلّما كان الملك أعظم

كان النقص في الشركة أعظم فإن أراد أحد الالهين استخلاص الملك لنفسه مثلاً فإن قدر على الثاني كان المغلوب فقيراً عاجزاً فلايكون إلهاً وإن لم يقدر فالأوّل عاجز و ناقص ومسلوب القدرة ولا يصلح أن يكون إلهاً .

و **العاشر** و هو أنّا إذا قدّرنا إلهين لكان إمّا أن يحتاج كلّ واحد منهما إلى الآخر أو يستغني كلّ واحد منهما عن الآخر أو يحتاج أحدهما إلى الآخر و الآخر يستغني عنه فإن كان الأوّل كان كلّ واحد منهما ناقصاً لأنّ المحتاج ناقص و إن كان الثاني كان كلّ واحد منهما مستغنياً عنه و المستغنى عنه ناقص ، لأنّ وجوده مهمل و لا ضرورة و لا فائدة له لأنّ الإله هو الّذي يستغنى به و لا يستغنى عنه و إن احتاج أحدهما إلى الآخر من غير عكس كان المحتاج ناقصاً والمحتاج إليه هو الإله .

و اعلم أنّ هذه الوجوه المذكورة واحد من ألف بعضها براهين قطعيّة في إثبات التوحيد و بعضها إقناعيّة .

و **أما** الدلائل السمعيّة فأكثر من أن تحصى كقوله : « هو الأوّل و الآخر و الظاهر و الباطن [١] » فالأوّل هو الفرد السابق بلا مسبوق فيكون أزليّاً فوجب أن لا يكون له شريك .

و **الثاني** « و عنده مفاتح الغيب لايعلمها إلّاهو [٢] » فالنصّ يقتضي أن لايكون أحد سواه عالماً بالغيب ولو كان له شريك لكان عالماً بالغيب و هو خلاف النصّ .

و**الثالث** أنّ الله صرّح بكلمة « لاإله إلّاهو » في سبعة و ثلاثين موضعاً من كتابه و صرّح بالوحدانيّة في مواضع نحو قوله : « إلهكم إله واحد [٣] » و قوله : « قل هو الله أحد [٤] » .

و **الرابع** قوله : « كلّ شيء هالك إلّاوجهه [٥] » حكم بهلاك كلّ ما سواه ومن

(١) الحديد : ٣ .
(٢) الانعام : ٥٩ .
(٣) النحل : ٢٢ وغيره .
(٤) الاخلاص : ١ .
(٥) القصص : ٨٨ .

عدم بعد وجوده لايكون قديماً ومن لايكون قديماً لايكون إلهاً .

و **الخامس** « وإن يمسسك الله بضر فلاكاشف له إلا هو و إن يمسسك بخيرفهو على كل شيء قدير [١] » ولوكان له شريك لكان ذلك الشريك جالباً للنفع ودافعاًللضرر .

و **السادس** « قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به [٢] » وهذا الحصر يدل على نفي الشريك .

و **السابع** قولهتعالى : « خالق كل شيء [٣] » فلووجد الشريك لم يكن خالقاً .

و اعلم أنه من طعن في دلالة التمانع في قوله : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» فسر الآية بأن المراد لوكان في السماء و الأرض آلهة يقول بإلهيتها عبدةالأوثان لزم فساد العالم لأنها جمادات لا يقدر على تدبير العالم فيلزم فساد العالم قالوا : و هذا أولى لأنه تعالى حكى عنهم قوله « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون [٤] » ثم ذكر الدليل على فساد هذاالقول فوجب أن يختص الدليل به وفي هذا القدر من البيان الكفاية و بالله التوفيق .

أما قوله : [فسبحان الله رب العرش عما يصفون] لما أثبت الدلالة القاطعة على التوحيد أمر أن التسبيح لائق بالخالق القادر ولايجوز العبادة لغيره و إنما خص العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات و من قدر على الأعظم فبالأولى أن يخلق مادونه و كيف يجوز للعاقل أن يجعل الجماد الذي لا يعقل شريكاً في الالهيةلخالق العرش العظيم ؟

قوله : [لا يسأل عما يفعل و هم يسألون] وجه تعلق الآية بما قبلها أن طلب اللمية في أفعال الله بعد معرفة توحيده و قدرته غلط و ذلك أن الثنوية و المجوس و هم الذين أثبتوا لله شريكاً و قالوا : رأينا في العالم خيراً و شراً ولذة و ألماً وحياة و موتاً و صحة و سقماً و فاعل الخيرخير وفاعل الشر شرير ويستحيل أن يكون الفاعل

---

(١) الانعام : ١٧ .

(٢) الانعام : ٤٦ .

(٣) الرعد : ١٨. الزمر: ٦٢. المومن : ٦٢ .

(٤) السورة : ٢١ .

الواحد خيراً و شريراً معاً فلابدّ من فاعلين ليكون أحدهما فاعلاً للخير و الآخر فاعلاً للشرّ .

وحاصل هذه الشبهة أنّ مدبّر العالم لوكان واحداً لما خصّ هذا بالحياة والصحّة و الغنى و خصّ ذلك بالموت و الألم و الفقر فلمّا كان مدار القائلين بالشريك على طلب اللمّيّة لا جرم بيّن سبحانه بعد بيان الدلائل على التوحيد أنّه سبحانه غير مسؤول عن أفعاله و غيره مسؤول عن فعله لا يقال للحكيم : لمَ فعلت ؟ و بمَ فعلت ؟ لأنّه العالم بالأصلح و عالم بقبح القبائح و غنيٌّ عنها و منزّهٌ منها و من كان كذلك فإنّه يستحيل أن يفعل القبيح ، و إذا عرفنا إجمالاً أنّ كلّ ما يفعله على وفق الحكمة والصواب فلم يجز للعبد المملوك أن يقول لمولاه : لمَ فعلت هذا ؟

قوله تعالى : [أم اتّخذوا من دونه آلهة] كرّر هذا البيان استعظاماً لكفرهم و عقيدتهم الفاسدة استفهام إنكار و توبيخ [قل] لهم يا محمّد : [هاتوا] حجّتكم على صحّة اتّخاذكم و فعلكم قل لهم يا محمّد : [هذا] القرآن [ذكرمن معي] بما يلزمهم من الأحكام [و ذكر من قبلي] فيه من الأمم من أحوالهم ممّن نجا بالإيمان و هلك بالكفر .

و قال أبو عبدالله عليه السلام : يعني بذكر من معي من معه و ما هوكائن و يعني بذكر من قبلي ما قدكان .

و قيل : إنّ معناه : في القرآن خبرمن‌معي على ديني ممن يتّبعني إلى يوم‌القيامة بمالهم من الثواب على الطاعة و العقاب على المعصية و ذكر ما أنزل الله من الكتب‌قبلي فانظروا هل‌في واحد‌من‌الكتب أنّ الله أمربا‌تّخاذ إله‌سواه ؟

قال الزمخشريّ : « ذكرٌ » منوّناً و « من » مفعول للمصدر بمعنى الفاعل .

وقال الزجّاج : معناه قل يا محمّد لهم : هاتوا برهانكم بأنّ رسولاً من الرسل أتى اُمّته بأنّ لهم إلهاً غير الله فهل في ذكر من معي و هو القرآن و ذكر من قبلي كالتوراة و الإنجيل إلّا توحيد الله ؟ و يدلّ على صحّة هذاقوله فيمابعد . « و ما أرسلنا من قبلك من رسول إلّا نوحي إليه أنّه لا إله إلّا أنا فاعبدون » .

فلمّا توجّهت الحجّة عليهم ذمّهم على جهلهم فقال : [بل أكثرهم لا يعلمون الحقّ فهم معرضون] عن التفكّر و إنّما خصّ الأكثر منهم لأنّ فيهم من آمن .

قوله : [و ما أرسلنا من قبلك] يا محمّد [من رسول] و «من» زائدة [إلّا نوحي إليه] نحن أو يوحي إليه الله البتّة بأنّه لا معبود على الحقيقة إلّا أنا فوجّهوا العبادة إليّ دون غيري .

[و قالوا اتّخذ الرحمن ولداً] يعني من الملائكة ، نزّه نفسه عن ذلك . نزلت في خزاعة حيث قالوا : الملائكة بنات الله و أضافوا إلى ذلك أنّه تعالى صاهر الجنّ ، والمراد بالجنّ هنا الملائكة على ما حكى الله عنهم فقال : [وجعلوا بينه و بين الجنّة نسباً] فنزّه نفسه بقوله سبحانه لأنّ الولد لابدّ و أن يكون شبيهاً بالوالد فلو كان لله ولد لأشبهه من بعض الوجوه ثمّ لابدّ وأن يخالفه من بعض الوجوه وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيقع التركيب في ذات الله و كلّ مركّب ممكن فاتّخاذ الولد يوجب كونه ممكناً غير واجب وذلك يخرجه عن حدّ الإلهيّة و يدخله في حدّ العبوديّة .

[بل عبادٌ مكرمون] مفضّلون يتّبعونه في أوامره [لا يسبقونه بالقول] لا يقولون شيئاً حتّى يقوله أي يأمر به و لا يسبق قولهم قوله و قولهم تابع لقوله و أمره [وهم بأمره يعملون] أي لا يعملون عملاً مالم يؤمروا به .

ثمّ ذكر ما يجري مجرى السبب لهذه الطاعة فقال : [يعلم ما بين أيديهم و ما خلفهم] أي لمّا علموا كونه سبحانه عالماً بجميع المعلومات و علموا كونه عالماً بظواهرهم و بواطنهم فكان ذلك داعياً لهم إلى نهاية الخضوع والعبوديّة . قال ابن عبّاس : يعلم ما قدّموا و ما أخّروا من أعمالهم . وقيل : ما بين أيديهم الآخرة وما خلفهم الدنيا . و قيل: على العكس . وقيل : المعنى : يعلم ما كان قبل خلقهم ومايكون بعد خلقهم و هو محيط بهم .

[ولا يشفعون] الملائكة [إلّا لمن ارتضى] الله دينه . و قيل : إلّا لمن رضي الله عنه. و قيل : إنّهم أهل شهادة أن لا إله إلّا الله . و قيل : هم المؤمنون المستحقّون للثواب و حقيقة المعنى أنّهم لا يشفعون إلّا لمن ارتضى الله أن يشفع فيه فيكون في معنى : «من ذا الّذي يشفع عنده إلّا بإذنه»[1] .

---

(١) البقرة : ٢٥٧ .

و في الخصال عن الصادق عليه السلام : و أصحاب الحدود فسّاق لا مؤمنون ولا كافرون لا يخلدون في النار و يخرجون منها يوماً و الشفاعة جائزة لهم و للمستضعفين إذا ارتضى الله دينهم .

و في التوحيد عن الكاظم عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إنّما شفاعتي لأهل الكبائر فأمّا المحسنون منهم فما عليهم من سبيل قيل : يا ابن رسول الله كيف يكون الشفاعة لأهل الكبائر و الله يقول : «ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى » ومن ركب الكبيرة لايكون مرتضى ؟ فقال عليه السلام : ما من مؤمن يرتكب ذنباً إلّاساءه ذلك و ندم عليه و قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : كفى بالندم توبة و قال عليه السلام : من سرّته حسنة و ساءته سيّئة فهو مؤمن فمن لم يندم على ذنب ارتكبه فليس بمؤمن و لم يجب له الشفاعة وكان ظالماً والله تعالى ذكره بقوله : « ما للظالمين من حميم و لا شفيع يطاع [1] » فقيل له : يا ابن رسول الله و كيف لا يكون مؤمناً من لم يندم على ذنب يرتكبه ؟ فقال عليه السلام : مامن أحد يرتكب كبيرة من المعاصي وهو يعلم أن سيعاقب عليها إلّا ندم على ما ارتكب و متى ندم كان تائباً مستحقّاً للشفاعة ومتى لم يندم عليها كان مصرّاً والمصرّ لايغفر له لأنّه غير مؤمن بعقوبة ما ارتكب و لو كان مؤمناً بالعقوبة لندم و قد قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : لا كبيرة مع الاستغفار و لاصغيرة مع الإصرار ، و أمّا ما قال عزّوجلّ : « و لا يشفعون إلّا لمن ارتضى » فإنّهم لا يشفعون إلّا لمن ارتضى الله دينه والدين الإقرار بالجزاء على الحسنات و السيّئات فمن ارتضى الله دينه ندم على ما ارتكبه من الذنوب لمعرفته بعاقبته في القيامة . انتهى .

قوله : [و هم] أي الملائكة [من خشيته مشفقون] أي من خشيتهم منه تعالى مشفقون و خائفون وجلون من التقصير في عبادته ، فاُضيف المصدر إلى المفعول .

[و من يقل منهم إنّي إله من دونه] أي من هؤلاء الملائكة من يقل منهم إنّي إله يحقّ لي العبادة من دون الله [فذلك] القائل [نجزيه جهنّم] و هذا لايدلّ على أنّهم قالوا ذلك وما قالوه ، وهو قريب من قوله : « لئن أشركت ليحبطنّ عملك» [2]

(١) المؤمن : ١٨ .
(٢) الزمر : ٦٥ .

و قيل : المراد إبليس لأنّه الّذي دعا الناس إلى عبادته و هذا يصحّ إذا كان إبليس من الملائكة و عند الأكثر أنّه ليس من الملائكة .

قوله : [أولم ير الّذين كفروا] في الآية بيان أنّ الإله القادر على مثل هذه المخلوقات العجيبة العظيمة الغريبة كيف يجوز في العقل أن يعدل عن عبادته إلى عبادة مخلوق حجر لايضرّ ولاينفع ؟

و ذكر ستّة أنواع من الدلائل :

النوع الاول : [أنّ السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقنا هما] والمراد من الرؤية ههنا العلم أي العقل يحكم بأنّ الأجسام يصحّ عليها الرتق و الفتق يعني الاجتماع و صالحة لقبول الاجتماع والافتراق باختصاصها فالاجتماع دون الافتراق أو بالعكس يستدعي مخصّصاًوقدفسّر الخاصّة الرتق في السماء والأرض بأن لايمطر السماء ولاينبت الأرض ففتقنا هما أي أمطرنا من السماء و أنبتنا من الأرض .

في الكافي عن الباقر عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال : لعلّك تزعم أنّهما كانتا ملتزقتان ففتقت إحدا هما عن الاُخرى ؟ فقال : نعم فقال : استغفر ربّك فقوله « كانتا رتقاً » يقول : كانت السماءلاينزل بالمطر وكانت الأرض لاتنبت الحبّ فلمّا اُهبط آدم إلى الأرض و تاب الله عليهأمر السماء فتقطّرت بالغمام ثمّ أمرها فأرخت عزاليها [1] و أمر الأرض فأنبتت النبات فكان ذلك رتقها و هذا فتقها فكانت السماء خضراء على لون الماء الأخضر و الأرض غبراء على لون الماء العذب و كانتا مرتوقتينلم تمطرو لم تنبت ففتقهما بالمطر والنبات ، واليهود والنصارى كانوا عالمين بذلك فا نّه جاء في التوراة أنّ الله خلق جوهرة ثمّ نظرإليها بعين إلهيّتهفصارت ماءً ثمّ خلق السماوات و الأرض منها و فتقهما و كان بين عبدة الأوثان و بين اليهود صداقة بسبب الاشتراك في عداوة محمّد صلى الله عليه وآله فاحتجّ الله عليهم بهذه الحجّة بناءً على قبولهم قول اليهود .

و اختلفوا في المراد من الرتق والفتق :

قيل : إنّ المعنى : كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين ففصّل الله بينهما و رفع السماء إلى حيث هي و أقرّ الأرض . و هذا القول يشعر بأنّ جعل الأرض على وضعها مقدّم

(١) جمع العزلاء : مصب الماء من القربة .

على السماء لأنّه تعالى لمّا فصّل بينهما ترك الأرض حيث هي وأصعد الأجزاء السماويّة.

وقيل : المراد من الرتق الاستواء والصلابة ففتقهما الله أمّا السماء بالمطر والأرض بالنبات و الزرع والشجر . والدليل على هذا المعنى قوله بعد ذلك : « و جعلنا من الماء كلّ شيء حيّ » و ذلك لا يليق إلّا و للماء تعلّق بما تقدّم من المعنى .

و قيل : المراد بالرتق حال عدم الأشياء قبل الوجود و الفتق الإيجاد و الظهور كقوله : « فاطر السماوات والأرض » فأخبر سبحانه عن الإيجاد بلفظ الفتق و عن الحال قبل الإيجاد بلفظ الرتق لأنّ العدم نفي محض وليس فيه ذرّات مميّزة و كأنّه أمر واحد بسيط فعند الوجود والتكوّن يتميّز بعضها عن بعض وينفصل ، فبهذا الطريق يحسن إطلاق العدم على الرتق والوجود على الفتق مجازاً .

النوع الثاني : من الدلائل الستّة : [وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ أفلا يؤمنون]

وجعلنا إمّا أن يتعدّى إلى واحد فالمعنى : خلقنا كلّ ذي روح و حيوان من الماء وهذا كقوله : « والله خلق كلّ دابّة من ماء [1] » و إذا تعدّى إلى مفعولين فالمعنى : صيّرنا كلّ شيء حيّاً بسبب من الماء لابدّ له منه ، فحينئذ « من » في هذا الكلام مثل « من » في كلامه : « ما أنا من دد ولا الدد مني » وعلى هذا يكون «حيّاً» بالنصب على المفعول الثاني.

فإن قيل كيف قال : و خلقنا من الماء كلّ حيوان و قد قال : « والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم [2] » ؟

والجواب : اللفظ و إن كان عامّاً إلّا أنّ القرينة المخصّصة قائمة والدليل إذا كان مشاهداً محسوساً فخروج الجنّ و الملائكة و عيسى لا يخرج الدليل عن كونه دليلاً لأنّ الكفّار لم يروا شيئاً من ذلك ولا يختصّ بالحيوان كونه من الماء بل يدخل فيه النبات والأرض أما ترى يقول سبحانه : « كيف يحيي الأرض بعد موتها [3] » ؟

و بالجملة فالماء الّذي بسببه حياة كلّ حيوان و شيء من ينزله من السماء غير الله ؟ أفلا يؤمنون و يصدّقون بتوحيده و يدعون الشرك و التثليث ؟

(١) النور : ٤٥ .
(٢) الروم : ٥٠ .
(٣) الحجر : ٢٧ .

النوع الثالث قوله تعالى :

و جعلنا فى الارض رواسى أن تميد بهم و جعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون (٣١) و جعلنا السماء سقفاً محفوظاً و هم عن آياتها معرضون (٣٢) و هو الذى خلق الليل و النهار و الشمس و القمر كل فى فلك يسبحون (٣٣) وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون (٣٤) كل نفس ذائقة الموت و نبلوكم بالشر و الخير فتنة و الينا ترجعون (٣٥)

الجبال الراسية أي الراسخة في الأرض كراهة أن تميل بهم لأنّ الأرض بسطت على الماء فكانت تنكفىء بأهلها كما تنكفىء السفينة فأرساها الله بالجبال الثقال لئلاّ تميل و تنقلب بأهلها فحذف «لا» لعدم الالتباس لوضوح المعنى و حذف لام الأولى من «لئلاّ» و بقيت « أن » و الجبال أثبت الأرض عن الحركة و الاضطراب و التمايل و حصول الاستقرار .

النوع الرابع من شواهد القدرة و الدلائل . [و جعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلّهم يهتدون] الفجّ الطريق الواسع أي جعل في الجبال طرقاً واسعة حين خلقها على تلك الصفة . و قيل : الضمير في « فيها » راجعة إلى الأرض ، و في رواية عطا عن ابن عبّاس و عن ابن عمر : كانت الجبال منضمّة فلمّا أغرق الله قوم نوح فرّقها فجاجاً و جعل فيها طرقاً لكي يهتدوا إذ الشكّ لايجوز على الله و المراد ليهتدوا بأمور معاشهم و يهتدوا إلى معرفة القادر الخالق على وجه الحكمة .

و هذه الآية دليل على أنّ الله أراد من المكلّفين الاهتداء و الخير لهم و الاهتداء إلى المعاش و المعاد يشتركان في مفهوم واحد و هو أصل الاهتداء فيحمل اللفظ على ذلك المشترك فيكون الآية متناولة للأمرين ولا يلزم منه كون اللفظ المشترك مستعملاً في مفهوميه معاً .

النوع الخامس قوله : [و جعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون] سمّى السماء سقفاً لأنّها للأرض كالسقف للبيت سمّي محفوظاً من الوقوع والسقوط و قيل : محفوظاً من الشياطين بالشهب الّتي ترمى بها قال تعالى : « و حفظناها من كلّ شيطان

رجيم[١]» و هم عن آياتها من العجائب في حركاتها و آثارها و مطالعها و مغاربها و اختلاف أوضاعها من الأدلّة والعبر [معرضون] و غافلون .

النوع السادس [وهو الّذي خلق الليل و النهار و الشمس و القمر] مثلاً لوكان يخلق سبحانه السماء و الأرض و لم يخلق الشمس و القمر ليظهر بهما الليل و النهار و يظهر بهما من المنافع بتعاقب الحرّ و البرد لم تتكامل النعم على عباده و إنّما حصلت و كملت النعم عليهم بسبب حركاتها في أفلاكها ولهذا قال : [كلٌّ في فلك يسبحون] أي يجرون و يدورون من الشمس و القمر و النجوم و مع هذا لا يتدبّرون ولا يتفطّنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيويّة كالاستضاءة بقمرها و الاهتداء بكواكبها و حياة الأرض بأمطارها و كونها آية بيّنة على وجود الخالق و وحدانيّته ، معرضون و غافلون .

قال صاحب الكشّاف : التنوين في « كلّ » عوض عن المضاف إليه أي كلّهم في فلك يسبحون و الجمع باعتبار أنّ النجوم داخلة فيها و النجم باعتبار وجود الليل و الجمع بالواو و النون لا يكون إلّا للعقلاء لأنّها موصوفة بصفة العقلاء و هو الحركة والسياحة و الجري .

و اختلف الناس في حركات الكواكب ، و الوجوه المتصوّرة فيها ثلاثة : فإنّه إمّا أن يكون الفلك ساكناً و الكواكب تتحرّك فيه كحركة السمك في الماء الراكد وإمّا أن يكون الفلك متحرّكاً و الكواكب تتحرّك فيه أيضاً إمّا مخالفاً لجهة حركته أو موافقاً لجهته إمّا بحركة مساوية لحركة الفلك في السرعة و البطء أو مخالفة . و إمّا أن يكون الفلك متحرّكاً و الكواكب ساكناً .

أمّا الرأي الأوّل فقالت الفلاسفة : إنّه باطل لأنّه يوجب خرق الأفلاك و هو محالٌ . وأمّا الرأي الثاني فحركة الكواكب إن فرضت مخالفة لحركة الفلك فذاك أيضاً يوجب الخرق و إن كانت حركتها إلى جهة الفلك فإن كانت مخالفة في السرعة و البطء لزم الانخراق و إن استوتا في الجهة و السرعة و البطء فالخرق أيضاً لازم لأنّ الكواكب

(١) الحجر : ١٧ .

يتحرّك بالعرض بسبب حركة الفلك فتبقى حركته الذاتيّة زائدة فيلزم الخرق فلم يبق إلّا القسم الثالث وهو أن يكون الكواكب مغروزاً في ثخن الفلك واقفاً فيه والفلك يتحرّك فيتحرّك الكواكب بسبب حركة الفلك .

و اعلم أنّ مدار هذا الكلام على امتناع الخرق على الأفلاك و هو باطل بل الحقّ أنّ أقسام الثلاثة ممكنة و الله تعالى قادر على كلّ الممكنات و هذه المحاليّة الّتي فرضوها الفلاسفة بمعزل عن القدرة و ليس لنا طريق إلى العلم بهذه الأوضاع إلّا السمع والّذي يدلّ عليه القرآن أن تكون الأفلاك واقفة و الكواكب تكون جارية فيها كما تسبح السمكة في الماء ، انتهى .

قوله تعالى : [و ما جعلنا لبشر من قبلك الخلد] المعنى : لمّا استدلّ بالدلائل المذكورة من النعم و هي أصول النعم أتبعه ونبّهه على أنّ هذه النعم لا تدوم ولا تبقى بل لا يبقى من خلقت الدنيا والأفلاك له و بسببه بل خلقها للابتلاء والامتحان فقال : و ماجعلنا لبشر من قبلك الخلود و البقاء .

سبب النزول : قال مقاتل : إنّ ناساً كانوا يقولون : إنّ محمّداً ﷺ لا يموت فنزلت الآية . و قيل : كانوا يقولون : إنّه سيموت فيشمتون بموته فنفى الله عنه الشماتة بأن قضى الله أن لا يخلد في الدنيا بشراً فلا أنت ولاهم إلّا عرضة للموت أفإن متّ أنت أيبقى هؤلاء ، و ما جعلنا في حكمنا و تدبيرنا لبشر من قبلك يا محمّد الدوام و البقاء في الدنيا .

[أفإن متّ] على ما يتوقّعونه و ينتظرونه فهم الباقون يعني مشركي العرب حتّى قالوا : نتربّص بمحمّد ريب المنون و الحاصل فأيّ فائدة لهم ؟

[كلّ نفس ذائقة الموت] لابدّ لكلّ نفس أن يدخل عليه الموت و تخرج عن كونها حيّة . و اعلم أنّ هذا العموم مخصوص فإنّه تعالى نفس لقوله : « تعلم ما في نفسي و لا أعلم ما في نفسك (١) » مع أنّ الموت لا يجوز عليه و كذلك الجمادات لها نفوس و هي لا تموت و لو أنّ في هذا الكلام الأخير تأمّلاً بأنّ الجمادات لا تموت بل يمكن إعدامها بموتها وعلى الجملة فالعامّ المخصّص مستثنى وحجّة ويبقى معمولاً به فيما عداه .

(١) المائدة : ١١٩ .

و ذلك يبطل قول الفلاسفة في أنّ الأرواح البشريّة و العقول المفارقة و النفوس الفلكيّة لا تموت . والذوق ههنا إدراك خاصّ من لازم الموت و إعدام الحياة و لعلّ له مرارة خاصّة من شدّة ألم النزع فيكون من المذاقات حقيقة من الآلام العظيمة الّتي من مقدّمات حصول الموت قبل دخوله في الوجود .

قوله تعالى : [و نبلوكم بالشرّ و الخير] و الابتلاء لا يتحقّق إلّا مع التكليف فالآية دالّة على حصول التكليف ، و يمتحن سبحانه المكلّف بأمرين : أحدهما ماسمّاه خيراً و هو نعم الدنيا من الصحّة واللذّة والسرور والتمكّن من المرادات . و الثاني ما سمّاه شرّاً و هو المضارّ الدنيويّة من الفقر و الآلام و الشدائد النازلة على المكلّفين ، و العبد يتردّد بين هاتين الحالتين لكي يشكر على المنح و يصبر و يتحمّل في المحن فيعظم ثوابه إذا قام بما يلزم وإنّما سمّى ذلك ابتلاءً وهو عالم بما سيكون من أعمال العباد العاملين قبل وجودهم . قال الزمخشريّ : « فتنة » مصدر تأكيد لقوله « لنبلوكم » من غير لفظه .

قوله : [و إلينا ترجعون] واحتجّت التناسخيّة بقوله : « و إلينا ترجعون » فإنّ الرجوع إلى موضع مسبوق بالكون فيه و هذا الاستنباط غلط ؛ لأنّ المراد من الرجوع الرجوع والمردّ إلى حكمته سبحانه ومحاسبته ومجازاته وليس المعنى أنّهم كانوا قبل دخولهم في هذا العالم ثمّ رجعوا إليه و من المعلوم ضرورة أنّهم كانوا مسبوقين بالعدم ثمّ وجدوا فمن أين ثبت أنّهم كانوا ثمّ رجعوا ؟ كما أنّ المجسّمة قالوا بأنّا أجسام فرجوعنا إلى الله يقتضي كون الله جسماً و هذا غلط أفحش من الأوّل لأنّ الجسم محتاج إلى حيّز وتركيب و احتياج وكلّه منزّه عنه تعالى الله عن التجسّم و التركيب والاحتياج .

و بالجملة لابدّ للإنسان المكلّف أن يمتحن بالخير و الشرّ . في المجمع عن الصادق عليه السلام : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام مرض فعاده إخوانه فقالوا : كيف نجدك يا أمير المؤمنين ؟ قال : بشرّ ، قالوا : ما هذا كلام مثلك ، قال : إنّ الله يقول : و نبلوكم بالشرّ و الخير ؛ فالخير الصحّة و الغنى و الشرّ المرض و الفقر .

قوله تعالى : و اذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الاهزوآ أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون (٣٦) خلق الانسان من

عجل ساريكم آياتي فلا تستعجلون (٣٧) و يقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين (٣٨) لو يعلم الذين كفروا حين لايكفون عن وجوههم النار ولاعن ظهورهم ولاهم ينصرون (٣٩) بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون (٤٠) .

قيل : نزلت في أبي جهل مرّ به النبيّ ﷺ و كان أبو سفيان مع أبي جهل فقال أبوجهل : هذا نبيّ بني عبدمناف ، فقال أبوسفيان : وما تنكر أن يكون نبيّاً في بني عبدمناف فسمع النبيّ ﷺ قولهما فقال لأبي جهل : ما أراك تنتهي حتّى ينزل بك ما نزل بعمّك الوليد بن المغيرة فنزلت الآية وخاطب نبيّه :

[وإذا رآك الّذين كفروا] و أنت تعيب آلهتهم و ذلك قوله ﷺ : إنّها جماد لاتضرّ و لا تنفع ما يتّخذونك إلّا سخريّة و يقول بعضهم لبعض : [أهذا الّذي يذكر آلهتكم] بسوء و يدلّ على معنى السوء القرينة [وهم بذكر] التوحيد وبكتابه المنزل جاحدون و عجّب الله نبيّه منهم حيث جحدوا الحيّ المنعم القادر الخالق الرازق ثمّ إنّ من دعاهم إلى ترك عبادة الجماد المهملة اتّخذوه هزواً وهم أحقّ بالسخريّة عند من يتدبّر . و تكرار الضمير للعناية بالتأكيد .

قوله : [خلق الإنسان من عجل] كان الكفّار يستعجلون عذاب الله الّذي يوعدهم النبيّ ﷺ بسبب مخالفتهم و كفرهم فذمّهم سبحانه على إفراط العجلة .

ثمّ نهاهم و زجرهم و أوعدهم بهذا الاستعجال فقال : [سأُريكم آياتي] الدالّة على صدق محمّد ﷺ فيما يوعدكم به من العذاب [فلا تستعجلون] بنزوله فإنّه سيدرككم عن قريب .

قال ابن عبّاس : المراد من الإنسان في الآية هو الشخص و هو النضر بن الحارث وهو الّذي قال : «اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر » الآية [1] و أراد بقوله : «سأُريكم آياتي » يوم بدر.

[و يقولون] يعني المشركون يقولون للمسلمين : [متى هذا الوعد] الّذي

(١) الانفال : ٣٢ .

تعدوننا ؟ يريدون وعد القيامة [إن كنتم صادقين] في وعدكم و قيل : المراد بالإنسان آدم عليه السلام .

ثمّ قيل في معنى «عجل» تأويلات :

منها أنّه خلق بعد خلق كلّ شيء آخر نهار يوم الجمعة و هو آخر أيّام الستّة معاجلاً به غروب الشمس ، عن مجاهد .

و منها أنّ معناه : في سرعة من خلقه لأنّه لم يخلقه من نطفة ثمّ من علقة ثمّ من مضغة كما خلق غيره وإنّما أنشأه إنشاءً فكأنّه نبّه بذلك على الآية العجيبة في خلقه .

و منها أنّ آدم لمّا خلق و جعلت الروح في أكثر من جسده وثب عجلان مبادراً إلى ثمار الجنّة وهمّ بالوقوف فهذا معنى قوله : «من عجل» روي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام .

و في معنى خلق الإنسان من عجل ذكروا وجوهاً على قول من قال : المراد نوع الإنسان لا شخص آدم عليه السلام :

أحدها أن معناه : خلق الإنسان عجولاً أي خلق على حبّ العجلة في أمره يعني أنّه يستعجل في كلّ شيء يشتهيه و للعرب عادة في استعمالهم هذا اللفظ عند المبالغة يقولون لمن يصفونه بكثرة النوم : ما خلق إلّا من نوم ، و بكثرة وقوع الشرّ منه ما خلق إلّا من شرّ ومنه قول الخنساء في وصف البقرة : « فإنّما هي إقبال وإدبار » .

و **ثانيها** أنّه من المقلوب والمعنى : خلقت العجلة من الإنسان و هذا ضعيف .

و **ثالثها** أنّ العجل هو الطين عن أبي عبيدة و جماعة و استشهد بقول الشاعر :

والنبع ينبت بين الصخر ضاحية ❊ والنخل تنبت بين الماء والعجل

فعلى هذا يكون كقوله : « و بدأ خلق الإنسان من طين[1] » .

و **رابعها** أنّ معناه : خلق الإنسان من تعجل من الأمر لأنّه تعالى قال : « إنّما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون[2] » .

قوله تعالى : [لو يعلم الّذين كفروا حتّى لا يكفّون عن وجوههم النار ولا عن

(١) الم - السجدة : ٧ .
(٢) النحل : ٣٠ .

ظهورهم] و جواب لو محذوف . و إنّما خصّ الوجوه و الظهور لأنّ مسّ العذاب لهما أعظم موقعاً أي لو علموا الوقت الّذي لا يدفعون فيه عذاب النار عن وجوههم و لا عن ظهورهم و يحيط بهم من جوانبهم لما استعجلوا العذاب ولصدّقوك .

[بل تأتيهم] الساعة [بغتة] فجأة [فتبهتهم] و تحيّرهم [فلا يستطيعون] على دفعها و لا يؤخّرون إلى وقت آخر ولا يمهلون بمعذرة و توبة .

قوله تعالى : و لقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون (٤١) قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون (٤٢) أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر انفسهم و لا هم منا يصحبون (٤٣) بل متعنا هؤلاء و آباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتي الارض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون (٤٤) قل انما انذركم بالوحي و لا يسمع الصم الدعاء اذا ما ينذرون (٤٥) .

المعنى : ثمّ ذكر الوجه الّذي دفع الحزن عن قلب رسول الله فقال :

[ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق] بالمستهزئين و أحاط بهم عقوبة استهزائهم و حلّ بهم وبال سخريّتهم و قوله : [منهم] يعني من الرسل .

[قل] يا محمّد لهؤلاء الكفّار عند ذلك : لولا أنّ الله يحرسهم لما بقوا في السلامة و [من] يحفظكم [بالليل و النّهار] من بأس الرحمن و عذابه و عوارض الأوقات ؟ و هذا الكلام كقول الرجل لمن حصل في قبضته ولا مخلص له منه : إلى أين مفرّك منّي ؟ ولعلّ التخصيص ههنا باسم الرحمن بالذكر تلقيناً للجواب حتّى يقول العاقل : أنت الكالىء يا إلهنا لكلّ الخلائق برحمتك كما في قوله تعالى: « يا أيّها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم »[١] حتّى يقول : غرّني كرمك يا كريم.

قوله [بل هم عن ذكر ربّهم معرضون] أي إنّهم مع إنعامه سبحانه عليهم عن

(١) الانفطار : ٦ .

ذكر ربّهم أي القرآن أو معرفته سبحانه معرضون ولا يؤمنون به ولا يلتفتون إلى شيء من المواعظ والحجج .

ثمّ قال على وجه التوبيخ لهم : [أم لهم آلهة تمنعهم] من عذابنا و دفع ما ينزل بهم ، وتمّ الكلام ثمّ وصف آلهتهم بالعجز و الضعف فقال : [لايستطيعون نصر أنفسهم] و هذا خبر مبتدء محذوف و التقدير : هذه الآلهة لا يستطيعون نصر أنفسهم [ولاهم منّا يصحبون] أي ولا الكفّار يجأرون من عذابنا قال ابن قتيبة : أي لا يجرهم أحدٌ من عذابنا يقول : صحبك الله أي أجارك وحفظك . وقيل : معناه : لايصحبون من الله بخير .

قوله : [بل متّعنا هؤلاء وآباء هم] ثمّ بيّن تفضّله عليهم بأنّا مع ذلك ماعذّبناهم و ما عجّلنا العقوبة و متّعناهم و آباء هم في الدنيا بنعمها إلى أن طالت أعمارهم فغرّهم طول العمر فنسوا و جهلوا مواقع نعمنا و اغترّوا بذلك .

[أفلا] يرى هؤلاء المشركين بالله آثار قدرتنا في إتيان الأرض من جوانبها بأخذ الواحد بعد الواحد و بفتح البلاد والقرى حول مكّة و نزيدها في ملك محمّد و نميت رؤساء المشركين الممتّعين بالدنيا . و قيل : بموت العلماء نقصها و تخريبها ، قال أبوعبدالله عليه السلام : نقصانها ذهاب عالمها . وقيل : معناه : ننقصها من أطرافها بظهور النبيّ على من قاتله أرضاً فأرضاً قوماً فقوماً فيأخذ أراضيهم أو ننقصها من جانب المشركين و نزيدها في جانب المسلمين أفهؤلاء الغالبون أم نحن الغالبون ؟

[قل] لهم يا محمّد : [إنّما أُنذركم] من عذاب الله وأُخوّفكم بما أوحى الله إليّ ، و شبّههم الله بالصمّ الّذين لايسمعون النداء إذا نودوا لأنّهم لم ينتفعوا بالسمع أولأنّهم يشتغلون عن سماع القرآن فهم بمنزلة الأصمّ [إذا ما ينذرون] .

قوله تعالى : و لئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا انا كنا ظالمين (٤٦) و نضع الموازين القسط ليوم القيمة فلا تظلم نفس شيئاً و ان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين(٤٧) و لقد آتينا موسى و هرون الفرقان و ضياء وذكراً للمتقين (٤٨) الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون (٤٩) وهذا ذكر مبارك انزلنا افانتم له منكرون (٥٠)

المعنى : إنّ الكفّار المتصامين عن آيات الله على هذه الصفة من الجرأة والجسارة يؤول أمرهم إلى أن إذا شاهدوا اليسير ممّا اُنذروا به و أصابهم بعض قليل في نهاية القلّة ممّا يستحقّونه من العقوبة فيعترفون ويسمعون حينئذ و يقولون : الويل لنا [إنّا كنّا ظالمين] أنفسنا و أصل النفح من الريح اللنسيئة كأنّه سبحانه يقول : و إن مسّتهم رائحة من العذاب لتنادوا بالويل . قال صاحب الكشّاف : في المسّ والنفح ثلاث مبالغات لفظ المسّ وما في النفح من معنى القلّة و النزارة و لفظ المرّة .

ثمّ بيّن سبحانه أنّ جميع ما ينزل بهم في الآخرة لا يكون إلّا عدلاً و هذا معنى [و نضع الموازين القسط] و صف الله الموازين بالقسط لأنّ الميزان قد يكون غير مستقيم و أكّد ذلك بقوله : [فلا تظلم نفس شيئاً] والقسط و إن كان صفة للموازين وموحّد فهو كقولك للقوم : أنتم عدلٌ . و قال الزجّاج : أي موازين ذوات العدل والقسط .

و قوله : « ليوم القيامة» أي لأهل يوم القيامة . قيل : المراد بالموازين العدل بينهم في الأعمال فمن أحاطت حسناته بسيّئاته ثقلت موازينه يعني أنّ حسناته تذهب بسيّئاته و من أحاطت سيّئاته بحسناته فقد خفّت موازينه أي إنّ سيّئاته تذهب بحسناته ، حكاه ابن جرير هكذا عن ابن عبّاس ، ولكن اتّفق الجمهور و الأئمّة على أنّه سبحانه يضع الموازين الحقيقيّة فتوزن بها الأعمال وهو ميزان له كفّتان و لسان و هو بيد جبرئيل .

و روي أنّ داود عليه السلام سأل ربّه أن يريه الميزان فلمّا رآه غشي عليه فلمّا أفاق قال : يا إلهي من الّذي يقدر أن يملأ كفّته حسنات ؟ فقال : يا داود إنّي إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة .

قال الرازيّ : إنّ حمل الميزان على مجرّد العدل مجاز و صرف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز غير جائز لاسيّما قد جاءت الأحاديث الكثيرة بالأسانيد الصحيحة في هذا الباب .

فلو قيل : هذه الآية يناقضها قوله : « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » (١) .

فالجواب أنّه لا يكرمهم ولا يعظّمهم . و في الكافي عن السجّاد عليه السلام في كلامه في وعظه من جملة له : اعلموا عباد الله أنّ أهل الشرك لا ينصب لهم الموازين و لا ينشر لهم

(١) الكهف : ١٠٦ .

الدواوين و إنّما يحشرون إلى جهنّم زمراً و إنّما ينصب الموازين و ينشر الدواوين لأهل الإسلام فاتّقوا عباد الله .

فإن قيل : أهل القيامة إمّا أن يكونوا عالمين بكونه عادلاً غيرظالم أو لايعلمون فإن علموا ذلك كان مجرّد حكمه كافياً في معرفة أنّ الغالب هوالحسنات أوالسيّئات فلا يكون في وضع الميزان فائدة و إن لم يعلموا لم تحصل الفائدة في وزن الصحائف فما الفائدة ؟

الجواب : لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون و فيه ظهور حال الوليّ من العدوّ والمطيع من العاصي في مجمع الخلائق فيكون لأحدالقبيلتين في ذلك أعظم السرور وللآخر أعظم الغمّ .

قوله : [و إن كان مثقال حبّة] أي إنّه لاينقص من إحسان محسن و لايزاد في إساءة مسيء ، وكان تامّة ، وإنّما اُنّث ضميرالمثقال لإضافته إلى الحبّة كقولهم : ذهبت بعض أصابعه .

فإن قيل : الحبّة أعظم من الخردلة ، فالوجه فيه أن إذا فرضت الخردلة مثلاً دخنة فالحبّة دانق من تلك الدخنة .

[و كفى بنا حاسبين] و لا يشتبه علينا شيء في الحساب ، قيل : رؤي في الرؤيا بعض الأخيارمن الأموات فسئل عنه : مافعل بك؟ قال :

حاسبونا فدقّقوا ❊ ثمّ منّوا فأعتقوا

قوله تعالى : [ولقد آتينا موسى و هارون الفرقان] و أعطينا هما التوراة لأنّها تفرق بين الحقّ و الباطل . وقيل : المراد : الّذي فرّق به بين حقّ موسى و باطل فرعون .

و النظم في الآية أنّه كما استهزىء بك كذلك استهزىء بمن قبلك و كما أنزلنا عليك القرآن كذلك أنزلنا على موسى الفرقان و ليس هذا الأمر ببدع فلمَ ينكرون قومك ؟

[وضياء] أي آتينا هما بسبب التوراة نوراً و هدى استضاءوا بها حتّى اهتدى و اهتدوا في دينهم [وذكراً للمتّقين] يذكرونه ويعملون بما فيه و يتّعظون بمواعظه .

ثمّ وصف المتّقين فقال : [الّذين يخشون ربّهم بالغيب] في حال الخلوة والغيبة عن الناس في سرائرهم من غير رياء [وهم] من القيامة و أهوالها خائفون .

[و هذا ذكر مبارك] أي القرآن ذكر مبارك ثابت نافع دائم نفعه إلى يوم القيامة وسمّي مباركاً لوفور فوائده من المواعظ الداعية إلى مكارم الأخلاق والأفعال [أفأنتم له منكرون] بمَ تنكرونه و تجحدونه ؟

قوله تعالى : ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين (٥١) اذ قال لابيه و قومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون (٥٢) قالوا و جدنا آباءنا لها عابدين (٥٣) قال لقد كنتم أنتم و آباؤكم فى ضلال مبين (٥٤) قالوا اجئتنا بالحق ام انت من اللاعبين (٥٥) قال بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن و انا على ذلكم من الشاهدين (٥٦) و تالله لاكيدن اصنامكم بعد أن تولوا مدبرين (٥٧) فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون (٥٨) قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين (٥٩) قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم (٦٠) .

المعنى : ثمّ عطف على قصّة موسى فقال : [ولقد] أعطينا [إبراهيم رشده] يعني الحجج الّتي توصّل بها إلى معرفة الله أوالمراد من الرشد النبوّة [من قبل] موسى و قبل محمّد و قيل : من قبل بلوغه [و كنّا به عالمين] بأنّه أهل لإيتاء الرشد و صالح للنبوّة .

[إذ قال لأبيه و قومه] حين رآهم يعبدون الأصنام : [ما هذه التماثيل الّتي أنتم لها عاكفون] و العامل في « إذ » آتينا . و التمثال اسم للشيء المصنوع شبهاً بخلق من خلق الله وأصله من مثّلت الشيء بالشيء . قيل : إنّهم جعلوها أمثلة لعلمائهم الّذين انقرضوا . وقيل : جعلوها شبهاً للأجسام العلويّة . والمعنى : ماهذه الصور الّتي أنتم مقيمون على عبادتها .

روى العيّاشيّ بإسناده عن الأصبغ بن نباتة أنّ عليّاً عَلَيْهِ السَّلَامُ مرّ بقوم يلعبون الشطرنج فقال : ما هذه التماثيل الّتي أنتم لها عاكفون ؟ لقد عصيتم الله و رسوله .

[قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين] فاقتدينا بهم فاعترفوا بالتقليد إذلم يجدوا حجّة لعبادتهم إيّاها سوى اتّباع الآباء .

فأجابهم إبراهيم بقوله : [لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين] و بيّن أنّ الباطل لايصير حقّاً بسبب كثرة المتمسّكين به .

فعند ذلك [قالوا] له : [أجئتنا بالحقّ] أي هذا الكلام الّذي تقول جادّ و تقول على سبيل الحقيقة أم تمازحنا و تلعب بنا ؟ و إنّما قالوا ذلك لاستبعاد إنكار عبادة الأصنام كأنّهم يقولون : هل يمكن أن لا يعبد الأصنام ؟

فعند ذلك عدل إبراهيم عليه السلام إلى بيان التوحيد : [قال بل] إلهكم الّذي يكون تعبدوه [ربّكم و ربّ السماوات والأرض الّذي خلقهنّ] و هوالّذي يحسن أن يعبد لأنّه الّذي يضرّ و ينفع . والضمير في « خلقهنّ » راجع إلى السماوات أو إلى الأصنام ، و إلى الأصنام أدخل في طريق الاحتجاج .

قوله : [و أنا على ذلكم من الشاهدين] والمقصود المبالغة في التأكيد و التحقيق كقول الرجل إذا بالغ في إثبات أمر يقول : أشهد أنّه كذلك و أنا لست مثلكم و شهدت هذا الأمر أو أنتم جاهلون و أنا شاهدو عالم به .

قوله : [تالله لأكيدنّ أصنامكم بعدأن]تتعطّلوا ذاهبين ، ولمّا علم إبراهيم بأنّ الحجّة القوليّة لاتنفعهم عدل إلى الطريقة الفعليّة فقال : لأكيدنّ أي لأدبّرنّ في بابهم تدبيراً خفيّاً يسؤكم ، والكيد الاحتيال على الغير في ضرر لا يشعر به و هم كانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ثمّ عادوا إلى منازلهم فلمّا كان هذا الوقت قال : آزر لإبراهيم : لو خرجت معنا ، فخرج معهم فلمّا كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال : إنّي سقيم أشتكي رجلي ، فلمّا مضوا وبقي ضعفاء الناس نادى وقال : تالله لأكيدنّ أصنامكم .

قال الكلبيّ : كان إبراهيم من أهل بيت ينظرون في النجوم و كانوا إذا خرجوا إلى عيدهم لم يتركوا إلّامريضاً ، فلمّا همّ إبراهيم بالّذي همّ من كسر الأصنام نظر قبل يوم العيد إلى السماء و قال لأصحابه : أراني أشتكي غداً فذلك قوله : « فنظر نظرة

في النجوم * فقال إنّي سقيم[1] و أصبح من الغد معصوباً رأسه فخرج القوم لعيدهم و لم يتخلّف غيره أحد فقال : أما والله لأكيدنّ أصنامكم ! فسمع رجل منهم هذا القول منه فحفظه عليه . ثمّ إنّ ذلك الرجل أخبر غيره فانتشر الخبر فلذلك قالوا : « سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » .

و بالجملة إنّ إبراهيم دخل بيت الأصنام و جد سبعين صنماً مصفّفة وثمّ صنم عظيم مستقبل الباب و كان من ذهب وكان في عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسّرها كلّها بالفأس حتّى لم يبق إلّا الكبير و علّق الفأس في عنقه .

[فجعلهم جذاذاً] قطعاً قطعاً و حطاماً [إلّا كبيراً لهم] فتركه على حاله وخرج إبراهيم من بيت الأصنام [لعلّهم إليه يرجعون] إلى إبراهيم فيسألونه عن حال الأصنام فيحتجّ عليهم بعجز الأصنام فيعلمون جهلهم باتّخاذهم الأصنام آلهة و أنّها عجزة ولا تقدر أن تدفع عن أنفسها الضرّ ، أو الضمير في إليه راجعٌ إلى كبير الأصنام ويقولون: ما لهؤلاء الأصنام مكسورة و مالك صحيحاً و الفأس على عاتقك ؟

[قالوا من فعل هذا بآلهتنا] وفي الكلام حذف وتقديره : فلمّا رجع قومه من عيدهم فوجدوا أصنامهم مكسورة قالوا : من فعل هذا الصنع بآلهتنا ؟ ومن فعله [كان من الظالمين] و فعل مالم يكن له أن يفعل .

[قالوا سمعنا فتى يذكر] الآلهة بسوء و يعيب عليها [يقال له إبراهيم] لأنّهم كانوا سامعين من إبراهيم عيب الآلهة وهو كان القائل : لأكيدنّ أصنامكم .

فإن قيل : إمّا أنّ القوم عقلاء أو ماكانوا عقلاء فإن كانوا عقلاء وجب أن يكونوا عالمين بالضرورة أنّ الخشبة المنحوتة في النهار أو من قبل بسنة أو أكثر غير قابلة للعبادة وأنّها لا تضرّ و لا تنفع . و إن قلنا : أنّهم ماكانوا عقلاء فحينئذ لا يقتضي بعثة الرسل إليهم .

فالجواب : أنّهم كانوا عقلاء وعالمين بأنّها جمادات و لكن كانوا يعتقدون فيها أنّها تماثيل الكواكب و أنّها طلسمات موضوعة بحيث إنّ كلّ من عبدها انتفع بها و كلّ من استخفّ بها ناله منها ضرر شديد ، فكسّرها إبراهيم حتّى يندفع هذا الظنّ عنهم

(١) الصافات : ٨٩ .

لأنّه أصابها بسوء و ما ناله مكروه . و بالجملة فغلب على عقلهم أنّه عليه السلام هوالفاعل بالأصنام هذا الكسر .

قوله تعالى : قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون (٦١) قالوا ءأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم (٦٢) قال بل فعله كبير هم هذا فاسئلوهم ان كانوا ينطقون (٦٣) فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون (٦٤) ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون (٦٥) قال أفتعبدون من دون الله مالاينفعكم شيئاً ولايضركم اف لكم ولماتعبدون من دون الله أفلا تعقلون (٦٧) قالوا حرقوه و انصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين (٦٨) قلنا يا ناركونى برداً و سلاماً على ابراهيم (٦٩) و أرادوا به كيداً فجعلنا هم الاخسرين (٧٠) .

اعلم أنّ القوم لمّا شاهدوا كسر الأصنام وقيل : إنّ فاعله إبراهيم [قالوا] فيما بينهم : [فأتوا به على أعين الناس] أي بمرأى منهم ، و معنى الاستعلاء في «على» أي ثبت إتيانه في الأعين ثبات الراكب على المركوب [لعلّهم يشهدون] أي يشهدون الناس بأنّه فعل هذا الفعل و أيضاً يشهدون عذابه و ينظرون ما يصنع به فيكون ذلك زاجراً لهم عن الإقدام على مثل فعله .

قوله : [أ أنت] و في الكلام حذف و تقديره : فأتوا به و قالوا : أ أنت [فعلت هذا] طلبوا منه‌الاعتراف بذلك ليقدموا على إيذائه . [فقال] إبراهيم عليه السلام : [بل فعله كبيرهم هذا فاسألو هم إن كانوا ينطقون] مشيراً إلى الصنم الكبيرعلّق على رقبته‌الفأس ، سلك عليه السلام مسلكاً يؤدّيه إلى مقصده و هو إلزامهم الحجّة على ألطف و جه يحملهم‌على التأمّل في شأن آلهتهم مع ما فيه من التوقّي من الكذب .

و قد أسند إليه بطريق التسبيب حيث كان غيظه عليه السلام على الصنم الكبير أعظم و أكثر لشدّة تعظيمهم للكبير أكثر فأسند الفعل إليه باعتبار أنّه الحامل والداعي إلى الكسر ، والفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى‌الحامل‌عليه . و قيل : إنّ في‌الكلام

تقديم و تأخير : في العيون عن الصادق المعنى إن كانوا ينطقون فكبيرهم فعل و إن لم ينطقوا فلم يفعل كبير هم شيئاً فما نطقوا و ما كذب إبراهيم عليه‌السلام . و قيل : الضمير في « فعله » كناية عن غير مذكور أي فعله من فعله و قوله : « كبيرهم هذا » ابتداء الكلام والكسائيّ كان يقف عند قوله : « بل فعله » ثمّ يبتدأ : كبيرهم هذا .

قال الرازيّ : أمّا ما روي من بعض عن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنّ إبراهيم لم يكذب إلاثلاث كذبات كلّها في ذات الله : قوله « إنّي سقيم [١] » و قوله : « بل فعله كبيرهم هذا [٢] » و قوله لسارة : « إنّها اُختي » . و قرّروا هذا القول من جهة العقل و قالوا : إنّ النبيّ مثلاً إذا هرب من ظالم و اختفى في دار إنسان و جاء الظالم و سأل عن حاله فإنّه يجب الكذب فيه و إذا كان كذلك فأيّ بعد في أن يأذن الله في ذلك لمصلحة .

و اعلم أنّ هذا القول مرغوب عنه ؛ لأن يضاف الكذب إلى الرواة أولى من يضاف إلى الأنبياء و الدليل القاطع عليه أنّه لوجاز أن يكذبوا لمصلحة و يأذن الله فيه فيجوز هذا الاحتمال في كلّ ما أخبروا عنه و ذلك يبطل الوثوق بالشرائع و تتطرّق التهمة إلى كلّها .

ولمَ لا يحمل قوله عليه‌السلام : « إنّي سقيم » على أن كان به سقم قليل ، وأمّا قوله « بل فعله كبيرهم » فقد قيل الجواب عنه ، و أمّا قوله عليه‌السلام : لسارة « إنّها اُختي » فالمراد أنّها اُخته في الدين فمتى ما أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب إلى الأنبياء فحينئذ لا يحكم بنسبة الكذب إليهم إلّا زنديقٌ ، انتهى كلام الرازيّ .

قوله : [فرجعوا الى أنفسهم] فلمّا نبّههم إبراهيم بما أورده عليهم على قبح طريقتهم تنبّهوا و علموا أنّهم على غرور وجهل في ذلك ، أوالمعنى : رجعوا إلى أنفسهم فلاموها [فقالوا إنّكم أنتم الظالمون] لا إبراهيم مع أنّ الفأس معلّق بين يدي الصنم الكبير ، أو المعنى : أنتم الظالمون لأنفسكم حيث سألتم من إبراهيم هذا السؤال حتّى أخذ يستهزىء بكم في الجواب .

(١) الصافات : ٨٩ .

(٢) الانبياء : ٦٣ .

[ثمّ نكسوا] من إفحامهم [على رؤوسهم] وعلموا أنّها لاتنطق فاعترفوابما هوحجّة عليهم لالهم [فقالوا لقد علمت] يا إبراهيم أنّ هؤلاء الأصنام [لاينطقون]فكيف نسألهم ؟

فأجابهم إبراهيم : أفتوجّهون عبادتكم إلى الأصنام الّتي لا ينفعكم شيئاً إن عبدتموها و لا يضرّكم إن تركتموها لأنّها لوقدرت على نفعكم وضرّكم لدفعت عن أنفسها و من لم يقدر على النفع و الضرّ كيف استحقّ العبادة ؟

ثمّ قال عليه السلام مهجناً لأفعالهم مستقذراً لأصنامهم :[اُفٍّ لكم] أي تبّاً لكم ولأفعالكم و « اُفّ » صوت إذا صوّت به علم أنّ صاحبه متضجّر وقد انضجر إبراهيم من ثباتهم على هذا الأمر الباطل بعد وضوح الحقّ [أفلا] تتدبّرون و [تعقلون] .

[قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم] و ليس في القرآن من القائل لذلك ؟ والمشهور أنّه نمروذ بن كنعان بن سنجاريب بن نمروذ بن كوش بن حام بن نوح . قال مجاهد : سمعت ابن عمر يقول : إنّما أشار بتحريق إبراهيم عليه السلام رجل من الكرد من أعراب فارس . وقيل : إنّ الّذي أشار إلى هذا الأمر رجل اسمه هبرين فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

ولمّا اجتمعوا لإحراق إبراهيم عليه السلام حبسوه في بيت وبنوا بنياناً كالحظيرة وذلك قوله : «قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم»[١] ثمّ جمعوا له الحطب الكثير حتّى أنّ المرأة لو مرضت قالت : لوأنّ الله عافاني لأجمعنّ حطباً لإبراهيم ، ونقلوا له الحطب على الدوابّ أربعين يوماً و أنّ الرجل منهم ليمرض فيوصي بكذا و كذا من ماله فيشتري له حطب وحتّى أنّ المرأة لتغزل فيشتري به حطباً .

فلمّا أرادوا أن يلقوا إبراهيم في النار لم يدروا كيف يلقونه فجاء إبليس فعلّمهم صنعة المنجنيق فوضعوه فيها ثمّ رموه بعد أن رفعوه عن رأس البنيان و قيّدوه و وضعوه في المنجنيق مغلولاً فصاحت السماء و الأرض و من فيها من الملائكة أجمعون إلّا الثقلين صيحة واحدة : أي ربّ ! ليس في أرضك من يعبدك غير إبراهيم و إنّه يحرق فيك فأذن لنا في نصرته ؛ فقال سبحانه : إن استغاث بأحد منكم فأغيثوه و إن لم يدع غيري فخلّوا

(١) الصافات : ٩٧ .

بيني و بينه فأنا أعلم به و أنا وليّه ، فلمّا أرادوا إلقاءه في النار أتاه خازن الرياح فقال : يا إبراهيم إن شئت طيّرت النار في الهواء فقال إبراهيم : لاحاجة بي إليكم ، ثمّ رفع رأسه إلى السماء و قال : اللّهمّ أنت الواحد في السماء و أنا الواحد في الأرض ليس في الأرض أحد يعبدك غيري حسبنا الله ونعم الوكيل . وقيل : إنّه حين اُلقي في النار قال : لا إله إلّا أنت سبحانك ربّ العالمين لك الحمد ولك الملك لاشريك لك ، ثمّ رموا به النار فأتاه جبرئيل وقال : يا إبراهيم هل لك حاجة ؟ قال : أمّا إليك فلا . قال : فاسأل ربّك قال : حسبي من سؤالي علمه بحالي .

فقال الله : [يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم] و لولم يتبع سلاماً عقيب قوله: « برداً » لمات إبراهيم من بردها و لم يبق يومئذ في الدنيا ناراً إلّا طفئت ؛ قال السدّيّ : فأخذت الملائكة بضبعي إبراهيم و أقعدوه في الأرض فإذا عين ماء عذب و ورد أحمر و نرجس و لم تحرق النار إلّا وثاقه .

و روى الواحديّ بالإسناد مرفوعاً إلى أنس بن مالك قال : لمّا اُلقي إبراهيم عليه السلام في النار نزل عليه جبرئيل بقميص من الجنّة و طنفسة من الجنّة فألبسه القميص و أقعده على الطنفسة وقعد معه يحدّثه . و قيل : اُلقي إبراهيم عليه السلام في النار وهو ابن ستّة عشر سنة . و قيل : إنّ إبراهيم عليه السلام لمّا اُلقي في النار كان فيها إمّا أربعين يوماً أو خمسين يوماً و قال عليه السلام : ما كنت أيّاماً أطيب عيشاً منّي إذ كنت فيها .

و قال ابن إسحاق : بعث الله ملك الظلّ فقعد في صورة إبراهيم عليه السلام إلى جنب إبراهيم عليه السلام يؤنسه ، و أتاه جبرئيل أيضاً بقميص من حرير الجنّة و قال : يا إبراهيم إنّ ربّك يقول : أما علمت أنّ النار لاتضرّ أحبّائي . ثمّ نظر نمروذ من صرح له أشرف على إبراهيم فرآه جالساً في روضة و رأى الملك قاعداً إلى جنبه و ماحوله نار تحرق الحطب فناداه نمروذ : يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها ؟ قال : نعم ، قال : قم فاخرج ، فقام يمشي حتّى خرج منها فلمّا خرج قال له نمروذ : من الرجل الّذي رأيته معك بصورتك ؟ قال : ذاك ملك الظلّ أرسلني ربّي ليؤنسني فيها فقال نمروذ : إنّي مقرّب إلى ربّك قرباناً لما رأيت من عزّته و قدرته فيما صنع بك فإنّي ذابح له أربعة آلاف

بقرة فقال إبراهيم عليه السلام : لا يقبل الله منك مادمت على دينك فقال نمروذ : لا أستطيع ترك ملكي و لكن سوف أذبحها له ، ثمّ ذبحها لهو كفّ عن إبراهيم عليه السلام .

قوله : [و أرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين] أي و أراد الكفّار بإبراهيم شرّاً و تدبيراً في إهلاكه فجعلنا هم الأخسرين ؛ قال ابن عبّاس : هو أن سلّط الله على نمروذوخيله البعوض حتّى أخذت لحومهم و شربت دماءهم و وقعت واحدة في دماغ نمروذ حتّى أهلكته .

و المعنى : أرادوا أن يكيدوا إبراهيم فانقلب عليهم و أتمّ النعمة على إبراهيم بأن نجّاه و نجا ابن أخيه من أمّه وهو لوط بن هاران إلى الأرض الّتي بارك فيها للعالمين و إنّ هذه الواقعة كانت على إبراهيم ببابل و قيل : الأرض المباركة مكّة . و قيل : أرض الشام لقوله تعالى : « إلى المسجد الأقصى الّذي باركنا حوله [١] » و السبب في بركتها أمّا في الدين فلأنّ أكثر الأنبياء بعثوا منها وانتشرت شرائعهم فيها وأمّا في الدنيا فلأنّ الله بارك فيها بكثرة الماء و الشجر و الثمر وطيب العيش . وقيل : ما من ماء عذب إلّا وينبع أصله من تحت الصخرة الّتي ببيت المقدس .

قوله تعالى : و نجيناه و لوطاً الى الارض التى باركنا فيها للعالمين (٧١) و وهبنا له اسحاق و يعقوب نافلة و كلا جعلنا صالحين (٧٢) و جعلناهم أئمة يهدون بأمرنا و أوحينا اليهم فعل الخيرات و اقام الصلوة و ايتاء الزكوة و كانوا لنا عابدين (٧٣) و لوطاً آتيناه حكماً و علماً و نجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث انهم قوم سوء فاسقين (٧٤) و أدخلناه فى رحمتنا انه من الصالحين (٧٥) .

المعنى : شرح سبحانه نعمه على إبراهيم فقال :

[و نجّيناه] من نمروذ و كيده و رفعناه [و لوطاً] عن الهلكة و هو ابن أخي إبراهيم [إلى الأرض الّتي باركنا حوله] و قد ذكرنا الاختلاف في تلك الأرض قبل هذا .

[و وهبنا] لإبراهيم إسحاق لمّا سأل الله ولداً [و] أجابه أعطاه [يعقوب نافلة]

(١) الاسراء : ١ .

و عطيّة خاصّة ، و يسمّى الرجل الكثير العطاء نوفلاً كما يقال للصلاة الزائدة على الواجب نافلة ، و على هذا يعقوب كان نافلة خاصّة .

[و كلاً] من إبراهيم و إسحاق و يعقوب [جعلنا صالحين] أنبياء مرسلين عاملين بطاعة الله [وجعلناهم أئمّة] يدعون الناس إلى دين الله [بأمرنا] و المراد بهذه الإمامة النبوّة [و أوحينا إليهم فعل الخيرات] أي شرائع النبوّة و أعمال الخير و إقامة الصلاة ، و حذف التاء من « إقامة » لأنّ الإضافة عوض عنه و قيل : الإقام و الإقامة مصدر . ولمّا بيّن أنّ الصلاح الّذي هو العصمة أوّل مراتب النبوّة دلّ ذلك على أنّ الأنبياء معصومون ، و إعطاء [الزكاة و كانوا] مخلصين [لنا] والعبادة .

[و لوطاً آتيناه حكماً و علماً] بعد بيان نعمه على إبراهيم أتبعه بذكر نعمه على لوط عليه السلام و الواو عطف على قوله : « آتينا إبراهيم رشده » أي و آتينا لوط الحكمة و الّتي يجب فعله أو النبوّة . و الثاني : العلم ، و إدخال التنوين على الحكم و العلم للدلالة على علوّ شأن ذلك الحكم و ذلك العلم . و الثالث : [و نجّيناه من القرية الّتي كانت تعمل الخبائث] أي أهلها .

[إنّهم كانوا قوم سوء] خارجين عن الدين و الطاعة و القرية سدوم ، و إنّهم كانوا يأتون الذكران في أدبارهم و يتظارطون في أنديتهم و قد حكى الله : «إنّكم لتأتون الرجال و تقطعون السبيل و تأتون في ناديكم المنكر»[1] [و أدخلناه في] نعمتنا و مننا بسبب أنّه من الّذين أصلح أفعاله و علم ما هو الحسن و ما هو القبيح .

قوله : و نوحاً اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه و أهله من الكرب العظيم (٧٦) و نصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين (٧٧) و داود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين (٧٨) ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً و سخرنا مع داود الجبال يسبحن و الطير وكنا فاعلين (٧٩) و علمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون (٨٠) .

المعنى : عطف سبحانه قصّة نوح و داود على قصّة إبراهيم ولوط :

(١) العنكبوت : ٢٩ ، و « نادى » المجلس العام و جمعه « اندية » .

[و نوحاً] أي و أعطينا نوحاً [إذ] دعا ربّه فقال : « ربّ لاتذر على الأرض من الكافرين ديّاراً (١) » و قال : «ربّ إنّي مغلوب فانتصر (٢)» و كان نوح من قبل إبراهيم و المراد من هذا الدعاء الدعاء على قومه لأنّه دعا مرّة على الإجمال فقال : إنّي مغلوب فانتصر ، و مرّة على التفصيل فقال : ربّ لا تذر على الأرض .

و الكرب العظيم الغمّ الّذي يصل حرّه إلى القلب و هو ما كان يلقاه من أذى قومه طول تلك المدّة وتحمّل الاستخفاف من السقاط ، أوالطوفان . وأكثر المحقّقين على أنّ ذلك النداء كان بأمر الله ، وقال آخرون : لم يكن بالأمر والإذن ، وقال أبوأمامة : لم يتحسّر أحد من خلق الله كحسرة آدم و نوح فحسرة آدم على قبول وسوسة إبليس و حسرة نوح على دعائه على قومه فأوحى الله إليه أن لاتتحسّر فإنّ دعوتك وافقت قدري.

أمّا قوله : [فنجّيناه و أهله] فالمراد من الأهل ههنا أهل دينه ، و قيل في تفسير الكرب : الطوفان و العذاب ، و قيل : تكذيب و أذى قومه إيّاه .

قوله [ونصرناه من القوم الّذين كذّبوا بآياتنا] و«من»هنا بمعنى « على » أي نصرناه على القوم أو المعنى : منعناه منهم بالنصرة ، قال الزمخشريّ : إنّ « نصر » في الآية مطاوعة «انتصر»و سمعت هذلياً يدعو على سارق : اللّهم انصرهم منه ، أي أجعلهم منتصرين منه .

قوله : [إنّهم قوم سوء] لأجل ردّهم و تكذيبهم [فأغرقناهم أجمعين] صغارهم و كبارهم و ذكورهم و إناثهم .

قوله تعالى : [و داود و سليمان] تقدير الآية : واذكر داود وسليمان يعني أعطيناهما حكماً و علماً أيضاً [إذ] حين [يحكمان في الحرث] و الزرع [إذ] في الوقت الّذي [نفشت فيه غنم القوم] و تفرّقت الغنم فيه ليلاً . و قيل : المراد من الحرث الكرم .

و أصل القصّة أنّه دخل رجلان على داود عليه السلام أحدهما صاحب حرث و الآخر صاحب غنم فقال صاحب الحرث : إنّ غنم هذا دخلت حرثي و ما أبقت منه شيئاً فقال داود عليه السلام : إذهب فإنّ الغنم لك ، فخرجا فمرّا على سليمان عليه السلام فقال سليمان عليه السلام :

---

(١) نوح : ٢٨ .

(٢) القمر : ١٠ .

كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه فقال : لو كنت قاضياً لقضيت بغير هذا فاُخبر داود عليه السلام بذلك فدعاه و قال : كيف كنت تقضي بينهما ؟ قال : أدفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له منافعها من الدرّ والنسل و الوبر حتّى إذا كان الحرث من العام المستقبل كهيئته يوم اُكل دفعت الغنم إلى أهلها وقبض صاحب الحرث حرثه .

و قال ابن مسعود و شريح و مقاتل : إنّ راعياً نزل ذات ليلة بجنب كرم فدخلت الأغنام الكرم و هو لا يشعر فأكلت القضبان و أفسدت الكرم فذهب صاحب الكرم من الغد إلى داود عليه السلام فقضى له بالغنم لأنّه لم يكن بين ثمن الكرم وثمن الغنم تفاوت فخرجوا و مرّوا بسليمان عليه السلام فقال لهم : كيف قضى داود بينكما ؟ فأخبراه به فقال : غير هذا أرفق بالفريقين ، فاُخبر داود عليه السلام بذلك فدعا سليمان عليه السلام و قال له : بحقّ الاُبوّة و البنوّة إلّا أخبرتني بالأرفق فقال : تسلم الغنم إلى صاحب الكرم حتّى يرتفق بمنافعها و يعمل الراعي في إصلاح الكرم حتّى يصير كما كان ثمّ تردّ الغنم إلى صاحبها ، فقال داود عليه السلام : إنّما القضاء ما قضيت ، وحكم بذلك .

قال ابن عبّاس : حكم سليمان بذلك وهو ابن إحدى عشرة سنة .

و في الكافي عن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال : إنّه كان أوحى الله إلى النبيّين قبل داود عليه السلام إلى أن بعث الله داود عليه السلام : « أيّ غنم نفشت في الحرث فلصاحب الحرث رقاب الغنم » و لا يكون النفش إلّا بالليل فإنّ على صاحب الزرع أن يحفظ زرعه بالنهار وعلى صاحب الغنم حفظ الغنم بالليل ، فحكم داود عليه السلام بما حكم به الأنبياء من قبله فأوحى الله إلى سليمان عليه السلام : « أيّ غنم نفشت في زرع فليس لصاحب الزرع إلّا ما خرج من بطونها » و كذلك جرت السنّة بعد سليمان و هو قول الله : « و كلّاً آتينا حكماً وعلماً » فحكم كلّ واحد منهما بحكم الله .

و عنه عليه السلام : أوحى الله إلى داود عليه السلام أن اتّخذ وصيّاً من أهلك فإنّه قد سبق في علمي أن لا أبعث نبيّاً إلّا و له وصيٌّ من أهله وكان لداود عليه السلام عدّة أولاد و فيهم غلام كانت اُمّه عند داود عليه السلام و كان لها محبّاً فدخل داود عليه السلام عليها حتّى أتاه الوحي فقال لها : إنّ الله أوحى إليّ يأمرني أن أتّخذ وصيّاً من أهلي فقالت له امرأته : فليكن

ابني ، قال داود عليه السلام : ذاك اُريد ، وكان السابق في علم الله المحتوم أنّه يكون سلمان عليه السلام فأوحى الله إلى داود عليه السلام : أن لا تعجل دون أن يأتيك أمري ، فلم يلبث داود عليه السلام أن ورد عليه رجلان يختصمان في الغنم والكرم فأوحى الله إلى داود عليه السلام : أن اجمع ولدك فمن قضى بهذه القضيّة فأصاب فهو وصيّك من بعدك ، فجمع داود عليه السلام فلمّا أن قصّ الخصمان قال سليمان عليه السلام : يا صاحب الكرم متى دخلت غنم هذا الرجل كرمك ؟ قال : دخلته ليلاً قال : قد قضيت عليك يا صاحب الغنم بأولاد غنمك و أصوافها في عامك هذا ، ثمّ قال له داود عليه السلام : فكيف لم تقض الغنم برقاب وقد قوّم علماء بني إسرائيل فكان ثمن الكرم ثمن الغنم ؟ فقال سليمان عليه السلام : إنّ الكرم لم يجتثّ من أصله و إنّما اُكل حمله و هو عائد في قابل .

فأوحى الله إلى داود عليه السلام أنّ القضاء ما قضى سليمان به يا داود أردت أمراً وأردنا أمراً غيره فدخل داود عليه السلام على امرأته فقال : أردنا أمراً و أراد الله أمراً غيره ولم يكن إلّا ما أراد الله فقد رضينا بأمر الله و سلّمنا . و كذلك الأوصياء ليس لهم أن يتعهّدوا بهذا الأمر إلّا من عند الله . وإنّما أراد الله أن يعرّف بني إسرائيل أنّ الوصيّ سليمان عليه السلام بعده .

[و كنّا لحكمهم شاهدين] أي بحكمهم عالمين لم يغب عنّا منه شيء . و إنّما جمع في موضع التثنية لإضافة الحكم إلى الحاكم و إلى المحكوم لهم ، أو لأنّ الجمع يطلق على الاثنين مثل : « فإن كان له إخوة [1] » و هو يريد أخوين .

و قد أوحى الله إلى سليمان هذا الحكم و نسخ به حكم داود عليه السلام و كان حكم داود عليه السلام قبل ذلك أيضاً بوحي من الله لا اجتهاد لأنّه لا يجوز للأنبياء أن يحكموا بالرأي و الاجتهاد و هذا هو الصحيح المعوّل عندنا ، و قال غيرنا كالبلخيّ و عليّ بن عيسى : يجوز أن يكون ذلك عن اجتهاد لأنّ رأي النبيّ أفضل من غيره فإذا جاز التعبّد بالتزام حكم غير النبيّ من طريق الاجتهاد فكيف يمنع من حكم النبيّ على هذا الوجه ؟ و هذا الكلام غير تامّ لأنّ النبيّ إذا كان يوحى إليه و له طريق إلى العلم بالحكم فلا يجوز أن يحكم بالظنّ و الاجتهاد و القياس و قد قال الله : « و ما ينطق عن

(١) النساء ١١ .

الهوى ۞ إن هو إلّا وحي يوحى[(١)] » و كذلك : « قل ما يكون لي أن اُبدّ له من تلقاء نفسي إن أتّبع إلّا ما يوحى إليّ[(٢)] » و لو جاز الاجتهاد لما كان صلى الله عليه وآله وسلم يقف في مسألة الظهار و اللعان إلى ورود الوحي .

و بالجملة [ففهّمنا ها سليمان] أي علّمناه الحكومة في ذلك الأمر [و كلاًّ آتينا حكماً و علماً] أي و كلّ واحد من داود وسليمان عليهما السلام أعطيناه الحكمة والنبوّة و علم الدين .

قوله [و سخّرنا مع داود الجبال يسبّحن و الطير] قيل : معناه سيّرنا الجبال مع داود حيث سار فعبّر عن ذلك بالتسبيح . في الإكمال عن الصادق أنّ داود عليه السلام خرج يقرء الزبور ، و كان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل ولاحجر ولا طائر إلّا جاوبت .

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين : إنّ يهوديّاً قال له : هذا داود بكى على خطيئته حتّى سارت الجبال معه لخوفه فقال عليه السلام : إنّه كان كذلك ، الحديث .

و في المناقب عن السجّاد عليه السلام أنّ داود عليه السلام صلّى ركعتين فسبّح في سجوده فلم يبق شجر ولا مدر إلّا سبّحوا معه .

و قيل : إنّ الجبال كانت تجاوبه بالتسبيح و كذلك الطير تسبّح معه بالغداة و العشيّ معجزة له .

[و كنّا فاعلين] أي قادرين على فعل هذه الأشياء دلالة على نبوّته . و قال بعض أصحاب المعاني : إنّه يحتمل أن يكون تسبيح الجبال بمثابة قوله : « و إن من شيء إلّا يسبّح بحمده[(٣)] » و تخصيص داود عليه السلام بذلك إنّما كان بسبب أنّه عليه السلام كان يعرف ذلك ضرورة فيزداد يقيناً و تعظيماً . و هذا القول فيه تكلّف و لا ضرورة في صرف اللفظ عن ظاهره بل إنّها تسبّح معه تسبيحاً ظاهراً و تجاوبه و تسير معه بقدرة من الله وليست البنية شرطاً في حصول الأمر مع القدرة والإرادة من الله سبحانه .

الانعام الثالث [و علّمناه صنعة لبوس لكم] اللبوس و اللباس واحد قال الشاعر :

---

(١) النجم : ٣ ـ ٤ .
(٢) يونس : ١٥ .
(٣) الاسراء : ٤٤ .

البس لكلّ حالة لبوسها * إمّا نعيمها و إمّا بوسها

أي علّمناه كيف يصنع الدرع ، و هو أوّل من صنع الدرع و إنّما كانت الدروع صفائح ، جعل الله الحديد في يده كالعجين وهو أوّل من بردها[1] و حلقها فجمعت الخفّة و التحصين [لتحصنكم من بأسكم] أي ليحرزكم ويمنعكم من وقع السلاح فيكم من السيف و السنان وغيره .

ولمّا تعلّم الناس منه فتوارثوا منه فعمّت النعمة كلّ الحاربين يلزمهم الشكر من الله فقال سبحانه : [فهل أنتم شاكرون] و هذا تقرير و تأديب للخلق على الشكر بمقابلة كلّ نعمة .

روي في الكافي عن الصادق عليه السلام أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال : أوحى الله إلى داود عليه السلام : إنّك نعم العبد إلّا أنّك تأكل من بيت المال و لا تعمل بيدك شيئاً قال : فبكى داود عليه السلام أربعين صباحاً فأوحى الله إلى الحديد أن لن لعبدي داود فلان ، فكان يعمل في كلّ يوم درعاً فيبيعها بألف درهم و استغنى عن بيت المال . و قيل : إنّ سبب إلانة الحديد لداود عليه السلام أنّه كان ملكاً ونبيّاً و كان يطوف في ولايته متنكّراً يتعرّف أعمال عمّاله ومتصرّفيه فاستقبله جبرئيل ذات يوم بصورة آدميّ فسلّم عليه فردّ عليه السلام فقال : ماسيرة داود ؟ فقال جبرئيل : نعمت السيرة لولا خصلة فيه ، قال : وماهي ؟ قال : إنّه يأكل من بيت مال المسلمين فتنكّره و أثنى عليه و قال : لقد أقسم داود إنّه لا يأكل من بيت مال المسلمين ، فعلم الله صدقه فألان له الحديد كما قال : « وألنّا له الحديد[2] » .

قوله : و لسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره الى الارض التى باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين (٨١) و من الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين (٨٢) و أيوب اذ نادى ربه انى مسنى الضر وانت ارحم الراحمين (٨٣) فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر و آتيناه أهله و مثلهم معهم رحمة من عندنا و ذكرى للعابدين (٨٤) و اسماعيل و ادريس وذاالكفل كل من الصابرين (٨٥) و أدخلناهم فى رحمتنا انهم من الصالحين (٨٦) .

(١) برد الحديد : اخذ منه بالمبرد .
(٢) سبأ : ١٠ .

المعنى : عطف على «سخّرنا» أي سخّرنا لداود الجبال [و] و سخّرنا [لسليمان الريح عاصفة] إن أرادها عاصفة و إن أرادها ليّنة رخاء حيث أصاب أي الريح مسخّرة له في الحالتين إن أراد السرعة في الحركة تهبّ عاصفة و إن أراد أن يتحرّك بطيئاً تهبّ رخيئة طيّبة كالنسيم فإذا مرّت بكرسيّه أبعدت به في مدّة يسرة مسافة كثيرة كما قال تعالى : «غدوّها شهر و رواحها شهر [1]» أي يقطع الريح بكرسيّ سليمان عليه السلام في الغداة مسيرة شهر و كذلك في العشاء مسافة شهر وهبوبها على حسب إرادته معجزة إلى معجزة .

و أمّا قوله : [إلى الأرض الّتي باركنا فيها للعالمين] أي إلى المضيّ إلى البيت المقدّس قال الكلبيّ : تسير الريح به من اصطخر فارس إلى الشام و سليمان عليه السلام على كرسيّه قاعدٌ والريح تسير به وكان عليه السلام يسكن بعلبك و يبنى له بيت المقدس ويحتاج الخروج إليها و إلى غيرها و كان سليمان إذا أراد أن يخرج إلى مجلسه يتعكّف الطير عليه و يقوم له الجنّ والإنس حتّى يجلس على سريره و تجتمع معه جنوده ثمّ تحمله الريح إلى حيث أراد . [وكنّا بكلّ شيء عالمين] و أعطيناه ما أعطيناه لما علمناه من المصلحة .

قوله : [و من الشياطين من يغوصون له] أي و سخّرنا له من الشياطين من يغوصون له في البحر فيخرجون الجواهر واللآلي . و الغوص النزول إلى ما تحت الماء .

[و يعملون له عملاً] غير [ذلك] و سوى ذلك من الأعمال الشاقّة و بناء المدن و الاختراعات العجيبة من الأبنية كما قال سبحانه «يعملون له مايشاء من محاريب و تماثيل [2]» أي أبنية العبادة والغرف والمساجد وكاسات كبار و إمّا الصناعات كاتّخاذ الحمّام و النورة و الطواحين و أمثالها و القوارير و الصابون [وكنّا لهم حافظين] لئلاّ يهربوا منه ، وقيل : معناه : لئلاّ يفسدوا ما عملوه ؛ لأنّهم كانوا يفسدون بالليل ما أصلحوا في نهارهم فمنعهم الله عن ذلك و إنّما سخّر الله له الشياطين و الكفرة من الجنّ دون المؤمنين .

(١) سبأ : ١٢ .
(٢) « : ١٣ .

فإن قيل : كيف يتهيأ لهم هذه الأعمال الشاقة و أجسامهم رقيقة لا يقدرون على العمل الثقيل ؟

فالجواب بأنه سبحانه كثف أجسامهم و قواهم خاصة و زاد في عظمهم ليكون ذلك معجزاً لسليمان فلما مات سليمان ردهم الله إلى الخلقة الأولى و ما أبقاهم على الخلقة الثانية للفساد والشبهات على الناس لأنه لوادعى متنبىء النبوة وجعل آثارهم دلالة على نبوته لاشتبه الأمر و لذلك ردهم إلى الأول . وقيل : ليس الأمر على ماقلتم بل يجوز حصول القدرة على هذه الأعمال الشاقة في الجسم اللطيف والبنية ليست شرطاً في القدرة و يكون هذا أيضاً معجزة لسليمان عليه السلام كما أن أصلب الأجسام الحديد وقد جعله الله في إصبع داود عليه السلام - أبيه - كالعجين وإذا قدرالله أن يجعل في إصبع داود عليه السلام قوة النار مع كون الإصبع في نهاية اللطافة فأي بعد في أن يجعل التراب اليابس جسماً حيوانياً آدمياً فيبعثه كما كان .

ثم إن ألطف الأشياء و أمنعها في هذا العالم الهواء والنار و قد جعلهما معجزة لسليمان أما الهواء فقوله تعالى : « فسخرنا له الريح » و هل الريح إلا هواء متموج . و أما النار فلأن الشياطين مخلوقون منها و قد سخرهم الله له فكان يأمرهم بالغوص في المياه والنار تنطفىء بالماء وهم ماكان يضرهم الماء وذلك يدل بقدرته على إظهار الضد من الضد فاعتبروا يا أولي الأبصار ! !

القصة السادسة : [وأيوب إذنادى ربه]واذكريامحمدأيوب لما امتدت المحنة به فدعا ربه و قال : إني نالني [الضر] و أصابني الجهد ولا أحد أرحم منك وهذا تعرض منه بالدعاء لإزالة ما به من البلاء و هو من لطيف الكنايات في طلب الحاجة و مثله قول موسى : « رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير[1] » و الضر بالفتح شامل و شائع في كل ضرر ، و بالضم خاص بما في النفس كمرض أو هزال ومثله .

[و أنت أرحم الراحمين] وصف ربه بغاية الرحمة بعد ما ذكر نفسه بما يوجبها واكتفى بذلك عن تعرض المطلوب لطفاً في السؤال .

(١) القصص : ٢٤ .

و في المفاتيح و الصافي في قضيّة أيّوب عن وهب بن منبّه : كان أيّوب عليه السلام روميّاً و هو أيّوب ابن أنوص وكان من ولد عيص بن إسحاق وكانت اُمّه من ولد لوط وكان الله قد اصطفاه و جعله نبيّاً وكان مع ذلك قد أعطاه الله من الدنيا حظّاً و افراً من النعم والدوابّ و الملك و أعطاه أهلاً و ولداً من رجال و نساء، وكان رحيماً بالمساكين و يكفل الأيتام و الأرامل و يكرم الضيف وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به و عرفوا فضله ، و إنّ لجبرئيل عليه السلام بين يدي الله مقاماً ليس لأحد من الملائكة مثله في القرب والفضيلة و هو الّذي يتلقّى الكلام فإذا ذكر الله عبداً بخير تلقّاه جبرئيل أوّلاً ثمّ تلقّاه ميكائيل ثمّ من حوله من الملائكة المقرّبين فإذا اقتهموا وشاع ذلك الخبر بأنّ الله ذكر عبداً من عباده بالخير فهم يصلّون عليه ثمّ صلّت الملائكة في السماوات عليه ثمّ صلّت ملائكة الأرض .

و كان إبليس يومئذ لم يحجب عن شيء من السماوات و كان يقف فيهنّ حيثما أرادو من هناك وصل إلى آدم عليه السلام حتى أخرجه من الجنّة و لم يزل إبليس على ذلك حتّى رفع عيسى عليه السلام فحجب عن أربع فكان يصعد اللعين بعد ذلك إلى ثلاث إلى زمان محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فحجب عند ذلك عن جميع السماوات إلّا من استرق السمع .

قال : فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيّوب عليه السلام فأدركه الحسد فصعد سريعاً حتّى وقف من السماء موقفاً كان يقفه دون العرش فقال : يارب إنّك أنعمت على عبدك أيّوب فشكرك وعافيته فحمدك ثمّ لم تجرّبه بشدّة و لابلاء وأنالك زعيم لئن ضربته بالبلاء ليكفرنّ بك فقال الله : انطلق فقد سلّطتك على بدنه ماعدا عينيه و قلبه و سمعه وعقله .

فانفضّ عدوّ الله سريعاً خوفاً من أن تدار كه رحمة فتمنعه من سلطته فوجد أيّوب ساجداً لله فأتاه من قبل الأرض فنفخ في منخره نفخة من نار السموم اشتعل منها جسده عليه السلام و خرج به من فرقه إلى قدمه ثآليل و قد وقعت فيه حكّة لا يملكها و كان يحكّ بأظفاره حتّى سقطت أظفاره ثمّ حكّها بالمسوح الخشنة ثمّ حكّها بالفخّار و الحجارة و لم يزل يحكّها حتّى تقطّع لحمه و تغيّر ، وعلى قول دوّدونتن .

ثمّ جاء إبليس إلى أهل البلد و قال : إنّ هذا الرجل ترون ما به من المرض

وسيؤدّي المرض إليكم فأخرجوه من بلدتكم فأخرجه أهل القرية و جعلوه على كناسة في المزبلة (١) و جعلوا له عريشاً و رفضه الناس كلّهم غير امرأته « رحمة » بنت إفرائيم ابن يوسف عليه السلام فكانت تصلح اُموره .

وكان تسليط إبليس على بدن أيّوب بعد أن استرخص من الله على ماشيته وماله و ولده و زرعه . و ذلك أنّ اللعين بعد أن انقضّ إلى الأرض جمع عفاريت الشياطين وقال لهم : ماذا عندكم من القوّة فإنّي قد سلّطت على مال أيّوب ؟ قال عفريت : اُعطيت من القوّة ما إذا شئت تحوّلت إعصاراً من نار فأحرقت كلّ شيء أتي أيّوب عليه ، فقال إبليس : فأت الابل ورعاءها ، فذهب ولم يشعر الناس حتّى ثار من تحت الأرض إعصار من نار لا يدنو إليها شيء إلّا احترق فلم تزل تحرقها و رعاءها حتّى أتى على آخرها ، فذهب إبليس على شكل بعض اُولئك الرعاة إلى أيّوب عليه السلام فوجده قائماً يصلّي فلمّا فرغ من الصلاة قال : يا أيّوب هل تدري ما صنع ربّك الّذي اخترته بابلك و رعائها ؟ فقال أيّوب عليه السلام : إنّها ماله أعارنيه وهو أولى به إذا نزعه قال إبليس : فإنّ ربّك أرسل عليها ناراً من السماء فاحترقت ورعاءها كلّها وتركت الناس مبهوتين متعجّبين منها فمن قائل يقول : ما كان أيّوب يعبد شيئاً وما كان إلّا في غرور . و من قائل يقول : لو كان إله أيّوب يقدر على شيء يمنع من وليّه . ومن قائل كذا و كذا ، فقال أيّوب عليه السلام : الحمد لله الّذي حين أعطاني و حين نزع منّي و أنا خرجت من بطن اُمّي عرياناً ، و عرياناً أعود في التراب و عرياناً اُحشر إلى الله و لو علم الله فيك أيّها الرجل خيراً لنقل روحك مع تلك الأرواح و صرت شهيداً و آجرني فيك ولكنّ الله علم فيك شرّاً فأخّرك فرجع إبليس إلى أصحابه خاسئاً مغموماً و لم يقدر شيئاً يتصرّف في شكر أيّوب عليه السلام .

(١) و هذا مخالف للعقل السليم ، ولا يستصوبه طبع مستقيم ؛ فان فيه هتك حرمة النبى الذى امر بتبليغ دين الله الى خلقه ، وتأليف القلوب الى احكامه وشرائعه . وهل يمكن التاليف مع تنفر الناس عنه ؟ و لا يعتقد به الا الذى فى قلبه مرض ، الذى لايرجو لله ولرسله وقاراً . و لم يكن ابتلاؤه عليه الصلاة والسلام الا لان يشاهد الناس عظيم صبره فى الله ، وانه بنيان مرصوص لاتذروه الرياح العاصفة صبور عند الهزاهز ، شكور لدى البلايا ، وقور فى المصائب . وسيوافيك روايات عن ائمة الدين عليهم السلام فيما قلنا .

فقال عفريت آخر : عندي من القوّة ما إذا لو شئت صحت صوتاً لا يسمعه ذوروح إلّا خرجت روحه فقال إبليس : فأت الغنم ، فانطلق فصاح بها فماتت و مات رعاؤها فخرج إبليس متمثّلاً بقهرمان الرعاة إلى أيّوب عليه السلام فقال له القول الأوّل و ردّ عليه أيّوب عليه السلام الردّ الأوّل فرجع إبليس صاغراً .

فقال عفريت آخر : عندي من القوّة ما إذا لو شئت تحوّلت ريحاً عاصفة أقلع كلّ شيء أتيت عليه ، قال : فاذهب إلى الحرث و الثيران[1] فأتاهم و أهلكهم ثمّ رجع إبليس متمثّلاً حتّى جاء إلى أيّوب عليه السلام و هو يصلّي فقال مثل قوله الأوّل فسمع مثل جوابه الأوّل فجعل إبليس يصيب أمواله شيئاً فشيئاً حتّى أتى آخرها .

فأتى على ولد أيّوب عليه السلام فإنّها الفتنة المضلّة و جاء إبليس إلى قصرهم فلم يزل يزلزله بهم من قواعده حتّى قلّب القصر عليهم . ثمّ جاء إلى أيّوب عليه السلام متمثّلاً بصورة المعلّم و هو جريح مشدوخ الرأس يسيل دمه و دماغه فقال : لو رأيت بنيك كيف انقلبوا منكوسين على رؤوسهم تسيل أدمغتهم من اُنوفهم لتقطّع قلبك فلم يزل يرقّقه حتّى رقّ أيّوب عليه السلام و بكى و قبض قبضة من التراب و وضعها على رأسه فاغتنم ذلك إبليس ثمّ لم يلبث أيّوب عليه السلام حتّى استغفر واسترجع .

و عن الكاظم عليه السلام : لمّا اشتدّ به البلاء في جسده و كان في اُخرياته جاءه أصحابه و قالوا : يا أيّوب ما نعلم أحداً ابتلي بمثل هذه البليّة إلّا لسريرة شرّ فلعلّك أسررت سوءاً فأبد لنا . فعند ذلك ناجى أيّوب عليه السلام ربّه عزّ و جلّ فقال : يا ربّ ابتليتني بهذه البليّة و أنت تعلم أنّه لم يعرض لي أمران قطّ إلّا التزمت أخشنهما على بدني و لم آكل اُكلة قطّ إلّا و على خواني يتيم ؛ فلو أنّ لي منك مقعداً نخصم لأدليت بحجّتي قال : فعرضت له سحابة فنطق فيها ناطق : يا أيّوب أدل بحجّتك ، قال : فشدّ عليه مئزره و جثا على ركبته فقال : ابتليتني بهذه البليّة و أنت تعلم أنّه لم يعرض لي أمران قطّ إلّا التزمت أخشنهما على نفسي و لم آكل اُكلة إلّا و على خواني يتيم ، قال: فقيل له : يا أيّوب من حبّب إليك الطاعة ؟ و في رواية : نودي من الغمامة بعشر آلاف

(١) جمع الثور : ذكر البقر .

لسان : يا أيّوب من صبّرك تعبد الله و الناس عنه غافلون ؟ أتمنّ على الله بما للّه فيه المنّة عليك ؟ قال : فأخذ عليه السلام كفاً من التراب و وضعه في فيه ثمّ قال : أنت يارب .

و عن الصادق عليه السلام : أنّ الله عزّ وجلّ ابتلى أيّوب بلا ذنب فصبرحتّى عيّروه إنّ الأنبياء لا يصبرون على التعيير .

و في الكافي عنه عليه السلام : إنّ الله يبتلي المؤمن بكلّ بليّة و يميته بكلّ ميتة و لا يبتليه بذهاب عقله أما ترى أيّوب كيف سلّط إبليس على ماله و أهله و على كلّ شيء منه و بدنه و لم يسلّط على عقله ليوحّد الله ؟

و في رواية : سلّط على أيّوب فشوّه خلقه ولم يسلّط على دينه .

و في الخصال عنه عن أبيه عليهما السلام قال : إن أيّوب عليه السلام ابتلي سبع سنين بغير ذنب و إنّ الأنبياء معصومون لايذنبون ولا يزيغون ولا يرتكبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً .

و قال عليه السلام : إنّ أيوب مع جميع ما ابتلي به لم ينتن له رائحة ولا قبحت له صورة ولا خرجت منه مدّة من دم وقيح ولا استقذره أحد رآه ولا استوحش منه أحد شاهده ولا تدوّد شيء من جسده و إنّما اجتنبه الناس لفقره و ضعفه في ظاهر أمره لجهلهم بماله عند ربّه .

و قد قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : أعظم الناس بلاءً الأنبياء ثمّ الأولياء ثمّ الأمثل فالأمثل ، و إنّما ابتلاه العظيم الّذي يهون معه على جميع الناس لئلاّ يدّعوا له معه الربوبيّة إذا شاهدوا ما أراد الله ذكره أن يوصله إليه من عظائم نعمه متى شاهدوه ليستدلّوا بذلك على أنّ الثواب من الله على ضربين : استحقاق و اختصاص ، و لئلاّ يحقروا ضعيفاً لضعفه ولا فقيراً لفقره و ليعلموا أنّه يسقم من يشاء ويشفي من يشاء متى شاء كيف يشاء بأيّ وجهشاء ويجعل ذلك عبرة لمن يشاء و شقاوة لمن يشاء باستحقاقه و سوء اختياره و سعادة لمن يشاء بحسن اختياره وصنيعه و هو عزّ وجلّ عدل في قضائه حكيم في أفعاله لا يفعل بعباده إلّا الأصلح لهم ولا قوّة إلّا بالله .

و في هذا الأمر أنّ بدن أيّوب نتن و تدوّد اختلاف شديد في الأخبار . والفيض قدّس سرّه قال في الصافي : لعلّ المراد بدنه الّذي قيل في الرواية الأولى أنّه لم ينتن

رائحته ولم يتدوّد بدنه الأصليّ الّذي يرفع من الأنبياء والأوصياء إلى السماء و ببدنه الّذي قيل في هذه الرواية : إنّه أنتن و تدوّد بدنه العنصريّ الّذي هو كالغلاف لذلك ولا مبالاة للخواصّ به فلا تنافي بين الروايتين (١) .

و بالجملة اختلف العلماء في لبث مرض أيّوب : المشهور سبع سنين و أشهراً .

و روى ابن شهاب عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : بقي أيّوب في البلاء ثماني عشر سنة .

و بالجملة لمّا أخرجوه من القرية قال الحسن : مكث أيّوب بعد ما أُلقي على الكناسة سبع سنين و أشهراً ولم يبق له ولد ولا مال ولا صديق غير امرأته « رحمة » بنت إفرائيم بن يوسف الصدّيق و كانت تأتيه بالطعام و تحمد الله مع أيّوب و كان مواظباً لحمد الله و الثناء عليه و الصبر على البلاء فصرخ إبليس صرخة جزعاً من صبر أيّوب فاجتمع جنوده من أقطار الأرض و قالوا له : ما جزعك ؟ قال : أعياني هذا العبد و ما أبقيت له شيئاً و لم يزدد بذلك إلّا صبراً و حمداً و هو مع صنيعي به كما ترون لا يفتر عن ذكر الله فاستعنت بكم لتعينوني عليه فقالوا له : أين مكرك ؟ أين عملك الّذي أهلكت به من مضى ؟ قال : بطل ذلك كلّه في أيّوب فأشيروا عليّ قالوا : آدم حين خرجته من الجنّة من أين أتيته ؟ قال : من قبل امرأته . قالوا : فشأنك بأيّوب من قبل امرأته فإنّه لا يستطيع أن يعصيها لأنّه لا يقربه أحد غيرها قال : أصبتم ، فانطلق حتّى أتى امرأته فتمثّل لها في صورة رجل فقال : أين بعلك يا أمة الله ؟ قالت : هو هذا يحكّ قروحه و يتردّد الديدان في جسده فلمّا سمعها طمع أن يكون ذلك جزعاً فوسوس إليها و ذكّرها ما كان لها من النعم والمال و ما كان من شباب أيّوب وجماله .

قال الحسن : فصرخت رحمة فعلم إبليس أنّها جزعت فأتاها بسخلة و قال : ليذبح هذه لي أيّوب ويبرأ ، قال : فجاءت إلى أيّوب تصرخ وقالت : يا أيّوب حتّى متى يعذّبك

(١) فيه تعسف وتكلف ، و عويصة تنفر الناس عن الرسول الذى ارسل اليهم وتحمل اعباء الرسالة لهدايتهم باقية على حالها . و ليت شعرى ؛ ما يمنع من ضرب امثال هذه الروايات على الجدار ؟

ربّك ألّا يرحمك ؟ اذبح هذه السخلة و استرح فقال أيّوب : أتاك عدوّالله و نفث فيك فاجتنبه و يلك أترين ما تبكين عليه من ذهاب المال و الولد و الصحّة من أعطانا ذلك ؟ قالت الله، قال : فكم متّعنا به ؟ قالت : ثمانين سنة ، قال : منذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء ؟ قالت: سبع سنين و أشهر ، قال : و يلك ما أنصفت ربّك إلّا صبرت في البلاء ثمانين سنة كما كنّا في الرخاء ثمانين سنة ؟ والله لئن شفاني الله لأجلدنّك جلدة أمرتني أن أذبح لغير الله و حرام عليّ أن أذوق بعد هذا شيئاً من طعامك و شرابك الّذي تأتيني به فطردها فذهبت فلمّا نظر أيّوب عليه السلام في شأنه و ليس عنده طعامٌ و لاشرابٌ و لاصديقٌ و قد ذهبت امرأته خرّ ساجداً وقال :

[ربّ إنّي مسّني الضرّ و أنت أرحم الراحمين] فقال : ارفع رأسك فقد استجبت لك ، اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين ماء فاغتسل منها فلم يبق في ظاهر بدنه دابّة إلّا سقطت منه ثمّ ضرب رجله مرّة اُخرى فنبعت عين اُخرى فشرب منها فلم يبق في جوفه داء إلّا خرج و قام صحيحاً و عاد شبابه و جماله حتّى صار أحسن ماكان ثمّ كسي حلّة فلمّا قام جعل يلتفت فلا يرى شيئاً ممّا كان له من الأهل و الولد والمال إلّا وقد ضعّفه الله تعالى حتّى صار أحسن ممّا كان حتّى ذكر أنّ الماء الّذي اغتسل منه تطاير على صدره جراداً من ذهب فجعل يضمّه بيده فأوحى الله إليه : يا أيّوب ألم اُغنيك ؟ قال : بلى و لكنّها بركتك فمن يشبع منها ؟

قال : فخرج أيّوب عليه السلام حتّى جلس على مكان مشرف . ثمّ إنّ امرأته قالت : هب إنّه طردني أفأتركه حتّى يموت جوعاًوتأكله السباع ؟ لأرجعنّ إليه فلمّا رجعت ما رأت تلك الكناسة و لا تلك الحال و إذاً بالاُمور تغيّرت فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة و تبكي و ذلك بعين أيّوب عليه السلام فأرسل إليها أيّوب عليه السلام و دعاها و قال : ما تريدين يا أمةالله ؟ فبكت وقالت : أردت ذلك المتبلي الملقى على الكناسة ، فقال أيّوب : ما كان منك ؟ فبكت و قالت : بعلي ، فقال : أتعرفينه إذا رأيته ؟ قالت : و هل يخفى على أحد يراه ؟ فتبسّم وقال : أنا هو فعرفته بضحكه فاعتنقته ثمّ قال : إنّك أمرتني أن أذبح سخلة لإبليس و إنّي أطعت الله و عصيت الشيطان و دعوت إليه فردّ عليّ ماترين .

و قال وهب : كانت امرأة أيّوب تعمل للنّاس و تأتيه بقوته فلمّا طال عليه البلاء سئمها الناس فلم يستعملوها فالتمست ذات يوم شيئاً من الطعام فلم تجدشيئاً فجزّت قرناً من رأسها فباعته برغيف أو أخذوا في عرس لعروس منها و أعطوها شيئاً من طعام فأتته به فقال لها : أين قرنك فأخبرته فحينئذٍ قال : « ربّ إنّي مسّني الضرّ و أنت أرحم الراحمين » .

و اعلم أنّ المعتزلة قد طعنوا في هذه القصّة بهذا الترتيب كالجبّائي و أمثاله من وجوه :

أحدها : قال الجبّائي : ذهب بعض الناس إلى أنّ ما كان به من المرض كان فعلاً للشيطان سلّطه الله عليه لقوله تعالى حكاية عنه : « مسّني الشيطان بنصب وعذاب[1] » أمّا أوّلاً لأنّه لوقدر على إحداث الأمراض و الأسقام و ضدّهما من العافية لتهيّأ له فعل خلق الأجسام و من كان هذا فعله و حاله يكون إلهاً و أمّا ثانياً فلأنّ الله أخبر عنه و عن جنوده بأنّه قال : « و ما كان لي عليكم من سلطان[2] » . و أمّا ثالثاً قالوا : انتهاء ذلك المرض إلى حدّ التنفّر عنه غير جائز لأنّ الأمراض المنفّرة من القبول غير جائزة على الانبياء .

و اُجيب عن الأوّل والثاني أن لو فرضنا حصول استرخاص إبليس من الله فحينئذٍ إيقاع السقم و السلطة ليس من إبليس بل من الله انتهى .

قوله تعالى : [فاستجبناله] دعاءه ، و قلنا : ارفع رأسك و اركض برجلك إلى الأرض و أزلنا ما به من الأوجاع [و آتيناه أهله] قال ابن مسعود و ابن عبّاس : ردّ الله عليه أهله الّذين هلكوا بأعيانهم و أعطاه مثلهم معهم ولذلك ردّالله عليه أمواله ومواشيه بأعيانها و أعطاه مثلها معها و هو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام . و قيل : إنّه خيّر أيّوب عليه السلام فاختار إحياء أهله في الآخرة و مثلهم في الدنيا فاُوتي على ما اختار و كان له سبع بنات وثلاث بنين .

---

(١) ص : ٤١ .
(٢) ابراهيم : ٢٢ .

[رحمة من عندنا] أي نعمة منّا عليه [وذكرى للعابدين] و موعظة لهم في الصبر و التوكّل عليه لأنّه لم يكن في عصر أيّوب عليه السلام أحد أكرم منه عند الله فابتلاه الله بهذه المحن العظيمة فأحسن الصبر عليها فينبغي لكلّ عاقل إذا أصابته مصيبة أن يصبر عليها و لايجزع و يعلم أنّ عاقبة الصبر محمودة .

قوله : [و إسماعيل و إدريس و ذا الكفل] اي واذكر هؤلاء الأنبياء و ما أنعمت عليهم من فنون النعمة بأنّهم كانوا من الصابرين على الشدائد و المحن والعبادة .

أمّا إسماعيل فلأنّه صبر على الانقياد للذبح و الإقامة ببلد لازرع فيه و لا ضرع ولا بناء ، وصبرعلى بناء البيت فأكرمه الله تعالى و أخرج من صلبه خاتم النبيّين صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وأمّا إدريس عليه السلام فقد تقدّمت قصّته في سورة مريم ، بعث إلى قومه داعياً لهم إلى الله فأبوا فأهلكهم الله و رفع إدريس إلى السماء الرابعة .

و أما ذوالكفل و قيل : في تسميته بهذا الاسم وجوه : أحدها أنّه كان ضعّف عمل الأنبياء في زمانه و ضعّف ثوابهم . وثانيها عن ابن عبّاس : إنّ نبيّاً من أبناء بني إسرائيل آتاه الله الملك والنبوّة ثمّ أوحى الله إليه : إنّي اُريد قبض روحك فاعرض ملكك على بني إسرائيل فمن تكفّل لك أنّه يصلّي باللّيل حتّى يصبح و يصوم بالنهار فلا يفطر و يقضي بين النّاس فلا يغضب فادفع ملكك إليه ، فقام ذلك النبيّ في بني إسرائيل و أخبرهم بذلك فقام شابّ و قال : أنا أتكفّل لك بهذا فقال : في القوم من هو أكبر منك فاقعد ، ثمّ صاح الثانية و الثالثة فقام الشابّ و قال : أنا أتكفّل لك بهذه الثلاث فدفع إليه ملكه و وفى بما ضمن فحسده إبليس فأتاه وقت ما يريد أن يقيل [1] فقال : إنّ لي غريماً قد مطلني حقّي و قد دعوته إليك فأبى فأرسل معي من يأتيك به فأرسل معه وقعد حتّى فاتته القيلولة و عاد إلى صلاته و صلّى ليله إلى الصباح ثمّ أتاه من الغد عند القيلولة و قال : إنّ الرجل الّذي استأذنتك له هو في موضع كذا فلاتبرح من مكانك حتّى آتيك به فذهب و بقي هو منتظراً حتى فاتته القيلولة ثمّ أتاه فقال له : هرب منّي فمضى ذوالكفل إلى صلاته فصلّى ليلة حتّى أصبح فأتاه إبليس و عرّفه نفسه و قال له :

(١) اى وقت نوم القيلولة .

حسدتك على عصمة الله إيّاك فأردت أن اُخرجك حتّى لا تفي بما تكفّلت به ، فشكره الله سعيه على ذلك الأمر و نبّأه فسمّي ذا الكفل و على هذا فالمراد بالكفل هنا الكفالة .

قال الرازيّ : و كذلك ذكر عليّ أمير المؤمنين أيضاً كما ذكر ابن عبّاس لكن زاد : إنّ ذا الكفل قال للبوّاب في اليوم الثالث و قد غلب عليه النعاس : لا تدعنّ أحداً يقرب هذا الباب حتّى أنام فإنّي قد شقّ عليّ النعاس ، فجاء إبليس فلم يأذن له البوّاب فدخل من كوّة في البيت و تسوّر فإذا هو يدقّ الباب فاستيقظ الرجل وعاتب البوّاب فقال : أما من قبلي فلم يؤت فقام إلى الباب فإذا هو مغلق و إبليس على صورة شيخ معه في البيت فقال له : أتنام و الخصوم على الباب ؟ فعرفه و قال : أنت إبليس ؟ قال : نعم أعييتني في كلّ شيء فعلت ، و فعلت هذه الأفعال لأغضبنّك فعصمك الله منّي ، فسمّي ذا الكفل لانّه و في بما تكفّل .

و قيل : إنّه لم يكن نبيّاً ولكن كان عبداً صالحاً . وهذا القول بمعزل عنه وضعيف لأنّه في الآية في عداد الأنبياء و القول كقائله وهو أبو موسى الأشعريّ .

و ذوالكفل إمّا اسم أو لقب و الكفل معناه النصيب و إنّما ذكرنا أنّه كان عمله مضاعفاً و ثوابه ضعف ثواب غيره فعلى هذا التقدير يكون نبيّاً لأنّه كان في زمنه أنبياء على ما روي و من ليس بنبيّ لا يكون عمله أفضل من الأنبياء على أنّ السورة ملقّبة بالأنبياء فكلّ من ذكره الله فيها نبيّ .

وقيل : إنّ ذا الكفل زكريّا ، و قيل : يوشع ، و قيل : إلياس ، ثمّ قالوا : خمسة من الأنبياء سمّاهم الله باسمين : إسرائيل و يعقوب ، إلياس و ذوالكفل ، عيسى و المسيح ، يونس و ذوالنّون ، محمّد وأحمد صلّى الله عليه وآله [و كلّ من الصابرين] .

و في كتاب النبوّة بالإسناد عن عبدالعظيم بن عبدالله الحسنيّ قال : كتبت إلى أبي جعفر عليه السلام أسأله عن ذي الكفل ما اسمه ؟ وهل كان من المرسلين ؟ فكتب : إنّ الله بعث مائة ألف نبيّ و أربعة و عشرين ألف نبيّ ، المرسلين منهم ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلاً و إنّ ذا الكفل كان منهم و كان بعد سليمان بن داود وكان يقضي بين الناس كما يقضي داود و لم يغضب قطّ إلّا لله و كان اسمه عدويا بن ادار بن الي ، انتهى .

[و أدخلناهم] المذكورين من الأنبياء [في رحمتنا] و غمرناهم في نعمنا لأنّهم صلحت أعمالهم و كانوا من الصالحين .

قوله تعالى : و ذا النون اذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين (٨٧) فاستجبناله و نجيناه من الغم و كذلك ننجى المؤمنين (٨٨) و زكريا اذنادى ربه رب لا تذرنى فرداً و انت خير الوارثين (٨٩) فاستجبناله و وهبنا له يحيى و أصلحنا له زوجه انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين (٩٠) .

المعنى : [و ذا النون] صاحب الحوت الّذي حبس في بطنه و هو يونس بن متّى [إذ ذهب مغاضباً] لقومه لمّا برم و أصرّ في إيمانهم و طال دعوته لهم و شدّ شكيمتهم و طغيانهم و لم تقبلوا أمره فهاجرهم قبل أن يؤمر بالهجرة [فظنّ أن لن] نضيق عليه أو أن لن نقضي عليه بالعقوبة من القدر لامن القدرة أو المعنى ظنّ أن لن نعمل قدرتنا أو المعنى : هو تمثيل لحاله بحال من ظنّ أن لن نقدر عليه في إعراضه قومه من غير أمرنا و انتظاراً لإذن منّا ، أوسبقت خطرة شيطانيّة إلى وهمه فسمّي ظنّاً للمبالغة ، والقدر بمعنى القضاء .

و من فسّر الآية بأنّه خرج مغاضباً لربّه و أنّه ظنّ أن لن يقدر الله على أخذه فقد أساء الثناء على الأنبياء و أنّه نسب إليهم الكفر فضلاً عن الكبيرة لأنّه نسب العجز إلى الله تعالى الله عن العجز و تعالى الأنبياء عن هذه النسبة .

و قيل : إنّه استفهام معناه التوبيخ و حذف حرف الاستفهام و تقديره : أفظنّ أن لن نقدر عليه ، و قد جاء في كلام العرب حذفه كقول عمر بن أبي ربيعة :

ثمّ قالوا تحبّها قلت بهراً * عدد القطر والحصى والرمال

و أصله : أتحبّها ، و أنكر جماعة هذا التأويل مثل عليّ بن عيسى و غيره .

[فنادى في الظلمات] ظلمة الليل وظلمة البحر و ظلمة بطن الحوت ؛ و قيل : كان في بطن حوت و حوت في بطن حوت . و بالجملة فاختلفوا في أنّ وقوعه في بطن السمكة كان قبل اشتغاله بأداء الرسالة أو بعده : أمّا القول الأوّل فقال ابن عبّاس : كان يونس

عليه السلام و قومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك و سبى منهم تسعة أسباط و نصفاً وبقي سبطان و نصف فأوحى الله إلى شعيب النبيّ عليه السلام أن اذهب إلى حزقيل الملك و قل له حتّى يوجّه نبيّاً قويّاً أميناً فإنّي اُلقي في قلوب اُولئك أن يرسلوا معه بني إسرائيل فقال له الملك : فمن ترى ؟ - و كان في مملكته خمسة من الأنبياء - فقال : يونس بن متّى فإنّه قويّ أمين فدعا الملك و هو حزقيل يونس و أمره أن يخرج فقال يونس : هل أمرك الله بإخراجي ؟ قال : لا ، قال : فهل سمّاني لك ؟ قال : لا ، قال : فههنا أنبياء غيري فألحّ عليه فخرج مغاضباً للملك و لقومه .

فأتى بحر الروم فوجد قوماً هيّؤوا سفينة فركب معهم فتلجلجت السفينة و كادوا أن يغرقوا فقال الملّاحون : ههنا رجل عاص أو عبد آبق ؛ لأنّ السفينة لا تفعل هذا من غير ريح إلّا و فيها رجل عاص و من رسمنا أنّنا إذا ابتلينا بمثل هذا البلاء أن نقترع فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر ولأن يغرق واحد خير من أن تغرق السفينة فاقترعوا ثلاث مرّات فوقعت القرعة فيها كلّها على يونس فقال : أنا الرجل العاصي والعبد الآبق و ألقى نفسه في البحر فجاء حوت فابتلعه فأوحى الله إلى الحوت : لا تؤذ منه شعرة فإنّي جعلت بطنك سجناً له ولم أجعله طعاماً لك .

ثمّ لمّا نجّاه الله من بطن الحوت نبذه بالعراء كالفرخ المنتوف فأنبت الله عليه شجرة من يقطين يستظلّ بها ويأكل من ثمرها حتّى اشتدّ فلمّا يبست الشجرة حزن عليها يونس فقيل له : أتحزن على شجرة ولم تحزن على مائة ألف أو يزيدون ؟ حيث لم تذهب إليهم ولم تطلب راحتهم .

ثمّ أوحى الله إليه و أمره أن يذهب إليهم فتوجّه يونس عليه السلام نحوهم حتّى دخل أرضهم و هم منه غير بعيد فأتاهم يونس و قال لملكهم : إنّ الله أرسلني إليك لترسل معي بني إسرائيل فقالوا : ما نعرف ما تقول ، ولو علمنا أنّك صادق لفعلنا و لقد أتيناكم في دياركم وسبيناكم فلو كان كما تقول لمنعنا الله عنكم ، فطاف ثلاثة أيّام يدعوهم إلى ذلك فأبوا عليه فأوحى الله إليه : قل لهم : إن لم تؤمنوا جاءكم العذاب ، فأبلغهم فأبوا فخرج من عندهم فلمّا فقدوه ندموا على فعلهم فانطلقوا يطلبونه فلم يقدروا عليه .

ثمّ ذكروا أمرهم و أمر يونس للعلماء الّذين كانوا في دينهم فقالوا: انظروا و اطلبوه في المدينة فإن كان فيها فليس ممّا ذكر من نزول العذاب و إن كان قد خرج فهو كما قال فطلبوه فقيل لهم: إنّه خرج العشيّ فلمّا أيسوا أغلقوا باب مدينتهم فلم يدخلها بقرهم و لاغنمهم و عزلوا الوالدة عن ولدها و كذا الصبيان و الاُمّهات ثمّ قاموا ينتظرون الصبح فلمّا انشقّ الصبح رأوا العذاب ينزل من السماء فشقّوا جيوبهم و وضعت الحوامل ما في بطونها و صاح الصبيان و ثغت الأغنام والبقر فرفع الله العذاب عنهم فبعثوا إلى يونس فآمنوا به وبعثوا معه بني إسرائيل.

فعلى هذا القول كانت رسالة يونس بعدما نبذه الحوت و في هذا القول رواية اُخرى و هي أنّ جبرئيل قال ليونس عليه السلام: انطلق إلى أهل نينوى و أنذرهم أنّ العذاب قد حضرهم، فقال يونس عليه السلام: التمس لي دابّة، فقال: الأمر أعجل من ذلك، فغضب وانطلق إلى السفينة و باقي الحكاية كما مرّ إلى أن التقمه الحوت فانطلق إلى أن وصل نينوى فألقاه هناك.

و احتجّ القائلون بجواز الذنب على الأنبياء بهذه الآية من وجوه و انتهزوا فرصة في الأمر:

أحدها: أنّهم فسّروا أنّه ذهب مغاضباً لربّه وهذا من أعظم الذنوب.

و الجواب أنّ المغاضبة لم تكن مع الله لأنّه ليس في الآية أنّ يونس من غاضب لكنّا نقطع أنّه لايجوز على نبيّ الله أن يغاضب ربّه بل للمؤمن لا يجوز هذا الأمر فضلاً من أن يكون نبيّاً لقوله: «و ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله و رسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم[1]» فحينئذ لا يجوز صرف هذه المغاضبة إلى الله فوجب أن يكون المراد أنّه خرج مغاضباً لمن يعصيه فيحتمل قومه أو الملك أوهما جميعاً.

و ثانيها: قوله تعالى: «فظنّ أن لن نقدر عليه».

و قد أجبنا عن هذه الشبهة و غيرها في أوّل تفسير الآية حيث فسّر القدر بالتقدير لا بالقدرة كقوله تعالى: «الله يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر[2]» أي يضيق «ومن قدر عليه

(١) الاحزاب: ٣٦.
(٢) الرعد: ٢٨.

رزقه[1]، أي ضيّق و على قول من يقول : إنّه خطرة بوسوسة الشيطان سبقت إلى وهمه و كان ذلك قبل رسالته فردّها بالحجّة فحينئذٍ لا يقع إلّا ترك الأولى .

وأمّا إقراره بالظلم فلاشكّ أنّه كان تاركاً للأفضل مع القدرة على تحصيل الأفضل فكان ذلك ظلماً بالنسبة إليه . و أمّا حبسه في بطن الحوت لا نسلّم أنّه عقوبة إذ الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا بل للمحنة و الامتحان . و أمّا قوله : و هو مليم والمليم أي ذو الملامة و ليس ملازمة بين الملامة و وجود الذنب و إنّما يحصل بسبب ترك الأفضل .

و ممّا يدلّ على أنّ مراد يونس في قوله : « فظنّ أن لن نقدر عليه » أنّه ماظنّ العجز بالنسبة إلى الله قوله [سبحانك] و تقديره : أُنزّهك أن تفعل ذلك جوراً و شهوة وعجزاً بل فعلته بمقتضى الإلهيّة و الحكمة .

و أمّا قوله : [إنّي كنت من الظالمين] فالمعنى : ظلمت نفسي بفراري من قومي بغير إذنك و ما كان لي أن أفعل ذلك من عند نفسي و أنا الآن من النادمين على هذا الفعل و ليس المعنى أنّه فعل كبيرة و أقرّ بها كمازعمه القائلون بصدور الذنب عنه فوصف ربّه بكمال الربوبيّة بقوله «لا إله إلّا أنت» و وصف نفسه بقوله : «إنّي كنت من الظالمين » بالقصور عن أداء حقّ الربوبيّة .

فاستجاب الله دعاءه و نجّاه الله برحمته . و كما أنجينا يونس من كرب الحبس في بطن الحوت إذ دعانا [كذلك ننجي المؤمنين] من كربهم إذا استغاثوا بنا ، عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : مامن مكروب يدعو بهذا الدعاء إلّا استجيب له وعن الحسن ما نجّاه الله إلّا بإقراره على نفسه بالظلم .

قوله : [وزكريّا إذ نادى] القصّة التاسعة قصّة زكريّا و كان سنّه مائة سنة و زوجته تسع و تسعون أو ثمان و تسعون سنة لمّا دعا بهذا الدعاء و مسّه الضرّ بتفرّده و أحبّ أن يعطيه الله و لداً يقوّيه على أمر دينه و يكون قائماً مقامه ، و كان دعاؤه : [ربّ لاتذرني فرداً] بغير ولد يعينني في حياتي و يرثني في مماتي [و أنت خير الوارثين] .

[فاستجبناله] و فعلنا ما أراده لأجل سؤاله و في ذلك البيان إعظام له [و وهبنا له يحيى] فهو كالتفسير للاستجابة [وأصلحنا لهزوجه] بأن كانت عقيمة فجعلناها ولوداً ،

(١) الطلاق : ٧ .

و كانت هرمة فعاد عليها شبابها : وقيل : كانت سيّئة الخلق فصارت حسنة الخلق .

قوله : [إنّهم كانوا يسارعون] إنّ الأنبياء الّذين تقدّم ذكرهم كانوا يبادرون في الطاعات و العبادات [و يدعوننا] و يعبدوننا رغبة في الثواب و رهبة و خوفاً من العقاب لوقوع التقصير . ولعلّ المراد رغبتهم في الطاعة ورهبتهم من المعصية لا أنّهم يعبدون رغبة للثواب و رهبة من العقاب لارتفاع مقام الأنبياء عن ذلك .

قال أمير المؤمنين : ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً لجنّتك بل وجدتك أهلاً للعبادة و هذا مدح لهم في حرصهم على العبوديّة والطاعة .

[و كانوا لنا خاشعين]والخاشع هو الحذر الّذي لا يبسط في الأمور خوفاً من الإثم

قوله تعالى : و التى احصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا و جعلناها و ابنها آية للعالمين(٩١) ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون(٩٢) و تقطعوا أمرهم بينهم كل الينـا راجعون (٩٣) فمن يعمل من الصالحات و هو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون (٩٤) و حرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون (٩٥) .

هذه القصّة العاشرة . التقدير :

[و] اذكر [الّتي أحصنت فرجها] إحصاناً كلّيّاً من الحلال و الحرام جميعاً كما قالت : « ولم يمسسني بشر ولم أك بغيّاً [1] » حتّى من نفخ جبرئيل قبل أن تعرفه حيث منعته من جيب درعها و بعد أن نفخ جبرئيل في جيب درعها وصل النفخ في جوفها و هذا معنى : [فنفخنا فيها من روحنا] .

[و جعلناها و ابنها آية للعالمين] أمّا آيات عيسى فمعلومة و ليست واحدة وعشرة بل أكثر و أمّا آيات مريم أيضاً كثيرة : أحدها ظهور الحبل فيها بنفخ جبرئيل من غير ذكر . و أنّ رزقها كان يأتيها به الملائكة من الجنّة و هو قوله : « أنّى لك هذا قالت هو من عند الله [2] » و قيل : إنّها لم تلتقم ثدياً يوماً قطّ و تكلّمت هي أيضاً في صباها

(١) مريم ٢١ .
(٢) آل عمران ٣٣ .

كما تكلّم عيسى و إنّما قال«آية» ولم يقل«آيتين» لأنّه في موضع دلالة فلا يحتاج أن يثنّى في الآية و ههنا آخر القصص.

[إنّ هذه اُمّتكم اُمّة واحدة] الأمّة الملّة و هو إشارة إلى دين الإسلام أي إنّ ملّة الإسلام هي ملّتكم الّتي يجب أن تكونوا عليها يشار إليها بملّة واحدة غير مختلفة [و أنا ربّكم] و إلهكم واحد [فاعبدون * و تقطّعوا أمرهم] والأصل وتقطّعتم إلّا أنّ الكلام صرف إلى الغيبة للالتفات كأنّه ينقل عنهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم و يقول : ألا ترون إلى عظم ما ارتكبوا هؤلاء.

و حاصل المعنى : جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً كما تتوزّع الجماعة الشيء و يقسّمونه فيصيرلهذا نصيب ولذلك نصيب تمثيلاً لاختلافهم فيه و صيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتّى و يلعن بعضهم بعضاً و يتبرّأ بعضهم بعضاً فهذا الوضع بمنزلة التقطيع.

ثمّ قال :[كلّ إلينا راجعون] على سبيل التهديد أي اجتمعتم إذا فرقتم راجعون إلى حكمنا في الوقت الّذي لا يقدر على الحكم سوانا فنجازيهم بأعمالهم.

[فمن يعمل من الصالحات] شيئاً مثل صلة الرحم و معونة الضعيف ونصر المظلوم و التنفيس عن المكروب وغير ذلك من أنواع الطاعات بشرط أن يكون مؤمناً بالله ومصدّقاً برسوله [فلا كفران] و بطلان لثواب عمله و ليس هو محروماً عنه [و إنّا له كاتبون] أي نأمر ملائكتنا أن يكتبوه ولانضيع من عمله شيئاً وضامنون لجزائه و نكتب عمله إمّا في اللوح المحفوظ أو في الصحف الّتي تعرض يوم القيامة.

قوله تعالى : [وحرام على قرية أهلكناها] وحرام خبرو المبتدء إمّا قوله : [أنّهم لايرجعون] أوشيء آخر على اختلاف المعنى «ولا» مزيدة مثل «مامنعك أن لاتسجد»(١) فحينئذ تقدير الآية: حرام وممتنع رجوعهم إلى الدنيا أو إلى التوبة وقيل : إنّ «لا» غيرزائدة ومعناها أي حرام وممتنع عدم رجوعهم للجزاء. وقال أمير المؤمنين في خطبة الجمعة: ألم تروا الماضين منكم لا يرجعون و إلى الخلف الباقين منكم لا يبقون قال الله تعالى : و حرام على قرية أهلكناها أنّهم لا يرجعون. وهذا المعنى يؤيّد المعنى الأوّل لا الثاني و قيل : معناه :

(١) الاعراف : ١١ .

حرام على قرية أهلكناها أن يتقبّل منهم عمل لأنّهم لا يرجعون أي لا يتوبون أبداً .

و قرىء : «و حرم على قرية» أي كتب على من اُهلك أن لا يرجع إلى الدنيا قضاء من الله حتماً و في ذلك تخويف لكفّار مكّة بأنّهم لو عذّبوا و اُهلكوا لم يرجعوا إلى الدنيا كغيرهم من الاُمم المهلكة و قد جاء الحرام بمعنى الواجب في الاستعمال قالت الخنساء :

و إنّ حراماً لا أرى الدهر باكياً ❊ على شجوة إلّا بكيت على عمرو

و أمّا الاستعمال فلأنّ تسمية أحد الضدّين باسم الآخر مجاز مشهور فإذن وإنّ حراماً أي و إنّ واجباً مثل « وجزاء سيّئة سيّئة » (١).

و بالجملة إنّ الاختلاف في المعنى بسبب اختلاف كون « لا » مزيدة و غير مزيدة و إنّهم بالكسر و أنّهم بالفتح فتأمّل .

قال أبو مسلم بن بحر : تقدير الآية أنّ عدم رجوع الهالكين ممتنع فيكون حينئذ رجوعهم واجباً في الآخرة و الغرض من البيان إبطال قول من ينكر البعث و يكون الحضور بعد فتح يأجوج .

قوله تعالى : حتى اذا فتحت يأجوج و مأجوج و هم من كل حدب ينسلون (٩٦) و اقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين (٩٧) انكم و ما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون (٩٨) لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها و كل فيها خالدون (٩٩) لهم فيها زفير و هم فيها لا يسمعون (١٠٠) ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون (١٠١) لا يسمعون حسيسها و هم فيما اشتهت أنفسهم خالدون (١٠٢) لا يحزنهم الفزع الاكبر و تتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون (١٠٣) .

المعنى : على قول أبي مسلم أنّهم يرجعون أحياءً بعد الممات للمجازاة و ذلك الرجوع يكون وقت فتح سدّ يأجوج و مأجوج بسقوط أو كسر أو هدم أو غير ذلك و ذلك من أشراط الساعة و تأنيث «فتحت» لأنّ يأجوج و مأجوج بمنزلة القبيلتين

---

(١) الشورى : ٤٠ .

أو المراد جهة يأجوج و مأجوج و حذف المضاف و هو سدّ يأجوج قيل : السدّ يفتحه الله ابتداءً، و قيل : بل إذا جعل الله الأرض دكّاً زالت الصلابة عن أجزاء الأرض فحينئذ ينفتح السدّ .

[و هم من كلّ حدب ينسلون] قيل : و المراد من الضمير في قوله «وهم» كناية عن يأجوج و مأجوج من كلّ نشزة و ارتفاع و علوّ يسرعون إلى الورود و المحابطة في الناس و يتفرّقون في الأرض فلا ترى وادياً إلّا وقوم منهم يهبطون فيهامسرعين وقيل: الضمير كناية عن الخلق يخرجون من قبورهم إلى الحشر فعلى هذا المعنى الثاني تكون الآية على قراءة ابن عبّاس : وهممن كلّ حدب ينسلون أي القبر و يؤيّده قوله تعالى : « فإذا هم من الأجداث إلى ربّهم ينسلون (١) » .

[واقترب الوعدالحق] ولا شبهة أنّ الوعدالحقّ يوم القيامة و اقترب قيام الساعة فتشخص أبصار الكفّار من شدّة أهوال ذلك اليوم يقولون : [يا ويلنا] والويل لنا [قد كنّا في غفلة] في الدنيا [من هذا] الأمر حيث كذّبناه و قلنا : إنّه غير كائن بل ظلمنا أنفسنا بتلك الغفلة و بتكذيب الرسل و عبادة الأوثان و بمخالفة ما اُمرنا .

قوله : [إنّكم و ما تعبدون من دون الله] الخطاب لمشركي قريش ؛ روي أنّه ﷺ دخل المسجد و صناديد قريش في الحطيم و حول الكعبة ثلاث مائة و ستّون صنماً فجلس إليهم فعرض له النضربن الحارث فكلّمه رسول الله فأفحمه ثمّ تلا عليهم هذه الآية : « إنّكم و ما تعبدون من دون الله حصب جهنّم » و قرىء « حطب جهنّم » والمراد من الحصب الرمي و المراد أنّهم يرمون في جهنّم كما ترمى بالحصباء .

فإن قيل : أيّ فائدة في إدخال الأصنام النار ؟ فالفائدة : يعذّب بها المشركون الّذين عبدوها خصوصاً .

و بالجملة فلمّا تلا رسول الله ﷺ الآية و أفحم نضراً أقبل عبدالله بن الزبعرى فرآهم يتهامسون فقال : فيمَ خوضكم ؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله ﷺ فقال عبد الله : أما و الله لووجدته لخصمته فدعوه فقال ابن الزبعرى : ءأنت قلت ذلك ؟

(١) يس : ٥١ .

قال ﷺ : نعم . قال : قد خصمتك ورب الكعبة ، أليس اليهود عبدوا عزيراً ، والنصارى عبدوا المسيح ، وبنو فليح عبدوا الملائكة ؟ فأجاب ﷺ : بل هم عبدوا الشياطين الّتي أمرتهم بذلك فأنزل الله هذه الآية : [إنّ الّذين سبقت لهم منّا الحسنى أُولئك عنها مبعدون] الآية ، يعني عزيراً و المسيح والملائكة .

و إنّما كان مقصود ابن الزبعرى أن يفحم النبيّ ﷺ بأنّ لازم هذه الآية أنّ عزيراً و عيسى عليهما السلام و الملائكة حينئذ حصب جهنّم عناداً بالله فأجابهم ﷺ بأنّ معبودهم الشياطين ثمّ نزلت الآية : « إنّ الّذين سبقت لهم منّا الحسنى » فنزّهتهم الآية .

و اعلم أنّ كلام ابن الزبعرى ساقط بالكلّيّة من وجوه : الأوّل أنّ الخطاب لقريش و مشركي مكّة و هم كانوا يعبدون الأصنام فقط . والثاني أنّه تعالى لم يقل : و من تعبدون بل قال : و « ما تعبدون » و كلمة «ما» لاتتناول العقلاء أمّا قوله « والسماء و ما بناها [1] » وقوله « لا أعبد ما تعبدون [2] » محمول و مفسّر بشيء والشيء لا يفيد العموم فلا يتوجّه سؤال ابن الزبعرى ، و لو أفاد الشيء معنى العموم فخصّ بالدلائل العقليّة و السمعيّة في حقّ الملائكة و المسيح و عزير فوعدهم الله إيّاهم بكلّ مكرمة فعلى الفرض فخرجوا بدليل منفصل فحينئذ لايرد إيراد اللعين .

و الحكمة في أنّهم قرنوا بآلهتهم أنّهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غمّ وحسرة لأنّهم ما وقعوا في ذلك العذاب إلّا بسببهم والمقارنة إلى العدوّ والنظر إلى وجه العدوّ باب من العذاب قيل : و ما كان حديداً منها أو حجراً يحمى و يلتزق بعبّادها ، وما كان خشباً يجعل جمرة يعذّب بها صاحبها استهزاءً ، و معنى حصب جهنّم المراد : يقذفون في النّار فلمّا رمي بهم كرمي الحصباء جعلهم «حصب» تشبيهاً .

و اللام في قوله : [أنتم لها واردون] معوّضة من «على» للدلالة على الاختصاص ، و لبيان أنّ ورودهم لأجلها و الخطاب لهم و يشمل الأصنام تغليباً .

فإن قيل : الشياطين عقلاء و لفظ « ما » لا يتناولهم فكيف قال الرسول ذلك ؟

(١) الشمس : ٦ .
(٢) الكافرون : ٢ .

قلنا : و ما تعبدون بالأصنام أليق لكلمة « ما » و قوله : « لو كان هؤلاء آلهة » بالشياطين أليق لكلمة هؤلاء فيعمّ الشياطين والأصنام .

و في الآية بيان أنّ من يرمى في النار لا يمكن أن يكون إلهاً فقال تعالى في مقام الاستدلال : [لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها] و ما دخل عابدوها في النار لكنّهم وردوها فهم ليسوا آلهة .

ثمّ وصف سبحانه عذاب العابد و المعبود بأُمور ثلاثة :

أحدها : الخلود فقال : [و كلّ فيها خالدون] يعني العابدين و المعبودين وهو تفسير لقوله : « إنّكم و ما تعبدون من دون الله » .

و ثانيها : قوله : [لهم فيها زفير] الزفير هو اللهيب أي يرتفعون بسبب لهب النار حتّى إذا ارتفعوا و رجوا الخروج ضربوا بمقامع الحديد فهووا إلى أسفلها سبعين خريفاً قال الخليل : الزفير أن يملأ الرجل صدره غمّاً ثمّ يتنفّس .

و ثالثها : [و هم فيها لايسمعون] و الضمير فيه قيل : راجع إلى الأصنام والمعبودين أي لا يسمعون صراخ المعذّبين و شكواهم أي ولا يغيثونهم . وقيل : إنّ الكفّار المعذّبين لا يسمعون ما يسرّهم و ينفعهم ولا يستمعون ما ينتفعون به و إنّما يسمعون صوت المعذّبين وصوت الملائكة الّذين يعذّبونهم و يسمعون ما يسوؤهم . و قيل : يجعلون في توابيت من نار فلا يسمعون شيئاً ولا يرى أحد منهم أنّ في النار أحداً يعذّب غيره و عن عبد الله بن مسعود قال : و لمّا نزلت هذه الآية و تلاها الرسول ﷺ أتى عبد الله بن الزبعرى رسول الله فقال : ألست تزعم أن عزيراً رجل صالح وأنّ مريم امرأة صالحة ؟ قال : بلى قال : فإنّ هؤلاء يعبدون من دون الله فهم في النار ؟ فنزلت هذه الآية [إنّ الّذين سبقت لهم منّا الحسنى أُولئك عنها مبعدون * لا يسمعون حسيسها و هم فيها اشتهت أنفسهم خالدون] .

فعلى فرض أن يكون إيراد ابن الزبعرى وارداً فهذه الآية جواب عن إيراد اللعين .

المعنى : قد جرت عادة الله أنّه متى شرح عقاب الكفّار أردفه بشرح ثواب الأبرار .

والحسنى تأنيث الأحسن أي البشرى بالسعادات و الخصلة المفضّلة وهي الايمان الكامل بالله وقد

سبق في علمنا بحسن صنيعهم الموعدة بالجنّة و السعادة ، أولئك عن النار مبعدون «لا يسمعون حسيسها» بحيث لا يسمعون صوتها الّذي يحسّ منها و هم فيما اشتهت أنفسهم و فيما تطلب أنفسهم من اللذائذ و نعيم الجنّة خالدون و دائمون.

و قيل : إنّ المراد من الّذين سبقت لهم الحسنى عيسى و مريم و عزير و الملائكة الّذين عبدوا من دون الله و هم كارهون ؛ استثناهم الله من المعبودين إذا اُطبقت على أهلها وهذا المعنى على فرض كون العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ ، وعلى كون العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالآية عامّة لهم و لغيرهم ممّن كان مؤمناً ، لايحزنهم الفزع الأكبر والخوف العظيم . وقيل : المراد من الفزع الأكبر النفخة الأخيرة حيث يقول : «ونفخ في الصور ففزع من في السماوات و من في الأرض إلّا من شاء الله [١]» و لا يلزم من نفي الفزع الأكبر نفي الفزع في النار و أهوال القيامة و قيل : هو حين يؤمر بالعبد إلى النار أو حين يذبح الموت.

و روى أبو سعيد الخدري عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : ثلاثة على كثبان من مسك لا يحزنهم الفزع الأكبر ولا يكترثون للحساب : رجل قرأ القرآن محتسباً ثمّ أمّ به قوماً محتسباً و رجل أذّن محتسباً و مملوك أدّى حقّ الله و حقّ مواليه.

قوله : [وتتلقّاهم الملائكة] و تستقبلهم بالتهنئة قيل : هم الملائكة الّذين كتبوا أعمالهم في الدنيا و يقولون لهم و يبشّرونهم بأنّ [هذا يومكم الّذي كنتم توعدون] في الدنيا ، في المجالس عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال لعليّ عليه السلام : يا عليّ أنت و شيعتك على الحوض تسقون من أحببتم و تمنعون من كرهتم و أنتم الآمنون يوم الفزع الأكبر في ظلّ العرش ، يفزع الناس ولاتفزعون ، و يحزن الناس و لا تحزنون وفيكم نزلت هذه الآية.

و أيضاً في المجالس عن الصادق عليه السلام قال : إنّ الله يبعث شيعتنا يوم القيامة على ما فيهم من الذنوب أو غيره مبيضّة وجوههم مستورة عوراتهم آمنة روعتهم قد سهلت لهم الموارد و ذهبت عنهم الشدائد يركبون نوقاً من ياقوت فلا يزالون يدورون خلال الجنّة

(١) النمل : ٨٧ .

عليهم برد من نور يتلألأ يوضع لهم الموائد فلا يزالون يطعمون والناس في الحساب وهو قول الله تعالى: «إنّ الّذين سبقت لهم» الآية.

قوله تعالى: يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا انا كنا فاعلين (١٠٤) و لقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون (١٠٥) ان فى هذا بلاغاً لقوم عابدين (١٠٦) و ما أرسلناك الا رحمة للعالمين (١٠٧) قل انما يوحى الى انما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون (١٠٨) فان تولوا فقل آذنتكم على سواء و ان أدرى أقريب ام بعيد ما توعدون (١٠٩) انه يعلم الجهر من القول و يعلم ما تكتمون (١١٠) و ان أدرى لعله فتنة لكم و متاع الى حين (١١١) قال رب احكم بالحق و ربنا الرحمن المستعان على ما تصفون (١١٢).

[يوم] ظرف منصوب على البدليّة من ها، محذوفة من «توعدونه» أومن «نعيده» في الآية والمعنى: إنّ في ذلك اليوم [نطوي السماء] مثل طيّ الصحيفة [للكتب] فيكون معنى طيّ السجلّ للكتاب كون السجلّ ساتراً لتلك الكتابة و مخفياً لها لأنّ الطيّ ضدّ النشر والكشف والمعنى: نطوي السماء كما يطوي الطومار الّذي يكتب فيه. ويجوز أن يكون المراد بالكتاب المكتوب من أعمال الناس.

و السجلّ اسم ملك يكتب أعمال العباد. و قيل: السجلّ هو اسم ملك يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه من الأرض و قيل: اسم كاتب للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. و قيل: السجلّ بلغة الحبشة معناه الرجل فحينئذ معناه: نطوي السماء كناية، واللام في «للكتب» زائدة مثل قوله «ردف لكم [1]» أو المعنى: كطيّ الطاوي السجلّ و هذا قول أكثر المفسّرين.

القميّ: و معنى نطويها أي نفنيها فتحول دخاناً و الأرض نيراناً. ثمّ ابتدأ سبحانه فقال: [كما بدأنا أوّل خلق نعيده] أي نعيد أوّل الخلق كما بدأناه. و قيل: معناه كما بدأناهم في بطون اُمّهاتهم حفاة عراة كذلك نعيدهم. و قيل: معناه نبعث الخلق كما ابتدأنا أي قدرتنا على الإعادة كقدرتنا على الابتداء.

(١) النمل: ٧٢.

و اختلفوا في كيفيّة الإعادة فمنهم من قال : إنّ الله يفرّق أجزاء الأجسام ولا يعدمها ثمّ إنّه يعيد تركيبها فذلك هو الإعادة و منهم من قال : إنّه تعالى يعدمها بالكلّيّة ثمّ إنّه سبحانه يوجدها بعينها مرّة أُخرى و هذه الآية دالّة على هذا الوجه لأنّه شبّه الإعادة بالابتداء و لمّا كان الابتداء ليس عبارة عن تركيب الأجزاء المتفرّقة بل عن الوجود بعد العدم وجب أن يكون الحال في الإعادة كذلك .

و احتجّ القائلون بالقول الأوّل بقوله تعالى : « والسماوات مطويّات بيمينه »[١] فدلّ هذا على أنّ السماوات حال كونها مطويّة تكون موجودة . و بقوله تعالى : « يوم تبدّل الأرض غير الأرض[٢] » وهذا يدلّ على أنّ أجزاء الأرض باقية لكنّها جعلت غير الأرض انتهى .

[وعداً علينا إنّا كنّا فاعلين] أي وعدنا كم ذلك وعداً ونحن فاعلون ماوعدنا كم .

[و لقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر] و قرىء « زبور » بضمّ الزاي جمع زبر مثل قشر و قشور ، و الزبور بمعنى المزبور و المكتوب ؛ زبرت الكتاب أي كتبته أي ولقد كتبنا في الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء من بعد ما كتبناه في الذكر و هو أُمّ الكتاب و اللوح المحفوظ الّذي في السماء و قيل : الزبور الكتب المنزلة بعد التوراة . و الذكر هو التوراة و قيل : الزبور كتاب داود عليه السلام و الذكر توراة موسى عليه السلام و قيل : المراد من الذكر القرآن و « بعد » بمعنى قبل في الآية و قيل : المعنى المراد بالذكر العلم أي كتبنا ذلك في الزبور بعد أن كنّا عالمين علماً لايجوز عليه السهو والنسيان علينا أي مع أنّه لايجوز علينا السهو والنسيان كتبنا أنّ هذا الأمر واجب الوقوع وهو [أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون] .

و اختلف في الأرض قيل : الأرض أرض الجنّة و العباد الصالحون هم المؤمنون العاملون بطاعة الله وهذا القول لعكرمة و السدّيّ وسعيد بن جبير و أبي العالية وقالوا : إنّها الأرض الّتي تختصّ بها الصالحون لأنّها لهم خلقت و غيرهم إذا حصل معهم في الجنّة على وجه التبع . و قيل : المراد أرض الدنيا فإنّها للصالح والطالح .

(١) الزمر : ٦٧ . (٢) ابراهيم : ٤٨ .

و القول الأوّل بأنّ المراد أرض الجنّة فيه تعسّف لأنّ إطلاق الأرض إلى أرض الدنيا أقرب و أوجه من أرض الجنّة و سيورّثها المؤمنين في الدنيا كماوردت روايات كثيرة بهذا المعنى و قد نطق به الكتاب الكريم قال سبحانه : « وعدالله الّذين آمنوا ـ إلى قوله ـ ليستخلفنّهم في الأرض [1] » ولا يستخلفون إلّا في الدنيا وقوله تعالى : « قال موسى لقومه استعينوا بالله و اصبروا إنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده [2] » و قال تعالى : « و أورثنا القوم الّذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها الّتي باركنا [3] » أي في آخر الأمر نورثها اُمّة محمّد .

القمّي : قال : يرثها القائم عليه السلام و أصحابه . وفي المجمع هم أصحاب المهديّ عليه السلام في آخر الزمان . و يدلّ على ذلك ما رواه الخاصّ و العامّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : لولم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتّى يبعث رجلاً من أهل بيتي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كماملئت ظلماً وجوراً . وقال صلى الله عليه وآله وسلم : زويت لي الأرض فاُريت مشارقها و مغاربها وسيبلغ ملك اُمّتي مازوي لي منها .

قوله : [إنّ في هذا لبلاغاً لقوم عابدين] أي إنّ في هذا القرآن و في الّذي أخبرنا من الوعد للمؤمنين و الوعيد للكافرين للكفاية و وصلة إلى البغية و البلاغ سبب الوصول إلى الحقّ لقوم عابدين لله مخلصين له قال كعب : هم اُمّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم الّذين يصلّون الصلوات الخمس و يصومون رمضان بماهم عابدين . و قيل : معناه قوم هممهم العبادة لا العادة .

قوله : [و ما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين] كان صلى الله عليه وآله وسلم رحمة في الدين والدنيا :

أمّا في الدين فلأنّه صلى الله عليه وآله وسلم بعث و الناس في جاهليّة و ضلالة و أهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لبعض التحريفات وانقطاع تواترهم واختلافات وقعت في كتبهم و علمائهم فبعث الله محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم فدعاهم إلى الحقّ و شرّع لهم الأحكام و ميّز الحلال

(١) النور : ٥٥ .
(٢) الاعراف : ١٢٧ .
(٣) الاعراف : ١٣٦ .

عن الحرام ثمّ إنّما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همّته طلب الحقّ و لا يرغب به العناد و الحسد و الاستكبار و كان التوفيق له قريناً قال الله : « قل هو للّذين آمنوا هدى و شفاء [١] ».

و أمّا في الدنيا فلأنّهم تخلّصوا بسببه من كثير من الذلّ و الحروب و نصروا ببركة دينه .

فإن قيل : كيف كان رحمة وقد جاء بالسيف واستباحة الأموال ؟

فالجواب أنّه إنّما جاء بالسيف لمن يقدّم ضرّه على نفعه ولا يعرف خيره من شرّه و استكبر وعاند في الدين ولم يتفكّر ولم يتدبّر ومن أوصاف الله الرحمن الرحيم العطوف الرءوف ثمّ هو سبحانه ينتقم من العصاة و قال تعالى : « و أنزلنا من السماء ماء مباركاً [٢] » ثمّ قد يكون سبباً لعدم البركة ثمّ إنّ كلّ نبيّ قبل نبيّنا كان إذا كذّبه قومه أهلك الله المكذّبين بالخسف و المسخ و الغرق و الحرق و إنّه تعالى أخّر عذاب من كذّب برسولنا إلى الموت أو إلى القيامة قال الله تعالى : « وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم [٣] ».

ثمّ إنّه كان صلى الله عليه وآله وسلم في نهاية حسن الخلق قال : « وإنّك لعلى خلق عظيم » وفي الحديث قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ادع على المشركين قال : إنّما بعثت رحمة و لم أبعث عذاباً و قال عبدالرحمن بن زيد : إلّا رحمة للعالمين يعني المؤمنين خاصّة و القولان ترجعان إلى معنى واحد لأنّ من أعرض عنه إنّما وقع في المحنة من قبل نفسه كما قال : « و هو عليه عمى [٤] ».

قالت المعتزلة : لو كان الله أراد من الكافرين الكفر و لم يرد من الكفّار الإيمان بالرسول كما يقوله أهل السنّة بأن خلق ذلك الكفر فيهم لوجب أن يكون إرساله نقمة و عذاباً عليهم لا رحمة و ذلك على خلاف النصّ .

و استدلّوا أيضاً بهذه الآية في أنّه أفضل من الملائكة قالوا : لأنّ الملائكة من

(١) فصلت : ٤٤ .
(٢) ق : ٩ .
(٣) الانفال : ٣٣ .
(٤) فصلت : ٤٤ .

العالمين فوجب بحكم هذه الآية أن يكون صلى الله عليه وآله وسلم رحمة للملائكة فوجب أن يكون أفضل منهم .

و روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال لجبرئيل : لمّا نزلت هذه الآية : فهل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ قال : نعم إنّي كنت أخشى العاقبة فأمنت بك لمّا أثنى الله عليّ بقوله : « ذي قوّة عند ذي العرش مكين[1] » وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم : إنّما أنا رحمة مهداة ومعلوم أنّ الوجه في أنّه رحمة على الكافر أنّه عرضه للإيمان و الثواب الدائم و هذا و إن لم يهتد كمن قدّم طعاماً إلى جائع فلم يأكل فإنّه منعم عليه و إن لم يقبل .

قوله : [قل إنّما يوحى إليّ أنّما إلهكم إلهٌ واحد فهل أنتم مسلمون] أي مستسلمون و منقادون لذلك أن تتركوا عبادة غير الله وحاصله أن أسلموا إلى هذا الأمر .

و في المناقب : فهل أنتم مسلّمون الوصيّة بعدي ـ بالتشديد ـ والمراد من الوصيّة الخلافة فإنّ قوله : « فهل أنتم منتهون[2] » أي انتهوا .

قال صاحب الكشّاف : كلمة «إنّما» يقصر الحكم على شيء أو يقصر الشيء على حكم كقولك : إنّما زيد قائم أو إنّما يقوم زيد وقد اجتمع المثالان في هذه الآية لأنّ «إنّما يوحى إليّ» مع فاعله بمنزلة إنّما يقوم زيد و«أنّما إلهكم إلهٌ واحد» بمنزلة إنّما زيد قائم و فائدة اجتماعهما الدلالة على أنّ الوحي إلى رسول الله مقصور على إثبات التوحيد فلزم أن يقال : لم يوح إلى رسول الله شيء غير التوحيد و معلوم أنّ ذلك فاسد والمقصود من هذا الحصر المبالغة في هذا الأمر فكأنّه هذا الوحي أصل ومقدّم على الكلّ و لولاه لم يتحقّق امتثال في أمر من اُمور الوحي و هو أصل أصيل .

قوله : [فإن تولّوا فقل آذنتكم على سواء] آذن منقول من أذن أي علم ولكنّه كثر استعماله في الجري مجرى الإنذار ومنه قوله : « فأذنوا بحرب من الله و رسوله[1] » والإيذان على السواء معناه الدعاء إلى الحرب مجاهرة .

والمقصود لعلّ أنّ قريشاً يزعمون أنّ حالهم مخالف لسائر الكفّار في الاُمور فعرّفهم صلى الله عليه وآله وسلم بذلك وأعلمهم بما اُمر به على السواء من غير فرق و بيّن لهم ما هو الواجب عليهم من التوحيد و كلّ الاُمور على سواء فلم اُفرّق في الإبلاغ و البيان ، و الغرض

(١) التكوير : ٢٠ .
(٢) المائدة : ٩٤ .

إزاحة العذر لئلاّ يقولوا : ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً وقيل : المعنى في قوله : « آذنتكم على سواء » أي أعلمتكم بالحرب الّذي يقع بيني و بينكم كأنّه أمره الله بأن ينذرهم بالجهاد معهم الّذي يوحى إليه أن يأتيه من بعدولم يعرّفه الوقت فلذلك أمره أن يقول : إنّه لا يعلم قربه أم بعده لأنّ السورة مكّيّة و كان الأمر بالجهاد بعدالهجرة أو المعنى : أنّ ما يوعدون به من غلبة المسلمين عليهم كائن لا محالة و لابدّ أن يلحقهم الذلّ والصغار و إن كنت لا أدري متى يكون ذلك و ذلك لأنّ الله لم يطّلعني عليه .

[إنّه يعلم الجهر من القول و يعلم ما تكتمون] و المراد من الآية ترك النفاق والنهي عنه و الأمر بالإخلاص لأنّهم كانوا يجاهرون في الطعن بالإسلام و تكذيب الآيات و بعض يضمرون الأحقاد فنبّههم الله بأنّه يعلم و يجازيهم عليه إمّا بالغلبة من المسلمين عليهم و إذلالهم و إمّا بعذاب القيامة .

[و إن أدري لعلّه فتنة لكم و متاع إلى حين] أي و ما أدري لعلّ تأخير جزائكم استدراج و زيادة في افتتانكم أو امتحانكم و تمتّع لكم إلى أجل مقدّر يقتضيه المشيّة المبنيّة على الحكم البالغة ليكون ذلك حجّة عليكم إن لم تؤمنوا .

قوله تعالى: [قل ربّ احكم بالحقّ وربّنا الرحمن المستعان على ماتصفون] و قرىء « قل ربّ احكم بالحقّ » على الاكتفاء بالكسرة وقرىء « أحكم » على أفعل التفضيل أي و ربّي أحكم . وعلى قراءة « قال » حكاية لدعائه ﷺ وعلى قراءة صيغة الأمر كماهو المشهور أي اقض بيننا و بين أهل مكّة بالعدل المقتضي لغلبتنا والتشديد عليهم ، وقد استجيب دعاؤه ببدر وغيره .

« و ربّنا الرحمن » مبتدأ و خبر أي كثير الرحمة على عباده و هو « المستعان » ويطلب منه المعونة خبر ثان على ماتصفون من الحال ؛ فإنّهم كانوا يقولون : إنّ الشوكة تكون لنا و إنّ راية الإسلام تخفق و هذا الأمر يبطل و يضمحلّ فخيّب الله آمالهم ونصر محمّداً و أولياءه ، أو معنى ما تصفون أي من الشرك و ما تعارضون به دعوتي من الأباطيل .

تمّت السورة بحمدالله

سورة الحج

مكية إلّا آيات نزلت في السفر .

عن اُبيّ بن كعب قال : قال النبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم : من قرأ سورة الحجّ اُعطي من الأجر كحجّة حجّها وعمرة اعتمرها بعدد من حجّ و اعتمر في مامضى و في ما بقي .

و قال أبو عبدالله عليه السلام : من قرأها في كلّ ثلاثة أيّام لم يخرج من سنته حتّى يخرج إلى بيت الله الحرام و إن مات في سفره دخل الجنّة .

لمّا ختم الله سورة الأنبياء بالدعاء إلى التوحيد افتتح هذه السورة بالاتّقاء من الشرك فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم (١) يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت و تضع كل ذات حمل حملها و ترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد (٢) .

أمر الله الناس بالتقوى فدخل فيه أن يتّقي كلّ محرّم و يتّقي ترك كلّ واجب؛ لأنّ المتّقي إنّما يتّقي كلّ محرّم و يتّقي ترك كلّ واجب وإنّ المتّقي إنّما يتّقي ما يخافه من عذاب الله فيدع لأجله المحرّم و يفعل لأجله الواجب ولايدخل فيه النوافل لأنّ المكلّف لايخاف بتركها العذاب وإنّما يرجو بفعلها الثواب فإذا قال: اتّقوا ربّكم فالمراد اتّقوا عذاب ربّكم.

[إنّ زلزلة الساعةشيء عظيم] الزلزلة شدّة حركة الشيء كأنّ الساعة الفاعلة للزلزلة و تزلزل الأشياء على المجاز الحكمي فحينئذ يكون الزلزلة مصدراً مضافاً إلى فاعله أوعلى تقدير المفعول فيها على طريق الاتّساع في الظرف يعني: إنّ الزلزلة يقع في الساعة، وإجراؤه مجرى المفعول به مثل « بل مكر الليل والنهار» وهي الزلزلة المذكورة في قوله « إذا زلزلت الأرض زلزالها [١] ».

اختلفوا في وقتها قيل عن الشعبيّ وعلقمة: إنّ هذه الزلزلة تكون في الدنيا و هي الّتي يكون معها طلوع الشمس من مغربها. و قيل: هي الّتي تكون معها الساعة. و روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث الصور أنّه قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات: نفخة الفزع و نفخة الصعقة ونفخة للقيام لربّ العالمين و أنّ عند نفخة الفزع يسيّر الله الجبال و ترجف الراجفة تتبعها الرادفة، قلوب يومئذ واجفة، و تكون الأرض كالسفينة تضربها الأمواج أو كالقنديل المعلّق يزجزجها الرياح. و قيل: هذا في أوّل يوم الآخرة ويمكن أن يكون الزلزلة من أماراتها و أشراطها الّتي فيها دفعها.

---

(١) الزلزال: ١.

النزول : قال عمران بن الحصين و أبوسعيد الخدري : نزلت الآيتان الأوليان ليلاً في غزاة بني المصطلق و هم حي من خزاعة والناس راكبين يسيرون فنادى رسول الله فحثوا المطي حتى أتوا حول رسول الله فقرأهما عليهم فلم يرأكثر باكياً من تلك الليلة فلما أصبحوا لم يحطوا السرج عن الدواب و لم يضربوا الخيام والناس بين باك أوجالس حزين متفكر فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أتدرون أي يوم ذاك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذاك يوم يقول الله تعالى لآدم : ابعث بعث النار من ولدك فيقول آدم : من كم كم ؟ فيقول الله : عج من كل ألف تسعمائة وتسع و تسعين إلى النار و واحدة إلى الجنة فكبر ذلك على المسلمين و بكوا و قالوا : فمن ينجو يا رسول الله ؟ فقال : ابشروا فإن معكم خليقتين يأجوج و مأجوج ماكان في شيء إلا كثرتاه ما أنتم إلا كشعرة بيضاء في الثور الأسود أو كرقم في ذراع البكر أو كشامة في جنب البعير ثم قال : إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا ثم قال : إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبروا ثم قال : إني لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة وإن أهل الجنة مائة و عشرون صفاً ثمانون منها أمتي .

ثم قال : ويدخل من أمتي سبعون ألفاً الجنة بغير حساب و في بعض الروايات أن عمر بن الخطاب قال : يا رسول الله سبعون ألفاً ؟ قال : نعم و مع كل واحد سبعون ألفاً فقام عكاشة بن محصن فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال : اللهم اجعله منهم ، فقام رجل من الأنصار فقال: ادع الله أن يجعلني منهم فقال صلى الله عليه وآله وسلم :سبقك بها عكاشة قال ابن عباس :كان الأنصاري منافقاً فلذا لم يدع له .

المعنى : خاطب الله سبحانه جميع المكلفين فقال :

[يا أيها الناس] العقلاء المكلفون [اتقوا] عذاب [ربكم] و اخشوا معصيته [إن زلزلة] الأرض يوم القيامة أمر [عظيم] هائل لا يطاق و شدة يوم القيامة أمر صعب .

[يوم] ترون الزلزلة أو الساعة [تذهل] و تشغل [كل مرضعة] عن ولدها و تنساه وتسلو عن ولده و وصف الله الزلزلة بالعظيم ولاعظيم أعظم مما عظمه الله . فإن قيل :

لمَ قال مرضعة دون مرضع ؟ قلنا : المرضعة هي الّتي في حال الإرضاع و هي ملقمة ثديها الصبيّ و المرضع مَن من شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع فقيل : مرضعة ليدلّ على أنّ ذاك الهول إذا فوجئت به هذه و قد ألقمت ثديها الرضيع نزعته من فيه لما يلحقها من الدهشة [عمّا أرضعت] أي عن إرضاعها أو عن الطفل فتكون «ما» بمعنى «من» على التأويل الثاني .

[و تضع كلّ ذات حمل حملها] من الفزع و يمكن أن يكون المراد من ذهول المرضعة و وضع الحمل على قول من قال : المراد به يوم القيامة فيكون على جهة المثل لشدّة ذلك اليوم أي شأن فزع ذلك اليوم شأن لو كانت مرضعة تذهل عن إرضاعها و لو كانت حامل تضع من غير تمام حملها . و من قال : إنّ الزلزلة المذكورة في الدنيا قبل القيامة فالمعنى على سبيل الحقيقة كما قال بعض : إنّ الزلزلة يكون في الدنيا آخر زمانها لأنّ الرضاع و وضع الحمل إنّما يتصوّر في الدنيا .

[و ترى الناس سكارى] و قرىء «سكرى» أي من شدّة الفزع حالهم حال السكرى و اضطراب السكران [و ما هم بسكارى] من الشراب بل عقولهم ذاهبة من شدّة الفزع .

ثمّ علّل سبحانه ذلك فقال : [ولكنّ عذاب الله شديد] ومن شدّته يصيبهم ما يصيبهم و قرىء «تُرى» بضمّ التاء من باب الإفعال تقول: أُريتك قائماً و رأيتك قائماً و «الناس» قرىء بالنصب على المفعوليّة وبالرفع اسم ما لم يسمّ فاعله فيكون «ترى» بالضمّ مجهولاً .

قوله تعالى : و من الناس من يجادل فى الله بغير علم و يتبع كل شيطان مريد (٣) كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله و يهديه الى عذاب السعير (٤) يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة و غير مخلقة لنبين لكم و نقر فى الارحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم و منكم من يتوفى و منكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئاً و ترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت و ربت و انبتت من كل زوج بهيج (٥) .

قوله تعالى : [و من الناس] هذا إخبار عن المشركين الّذين يخاصمون في توحيد الله [بغير علم]منهم بل للجهل المحض . و قيل : نزلت في النضر بن الحارث فإنّه كان كثير الجدال و كان يقول : الملائكة بنات الله ، و القرآن أساطير الأوّلين و كان ما يأتيكم به محمد كما كنت اُحدّثكم به عن القرون الماضية لأنّه كان يسافر إلى فارس و يتعلّم منهم القصص القديمة مثل حكايات رستم و إسفنديار و يأتي به العرب و يقول: ما يقول محمد كذلك و ينكر البعث .

[و يتّبع كلّ شيطان مريد] يغويه عن الهدى و يدعوه إلى الضلال . و في قوله « شيطان مريد » قولان : يجوز أن يكون المراد شياطين الإنس مثل النضر بن الحارث فإنّه كان كثير الجدال و أمثاله ؛ و المريد و المارد المرتفع الأملس ، و يجوز أن يكون المراد إبليس و جنوده ، و المريد والمارد يستعمل في الإنسان و غير الشيطان إذا جاوز حدّ مثله .

قوله تعالى : [كتب عليه أنّه من تولّاه فإنّه يضلّه] و اختلفوا في رجوع ضمير الهاء من «عليه» قيل : كتب الله على ذلك الشيطان في اللوح المحفوظ أنّه يضلّ من تولّاه فكيف يتّبع مثله ، و قيل : كتب على المجادل بالباطل أنّ من اتّبعه و والاه يضلّه عن الدين [و يهديه إلى عذاب السعير] .

ثمّ ذكر سبحانه الحجّة في البعث لأنّ أكثر الجدال كان فيه فقال : [يا أيّها الناس إن كنتم في ريب] و شكّ [من البعث] و النشور و الريب أقبح الشكّ فالدليل على صحّة البعث [فإنّا خلقنا] أصلكم آدم [من تراب] فمن قدر على أن يصيّر التراب بشراً سويّاً حيّاً في الابتداء قدر على أن يحيي العظام و التراب المتبدّل من العظام و يعيد الأموات .

[ثمّ] خلقنا أولاده و نسله [من نطفة] في أرحام الاُمّهات و هي الماء القليل يكون من الذكر و الاُنثى ، و كلّ ماء صاف فهو نطفة قلّ أم كثر [ثمّ من علقة] بأن تصير النطفة علقة و هي القطعة من الدم الجامد [ثمّ من مضغة] أي شبه قطعة لحم ممضوغة فإنّ معنى المضغة مقدار ما يمضغ من اللحم [مخلّقة و غير مخلّقة] أي تامّ الخلقة و غير

تامّ الخلقة أو المعنى: مصوّرة وغير مصوّرة و هي ماكان لا تخطيط فيه ولا تصوير كأنّه قسّم سبحانه المضغة على قسمين : منها ما خلقه إنساناً تامّاً بلا نقص و منها ما ليس كذلك أي يخلق المضغ متفاوتة فيتفاوت الناس في خلقهم و صورهم و طولهم و قصرهم و تمامهم و نقصانهم و الّذي يخرج حيّاً و الّذي يخرج ميّتاً و سقطاً لهذه الجهة .

روى علقمة عن عبد الله بن عمر قال : إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكاً و قال : يا ربّ مخلّقة أو غير مخلّقة ؟ فإن قال : غير مخلّقة بجّتها الأرحام دماً و إن قال : مخلّقة قال : يا ربّ ما صفتها أذكر أم اُنثى ؟ ما رزقها ؟ ما أجلها ؟ أشقيّ أم سعيد ؟ فيقول الله سبحانه : انطلق إلى اُمّ الكتاب فاستنسخ منه صفة هذه النطفة فينطلق الملك فينسخها فلا يزال معها حتّى يأتي على آخر صفتها .

قوله : [لنبيّن لكم و نقرّ في الأرحام ما نشاء] أي لندلّكم و نوضح لكم مقدوراتنا بتصريفكم في ضروب الخلق أنّ من قدر على البدء قدر على الإعادة حتّى يزول ريبكم و المفعول محذوف . و « نقرّ في الأرحام » أي نبقي في الأرحام ما نشاء إلى وقت تمامه و مالا نقرّ في أرحام الاُمّهات فيقع بالسقط و نقص خلقة البعض .

[ثمّ نخرجكم] بعد التكميل من بطون اُمّهاتكم و أنتم أطفال و المراد بالطفل الصغير من الناس و إنّما وحّد مع أنّ المراد الجمع لأنّه بمعنى المصدر و إذا كان بمعنى المصدر فيستوي فيه الجمع و المفرد تقول : رجل عدل و رجال عدل أو المراد ثمّ نخرج كلّ واحد منكم [طفلاً ثمّ لتبلغوا أشدّكم] أي ثمّ سهّل عليكم في تربيتكم وأغذيتكم اُموراً لتبلغوا أنتم حال بلوغ الأشدّ وهو حال اجتماع القوّة و العقل و تماميّة الصورة و المعنى و الأشدّ من ألفاظ الجموع الّتي لم يستعمل لها واحد .

و في الآية دلالة على أنّ هذه الاُمور باختيار الفاعل القادر المختار و لولاه لماصار بعضه مخلّقاً و بعضه غير مخلّق و كان كلّه مخلّقاً أو كان كلّه غير مخلّق .

قوله : [ومنكم من يتوفّى] قبل بلوغ الأشدّ [ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر] أي أسوء العمر و أهونه و أحقره و هي حال الخرف و لأنّه لا يرجو الانسان بعد هذا الوقت صحّة و قوّة بل يترقّب الموت بخلاف حال الطفوليّة و الشباب الّذي يرجى له

الكمال و القوّة بعدها [لكيلا] يستفيد علماً و ينسى ما كان عالماً به و يصير إلى حال ينعدم عقله و يذهب عنه علومه فلا يعلم شيئاً ممّا كان علمه و إذا ذهب أكثر علومه جاز أن يطلق ذهاب الجميع للمبالغة .

قال عكرمة : من قرأ القرآن لم يصر بهذه الحالة و احتجّ بقوله تعالى : « ثمّ رددناه أسفل سافلين * إلّا الّذين آمنوا و عملوا الصالحات[1] » أي قرءوا القرآن ولاشكّ أنّ قراءة القرآن من الأعمال الصالحة هذا تمام الاستدلال بخلقة الحيوان على صحّة البعث .

ثمّ استدلّ بأحوال النبات سبحانه على صحّة البعث فقال : [و ترى الأرض هامدة] أي هالكة يابسة دارسة من أثر النبات [فإذا أنزلنا عليها الماء] و هو المطر [اهتزّت و ربت] وتحرّكت بالنبات بسبب المطر و المراد بالاهتزاز شدّة حركة الزرع في الجهات و نموّ الأزهار و ظهور تجديد الحياة في الأرض بزينتها في الجهات و انتفخت الأرض لنباتها [و أنبتت من كلّ زوج بهيج] أي من كلّ صنف وشكل من الزروع مبتهج حسن الرونق و اللون و الصفة و النضرة .

و لمّا قرّر سبحانه هذين البيانين من صفة الحيوان و النبات بطريق الدليل رتّب عليهما ما هو المطلوب فقال :

ذلك بأن الله هو الحق و أنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير (٦) و ان الساعة آتية لا ريب فيها و ان الله يبعث من في القبور (٧) ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى و لا كتاب منير (٨) ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزى و نذيقه يوم القيامة عذاب الحريق (٩) ذلك بما قدمت يداك و أن الله ليس بظلام للعبيد (١٠) .

المعنى : [ذلك] الّذي سبق ذكره من تصريف الإنسان على هذه الأحوال و إخراج النبات والدلائل الدالّة على وجود القادر الصانع ليعلموا [بأنّ الله هو الحقّ] الّذي تحقّ له العبادة دون غيره أي هو الّذي يستحقّ صفات التعظيم [و أنّه يحيي] الأموات يعني أنّ الّذي يصحّ منه إيجاد هذه الأشياء قادر على إعادة الأموات [وأنّه

(١) التين : ٥ .

على كلّ شيء قدير] قدير على إفنائها و إيجادها .

[و أنّ] القيامة [آتية لا ريب] في وقوعها [وأنّ الله] يجمع الناس ويحييهم للجزاء . و عن الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لجبرئيل : ياجبرئيل أرني كيف يبعث الله العباد يوم القيامة ؟ قال : نعم فخرج إلى مقبرة بني ساعدة فأتى قبراً فقال له : اخرج بإذن الله فخرج رجل ينفض رأسه من التراب و هو يقول : و الهفاه ! و اثبوراه ! ثمّ قال : ادخل فدخل ثمّ قصد إلى قبر آخر فقال : اخرج بإذن الله فخرج شابّ ينفض رأسه من التراب و هو يقول : أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له و أشهد أنّ محمّداً عبده و رسوله و أشهد أنّ الساعة آتية لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور ، ثمّ قال جبرئيل : هكذا يبعثون يوم القيامة .

القمي عن الصادق عليه السلام قال : إذا أراد الله أن يبعث الخلق أمطر السماء على الأرض أربعين صباحاً فاجتمعت الأوصال ونبتت اللحوم .

قوله : [و من الناس من يجادل في الله] سبق تفسيره و الحاصل أنّ بعض الناس مثل النضر بن الحارث وأتباعه لا يراجع فيما يقوله إلى علم ولا إلى دليل و أصل ثابت و كتاب واضح مضيء له نور يبيّن له الهدى من الضلال ولا يتّبع أدلّة العقل ولا السمع و إنّما يتّبع الهوى والتقليد .

[ثاني] أي متكبّراً في نفسه تقول العرب : ثنى فلان عطفه إذا تكبّر و تجبّر و عطفا الرجل جانباه أي عن يمين أو شمال وهوالموضع الّذي يلويه الإنسان عندالإعراض عن الشيء مثل ليّ العنق وتسعّر الخدّ للتكبّر وأمثاله .

[ليضلّ عن سبيل الله] أي ليضلّ الناس عن الحقّ . و من قرأ « ليضلّ » بفتح الياء أي ليضلّ هو عن طريق الحقّ المؤدّي إلى توحيد الله أي جدله من غير العلم و الدليل صار سبباً لضلالته عن توحيد الله .

[له في الدنيا خزي] و هوان وذلّ و فضيحة بما يجري عليهم كما جرى على أبي جهل و نضرو أمثاله يوم البدر من القتل و الذمّ [و نذيقه يوم القيامة عذاب] النّار الّتي تحرقهم .

[ذلك بما قدّمت يداك]فيقال له:ذلك العذاب المؤجّل بما كسبت يداك [و أنّ الله ليس بظلاّم للعبيد] في تعذيبه لأنّ الله لا يظلم و لا يعاقب من غير معصية و لا يزيد في العقوبة .

و في هذه الآية دلالة واضحة على بطلان قول الجبريّة الّذين ينسبون كلّ ظلم في العالم إلى الله ثمّ يعتذرون بقول هو أوهن من نسج العنكبوت ، و هو أنّه لأجل أنّ الله يفعله ليس بظلم . و لوتأمّلت في هذا القول لعرفت الشعوذة .

قالت المعتزلة: الآية تدلّ على أنّه إنّما وقع العذاب بسبب كسب يده وفعله فلوكان فعله خلقاً لله تعالى لكان حين ما خلقه الله سبحانه استحال منه أن ينفكّ عنه و حين مالم يخلق الله استحال أن يتّصف العبد به فلايكون ذلك العقاب بسبب العبد فإذا عاقبه عليه كان ذلك محض الظلم و ذلك خلاف نصّ الآية .

قوله تعالى : و من الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به و ان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا و الاخرة ذلك هو الخسران المبين (۱۱) يدعوا من دون الله مالا يضره و مالا ينفعه ذلك هوالضلال البعيد(۱۲) يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير (۱۳) .

و قرىء «خاسر الدنيا» على الحاليّة و قرىء « مَن ضرُّه » بدون اللام .

النزول : نزلت في جماعة كانوا يقدمون على رسول الله المدينة فكان أحدهم إذا صحّ جسمه و ولدت امرأته غلاماً ونتجت فرسه و كثرت ما شيته و ماله رضي به و اطمأنّ إليه و إن أصابه وجع المدينة أوولدت امرأته جارية قال: ما أصبت في هذا الدين إلاّ شرّاً ، عن ابن عبّاس .

و بالجملة بيّن سبحانه في هذه الآية حال مقلّدة الضلال و الدعاة إلى الضلال فقال : [و من الناس من يعبد الله على] ضعف في العبوديّة كضعف القائم على [حرف] الجبل أو على طرف الجيش إن كان على ظفر قرّ وإلاّ فرّ وذلك من اضطرابه في طريق العلم إذ لم يسع في طريق العلم و الدلائل المؤدّية إلى الحقّ فينقاد لأدنى شبهة لا يمكنه حلّها

و قيل : معنى «على حرف» أي على شك أو يعبد بلسانه دون قلبه قال : الدين حرفان: اللسان و الثاني القلب .

[فإن أصابه] رخاء و خصب و عافية اطمأن على عبادة الله بذلك الخير [و إن أصابته] اختبار بجدب و قلة مال و شدة [انقلب على وجهه] و رجع عن دينه إلى الكفر و انصرف على وجهه الذي توجه منه وهو الكفر [خسر الدنيا] بفراقه عن الدين [والآخرة] بنفاقه و حرمانه عن السعادات [ذلك] من موجبات الخسران الظاهر لفساد العاجلة والآجلة وقيل : المراد من خسران الدنيا الحرمان من الغنيمة والعز و في الآخرة الثواب والجنة .

[يدعو من دون الله] أي يدعو سوى الله و يعبد [مالا ينفعه] و إن ترك عبادته له لا يضره [ذلك] الذي فعل [هو الضلال البعيد] و استعير الضلال البعيد من ضلال من أبعد في التيه و طالت و بعدت مسافة ضلاله مثلاً كالقارظين العنزيين .

[يدعو] الذي هو في الضلال البعيد و المراد رؤساؤهم هذا إذا كان الضمير في «يدعو» إلى الرئيس المضل و أما إذا رجع الضمير إلى العابد المقلد التابع أي يعبد من الأحجار و غيرها لو فرضنا بزعمهم النفع لهم في دنياهم بمتابعة بعضهم بعضاً فضره في الآخرة بسبب العذاب أقرب وكائن لامحالة لأن الكائن قريب .

[لبئس] الناصر [ولبئس] المصاحب والصاحب والمخالط ، والمراد به الأوثان .

قوله تعالى : ان الله يدخل الذين آمنوا و عملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار ان الله يفعل مايريد (١٤) من كان يظن ان لن ينصره الله فى الدنيا و الاخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ (١٥) .

لما ذكر حال المنكر و الشاك في الدين بالخسران ذكر ثواب المؤمنين على الإيمان فقال :

[إن الله يدخل الذين آمنوا] بالله و صدقوا رسله [و عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار إن الله يفعل مايريد] بأوليائه وأهل طاعته من الكرامة وبأهل

معصيته وأعدائه من الإهانة لايمنعه مانع .

ثمّ قال سبحانه : [من كان] يحسب [أن لن ينصره الله] و الضمير في « ينصره » راجع إلى محمّد صلى الله عليه وآله وسلم يريد أنّ من يظنّ أن لن ينصر الله محمّداً في الدنيا بإعلاء كلمته و إظهار دينه و في الآخرة بإعلاء درجته والانتقام ممّن كذّبه و الرسول و إن لم يجرله ذكر في الآية ففيها ما يدلّ عليه و هو ذكر الإيمان لأنّ الإيمان لايتمّ و لا يحصل إلّا بالله و رسوله ، و هذا قول ابن عبّاس و الكلبيّ و جماعة كثيرة من المفسّرين .

و قيل : إنّ الضمير في «ينصره» راجع إلى «من» فالمعنى : من كان يظنّ من الناس أنّ الله لاينصره فليجهد جهده وليصعد السماء ثمّ ليقطع المسافة فلينظر هل ينفعه كيده في إزالة غيظه فإنّ الّذي حكم الله به لا يبطل بكيد الكائد . و هذا المعنى مثل معنى قوله : « فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلّماً في السماء[1] » .

و حاصل المعنى إذا رجعت الضمير إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه فليطلب حبلاً يصل به إلى السماء و يقطع نصر الله لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم ولينظر هل يتهيّأ له هذا الأمر ؛ فإذا كان ذلك ممتنعاً كان غيظه عديم الفائدة .

و قيل : المراد بالنصر الرزق ؛ أرض منصورة أي ممطورة أي من ظنّ أنّ الله لايرزقه في الدنيا و الآخرة فليختنق نفسه فلينظر بهذا الكيد هل يذهب غيظه ؟

و في الصافي قال : معناه: أنّ الله ناصر رسوله في الدنيا و الآخرة فمن كان يظنّ خلاف ذلك و يتوقّعه من غيظه فليتقصّ في إزالة غيظه بأن يفعل كلّ ما يفعله الممتلىء غيظاً حتّى يمدّ حبلاً إلى سماء بيته فيختنق ، و قطع أي خنق فإنّ المختنق يقطع نفسه . أو إلى السماء الدنيا ليقطع به المسافة ويجتهد في دفع نصره .

و القمّيّ : الظنّ ههنا بمعنى الشكّ أي من شكّ أنّ الله يصيبه و ينصره في الدنيا و الآخرة فليمدد دليلاً إلى السماء أي يجعل بينه و بين الله دليلاً حتّى يميّز الحقّ من الباطل وجاء السبب بمعنى الدليل قوله تعالى : «و آتيناه من كلّ شيء سبباً ※ فأتبع

(١) الانعام : ٥٣ .

سبباً [١] » أي دليلاً ومعنى «فليقطع» أي يميّز قوله : « و قطّعنا هم اثنتي عشرة أسباط أُمماً [٢] » أي ميّزناهم والكيدبمعنى الحيلة كقوله تعالى : « و كذلك كدناليوسف [٣] » أي احتلنا له حتّى حبس أخاه و كذلك قول فرعون : « فأجمعوا كيد كم [٤] » أي حيلتكم وحاصل المعنى: إذا وضع لنفسه دليلاً وميّز ثبت له الحقّ بأنّ الله ينصره .

قوله تعالى: وكذلك أنزلناه آيات بينات وان الله يهدى من يريد(١٦) ان الذين آمنوا و الذين هادوا والصابئين و النصارى و المجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيمة ان الله على كل شيء شهيد (١٧) الم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الارض و الشمس والقمر و النجوم و الجبال و الشجر و الدواب و كثير من الناس و كثير حقّ عليه العذاب و من يهن الله فماله من مكرم ان الله يفعل مايشاء (١٨) .

و مثل ما تقدّم من آيات القرآن[أنزلنا] القرآن[آيات بيّنات] و حججاً واضحات على التوحيد والشرائع والعدل وأنزلنا إليك هذا البيان [إنّ الله يهدي] إلى الدين [من] يهتدي بهداه و يقبل هدايته فيريد سبحانه أو إلى الثواب أو إلى النبوّة و حاصل المعنى: أنّ الآيات بيّنات و دلائل للمعرفة بالتوحيد و التكليف لمن يهتدي و يقبل الحجج .

قوله: [إنّ الّذين آمنوا] اعلم أنّه تعالى لمّا قال : «و أنّ الله يهدي من يريد» شرح في هذه الآيتين من يهديه و من لا يهديه ومن المعلوم أنّ الاختلاف الواقعة في أُصول الأديان محصورة في هذه الأقسام الثلاثة الّتي سنذكر من طبقات ثلاثة :

فقسم مشارك في نبوّة النبيّ مع المسلمين إلّا أنّهم مختلفين في بعض المسائل كمثبتي الرؤية ومنكريها و الجبريّة و العدليّة وأمثالها .

و ثانيها الّذين يخالفون في النبوّة و لكن يشاركون في الاعتراف بالفاعل المختار كالاختلاف بين المسلمين و اليهود و النصارى في نبوّة محمّد و موسى وعيسى عليهم السلام .

---

(١) الكهف : ٨٤ .
(٢) الاعراف : ١٥٩ .
(٣) يوسف : ٧٧ .
(٤) طه : ٦٤ .

و ثالثها : الّذين يخالفون في الإله مع المسلمين ، و هؤلاء هم السوفسطائيّة المتوقّفون في الحقائق و الدهريّة الّذين لا يعترفون بوجود مؤثّر في العالم و الفلاسفة الّذين يثبتون موجباً مؤثّراً لا مختاراً فصارت هذه ثلاث طبقات .

ولا شكّ أنّ القسم الثالث أعظم جهات الخلاف من القسمين الأوّلين و هذا القسم الثالث بأقسامه الثلاثة ليسوا في العالم متظاهرين بعقائدهم ومذاهبهم بل مستترين كانوا إلى زمان قبيل زماننا و ليس للإنسان أن يضيع القلم و القرطاس بذكر هؤلاء الأرجاس .

و أمّا القسم الثاني وهو الاختلاف الحاصل بسبب الأنبياء عليهم السلام فتقسيمه أن يقال: القائلون بالفاعل المختار إمّا أن يكونوا معترفين بوجود الأنبياء أو لا يكونوا معترفين بذلك ، أمّا المعترفون بذلك فامّا أن يكونوا أتباعاً لمن كان نبيّاً في الحقيقة أو لمن كان متنبّئاً أمّا أتباع الأنبياء عليهم السلام فهم المسلمون و اليهود و النصارى و فرقة اُخرى بين اليهود و النصارى و هم الصابئون و أمّا أتباع المتنبّيء فهم المجوس ، و أمّا المنكرون للأنبياء على الإطلاق فهم عبدة الأصنام و الأوثان وهم المسمّون بالمشركين و يدخل فيهم البراهمة على اختلاف طبقاتهم فالأديان الحاصلة بسبب الاختلافات هي هذه الستّة الّتي ذكرها الله في الآية و هذه الستّة تتشعّب شعباً كثيرة واحدة لله و هو الإسلام و الباقي للشيطان .

و بالجملة [إنّ الله يفصل بينهم يوم القيامة] و يبيّن المحقّ من المبطل فيبيّض وجه المحقّ و يسوّد وجه المبطل و الفصل يمكن أن يقع باُمور متعدّدة في الأحوال و الأماكن و العلائم غير البياض و السواد [إنّ الله على كلّ شيء شهيد] عليم مطلّع على ما من شأنه أن يشاهد بعلمه قبل أن يكون لأنّه علاّم الغيوب .

ثمّ خاطب النبيّ والمكلّفين فقال : [ألم] تعلم [أنّ الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض] من العقلاء .

فلو قيل : إنّ جميع من في الأرض لا يسجدون لله .

فالجواب من وجهين: الأوّل : لو لا قوله : [و كثير من الناس] ـ خبره «مثاب» محذوف بقرينة حقّ عليه العذاب ـ لكان الإيراد وارداً لكنّه بقوله : و كثير يبيّن أنّ البعض يسجدون و البعض لا يسجدون . هذا إذا كان المراد بالسجود هذا الفعل

المخصوص و أمّا إذا كان المراد من معنى السجود الانقياد و الذلّة لخالقها فالكلّ من الموجودات مشترك و داخل في السجود و ليس شيء إلّا يسبّح بحمده و بيانه أنّ كلّ ما سوى الله تعالى مفتقر ممكن لذاته و الممكن لذاته لا يترجّح وجوده على عدمه إلّا عند الانتهاء إلى الواجب لذاته كما قال سبحانه : « و أنّ إلى ربّك المنتهى (١) » و كما أنّ الإمكان لازم للممكن حال حدوثه و حال بقائه فافتقاره إلى الواجب حاصل حال حدوثه و حال بقائه و هذا الافتقار الذاتيّ اللازم للماهيّة أدلّ على الذلّة والخضوع من وضع الجبهة على الأرض و إنّ وضع الجبهة على الأرض علامة وضعيّة للدلالة على الذلّة و الانقياد و الافتقار الذاتيّ و قد يتطرّق إليه الكذب أمّا نفس الافتقار الذاتيّ فممتنع التغيّر فجميع الممكنات ساجدة و خاضعة متذلّلة لله بهذا المعنى أو المراد سجود ظلّها كقوله : « يتفيّؤ ظلاله عن اليمين و الشمائل سجّداً لله وهم داخرون (٢) » .

قوله : [و كثير حقّ عليه العذاب] وانقطع ذكر الساجدين ثمّ ابتدأ فقال : و كثير حقّ عليه العذاب أي ممّن أبى السجود ولا يوحّده .

[و من يهن الله فما له من مكرم] أي من يهينه الله و يشقيه و يدخله جهنّم فماله من مكرم بالسعادة و لايملك العقوبة والمثوبة سواه [إنّ الله يفعل ما يشاء] من الإنعام و الانتقام بالفريقين من المؤمن و الكافر .

و في التوحيد عن الصادق عليه السلام عن أبيه عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قيل له : إنّ رجلاً يتكلّم في المشيّة فقال : ادعه لي قال : فدعي له فقال له : ياعبدالله خلقك الله لماشاء أولما شئت ؟ قال: لماشاء ، قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : إذا شاء قال : فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : إذا شاء قال : فيدخلك حيث يشاء أو حيث تشاء ؟ قال : حيث يشاء قال : فقال عليّ عليه السلام :لو قلت غير هذا لضربت الّذي فيه عيناك .

قوله تعالى : هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤسهم الحميم(١٩) يصهر به ما في بطونهم

(١) النجم : ٤٤ .
(٢) النحل : ٤٨ .

والجلود (٢٠) و لهم مقامع من حديد (٢١) كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها و ذوقوا عذاب الحريق (٢٢) ان الله يدخل الذين آمنوا و عملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار يحلون فيها من أساور من ذهب و لؤلؤاً ولباسهم فيها حرير (٢٣) و هدوا الى الطيب من القول و هدوا الى صراط العزيز الحميد (٢٤).

النزول: نزلت في ستّة نفر من المؤمنين و الكفّار تبارزوا يوم بدر: حمزة بن عبدالمطّلب قتل عتبة بن ربيعة، و عليّ بن أبي طالب عليه السلام قتل الوليد بن عتبة، و عبيدة بن الحارث بن عبد المطّلب قتل شيبة بن ربيعة، عن أبي ذر الغفاري و عطاء، و كان أبوذر يقسم بالله أنّها لنزلت فيهم، و رواه البخاري في الصحيح أيضاً. و قيل: نزلت في أهل القرآن و أهل الكتاب. و قيل: في المؤمنين والكافرين.

المعنى: لمّا تقدّم ذكر المؤمنين و الكافرين شرح في هذه ما أعدّ الله لهما فقال: [هذان خصمان اختصموا] الخصم يستوي فيه الواحد و الجمع والمذكّر والمؤنّث يقال رجل خصم ورجلان خصم ورجال خصم؛ فيجوز في الكلام أن يقال: هذان خصمان اختصموا و هؤلاء خصم اختصموا قال: «و هل أتاك نبأ الخصم إذا تسوّروا المحراب [1]»، و هكذا حكم المصادر لو اُخبر بها نحو عدل وصوم و فطر و إنّما قال في الآية: «خصمان» تثنية الجمعين و ليس المراد برجلين مثل قوله: «و إن طائفتان من المؤمنين [2]».

و بالجملة هذان خصمان أي جمعان، فالفرق الخمسة الكافرة خصم والمؤمنون خصم و قد ذكرهم الله في الآية السابقة بقوله: «إنّ الّذين آمنوا و الّذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس و الّذين أشركوا [3]» اختصموا [في] دين [ربّهم] فقالت اليهود والنصارى للمسلمين: نحن أولى بالله منكم لأنّ نبيّنا قبل نبيّكم و ديننا قبل دينكم و قال المسلمون: بل نحن أحقّ بالله منكم آمنّا بكتابنا و بكتابكم و نبيّنا و نبيّكم و كفرتم أنتم بنبيّنا حسداً فهذا خصومتهم وقيل: خصومتهم يوم بدر فبيّن الله ما أعدّ

(١) ص: ٢١.
(٢) الحجرات: ١٠.
(٣) الحج: ١٧.

للخصمين وقوله «هذان» أتى بالتثنية باعتبار اللفظ و «اختصموا» باعتبار المعنى.

قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام : أنا أوّل من يجثو للخصومة بين يدي الله القمي قال : نحن و بنو اُميّة ؛ نحن قلنا : صدق الله ورسوله وقالت بنو اُميّة : كذب الله ورسوله و في الخصال مثله و زاد : فنحن الخصمان يوم القيامة.

[فالّذين كفروا] فصّلت [و قطّعت لهم ثياب] على قدر جثثهم الخبيثة ثياب [من نار] و لعلّ المراد بالثياب إحاطة النار بهم كقوله : « لهم من جهنّم مهاد ومن فوقهم غواش [1] » ولكن هذا المعنى خلاف الظاهر و الأولى قول سعيد بن جبير: ثياب من نحاس اُذيب بالنار يلبسونها نحو قوله تعالى : « سرابيلهم من قطران [2] » و أخرج الكلام بلفظ الماضي كقوله : « و نفخ في الصور » لأنّ ماكان من أمر الآخرة فهو كالواقع.

و [يصبّ من فوق رؤوسهم] الماء المغليّ الحارّ [يصهر به] و يذاب بسبب ذلك الماء [ما في بطونهم والجلود] فيذاب أحشاؤهم كما يذاب به جلودهم قال ابن عبّاس: لو سقطت منه قطرة على جبال الدنيا لأذابتها . و هو مثل قوله تعالى : « و سقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم [3] » بل أبلغ.

قوله : [ولهم مقامع] المقامع السياط و مايضرب به في الحديث : لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما نقلوها و ما أقلعوها من الأرض.

[كلّما أرادوا أن يخرجوا منها] من الغمّ و الكرب الّذي يأخذ بأنفاسهم اُعيدوا فيها أي كلّما حاولوا الخروج من النار [اُعيدوا فيها] قهراً و ذلك أنّ النار ترميهم بلهبها حتّى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بمقامع و أعمدة من حديد فهووا فيها سبعين خريفاً فإذا انتهوا إلى أسفلها ضربهم زفير لهبها فلايستقرّون ساعة.

[و يقال لهم ذوقوا عذاب الحريق] والذوق طلب إدراك الطعم و الحريق الغليظ من النار العظيم الاهلاك.

(١) الاعراف : ٤٠ .
(٢) ابراهيم : ٥٠ .
(٣) محمد : ١٥ .

و هذا الترتيب لأحد الخصمين و للخصم الآخر الّذين هم المؤمنون فقال : [إنّ الله يدخل الّذين آمنوا] بالله و أقرّوا وحدانيّته [وعملوا الصالحات جنّات تجري من تحتها الأنهار] فذكر سبحانه حكمه في المؤمنين بأربعة أوجه :

المسكن بقوله « جنّات » .

والثاني الحلية و الزينة أي يلبسون افتخاراً الحليّ والحلل يحلّون في الآخرة والجنّة من أساور و هي حليّ اليد من ذهب و لؤلؤ .

والثالث [لباسهم فيها حرير] أي ديباج حرّم سبحانه في الدنيا على الرجال لبس الحرير وشوّقهم في الآخرة بعوضها فبيّن أنّ ما حرمتم في الدنيا تستدركون في الآخرة و لو قلت : إن النساء شاركنهم في الآخرة مع أنّها ليست بمحرّمة عليهنّ في الدنيا و ذلك المحلّل لهنّ في الدنيا بالنسبة إلى الآخرة ليس بشيء و هو يسير .

والرابع [وهدوا إلى الطيّب من القول] و فيه وجوه اُرشدوا وخوطبوا في الجنّة بالتحيّات الحسنة يحيّي بعضهم بعضاً و يحيّيهم الله و ملائكته . و قيل : اُرشدوا إلى شهادة أن لا إله إلّا الله و الحمدلله والله أكبر . و قيل : إلى القرآن . و قيل : إلى القول الّذي يلتذّونه و يشتهونه و يطيب به نفوسهم و يمكن أن يؤوّل بوجه آخر و هو أنّ العلاقة البدنيّة جارية مجرى الحجاب للأرواح البشريّة في الاتّصال بعالم القدس فإذا فارقت أبدانها انكشف الغطاء ولاحت الأنوار الإلهيّة فظهور تلك الأنوار الهداية [إلى صراط الحميد] .

قوله تعالى : ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم (٢٥) و اذبوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئاً و طهر بيتى للطائفين والقائمين و الركع السجود (٢٦) و اذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا و على كل ضامر يأتين من كل فج عميق (٢٧) ليشهدوا منافع لهم و يذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير (٢٨) ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم و ليطوفوا بالبيت العتيق (٢٩) ذلك و من يعظم حرمات الله فهو

خير له عند ربه و احلت لكم الانعام الا مايتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور (٣٠) .

النزول : قال ابن عبّاس : نزلت الآية في أبي سفيان بن حرب و أصحابه حين صدّوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عام الحديبية عن المسجد الحرام عن أن يحجّوا و يعتمروا و ينحروا الهدي فكره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قتالهم و كان محرماً بعمرة ثمّ صالحوه على أن يعود في العام القابل .

و بالجملة [إنّ الّذين كفروا و يصدّون] الناس [عن] طاعته و عطف المضارع لعلّ المراد بالمضارع الماضي و يؤيّده قوله: « الّذين كفروا و صدّوا عن سبيل الله[1] » و يمكن أن يكون المراد كفروا فيما مضى و هم الآن يصدّون و يمنعونهم عن عبادة الله [و] عن [المسجد الحرام] الّذي جعلناه للنّاس مستقرّاً ومنسكاً و متعبّداً . أو المعنى أنّه جعلناه للنّاس وقفاً لم يخصّ به بعض دون بعض .

ثمّ قال : [سواء] أي جعلنا المقيم و الغريب فيه سواء . و كلمة « سواء » مفعول ثان لجعلناه . و قيل : معنى العاكف الغريب إذا جاوره و لزمه للتعبّد و إن لم يكن من أهله .

و اختلفوا في معنى التسوية قال ابن عبّاس: يستويان في سكنى مكّة و النزول بها فليس أحد هما أحقّ بالمنزل من الآخر إلّا أن يكون واحد أسبق في النزول من الآخر وعلى هذا كراء دور[2] مكّة و بيعها حرام فسبيلها سبيل المساجد للأمّة والخبر قال صلى الله عليه وآله وسلم : مكّة مباح لمن سبق إليها .

والقول الثاني أنّ المراد من التسوية أن جعل الله الناس في العبادة في المسجدسواء ليس للمقيم أن يمنع البادي و بالعكس . و المراد من المسجد الحرام قيل : عين المسجد الّذي يصلّى فيه . و قيل : المرادالحرم كلّه لقوله: « أسرى بعبده من المسجد الحرام[3] »

(١) محمد : ١ .

(٢) جمع الدار .

(٣) بني اسرائيل : ١ .

وهو صلى الله عليه وآله وسلم ما كان في نفس المسجد بل عرج من بيت أمّ هانىء.

و الحاصل: جعلناه للنّاس قبلة لصلاتهم و منسكاً لحجّهم فالعاكف والباد سواء في حكم النسك؛ و ذلك لأنّ المشركين كانوا يمنعون المسلمين عن الصلاة في المسجد الحرام والطواف به ويدّعون أنّهم أربابه و ولاته؛ في الحديث: قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: يا بني عبد مناف من ولّى منكم من أمور الناس شيئاً فلايمنعنّ عن أحدأطاف بهذا البيت أوصلّى أيّة ساعة من ليل أو نهار.

أمّا قوله: [و من يرد فيه بإلحاد] بفتح الياء أيضاً قرىء من الورود، و معناه: و من يرد أن يميل فيه عن الحقّ إلى الباطل ظالماً. قيل: هوالشرك و عبادة غيرالله فيه. و قيل: كلّ شيء نهي عنه حتّى شتم الخادم ولو دخول مكّة من غير إحرام لأنّ الذنوب هناك أعظم.

قال ابن عبّاس: نزلت في عبدالله بن سعد حيث استسلمه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فارتدّ مشركاً أوفي عبدالله بن قطل حين قتل الأنصاريّ وهرب إلى مكّة كافراً فأمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بقتله يوم الفتح كافراً. وقيل: المراد قتل مانهى الله عنه من الصيد و ارتكاب مالا يحلّ للمحرم. وقيل: إنّه الاحتكار. وقيل: المنع عن عمارته. وقيل: قول الرجل في المبايعة لاوالله و بلى والله. وقول المحقّقين: أنّ الإلحاد بظلم عامّ في كلّ المعاصي.

قال ابن مسعود: لوأنّ رجلاً بعدن هَمّ بأن يعمل سيّئة عند البيت أذاقه الله عذاباً أليماً.

و في نهج البلاغة في كتاب كتبه أمير المؤمنين عليه السلام إلى قثم بن العبّاس بن عبد المطّلب و هو عامله على مكّة و أمر أهل مكّة أن لا يأخذوا من ساكن أجراً فإنّ الله سبحانه يقول: «سواء العاكف فيه والباد» والعاكف المقيم به و البادي الّذي يحجّ إليه من غير أهله.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام: إنّ معاوية أوّل من علّق على بابه مصراعين بمكّة فمنع حاجّ بيت الله مع ماقال الله عزّ وجلّ: «سواء العاكف والباد» كان الناس إذا قدموامكّة نزل البادي على الحاضر حتّى يقضي حجّه و كان معاوية صاحب السلسلة الّتي قال الله سبحانه:

« في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً »[(١)] وكان فرعون هذه الاُمّة .

وفي التهذيب عنه عليه السلام : كانت دور مكّة ليس على شيء منها باب و كان أوّل من علّق على بابه المصراعين معاوية بن أبي سفيان وليس ينبغي لأحد أن يمنع الحاجّ شيئاً من دور مكّة ومنازلها .

وفي العلل عنه عليه السلام في هذه الآية قال : لم يكن ينبغي أن يوضع على دور مكّة أبواب لأنّ للحاجّ أن ينزلوا معهم في دورهم في ساحة الدار حتّى يقضوا مناسكهم ، وإنّ أوّل من جعل لدور مكّة أبواباً معاوية وقد استحقّ ما أعدّ الله له من عذاب الحريق .

القمّي في تفسير العذاب الحريق عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام قال : قلت له : يا ابن رسول الله خوّفني فإنّ قلبي قسا فقال : يا با محمّد استعدّ للحياة الطويلة فإنّ جبرئيل جاء إلى رسول الله وهو قاطب و قد كان قبل ذا يجيء متبسّماً فقال رسول الله : يا جبرئيل جئتني اليوم قاطباً ؟ فقال : يا محمّد قد وضعت منافخ النار ، فقال : و ما منافخ النار يا جبرئيل ؟ فقال : يا محمّد إنّ الله عزّ وجلّ أمر بالنار فنفخ عليها ألف عام حتّى ابيضّت ثمّ نفخ عليها ألف عام حتّى احمرّت ثمّ نفخ عليها ألف عام حتّى اسودّت فهي سوداء مظلمة لو أنّ قطرة من الضريع قطرت في شراب أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها و لو أنّ حلقة واحدة من السلسلة الّتي طولها سبعون ذراعاً وضعت على جبال الدنيا لذابت من حرّها ولو أنّ سربالاً من سرابيل أهل النار علّق بين السماء و الأرض لمات أهل الأرض من ريحه و وهجه قال : فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و بكى جبرئيل فبعث الله إليهما ملكاً فقال لهما : ربّكما يقرؤكما السلام و يقول : قد أمنتكما أن تذنبا ذنباً اُعذّبكما عليه فقال أبو عبدالله عليه السلام : فمارئي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ضاحكاً بعد ذلك فقال : أبو عبدالله عليه السلام حسبك يا با محمّد ؟ قلت : حسبي حسبي .

و بالجملة قال الصادق عليه السلام : كلّ ظلم إلحاد . و سئل عن أدنى الإلحاد فقال : إنّ الكبر أدناه حتّى أنّ في العلل عنه عليه السلام : أنّه قيل له : إنّ سبُعاً من سباع الطير على الكعبة ليس يمرّ به شيء من حمام الحرم إلّا ضربه فقال : انصبوا له و اقتلوه فإنّه قد

(١) الحاقة : ٣٢ .

ألحد في الحرم .

و في الكافي عنه عليه السلام في هذه الآية قال : نزلت فيهم حيث دخلوا الكعبة فتعاهدوا و تعاقدوا على كفرهم وجحودهم بما نزل في أميرالمؤمنين عليه السلام فألحدوا في البيت بظلمهم الرسول ووليّه فبعداً للقوم الظالمين .

والقمّي قال : نزلت فيمن يلحد في أميرالمؤمنين عليه السلام و يظلمه .

قوله تعالى : [و إذبوّأنا لإبراهيم مكان البيت] أي واذكر حين جعلنا لإبراهيم مكان البيت مباءة و مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة . و كان قد رفع البيت إلى السماء أيّام الطوفان و كان من ياقوتة حمراء فأعلم الله سبحانه إبراهيم مكانه بريح أرسلها فكشفت ما حوله فبناه على وضعه الأوّل ، وقيل : اُمر إبراهيم بأن يأتي موضع البيت ويبني فخفي عليه مكان البيت فبعث الله على قدر البيت الحرام في العرض والطول غمامة و فيها رأس يتكلّم و له لسان و عينان فقال : يا إبراهيم ابن علي قدري و حيالي فأخذ في البناء و ذهبت السحابة .

قوله : [أن لاتشرك بي شيئاً] وحاصل معنى التبوئة لإبراهيم و جعله مسكناً له لأن يكون بقلبه موحّداً لربّ البيت عن الشريك و يكون مكلّفاً بتطهير البيت و تنظيفه عن الأوثان والشرك و عبادة الأصنام و معنى « لا تشرك بالله » و الحالة أنّ إبراهيم لم يشرك بالله أنّه لاتشرك بي غرضاً آخراً في بناء البيت و كذلك لا تشرك في العبادة غيري .

فلو قيل : إنّ البيت ما كان معموراً في زمن إبراهيم فكيف قال : [وطهّر بيتي] ؟ يمكن أن يكون ذلك المكان كان صحراء وكانوا يرمون إليها الأقذار فاُمر بتطهيره أو كانوا قد وضعوا فيها أصناماً لمّا قد سمعوا أنّ قبلهم كانوا جماعة يعبدون الأصنام فاُمر بتخريب ذلك البناء و وضع بناء جديد وذلك هو التطهير عن الأوثان ، أو المراد أنّك بعد أن تبنيه فطهّره عمّا لاينبغي من الشرك و قول الزور .

و أمّا قوله : [للطائفين و القائمين و الركّع] أي للطائفين بالبيت من غير أهل مكّة والقائمين أي المقيمين بها والركّع [السجود] أي من المصلّين و الجامعين بين الركوع و السجود .

قوله [و أذّن في الناس] أي وناد يا إبراهيم في الناس و أعلمهم بوجوب الحجّ .

واختلف في المخاطب به على قولين :

أحدهما أنّه إبراهيم عليه السلام عن عليّ عليه السلام و ابن عبّاس و اختاره أبو مسلم .قال ابن عبّاس : قام إبراهيم عليه السلام في المقام فنادى: ياأيّها الناس إنّ الله دعاكم إلى الحجّ فأجابوا بلبّيك اللهمّ لبّيك .

والثاني أنّ المخاطب به محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فأذّن في حجّة الوداع أي أعلمهم بوجوب الحجّ .

ولكن جمهور المفسّرين على القول الأوّل وقالوا : قد أسمع الله تعالى قول إبراهيم كلّ من سبق علمه بأنّه يحجّ إلى يوم القيامة كما أسمع سليمان مع ارتفاع منزلته و كثرة جنوده حوله صوت النملة مع خفضه و سكونه . و في رواية عطا عن ابن عبّاس قال : لمّا أمر الله سبحانه إبراهيم أن ينادي في الناس بالحجّ صعد أباقبيس و وضع إصبعيه في اُذنيه و قال : أيّها الناس أجيبوا ربّكم فأجابوه بالتلبية في أصلاب الرجال وأوّل من أجابه أهل اليمن .

[يأتوك رجالاً] أي مشاة على أرجلهم [وعلى كلّ ضامر] أي ركباناً يريد الإبل ولا يدخل بعير ولاغيره الحرم إلّا وقد هزل . وروى سعيدبن جبير عن ابن عبّاس أنّه قال لبنيه : يا بنيّ حجّوا إليها مشاة فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : للحاجّ الراكب بكلّ خطوة يخطوها راحلته سبعون حسنة وللحاجّ الماشي بكلّ خطوة يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم ، قيل : وما حسنات الحرم ؟ قال : الحسنة بمائة ألف .

[يأتين من كلّ فجّ عميق] الضمير راجع إلى جماعة الإبل الضامرة وقرىء « يأتون » صفة للرجال . و قرىء « الرجال » كنيام جمع نائم و قرىء « رجالاً » بضمّ الراء مخفّف الجيم و مثقّله ، و « رجّال » مشدّدة كعجّال . وبدأ الله بذكر المشاة تشريفاً لهم . و إنّما قال في الآية « يأتوك » لأنّ إبراهيم عليه السلام هو الّذي نادى الناس فكأنّه هو المأتيّ من كلّ طريق بعيد .

و روي مرفوعاً عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إنّ الله تعالى يباهي بأهل عرفات الملائكة يقول : انظروا إلى عبادي شعثاً غبراً أقبلوا يضربون[1]

(١) من الضرب في الارض بمعنى السفر .

إلي من كل فج عميق فاُشهد كم أنّي قدأجبت دعاءهم و شفعت رغبتهم و وهبت مسيئهم لمحسنهم و أعطيت محسنهم جميع ما سألوني غير التبعات الّتي بينهم فإذا أفاض القوم إلى جمع ووقفوا وعادوا في الرغبة والطلب إلى الله يقول : يا ملائكتي عبادي وقفوا و عادوا في الرغبة والطلب فاُشهد كم أنّي قد أجبت دعاءهم و شفعت رغبتهم و وهبت مسيئهم لمحسنهم و أعطيت محسنهم جميع ماسألني و كفّلت عنهم بالتبعات الّتي بينهم .

و في الكافي و التهذيب عن الصادق عليه السلام قال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقام بالمدينة عشرسنين لم يحجّ ثمّ أنزل الله : «وأذّن في الناس بالحجّ » الآية ، فأمر المؤذّنين أن يؤذّنوا بأعلى أصواتهم : إنّ رسول الله يحجّ في عامه هذا فعلم به من حضر بالمدينة و أهل العوالي و الأعراب و اجتمعوا بحجّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإنّما كانوا تابعين ينظرون ما يؤمرون به فيتّبعونه أويضع شيئاً فيضعونه الحديث .

أمّا قوله : [ليشهدوا منافع لهم] قيل : المرادالمنافع للتجارات في الدنيا والثواب في الآخرة . و قيل : المرادمنافع الآخرة وهي العفو و المغفرة و هو المرويّ عن الباقر عليه السلام أي ليحضروا ماندبهم الله إليه من النفع و إنّما نكّر المنافع لأنّه أراد منافع راجعة مختصّة بهذه العبادة دينيّة و دنيويّة لاتوجد في غيرها .

[و يذكروا اسم الله في أيّام معلومات] و اختلف في هذه الأيّام و في الذكر فيها فقيل : أيّام العشر و إنّما قيل لها «معلومات»للحرص على علمها من أجل أنّ وقت الحجّ في آخرها و منافع عملها معروفة كيوم عرفة و المشعر الحرام و كذلك يوم النحر فالمعلومات عشر ذي الحجّة والمعدودات أيّام التشريق . و قيل : بالعكس .

و المراد بالذكر قيل : التسمية على ما ينحر لأنّ المسلم إذا ذبح و نحر يذكر اسم الله لأنّ الغرض الأصليّ فيما يتقرّب به أن يذكر اسم الله و أن يخالف المشركين حيث إنّهم يذكرون اسم آلهتهم وقت الذبح والنحر وإنّ المسلم إذا ذبح يتصوّر بإراقة دمها بصورة من يفدي نفسه فكأنّه يبذل تلك الذبيحة عوض مهجته طلباً لمرضاة الله . وقيل: إنّ الذكر كناية عن الذبح و لمّا كان صحّة الذبح بالتسمية سمّي ماسمّي الذبح بالذكر توسّعاً . وقيل : هوالتكبير ؛ قال أبوعبدالله عليه السلام : التكبير بمنى عقيب خمس عشر صلوات

أوّلها لصلوة الظهر من يوم النحر يقول: الله أكبر الله أكبر لا إله إلّا الله و الله أكبر الله أكبر الله أكبر لله الحمد الله أكبر على ماهدانا و الحمد لله على ما أبلانا و الله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام أصلها من الإبهام وذلك أنّها لاتفصح كمايفصح الحيوان الناطق و الأنعام الإبل و اشتقاقها من النعومة وهي اللين سمّيت بذلك للين أخفافها وقد يجتمع معها الغنم و البقر فيسمّى الجميع أنعاماً اتّساعاً و ان انفردا لم يسمّيا أنعاماً .

[فكلوا منها و أطعموا البائس الفقير] أي فكلوا من بهيمة الأنعام الّتي تذبحونها و هذا إباحة و ندب و ليس بواجب وقيل : بوجوب الأكل لأنّ أهل الجاهليّة ما كانوا يأكلونها ترفّعاً على الفقراء وأطعموا منها الّذي ظهر عليه أثر البؤس من الجوع و العرى و قيل : البائس الّذي يمدّ يده بالسؤال و يتكفّف للطلب أمر سبحانه أن يعطي هؤلاء من الهدي ثمّ بعد الهدي [وليقضوا] ليزيلوا [تفثهم] و التفث كلّ كراهة تلحق الإنسان فحينئذ يدفعون عن أنفسهم كقصّ الشارب و تقليم الأظافير و إزالة شعر العانة و غسل و استعمال طيب وأمثالها . قال المبرّد : أو تطفوابه سألت أعرابيّاً ما معنى التفث ؟ قال : ما اُفسّر القرآن لكنّا نقول للرجل : ماأتفثك أي ماأدرنك .

[وليوفوا نذورهم و ليطّوّفوا بالبيت العتيق] و قرىء بتشديد الفاء في « يوفوا» أي و ليتمّوا نذورهم الّتي نذروها من أعمال البرّ في أيّام الحجّ . و لم يقل : « بنذورهم» لأنّ المراد بالإيفاء الإتمام . قال ابن عبّاس : هو نحر ما نذروا من البدن أو المراد الإيفاء بما نذر الإنسان أن يتصدّق إن رزقه الله الحجّ . قال الطبرسيّ : و إن كان على الرجل نذور مطلقة الأولى و الأفضل أن يفي بها هناك .

و في الكافي عن الباقر عليه السلام : و ليوفوا نذورهم فيمرّوا بنا فيخبروا بولايتهم و يعرضون علينا نصرتهم و ليطّوّفوا بالبيت العتيق .

في الكافي عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عنه فقال : هو طواف النساء الّذي يستباح به و ط ء النساء و ذلك بعد طواف الزيارة فانّه إذا طاف طواف الزيارة حلّ له كلّ شيء إلّا النساء وسمّي عتيقاً لأنّه اُعتق من أن يملكه العبيد أولأنّه اُعتق من الطوفان و غرقت الأرض كلّها إلّا موضع البيت أو معنى العتيق القديم و هو أوّل بيت وضع

للنّاس بناه آدم و جدّده إبراهيم .

[ذلك و من يعظّم حرمات الله فهو خير له عند ربّه] أي أمر الحجّ و المناسك ذلك و التعظيم و حرمة مالا يحلّ انتهاكه و تفخيم مناسكها خير عندالله في الآخرة و قيل : المراد بالحرمات ههنا البيت الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام .

[و اُحلّت لكم الأنعام إلّا ما يتلى عليكم] ثمّ عاد إلى بيان حكم فقال : و اُحلّت فقد كان يجوز أن يظنّ أنّ الإحرام إذا حرّم الصيد و غيره فالأنعام أيضاً تحرم عليه فبيّن الله أنّ الإحرام لا يؤثّر فيها فهي محلّلة و استثني منها مايتلى في كتاب الله من المحرّمات في سورة المائدة مثل مالم يذكر اسم الله عليه و الموقوذة و المنخنقة و الميتة و أشباهها .

[فاجتنبوا الرجس من الأوثان] أي اجتنبوا الرجس الّذي هو الأوثان و روى أصحابنا أنّ اللعب بالشطرنج والنرد و أنواع القمار من ذلك و قيل : إنّهم كانوا يلطّخون الأوثان بدماء قرابينهم فسمّي ذلك رجساً .

[و اجتنبوا قول الزور] يعني الكذب . و قيل : المراد هو تلبية المشركين: لبّيك لا شريك لك إلّا شريكاً هو لك تملكه و ما ملك . و روى أصحابنا أنّه يدخل فيه الغناء و سائر الأقوال الملهية . وروى أيمن بن خريم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قام خطيباً فقال: أيّها النّاس عدلت شهادة الزور بالشرك بالله ثمّ قرأ : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان و اجتنبوا قول الزور » يريد أنّه سبحانه قدجمع في النهي بين عبادة الوثن وشهادة الزور .

قوله تعالى : حنفاء لله غير مشركين بالله ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فيمكان سحيق (٣١) ذلك و من يعظم شعائرالله فانها من تقوى القلوب (٣٢) لكم فيها منافع الى أجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق (٣٣) و لكل امة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام فالهكم اله واحد فله أسلموا و بشر المخبتين (٣٤) الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٣٥) .

أي كونوا مستقيمي الطريقة على أمر الله و مائلين إلى دين الله و مخلصين إليه، و «حنفاء» منصوب على الحال ، أي تمسّكوا بهذه الاُمور الّتي اُمرتم على وجه العبادة لله وحده لا على وجه إشراك غير الله به [غير مشركين] بالله .

[و من يشرك بالله فكأنّما خرّ من السماء] و سقط من السماء فتأخذه الطير بسرعة أي بعد الانخرار و السقوط تخطّف الطير لحمه [أو تهوي به الريح] و تسقطه [في مكان سحيق] مفرط في البُعد كبعض المهاوي المهلكة المتلفة و أصل « تخطفه» تختطفه فشبّه سبحانه من أشرك حاله بحال من خرّ من السماء و اختطفته الطير فتفرّقت أجزاؤه في حواصلها أو بحال من عصفت به الريح حتّى هوت به و أسقطته في المهالك البعيدة فشبّه الإيمان في علوّ مقامه بالسماء، و شبّه الشرك بالساقط و المهويّ المجتذبة للطيور السباع الغائبة في حواصلها والشيطان الّذي يطرحه في ذلك الضلال بتلك الريح الّتي أهوته فهو هالك لا محالة .

[ذلك] أي الأمر ذلك الّذي ذكرنا [و من يعظّم شعائر الله] أي الأعلام الّتي نصبها الله لطاعته . ثمّ اختلف في ذلك فقيل : هي مناسك الحجّ كلّها . و قيل : هي البدن و تعظيمها استسمانها وعن ابن عبّاس في رواية مقسم: والشعائر جمع شعيرة و هي البدن إذا أشعرت و أعلمت عليها بأن يشقّ سنامها من الجانب الأيمن ليعلم أنّها هدي فالّذي يهدي مندوب إلى طلب الأثمن والأغلى و يختارها عظام الأجسام سماناً غالية الأثمان و ترك المكاسن في شرائها و قد كانوا يتغالون في ثلاثة ويكرهون المكاسن في الثلاثة: الهدي و الاُضحية والرقبة .

[فإنّها من تقوى القلوب] فإنّ تعظيمها من تقوى القلوب ، حذف المضاف واُقيم المضاف إليه مكانه و أضاف التقوى إلى القلوب لأنّ حقيقة التقوى تقوى القلوب وصدق النيّة.

القميّ قال : المراد تعظيم البدن وجودتها . و في الكافي عن الصادق عليه السلام: إنّما يكون الجزاء مضاعفة فيما دون البدنة فإذا بلغ البدنة فلا تضاعف لأنّه أعظم ما يكون قال الله: « و من يعظّم شعائر الله فإنّها من تقوى القلوب» وعن الصادق عليه السلام في قصّة حجّة الوداع: و كان الهدي الّذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله أربعة و ستّين أو ستّة و ستّين بدنة و جاء

علي عليه السلام بأربعة وثلاثين أو ستّة وثلاثين . وروي عن طريق العامّة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برّة من ذهب .

[لكم فيها منافع إلى أجل مسمّى] اعلم أنّ قوله « لكم فيها منافع » لايليق إلّا بأن تحمل الشعائر على الهدي الّذي فيه منافع من ركوبها و نسلها و أصوافها و أوبارها و ألبانها، إلى أجل مسمّى أي وقت النحر ومن قال : إنّ الشعائر مناسك الحجّ ودين الله فالمراد من المنافع الأجر و الثواب والأجل المسمّى القيامة .

[ثمّ محلّها إلى البيت العتيق] أي محلّ الهدي و النحر و وجوب نحرها منتهية إلى البيت كقوله : « هدياً بالغ الكعبة »[1] يعني حيث يحلّ نحرها . و أمّا البيت العتيق قيل : محلّه الحرم كلّه و دليله «فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا[2] » أي الحرم كلّه فالمنحر على هذا القول كلّ مكّة ولكنّها تنزّهت عن الدماء إلى منى و منى من مكّة . و قال أصحابنا : إن كان الهدي للحجّ فمحلّه منى و إن كان للعمرة المفردة فمحلّه مكّة قبالة الكعبة بالجزورة، ومحلّها حيث يحلّ نحرها .

[و لكلّ اُمّة جعلنا منسكاً] و قرىء « منسكاً » بكسر السين و بالفتح أمّا الفتح فمعناه نسكاً و عبادة مصدر ميميّ و بالكسر بمعنى الموضع و المعنى : إنّا شرعنا لكلّ اُمّة من الاُمم السالفة من عهد إبراهيم إلى من بعده ضرباً من القربان، وجعل العلّة في ذلك أن يذكروا اسم الله عليها و العرب كانت تذبح للصنم فسمّي العتير والعتيرة كالذبيح و الذبيحة .

[فإلهكم إله واحد فله أسلموا و بشّر المخبتين] و كيفيّة النظم على وجهين : أحدهما أنّ الإله واحد و إنّما اختلفت الشرائع باختلاف الأزمنة و المصالح بحسب حال المكلّف .

الثاني : فإلهكم إله واحد فلا تذكروا على ذبائحكم غير اسم الله فله أسلموا و أخلصوا له الذكر خاصّة بحيث لا يشوبه اشتراك البتّة فكونوا منقاداً له ، ومن كان

(١) المائدة : ٩٨ .
(٢) البراءة : ٢٩ .

كذلك كان مخبتاً فلذلك قال : «وبشّر المخبتين» و المخبت المتواضع المخلص الخاشع أي بشّر المطمئنّين إلى الله .

ثمّ وصفهم فقال : [الّذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم] أي إذا خوّفوا بالله خافوا، و لذلك الرجل أثران : أحدهما الصبر على المكاره و هو المراد بقوله : [الصابرين على ما أصابهم] و على ما يكون من قبل الله كالأمراض و المحن و المصائب وأمّا ما يصيبهم من قبل الظلمة أو من قبل أنفسهم فالصبر غير واجب بل إن أمكنه الدفع عن نفسه لزمه الدفع [و المقيمي الصلاة] أي الخدمة بنفسه و ماله أمّا الخدمة بالنفس إقامة الصلاة والخدمة بالمال وهو المراد من قوله : [و ممّا رزقناهم ينفقون] وهذان القسمان من الخدمة. الأثر الثاني في حصول الوجل .

قوله تعالى : والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها و أطعموا القانع و المعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون (٣٦) لن ينال الله لحومها ولا دماؤها و لكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم و بشر المخبتين (٣٧) ان الله يدافع عن الذين آمنوا ان الله لا يحب كل خوان كفور (٣٨) اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير (٣٩) الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع و بيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراو لينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز (٤٠)

«البدن» جمع بدنة سمّيت بذلك لعظم بدنها و جثّتها وهي الإبل لكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألحق البقر بالإبل، وقال قوم : البدن الإبل و البقر الّتي يتقرّب بها إلى الله في الحجّ و العمرة لأنّه إنّما سمّي بذلك لعظم البدن فالأولى دخولها فيه، أمّا الشاة فلا تدخل وإن كانت تجوز في النسك لأنّها صغيرة الجسم فلا تسمّى بدنة و كلّ ضخم بدن .

قوله : [و البدن] أي [جعلنا] البدن [لكم] من أعلام دينه و علائم مناسك الحج أي سوقها إلى البيت و تقليدها عبادة الله و[فيها خير] كثير لكم في الدنيا والآخرة

من الثواب . و قيل : المراد خير الآخرة لأنّه الغرض المطلوب .

[فاذكروا اسم الله عليها صوافّ] في حال نحرها و هو أن يقول : الله أكبر لا إله إلّا الله و الله أكبر اللّهمّ منك ولك، صوافّ أي قياماً مقيّدة على سنّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم. و قيل : المعنى : يكن البدن قائمات قد صففن أيديهنّ و أرجلهنّ و قرىء صوافن من صفون الفرس و هو أن تقوم على ثلاث و تنصب الرابعة على طرف سنبكه لأنّ البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث. وقرىء « صوافي » أي خوالص لوجه الله ولا تشركوا بالله في التسمية على نحرها أحداً كما كان يفعله المشركون ولا يبعد أن يكون الحكمة في إصفافها ظهور كثرتها للناظرين فتقوى النفوس و يكون التقرّب بنحرها عند ذلك مزيد الأجر و يوجب التشويق للنحر و ظهور كثرة التكبير و إعلاء اسم الله .

[فإذا وجبت جنوبها] و المراد من وجوب الجنوب سقوطها إلى الأرض عبّر بذلك عن تمام خروج الروح منها من وجب الحائط إذا سقط و وجبت الشمس إذا غربت [فكلوا منها و أطعموا القانع و المعترّ] قيل : القانع السائل و المعترّ الّذي يتعرّض للسؤال و لا يسأل . وقيل : بالعكس . والأمر في « كلوا » للإباحة والإذن ، و قيل : للوجوب لأنّ أهل الجاهليّة كانوا يستنكفون من أكلها و لهذا قيل : الأكل واجب إذا تطوّع قال أبو عبد الله عليه السلام في معنى القانع و المعترّ قال : القانع الّذي يقنع بما أعطيته ولا يسخط ولا يكلح ولا يلوي شدقه غضباً والقانع المارّ بك تطعمه يعتري عليك ولا يسأل؛ قال زهير الشاعر المشهور :

على مكثريهم حقّ من يعتريهم ❊ وعند المقلّين السماحة والبذل

و روي عنهم عليهم السلام : أنّه ينبغي أن يطعم ثلثه و يعطي القانع و المعترّ ثلثه و يهدي لأصدقائه ثلثه .

[كذلك سخّرناها لكم] يعني مثل ما وصفنا ذلّلناها لكم حتّى لا تمتنع عمّا تريدون منها من النحر و الذبح بخلاف السباع الممتنعة ، و لتنتفعوا بركوبها و نتاجها نعمة منّا عليكم [لعلّكم تشكرون] ذلك. قالت المعتزلة : هذا يدلّ على أنّ الله سبحانه أراد من الجميع أن يشكروا فدلّ هذا على أنّه يريد كلّ ما أمر به من من عصى وأطاع

لا كما يقوله أهل السنّة من أنّه تعالى لم يرد ذلك إلّا من المعلوم أنّه يطيع .

قوله : [لن ينال الله لحومها ولا دماؤها و لكن يناله التقوى منكم] لمّا كانت عادة الجاهليّة في القربان أنّهم يلوّثون بدمائها و لحومها الوثن و حيطان الكعبة بيّن في الآية أنّ القصد من النحر حصول التقوى بسبب هذا الأمر منكم وليس المراد حصول الدم و اللحم نحو قوله « إليه يصعد الكلم الطيّب [١] » و هو سبحانه غنيّ عن أن ينتفع بالأجسام الّتي هي اللحوم والدماء ، وهذا كناية عن القبول و كلّها يقبله الإنسان فيناله و يصل إليه .

[كذلك سخّرها لكم] تقدّم ذكره [لتكبّروا الله على ما هداكم] و هو أن يقول : الله أكبر على ما هدانا ، في مقابلة هدايته لمعالم ديننا ومناسك حجّنا [و بشّر المخبتين] الموحّدين والّذين يعملون الأعمال الحسنة و يحسنون إلى غيرهم .

قوله تعالى : [إنّ الله يدافع عن الّذين آمنوا] بشّر الله سبحانه المؤمنين بالنصرة و الغلبة على المشركين و دفع غائلتهم بأن يمنعهم عن أذى المؤمنين و ينصرهم عليهم .

ثمّ شرح حال المشركين بأنّهم خونة و كفرة لأنّهم خانوا الله و جعلوا له شريكاً و كفروا نعمته و ذكروا غير اسم الله و تقرّبوا إلى الأصنام بالذبائح فقال : [إنّ الله لا يحبّ كلّ خوّان كفور] .

قوله تعالى : [اُذن للّذين يقاتلون] و ههنا حذف كلمة « في القتال » و حذف المأذون فيه لدلالة كلمة « يقاتلون » بسبب كونهم مظلومين [بأنّهم ظلموا و أنّ الله على نصرهم لقدير] و المأذون فيه القتال و المأذون له أصحاب الرسول و الظالمون المشركون أخرجوهم من ديارهم حتّى لحق طائفة منهم بالحبشة ثمّ هاجروا إلى المدينة .

و سبب نزول الآية : كان المشركون لا زال يؤذون المسلمين و لا يزال يجيء مشجوج و مضروب إلى رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و يشكون عنده من أذى المشركين لهم فيأمرهم بالصبر و يقول : إنّي لم اُومر بالقتال حتّى هاجر إلى المدينة ثمّ أنزل الله هذه الآية بالمدينة وهي أوّل آية نزلت في القتال .

(١) فاطر : ١٠ .

[الّذين اُخرجوا من ديارهم بغير حق إلّا أن يقولوا ربّنا الله] المعنى: إنّ المسلمين اضطرّوا إلى الخروج من غير استحقاق للخروج و لم يخرجوا من ديارهم إلّا لقولهم: ربّنا الله وحده. قال أبوجعفر عليه السلام: نزلت في المهاجرين و جرت في آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم الّذين اُخرجوا من ديارهم واُخيفوا. وإذا كان المراد من الآية المهاجرين إلى الحبشة فالآية مكيّة.

قوله تعالى: [ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض] و المراد بهذا الدفاع الّذي أضافه إلى نفسه الإذن في جهادهم و النصرة للمؤمنين على المشركين يعني: ولولا دفاع الله أهل الشرك بالمؤمنين لمنع المشركون المؤمنين من العبادة و خربوا مايبنونه من مواضع العبادة لكن دفع عن هؤلاء بأن أمرهم بقتال أهل الشرك ليفرغ أهل الدين للعبادة و بناء المعابد لها كالصوامع و البيع و الصلوات و إن كانت لغير أهل الإسلام، ولهدّمت المواضع المعدّة للعبادة في شرع كلّ نبيّ مثلاً لكان هدّم في زمن موسى البيع لليهود و في زمن عيسى الصوامع للنصارى. وقيل: البيع للنصارى في القرى و الصومعة في الجبال و البراريّ و الصلوات كنائس اليهود. و قرىء « و صلوات » بضمّ الصاد و اللام معرّب صلوتا. وقيل: المراد عين الصلاة. وقيل: المراد المصلّيات و أماكن الصلاة كما قال « و لا تقربوا الصلاة و أنتم سكارى (١) » و أراد بالصلاة المساجد. و قيل: الصلوات معبد الصابئين و المساجد معبد المسلمين.

وبالجملة فحاصل المعنى أنّه لولا ذلك الدفع لانقطعت الصلوات ولخربت المساجد.

قوله: [يذكر فيها اسم الله كثيراً] يعني يذكر في المساجد أو في هذه الأمكنة المذكورة اسم الله كثيراً لأنّ الغالب فيها ذكر اسم الله.

[و لينصرنّ الله من ينصره] هذا وعد من الله بأنّه سبحانه سينصر دينه و شريعته [إنّ الله لقويّ عزيز] أي قادر قاهر.

قوله تعالى: الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلوة و آتوا الزكوة و أمروا بالمعروف و نهوا عن المنكر و لله عاقبة الامور (٤١) و ان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح و عاد و ثمود (٤٢) و قوم ابراهيم

(١) النساء: ٤٢.

و قوم لوط (٤٣) و اصحاب مدين و كذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير (٤٤) فكأين من قرية اهلكناها و هى ظالمة فهى خاوية على عروشها و بئر معطلة و قصر مشيد (٤٥) .

ثمّ وصف سبحانه « من » في قوله : « من ينصره » . و قال أبو جعفر عليه السلام نحن‌هم والله . القمي عن الباقر عليه السلام هذه الآية لآل محمّد والمهدي عليه السلام وأصحابه يملّكهم مشارق الأرض و مغاربها و يظهر الدين و يميت الله به و بأصحابه البدع والباطل و كلّ ضلالة.

و في المناقب عن الكاظم وجدّه سيّدالشهداء عليهما السلام : هذه فينا أهل البيت .

و الحاصل: فالمعنى أنّ الموصوفين هم الّذين إن أعطيناهم مابه يصحّ الفعل منهم و يتمكّنون في الأرض[أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة] أي أدّوا بحقوقها وأعطوا ما افترض‌الله عليهم من الزكاة[وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكرولله عاقبةالاُمور] وهو كقوله : «وإلى الله ترجع الاُمور (١) » والمعنى أنّه يبطل كلّ ملك سوى ملكه فتصير الاُمور إليه بلامانع .

ثمّ عزّى نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم عن تكذيبهم إيّاه وخوّف مكذّبيه بذكر من كذّبوا أنبياءهم فاُهلكوا فقال سبحانه :

[و إن يكذّبوك فقد كذّبت قبلهم قوم نوح و عاد و ثمود و قوم إبراهيم و قوم لوط و أصحاب مدين] أي كلّ اُمّة من هؤلاء الاُمم فقد كذّبت نبيّها . و أجرى الكلام مجرى التسلية لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم في الصبر على ما هم كانوا عليه من أذى قومهم فقال : و إن يكذّبوك قومك فكذلك فعلوا سائر الاُمم أنبياءهم و ذكر الله بعض أسمائهم .

فإن قيل : ولمَ قال :[و كذّب موسى] ولم يقل : قوم‌موسى ؟ لأنّ موسى ما كذّبه قومه بنو إسرائيل و إنّما كذّبه غير قومه وهم القبط أو إشعار بمبالغة بيان هذا الأمر يعني أنّ موسى أيضاً مع وضوح آياته وعظم معجزاته كذّبوه فما ظنّك بغيره ؟

[فأمليت للكافرين] و أمهلتهم إلى الوقت المعلوم عندي [ثمّ أخذتهم] بالعقوبة [فكيف كان‌نكير] ؟ استفهام تقرير أي كيف إنكاري وغضبي عليهم‌بالعذاب أليس اُبدّلهم بالنعمة نقمة وبالكثرة قلّة وبالحياة موتاً و بالعزّة ذلّة وبالعمارة خراباً؟ ألست أعطيت الأنبياء

(١) البقرة : ٢١٠ وخمس سوراخرى .

ما وعدتهم من النصرة على أعدائهم و التمكين لهم في الأرض ؟ فينبغي أن يكون عادتك يا محمد الصبر عليهم فإنه تعالى يمهل للمصلحة فلابد من الرضا و التسليم و إن شق ذلك على القلب .

و اعلم أنه بدون ذلك البيان يحصل التسلية لمن حاله دون حال الرسول من المؤمنين فكيف بذلك مع منزلته ؛ لأنه صلى الله عليه وآله وسلم في كل وقت يصل إليه من جهتهم ما يزيده غماً كما يفصح عن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : ما أوذي نبي مثلما أوذيت ؛ فصبره الله حالاً بعد حال إكراماً له و قد تقدم ذكر المكذبين ووصف وبالغ عذابهم بالإنكار بحصول الأخذ والأخذ كاشف عن حقيقة الإنكار .

قال بعض علماء العامة : إن السبب في تأخير عذاب الاستئصال عن هذه الأمة أن ذلك العذاب مشروط بأمرين : أحدهما أن عندالله حداً من الكفر من بلغه عذبه ومن لم يبلغه لم يعذبه . والثاني أن الله سبحانه لايعذب قوماً حتى يعلم أن أحداً منهم لايؤمن ، فأما إذا حصل الشرطان فحينئذ يأمر الأنبياء فيدعون على أممهم فيعذبهم بعذاب الاستيصال و هو المراد بقوله « حتى إذا استيأس الرسل (١) » أي من إجابة القوم و قوله لنوح : « إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن (٢) » وإذا عذبهم الله فإنه ينجي المؤمنين لقوله : « فلما جاء أمرنا ـ بالعذاب ـ نجينا هوداً والذين آمنوا معه (٣) » .

قوله تعالى : [فكأين من قرية أهلكناها و هي ظالمة فهي خاوية على عروشها] و قرىء « أهلكتها » بالتاء بمناسبة «فأمليت» قال بعضهم : « كأين » المراد من معناه « كم» للتكثير و قيل : معناه « رب » و الأول أنسب في معنى الزجر من الثاني أي و كم من أهل قرى أهلكناها و أهلها ظالمون بالتكذيب والكفر فالقرى خالية من أهلها وساقطة على سقوفها [و بئر معطلة و قصر مشيد] و كم من بئر باد أهلها وغار ماؤها وتعطلت من دلائها فلامستقي منها ولاوارد لها و كم من قصر مجصص خالياً عن السكنة للعبرة .

و في تفسير أهل البيت : أي و كم من عالم لا يرجع إليه و لا ينتفع بعلمه . و في

(١) يوسف : ١١٠ .
(٢) هود : ٣٦ .
(٣) هود : ٦٢ .

الإكمال و المعاني عن الصادق وفي الكافي عن الكاظم عليهما السلام: البئر المعطّلة الإمام الصامت و القصر المشيد الإمام الناطق . و إنّما كنّي عن الإمام الصامت بالبئر لأنّ الإمام منبع العلم الّذي هو سبب حياة الأرواح إلّا على من أتاه كما أنّ البئر منبع الماء الّذي هو سبب حياة الأبدان مع خفائها إلّا على من أتاها و كنّي عن صمته بالتعطيل لعدم الانتفاع بعلمه و كنّي عن الإمام الناطق بالقصر المشيد لظهوره وعلوّ منصبه .

و في المعاني مقطوعاً عن أمير المؤمنين عليه السلام : هو القصر المشيد و البئر المعطّلة فاطمة عليها السلام و ولدها معطّلين من الملك ، و القصر مجدهم الّذي لا يرتقى و البئر علمهم الّذي لا ينزف .

قال الضحّاك: هذه البئر كانت بحضرموت في بلدة يقال لها « حاضورا » نزل بها أربعة آلاف ممّن آمن بصالح و معهم صالح فلمّا حضروا مات صالح فسمّي المكان حضرموت ثمّ إنّهم كثروا فكفروا و عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نبيّاً يقال له حنظلة فقتلوه بالسوق فأهلكهم الله فماتوا عن آخرهم و عطّلت بئرهم و خرب قصر ملكهم و كان نبيّهم اسمه سنجاريب ، أوسجاريب كان وزيرهم وكان ملكهم جابر .

قوله تعالى : أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور (٤٦) و يستعجلونك بالعذاب و لن يخلف الله وعده و ان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون (٤٧) و كأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها و الى المصير (٤٨) قل يا ايها الناس انما انا لكم نذير مبين (٤٩) فالذين آمنوا و عملوا الصالحات لهم مغفرة و رزق كريم (٥٠) والذين سعوا فى آياتنا معاجزين اولئك أصحاب الجحيم (٥١) .

ثمّ شرح سبحانه بما يزيد الاعتبار أيضاً فقال :

[أفلم يسيروا في الأرض] والاعتبار و التنبّه يحصل بالرؤية و السماع و لذلك قال : أفلم يسيروا و يسافروا ليروا مصارع من أهلكهم بكفرهم و يشاهدوا ما وقع عليهم و يتعقّلوا في قلوبهم و أذهانهم و يستمعون أخبارهم ويعتبروا بمن مضى قبلهم والمراد أنّ

قومك يا محمد لم يسيروا في أرض اليمن و الشام .

[فإنّها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب الّتي في الصدور] و الضمير في «إنّها» للشأن والقصّة و قوله « الّتي في الصدور » من التأكيد الّذي يؤتى في الكلام كقوله « عشرة كاملة [١] » و مثل قوله : « يقولون بأفواههم [٢] » و « يطير بجناحيه [٣] » و المعنى أنّه لاعمى في أبصارهم فإنّهم يرون بها لكنّ العمى في قلوبهم حيث لم ينتفعوا بما أبصروا، والإبصار يحصل وإن كانت العين عمياء بسبب البصيرة إذا كان أصحابها عارفين بالحقّ و إنّما يكون العمى عمى القلب الّذي يقع معه الجحود بوحدانيّة الله .

قوله : [ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده] و يستعجلونك يا محمد بالعذاب المتوعّد به ويستبطئونه ، و في ذلك دليل على أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يخوّفهم بالعذاب إن استبقوا على كفرهم ولن يخلف الله وعده في إنزال العذاب بهم .

[و إنّ يوماً عند ربّك كألف سنة ممّا تعدّون] و اختلف في معناه على وجوه :

أحدها : أنّ يوماً من أيّام الآخرة يكون كألف سنة من أيّام الدنيا ، عن جماعة مثل ابن عبّاس و عكرمة و مجاهد و جماعة . و في رواية اُخرى عن ابن عبّاس أنّه أراد أنّ يوماً من الأيّام الّتي خلق الله فيها السماوات و الأرض كألف سنة ، و يدلّ عليهما روي أنّ الفقراء يدخلون الجنّة قبل الأغنياء بنصف يوم خمس مائة عام و يكون المعنى على هذا أنّهم يستعجلون العذاب و أنّ يوماً من أيّام عذابهم في الآخرة كألف سنة .

وثانيها : أنّ المعنى : و إنّ يوماً عند ربّك وألف سنة في قدرته واحد فلا فرق بين وقوع ما يستعجلون به من العذاب و بين تأخّره في القدرة إلّا أنّه تفضّل بالإمهال إذ لا يفوته شيء .

وثالثها : أنّ يوماً واحداً كألف سنة في مقدار العذاب أي إنّه لشدّته و عظمته كمقدار عذاب ألف سنة من أيّام الدنيا على الحقيقة و كذلك نعيم الجنّة لأنّ يوماً من أيّام نعيم الآخرة و سرورها مثل ما يكون في ألف سنة من أيّام الدنيا ثمّ الكافر

(١) البقرة : ١٩٦ .
(٢) آل عمران : ١٦٧ .
(٣) الانعام : ٣٨ .

مع هذا يستعجل ذلك العذاب لجهله و هذا كقوله : أيّام السرور قصار و أيّام الهموم طوال ؛ قال الشاعر :

يطول اليوم لا ألقاك فيه * و حول نلتقي فيه قصير

و في إرشاد المفيد عن الباقر عليه السلام قال : إذا قام القائم سار إلى الكوفة فهدم فيها أربعة مساجد و لم يبق على وجه الأرض مسجد له شرفة إلّا هدمها وجعلها جمّا و(؟) ووسّع الطريق الأعظم و كسر كلّ جناح خارج في الطريق و أبطل الكنيف والميازيب إلى الطرقات و لاترك بدعة إلّا أزالها و لاسنّة إلّا أقامها و يفتح قسطنطنيّة و الصين و جبال ديلم فيمكث على ذلك سبع سنين مقدار كلّ سنة منها ستّين من سنيكم هذه ثمّ يفعل الله ما يشاء .

قيل : فكيف يطول السنين ؟ قال : يأمر الله الفلك بالثبوت و قلّة الحركة فتطول الأيّام كذلك و السنون ، قيل له : إنّهم يقولون : إنّ الفلك إن تغيّر فسد ، قال : ذلك قول الزنادقة فأمّا المسلمون فلا سبيل لهم إلى ذلك و قد شقّ الله القمر لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم و من قبله صلى الله عليه وآله وسلم ردّ الشمس ليوشع بن نون في قتال الجبابرة و أخبر بطول يوم القيامة وأنّه كألف سنة ممّا تعدّون .

و في الكافي عنهم عليهم السلام قال : فيما وعظ الله عيسى عليه السلام: و اعبدني ليوم كألف سنة ممّا تعدّون .

قوله : [و كأيّن من قرية أمليت لها و هي ظالمة] مرّ تفسيره أي كم من أهل قرية أمهلتها و أخّرت عذابها [ثمّ أخذتها وإليّ]مصير كلّ واحد .

[قل يا أيّها الناس إنّما أنالكم نذير مبين] قل يا محمّد لهم: إنّي مخوّف عن معاصي الله مبيّن لكم ما يجب عليكم فعله و ما يجب عليكم تجنّبه [فالّذين آمنوا و عملوا الصالحات لهم مغفرة] من الله لمعاصيهم لمّا تقدّم في الآية السابقة الوعيد و بيان عذابهم أردفها بهذه الآية بالوعد للمؤمنين فقال : والّذين آمنوا وعملوا الصالحات . لمّا بيّن الله للرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه يجب أن يقول لهم : أنا نذير مبين، أردف ذلك بأن أمره بوعدهم و وعيدهم فقال : « والّذين آمنوا » الخ ، فجمع بين الوصفين في الآيتين :

الوعد و الوعيد .

قال الرازيّ و هذا دليل على أنّ العمل الصالح خارج عن مسمّى الإيمان و به يبطل قول المعتزلة و يدخل في الايمان كلّما يجب من الاعتقاد بالقلب و الإقرار باللسان و يدخل في العمل الصالح أداء كلّ واجب و ترك كلّ محظور ، ثمّ بيّن سبحانه أنّ من جمع بينهما فالله يجمع له بين المغفرة و الرزق الكريم أمّا المغفرة فإمّا أن تكون عبارة عن غفران الصغائر أو عن غفران الكبائر بعد التوبة أو عن غفرانهما قبل التوبة و الأوّلان واجبان عند المعتزلة و أداء الواجب لا يسمّى غفراناً فيبقى الثالث و هوالدلالة على العفو عن أصحاب الكبائر من أهل القبلة . انتهى كلامه .

[و رزق كريم] أي نعيم الجنّة فإنّه أكرم نعيم في أكرم دار .

[والّذين سعوا في آياتنا معاجزين] أي بذلوا الجهد في إبطال آياتنا ، و أصل السعي الإسراع في المشي معاجزين مغالبين أن يعجزوا الله ، والمعاجزة المسابقة أي يفوتوه بالمكر والحيل ، و من قرأ «معجزين» معناه مثبّطين لمن أراد اتّباع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وقاصدين تعجيز رسولنا أو ناسبين من تبع النبيّ إلى العجز [أُولئك أصحاب الجحيم] و ملازمو النار .

قوله تعالى : و ما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى امنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم (۵۲) ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض و القاسية قلوبهم و ان الظالمين لفى شقاق بعيد (۵۳) و ليعلم الذين اوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم و ان الله لهادى الذين آمنوا الى صراط مستقيم (۵۴) و لايزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم (۵۵) .

في الكافي عنهما عليهما السلام في هذه الآية أنّهما زادا «ولامحدّث» بفتح الدال فقال : الرسول الّذي يظهر له الملك فيكلّمه و النبيّ هوالّذي يرى في منامه و ربّما اجتمعت النبوّة والرسالة لواحد و المحدّث الّذي يسمع الصوت و لايرى الصورة قيل : كيف يعلم أنّ الّذي يراه في النوم حقّ و أنّه من الملك ؟ قال : يوفّق لذلك حتّى يعرفه لقد ختم الله

بكتابكم الكتب و ختم بنبيّكم الأنبياء . و في معناه أخبار اُخر فيه و في البصائر و غيرهما .

و في الكافي عن السجّاد : إنّ في القرآن آية كان عليّ بن أبي‌طالب يعرف قاتله بها و يعرف بها الاُمور العظام الّتي كان يحدّث بها الناس ثمّ قال بعد ما سئل عنها : هو والله قول الله : « و ما أرسلنا من قبلك من رسول ولانبيّ و لامحدّث » و كان عليّ بن أبي‌طالب محدّثاً . وفي البصائر مايقرب‌منه ، وفيه‌أنّه‌سئل : من‌يحدّثه ؟ قال : ملك يحدّثه قيل له : إنّه نبيّ أو رسول قال : لا ولكن مثله مثل‌صاحب سليمان و مثل صاحب موسى و مثل ذي القرنين و اُريد بصاحب سليمان آصف بن برخيا و بصاحب موسى يوشع بن نون . و في الكافي في عدّة روايات‌أنّ الأئمّة‌كانوا محدّثين‌كانوا يسمعون الصوت ولايرون الملك . وكان من ألقاب فاطمة عليهاالسلام محدّثة ، انتهى .

وقالت المعتزلة : كلّ رسول نبيّ و كلّ نبيّ رسول ولا فرق بينهما . و قيل لرسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : كم‌المرسلون؟ فقال : ثلثمائةوثلاثة عشر ، فقيل : و كم الأنبياء؟ فقال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً وعلى هذا يفرق بين الرسول والنبيّ .

وفرّقوا بين‌الرسول والنبيّ باُمور : أحدها أنّ الرسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه والنبيّ غير الرسول من لم‌ينزل عليه كتاب وإنّما اُمرأن يدعو إلى كتاب من قبله . والثاني أنّ من‌كان صاحب المعجزة وصاحب الكتاب ونسخ شرع من قبله فهو الرسول ومن لم يكن مستجمعاً لهذه الخصال فهو النبيّ غير الرسول ، والقائلين بهذا الكلام يلزمهم أن‌لا يجعلوا إسحاق ويعقوب وأيّوب ويونس وهارون وداود وسليمان رسلاً لأنّهم ماجاءوابكتاب ناسخ .

قوله : [وما أرسلنا من قبلك من رسول] ذكر بعض المفسّرين من العامّة من طريقهم في سبب نزول الآية أنّ الرسول لمّا رأى إعراض قومه عنه و شقّ عليه مباعدتهم عمّا جاءهم به تمنّى في نفسه أن يأتيهم من الله مايقارب بينه وبين قومه وذلك لحرصه على إيمانهم فجلس ذات يوم في نادٍ من قريش كثير أهله و أحبّ يومئذ أن‌لايأتيه من الله شيء ينفروا عنه وتمنّى ذلك فأنزل الله سورة « والنجم إذا هوى» فقرأها رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم

في صلاته حتّى بلغ قوله : « أفرأيتم اللاّت والعزّى * و مناة الثالثة الاُخرى [1]» ألقى الشيطان على لسانه :

تلك الغرانيق العُلى * منها الشفاعة ترتجى

و معنى الغرنوق الحسن الجميل ، فلمّا سمعت قريش ذلك فرحوا و مضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قراءته فقرأ السورة كلّها فسجد و سجد المسلمون لسجوده و سجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجدمؤمن ولاكافر إلّا سجد سوى الوليد بن‌المغيرة و ابن اُحيحة سعيد بن العاصي فإنّهما أخذا حفنة من التراب من البطحاء و رفعاها إلى جبهتهما و سجداعليها لأنّهماكاناشيخين كبيرين ولم يستطيعا السجود وتفرّقت‌قريش وقد سرّهم ما سمعوا و قالوا : قد ذكر محمّد آلهتنا بأحسن الذكر .

فلمّا أمسى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتاه جبرئيل فقال : ماذاصنعت ؟ تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله ، و قلت‌مالم أقل‌لك ؟ فحزن رسول الله حزناً شديداً وخاف من‌الله خوفاً عظيماً حتّى نزل قوله : « و ما أرسلنا من قبلك » الخ ، وهذا القول السخيف رواية بعض المفسّرين الظاهرين .

قال الرازيّ : أمّا أهل التحقيق فقد قالوا : هذه‌الرواية باطلة موضوعة و احتجّوا عليه بالقرآن والسنّة و المعقول .

أمّا القرآن فوجوه :

أحدها : قوله : «ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثمّ لقطعنا منه‌الوتين [2]» .

و ثانيها : قوله : « قل ما يكون لي أن اُبدّله من تلقاء نفسي إن أتّبع إلّا ما يوحى إليّ [3] » .

و ثالثها : قوله : « وما ينطق عن الهوى * إن‌هو إلّا وحي يوحى [4] » فلو أنّه

---

(١) النجم : ٢١ ، ٢٢ .
(٢) الحاقة : ٤٥ ـ ٤٧ .
(٣) يونس : ١٥ .
(٤) النجم : ٤ ، ٥ .

صلى الله عليه وآله وسلم قرأ عقيب هذه الآية : تلك الغرانيق العلى، لكان قد ظهر كذب الله تعالى في الحال وذلك لا يقوله مسلم .

و **رابعها** : قوله تعالى : « وإن كادوا ليفتنوك عن الّذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره و إذاً لاتّخذوك خليلاً [١] » و كلمة « كاد » معناه قرب أن يكون الأمر كذلك مع أنّه لم يحصل .

وخامسها : قوله : « و لو لا أن ثبّتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً [٢] » و كلمة « لولا » تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره فدلّ على أنّ ذلك الركون القليل لم يحصل.

وسادسها : قوله : « كذلك لنثبّت به فؤادك [٣] » .

و سابعها : قوله : «سنقرئك فلا تنسى [٤] » .

و أمّا السنّة فهي ما روى محمّد بن إسحاق بن خزيمة أنّه سئل عن هذه القصّة فقال : هذا من موضوعات الزنادقة و صنّف فيه كتاباً . و قال الإمام أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقيّ : هذه القصّة غير ثابتة من جهة النقل ثمّ أخذ يتكلّم في أنّ رواة هذه القصّة مطعون فيهم و أيضاً روى البخاريّ في صحيحه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ سورة والنجم و سجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجنّ وليس فيه حديث الغرانيق وروي هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها البتّة حديث الغرانيق .

و أمّا المعقول فمن وجوه :

أحدها : أنّه غلط من جوّز على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تعظيم الأوثان لأنّ من المعلوم أنّ أعظم سعيه كان في نفي الأوثان .

و ثانيها : أنّه صلى الله عليه وآله وسلم ما كان يمكنه في أوّل الأمر أن يصلّي ويقرأ القرآن عند الكعبة أمناً من أذى المشركين له حتّى كانوا ربّما مدّوا أيديهم إليه و إنّما كان يصلّي صلى الله عليه وآله وسلم إذا لم يحضروها ليلاً أو في أوقات خلوة فكيف يقع هذا الأمر ؟

(١) : الاسراء : ٧٣ .
(٢) الاسراء : ٧٤.
(٣) الفرقان : ٣٢ .
(٤) الاعلى : ٦ .

و **ثالثها** : أنّ معاداة قريش له كانت أعظم من أن يقنعوا بهذا القدر من القراءة دون أن يقفوا على حقيقة الأمر فكيف أجمعوا على أنّه عظّم آلهتهم حتّى خرّوا سجّداً مع تلك المخالفة الدائمة منه ﷺ ؟

و **رابعها** : قوله: [فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثمّ يحكم الله آياته] وذلك لأنّ إحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان أقوى من نسخه بهذه الآيات الّتي تبقى الشبهة معها فإذا أراد الله إحكام الآيات لئلاّ يلتبس ماليس بقرآن قرآناً فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلاً أولى .

وخامسها ـ وهو أقوى الوجوه ـ: أنّا لو جوّزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه وجوّزنا في كلّ واحد من الأحكام و الشرائع أن يكون كذلك و يبطل قوله تعالى : « يا أيّها الرسول بلّغ ما اُنزل إليك من ربّك و إن لم تفعل فما بلّغت رسالته و الله يعصمك من الناس [1] » فإنّه لافرق في العقل بين النقصان عن الوحي والزيادة فيه .

فبهذه الوجوه عرفنا أنّ هذه القصّة مجعولة موضوعة أكثر ما في الباب أنّ جمعاً من المفسّرين ذكروها وما بلغوا حدّ التواتر و خبر الواحد لا يعارض النصّ و الدلائل النقليّة و العقليّة و لنرجع الآن إلى التفسير . انتهى كلامه .

قال المرتضى رحمه الله : لايخلو التمنّي في الآية من أن يكون معناه القراءة والتلاوة كما قال حسّان بن ثابت :

تمنّى كتاب الله أوّل ليلة ※ و آخره لاقى حمام المقادر

أو يكون من تمنّي القلب فإن كان المراد التلاوة فالمعنى : أنّ من اُرسل قبلك من الرسل كان إذا تلا ما يؤدّيه إلى قومه حرّفوا عليه و زادوا فيما يقوله ونقصوا كما فعلت اليهود و أضاف ذلك إلى الشيطان لأنّه يقع بغروره فينسخ الله ما يلقي الشيطان ويدحضه بظهور حججه و خرج هذا على وجه التسلية للنبيّ لمّا كذب المشركون عليه وأضافوا إلى تلاوته من مدح آلهتهم مالم يكن فيها .

و إن كان المراد تمنّي القلب فالوجه أنّ الرسول متى تمنّى بقلبه بعض مايتمنّاه

(١) المائدة : ٧٠ .

من الأمور وسوس إليه الشيطان ويدعوه بالباطل وينسخ الله ذلك ويبطله بما يرشد إليه من مخالفة الشيطان ويحفظه من وساوسه .

قال السيّد : وأمّا الأحاديث المرويّة في هذا الباب فهي مجعولة مطعونة عند أصحاب الحديث . قال السيّد : و إن حمل ذلك على السهو فالساهي لا يجوز أن يقع منه مثل هذه الألفاظ المطابقة لوزن السورة و نظمها لأنّا نعلم ضرورة أنّ الساهي لو أنشد قصيدة لم يجز أن يسهو حتّى يتّفق منه بيت شعر في وزنها خصوصاً على الوجه الّذي يقتضيه فائدته لمرام المشركين في البين .

و قيل : إنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا تلا القرآن على قريش توقّف في فصول الآيات وأتى بكلام على سبيل الحجاج لهم فلمّا تلا الآيات قال : تلك الغرانيق العلى ؟ على سبيل الانكار عليهم أي الأمر بخلاف ما قالوه و ظنّوه وليس يمتنع أن يكون هذا في الصلاة لأنّ الكلام في الصلاة حينئذ كان مباحاً و إنّما نسخ من بعد .

و قيل : إنّ المراد بالغرانيق الملائكة و قد جاء في بعض الحديث فتوهّم المشركون أنّه يريد آلهتهم . وقال البلخي : و يجوز أن يكون النبيّ سمع هاتين الكلمتين من قومه فلمّا قرأ القرآن ألقاها الشيطان في ذكره أن يقوله فعصمه الله ونسخ وساس الشيطان عنه و أحكم آياته بأن قرأها محكمة سليمة .

و يجوز أن يكون النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لمّا قرأ سورة النجم و انتهى إلى ذكر اللاّت والعزّى قال الشيطان هاتين الكلمتين رافعاً بهما صوته فألقاهما في تلاوته في غمار الناس فظنّ أنّ ذلك من قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فسجدوا عند ذلك . و هذا القول الآخر في غاية الوهن لأنّ الشيطان لو قدر على ذلك في حقّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لكان اقتداره على الناس أكثر فهب أن يزيل جميع الناس عن الدين و قال الله : « إنّه ليس له سلطان على الّذين آمنوا [1] » وهو صلى الله عليه وآله وسلم سيّد المخلصين والمؤمنين ، انتهى .

[ثمّ يحكم الله آياته] و دلالاته حتّى لا يقع فيها غلط ولا سهو [والله عليم] بكلّ شيء [حكيم] في أفعاله .

(١) النحل : ٩٩ .

تذييل : في الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام من بعض الحديث : يذكر الله لنبيّه ما يحدّث عدوّه في كتابه من بعده فقوله : « و ما أرسلنا من قبلك » الآية، يعني إنّه ما من نبي تمنّى مفارقة ما يقاسيه من نفاق قومه و عقوقهم و الاشتغال عنهم إلى دار الإقامة إلّا ألقى الشيطان المعترض بعداوته عند فقده في الكتاب الّذي اُنزل عليه ذمّ ذلك النبيّ و القدح فيه و الطعن عليه فينسخ الله ذلك من قلوب المؤمنين فلا يقبلوه ولا تقبله ولا تصغى إليه غير قلوب المنافقين و الجاهلين ويحكم الله آياته بأن يحمي أولياءه من الضلال والعدوان وشايعه أهل الكفر والطغيان.

في الصافي روي عن أبي‌عبدالله عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أصابه خصاصة فجاء إلى رجل من الأنصار فقال له : هل‌عندك من طعام ؟ قال : نعم يا رسول الله ، و ذبح له عناقاً و شواه فلمّا أدناه منه تمنّى رسول الله صلى الله عليه وآله أن يكون معه عليّ و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السلام فجاء فلان و فلان ثمّ جاء بعدهما عليّ أمير المؤمنين عليه السلام فنزلت الآية في ذلك : « و ما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ ولا محدّث إلّا إذا تمنّى ألقى الشيطان في اُمنيّته » يعني زيد و عمرو فينسخ مايلقي الشيطان يعني لمّا جاء عليّ عليه السلام بعدهما ثمّ يحكم الله آياته بنصر الله لأمير المؤمنين.

قوله : [ليجعل مايلقي الشيطان فتنة للّذين في قلوبهم مرض و القاسية قلوبهم] فشرح أثر تلك الوسوسة في حقّ الكفّار أوّلاً فقال: ليجعل ذلك تشديداً في الاختبار و التكليف على الّذين في قلوبهم مرض الجهل ومرض الشكّ والريب والنفاق وهم المنافقون و أمّا القاسية قلوبهم فهم المشركون المصرّون على جهلهم ظاهراً و باطناً لتلزمهم الدلالة و الحجّة على الفرق بين ما يحكمه الله وبين مايلقيه الشيطان.

[و إنّ الظالمين لفي شقاق بعيد] وقوله: « إنّ الظالمين » أصله على القاعدة أن يؤتى بالضمير و يقول : إنّهم فوضع الظاهر موضع الضمير قضاء عليهم بالظلم والمشاقّة والمباعدة على السويّة.

و أمّا في حقّ المؤمنين فهو قوله : [و ليعلم الّذين اُوتوا العلم أنّه الحقّ من ربّك] وفي الضمير في « أنّه » ثلاثة أوجه : أحدها أنّها عائدة إلى نسخ ما ألقاه الشيطان.

و ثانيها إلى القرآن . و ثالثها تمكّن الشيطان من الإلقاء والوسوسة أي ليعلم الّذين أُوتوا العلم بالله و بتوحيده و بحكمته أنّ القرآن حقّ لايجوز عليه التبديل و التغيير [فيؤمنوا به] و يثبتوا ويزدادوا إيماناً إلى إيمانهم [فتخبت له قلوبهم] وتخشع وتتواضع لقوّة إيمانهم [و إنّ الله لهادي الّذين آمنوا إلى صراط مستقيم] طريق واضح لاعوج فيه و يهديهم ربّهم بإيمانهم و بسبب ولاية عليّ عليه السلام طريق الجنّة .

[ولايزال الّذين كفروا في مرية منه حتّى تأتيهم الساعة بغتة] أي لايزال الكفّار في شكّ من القرآن أو من الرسول و هذا خاصّ فيمن علم الله أنّهم لايؤمنون من الكفّار حتّى تأتيهم الساعة فجأة من دون أن يشعروا و جعل سبحانه الساعة غاية لكفرهم لأنّهم يؤمنون عند أشراط الساعة على وجه الإلجاء و ذلك لا ينفعهم .

[أو يأتيهم عذاب يوم عقيم] قيل : إنّه يوم بدر ، و سمّي عقيماً ذلك اليوم لأنّه لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة فيه و مثله قول الشاعر :

عقم النساء فلا يلدن بمثله * إنّ النساء بمثله لعقيم

ولم يكن في ذلك اليوم للكفّار خير فهو كالريح العقيم الّذي لاتأتي بخير . و قيل : المراد به يوم القيامة و سمّي عقيماً لانّه لا ليلة له .

وقيل في نظم الآية الاُولى ممّا قبلها من الكفّار وما متّعوا به من نعيم الدنيا : و لمّا رأي النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ما منيوا به من الإقتار تمنّى لهم الدنيا فبيّن سبحانه أنّ ذلك التمنّي من وساوس الشيطان و أنّ ما أعدّ لهم من نعيم الآخرة خيرٌ .

قوله تعالى : الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا و عملوا الصالحات في جنات النعيم (٥٦) والذين كفروا و كذبوا بآياتنا فاولئك لهم عذاب مهين (٥٧) والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أوماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً و ان الله لهو خير الرازقين (٥٨) ليدخلنهم مدخلا يرضونه و ان الله لعليم حليم (٥٩) ذلك ومن عاقب بمثل ماعوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله ان الله لعفو غفور (٦٠).

لمّا تقدّم ذكر القيامة بيّن صفتها فقال سبحانه :

[الملك يومئذ لله] لا يملك أحدسواه شيئاً بخلاف الدنيا [يحكم بينهم] يفصل بين الكافرين والمؤمنين ، والتنوين في يومئذ عوض عن الجملة تقديره : يوم يؤمنون [فالّذين آمنوا و عملوا الصالحات في جنّات النعيم] ينعّمون فيها [والّذين كفروا و كذّبوا بآياتنا فاُولئك لهم عذاب مهين] يهينهم ويذلّهم .

[والّذين هاجروا في سبيل الله] لمّا ذكر أنّ الملك له يوم القيامة و يدخل المؤمنين الجنّات أفرد المهاجرين بالذكر تفخيماً لشأنهم فقال : والّذين فارقوا أوطانهم [ثمّ قتلوا] في الجهاد [أو ماتوا] في الغربة [ليرزقنّهم الله رزقاً حسناً] و هو رزق في الجنّة والرزق الحسن ما إذا رآه لايمتدّ عينه إلى غيره وهذا لايقدر عليه غيرالله ولذلك قال سبحانه :

[و إنّ الله لهو خير الرازقين] و لا شكّ أنّ الرازق هو و لاغيره فما معنى خير الرازقين ؟ لأنّ من أعطى مؤونة أو شيئاً لأحد فتشبّه بالرازق و لو أنّ الشيء في الحقيقة من الله و هو خير الرازقين لأنّ إعطاءه من غير عوض و رزقه سبحانه ليس مسبوقاً بشيء آخر مثلاً السيّد إذا أعطى نفقة لعبده فالعبد يكون مسبوقاً بإعطاء السلامة و الصحّة و القدرة بذلك الانتفاع و إلّا لما أمكنه الانتفاع من رزق مولاه و أمّا رزق الله فإنّه لاحاجة به إلى رزق غيره فثبت أنّه خير الرازقين .

واختلفوا في المهاجرين فقيل : من هاجر إلى المدينة طالباً لنصرة الرسول تقرّباً إلى الله. و قال آخرون : بل المراد من جاهد فخرج مع الرسول أو في سراياه لنصرة الدين ولذلك ذكر القتل بعده ، و منهم من حمله على الأمرين .

و اختلفوا من وجه آخر فقال بعضهم : المراد من الآية قوم مخصوصون خرجوا من مكّة إلى المدينة للهجرة فتبعهم المشركون وقاتلوهم و ظاهر الكلام للعموم . في الجوامع: روي أنّ المهاجرين قالوا : يا رسول الله هؤلاء الّذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير و نحن نجاهد معك كما جاهدوا فمالنا إن متنا معك ؟ فأنزل الله هاتين الآيتين .

و قال سبحانه : « ثمّ قتلوا أوماتوا » و سوّى الوعد بينهما و استفادوا التسوية في الحكم بين من مات على فراشه منهم والمقتول منهم روى أنس أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال :

المقتول في سبيل الله والمتوفّي في سبيل الله بغير قتل هما في الأجر والخير شريكان و لفظ الشركة مشعر بالتسوية وإلّا فلا يبقى لتخصيصهما بالذكر فائدة والحاصل: أنّ الله وعدهم بالرزق الحسن.

ثمّ عيّن و شرح مسكنهم فقال [ليدخلنّهم مدخلاً يرضونه] فمن قرأ « مدخلاً » بضمّ الميم فهو من الإدخال. و من قرأ بفتحها فالمراد الموضع أي في المدخل الّذين يرضونه إنّه خيمة من درّة بيضاء لا فصم و لاوصم [1] لها سبعون ألف مصراع و يرون مالاعين رأت و لا اُذن سمعت و لاخطر على قلب بشر فيرضونه ولايبغون عنها حولاً، و نظيره قوله تعالى: «ومساكن طيّبة ترضونها[2]» و قوله: « في عيشة راضية[3]» وقوله: «ارجعي إلى ربّك راضية مرضيّة[4]».

قوله: [و إنّ الله لعليم حليم] أي عليم بمن يستحقّ هذا الإكرام فيعطيهم و حليم لا يعجّل العقوبة فيمن يقدم على المعصية بل يمهل لتقع منه التوبة فيستحقّ منه الجنّة.

قوله: [ذلك و من عاقب بمثل ما عوقب به] أي الأمر ذلك الّذي قصصنا عليك في أحوال المهاجرين و مثوباتهم و « من عاقب بمثل ما عوقب به » القمّي: هو رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لمّا أخرجته قريش من مكّة و هرب منهم إلى الغار وطلبوا ليقتلوه فعاقبهم الله يوم بدر و قتل عتبة و شيبة ابنا ربيعة و الوليد بن المغيرة وأبوجهل وحنظلة بن أبي سفيان وغيرهم فلمّا قبض و توفّي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم طلب بدمائهم فقتل الحسين و آل محمّد عليهم السلام بغياً وعدواناً و هو قول يزيد اللعين حتّى تمثّل بهذا الشعر:

ليت أشياخي ببدر شهدوا　*　وقعة الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا و استهلّوا فرحاً　*　ثمّ قالوا: يا يزيد لا تشل

(١) اى من غير كسر وعقدة.
(٢) التوبة: ٧٣.
(٣) الحاقة: ٢١. القارعة: ٧:
(٤) الفجر: ٣٠.

لست من خندف إن لم أنتقم ❊ من بني أحمد ماكان فعل
قد قتلنا القوم من ساداتهم ❊ و عدلناه ببدر فاعتدل
و كذاك الشيخ أو صاني به ❊ فاتبعت الشيخ فيما قد سأل

فقال الله تعالى : [ذلك و من عاقب] يعني رسول الله [بمثل ما عوقب به] يعني حين أرادوا أن يقتلوه [ثمّ بغي عليه لينصرنّه الله] بالقائم عليه السلام من ولده و حاصل المعنى في الآية : ذلك أي الأمر ذلك الّذي قصصنا و من عاقب بمثل ما عوقب به و جازى الظالم بمثل ما ظلمه يعني قاتل المشركين كما قاتلوه و الأوّل لم يكن عقوبة و لكنّه الجزاء بالجزاء لازدواج الكلام ثمّ بغي عليه و ظلم بإخراجه من منزله و ما فعله المشركون من البغي على المسلمين حتّى أخرجوهم من ديارهم لينصرنّه الله أي المظلوم الّذي بغي عليه .

[إنّ الله لعفوّ غفور] إشعار في حسن العفو روي أنّ الآية نزلت في قوم من مشركي مكّة نفوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرّم فقالوا : إنّ أصحاب محمد لا يقاتلون في هذا الشهر فحملوا عليهم فناشدهم المسلمون أن لا يقاتلوهم في الشهر الحرام فأبوا فأظفر الله المسلمين بهم .

قوله تعالى : ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار و يولج النهار فى الليل ان الله سميع بصير (٦١) ذلك بان الله هو الحق و ان مايدعونه من دونه هو الباطل و ان الله هو العلى الكبير (٦٢) الم تر ان الله انزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ان الله لطيف خبير (٦٣) له ما فى السماوات و ما فى الارض و ان الله لهو الغنى الحميد (٦٤) ألم تر ان الله سخر لكم مافى الارض و الفلك تجرى فى البحر بأمره و يمسك السماء ان تقع على الارض الا باذنه ان الله بالناس لرءوف رحيم (٦٥) .

أي [ذلك] النصر الّذي فعل بالمؤمنين المتأذّين من الكفّار بسبب أنّه قادر على كلّ ما أراد و اقتضت حكمته و يقدر أن ينصر الضعيف و يقوّيه على القويّ على خلاف العادة كما أنّه يلج الضياء في الظلمة و بالعكس كما يضيء البيت بالسراج و يظلم بفقده و[إنّ الله سميع بصير] وفي الآية تحذير عن الإقدام على ما لا يجوز في المسموع و المبصر .

[ذلك بأنّ الله هو الحقّ] أي ذلك الّذي فعل من نصر المؤمنين و يفعل مايشاء بأنّ الله هو الحقّ الموجود الواجب لذاته و يمتنع عليه الزوال و العجز و ما يُفعل من عبادته هو الحقّ و ما يفعل من عبادة غيره فهو الباطل فيستحقّون الوعد و الوعيد فقال : [و أنّ ما يدعونه من دونه هو الباطل و أنّ الله هو العليّ الكبير] العليّ عن الأشياء الكبيرالّذي كلّ شيء سواه يصغر مقداره ، العظيم في قدرته فليس قادر على النفع والضرر غيره ؛ وهذا المعنى يكون مرغّباً في عبادته وزاجراً عن عبادة غيره .

[ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرّة] لمّا ذكر سبحانه قدرته في الآية السابقة قدرته بولوج الليل في النهار و ولوج النهار في الليل نبّه على نعمه بأنواع اُخر فقال : «ألم تر» بمعنى الرؤية الحقيقيّة لأنّ الماء النازل من السماء واخضرار النبات على الأرض مرئيّ بالعين ، أو معنى الرؤية العلم أي ألم تعلم أنّه سبحانه أنزل بقدرته و خلقه من السماء المطر فتصبح الأرض بسبب الماء ذات خضرة و قال : « فتصبح » ولم يقل بلفظ الماضي لإفادة أثر الماء زماناً بعد زمان .

[إنّ الله لطيف] ذولطف بإرزاق عباده من حيث لايحتسبون و محيط بتدبير دقائق الأمور الّتي يتعذّر على غيره و يمتنع تدبيره لغيره ولايتعذّر عليه كإنزال الماء من السماء و إنبات البقل وأمثاله [خبير] بنيّاتهم .

[له ما في السماوات و ما في الأرض و إنّ الله لهو الغنيّ الحميد] الدلالة الثانية المعنى أنّ كلّ ذلك ينقاد له غير ممتنع عن التصرّف فيه في كلّ آن من الآنات غنيّ عن الأشياء و عن حمد الحامدين لأنّه كامل لذاته و أعجبني قول أعرابيّ حين ضلّ بعيره و هو يصيح : يا من رأى ضالّتي فلم يجده إلى أن طلع القمر فلمّا أن طلع القمر وجده فخاطب القمر وقال: الحمدلله رفعك و بالبروج قدّرك ونوّرك فإن قلت: جعلك الله رفيعاً فقد جعلك الله رفيعاً ، وإن قلت : نوّرك الله فأنت منير .

و بالجملة فالله سبحانه غنيّ عن وصف الواصفين ومن يقدر أن يبلغ وصفه ؟

[ألم تر أنّ الله سخّر لكم ما في الأرض و الفلك تجري في البحر بأمره] أي ذلّل لكم ما فيها فلا أصلب من الحجر ولا أحدّ من الحديد و لا أكثر هيبة و سلطة من

النار و قد سخّرها لكم وذلّل الحيوانات أيضاً حتّى ينتفع الانسان بهامن حيث الأكل و الركوب و الحمل عليها و الانتفاع بالنظر إليها فلولاأن سخّر الله الإبل و البقر مع قوّتهماحتّى يذلّلهما الضعيف من الناس و يتمكّن منها لماكان ذلك نعمة و كذلك السفن تجري في البحر بأمره و كيفيّة تسخير الفلك من حيث سخّر الماء والرياح لجريها فلولا صفتهما على ما هما عليه لما جرت بل كانت تغوص أو تقف بل استدراك الإنسان بصناعة السفن حتّى تعمل و تجري فذلك التسخّر لها . و إنّما قال : « بأمره » لأنّه سبحانه لمّا كان هو المرسل لها بالرياح نسب ذلك بأمره توسّعاً .

قوله تعالى : [و يمسك السماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه إنّ الله بالناس لرءوف رحيم] و هذه دلالة اُخرى على قدرتهمبيّنة على ظاهر الأوهام و معنى « أن تقع » أي كيلا تقع و كراهية أن تقع وهذه السماوات مع هذهالأجرام الفلكيّة مع أنّهامسكن الملائكة ولا بدّلها من الهويّ لولا مانع يمنعه إنّ الله بالنّاس بهذه النعم الجامعة لرءوف ذورأفة و رحمة .

و هو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ان الانسان لكفور (٦٦) .

ثمّ ذكردلالة اُخرى على وحدانيّتهفقال :

[و هوالّذي أحياكم] بعد أن كنتم نطفاً ميتة [ثمّ يميتكم] عند آجالكم [ثمّ يحييكم] للبعث و الحساب ، وفيهبيان أنّ من قدر على البدء قدر على الإعادةفنبّه بالإحياء الأوّل على إنعام نعمة الوجود و الدنيا علينا و نبّه بالإماتة و الإحياء الثاني على نعم الدين علينا فإنّه سبحانه خلق الدنيا بأسرها للآخرة لأنّه لولا أمر الآخرة لم تكن للزراعات و تكلّفها ولا لركوب الحيوان و ذبحها إلى غير ذلك معنى بل كان يخلقه ابتداء من غير تكلّف الزرع و السقي و إنّما أجرى الله هذه الاُمور على هذه العادة في الدنيا ليتبيّنالمطيع عن العاصي و يعتبربه في باب الدين و الامتحان .

ولمّا فصّل النعم قال : [إنّ الإنسان لكفور] أي الإنسان مع هذه النعم و هذه الآيات يجحد الخالق و يكفر به مع أنّ هذه النعم تقتضي الشكر فهم عكسوا القضيّة و كفروا كما قال : « و قليل من عبادي الشكور [١] » قال ابن عبّاس : الإنسان ههنا

(١) سبأ : ١٣ .

الكافر وقال أيضاً : هو الأسود بن عبدالأسدوأبوجهل والعاصي و أُبي بن خلف والأولى تعميمه في كلّ المنكرين .

قوله تعالى : لكل امة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلاينا زعنك فى الامر و ادع الى ربك انك لعلى هدى مستقيم (٦٧) و ان جادلوك فقل الله اعلم بما تعملون (٦٨) الله يحكم بينكم يوم القيمة فيما كنتم فيه تختلفون (٦٩) الم تعلم ان الله يعلم ما فى السماء والارض ان ذلك فى كتاب ان ذلك على الله يسير (٧٠) .

لما بيّن بعض نعمه على الإنسان و أظهر رأفته و ذكر أنّهم لا يشكرون نعمته أتبعه بذكر نعمه بما كلّف فقال :

[لكلّ أُمّة جعلنا منسكاً] أي لكلّ قرن مضى جعلنا شريعة عاملون بها أو مكاناً و موضعاً يعتادونه لعبادة الله و مناسك الحجّ من هذا المعنى لأنّها مواضع العبادة فيه . و قيل : المعنى عيداً و موضع قربان و متعبّداً لإراقة الدماء مثل منى و غيره . و لأجل أنّه لا تعلّق لقوله « لكلّ أُمّة » بما قبلها حذف العاطف و منشأ الاختلاف في معنى النسك لاختلاف معنى الزمانيّة أو المكانيّة و قيل : المعنى المنهاج والشرعةويصلح الكلام أن يحمل على مطلق العبادة لأنّ ما يفعل بالحجّ من العبادة يوصف و يسمّى بالمناسك و لهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم : خذوا عنّي مناسككم .

قوله : [فلا ينازعنّك في الأمر] هذا نهي من الله فيمنازعة المشركين والكفّار للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فيعبادته و منازعتهم له قولهم : أتأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتلهالله؟ يعنون الميتة بأنّها حلال لأنّها قتلها الله و ليسلهم أن ينازعوك فيشريعتهم وقد نسخت شريعتك الشرائع المتقدّمة فادعهم إلى دينك و لا تخصّ بالدعاء أُمّة دون أُمّة فكلّهم أُمّتك .

قوله : [وادع إلى ربّك إنّك لعلى هدىً مستقيم] أي ما تكلّفهم هداية مستقيمة [و إن جادلوك] أي إن عدلوا عن النظر إلى هدايتك و طريقك و جادلوك

وخاصموك [فقل الله أعلم بما تعملون] فقد بيّنت و أوضحت و أظهرت ما يلزمك وهذا الكلام يجري مجرى الوعيد و التحذير أي لا تجادلهم بعد إلزام الحجّة و إيضاح الطريقة و ادفعهم بهذا القول وحاكمهم بعلم الله و إلى الله .

[الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون] من أمر الذبائح و غيره فتعرفون حينئذ الحقّ من الباطل .

[ألم تعلم أنّ الله يعلم ما في السماء والأرض] الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و المراد جميع المكلّفين يعلم من كثير و قليل لا يخفى عليه شيء من ذلك الأمور [إنّ ذلك] المعلوم ثبت [في كتاب] أي اللوح المحفوظ من الخطأ [إنّ ذلك] أي الكتابة في اللوح [على الله يسير] لا يحتاج إلى معالجة خطوط و حروف و إنّما يقول: كن فيكون وقيل: المراد أنّ الحكم في مختلفاتهم بينهم يسير على الله .

قوله : و يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً و ما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير (٧١) و اذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفانبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الذين كفروا و بئس المصير(٧٢) .

أخبر عن حال الكفّار فقال :

[و يعبدون مالم ينزّل به سلطاناً] وحجّة ودليلاً على إلهيّته و يعبدون [ماليس لهم] علم بأنّها آلهة لأنّ الإنسان قد يعلم أشياء من غير دليل و حجّة كالضروريّات و المعنى أنّ الكفّار ما علموا إلهيّة آلهتهم لا بحكم الضرورة و لا بحكم الاستدلال و النظر بل مجرّد التقليد أو العناد .

[و ما للظالمين من نصير] أي ليس للمشركين الّذين أشركوا مع الله إلهاً آخر و ظلموا أنفسهم بهذا الظلم القبيح من مانع من العذاب .

ثمّ أخبر سبحانه عن شدّة عنادهم فقال : [و إذا تتلى عليهم آياتنا] من القرآن و غيره من الدلائل و هي [بيّنات] لمن تفكّر فيها [تعرف] يا محمّد [في وجوه الّذين كفروا المنكر] يريد أثر الإنكار من الكراهية والعبوس [يكادون يسطون] و يبطشون

من الغيظ و يبسطون إليهم أيديهم بالسوء [بالّذين يتلون عليهم آياتنا] .

[قل] يا محمد لهم : [أفأُنبّئكم بشرّ من ذلكم] أي أُخبركم بشيء أكره إليكم من هذا القرآن الّذي تكرهون من استماعه و أشدّ عليكم [منه] ثمّ فسّر ذلك فقال : [النار] أي هو النار [وعدها الله الّذين كفروا و بئس المصير] أي وعدكم الله النار و بئس المرجع والمأوى.

قوله تعالى : يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين يدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ضعف الطالب و المطلوب (٧٣) ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوى عزيز (٧٤) الله يصطفى من الملائكة رسلا و من الناس ان الله سميع بصير (٧٥) .

النزول : في الكافي عن الصادق عليه السلام : كانت قريش تلطخ الأصنام الّتي حول الكعبة بالمسك و العنبر وكان يغوث قبال الباب و يعوق عن يمين الكعبة و نسر عن يسار الكعبة و كان في ثلثمائة و ستّين صنماً و كانوا إذا دخلوا خرّوا سجّداً ليغوث ولا ينحرفون ويستدبرون بحيالهم إلى يعوق ثمّ يستدبرون عن يسار الكعبة بحيالهم إلى نسر ثمّ يلبّون فيقولون : لبيّك اللّهم لبيّك لبيّك لاشريك لك إلّا شريك هو لك تملكه وما ملك . قال : فبعث الله ذباباً أخضر له أربعة أجنحة فلم يبق من ذلك المسك و العنبر شيئاً إلّا أكله فأنزل الله الآية .

قال الأخفش : إن قيل : فأين المثل الّذي ذكره الله من قوله «ضرب مثل» ؟ قيل: ليس ههنا مثل ولمّا كان المثل في الكلام نكتة غريبة أو شباهة عجيبة جاز أن يسمّى مثل ما كان كذلك مثلاً .

فإن قيل: إنّ القائل هو سبحانه ابتداء و ضرب يفيد فيما مضى فكيف التطبيق في الكلام ؟

فالجواب: إذا كان ما يورد في الكلام من الوصف معلوماً قبل الكلام جاز ذلك فيه و يكون ذكره بمنزلة إعادة ذكر قد تقدّم و لو لم يذكر قبل ذلك .

و بالجملة المعنى : إنّ الله قال : [ضرب] لي [مثل] أي شبهة في الأوثان ثمّ قال : [فاستمعوا] لهذا المثل الّذي جعلوه مثلي وقال بعضهم كالقتيبي : ههنا مثل لأنّه سبحانه ضرب مثل هؤلاء الّذين يعبدون الأصنام بمن عبد من لا يخلق ذباباً بل الذباب يضرّه فاستمعوا له لتقفوا على جهل المشركين و معنى ضرب مثل من قولك : ضربت خيمة أي أثبتّها و نصبتها كالشيء الثابت اللازم من قولك: ضرب السلطان الجزية على أهل الذمّة .

والحاصل [إنّ الّذين يدعون] هؤلاء أي الأصنام و يزعمونها أنّها آلهة [لن يخلقوا ذباباً] في صغره و قلّته [ولو اجتمعوا له و إن يسلبهم الذباب شيئاً] ممّا عليهم [لا يستنقذوه منه] أي لا يقدرون على استنقاذه من الذباب [ضعف الطالب والمطلوب] أي السالب و المسلوب يعني الذباب والصنم و العابد والمعبود ، و روي على العكس من هذا و هو الطالب الصنم والمطلوب الذباب قال السدّي : الطالب العابد الّذي يعبد هذا الصنم بالتقرّب إليه و الصنم المطلوب إليه .

قوله : [ما قدروا الله حقّ قدره] أي ما عظّموا الله حقّ عظمته حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له على ضعفها و عجزها [إنّ الله لقويّ عزيز] لا يقدر أحد على مغالبة عزيز الوصف و الأوهام لا تدركه و الأفكار لا تقدّره والعقول لا تمثّله والأزمنة لا تحويه و الجهات لا تحيطه صمديّ الذات سرمديّ الصفات .

قوله تعالى : [الله يصطفي من الملائكة رسلاً] لمّا ذكر سبحانه ما يتعلّق بالإلهيّات ذكر في هذه الآية ما يتعلّق بالنبوّات قال الوليد بن المغيرة : « أ أنزل عليه الذكر من بيننا [1] » فأنزل الله هذه الآية « الله يصطفي من الملائكة رسلاً » أي يختار من بعضهم رسلاً إلى بني آدم و الأنبياء مثل جبرئيل و عزرائيل و إسرافيل والحفظة و هم أكابر الملائكة و بعضهم رسلاً إلى بعضهم حتّى يصحّ قوله : « جاعل الملائكة رسلاً [2] » .

[و من النّاس إنّ الله سميع بصير] أي و يصطفي من النّاس والبشر رسلاً يعني النبيّين . و في الآية تبكيت لمن عبد الملائكة بأنّهم خدمة فمن جعل الملائكة والأنبياء

---

(١) ص : ٨ .
(٢) فاطر : ١ .

أولاداً فإنّه ماعظّم الله إذجعل من يعبده معبوداً فوبّخ سبحانه في الآية السابقة عبدة الأوثان و في هذه الآية عبدة الملائكة الّذين يقولون : الملائكةبنات الله.

يعلم ما بين أيديهم و ما خلفهم و الى الله ترجع الامور (٧٦).

أي سميع بصير يعلم ما تقدّم من الخلائق من أحوالهم و ما هم عليه و ما يكون في مستقبل أحوالهم و حاصل المعنى : يعلم سبحانه أوّل أعمالهم و آخر أعمالهم و قيل : يعلم ما كان قبل خلق الملائكة و الأنبياء وما يكون بعد خلقهم [وإلى الله ترجع الأُمور] يوم القيامة ولا يكون لأحد أمر و لانهي .

يا ايها الذين آمنوا اركعوا و اسجدوا و اعبدوا ربكم و افعلوا الخير لعلكم تفلحون (٧٧) و جاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم و ما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل و في هذا ليكون الرسول عليكم شهيداً و تكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة و اعتصموا بالله هو مولكم فنعم المولى ونعم النصير (٧٨).

لمّا تكلّم في الإلهيّات ثمّ في النبوّات أتبعه الكلام في الشرائع من أربعةأوجه : أوّلها : تعيّن المأمور و لاشكّ أنّ المكلّف كلّ المكلّفين سواء كان مؤمناً أو كان كافراً لدلالة سائر الآيات على كون الكلّ مكلّفاً بهذه الأشياء فتخصيص الخطاب بالمؤمنين مع أنّ الكلّ مشترك في الحكم للتحريض لهم على المواظبة على قبوله والتشريف لهم بالتخصيص.

و الأُمور الّتي ذكرها الله سبحانه و تعالى فقدّم الصلاة ، و هو المراد من قوله : [اركعوا و اسجدوا] والصلاة هي المختصّة بهذين الركنين فكان ذكرهما جارياً مجرى الصلاة قال ابن عبّاس : كان النّاس في أوّل إسلامهم كانوا يركعون ولايسجدون حتّى نزلت الآية .

ثمّ قال : [واعبدوا ربّكم] ولاتعبدوا غيره ولاتشركوا به في العبادة شيئاً [وافعلوا الخير] قال ابن‌عبّاس: يريد به صلة الرحم و وجوه البرّ و مكارم الأخلاق و يدخل فيه كلّ معروف مثل الصدقةوحسن القول للنّاس[لعلّكم تفلحون] و تظفرون بنعيم‌الآخرة .

[و جاهدوا في الله حقّ جهاده] و حملوا الجهاد في الآية على إتيان أعمال الطاعة .
و قال المفسّرون : حقّ الجهاد أن يكون بنيّة صادقة خالصة و أن يطاع فلا يعصى و قيل : معناه : جاهدوا بالسيف من كفر بالله و إن كانوا الآباء و الأبناء . و روي عن عبدالله بن المبارك أنّه مجاهدة الهوى و النفس .

قوله : [هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج] اصطفاكم ربّكم لدينه وما جعل عليكم في الدين من ضيق لا مخرج منه ولا مخلص من عذابه و عقابه بل جعل التوبة و الكفّارات وردّ المظالم مخلصاً من الذنوب فليس في دين الإسلام ما لا سبيل إلى الخلاص من العقاب به فلا عذر لأحد في ترك الاستعداد للقيامة .

و قيل : معناه: إنّ الله لم يضيّق عليكم أمر الدين فلن يكلّفكم ما لا تطيقون بل كلّف دون الوسع فلا عذر لكم في تركه .

و قيل : إنّه يعني الرخص عند الضرورات كالقصر والتيمّم و أكل الميتة وأمثالها و الحرج في الحديث معناه الضيق فالحاصل من معنى الحرج هو الإتيان بالرخص مثلاً كمن لم يقدر أن يصلّي قائماً فليصلّ جالساً و من لم يستطع فليؤم و الإفطار للمريض فإنّه سبحانه لم يبتلي العبد بشيء من الذنوب إلّا و جعل له مخرجاً منها إمّا بالتوبة أو بالكفّارة .

و في الحديث عن طرق العامّة من جاءته رخصة فرغب عنها كلّف يوم القيامة أن يحمل تنّين حتّى يقضي بين الناس . وأيضاً عن النبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم إذا اجتمع أمران فأحبّهما إلى الله أيسرهما .

و عن كعب الأحبار : أعطى الله هذه الأمّة ثلاثاً لم يعطهنّ إلّا للأنبياء ، جعلهم شهداء على الناس و ما جعل عليهم في الدين من حرج و قال : « ادعوني أستجب لكم[1] » .

قوله : [ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين] و في نصب « ملّة » وجهان أي وسّع لكم دينكم توسعة ملّة إبراهيم و أقام المضاف إليه مقام المضاف أو بتقدير أعني ملّة أبيكم و لأجل أنّ أكثرهم كالرسول و رهطه و جميع العرب من ولد إبراهيم أضاف إليهم أو جعل حرمة إبراهيم على المسلمين كحرمة الوالد على ولده كما أنّه تعالى قال : « النبيّ

(١) المؤمن : ٦٠ .

أولى بالمؤمنين من أنفسهم[١]، وجعله أولى من أنفسهم وجعل حرمة نسائه كحرمة الوالدة على ماقال : « وأزواجه أمّهاتهم[٢] » .

فإن قيل : إنّ هذا البيان يقتضي أن تكون ملّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم كملّة إبراهيم عليه السلام فيكون الرسول معه سواء و ليس له شرع مخصوص و يؤكده قوله تعالى : « أن اتّبع ملّة إبراهيم[٣] » .

فالجواب أنّ التساوي في الإلهيّات حاصل لعبادة الله وترك الأوثان وأمّا تفاصيل الشرائع فلاتعلّق لها بهذا الموضع .

قوله : [هو سمّاكم المسلمين من قبل] الضمير راجع إلى إبراهيم عليه السلام فإنّ لكلّ نبيّ دعوة مستجابة و هو قول إبراهيم عليه السلام : « ربّنا و اجعلنا مسلمين لك و من ذرّيّتنا أمّة مسلمة لك[٤] » فاستجاب الله دعاءه فجعلها أمّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وقيل : الضمير راجع إلى الله في قوله : « اجتباكم » فروي عن عطاء عن ابن عبّاس أنّه قال : إنّ الله سمّاكم المسلمين من قبل في الكتب وفي القرآن أي من قبل إنزال القرآن .

[و في هذا] أي وفي القرآن [ليكون الرسول شهيداً عليكم و تكونوا شهداء على النّاس] أي ليكون محمد شاهداً عليكم بالطاعة والقبول فإذا شهد لكم به صرتم عدولاً و تشهدون على الأمم الماضية بأنّ الرسل بلّغوهم رسالات ربّهم و أنّهم قبلوا أولم يقبلوا فيوجب لكافرهم النار ولمؤمنهم الجنّة بشهادتكم وهذا من أشرف المراتب و هو مثل قوله : « و كذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس[٥] » و لمّا شرّفكم بهذا التشريف العظيم وسمّاكم بهذا الاسم المبارك فاعبدوه ولاتردّوا تكاليفه لأنّ الكرامة والمنّة موجبة لقبول التكليف .

[فأقيموا الصلاة و آتوا الزكاة] هما فريضتان و اجبتان عليكم فأدّوهما إلى الله، و عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : لا تقبل الصلاة إلّا بأداء الزكاة . [واعتصموا بالله] و تمسّكوا بدين الله و امتنعوا بطاعته عن معصيته واجعلوها عصمة لكم من أعدائكم و توكّلوا عليه

(١-٢) الاحزاب : ٦ .   (٣) النحل : ١٢٣ .
(٤) البقرة : ١٢٨ .   (٥) البقرة : ١٤٣ .

[هو مولاكم] و ناصركم و المتولّي لأموركم [فنعم المولى] هو لمن تولّاه [و نعم النصير] لمن استنصره إذ لم يمنعكم الرزق حين عصيتموه .

اعلم أنّ المعتزلة احتجّوا بهذه الآيات على أهل السنّة من وجوه :

أحدها أنّ قوله تعالى : « لتكونوا شهداء على الناس » يدلّ على أنّه سبحانه أراد الإيمان من الكلّ لأنّه لايجعل الشهيد على العباد إلّا من كان مرضيّاً عدلاً فإذا أراد أن تكونوا شهداء فقد أراد أن تكونوا جميعاً صالحين عدولاً و قد علمنا أنّ منهم فاسقاً فدلّ على أنّه تعالى أراد من الفاسق كونه عدلاً .

والثاني قوله : « و اعتصموا بالله » و كيف يمكن الاعتصام به و إنّ الشرّ لا يوجد إلّا منه ؟

و **الثالث** قوله « فنعم المولى » لأنّه لو كان كما يقوله أهل السنّة من أنّه خلق أكثر عباده ليخلق فيهم الكفر والفساد ثمّ يعذّبهم لما كان نعم المولى بل كان لايوجد من شرار الموالي أحد إلّا و هو شرّ منه فكان يجب أن يوصف بأنّه بئس المولى و ذلك باطل فدلّ على أنّه سبحانه ما أراد من جميعهم إلّا الصلاح

تمّت السورة

سورة المؤمنون

☼ (مائة و ثمانية عشر آية مكية) ☼

فضلها : اُبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه و آله : من قرأ سورة المؤمنين بشّرته الملائكة يوم القيامة بالروح و الريحان و بما تقرّ به عينه عند نزول ملك الموت .

و قال أبو عبد الله عليه السلام : من قرأ سورة المؤمنين ختم الله له بالسعاده إذا كان يُدمن على قراءتها في كلّ جمعة و كان منزله في الفردوس الأعلى مع النبيّين والمرسلين .

تفسيرها : ختم الله سورة الحجّ بأمر المكلّفين في العبادة و أفعال الخير على طريق الإجمال افتتح هذه السورة بتفصيل تلك الجملة و بيانها فابتدأ سبحانه بالبشارة للمتّبعين بأوامره و الطاعات و فاعلي الخيرات بقوله :

بسم الله الرحمن الرحيم

قد أفلح المؤمنون (١) الذينهم فى صلوتهم خاشعون (٢) و الذين هم عن اللغومعرضون (٣) والذين هم للزكوة فاعلون (٤) و الذينهملفروجهم حافظون (٥) الا على أزواجهم أوما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين (٦) فمن ابتغى وراء ذلك فاولئكهم العادون (٧) والذينهم لاماناتهم وعهدهم راعون (٨) و الذين همعلىصلوتهميحافظون (٩) اولئكهم الوارثون(١٠) الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون (١١) .

المعنى : فاز بثواب الله الّذين صدقوا بوحدانيّة الله و برسله ، و قيل : معنى « أفلح » بقي أي قد بقيت أعمالهم الصالحة . وقيل : سعد المؤمنون . و كلمة «قد» تكون لتقريب الماضي من الحال في الآية ؛ ألا ترى يقولون : قد قامت الصلاة قبل حال قيام الصلاة ، أو معناه التحقيقيّ .

ثمّ وصف المؤمنين بصفات فقال : [الّذين هم في صلاتهم خاشعون] خاضعون متذلّلون لا يرفعون أبصارهم من مواضع سجودهم ولا يلتفتون يميناً وشمالاً ، روي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته فقال : أما إنّه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه فالخشوع في الصلاة لا بدّ و أن يكون بالقلب و الجوارح فأمّا القلب هو أن يفرغ قلبه المصلّي بجمع الهمّة و الرهبة و التوجّه لها والإعراض عمّا سواها فلايكون في القلب غير العبادة و المعبود و أمّا الجوارح فهو غضّ البصر و الإقبال عليها و ترك الالتفات و سكون البدن حتّى قيل في معنى الخشوع : أن لا يعرف من على يمينه ولا من على يساره . و روي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يرفع بصره إلى السماء في صلاته فلمّا نزلت الآية طأطأ رأسه و رمى ببصره إلى الأرض .

و ههنا مسألة قال الرازيّ : فإن قيل : إنّ الخشوع بهذا المعنى واجب في

الصلاة أم لا ؟ قلنا : إنّه عندنا واجب و يدلّ عليه اُمور :

أحدها : قوله تعالى « أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها[1] » و التدبّر لا يتصوّر بدون الوقوف على المعنى و كذا قوله تعالى : « و رتّل القرآن ترتيلاً[2] » معناه قف على عجائبه و معانيه .

وثانيها « و أقم الصلاة لذكري[3] » و ظاهر الأمر للوجوب و الغفلة تضادّ الذكر فمن غفل في جميع صلاته كيف يكون مقيماً للصلاة لذكره .

و ثالثها « و لا تكن من الغافلين[4] » و ظاهر النهي للتحريم .

و رابعها قوله : « حتّى تعلموا ما تقولون[5] » تعليل لنهي السكران و هو المستعمل في الغافل المستغرق المهتمّ بالدنيا .

وخامسها قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : إنّما الخشوع لمن تمسكن وتواضع ، و كلمة « إنّما » للحصر و قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلّا بعداً ، وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : كم من قائم حظّه من قيامه التعب والنصب . وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : ليس للعبد من صلاته إلّا ما عقل .

وسادسها قال الغزاليّ : المصلّي يناجي ربّه كما ورد به الخبر و الكلام مع الغفلة ليس بمناجاة و بيانه أنّ الإنسان إذا أدّى الزكاة حال الغفلة فقد حصل المقصود منها و هو كسر الحرص و إغناء الفقر و كذا الصوم قاهر للقوى كاسر لسطوة الهوى الّتي هي عدوّة الله و يحصل هذه الاُمور المقصودة من الصوم مع الغفلة سواء كان القلب حاضراً أو لم يكن و أمّا الصلاة فليس فيها إلّا ذكر و قراءة وركوع وسجود وقيام وقعود .

أمّا الذكر فإنّه مناجاة مع الله فإمّا أن يكون المقصود منه مناجاة أو المقصود مجرّد الحروف والأصوات و لا شكّ في فساد هذا القسم فإنّ تحريك اللسان بالهذيان ليس فيه غرض صحيح فثبت أنّ المقصود المناجاة مع الله بهذه الكيفيّة الواردة و ذلك لا يتحقّق إلّا إذا كان اللسان معبّراً عمّا في الضمير والقلب من التضرّعات فأيّ سؤال في قوله : « اهدنا

(١) محمد : ٢٤ .
(٢) المزمل : ٤ .
(٣) طه : ١٤ .
(٤) الاعراف : ٢٠٤ .
(٥) النساء : ٤٢ .

الصراط المستقيم ، وكان القلب غافلاً عنه ؟

بل يمكن أن يقال : إنّه إذاكان القلب محجوباً بحجاب الغفلة وكان غافلاً عن جلال الله و لسانه يتحرّك بحكم العادة ما أبعدها عن القبول كما لو حلف إنسان و قال : والله لأشكرنّ فلاناً وأسأله حاجة ثمّ جرت الألفاظ الدالّة على هذه المعاني على لسانه وذلك الإنسان الفلاني حاضر إلا أنّ المتكلّم غافل لكونه مستغرق الهمّ بفكر من الأفكار ولم يكن له قصد بتوجيه عليه عند نطقه لم يصر باراً في يمينه .

و كذلك لاشكّ أنّ المقصود من القراءة و الأذكار الحمد والثناء و الدعاء والمخاطب هو الله و المتكلّم غافل و ذاهل عن نطقه فحينئذ وقع الكلام من غير قصد و أنّ الركوع و السجود المقصود منهما التعظيم لله تعالى وإذا لم يحصل التعظيم بسبب عدم القصد يكون مجرّد حركة الظهر و الرأس و هذا لا يوجب أن يكون عماد الدين و فاصلاً بين الكفر والإيمان ويقدّم على الحجّ والزكاة والجهاد وسائر الطاعات الشاقّة ويجب بسبب تركه القتل على الخصوص بكلّ عاقل يقطع بأنّ مشاهدة الخواصّ العظيمة ليس مجرّد أعمالها الظاهرة إلا أن يضاف إليها مقصود هذه المناجاة فدلّت هذه الاعتبارات على أنّ الصلاة لابدّ فيها من الحضور .

ثمّ ههنا بيان آخر و هو أنّه ما ذكرنا من شرط الخضوع على خلاف إجماع الفقهاء و لاينا في هذا البيان مع إجماعهم لأنّ الحضور ليس شرطاً للإجزاء بلى شرط للقبول و المراد من الإجزاء أن لايجب القضاء على من ليس له حضور والمراد من القبول حكم الثواب و الأثر و هذا لايحصل إلّا بشرائط ما ذكرنا و الفقهاء إنّما يبحثون من حكم الإجزاء لا عن حكم الثواب و غرضنا في هذا المقام بيان هذا الأمر .

مثاله : من استعار منك ثوباً ثمّ ردّه على الوجه الأحسن فقد خرج عن العهدة و استحقّ المدح و من رماه إليك على وجه الاستخفاف خرج عن العهدة و لكنّه استحقّ الذمّ كذلك من عظّم الله حال أدائه العبادة صار مقيماً للفرض مستحقاً للثواب و من غفل عن التعظيم و استهان بها في كمالها صار مقيماً للفرض لكنّه استحقّ الذمّ .

و أمّا المتكلّمون فقد اتّفقوا على أنّه لابدّ من الحضور والخشوع و قالوا : إنّ

القصد ممنوع والمراد من القصد إيقاع تلك الأفعال لداعية الامتثال و هذه الداعية لايمكن حصولها إلّا عند الحضور فلهذا اتّفقوا على أنّه لابدّ من الحضور .

أمّا الفقهاء فقد ذكر الفقيه أبو الليث في تنبيه الغافلين أنّ تمام القراءة أن يقرأ بغير لحن و أن يقرأ بالتفكّر و أمّا الغزاليّ فإنّه نقل عن أبي طالب المكّيّ عن بشر الحافي أنّه قال : من لم يخشع فسدت صلاته و عن الحسن : كلّ صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع ، و روي مسنداً قال صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ العبد ليصلّي الصلاة لايكتب له سدسها و لا عشرها و إنّما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها و قال عبدالواحد ابن زيد : أجمعت العلماء على أنّه ليس للعبد من صلاته إلّا ما عقل و ادّعى الإجماع في المسألة .

قال الرازيّ : إذا ثبت هذا فنقول : هب إنّ الفقهاء بأسرهم حكموا بالجواز أليس المتكلّمون و أهل الورع ضيّقوا الأمر فهلاّ أخذت بالاحتياط فإنّ بعض العلماء من أهل السنّة اختار الإمامة فقيل له في ذلك فقال : أخاف إن تركت الفاتحة أن يعاتبني الشافعيّ و إن قرأتها مع الإمام أن يعاتبني أبو حنيفة فاخترت الإمامة طلباً للخلاص عن الاختلاف . انتهى كلام الرازيّ .

قوله تعالى : [والّذين هم عن اللّغو معرضون] و اختلف في معنى اللغو اختلافاً كثيراً : قيل : يدخل فيه ما كان حراماً أو مكروهاً أو كان مباحاً و لكن لا يكون للمرء إليه حاجة و قيل : إنّه عبارة عن كلّ ما كان حراماً فقط و القائل بهذا ابن عبّاس وقيل : إنّه عبارة عن المعصية في القول و الكلام خاصّة وقيل : إنّه المباح الّذي لا حاجة إليه .

و احتجّ هذا القائل بقوله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم (١) » فكيف يحمل ذلك على المعاصي الّتي لابدّ فيها من المؤاخذة . و احتجّ الأوّلون بأنّ اللغو إنّما سمّي لغواً بسبب أنّه يلغى و كلّ ما اقتضى الشرع إلغاءه كالحرام كان أولى باسم اللغو فكلّ حرام لغو و حينئذٍ قد يكون اللغو كفراً لقوله تعالى : « لا تسمعوا

---

(١) النحل : ٦١ .

لهذا القرآن و الغوا فيه[١] » و قد يكون كذباً لقوله : « لا تسمع فيها لاغية[٢] » وقوله : « لايسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً [٣] » .

و بالجملة فكلّ قول وفعل لا فائدة شرعيّة فيها قبيح ممنوع يجب الإعراض عنه. و روي عن الصادق عليه السلام قال: هوأن يتقوّل الرجل عليك بالباطل أو يأتيك بما ليس فيك فتعرض عنه لله و في رواية أنّه الغناء والملاهي .

الصفة الرابعة قوله : [والّذين هم للزكاة فاعلون] أي مؤدّون فعبّر عن التأدية بالفعل لأنّه فعل . قالصاحب الكشّاف : اسم مشترك بين عين ومعنى فالعين القدر الّذي يخرجه المزكّي من النصاب إلى الفقير والمعنى فعل المزكّي الّذي هوالتزكية و هوالّذي أراده الله فجعل المزكّين فاعلين له و المصدر يعبّر عن معناه بالفعل و يقال لمحدثه فاعل يقال للضارب فاعل الضرب و للقاتل فاعل القتل وللمزكّي فاعل الزكاة .

و الحاصل أنّ في الزكاة قولان: أحدهما أنّ فعل الزكاة يقع على كلّ فعل محمود ومرضيّ كقوله :«وقدأفلح من تزكّى[٤]»وقوله «فلاتزكّواأنفسكم[٥]»وعلى هذا المعنى فمن جملته ما يخرج من حقّ المال و إنّما سمّي بذلك لأنّها تطهر من الذنوب لقوله تعالى : « تطهّرهم و تزكّيهم بها [٦] » وهو قول أبي مسلم وجماعة .

و قال الأكثرون : إنّه الحقّ الواجب في الأموال خاصّة و المراد في الآية هذا الأمر و هذاهوالأقرب لأنّ المتبادرمن هذهاللفظة هذا المعنى و التبادرعلامة الحقيقة .

فإن قيل : إنّ الله لم يفصل بين الصلاة و الزكاة فلمَ فصّل في هذه الآية بينهما بقوله « والّذين هم عن اللغو معرضون » ؟

والجواب أنّه ما فصّل أيضاً في هذه الآية لأنّ الإعراض عن اللغو من متمّمات الصلاة.

الصفة الخامسة قوله تعالى : [والّذين هم لفروجهم حافظون ❊ إلّا على أزواجهم

---

(١) حم السجدة : ٤٦ . (٢) الغاشية : ١١ .
(٣) الواقعة : ٢٥ . (٤) الاعلى : ١٤ .
(٥)النجم : ٣٢ . (٦) التوبة : ١٠٩ .

أو ماملكت أيمانهم فإنّهم غير ملومين] الفرج اسم لجميع سوأة الرجال والنساء والمراد ههنا فروج الرجال بدلالة قوله: «إلّا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم» المعنى: أنّهم يلامون في إطلاق ماحظر عليهم وممنوعين واُمروا بحفظه إلّا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم و دلّ على المحذوف ذكر اللوم في قوله فإنّهم غير ملومين و ملك اليمين المراد الإماء لأنّ الذكور من المماليك لا خلاف بين الاُمّة في وجوب حفظ الفرج منهم.

و إنّما أطلق سبحانه إباحة و طء الأزواج والإماء وإن كانت لهنّ أحوال يحرم وطئهنّ كحال الحيض و العدّة و أمثالها لأنّ الغرض بالآية بيان جنس من يحلّ وطئها دون الأحوال الّتي لا يحلّ فيها الوطء.

[فمن ابتغى و راء ذلك] أي طلب سوى الأزواج و الإماء المملوكة [فاُولئك هم العادون] الظالمون المتعدّون إلى ما لا يحلّ لهم و قال: «على أزواجهم» و المعنى من أزواجهم لأنّهم قوّامون عليهنّ كما يقال: فلان على البصرة، أي والياً عليها و هلاّ قيل: «من ملكت» و الموضع موضع من؟ لانّه اجتمع في التنزيه و صفات الاُنوثة وهي مظنّة نقصان العقل و الآخر كونها تباع وتشترى كسائر السلع والجمادات الغير العاقلة فجعلت في عداد من لا يعقل.

القمّي: المتعة حدّها حدّ الإماء و في الكافي عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن المتعة فقال: حلال فلا تزوّج إلّا عفيفة إنّ الله يقول: «والّذين هم لفروجهم حافظون» و عنه عليه السلام تحلّ الفروج بثلاثة وجوه: نكاح بميراث ونكاح بلا ميراث و نكاح ملك يمين و عن أبيه عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله: إنّ الله أحلّ لكم الفروج على ثلاثة معان: فرج مورّث والثبات و فرج غير مورّث وهي المتعة و ملك أيمانكم.

الصفة السادسة: [والّذين هم لأماناتهم و عهدهم راعون] الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة و عهد و منه قوله تعالى: «إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها [١]» و إنّما تؤدّي العيون دون المعاني و المؤتمن عليه الأمانة في نفسها و العهد ما عقده على نفسه فيما يقرّبه إلى ربّه والعبادات كلّ مكلّف مؤتمن عليها و لايجوز

(١) النساء: ٥٧.

الخيانة فيها و داخلة في عنوان الأمانات قال الله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول و تخونوا أماناتكم [1] » و إنّ العبادات إمّا أن تخفى أصلاً كالصوم وغسل الجنابة و إسباغ الوضوء أو تخفى كيفيّة إتيان شروطها قال صلى الله عليه وآله وسلم : أعظم النّاس خيانة من لم يتمّ صلاته .

و الأمانات ضربان : أمانات الله تعالى وأمانات العباد فأمانات الله العبادات كالصلاة و الصيام ، و أمانات العباد مثل الودائع والعواري والبياعات و الشهادات وغيرها .

و العهد أيضاً على ضربين : عهد بين الله و عهد بين الخلق فالأوّل مثل النذور و العهود المأخوذ منه في التكليف من أوامر الله و عهود بين الخلق مثل العقود الجارية في الخلق مثل البيع و الصلح و أمثاله فيجب على الإنسان الوفاء بجميع ضروب الأمانات و جميع ضروب العهود المشروعة .

الصفة السابعة : [والّذين هم على صلواتهم يحافظون] أي يقيمونها في أوقاتها و لا يضيّعونها و إنّما أعاد ذكر الصلاة تنبيهاً على عظم قدرها و علوّ رتبتها و لأنّ المحافظة التعهّد لشروطها المجموعة و الخشوع غير المحافظة والمراد من المحافظة التعهّد لشروط الصلاة من الأوقات و الأركان و الطهارة و أمثالها .

قيل : و كان في القرن الأوّل سحراً و بعد الفجر الطرقات مملوءة من النّاس يمشون في السرج إلى الجامع خصوصاً ليلة الجمعة حتّى اندرس ذلك و أوّل ضعف وقع في عبادات النّاس في الإسلام ترك البكور في المساجد .

[اُولئك هم الوارثون * الّذين يرثون الفردوس] أي إنّ من كانوا بهذه الصفات و اجتمعت فيهم هذه الخصال هم الوارثون يوم القيامة منازل أهل النار من الجنّة روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : ما منكم من أحد إلّا له منزلان : منزل في الجنّة و منزل في النار فإن مات و دخل النار ورث أهل الجنّة منزله .

و قيل : معنى الميراث أنّه ينتهي اُمورهم إلى الجنّة كالميراث الّذي يستحقّ الوارث إليه و لأنّ انتقال الجنّة إليهم بدون محاسبة و معرفة بمقاديره يشبه انتقال المال

(١) الانفال : ٢٧ .

إلى الوارث أولأنّ الجنّة كانت مسكن أبينا آدم فإذا انتقلت بسبب الطاعة إلى أولاده صار ذلك شبيهاً بالميراث ، والفردوس مقصورة الرحمن و أعلى الجنان و إنّ أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش .

روي أنّه ﷺ قال : لمّا خلق الله جنّة عدن قال لها : تكلّمي فقالت : قد أفلح المؤمنون . قال كعب الأحبار : خلق الله آدم بيده و كتب التوراة بيده و غرس شجرة طوبى بيده ثمّ قال لها : تكلّمي ، فقالت : قد أفلح المؤمنون .

قال النبيّ ﷺ : إذا أحسن العبد الوضوء و صلّى الصلاة لوقتها و حافظ على ركوعها و سجودها و مواقيها قالت : حفظك الله كما حافظت عليّ و شفعت لصاحبها و إذا أضاعها قالت : أضاعك الله كما ضيّعتني و تلفّ كما يلفّ الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها .

ويمكن أن يكون المراد من كلام الجنّة أنّها أُعدّت للمؤمنين فصار ذلك الاستعداد كالقول منها و هو كقوله : « قالتا أتينا طائعين[1] » وأمّا أنّه تعالى خلق الجنّة بيده فالمراد تولّي خلقها لا أنّه وكّله إلى غيره وأمّا أنّ الصلاة تثني على صاحبها الّذي قام بحقّها كقول القائل : إحسانك إليّ ينطق بالشكر ، والفردوس مؤنّث باعتبار الجنّة ولذا قال : [هم فيها خالدون] مؤبّدون .

قوله تعالى : و لقد خلقنا الانسان من سلالة من طين (١٢) ثم جعلناه نطفة في قرار مكين (١٣) ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشاناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين (١٤) ثم انكم بعد ذلك لميتون (١٥) ثم انكم يوم القيمة تبعثون (١٦) و لقد خلقنا فوقكم سبع طرائق و ما كنا عن الخلق غافلين (١٨) و أنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الارض و انا على ذهاب به لقادرون (١٨) فانشانا لكم به جنات من نخيل و أعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تاكلون (١٩) .

لمّا أمر الناس بعبادته عرّف نفسه لهم بالوحدانيّة و الخالقيّة لأنّ العبادة لاتصحّ

(١) فصلت : ١١ .

إلّا بعد المعرفة فذكر من الدلائل أنواعاً فاستدلّ بتقلّب الإنسان في أدوار الخلقة و أكوان الفطرة .

المرتبة الاُولى قوله : [و لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين] و السلالة فعالة و هو بناء يدلّ على القلّة كالقلامة و القمامة من السلّ اسم لما يسلّ من الشيء لأنّ آدم سلّ من الطين و أديم الأرض أو سلّ أولاده من الأصلاب فسلّ آدم من طين و أولاده من ماء مهين و الإنسان شامل لآدم و ولده و هذا المعنى مطابق لقوله تعالى : « و لقد خلقنا الإنسان من طين * ثمّ جعل نسله من سلالة ـ و خلاصة ـ من ماء مهين[(١)] » .

و يمكن أن يحمل أنّ أولاده أيضاً خلقوا أصلاً من طين أيضاً و هو أنّ الإنسان إنّما يتولّد من النطفة وهي تتولّد من فضل الهضم و ذلك إنّما يتولّد من الأغذية و هي إمّا حيوانيّة كاللحوم أو نباتيّة كالبقول وهي تتولّد من الأرض و الماء ثمّ إنّ تلك السلالة بعد أن تواردت على أطوار الخلقة صارت منيّاً ثمّ إلى أن يصير إنساناً فهذه مرتبة الاُولى من مراتب الإنسانيّة .

المرتبة الثانية قوله : [ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين] أي جعل و خلق جوهر الإنسان الّذي كان نطفة و ماء قليلاً و كان منيّاً في الأصلاب قذفه الصلب بالجماع إلى رحم المرأة فصار الرحم قراراً مكيناً لهذه النطفة و صار موضع القرار و المستقرّ لها .

المرتبة الثالثة : [ثمّ خلقنا النطفة علقة] أي حوّلنا النطفة عن صفاتها إلى صفات العلقة وصورة العلقة وهي الدم الجامد .

المرتبة الرابعة : [فخلقنا العلقة مضغة] أي جعلنا ذلك الدم الجامد قطعة لحم كأنّها مقدار ما يمضغ كاللقمة مقدار ما يلتقم وسمّي التحويل خلقاً لأنّه تعالى يفني بعض أعراضها و يخلق أعراضاً غيرها و يخلق فيها أجزاء زائدة على الأوّل .

المرتبه الخامسة قوله : [فخلقنا المضغة عظاماً] أي صيّرناها عظماً .

المرتبة السادسة : [فكسونا العظام لحماً] وذلك لأنّ اللحم للعظم كالكساء يستره .

المرتبة السابعة : [ثمّ أنشأناه خلقاً آخر] أي نفخنا فيه الروح غير خلق الأوّل

---

(١) السجدة : ٨ .

لما فيه من المباءنة فجعله حيواناً و كان جماداً وناطقاً وكان أبكم وسميعاً وكان أصمّ وبصيراً و كان أكمه و وأودع كلّ جزء من أجزائه غرائب حكمته و عجائب صنعه لا يحيط بها وصف الواصفين و تصريف الله إيّاه من قبل الولاد إلى أن يموت حاصل للإنسان .

و في الآية دلالةعلى بطلان قول من يعتقد أنّ الإنسان هو الروح لاالبدن كالنظّام و على بطلان قول الفلاسفةالّذين يقولون : إنّ الإنسان شيء لا ينقسم و أنّه ليس بجسم .

قوله : [فتبارك الله أحسن الخالقين] و البركة معناه الدوام و الثبوت مأخوذ من بروك الإبل و معناه أنّ العلوّ والدوام و الثبوت منه وله خاصّة بالذات وهوأحسن المقدّرين والخلق في اللغة كلّ فعل وجد من فاعله مقدّراً على سبيل الإرادة لا على سبيل السهو والغفلة والعباد قد يفعلونه .

قالت المعتزلة : لولا أنّ غير الله قد يكون خالقاً لفعله إذا قدّره لما جاز القول بأنّه أحسن الخالقين كمالو لم يكن في عباده من يحكم و يرحم لم يجز أن يقال فيه : أحكم الحاكمين ، و أرحم الراحمين .

قال بعض العلماء: هذه الآية و إن دلّت على أنّ العبد خالق إلّا أنّ اسم الخالق لا يطلق على العبد إلّا مع القيد والإضافة كما أنّه يجوز أن يقال : ربّ الدار ، ولا يجوز أن يقال : ربّ ، بلا أضافة . و قيل : معنى : « أحسن الخالقين » في اعتقادكم في ظنّكم و اعتقادكم .

قالت المعتزلة : الآية تدلّ على أن كلّ ما خلقه حسن و حكمة و صواب و إلّا لما جاز وصفه بأنّه أحسن الخالقين و إذا كان كذلك وجب أن لا يكون خالقاً للكفر والمعصية فوجب أن يكون العبد هو الموجد لهما انتهى .

المرتبة الثامنة : [ثمّ إنّكم بعد ذلك لميّتون] و قرىء « لمائتون » و الفرق أنّ « ميّت » صفة ثابتة و « المائت » يدلّ على التجدّد و الحدوث تقول : زيد ميّت الآن و مائت غداً .

المرتبة التاسعة [ثمّ إنّكم يوم القيامة تبعثون] فالله‌سبحانه جعل الإماتة وإعدام الحياة و جعل البعث وإعادة ما يفنيه دليلين عظيمين في القدرة والغرض من هذا البيان

الإنشاء و الإماتة و الإعادة و لم يذكر في الآية ما يحصل من الإعادة لأنّه داخل في الإعادة .

قوله تعالى : [ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق و ما كنّا عن الخلق غافلين] هذا نوع آخر من الدلائل على القدرة الكاملة فقوله « سبع طرائق » أي سبع سماوات كلّ سماء طريقة وسمّيت بذلك لتطارقها و وضع بعضها فوق بعض أو أنّها طرائق الملائكة و كلّ طبقة طريقة و ما بين كلّ طريقين و سماءين مسيرة خمسمائة عام و كذلك ما بين السماء والأرض .

[وما كنّا عن الخلق غافلين] إذ بقينا فوقهم سبع سماوات و عالمين بأعمالهم و أحوالهم .

و في الآية زجرٌ عن السيّئات و ترغيب في الطاعات و بيان إنعامه علينا بخلق السماوات حيث جعلها موضعاً لأرزاقنا بإنزال الماء منها و جعلها مقرّاً للملائكة و هم يدبّرون اُمورنا ولأنّها موضع الثواب لأعمالنا ومكان إنزال الوحي ، والبركات والأرزاق منها تنزل إلينا .

ثمّ في الآية دلالة على فساد القول بالطبيعة فإنّ شيئاً من تلك الصفات لو حصل بالطبيعة من غير قاهر على الطبيعة لوجب بقاؤها و عدم تغييرها و لو قلت : إنّما تغيّرت تلك الصفات لتغيّر تلك الطبيعة فافتقرت تلك الطبيعة إلى خالق وموجد .

و بالجملة فبعد ذكر النوع الأوّل من الاستدلال وهو كيفيّة خلق الإنسان والنوع الثاني من الاستدلال و هو كيفيّة خلق السماوات ، ذكر سبحانه النوع الثالث من الاستدلال بذكر قوله :

[و أنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنّاه في الأرض] اعلم أنّ الماء في نفسه نعمة فذكره الله أوّلا و هو موجب للنعم الكثيرة فقال : و أنزلنا من السماء مطراً واختلفوا في السماء فقال الأكثرون : المراد من السماء في الحقيقة السماء ويؤيّده « و في السماء رزقكم و ما توعدون [(١)] » و قال بعض المنطبعين : المراد من السماء السُحُب لعلوه قالوا : إنّ

(١) الذاريات : ٢٢ .

الله أصعد الأجزاء من قعر الأرض و من البحار إلى السماء و صارت بسبب ذلك التصعيد عذبة صافية ثمّ إنّ تلك الذرّات تأتلف و تتكوّن فينزلها الله على قدر الحاجة و لولا ذلك لم ينتفع بتلك المياه لتفرّقها في قعر الأرض و لا بماء البحار لملوحته ولأنّه لا حيلة في إجراء مياه البحار على وجه الأرض لأنّ البحار هي الغاية في العمق ولكنّ هذه الوجوه إنّما يتحمّلها من ينكر الفاعل المختار وأمّا من أقرّ به فلا حاجة به إلى شيء منها .

قوله : « بقدر » أي بتقدير يسلمون معه من المضرّة و يصلون به إلى المنفعة في الزرع و الغرس و الشرب و بمقدار ما علمنا من حاجاتهم و مصالحهم .

قوله : « فأسكنّاه في الأرض » أي جعلنا له الأرض مسكناً و أثبتناه في الأرض و جعلناه في الأرض ينتفع به منزلة الحاجة يريد به ما في المستنقعات و عن ابن عبّاس عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : إنّ الله أنزل من الجنّة خمسة أنهار : سيحون و هو نهر الهند ، و جيحون و هو نهر بلخ ، و دجلة و الفرات وهمانهرا العراق ، و النيل و هو نهر مصر ؛ أنزل الله من عين واحدة و أجراها في الأرض و جعل فيها منافع للناس في أصناف معايشهم و ذلك قوله : « و أنزلنا من السماء ماءً بقدر » الآية .

قوله : [و إنّا على ذهاب به لقادرون] أي نحن على إذهابه قادرون و لو فعلناه لهلك جميع الحيوانات و في تنكير « ذهاب » إشارة إلى كثرة طرقه و مبالغة في الإيعاد به.

قوله : [فأنشأنالكم به جنّات من نخيل و أعناب] و أحدثنا لنفعكم بسبب الماء يا معشر الخلائق بساتين من النخيل والكروم وإنّماخصّ النخيل والأعناب لأنّها ثمار الحجاز من المدينة و الطائف فذكرّهم بالنعم الّتي عرفوها و لكثرة منافع هذين النوعين للنّاس فإنّها يقومان مقام الطعام و الأدام و مقام الفواكه رطباً ويابساً .

قوله : [لكم فيها فواكه] لكم في الجنّات من أصناف الفواكه أي وجوه أرزاقكم في هذه الجنّات و أكلكم ومعاشكم منها .

قوله : و شجره تخرج من طورسيناء تنبت بالدهن وصبغ للاكلين(٢٠) و ان لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها و لكم فيها منافع كثيرة و منها تاكلون (٢١) و عليها وعلى الفلك تحملون(٢٢) و لقد أرسلنا نوحاً الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون (٢٣) فقال

الملاء الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم و لوشاء الله لانزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين (٢٤) ان هو الارجل به جنة فتربصوا به حتى حين(٢٥).

وأنشأنا لكم[شجرة تخرج] الشجرة بسبب الماء أي شجرة الزيتون وخصّت بالذكر لما فيها من العبرة بأنّه لا يتعاهدها إنسان بالسقي مع هذا هي عظيم المنفعة بسبب الدهن الحاصل منها و سيناء و سينين واحد اسم للجبل قيل : هو جبل فلسطين و قيل : بين مصر و أيلة و منه نودي موسى عليه السلام .

قوله : [تنبت بالدُهن] أي تنبت ثمرها بالدهن و فيها الدهن كما يقال : ركب الأمير بجنده أي ومعه الجند وحاصل المعنى : ينبت زيتونها وفيها الزيت قال المفسّرون : و إنّما أضاف الله سبحانه هذه الشجرة إلى طور سيناء لأنّ منها تشعّبت في البلاد و انتشرت و معظمها كان هناك .

[و صبغ للآكلين] أي أدام للآكلين لأنّه يؤتدم به و الخبز يصبغ و يتلوّن بالأدام الخبز إذا غمسته باللبن فلابدّ و أن ينصبغ كذلك ينصبغ بالزيت و الاصطباغ بالزيت الغمس فيه للائتدام يجعل الله في هذه الشجرة أداماً و دهناً و قد روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : الزيت شجرة مباركة فائتدموا به و ادّهنوا .

قوله : [و إنّ لكم في الأنعام لعبرة] أي دلالة تستدلّون بها على قدرة الله [نسقيكم ممّا في بطونها] وقرىء تسقيكم ـ بالتاء ـ أي تسقيكم الأنعام من الألبان الّتي تخرج من بطونها إلى ضروعها شراباً طيّباً حليباً لذيذاً [و لكم فيها منافع كثيرة] من بيعها والانتفاع بأثمانها و لحومها و ركوبها و حمولتها و ما يجري منها من المنافع العظيمة [و منهاتأكلون] بعد الذبح و بالجملة لكم منها وجوه المنافع قبل الذبح وبعد الذبح وهذه وجوه إنعامه سبحانه لكم لكي تشكروا و تستدلّوا بقدرته .

[و عليها و على الفلك تحملون] و وجه الانتفاع بالإبل في المحمولات على الحيوان بمنزلة الانتفاع بالفلك على البحر فجمع بين الحملين من البرّ والبحر والإنعامين من الإبل و الفلك ولذا قيل : الإبل سفائن البرّ وهذا كقوله : « وحملنا هم في البرّ والبحر [١]» .

(١) الاسراء : ٧٠ .

و لمّا كان البيان في ذكر شمول نعمته على الخلق أتبعه بذكر عمدة أنعامه عليهم بإرسال الرسل فقال : [ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه] و من الأنبياء المرسلين نوح عليه السلام و هو آدم الثاني لأنّ الناس بعد الغرق من أولاده و إنّما سمّي نوحاً لنوحه و كثرة بكائه على نفسه و كان سبب نوحه أنّه كان يدعو على قومه بالهلاك و قيل : السبب مراجعة ربّه في شأن ابنه للغرق و قيل . مرّ بكلب مجذوم فقال له : اخسأ يا قبيح ! فعوتب على ذلك فقال الله له : أعبتني إذ خلقته أم عبت الكلب . و هذه الوجوه على فرض كون الأعلام تفيد صفة في المسمّى و المحقّقون لم يثبتوا هذه الإفادة و قالوا : إنّ الأعلام لاتفيد صفة في المسمّيات .

و بعد إرسال نوح إلى قومه [قال ياقوم] وحّدوا الله وأطيعوه [مالكم من إله غيره أفلا تتّقون] عذاب الله في ترك الإيمان و عبادة غيره لأنّ العبادة تحسن لمن أنعم بالخلق والإيجاد فكيف يعبد ما لايضرّ ولاينفع ؟

[فقال الملأ الّذين كفروا من قومه] وأمّته أي الأشراف الكفرة من قومه أوردوا شبهات لتكذيب نوح :

الشبهة الأولى قولهم : [ماهذا إلّا بشر مثلكم] أي إنّه مساو لسائر الناس في البشريّة و الفهم والغنى و الفقر و الصحّة و المرض و هذا يمتنع أن يكون رسولاً وهو مشارك لكم في جميع الأمور و لكنّه أحبّ الرياسة والمتبوعيّة فلم يجد إليها سبيلاً فادّعى النبوّة فبهذه الشبهة قدحوا في نبوّته ويؤيّد هذا المعنى بعده قوله تعالى : [يريد أن يتفضّل عليكم] ويترأّس ويطلب الفضيلة عليكم .

الشبهة الثانية قولهم : [ولو شاء الله لأنزل ملائكة] أي إنّ الله لوشاء إرسال الرسول و إرشاد الخلق ولا يعبد غيره لوجب أن يسلك الطريق الّذي أقرب إلى المقصود و معلوم أن بعثة الملائكة أشدّ إفضاء من المقصود من بعثة البشر لعلوّ شأن الملائكة و شدّة سطوتهم و كثرة علومهم فالخلق ينقادون إليهم و لا يشكّون في رسالتهم فلمّا لم يفعل ذلك علمنا أنّه ماأرسل رسولاً البتّة .

الشبهة الثالثة : [ما سمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين] أي ما سمعنا بهذا الكلام

الّذي يقوله نوح من آبائنا القديمة لأنّهم كانوا لا يعولون في شيء من المذهب إلّا على التقليد و الرجوع إلى قول الآباء، فلمّا لم يجدوا في نبوّة نوح هذه الطريقة حكموا بفسادها، و يمكن أن يكون زمانهم زمان فترة أو ماكانوا سامعين إلى عبادة الله وحده لأنّهم كانوا على عبادة الأصنام.

الشبهة الرابعة: [إن هو إلّا رجل به جنّة] و الجنّة الجنون أو الجنّ فإنّ جهّال الناس يقولون في المجنون أصابه الجنّ و زال عقله بعمل الجنّ و هذه الشبهة من باب التمويه على العوامّ و الضعفاء لأنّه كان عليه السلام يفعل اُموراً في العبادة على خلاف عاداتهم فنسبوا إليه الجنون ومن كان مجنوناً فكيف يكون رسولاً ؟

الشبهة الخامسة قولهم: [فتربّصوا به حتّى حين] أي انتظروا إلى زمان حتّى يظهر عاقبة أمره فإن أفاق و إلّا قتلتموه أوالمعنى قالوا للعوامّ: اصبروا ولاتؤمنوا به فإن كان نبيّاً فالله ينصره فحينئذ نتبعه و إن كان كاذباً يبطل أمره فحينئذ نستريح منه بعد موته.

قوله تعالى: قال رب انصرني بما كذبون (٢٦) فأوحينا اليه ان اصنع الفلك باعيننا ووحينا فاذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين و اهلك الا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون (٢٧) فاذا استويت أنت و من معك على الفلك فقل الحمدلله الذى نجىنا من القوم الظالمين (٢٨) و قل رب انزلني منزلا مباركاً و أنت خير المنزلين (٢٩) ان في ذلك لايات و ان كنا لمبتلين (٣٠).

[قال ربّ انصرني] أي أهلكهم بسبب تكذيبهم إيّاي أو انصرني بدل ما كذّبوني كما تقول: هذا بذاك أي بدل ذاك أو المعنى: انصرني بإنجاز ما وعدتهم من العذاب.

و لمّا أجاب الله دعاءه قال: [فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا] أي عيننا وحفظنا عليك: ومنه عليه من الله عين كالئة أي حافظة ـ وفي الآية دلالة على فساد قول المشبّهة في تمسّكهم بقوله عليه السلام: «إنّ الله خلق آدم على صورته» لأنّ ثبوت الأعين يمنع ذلك ـ أو بنصرة أوليائنا وأعيننا وهم الملائكة والمؤمنون فإنّهم يمنعون من كلّ من يمنعك منه.

[ووحينا] أي إعلامنا إيّاك كيفيّة صنعة السفينة واختلفوا كيف صنع الفلك فقيل : إنّه كان نجّاراً وقيل : إنّ جبرئيل علّمه ووصف له كيفيّة صنعتها وهو الأقرب لقوله تعالى : « بأعيننا و وحينا » .

قوله : [فإذا جاء أمرنا وفار التنّور] اعلم أنّ لفظ الأمر كما هو حقيقة في طلب الفعل بالقول على سبيل الاستعلاء قيل : فكذا هو حقيقة في الشأن العظيم والدليل عليه أنّك إذا قلت : هذا أمر بقي الذهن يتردّد بين المفهومين و ذلك يدلّ على كونه حقيقة فيهما .

وبالجملة فإذا جاء أمرنا واقتضى العذاب وبان علامته وفار التنّور والأكثرون على أنّه هو التنّور المعروف فقيل لنوح : إذا رأيت الماء يفور من التنّور فاركب أنت و من معك من أهل دينك في السفينة فلمّا نبع الماء من التنّور أخبرته امرأته فركب و قيل في التنّور : كان تنّور آدم وكان من حجارة فصار إلى نوح .

واختلف في مكانه فماعليه الأكثرون أنّه في مسجد الكوفة عن يمين الداخل ممّا يلي باب كندة و كان نوح عمل السفينة في المسجد وقيل : التنّور بالشام بموضع يقال له « عين وردة » وقيل : بالهند .

وعن ابن عبّاس أنّ التنّور وجه الأرض وقيل : أشرف وأعلا موضع في الأرض وقال علي عليه السلام: وفار التنّور أي طلع الفجر وقيل : فوران التنّور كان عند طلوع الفجر وقيل : معناه مثل قولهم : «حمي الوطيس» وقيل : إنّه الموضع المنخفض من السفينة الّذي يسيل إليه الماء .

وبالجملة جعل الله فوران التنّور علامة لنوح عليه السلام حتّى يركب عنده السفينة طلباً لنجاته ونجاة من آمن به من قومه .

قوله تعالى : [فاسلك فيها] أي فأدخل في السفينة يقال سلك فيه أي دخل فيه واسلك فيها [من كلّ زوجين] من الحيوان الّذي يحضره في الوقت [اثنين] الذكر والأنثى لكي لا ينقطع نسل ذلك الحيوان و كلّ واحد منهما زوج لا كما تقوله العامّة من أنّ الزوج هو الاثنان و روي أنّه لم يحمل إلّا ما يلد ويبيض

و قرىء «من كلٍّ» منوّناً أي من كلّ أُمّة زوجين فحينئذٍ اثنين تأكيد لزوجين و زيادة بيان [و أهلك] أي أولادك أو المراد من الأهل من آمن بك لكن هذا المعنى ينافي الاستثناء والصحيح أنّ المراد من الأهل الأولاد [إلّا من سبق عليه القول ولا تخاطبني في الّذين ظلموا إنّهم مغرقون] وكان كنعان ممّن سبق عليه القول وكان من المغرقين .

[فا ذا استويت أنت ومن معك] في السفينة قال ابن عبّاس : كان في السفينة ثمانون إنساناً نوح وامرأته وثلاثة بنين سام وحام ويافث وثلاث نسوة لهم واثنان وسبعون إنساناً وهم عقلاء الدنيا [فقل الحمد لله الّذي نجّانا من القوم الظالمين] وإنّما قال : « فقل » ولم يقل : « فقولوا » لرتبة النبوّة وتخصيص الخطاب إشعاراً لكبرياء الربوبيّة وإنّ رتبة تلك المخاطبة لايترقّى إليها إلّا ملك أونبيّ أي فاستحمدوا الله على ماخلصكم من النفوس الظالمة لأنفسهم بجحدهم عن توحيد الله .

[وقل ربّ أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين] لأنّه لايقدر أحد أن يصون غيره من الآفات إذا أنزله منزلاً ويكفيه جميع مايحتاج إليه إلّا أنت .

[إنّ في ذلك لآيات] في أمر نوح والسفينة وهلاك القوم بالغرق دلالات للعقلاء يستدلّون بها على الإله القادر القاهر [وإن كنّا لمبتلين] أي وإن كنّا مختبرين إيّاهم بإرسال نوح ووعظه وتذكيره ومصيبين الكفّار بهذا العذاب العظيم ومختبرين عبادنا ليتذكّرون ويعتبرون عبرة كاملة و« إن» في الآية مخفّفة من المثقّلة وضمير الشأن محذوف واللام في «لمبتلين» لام الفارقة بين النافية والمخفّفة وتمام القصّة قدمرّ شرحها في سورة هود .

قوله تعالى : ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين (٣١) فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون (٣٢) وقال الملاء من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الاخرة وأترفناهم فى الحيوة الدنيا ماهذا الا بشر مثلكم يأكل مما تاكلون منه ويشرب مما تشربون (٣٣) ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذاً لخاسرون (٣٤) ايعدكم انكم اذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون (٣٥) هيهات هيهات لما توعدون (٣٦) ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا و ما نحن بمبعوثين (٣٧) ان هو الا رجل

افترى على الله كذباً وما نحن بمؤمنين (٣٨) قال رب انصرني بما كذبون (٣٩) قال عما قليل ليصبحن نادمين (٤٠) .

القصّة الثانية قصّة هود أوصالح و منشأ الاختلاف قوله : «من بعدهم» فيقتضي أن يكون قوم هود لأنّه هو المبعوث بعد نوح وقوله «فأخذتهم الصيحة» يقتضي قوم صالح لأنّ ثمود اُهلكوا بالصيحة .

وعلى التقديرين [ثمّ أنشأنا من بعدهم] أي أحدثنا من بعد قوم نوح [قرناً آخرين] جماعة من الناس والقرن أهل العصر على مقارنة بعضهم لبعض [فأرسلنا فيهم رسولاً منهم] أي من جملة نسبهم ونشأ بين أظهرهم [أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره] مفسّرة لأرسلنا أي قلنا لهم على لسان الرسول : اعبدوا الله «وما لكم من إله غيره» تعليل للعبادة [أفلا تتّقون] عذابه بعبادة غيره .

[و قال الملأ من قومه] حكاية لقولهم الباطل من أشرافهم أي قال الأشراف من قومه [الّذين كفروا] و عبدوا غير الله [و كذّبوا بلقاء الله] و يوم المعاد و الجزاء [و أترفناهم في الحياة الدنيا] و كنّا منعمين عليهم بضروب الملاذّ و النعمة مقول قولهم كان إيراد الشبهات :

[ما هذا إلّا بشر مثلكم يأكل ممّا تأكلون منه و يشرب ممّا تشربون] و ليس من هو كذلك أولى بالرسالة منّا و هو حكمه مثل حكمنا فمن أين له الرسالة ؟ [ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنّكم إذاً لخاسرون] فجعلوا اتّباع الرسول الّذي من نوعهم خسراناً و لم يجعلوا عبادة الأصنام و الجماد خسراناً .

ثمّ القوم طعنوا في صحّة الحشر بقولهم : [أيعدكم أنّكم إذا متّم و كنتم تراباً و عظاماً أنّكم مخرجون] أي يخوّفكم أنّكم تخرجون تعادون أحياء للمجازاة ثمّ لم يقتصروا على هذا القدر و قرنوا قولهم بالاستبعاد العظيم بقولهم : [هيهات هيهات لما توعدون] أي بعد بعد ما يخوّفكم به قرىء «هيهات» بكسر التاء وبفتح التاء و بالتنوين و الكسر و بالتنوين و الرفع و بسكون التاء و هي كلمة اسم فعل و معناه بعداً بعداً و قيل : «هيهات» أصلها هيهئات والحاصل : قالوا: هذا الوعد الّذي يعدكم بعيد بعيد .

[إن هي إلّا حياتنا الدنيا نموت ونحيا] ولم يريدوا الشخص الواحد يموت ويحيا بل مرادهم يموت بعض و يحيا بعض ضمير «هي» مفسّرها « إلّا حياتنا » يعني ليس الحياة الّا حياتنا الدنيا أي لا حياة إلّا هذه الحياة فوازنت «إن» النافية « لا » الّتي لنفي الجنس [و ما نحن بمبعوثين] فأنكروا البعث بهذه البيانات الواهية .

[إن هو إلّا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين] أي ليس هو إلّا رجل اختلق كذباً على الله و ما نحن له بمصدّقين فيما يقوله قال الرسول بعد ما سمع منهم هذه البيانات و الا نكارات .

[قال ربّ انصرني بما كذّبون] فبعد أن يئس هود من إيمانهم بعد ما سلك في دعوتهم بأقسام المسالك تضرّع إلى الله بقوله : ربّ انصرني عليهم و انتقم لي منهم بسبب تكذيبهم إيّاي . فقال الله تعالى إجابة لمسؤوله :

[قال عمّا قليل ليصبحنّ نادمين] أي عن قليل من الزمان و الوقت ليصبحنّ ـ واللام لام القسم وما في «عمّا» زائدة للتأكيد ـ نادمين إمّا عند نزول العذاب أو نزول الموت يكونون نادمين و لمّا ينفع الندم .

قوله تعالى : فاخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين (٤١) ثم أنشانا من بعدهم قروناً آخرين (٤٢) ما تسبق من امة أجلها و مايستأخرون (٤٣) ثم ارسلنا رسلنا تترى كلما جاء امة رسولها كذبوه فاتبعنا بعضهم بعضاً و جعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون (٤٤) ثم أرسلنا موسى و اخاه هارون بآياتنا و سلطان مبين (٤٥) الى فرعون وملائه فاستكبروا و كانوا قوماً عالين (٤٦) فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا و قومهما لنا عابدون (٤٧) فكذبوهما فكانوا من المهلكين (٤٨) ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون (٤٩) و جعلنا ابن مريم و امه آية و آويناهما الى ربوة ذات قرار و معين (٥٠) .

[فأخذتهم الصيحة بالحقّ] في الصيحة وجوه : أحدها أنّ جبرئيل عليه السلام صاح بهم وكانت الصيحة عظيمة فما قوا عندها . الثاني : الصيحة الرجفة عن ابن عبّاس . الثالث : الصيحة نفس العذاب و الموت كما يقال فيمن يموت : دُعي فأجاب قال الشاعر :

صاح الزمان بآل برمك صيحة * خرّوا لشدّتها على الأذقان

فدمّرهم العذاب بالعدل والحقّ أي حكم عليهم بالحقّ والاستحقاق .

[فجعلناهم غثاء] والغثاء حميل السيل ممّا بلي وقعت وأسود من الورق والعيدان أي جعلناهم هلكى قد يبسوا كما يبس الغثاء [فبعداً للقوم الظالمين] المشركين المكذّبين أي ألزمهم الله البعد من الرحمة .

القصّة الثالثة : [ثمّ أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين] المقصود من البيان أنّه ما أخلى الدنيا من مكلّفين أنشأهم وبلّغهم حدّ التكليف حتّى قاموا مقام من كان قبلهم في الدنيا .

[ما تسبق من اُمّة أجلها وما يستأخرون] هذا وعيد للمشركين . المعنى: مايموت اُمّة قبل أجلها المضروب لها ولا يتأخّر ، وقيل : المراد بالأجل العذاب الموعود لهم على التكذيب أنّه لايتقدّم على الوقت المضروب لذلك والأجل المضروب لحدوث أمر من الأمور .

قال الكعبيّ : المراد من قوله : « ماتسبق من اُمّة » أي لا يتقدّمون الوقت لعذابهم إن لم يؤمنوا ولا يتأخّرون عنه ولا يستأصلهم إلّا إذا علم منهم أنّهم لايزدادون إلّا عناداً وأنّهم لايلدون مؤمناً ولا نفع لبقائهم لأحد ولا ضرر على أحد في هلاكهم ، وبالجملة الأجل محتوم لايتغيّر ولا يتقدّم ومشروط و هو بحسب الشرط ، والمراد بالأجل في الآية الأجل المحتوم.

قوله : [ثمّ أرسلنا رسلنا تترى كلّما جاء اُمّة رسولها كذّبوه] وقرىء «تترىً» بالتنوين ومن نوّن وقف بالألف وتترى فعلى من المواترة والمواترة أن يتبع الخبر الخبر والكتاب الكتاب فلا يكون بينهما فصل كثير والأقيس والأولى أن لا يصرف ولا ينوّن كالتقوى والدعوى والتاء بدل من الواو فإنّه مأخوذ من الوتر أي أرسلنا أنبياءنا متواترة يتبع بعضهم بعضاً وأصل معناه الاتّصال و منه الوتر لاتّصاله بمكانه من القوس ومنه الوتر وهو الفرد عن الجميع المتّصل .

[كلّما] أتى رسول اُمّته [كذّبوه] ولم يقرّوا بنبوّته [فأتبعنا بعضهم بعضاً] أي

أهلكنا المكذّبين بعضهم في إثر بعض [و جعلناهم أحاديث] أي يتحدّث بهم على طريق المثل من الشرّ و هو جمع اُحدوثة و لا يستعمل هذا في الخير [فبعداً لقوم لايؤمنون] ثمّ و بخّهم ونعتهم بقوله : بعداً من الرحمة الّذين لا يؤمنون بالله و في الآية دلالة على تعذيبهم مؤبّداً آجلاً كما عذّبوا عاجلاً .

قوله : [ثمّ أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا و سلطان مبين] و دلائلنا الواضحة واختلفوا في الآيات : فقال ابن عبّاس : هي الآيات التسع و هي العصا و اليد و الجراد و القمّل و الضفادع و الدم و انفلاق البحر و السنون و نقص من الثمرات و قيل : بآياتنا أي بديننا .

و احتجّوا بأنّه لو كان المراد بالآيات المعجزات و السلطان المبين أيضاً هوالمعجز معناه فحينئذيلزم عطف الشيء على نفسه .

و أجابوا بأنّ لفظ الآيات إذا ذكر في الرسل فالمراد منها المعجزات و السلطان المبين يجوز أن يكون أعظم معجزاته و هو العصا وقدتعلّقت بالعصا معجزات كثيرة شتّى من تلقّفها وانفجار العيون من الحجر بضربها و كونها حارساً و شمعة وتدفع العدوّ ودلواً و رشاءً فلأجل انفرادالعصا بهذه المزيّات اُفردت بالذكر كقوله : « جبرئيل وميكال[1] » و يمكن أن يكون المراد بالسلطان المبين استيلاء موسى عليهم بالنبوّة و أنّه كان مسلّطاً عليهم ولا يقيم لهم وزناً ولاقدراً .

قوله : [إلى فرعون و ملائه] خصّ الملأ و هم الأشراف بالذكر لأنّ الآخرين كانوا أتباع لهم [فاستكبروا و كانوا قوماً عالين] فتجبّروا و تعظّموا عن قبول الحقّ و كانوا قاهرين و عالين و ذوي ثروة و كان قوم موسى و هارون عندهم كالخدم و العبيد لهم و قهروا أهل أرضهم .

[فقالوا أنؤمن] لرجلين بشرين [مثلنا] و نصدّق الإنسانين خلقهم مثل خلقنا ويسمّى الإنسان بشراً لانكشاف بشرته و جلدته حتّى احتاج إلى لباس يكنّه بخلاف الحيوان مغطّى البشرة بصوف أو بشعر و ريش و غيره لطفاً من الله إذ لم يكن للحيوان

(١) البقرة : ٩٨ .

عقل يدبّر أمره عند الحاجة إلى ما يكنّه والإنسان يهتدي إلى ما يستعين عند حاجته [وقومهما لنا عابدون] أي مطيعون طاعة العبد لمولاه و قيل : كان بنو إسرائيل يعبدون فرعون و فرعون يعبد الأوثان .

فكذّبوا موسى وهارون [فكذّبوهما فكانوا من المهلكين] و كان عاقبة تكذيبهم أن أهلكهم و غرقهم .

قوله : [ولقد آتينا موسى الكتاب] أي التوراة لعلّهم يعملون بشرائعها و مواعظها فذكر موسى أي آل موسى كما يقال هاشم و ثقيف [لعلّهم يهتدون] بعمل التوراة .

[و جعلنا ابن مريم و اُمّه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار و معين] و جعلناه حجّة على قدرتنا على الاختراع بخلقته من غير أب وإنّ مريم عليها السلام حملت من غير فحل وجعلنا مأواهما مكاناً مرتفعاً مستوياً واسعاً و الربوة الّتي أويا إليها هي الرملة من فلسطين . و قيل : نفس دمشق . و قيل : مصر . و قيل : بيت المقدس . و قيل : هي أقرب الأرض إلى السماء و قيل : هي حيرة الكوفة و سوادها و القرار مسجد الكوفة و المعين الفرات عن أبي جعفر و أبي عبدالله عليهما السلام وقيل : معناه ذات موضع قرار أي هي أرض مستوية يستقرّ عليها ساكنوها وقيل : ذات ثمار لأنّه لأجل الثمار يستقرّ فيها ساكنوها و المراد بالمعين ماء جار ظاهر العيون مفعول من عان يعين .

و بالجملة جعله الله و اُمّه آية و ظهر فيهما اُمور عجيبة بأن أنطقه في المهد و اُخرى على يده إحياء الموتى و إبراء الأكمه و الأبرص و تكلّمت مريم في صغرها و هو قولها : « هو من عندالله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب (١) » و لم تلقم ثدياً قطّ . قال القاضي : إن ثبت ذلك فهو معجز لزكريّا لأنّها لم تكن نبيّاً . و إنّما قال القاضي هذا البيان لأنّ عنده الإرهاص غير جائز . والحاصل أنّ مريم و ابنها بقيا إلى الربوة اثنتي عشرة سنة وإنّما ذهب بهما ابن عمّها يوسف ثمّ رجعت إلى أهلها بعد أن مات ملكهم .

قوله تعالى : يا أيها الرسل كلوا من الطيبات و اعملوا صالحاً اني بما

(١) آل عمران : ٣٧ .

تعلمون عليم (٥١) وان هذه امتكم امة واحدة وأنا ربكم فاتقون (٥٢) فتقطعوا امرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون (٥٣) فذرهم في غمرتهم حتى حين (٥٤) ايحسبون انما نمدهم به من مال و بنين (٥٥) نسارع لهم في الخيرات بل لايشعرون (٥٦).

الخطاب إلى كلّ الرسل ، والرسل إنّما اُرسلوا متفرّقين في أزمنة مختلفة وبيان توجيه الخطاب إليهم أنّ المعنى إعلام بأنّ كلّ رسول في زمانه هذا الخطاب ، و وصّي به ليعتقد السامع أنّ أمراً نودي له الرسل حقيق بأن يعمل به أو الخطاب إلى رسولنا . و إنّما ذكر على صيغة الجمع كما يقال للواحد : أيّها القوم كفّوا أذا كم عنّي كأنّه سبحانه لمّا خاطب محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بذلك بيّن أنّ الرسل عليهم السلام بأسرهم لوكانوا حاضرين لما خوطبوا إلّا بذلك ليعلم رسولنا أنّ هذا التثقيل ليس عليه فقط بل هو لازم على جميع الأنبياء .

والحاصل لمّا أمر الله الناس الاهتداء بكتبه و العمل بشرائعه في الآية السابقة أمر الرسل و المؤمنين بأن يأكلوا من الحلال و لا يتصدّون أكل الحرام ـ قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ الله طيّب لايقبل إلّا طيّباً ـ و أمر المؤمنين بما أمر الرسل فقال : [يا أيّها الرسل كلوا من الطيّبات] و قال : « يا أيّها الّذين آمنوا كلوا من طيّبات ما رزقناكم » [1] قوله : [و اعملوا صالحاً] أي ما أمركم الله به [إنّي بما تعملون عليم] هذا بيان السبب الداعي إلى إصلاح العمل و الإتيان بالعمل الصالح فإنّ العاقل إذا علم أنّ من يعلم عمله يجازيه على حسب ما يعمل أصلح العمل .

قوله تعالى : [وإنّ هذه اُمّتكم اُمّة واحدة] أي إنّ ملّتكم ودينكم دين واحد و يعضد هذا المعنى «إنّا وجدنا آباءنا على اُمّة» أي على دين قال النابغة :

حلفت و لم أترك لنفسي ريبة * وهل يأثمن ذو اُمّة وهو طائع

و قيل : المعنى : و إنّ جماعتكم و جماعة من قبلكم واحدة كلّكم عباد الله وخلقه [و أنا ربّكم فاتّقون] أي لهذا فاتّقوا الشرك .

---

(١) البقرة : ١٧٢ .

[فتقطّعوا أمرهم بينهم زبراً] أي كما يجب عليكم أكل الحلال و الاجتناب عن الحرام كذلك لابدّ أن تكونوا متّفقين و مجتمعين على التوحيد ولا يقع منكم في هذا الأمر اختلاف و يلزمكم كلّكم دين واحد و مع هذا الأمر فهم من شدّة اختلافهم جعلوا دينهم أدياناً و زبراً أي قطعاً قطعاً استعيرت من زبر الحديد والقصّة يعني بهم مشركي مكّة والمجوس و اليهود والنصارى والصابئين .

[كلّ حزب بمالديهم فرحون] و كلّ فريق منهم بما اتّخذ ديناً لنفسه معجب به يرى نفسه أنّه المحقّ الرابح و غيره المبطل الخاسر .

فإن قيل : لمّا كانت شرائعهم مختلفة فكيف يكون دينهم واحد ؟

قلنا : المراد من الدين اُصوله من معرفة الله و أمّا الشرائع فإنّ الاختلاف فيها لا يسمّى اختلافاً في الدين بل الاختلاف في كيفيّة الأعمال بحسب الشريعة كما يقال : للحائض و الطاهر من النساء :إنّ دينهنّ واحد وإن افترق تكليفها فكذاههنا .

ثمّ أتبع للمختلفين بالوعيد و قال : [فذرهم في غمرتهم حتّى حين] أي دع هؤلاء في جهلهم و الغمرة الماء الّذي يغمر القامة و قرأ عليّ عليه السلام في غمراتهم و ذكروا في الحين وجوهاً : أحدها إلى الموت و قيل : إلى حين العذاب أو المراد به الحالة الّتي تقترن به الحسرة و الندامة و ذلك يحصل عند المحاسبة و الموت و عند عذاب القبر فيجب أن يحمل على كلّ ذلك .

قوله : [أيحسبون أنّما نمدّهم به من مال و بنين ❊ نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون] أي ظنّ هؤلاء الكفّار أنّ ما نعطيهم و نزيدهم من أموالهم وأولادهم إنّما نعطيهم ثواباً و مجازاة لهم على أعمالهم و لرضائنا عنهم و لكرامتهم علينا ليس الأمر كما يظنّون بل ذلك إملاء لهم و استدراج لهوانهم علينا وللابتلاء في التعبّد لهم ونظيره قوله : « فأمّا الإنسان إذا ما ابتلاه ربّه فأكرمه و نعّمه فيقول ربّي أكرمن»(١) و روى السكونيّ عن الصادق عن آبائه عليهم السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنّ الله تعالى يقول : يحزن عبدي المؤمن إذا قتّرت عليه شيئاً من الدنيا و ذلك أقرب له منّي و يفرح إذا

(١) الفجر : ١٥ .

بسطت له الدنيا و ذلك أبعد له منّي ثمّ تلاهذه الآية إلى قوله « بل لا يشعرون » ثمّ قال : إنّ ذلك فتنة لهم .

قوله : « بل لايشعرون » الشعورالعلمالّذي يدقّ معلومه و فهمه علىصاحبه ومعنى « نسارع » نتعجّل و نسرع و حاصل المعنى أنّ هذا الإمداد ليس إلّا استدراجاً لهم في المعاصي وهميحسبونه مسارعة في الخيرات و كلمة «بل» للاستدراك لقوله : « أيحسبون» أي بل هم أشباه البهائم لا شعور لهم حتّى يتفكّروا في ذلك أهو استدراج أم مسارعة في الخيرات ؟

قوله تعالى : ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون (٥٧) والذين هم بآيات ربهم يؤمنون (٥٨) والذين هم بربهم لا يشركون (٥٩) والذين يؤتون ما آتوا و قلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون (٦٠) اولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون (٦١) .

لما ذمّ حال المستدرجين بيّن في هذه الآية صفة المسارعين في الخيرات :

الصفة الاُولى قوله : [إنّ الذين هم من خشية ربّهم مشفقون] و الإشفاق يتضمّن الخشية مع زيادة رقّة و ضعف ، و قيل : جمع بينهما للتأكيد فإذن متساويان و منهم من حمل الخشية على العذاب فالمعنى : الّذين هم من عذاب ربّهم مشفقون . و قيل : المعنى: الّذين هم من خشيته مشفقون أي دائمون في طاعته جادّون في طلب مرضاته و التحقيق أنّ من بلغ في الخشية إلى حدّ الإشفاق و هو كمال الخشية كان في نهاية الخوف من سخط الله عاجلاً و من عقابه آجلاً يكون في نهاية الاحتراز عن المعاصي .

الصفة الثانيةقوله : [والّذين هم بآيات ربّهم يؤمنون] وآيات الله هي المخلوقات الدالّة على وجوده فيصدّقون بها و يقرّون و يعتقدون بحجج الله و كتبه و رسله .

و الصفة الثالثة قوله : [و الّذين هم بربّهم لايشركون] و ليس المراد من الآية التوحيد و نفي الشريك لله لأنّ ذلكداخل في قوله:«والّذينهم بآيات ربّهم يؤمنون» بل المراد منه نفي الشرك الخفيّ و هو أن يكون مخلصاً في العمل و العبادة و لا يقدم عليها إلّا لوجه الله .

الصفة الرابعة قوله : [و الّذين هم يؤتون ما آتوا و قلوبهم وجلة] معناه يعطون ما أعطوا فدخل فيه كلّ حقّ لزم إيتاؤه سواء كان ذلك الحقّ من حقوق الله كالزكاة و الكفّارة وغيرهما أو من حقوق الآدميّين كالودائع و الديون و أصناف العدل فبيّن أنّ ذلك إنّما ينفع إذا فعلوه و قلوبهم وجلة لأنّ من يقدم على العبادة و هو وجل من تقصيره و إخلاله بنقصان أوغيره فإنّه يكون لأجل ذلك الوجل مجتهداً في أدائها .

و في الحديث : سألت عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : والّذين يؤتون ما آتوا و قلوبهم وجلة أهو الّذي يزني و يشرب الخمر و يسرق و هو على ذلك يخاف الله ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم :لاولكن هو الرجل يصلّي ويصوم و يتصدّق وهو على ذلك يخاف الله تعالى . و قيل : في الكلام حذف و إضمار أي و قلوبهم وجلة أن لا يقبل منهم كمافسّر أبوعبدالله عليه السلام قال : معناه : قلوبهم خائفة أن لا يقبل منهم وذلك لعلمهم [بأنّهم إلى ربّهم راجعون] و موقنين بأنّهم راجعون إلى الله و لعلّ أنّه لايقبل وليسوا مأمونين من التفريط .

[أُولئك يسارعون في الخيرات] أي الّذين جمعوا هذه الصفات يبادرون إلى الطاعات رغبة منهم فيها [وهم لها سابقون] وهم لأجل تلك الصفات و المسارعة إلى الخير سابقون إلى الجنّة و قيل : وهم سبقوا الأُمم إلى الخيرات و قيل : سابقون أمثالهم من أهل البرّ والتقوى ويمكن أن يكون خبراً بعدخبر والمعنى : وهم لها كما يقال : أنت لهاوهي لك ثمّ قال : سابقون أي وهم سابقون .

قوله تعالى : ولانكلف نفساً الا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لايظلمون (٦٢) بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون (٦٣) حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون (٦٤) لاتجأروا اليوم انكم منا لاتنصرون (٦٥) قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون (٦٦) مستكبرين به سامراً تهجرون (٦٧) أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الاولين (٦٨) أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون (٦٩) أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق و أكثرهم للحق كارهون (٧٠) ولواتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون (٧١) .

ثمّ بيّن سبحانه أنّه لا يكلّف أحداً إلّا دون الطاقة و الوسع إنّما سمّي وسعاً لأنّه يتّسع عليه فعله و قيل : الوسع الطاقة و لكنّ المعتزلة قالوا : إنّه دون الطاقة ، و هذه الآية صريحة على نفي تكليف ما لايطاق بل كلّف دون الوسع و الطاقة فمن لم يستطع أن يصلّي قائماً فليصلّ جالساً ومن لم يستطع جالساً فليؤم إيماءً .

قوله : [و لدينا كتاب ينطق بالحقّ وهم لايظلمون] أي و عند ملائكتنا المقرّبين كتاب ينطق و يشهد عليكم بالحقّ كتبه الملائكة بأمرنا في صحائف الأعمال وهم يوفون جزاء أعمالهم لاينقص من ثواب أعمالهم ولايزاد في عقابهم و شبّه الكتاب بمن ينطق ويصدر عنه البيان فإنّ الكتاب لاينطق لكنّه يُعرب[1] بما فيه كما ينطق و يعرب الناطق إذا كان محقّاً وهذا الكلام مثل قوله : « و وجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربّك أحداً[2] » و الآية تدلّ على أنّ العبد موجد لفعله و إلّا لكان تعذيبه على العمل ظلماً .

قوله : [بل قلوبهم في غمرة من هذا] أي قلوب الكفّار في غفلة شديدة من هذا الكتاب ومن هذا البيان الّذي بيّنّاه في القرآن من الوعد و الوعيد و في جهل وحيرة [ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون] أي ولهم أعمال رديئة خبيثة سوى ذلك الجهل ويعملون تلك الأعمال فيستحقّون بها و بالكفر العقوبة من الله وقيل : المراد : ولهم أعمال أصغر من الكفر وهم مشتغلون بها إلى أن يفني آجالهم .

و قيل : إنّ من قوله : « ولدينا كتاب » إلى قوله : « وهم لها عاملون » في أوصاف المشفقين لا الكافرين و قد يكون المرء لشدّة فكره في الآخرة يستولي عليه الفكر في قبول عمله أورده و يتحيّر و هو المراد بوقوع القلب في غمرة و قوله « من هذا » أي من هذا الإشفاق و الخوف و لهم أعمال من دون ذلك أي من النوافل ووجوه البرّ سوى ماهم عليه .

قوله : [حتّى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون] قال صاحب الكشّاف : حتّى هذه هي الّتي يبتدء بعدها الكلام أي يكون دأبهم هذا ومشتغلون بأعمالهم القبيحة حتّى إذا نزل بهم العذاب و أخذنا متنعّميهم و رؤساءهم بعذاب الآخرة و قيل : عذاب

(١) اعربه : ابانه .
(٢) الكهف : ٥٠ .

الدنيا و هو عذاب السيف أو الجوع حين دعا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عليهم فقال : اللّهمّ اشدد و طأتك على مضر واجعلها سنين كسني يوسف فابتلاهم الله بالقحط حتّى أكلوا الكلاب والجيف أي يضجّون لشدّة العذاب ويصرخون إلى الله بالتوبة فلا يقبل منهم و يقال لهم: [لا تجأروا اليوم إنّكم منّا لاتنصرون] و لا تضرّعوا اليوم ولا يدفع عنكم ما نزل بكم ولا يبلغكم نصرتنا و هذا الكلام إيئاس لهم من دفع العذاب .

[قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون] لمّا بيّن في الآية السابقة أنّ الكفّار لا ينصرون أتبعه في هذه الآية ببيان السبب أنّه متى ما تليت آيات الله عليهم أتوا باُمور قبيحة : أحدها أنّهم كانوا على أعقابهم ينفرون وعن من يتلوها كما يذهب الناكص على عقبيه بالرجوع إلى ورائه أي يرجعون إلى القهقرى و الثاني قوله :

[مستكبرين به] أي متكبّرين على سائر الناس بالحرم و كانوا يقولون : إنّا أهل الحرم و لا يظهر علينا أحد لأنّهم القائمون بالبيت و ولاته والّذي يسوّغ هذا الإضمار قبل الذكر شهرتهم بالاستكبار بسبب البيت أو البلد وقيل : الضمير راجع بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم أن يطيعوه و استكبروا بنبوّته أو بالقرآن استكبروا أن يقبلوه و الضمير على جميع الصور رُجع إلى غير مذكور قوله : [سامراً تهجرون] قيل يتعلّق الباء في «به» بقوله سامراً أي يسمرون بالقرآن ويطعنون فيه وكانوا يجتمعون حول الكعبة بالليل وكانت عامّة سمرهم ذكر القرآن و تسميته شعراً وسحراً و سبّ رسول الله و يهجرون و يشتمون و السامر مثل الحاضر في الإطلاق على الجمع و الهجر بالفتح الهذيان و بالضمّ الفحش و يمكن أنّ المراد تهجرون الحقّ و تعرضون عنه .

قوله : [أفلم يدّبّروا القول] أي أفلم يتدبّروا القرآن فيعرفوا ما فيه من الدلالات و العبر [أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأوّلين] أليس أرسلنا نوحاً و إبراهيم والنبيّين إلى قومهم كذلك أرسلناك و مجيء الرسل ليس أمراً على خلاف العادة وأنّهم قدعرفوا بالتواتر أنّ الرسل كانت تتواتر على الاُمم و تظهر المعجزات عليهم و كانت الاُمم بين مصدّق ناج ومكذّب هالك بعذاب الاستيصال أفهذا الأمر ما دعاهم إلى تصديق الرسول ؟

[أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون] أي أليس هو محمّد الّذي عرفوه صغيراً و كبيراً بالأمانة و الصدق بحيث عرّف بالأمين وافياً بالعهد فلمَ أعرضوا عند بعد ما عرفوا أمانته و صدقه وشرف نسبه قبل الدعوة ؟

[أم يقولون به جنّة] أو يعتقدون فيه الجنون فيقولون : إنّه حمله الجنون على ادّعاء الرسالة و هذا أيضاً فاسد لأنّ المجنون كيف يمكنه أن يأتي بما أعجز عقلاء هم عن الإتيان ببعضه على أنّ كتابه متضمّن من الدلائل و الشرائع الكاملة و إنّما نسبوا إليه الجنون حيث كان صلى الله عليه وآله وسلم يأمر صناديد هم و كبراء هم بانقياده وهذا كان عند هم من أبعد الأمور فأرادوا أن يوهموا لضعفائهم و عوامّهم لكي لا ينقادوا له فأوردوا ذلك مورد الاستحقار .

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان هذه الوجوه و فساد أقوالهم و أفعالهم قال : [بل جاء هم بالحقّ و أكثرهم للحقّ كارهون] بل جاءهم بالقرآن و الدين الحقّ و ليس به جنّة و أكثر هم يكرهون الحقّ لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم لم يوافق مراد هم .

قوله : [و لو اتّبع الحقّ أهواءهم لفسدت السماوات و الأرض و من فيهنّ] ثمّ بيّن سبحانه أنّ الحقّ لا يتّبع الهوى و لو اتّبع لوقع الفساد في العالم و اختلّ النظام لأنّ أهواء هم جعل الشريك لله و عبادة الأوثان وتكذيب محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و هو منشأ المفسدة و كانوا يرون أنّ الحقّ في اتّخاذ آلهة مع الله فبيّن سبحانه أنّه لو صدر هذا الأمر على حسب ما يحبّون لفسدت السماوات والأرض و من فيهنّ و وجه الفساد ما تقدّم في بيان دليل التمانع و لأنّ الحقّ يدعو إلى المصالح و المحاسن ، والهوى يدعو إلى المفاسد و المقابح و لو اتّبع الحقّ و هوالله داعي الهوى لدعى إلى القبائح ولفسد التدبير .

[بل أتينا هم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون] بل أتيناهم ـ و قرىء بذكراهم أي مواعظهم بالقرآن لأنّهم قالوا : « لو أنّ عند نا ذكراً من الأوّلين * لكنّا عباد الله المخلصين[1] » ـ بما فيه شرفهم وفخرهم لأنّ الرسول منهم والقرآن بلسانهم وهم عن شرفهم و الأمور النافعة لهم معرضون و بالجهل و الكفر راضون .

قوله تعالى : أم تسألهم خرجاً فخراج ربك خير وهو خير الرازقين (٧٢)

(١) الصافات : ١٦٩ .

و انك لتدعوهم الى صراط مستقيم (٧٣) و ان الذين لايؤمنون بالاخرة عن الصراط لناكبون (٧٤) و لو رحمنا هم و كشفنا ما بهم من ضرللجوا فى طغيانهم يعمهون (٧٥) و لقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم و ما يتضرعون(٧٦) حتى اذا فتحنا عليهم باباً ذاعذاب شديد اذاهم فيه مبلسون (٧٧) و هو الذى أنشألكم السمع و الابصار والافئدة قليلا ماتشكرون (٧٨) وهو الذى ذرأكم فى الارض و اليه تحشرون (٧٩) و هو الذى يحيى و يميت و له اختلاف الليل و النهار أفلا تعقلون (٨٠) .

ثمّ بيّن سبحان أنّه ﷺ لا يطمع فيهم حتّى يكون ذلك سبباً للنفرة فقال : [أم تسألهم خرجاً فخراج ربّك خير] يا محمّد على ما جئتهم به من القرآن والإيمان أجراً فيوجب ذلك ثقلاً عليهم والخرج ما تبرّعت به والخراج ما لزمك أداؤه و الخراج أكثر من الخرج لأنّ زيادة المباني تدلّ على كثرة المعاني أي كثير عطاء الله و رزقه خير فحينئذ لا يجوز أن ينفروا عنه بهذه التهمة فنبّه أنّه لا عذر لهم و أنّهم محجوجون من جميع الوجوه .

و الآية تدلّ على أنّ أحداً من العباد لا يقدر على مثل نعمه و رزقه كما أنّه تدلّ على أنّ العباد قد يتسبّبون لرزق بعضهم بعضاً بأمره سبحانه لا على طريق الأصالة بل بالسببيّة و لهذا قال : [و هو خير الرازقين] و لولا ذلك لما جاز أن يقول هوخيرالرازقين.

قوله : [و إنّك لتدعوهم إلى صراط مستقيم] لأنّ ما دلّ الدليل على صحّته فهو مستقيم و هوطريق الحقّ والعمل به على طريق العدل والاستقامة [و إنّ الّذين لايؤمنون بالآخرة] و لا يصدّقون بالمعاد و النشأة الآخرة [عن الصراط لناكبون] و عن دين الحقّ عادلون و مائلون ، كذب العادلون بالله و ضلّوا ضلالاً بعيداً و ناكبون عن طريق الهداية و الجنّة يؤخذ بهم يمنة ويسرة إلى النار .

[و لو رحمنا هم و كشفنا ما بهم من ضرّ للجّوا في طغيانهم يعمهون] معنامثل قوله : « ولو ردّوا لعادوا » (١) أي و لو أنّا رحمنا هم و كشفنا ما بهم من جوع و ضرّ

(١) الانعام : ٢٨ .

و نحوه لتمادوا في ضلالتهم وغوايتهم و كفرهم وأعمالهم القبيحة ويداومون عليها متجرّين .

قوله : [و لقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربّهم و ما يتضرّعون] إنّا قد أخذنا هؤلاء الكفّار بالجدب والغلاء و المرض وضيق الرزق و القتل بالسيف فما تواضعوا ولا انقادوا و ما يرغبون إلى الله .

[حتّى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد] أي هذا دأبهم و عادتهم حتّى إذا فتحنا عليهم نوعاً آخر من العذاب و هو أشدّ من الأوّل إمّا باباً من عذاب جهنّم في الآخرة أو فتح مكّة ؛ و قال أبو جعفر عليه السلام : و هو في الرجعة عند قيام قائمنا . أو المراد سني مضر فجاعوا حتّى أكلوا العلهز و هو الوبر بالدم المطبوخ [إذا هم فيه مبلسون] أي حينئذ آئسون من كلّ خير متحيّرون .

قوله : [و هو الّذي أنشألكم السمع و الأبصار و الأفئدة قليلاً ما تشكرون] أي خلق هذه النعم الثلاثة العظيمة وأنعمكم بها و خصّها بالذكر لأنّ النظريّات والدلائل مبنيّة عليها و أنّ العاقل ينظر و يسمع ويتفكّر فحينئذ يعلم قوله : «قليلاً ماتشكرون» و قليلاً منصوب على المصدريّة أي تشكرون قليلاً لهذه النعم أو لا تشكرون ربّ هذه النعم فتوحّدونه .

[و هو الّذي ذرأكم و إليه تحشرون] أي خلقكم و أوجدكم في الأرض و قيل : بسطكم فيها ذريّة بعضكم من بعض حتّى كثرتم أي هو الّذي جعلكم متناسلين في الأرض و يحشركم يوم القيامة إلى دار لاحاكم فيها سواه فجعل حشرهم إلى ذلك الموضع حشراً إليه لا بمعنى المكان .

قوله تعالى : [و هو الّذي يحيي ويميت] يحييكم في أرحام اُمّهاتكم و يميتكم عند انقضاء آجالكم أي إنّ نعمة الحياة و إن كانت من أعظم النعم فهي منقطعة .

[و له اختلاف الليل و النهار] و له تدبيرهما بالزيادة و النقصان وملازمة ذهاب أحدهما مجيء الآخر و وجه النعمة بهذا الاختلاف واضح لوضوح آثارهما من الفوائد و مع هذا لمَ تتركون النظر ولا تتدبّرون ؟ [أفلا تعقلون] أنّ لذلك صانعاً قادراً .

قوله : بل قالوا مثل ماقال الاولون (٨١) قالوا ءاذا متنا و كنا ترابا

و عظاماً ائنا لمبعوثون (٨٢) لقد وعدنا نحن و آباؤنا هذا من قبل ان هذا الا أساطير الاولين (٨٣) قل لمن الارض و من فيها ان كنتم تعلمون (٨٤) سيقولون الله قل أفلا تذكرون(٨٥) قل من رب السموات السبع و رب العرش العظيم (٨٦) سيقولون الله أفلاتتقون(٨٧) قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولايجار عليه ان كنتم تعلمون (٨٨) سيقولون لله قل فانى تسحرون(٨٩) بل أتيناهم بالحق و انهم لكاذبون (٩٠) .

لمّا ذكر سبحانه نعمه الدالّة على التوحيد عقّبه بذكر المعاد فقال :

[بل قالوا مثل ما قال الأوّلون] عطف على مضمر يقتضيه المقام أي لم يعقلوا بل قالوا مثل ما قال آباؤهم و قلّدوهم في إنكار البعث و قالوا : أئذا متنا و صرنا تراباً و عظاماً كيف نبعث و أوردوا هذه الشبهة الفاسدة [لقد وعدنا نحن و آباؤنا هذا] الأمر من قديم الزمان من سائر الأنبياء ثمّ لم يوجد مع طول العهد ثمّ قالوا : [إن هذا إلّا أساطير الأوّلين] أي ما هذا إلّا ما كتبه الأوّلون ممّا لاحقيقة له .

قوله تعالى : [قل لمن الأرض و من فيها إن كنتم تعلمون] المقصود من هذه الآيات الاستدلال على منكري الإعادة و الردّ على عبدة الأوثان و ذلك لأنّ القوم كانوا مقرّين بالله لكن كانوا يقولون : نعبد الأصنام لتقرّبنا إلى الله فاحتجّ الله عليهم بقوله : قل لمن الأرض و من فيها [فسيقولون لله] وإنّ من كان خالقاً للأرض و من فيها و خالقاً لحياتهم و قادراً على إماتتهم و إفنائهم فعبادة من خلقكم و أنعم عليكم هي الواجبة دون عبادة مالا يضرّ ولا ينفع [أفلا تذكّرون] لتعلموا بطلان ما أنتم عليه .

ثمّ زاد في الحجّة فقال : [قل من ربّ السماوات السبع و ربّ العرش العظيم * سيقولون الله قل أفلا تتّقون] و وجه الاستدلال واضح فإذا كان هو المدبّر و الخالق للسماوات والعرش مع عظمهما وهم معترفون بأنّ الله خلقها فلمَ لايتّقون عذابه ويتركون عبادة غيره .

ثمّ زاد سبحانه في الحجّة فقال : [قل] يا محمّد [من بيده ملكوت كلّ شيء و هو يجير و لا يجار عليه إن كنتم تعلمون] الملكوت من صفات المبالغة في الملك كالجبروت

و الرهبوت و قيل : بيده ملكوت كلّ شيء معناه خزائن كلّ شيء و هو يمنع من يشاء ولا يمنع منه من أراده بسوء يقال : أجرت فلاناً إذا استغاث بك فحميته و أجرت عليه إذا حميت عنه و حاصل المعنى أنّ من قصد عبداً من عباده بسوء قدر على منعه و من أراد الله بسوء لم يقدر على منعه أحد أو المراد من هذا الأمر في القيامة أي يجير من العذاب ولا يجار عليه منه إن كنتم ذلك تعلمونه فأجيبوا أمره ولا تشركوا به شيئاً .

[سيقولون لله قل فأنّى تسحرون] يقولون في الجواب : لله ، قل يا محمد لهم : فكيف يخيّل إليكم الحقّ باطلاً والصحيح فاسداً و تخدعون عن طاعته وتعمون ؟ والخادع هو الشيطان و الهوى ؛ قال امرؤ القيس : « و تسحر بالطعام و بالتراب » .

[بل أتينا هم بالحقّ وإنّهم لكاذبون] معناه أتاجئناهم بالحقّ وبيّنّالهم الحقّ الّذي يبيّن كذبهم ومع ذلك أنّهم أصرّوا على كذبهم وباطلهم .

قوله تعالى : ما اتخذ الله من ولد و ما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون (٩١) عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون (٩٢) قل رب اما تريني ما يوعدون (٩٣) رب فلا تجعلني في القوم الظالمين (٩٤) وانا على ان نريك ما نعدهم لقادرون (٩٥) ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن اعلم بما يصفون (٩٦) و قل رب أعوذبك من همزات الشياطين (٩٧) و أعوذبك رب أن يحضرون (٩٨) حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون (٩٩) لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها و من ورائهم برزخ الى يوم يبعثون (١٠٠) .

في الكلام تنبيه على نفي قول الكفّار فإنّ جمعاً منهم كانوا يقولون : الملائكة بنات الله وكالنصارى و كذلك نفى الشريك عنه بقوله : [وماكان معه من إله]والمراد الّذين اتّخذوا الأصنام آلهة و فيه إبطال قول الثنويّة .

ثمّ ذكر الدليل المعتمد بقوله : [إذاً لذهب كلّ إله بما خلق و لعلا بعضهم على بعض] أي لو كان الأمر كذلك لانفرد على كلّ واحد من الآلهة بخلقه الّذي خلقه و استبدّ و استقلّ به و لرأيتم ملك كلّ واحد منهم متميّزاً عن ملك الآخر و اغلب

بعضهم على بعض كما ترون حال الملوك في ممالكهم متميّزة كلّ ملك على ملكه وسلطانه و حيث لم تروا أثر التمايز في الممالك فاعلموا أنّه إله واحد بيده ملكوت كلّ شيء و قوله : « إذاً لذهب » جواب و جزاء لشرط محذوف تقديره : و لو كان معه آلهة إذاً لذهب كلّ إله وبدلّ عليه قوله : « و ماكان معه من إله » ثمّ نزّه سبحانه نفسه عن ما نسبوه إليه من اتّخاذ الولد والشريك .

قوله : [عالم الغيب و الشهادة] أي هو المختصّ بعلم الغيب و الشهادة ، فغيره و إن علم الشهادة فلن يعلم معها الغيب و الشهادة الّتي يعلمها و لا يتكامل بها النفع إلّا مع العلم بالغيب و لو أنّ الّذي يعلم الشهادة أيضاً استفادته من الله [فتعالى عمّا يشركون] في علمه و قدرته و اُلوهيّته .

ثمّ أمر نبيّه بالانقطاع إليه وأن يدعوه بقوله : [قل ربّ إمّا تريَنّي مايوعدون] أي إن كان ولابدّ من أن تريَنّي ماتعدهم من العذاب في الدنيا أو في الآخرة فلاتعذّبني و أخرجني من بينهم عند ماتريد إحلال العذاب بهم لئلّا يصيبني ما يصيبهم .

و إن قيل : كيف يجوز أن يجعل الله نبيّه المعصوم مع الظالمين حتّى يدعو ويطلب أن لايجعله معهم ؟

فالجواب يجوز أن يسأل العبد ربّه ماعلم أنّه يفعله و أن يستعيذ به ممّا علم أنّه لايفعلة إظهاراً للعبوديّة وتواضعاً لربّه كما وقع من أكابر الأنبياء والأولياء في الأدعية لأنّ المؤمن يهضم نفسه .

و إنّما ذكر «ربّ» مرّتين مرّة قبل الشرط ومرّة قبل الجزاء مبالغة في التضرّع قال الزمخشري : «ما» في « إمّا» والنون في « تريَنّي» مؤكّدتان .

قوله تعالى : [و إنّا على أن نريك مانعدهم لقادرون] و ذلك في الرجعة إن شاء الله هذا ابتداء كلام من الله أي إنّالانعاجلهم بالعقوبة مع قدرتنا على ذلك ولكن ننظرهم لمصلحة يوجب ذلك التأخير مع أنّ الكفّار كانوا ينكرون الوعد بالعذاب ويضحكون منه و يحتمل أن يكون العذاب في الدنيا مؤخّراً عن آياته صلّى الله عليه وآله وسلّم .

ثمّ أمر نبيّه باحتمال مايكون منهم من التكذيب وضروب الأذى بأن يدفعه بالكلام

الجميل كالسلام و بيان الأدلّة على أحسن الوجوه فقال : [ادفع بالّتي هي أحسن السيّئة نحن أعلم بما يصفون] أي ادفع السيّئة بالحسنة بالصفح عن إساءة المسيء و ادفع باطلهم ببيان الحجج على ألطف الوجوه و أوضحها و ألطفها إلى الإجابة و القبول نحن أعلم بما يكذّبون من الشرك والإنكار فيجازيهم بما يستحقّونه .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام أنّ الّتي هي أحسن التقيّة و بالجملة هذه الآية قيل : منسوخة بآية السيف و قيل : محكمة لأنّ المداراة مرغوب فيها و محثوث عليها في كلّ الأوقات ما لم تؤدّ إلى نقصان دين .

قوله تعالى : [و قل ربّ أعوذبك من همزات الشياطين * و أعوذ بك ربّ أن يحضرون] و قل : يا محمّد يا ربّ أعتصم بك من نزغاتهم و وساوسهم و شرور هم في كلّ شيء يخاف من ذلك و أعوذ بك يا ربّ أن يشهدوني و يصدّوني عن طاعتك و قيل : يحضرون في أوقات الصلاة عند تلاوة القرآن أو الأحوال كلّها حتّى لايحوموا حولي فأكون متذكّراً والهمزات جمع الهمزة وهو الدفع والتحريك الشديد وهو كالهزّ و الأزّ ومنه الهمزة للحرف المعروف لأنّه يخرج من أقصى الحلق بالشدّة و الدفع .

قوله : [حتّى إذا جاء أحدهم الموت قال ربّ ارجعون] ثمّ شرح سبحانه حال القائلين بقولهم : أئذامتنا و كنّا تراباً و عظاماً و « حتّى » متعلّق بيصفون أو بكلمة « قالوا أئذا » أي الكفّار لا يزالون على سوء الذكر إلى أن يجيء أحدهم الموت سألوا الله الرجعة إلى دار التكليف فيقول أحدهم : ربّ ارجعوني على لفظ الجمع و فيه قولان : أحدهما أنّهم أوّلاً استغاثوا بالله ثمّ خاطبوا الملائكة ارجعوني إلى الدنيا والآخر على عادة العرب في تعظيم المخاطب كما قال : « قرّة عين لي ولك لا تقتلوه[1] » و إذا كان المساء لة و الخطاب إلى الملائكة فهم ملائكة الّذين يقبضون الأرواح لأنّ عند مشاهدة الموت لا يشاهدون الكفّار إلّا إيّاهم أو الخطاب و المسألة من الله و الجمع للتعظيم كقول الشاعر : « فإن شئت حرّمت النساء سواكم » .

و على القول الأوّل من الأقوال فكأنّه يجعل ذكر الربّ للقسم أي بحقّ

---

(١) القصص : ٩.

الربّ ارجعوني ؟

فإن قيل : كيف يسألون الرجعة و قد علموا صحّة الدين بالضرورة من الدين أن لا رجعة .

فالجواب أنّه و إن كان الأمر كذلك لكن لا يمتنع أن يسألوه لأنّ الاستغاثة يقع عند الشدّة و لوحال اليأس و لذلك أتوا مسؤولهم بكلمة الشكّ بقولهم « لعلّي » و أوردوا الكلام الّذي للترجّي مع كونهم جازمين بأنّهم يتدار كون و لايتدار كون كما قال الله : « ولوردّوا لعادوا لما نهوعنه [١] » .

و المراد من قوله : [لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت] أي فيما خلّفت من المال لأتدارك فيما تركت من أداء حقوقها الواجبة من الله ومن الناس و كذلك لأداء العبادات المتروكة الفائتة كأنّهم تمنّوا الرجعة لإصلاح ما أفسدوا و يطيعوا في كلّ ما عصوا . قال الصادق عليه السلام في مانعي الزكاة : يسأل الرجعة عند الموت .

و هذا البيان على قول الأكثرين من أنّه راجع إلى حال الكفّار لكن قال الضحّاك : كنت جالساً عند ابن عبّاس فقال : ذلك قول من لم يزكّ و لم يحجّ يسأل الرجعة عند الموت فقال رجل : إنّما يسأل ذلك الكفّار فقال ابن عباس : أنا أقرأ عليك به قرآناً قوله تعالى : « و أنفقوا ممّا رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول ربّ لولا أخّرتني إلى أجل قريب فأصدّق [٢] » قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : إذا حضر الإنسان الموت جمع كلّ شيء كان يمنعه من حقّه بين يديه فيقول عنده : « ربّ ارجعوني » الآية .

قوله : [كلّا إنّها كلمة هو قائلها و من ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون] فيقول الله سبحانه في جوابهم كلمة المنع والردع بماطلبوا كما يقال لطالب الأمر المستبعد : هيهات، في الحديث إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال لعائشة : إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا له : نرجعك إلى الدنيا فيقول المؤمن : إلى دار الهموم و الأحزان ؟ لابل قدوماً على الله و أمّا الكافر فيقال له : نرجعك فيقول : ارجعوني فيقال له : إلى أيّ شيء ترغب إلى جمع المال أو غرس

(١) الانعام : ٢٨ .

(٢) المنافقون : ١٠ .

الغراس أو بناء البنيان أو شقّ الأنهار ؟ فيقول : لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت ! فيقول الجبّار : كلاّ .

و قوله « هو قائلها » أي إنّه قائلها ولاحقيقة لها فقط يقوله بلسانه وقيل : معناه : إنّه قائل وحده هذه الكلمة و لا يسمع منه و لايجاب عنه و قيل : معناه : إنّه لايسكت عن هذه الكلمة لاستيلاء الحسرة عليه « و من ورائهم برزخ » أي و من أمامهم مانع وحاجز إلى الرجوع « إلى يوم يبعثون » و يوم يبعثون إلى القيامة لا إلى الدنيا فليس لهم رجوع و الجمع باعتبار المعنى لأنّ الكلّ في هذا الحكم مشتركون كما أنّ الإفراد في الضمائر الأوّل باعتبار اللفظ و هذا الكلام إقناط كلّيّ عن الرجوع إلى الدنيا والوراء يطلق على الأمام لأنّ معناه ماستر و وري عنك و الأمام كذلك مستور عن الإنسان كما أنّ الخلف مستور .

القمّي : البرزخ أمر بين أمرين و هو الثواب و العقاب بين الدنيا والآخرة وهو قول الصادق عليه السلام : و الله ما أخاف عليكم إلّا البرزخ و أمّا إذا صار الأمر إلينا فنحن أولى بكم و في الكافي عن الصادق عليه السلام أنّه قيل له : إنّي سمعتك و أنت تقول : كلّ شيعتنا في الجنّة على ما كان منهم ؟ قال عليه السلام : صدقتك ، كلّهم والله في الجنّة ، قيل : إنّ الذنوب كثيرة كبار فقال : عليه السلام أمّا في القيامة فكلّكم أجمعون بشفاعة النبيّ المطاع أو وصي النبيّ و لكنّي والله أتخوف عليكم في البرزخ قيل : و ما البرزخ ؟ فقال : القبر منذ حين موته إلى يوم القيامة . و في الخصال عن السجّاد عليه السلام أنّه تلا هذه الآية وقال : هو القبر و إنّ لهم معيشة ضنكاً و الله إنّ القبر لروضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النيران .

قوله : فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ و لايتساءلون (١٠١) فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون (١٠٢) و من خفت موازينه فاولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون (١٠٣) تلفح وجوههم النار و هم فيها كالحون (١٠٤) ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون (١٠٥) قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا و كنا قوماً ضالين (١٠٦) ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون (١٠٧) قال اخسئوا فيها و لا تكلمون (١٠٨) انه كان فريق من

عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفرلنا و ارحمنا و أنت خير الراحمين (١٠٩) فاتخذ تموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري و كنتم منهم تضحكون (١١٠) .

ثمّ بيّن سبحانه حال الفريقين و حال ذلك اليوم الّذي فيه يبعثون .

و في الصور أقوال : أحدها و هو الصحيح آلةإذا نفخ فيها يظهر صوت عظيم جعله الله لوقت إعادة الخلق و ينفخ فيه إسرافيل و هو قول أكثر المفسّرين . و قيل : نفخ الصعق جعلهاالله علامة لخراب الدنيا . وقيل : نفخة البعث فحينئذ النفخة نفختان وقرىء في الصور محرّكة جمع صورة أي إذا نفخ فيه الأرواح و اُعيدت أحياء .

قوله : [فلا أنساب بينهم يومئذ] أي لا يتواصلون بالأنساب و لا يتعاطفون بها مع معرفة بعضهم بعضاً و لا يرحم قريب قريبه يشغله عنه من الخوف و الدهشة و حاصل المعنى أنّه لا يفضّل بعضهم بعضاً يومئذ بنسب وإنّما يتفاضلون بأعمالهم قال النبيّ ﷺ: كلّ حسب و نسب منقطع يوم القيامة إلّا حسبي و نسبي .

[و لا يتساءلون] أي لا يسأل أحد عن حال أحد كما يسألون في الدنيا يشغل كلّ واحدبنفسه ولاتنافي بين هذا القول مع قوله : «وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون[1]» لأنّ مواقف القيامة كثيرة ثمّ إنّ الّذين يتساءلون لعلّ بعض أهل الجنّة و يتساءلون عند دخولها فإنّهم لا يفزعون من أهوال يوم القيامة أو فرغوا من فزعها و المراد في الآية نفي آثار النسب و حكمه لا نفي النسب في الحقيقة و ذلك بيان الخوف الشديد الطاري عليهم .

قال ابن مسعود : يؤخذ العبد و الأمة يوم القيامة على رؤوس الأشهاد وينادي مناد: ألا إنّ هذا فلان فمن له حقّ عليه فليأت إلى حقّه فتفرح المرأة حينئذأن يثبت لهاحقّ على اُمّها أو اُختها أو أبيها أو أخيها أو ابنها أو زوجها فلا أنساب بينهم يومئذ ولايتساءلون و لا شيء أبغض إلى الإنسان يوم القيامة من أن يرى من يعرفه مخافة أن يثبت له عليه شيء ثمّ تلا : «يوم يفرّ المرء من أخيه و اُمّه وأبيه[2]» قال : ﷺ ثلاث مواطن تذهل فيها

(١) الصافات : ٢٧ .

(٢) عبس : ٣٤ .

كلّ نفس : حين يرمى إلى كلّ إنسان كتابه و عند الموازين وعلى جسر جهنّم .

ثمّ بيّن سبحانه أنّ بعد النفخ في الصور تكون المحاسبة فشرح أحوال السعداء و الأشقياء [فمن ثقلت موازينه] بالطاعات [فاُولئك هم المفلحون] الناجون أي من أتى بما له قدر و خطر فهو الفائز [و من خفّت موازينه فاُولئك الّذين خسروا أنفسهم] و من أتى بما لاوزن له كقوله : « والّذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتّى إذا جاءه لم يجده شيئاً فاُولئك هم الخاسرون [١] » و هو خالد في جهنّم والموازين جمع موزون و هي الموزونات من الأعمال الصالحة الّتي لها وزن و قدر . و بالجملة من ثقلت حسناته فإلى الجنّة و من ثقلت سيّئاته فإلى النار .

والأشقياء وصفهم الله باُمور أربعة : أحدها أنّهم خسروا أنفسهم و غبنوها بأن صارت منازلهم للمؤمنين و امتنع انتفاعهم بأنفسهم لكونهم في العذاب و ثانيها خالدون في جهنّم و ثالثها قوله : [تلفح وجوههم النار] أي تضرب و تأكل جلودهم و لحومهم واللفح والنفخ في المعنى واحد إلا أنّ اللفح أشدّ تأثيراً من النفخ و هو ضرب من السموم للوجه و رابعها قوله : [و هم فيها كالحون] والكلوح تقلّص الشفتين عن الأسنان حتّى تبدو الأسنان كما ترى الرؤوس المشويّة وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : تشويه النار فتتقلّص شفته العليا حتّى تبلغ وسط رأسه و تسترخي شفته السفلى حتّى تبلغ سرّته و قريء كلحون .

ثمّ إنّه سبحانه لمّا شرح عذابهم حكى ما يقال لهم عند ذلك تقريعاً و توبيخاً [ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذّبون] أي أولم تكن القرآن يقرأ عليكم أو حججي و بيّناتي تقرأ عليكم في دار الدنيا فكذّبتموها فلا جرم صرتم مستحقّين لما أنتم فيه من العذاب الأليم و الآية صريحة دالّة على أنّهم إنّما وقعوا في ذلك العذاب بسوء أفعالهم ولو كان فعل العباد بخلق الله كما زعم الأشاعرة لماصحّ ذلك .

[قالوا ربّنا غلبت علينا شقوتنا و كنّا قوماً ضالّين] ثمّ اعتذروا و ذكروا مايجري مجرى الجواب عنه بأن غلبت الشقاوة و سوء العاقبة و حال الشقاء و طلبنا اللذّات المحرّمة و حرصنا على الأعمال القبيحة فأطلق اسم المسبّب على السبب و المعنى استعلى

(١) النور : ٣٩ .

علينا سيّئاتنا الّتي أوجبت لنا الشقاوة و كنّا قوماً ذاهبين عن الحقّ و من أكثر الشقاوة أن يترك عبادة الله إلى عبادة غيره .

[قال اخسؤوا فيها و لا تكلّمون] أي ابعدوا بعد الكلب وهذه الكلمة زجر و طرد للكلاب و هذه الكلمة بقولهم : « إنّا كنّا ظالمون » آخر كلام يتكلّم به أهل النار ثمّ بعد ذلك يكون لهم شهيق كشهيق الحمار ويقال لهم : اخسؤوا و لاتكلّمون في دفع العذاب فإنّه لا يرفع عنكم و لا يخفّف ثمّ لا كلام بعد ذلك إلّا الشهيق و العواء كعواء الكلب و « لا تكلّمون » بصيغة النهي و ليس بنهي لأنّ الأمر والنهي مرتفعان في الآخرة لارتفاع التكليف .

قال ابن عبّاس : إنّ لأهل النار ستّ دعوات إذا دخلوا النار قالوا ألف سنة : « ربّنا أبصرنا و سمعنا فارجعنا [1] » فيجابون : « حقّ القول منّي [2] » فينادون ألف سنة ثانية : « ربّنا أمتّنا اثنتين و أحييتنا اثنتين [3] » فيجابون « ذلك بأنّه إذا دعي الله وحده كفرتم [4] » فينادون ألف ثالثة : « يا مالك ليقض علينا ربّك [5] » فيجابون « إنّكم ماكثون [6] » فينادون ألفاً رابعة : « ربّنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنّا ظالمون [7] » فيجابون : « أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال [8] » فينادون ألفاً خامسة : « أخرجنا نعمل صالحاً [9] » فيجابون : « أولم نعمّركم » [10] فينادون ألفاً سادسة : « ربّ ارجعوني [11] » فيجابون : « اخسؤوا فيها و لاتكلّمون [12] » .

ثمّ وصف سبحانه ما لأجله حلّ بهم العذاب و عذّبوا و بعدوا من الخير [إنّه كان فريق من عبادي] أي طائفة من عبادي و هم الأنبياء أو المؤمنون [يقولون ربّنا فاغفر لنا و ارحمنا و أنت خير الراحمين] أي كانوا يدعون بهذه الدعوت في الدنيا طلباً لما عندي من ثواب الآخرة [فاتّخذتموهم] أنتم يا معشر الكفّار [سخريّاً] كنتم

(١) الم السجدة : ١٢ . (٢) الم السجدة : ١٣ .
(٣) المؤمن : ١١ . (٤) المؤمن : ١٢ .
(٥) الزخرف : ٤٧ . (٦) الزخرف : ٧٧ .
(٧) المؤمنون : ١٠٨ . (٨) ابراهيم : ٤٤ .
(٩) فاطر : ٣٧ . (١٠) فاطر : ٣٧ .
(١١) المؤمنون : ١٠٠ . (١٢) المؤمنون : ١٠٩ .

تهزءون و تسخرون منهم .

[حتّى أنسوكم ذكري] بتشاغلكم بهم في الاستهزاء عن ذكري فنسب الإنساء إلى المؤمنين و إن لم يفعلوا لمّا كانوا السبب في ذلك ومن فرط اشتغالكم باستهزائهم حين ما يقول المؤمنون كلمة «ربّنا فاغفر لنا» نسيتم ذكري و كذّبتم هذا اليوم ، وكانوا يؤذون المؤمنين مثل أصحاب الصفّة وقيل: يستعبدون الفقراء و الضعفاء والصعاليك من المؤمنين مثل بلال و خباب و عمّار و صهيب و يصرفونهم في أعمالهم الشاقّة و حوائجهم كرهاً بغير أجر وكان رؤساء قريش مثل أبي جهل و عتبة و اُبيّ بن خلف يقولون : انظروا إلى هؤلاء رضوا من الدنيا بالعيش الدنيء طمعاً في ثواب الآخرة و ليس وراء هم آخرة ولا ثواب و هذا معنى النسيان من الذكر .

و أكّد سبحانه ذلك بقوله : [و كنتم منهم تضحكون] و هذا العذاب جزاء ضحككم و تكذيبكم يوم القيامة و أمّا جزاء المؤمنين :

قوله تعالى : انى جزيتهم اليوم بما صبروا انهم هم الفائزون (١١١) قال كم لبثتم فى الارض عدد سنين (١١٢) قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسئل العادين (١١٣) قال ان لبثتم الا قليلا لوأنكم كنتم تعلمون (١١٤) أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون (١١٥) فتعالى الله الملك الحق لااله الا هو رب العرش الكريم (١١٦) ومن يدع مع الله الهاً آخر لابرهان له به فانما حسابه عند ربه انه لايفلح الكافرون (١١٧) وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين (١١٨) .

ثمّ أخبر سبحانه حال المؤمنين الصابرين في استهزاء الكفّار في دار الدنيا فقال :

[إنّي جزيتهم اليوم] بصبرهم على أذاكم وسخريّتكم بهم [إنّهم هم الفائزون] أي الظافرون بما أرادوا والناجون في الآخرة والمراد بقوله « اليوم » أيّام الجزاء لا يوم بعينه .

قوله تعالى : [قال] الله تعالى . للكفّار يوم البعث وهو سؤال توبيخ لمنكري

البعث : [كم لبثتم في الأرض عدد سنين] أي في الدنيا أو في القبور وقيل : الضمير في «قال» راجع إلى الملك أو بعض رؤساء أهل النار لأنّهم كانوا ينكرون الآخرة ويقولون : اللبث في الدنيا و لا إعادة بعد الموت فلمّا حصلوا في النار وأيقنوا أنّها دائمة سألهم « كم لبثتم » تنبيهاً لهم على أنّ ماظنّوه دائماً فهو يسير بالنسبة إلى ماأنكروه فحينئذ تزداد حسرتهم على ماكانوا يعتقدونه في الدنيا حيث أيقنوا خلافه .

فإن قيل : كيف يصحّ في جوابهم أن يقولوا [يوماً أو بعض يوم] ولا يقع من أهل النار الكذب ؟ لأنّهم نسوا من كثرة العذاب وقد اعترفوا بالنسيان حيث قالوا : [فاسأل العادّين] وقيل : المراد من قولهم يوماً أو بعض يوم من أيّام الآخرة والعادّين يعني الملائكة الحفظة الّذين يحصون أعمال العباد وقيل : المراد أهل الحساب الملائكة الّذين يعدّون الأيّام وعدد تنفّس الخلائق .

[قال إن لبثتم إلّا قليلاً] قال الله : مامكثتم إلّا يسيراً من الزمان لأنّ مكثهم في الدنيا أو في القبور وإن طال فإنّه قليل بالإضافة إلى طول مكثهم في عذاب جهنّم [لو أنّكم كنتم تعلمون] صحّة ما أخبرناكم به أو المعنى: لو كنتم تعلمون قصر أعماركم وطول مكثهم في العذاب لما اشتغلتم بالكفر والمعاصي .

ثمّ قال سبحانه لهم : [أفحسبتم] معاشر الجاحدين [أنّما خلقناكم عبثاً] أي لعباً وباطلاً لالغرض وحكمة مثل قوله « أيحسب الإنسان أن يترك سدى » [1] [وأنّكم إلينا لا ترجعون] و زعمتم عدم رجوعكم إلينا وليس الأمر كما زعمتم .

ثمّ برّأ سبحانه نفسه عن العبث و اللغو فقال : [فتعالى الله الملك الحقّ] من أن يفعل شيئاً عبثاً و الملك الحقّ الّذي يحقّ له الملك لأنّ كلّ مالك غيره فهو مستعير منه و هو صاحب الملك [لاإله إلّا هو ربّ العرش الكريم] و هو خالق السرير الأعظم و الكريم ههنا صفة العرش أي كثير الخير و قد وصف العرش به لأنّ إتيان الخير من جهته و لكثرة ما فيه من الخير لمن حوله من الملائكة وخصّ بالذكر مع كونه ربّ كلّ شيء تعظيماً له كقوله « ربّ البيت » قال أبومسلم : و العرش ههنا السماوات بما فيها

(١) القيامة : ٣٦ .

مع العرش الّذي يطوف الملائكة حوله .

قوله : [و من يدع مع الله إلهاً آخر لابرهان له] لمّا بيّن أنّه سبحانه هو الملك الحقّ لاإله إلّا هو أتبعه بأنّ من ادّعى إلهاً آخر فقد ادّعى باطلاً من حيث لا برهان لهم فيه و نبّه بذلك على أنّ كلّ ما لا برهان فيه لايجوز إثباته و ذلك يوجب صحّة النظر و فساد التقليد .

ثمّ قال سبحانه : إنّ من كان كذلك و أشرك مع الله إلهاً آخر [فإنّما حسابه عند ربّه إنّه لا يفلح الكافرون] فكأنّه قال : إنّ عقابه بلغ إلى حيث لا يقدر أحد على حسابه إلّا الله وحسابه عدم الفلاح كما أنّ للمؤمنين الفلاح ، فشتّان بين فاتحة السورة و خاتمة السورة .

ثمّ بعد بيان حال المؤمنين و الكافرين أمر نبيّه بالانقطاع إليه و الطلب
إلى غفرانه و رحمته فإنّهما العاصمان عن كلّ المخافات و الآفات
بقوله : [و قل ربّ اغفر و ارحم و أنت خير الراحمين]
و روي أنّ أوّل السورة و آخر ها من كنوز العرش
من عمل بثلاث آيات من أوّلها و اتّعظ بأربع
من آخرها فقد نجا و أفلح .
تمّت السورة بحمدالله

سورة النور

☼(مدنية)☼

عن أُبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : من قرأ سورة النور اُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كلّ مؤمن و مؤمنة فيما مضى و فيما بقي .

و روى الحاكم أبو عبدالله في الصحيح عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا تنزّلو هنّ الغرف ولا تعلّمو نهنّ الكتابة و علّموهنّ الغزل و سورة النور .

و روى عبدالله بن مسكان عن أبي عبدالله عليه السلام قال : حصّنوا أموالكم و فروجكم بتلاوة سورة النور وحصّنوا بها نساءكم فانّ من أدمن في قراءتها في كلّ ليلة أو في كلّ يوم لم يزن أحد من أهل بيته أبداً حتّى يموت فاذا مات شيّعه إلى قبره سبعون ألف ملك يدعون و يستغفرون الله له حتّى يدخل إلى قبره .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون(١) الزانية و الزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة و لاتأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله و اليوم الاخر و ليشهد عذابهما طائفةمن المؤمنين (٢) الزاني لاينكح الا زانية أومشركة والزانية لاينكحها الا زان أو مشرك و حرم ذلك على المؤمنين (٣) .

أي هذه سورة و قطعة من القرآن من السور . و قرىء « سورة » بالنصب و « فرضناها » قرىء بالتشديد أي أوجبناها عليكم العمل بها و على من بعدكم إلى يوم القيامة و قدّرنا فيها الحدود .

[و أنزلنا فيها آيات بيّنات لعلّكم تذكّرون] أي أنزلنا في هذه السورة دلالات واضحات على وحدانيّتنا و كمال قدرتنا لكي تتذكّرون و تعلموا بما فيها من الحدود والأحكام فابتدأ بحكم الزنا فقال :

[الزانية والزاني] مرفوعة على الابتداء والخبر «فاجلدوا» أي من زنت من النساء و زنى من الرجال فيفيد العموم في الجنس [فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة] وإنّما دخلت الفاء لكون الألف واللام بمعنى الّذي و تضمّنه معنى الشرط كما يقول : من زنى فاجلدوه و قرىء «و الزان» بلاياء .

القميّ : هذه الآية ناسخة لقوله تعالى : « و اللاّتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهنّ أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهنّ في البيوت حتّى يتوفّاهنّ الموت أو يجعل الله لهنّ سبيلاً (١) » و في الكافي عن الباقر عليه السلام و سورة النور اُنزلت بعد سورة النساء و تصديق ذلك أنّ الله سبحانه بيّن في سورة النساء بقوله : « أو يجعل

(١) النساء : ١٤ .

الله لهنّ سبيلاً » والسبيل الّذي قال تعالى : « سورة أنزلناها ـ إلى قوله ـ طائفة من المؤمنين » .

و في التهذيب عن الصادق عليه السلام : الحرّ والحرّة إذا زنيا جلد كلّ واحد منهما مائة جلدة فأمّا المحصن والمحصنة فعليهما الرجم و بالجملة فالجلد إذاكانا حرّين بالغين غير محصنين و أمّا إذا كانا محصنين أو كان أحدهما محصناً كان عليه الرجم بلا خلاف والاحصان هو أنّ له فرج يغدو إليه و يروح على وجه الدوام و يكون حرّاً فأمّا العبد فلا يكون محصناً و كذلك الأمة لا تكون محصنة و إنّما عليها نصف الحدّ خمسون جلدة لقوله سبحانه : « فإن أتين بفاحشة فعليهنّ نصف ما على المحصنات من العذاب[1] » .

و عنه عليه السلام في الكافي سئل عن المحصن فقال : الّذي يزني و عنده ما يغنيه . وعن الكاظم عليه السلام أنّه سئل عن الجارية أتحصن قال : نعم إنّما هو على وجه الاستغناء . قيل: المتعة ؟ قال : لا إنّما ذلك على الشيء الدائم .

و عن الصادق عليه السلام لا يرجم الرجل ولا المرأة حتّى يشهد عليهما أربعة شهداء على الجماع و الإيلاج كالميل و في المكحلة .

و عن الأصبغ بن نباتة إنّ عمر اُتي بخمسة نفر اُخذوا في الزنا فأمر أن يقام على كلّ واحد منهم وكان أمير المؤمنين عليه السلام حاضراً فقال : يا عمر ليس هذا حكمهم قال عمر : فأقم أنت الحدّ عليهم فقدّم عليه السلام واحداً منهم فضرب عنقه ، و قدّم الآخر فرجمه ، وقدّم الثالث فضرب الحدّ مائة جلدة ، و قدّم الرابع فضربه نصف الحدّ ، و قدّم الخامس فعزّره فتحيّر عمر و تعجّب الناس من فعله فقال له : يا أبا الحسن خمسة نفر في قضيّة واحدة أقمت عليهم خمسة حدود ليس شيء منها يشبه الآخر فقال أمير المؤمنين عليه السلام : أمّا الأوّل فكان ذمّياً فخرج عن ذمّته لم يكن له حدّ إلّا السيف ، فأمّا الثاني فرجل محصن كان حدّه الرجم ، وأمّا الثالث فغير محصن فحدّه الجلد ، و أمّا الرابع فعبد ضربناه نصف الحدّ و أمّا الخامس فمغلوب على عقله .

والقمي مثله إلّا أنّه قال : ستّة نفر قال : وأطلق السادس ثمّ قال : و أمّا الخامس

---

(١) النساء : ٢٤

فكان منه ذلك الفعل بالشبهة فعزّرناه و السادس مجنون فأطلقناه .

و يضرب الرجل الحدّ قائماً و المرأة قاعدة و يترك الرأس و المذاكير . و سئل عنه عليه‌السلام : كيف يجلد قال عليه‌السلام : أشدّ الجلد فقيل له : فوق الثياب فقال : لابل يجرّد .

و باقي فروعات المسألة يطلب من كتب الفقهيّة وإنّما قدّم ذكر الزانية على الزاني لأنّ الزنى منهنّ أشنع و أعير و هو لأجل الحبل أضرّ و أفسد . وقوله : « فاجلدوا » خطاب للأئمّة و من يكون منصوباً من جهتهم للأمر لأنّه ليس لأحد أن يقيم الحدود إلّا للأئمّة و من ناب عنهم فيشمل العلماء العاملين في زمان الغيبة لأنّ لهم التصرّف في الأمور .

و اعلم أنّ الزنا حرام و هو من الكبائر و يدلّ عليه اُمور :

أحدها أنّ الله قرنه في الذكر بعد الشرك و قتل النفس في قوله : « و الّذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس الّتي حرّم الله إلّا بالحقّ ولا يزنون و من يفعل ذلك يلق أثاماً (١) » و قال تعالى : « ولا تقربوا الزنا إنّه كان فاحشة و ساء سبيلاً (٢) » .

و ثانيها أنّه تعالى أوجب المائة فيها بكمالها بخلاف حدّ القذف و شرب الخمر و شرع فيه الرجم و نهى المؤمنين عن الرأفة وأمر بشهود الطائفة للتشهير .

و ثالثها ما روى حذيفة عن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنّه قال : يا معشر الناس اتّقوا الزنى فإنّ فيه ستّ خصال : ثلاث في الدنيا و ثلاث في الآخرة ؛ أمّا الّتي في الدنيا : فيذهب البهاء ، و يورث الفقر ، و ينقص العمر ؛ و أمّا الّتي في الآخرة : فسخط الله وسوء الحساب و عذاب النار .

و عن عبد الله قال : قلت : يا رسول الله أيّ الذنب أعظم عند الله ؟ قال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : أن تجعل لله نداً و هو خلقك . قلت : ثمّ أيّ ؟ قال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : و أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك . قلت ثمّ أيّ ؟ قال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم و أن تزني بحليلة جارك فأنزل الله تصديقها

(١) الفرقان : ٦٨ .

(٢) الاسراء : ٣٧ .

« و الّذين لا يدعون مع الله ، الآية [1] » .

قوله تعالى : [ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله و اليوم الآخر] المعنى : إن كنتم تصدّقون بالله و تقرّون بالبعث و النشور فلا تأخذكم بهما رأفة و رحمة تمنعكم إقامة الحدّ عليهما وقيل : معناه : لاتأخذكم بهما رأفة تمنع من الجلد الشديد و تضربون بحيث لا يوجع بل أوجعوها ولا تخفّفوا في الضرب كما يخفّف في حدّ الشارب و قوله : « في دين الله » أي حكم الله و طاعته و هو كقوله « و ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك [2] » .

و الغرض من هذا البيان من باب التهييج و الغيرة لله تعالى و دينه ؛ و كفى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسوة في ذلك حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم : لو سرقت فاطمة بنت محمّد لقطعت يدها .

و هذا يدلّ على أنّ الاشتغال بأداء الواجبات من الإيمان بخلاف ما تقوله المرجئة ولا بدّ أن يكون المؤمن بطبعه راغباً إلى ما حكم الله به و لا يكون مائلاً بأن لايقام حدود الله فيكون حينئذ منكراً للدين فيخرج عن الإيمان . و في الحديث : يؤتى بوال نقص من الحدّ سوطاً فيقال له : لمَ فعلت ذاك ؟ فيقول : رحمة لعبادك فيقال له : أنت أرحم لهم منّي ؟ فيؤمر به إلى النار و يؤتى بمن زاد سوطاً فيقال له : لمَ فعلت ذاك ؟ فيقول : لينتهوا عن معاصيك فيقول : أنت أحكم به منّي فيؤمر به إلى النار .

قوله : [و ليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين] أي و ليحضر حال إقامة الحدّ عليهما جماعة من المؤمنين و هم ثلاثة فصاعداً ، وقيل : الطائفة رجلان فصاعداً ، و قيل : أقلّه رجل واحد و هو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام . و يدلّ على صحّة هذا القول قوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا [3] » و هذا الحكم يثبت للواحد كما يثبت للجمع و قيل : أقلّها أربعة لأنّ أقلّ مايثبت به الزنى أربعة . و قيل : ليس لهم عدد محصور بل هو موكول إلى رأي الإمام و المقصود حصول العبرة و انزجار الناس عن المعصية و رفع

---

(١) الفرقان : ٦٨ .

(٢) يوسف : ٧٦ .

(٣) الحجرات : ٩ .

التهمة عمّن يجلد .

قوله تعالى : [الزاني لا ينكح إلّا زانية أو مشركة و الزانية لا ينكحها إلّا زان أو مشرك وحرّم ذلك على المؤمنين] في الصافي القمّي : هو ردّ على من يستحلّ التمتّع بالزواني و التزويج بهنّ و هنّ المشهورات في الزنا لا يقدر الرجل على تحصينهنّ قال : و نزلت هذه الآية في نساء كنّ فاحشات مستعلنات بالزنا : سارة و خيثمة و الرباب كنّ يغنّين بهجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحرّم الله نكاحهنّ وجرت بعدهنّ في النساء أمثالهنّ .

و في الكافي عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال : نساء كنّ مشهورات بالزنا و رجال مشهورون بالزنا شهروا و عرفوا به و الناس اليوم بتلك المنزلة فمن اُقيم عليه حدّ الزنا أوشهربه لم ينبغ لأحد أن يناكحه حتّى يعرف منه التوبة .

و عنه عليه السلام إنّما ذلك في الجهر ثمّ قال : لو أنّ إنساناً زنى ثمّ تاب تزوّج حيث يشاء .

و عن الباقر عليه السلام هم رجال و نساء كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مشهورين بالزنا فنهى الله عن اُولئك الرجال و النساء و الناس اليوم على تلك المنزلة من شهر شيئاً من ذلك أو اُقيم عليه الحدّ فلا تزوّجوه حتّى تعرف توبته و عنه عليه السلام في حديث أنّها نزلت بالمدينة .

وبالجملة في المجمع: اختلف في تفسيره على وجوه ـ و ظاهر الآية خبر و لكنّ المراد النهي في الآية ـ :

الوجه الاول أنّ المراد بالنكاح العقد و نزلت الآية على سبب و هو أنّ رجلاً من المسلمين استأذن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في أن يتزوّج اُمّ مهزول و هي امرأة كانت تسافح و لها راية على بابها تعرف بها فنزلت الآية . عن عبد الله بن عبّاس و الزهريّ و جماعة و يؤيّده ما روي عن أبي جعفر و أبي عبد الله عليهما السلام أنّهما قالا : هم رجال ونساء كانوا على عهد رسول الله مشهورين بالزنى فنهى الله عن اُولئك الرجال و النساء والناس اليوم على تلك المنزلة فمن شهر بشيء من ذلك فلا تزوّجوه حتّى تعرف توبته .

وثانيها أنّ النكاح هنا الجماع والمعنى أنّهما اشتركا في الزنى أي الزانية مثل

الزاني فيكون المعنى نظير قوله « الخبيثات للخبيثين [١] » .

وثالثها أنّ هذا الحكم كان في كلّ زان و زانية ثمّ نسخ بقوله « و أنكحوا الأيامى منكم [٢] » الآية .

و رابعها أنّ المراد به العقد و ذلك الحكم ثابت فمن زنى بامرأة فإنّه لايجوزله أن يتزوّج بها .

قوله : [وحرّم ذلك على المؤمنين] أي حرّم نكاح الزانيات أو حرّم الزنى على المؤمنين فلا يتزوّج بهنّ أولا يطأهنّ إلّا زان أو مشرك و إنّما قرن سبحانه بين الزاني والمشرك تعظيماً لأمر الزنى و تفخيماً لحرمته ولايجوز أن يكون هذه الآية خبراً لأنّا نجد الزاني يتزوّج غير الزانية .

قال الرازيّ : وإنّما قال سبحانه: « حرّم ذلك على المؤمنين » من وجهين :

أحدهما أنّ نكاح المؤمن الممدوح عندالله الزانية و رغبته فيها و انخراطه بذلك في سلك الفسقة المتّسمين بالزنا محرّم عليه لما فيه من التشبّه بالفسّاق و حضور مواضع التهمة و التسبّب بسوء المقالة في حقّه و الغيبة ومجالسة الخاطئين كم فيها من التعرّض لاقتراف الآثام فكيف بمزاوجة الزواني والفجّار .

الثاني و هو أنّ صرف الرغبة بالكلّيّة إلى الزواني و ترك الرغبة في الصالحات محرّم على المؤمنين لأنّ قوله « الزاني لا ينكح إلّا زانية » معناه أنّ الزاني لا يرغب إلّا في الزانية فهذا الحصر محرّم على المؤمنين و لا يلزم من حرمة هذا الحصر حرمة التزوّج بالزانية .

ثمّ ذكر الرازيّ وجهاً آخر و هو أنّ الألف و اللام في قوله « الزاني » و في قوله « حرّم ذلك على المؤمنين» و إن كان للعموم ظاهراً لكنّه ههنا مخصوص بالأقوام الّذين نزلت هذه الآية فيهم .

قال مجاهد و عطا بن رباح و قتادة : قدم المهاجرون المدينة و فيهم فقراء و ليس

---

(١) السورة : ٢٦ .
(٢) « : ٣٢ .

لهم أموال و لا عشائر و بالمدينة نساءٌ بغايا يكرين أنفسهنّ و هنّ يومئذ أخصب أهل المدينة و لكلّ واحدة منهنّ علامة على بابها كعلامة البيطار لتعرف أنّها زانية و كان لا يدخل عليها إلّا زان أو مشرك فرغب في كسبهنّ ناس من فقراء المسلمين وقالوا: نتزوّج بهنّ إلى أن يغنينا الله عنهنّ فاستأذنوا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت هذه الآية . و تقدير الآية أولئك الزواني لا ينكحون إلّا تلك الزانيات و تلك الزانيات لا ينكحن إلّا أولئك الزواني و حرّم نكاحهنّ بأعيانهنّ على المؤمنين .

و قيل : إنّ قوله : « الزاني لا ينكح إلّا زانية » و إن كان في الظاهر خبراً لكنّ المراد النهي و المعنى أنّ كلّ من كان زانياً فلا ينبغي أن ينكح إلّا زانية و حرّم ذلك على المؤمنين و هكذا كان الحكم في ابتداء الإسلام ثمّ نسخ بعموم قوله : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء [1] » و قوله : « و أنكحوا الأيامى [2] » و احتجّ الّذين يدّعون هذا النسخ عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه سئل عن ذلك فقال : أوّله سفاح وآخره نكاح والحرام لا يحرّم الحلال .

و إنّما قدّم الزانية على الزاني في الذكر في الآية الأولى و ههنا بالعكس لأنّ الآية الأولى بيان العقوبة على الجناية و المرأة هي المادّة في الزنا و أمّا الآية الثانية بيان لذكر النكاح و الرجل أصل فيه .

الحكم الثالث القذف :

قوله تعالى : والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة و لاتقبلوا لهم شهادة أبداً و اولئك هم الفاسقون(٤) الاالذين تابوامن بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم(٥) .

لمّا تقدّم ذكر حدّ الزنى عقّبه بذكر حدّ القاذف بالزنى و لو أنّ ظاهر الآية لا يدلّ أيّ شيء الّذي رموا به و ذكر الرامي لا يدلّ على الزنى إذ قد يرميها بالسرقة أو بشرب الخمر أو بالكفر و قد أجمع العلماء على أنّ المراد الرمي بالزنا نعم في الآية

(١) النساء : ٣ .
(٢) النور : ٣٢ .

بيان يدلّ عليه : أحدها تقدّم ذكر الزنا و كذلك ذكر المحصنات و هنّ العفائف فيدلّ ذلك على أنّ المراد بالرمي رميهنّ بضدّ العفاف ، ثمّ قوله : « ثمّ لم يأتوا بأربعة شهداء» يعنى على صحّة ما رموهنّ به ، و معلوم أنّ هذا العدد من الشهود غير مشروط إلّا في الزنا على أنّ انعقد الاجماع بأنّه لا يجب الجلد بالرمي بغير الزنا فوجب أن يكون المراد هو الرمي بالزنى . و بالجملة فالآية تتعلّق بالرمي والرامي والمرميّ .

وألفاظ القذف تنقسم إلى صريح و كناية و تعريض أمّا القسم الأوّل وهو الصريح مثل أن يقول : يا زانية أو زنيت فلا شبهة بأنّه القذف و يردّ على القاذف أحكامه . و أمّا الكناية فلا يكون قذفاً إلّا أن أراد به القذف . و أمّا التعريض بالقذف محتمل للقذف و لغيره فلا يجب الحدّ عليه لأنّ الأصل براءة الذمّة فلا يرجع عن الأصل بالشكّ و الاحتمال و لقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : ادرؤوا الحدود بالشبهات .

و الحاصل: الّذين ينسبون العفائف من النساء بالزنى و حذف الدلالة الكلام عليه [ثمّ لم يأتوا بأربعة شهداء] على صحّة مانسبوا إليهنّ يشهدون مع كونهم عدول أنّهم رأوهنّ يفعلن ذلك الأمر [فاجلدوهم] أي فاجلدوا الّذين يرمونهنّ بالزنا [ثمانين جلدة و لاتقبلوا لهم شهادة أبداً و اُولئك هم الفاسقون] فنهى سبحانه عن قبول شهادة القاذف على التأبيد وحكم عليهم بالفسق .

ثمّ استثنى عن ذلك فقال : [إلّا الّذين تابوا من بعد ذلك و أصلحوا] القمّيّ عن الصادق عليه السلام : القاذف يجلد ثمانين جلدة و لا تقبل له شهادة أبداً إلّا بعد التوبة أو يكذّب نفسه و إن شهد ثلاثة وأبى واحد يجلد الثلاثة و لايقبل شهادتهم حتّى يقول أربعة : رأينا مثل الميل في المكحلة و من شهد على نفسه أنّه زنى لم تقبل شهادته حتّى يعيدها أربع مرّات .

و في الكافي و التهذيب أنّه عليه السلام سئل كيف تعرف توبته فقال : يكذّب نفسه على رؤوس الخلائق حين يضرب و يستغفر ربّه فإذا فعل ذلك فقد ظهرت توبته . و عنه عليه السلام أنّه سئل عن الرجل يقذف الرجل فجلد حدّاً ثمّ يتوب و لايعلم منه إلّا خيراً أتجوز شهادته ؟ قال : نعم ، فما يقولون عند كم ؟ قيل : يقولون توبته فيما بين الله و بينه

و لا يقبل شهادته أبداً . فقال : بئس ما قالوا : كان أبي يقول : إذا تاب و لم يعلم منه إلّا خيراً جازت شهادته .

و بالجملة منشأ الاختلاف في الاستثناء بأنّ هذا الاستثناء إلى ماذا يرجع قيل : إنّه يرجع إلى الفسق خاصّة دون قوله « و لا تقبلوا لهم شهادة أبداً » فيزول عنه اسم الفسق بالتوبة و لا يقبل شهادته إذا تاب بعد إقامة الحدّ عليه عن جماعة كالحسن و قتادة و شريح و إبراهيم و أبوحنيفة و أصحابه .

و القول الآخر أنّ الاستثناء يرجع إلى الأمرين فإذا تاب قبلت شهادته حدّ أولم يحدّ عن جماعة كابن عبّاس و الوالبيّ و مجاهد و الزهريّ و مسروق و عطا و طاوس و سعيد بن جبير و الشعبيّ و هو اختيار الشافعيّ و أصحابه و كذلك قال أبو جعفر و أبو عبدالله عليهما السلام .

و قال الزجّاج : ليس القاذف بأشدّ جرماً من الكافر والكافر إذا أسلم قبلت شهادته فالقاذف أيضاً حقّه إذا تاب أن تقبل شهادته . و يعضد هذا القول أن المتكلّم بالفاحشة لا ينبغي أن يكون أعظم جرماً من مرتكبها و لا خلاف في العاهر أنّه إذا تاب قبلت شهادته .

و إذا كان القاذف عبداً أو أمة فعند فقهاء العامّة أكثرهم الحدّ أربعون و عند أصحابنا أنّ الحدّ ثمانون في الحرّ والعبد سواء . و ظاهر الآية يقتضي ذلك و به قال عمر بن عبدالعزيز والقاسم بن عبدالرحمن .

مسألة لو قذفها القاذف مراراً فنظر فإن كان القاذف أراد بالتكرار زنية واحدة بأن قال : فلانة زنت بعمرو ، و قاله مراراً لا يجب إلّا حدّ واحد ، و إن قذفها بزنيات مختلفة بأن قال : زنت بزيد ثمّ قال : زنت بعمرو فهل يتعدّد الحدّ ؟ ففيه عند فقهاء العامّة اختلاف في التعدّد و المرّة .

قوله تعالى : و الذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين (٦) و الخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين (٧) و يدرؤ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات

بالله انه لمن الكاذبين (٨) والخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين (٩) ولو لافضل الله عليكم ورحمته وان الله تواب حكيم (١٠).

لمّا تقدّم حكم القذف للأجنبيّات عقّبه بحكم القذف للزوجات.

النزول: عن ابن عبّاس لمّا نزل قوله تعالى: «و الّذين يرمون المحصنات ثمّ لم يأتوا بأربعة شهداء» قال عاصم بن عديّ: يا رسول الله إن رأى رجل متّامع امرأته رجلاً فأخبر بما رأى جلد ثمانين و إن التمس أربعة شهداء كان الرجل قد قضى حاجته ثمّ مضى قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: كذا نزلت الآية يا عاصم فخرج سامعاً مطيعاً فلم يصل إلى منزله حتّى استقبله هلال بن اُميّة يسترجع فقال: ماوراءك قال: شرّ، وجدت شريك بن سمحاء على بطن امرأتي خولة فرجع إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم و أخبر النبيّ هلال بالّذي كان فبعث النبيّ إليها فقال: ما يقول زوجك فقالت: يا رسول الله إنّ شريك كان يأتينا فينزل بنا و يتعلّم الشيء من القرآن فربّما تركه زوجي و خرج فلا أدري أدركته الغيرة أم بخل عليّ بالطعام فأنزل الله هذه الآية بقوله تعالى: «و الّذين يرمون» الآية. فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: ابشر يا هلال فإنّ الله قد جعل فرجاً فقال هلال: قد كنت أرجو ذاك من الله فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أرسلوا إليها فجاءت فلاعن بينهما فلمّا انقضى اللعان فرّق بينهما و قضى أنّ الولد لها و لايدعى لأب ولايرمى ولدها ثمّ بعدذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: إن جاءت به كذا و كذا فهو لزوجها و إن جاءت به كذا كذا فهو للّذي قيل فيه.

و معنى الآية: الّذين ينسبون الزنى إلى زوجاتهم و لم يكن لهم شهداء يشهدون له على صحّة قولهم إلّا أنفسهم فشهادة أحدهم الّتي تدرء حدّ القاذف أربع شهادات بالله إنّه لمن الصادقين فيما رماها به من الزنى [والخامسة] أي الشهادة الخامسة [أنّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين] فيما رماها به من الزنى أي إنّ الرجل يقول أربع مرّات مرّة بعد اُخرى: اُشهد بالله إنّي لمن الصادقين فيما ذكرت عن هذه المرأة من الفجور فإنّ هذا حكم خصّ الله به الأزواج في قذف نسائهم فيقوم الشهادات الأربع مقام الشهود الأربعة في دفع حدّ القذف عنهم ثمّ يقول في المرّة الخامسة لعنة الله عليّ إن كنت من الكاذبين فيما رميتها به من الزنا.

[و يدرء عنها العذاب] أي و يدفع عن المرأة حدّ الزنى و هو الرجم أن تقول المرأة أربع مرّات مرّة بعد اُخرى : اُشهد بالله إنّه لمن الكاذبين فيما قذفني به من الزنى و الخامسة [أنّ غضب الله عليها] أي و تقول في الخامسة : إنّ غضب الله عليّ [إن كان من الصادقين] فيما قذفني به من الزنى ثمّ يفرّق الحاكم بينهما ولا تحلّ له أبداً وكان عليها العدّة من وقت لعانها .

في الكافي عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال : هو القاذف الّذي يقذف امرأته فإذا قذفها ثمّ أقرّ أنّه كذب عليها جلد الحدّ وردّت إليه امرأته و إن أبى إلّا أن يمضي فليشهد عليها أربعة شهادات بالله إنّه لمن الصادقين و الخامسة يلعن فيها نفسه إن كان من الكاذبين وإن أرادت أن تدرأ عن نفسها العذاب و العذاب هو الرجم شهدت أربع شهادات بالله إنّه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين فإن لم تفعل رجمت و إن فعلت درأت عن نفسها الحدّ ثمّ لا تحلّ له إلى يوم القيامة .

و بالجملة لمّا نزلت آية اللعان بعد غزوة تبوك و جاء عويمر بن ساعدة و قال : يا رسول الله امرأتي زنى بها شريك بن سحماء كما ذكرنا سابقاً فأحضر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم امرأته و كانت في شرف من قومها فجاء معها جماعة فلمّا دخلت المسجد قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لعويمر : تقدّم إلى المنبر و التعنا فالتعنا حسبما شرحناه سابقاً .

ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لزوجها اذهب فلا تحلّ لك أبداً قال : يا رسول الله فمالي الّذي أعطيتها ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم : إن كنت كاذباً فهو أبعد لك منه و إن كنت صادقاً فهو لها بما استحللت من فرجها ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن جاءت بالولد أحمش الساقين جعد قطط أنفس العينين فهو للأمر السيّىء و إن جاءت به أشهل أصهب فهو لأبيه يقال : إنّها جاءت به على الأمر السيّىء .

و بالجملة فهي لا تحلّ لزوجها أبداً و إن جاءت بولد لايرثه أبوه وميراثه لاُمّه و إن لم تكن له اُمّ فميراثه لأخواله .

و عن الصادق عليه السلام في رجل أوقفه الإمام للعان فشهد شهادتين ثمّ نكل وأكذب نفسه قبل أن يفرغ من اللعان قال : يجلد حدّ القاذف ولا يفرّق بينه و بين امرأته وإذا

قذفها غيره أب أو أخ أو ولد أو قريب منه جلد الحدّ أو يقيم البيّنة على ما قال .

قوله : [و لو لافضل الله عليكم و رحمته و أنّ الله توّاب حكيم] جواب لو محذوف و تقديره و لو لم يكن فضل عليكم بسبب النهي عن الزنا و الفواحش و إقامة الحدود لتهالك الناس و لفسد النسل و انقطع الأنساب أو المعنى : و لولا إفضال الله و إنعامه عليكم و أن الله عوّاد على من يرجع عن المعاصي بالرحمة حكيم فيما فرضه من الحدود لنال الكاذب منهما أي من المتلاعنين عذاب عظيم و لعاجلكم بالعقوبة و لفضحكم بما تركبون من الفواحش .

قوله تعالى : ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم (١١) لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون و المؤمنات بأنفسهم خيراً و قالوا هذا افك مبين (١٢) لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فاذ لم ياتوا بالشهداء فاولئك عندالله هم الكاذبون (١٣) و لولا فضل الله عليكم و رحمته لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم (١٤) اذ تلقونه بألسنتكم و تقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم و تحسبونه هينا و هو عندالله عظيم (١٥) ولولا اذسمعتموه قلتم مايكون لنا ان نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم (١٦) .

النزول : في براءة ماقيل في زوجة النبيّ ﷺ فعند أهل الجماعة أنّها عائشة وعند الخاصّة أنّها ماريةالقبطيّة روى الزهريّ عن عروة بن الزبير و سعيد بن المسيّب و علقمة بن أبي وقّاص و عبيدالله بن عبدالله بن عقبة بن مسعود كلّهم رووا عن عائشةقالت : كان رسول الله ﷺ إذا أرادسفراً أقرع بين نسائه بأيّتهنّ خرج اسمها خرج بها معه قالت : أقرع بيننا في غزوة قبل غزوة بني المصطلق أو غزوة بني المصطلق من بني خزاعة فخرج فيها سهمي و ذلك بعد ما أُنزل الحجاب فخرجت مع رسول الله حتّى فرغ من غزوة و قفل قالت : و دنونا إلى المدينة فقمت حين أذّنوا بالرحيل فمضيت حتّى جاوزت الجيش فلمّا قضيت شأني و كنّا نخرج ليلاً وذلك قبل أن يتّخذ الكنيف وأمرنا أمر العرب الأوّل

في التنزّه ، و كنّا نتأذّى بالكنف أن نتّخذها عند بيوتنا أقبلت إلى الرجل فلمست صدري فإذاً عقد من جذع قد انقطع فرجعت و التمست عقدي فحبسني ابتغاؤه و أقبل الرهط الّذين كانوا يرحلونني فحملوا هودجي على بعيري الّذي كنت أركب ظنّاً منهم أنّي فيه لحداثة سنّي و خفّتي فذهبوا بالبعير فلمّا رجعت لم أجد في المكان أحداًفجلست و قلت : لعلّهم يعودون في طلبي فنمت وقدكان صفوان بن المعطّل يمكث في العسكر يتّبع أمتعة العسكر فيحمله إلى المنزل الآخر لئلاّ يذهب منهم شيء فلمّا رآني عرفني و قال : ما خلّفك عن الناس فأخبرته الخبر فنزل و تنحّى حتّى ركبت ثمّ قاد البعير و افتقدني الناس حين نزلوا و ماج الناس في ذكري فبينا الناس كذلك إذ هجمت عليهم و خاضوا في حديثي و قدم رسول الله المدينة و لحقني وجع و لم أرمنه ما عهدته من اللطف الّذي كنت أعرف منه حين أشتكي إنّما يدخل رسول الله ثمّ يقول : كيف تيكم ، فذاك الّذي يريبني ولاأشعر بعدبماجرى حتّى نقهت فخرجت في بعض الليالي مع اُمّ مسيطح لمهمّ لنا ثمّ أقبلت أنا و اُمّ مسيطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننافعثرت اُمّ مسيطح في مرطها فقالت : تعس مسيطح ، فأنكرت ذلك وقلت : أتسبّين رجلاً شهدبدراً ؟ فقالت : ومابلغك الخبر ؟ فقلت : و ما هو ؟ فقالت : أشهدأنّك من المؤمنات الغافلات ثمّ أخبرتني بقول أهل الإفك ومنهم عبدالله بن اُبيّ بن سلول و هو الّذي تولّى كبره و مسيطح بن أثاثه و حسّان بن ثابت و حمنة بنت جحش .

قالت عائشة : فازددت مرضاً على مرضي فرجعت أبكي ثمّ دخل عليّ رسول الله ﷺ و قال : كيف تيكم ؟ فقلت : ائذن لي أن آتي أبويّ فأذن لي فجئت أبويّ وقلت لاُمّي : يا اُمّة ماذا يتحدّث الناس ؟ قالت : يا بنيّة هوني عليك فوالله لقلّما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبّها ولها ضرائر إلاّ أكثرن القول عليها ثمّ قالت : ألم تكوني علمت ما قيل حتّى الآن ؟ فأقبلت أبكي تلك الليلة ثمّ أصبحت فدخل عليّ أبي و أنا أبكي فقال لاُمّي : ما يبكيها ؟ لم تكن علمت ما قيل فيها حتّى الآن فأقبل يبكي . ثمّ قال : اُسكتي يا بنيّة .

و دعا رسول الله ﷺ عليّاً و اُسامة بن زيد و استشارهما في فراق أهله فقال

اُسامة : يا رسول الله هم أهلك ولانعلم إلّا خيراً و قال عليّ لم يضيّق الله عليك و النساء سواها كثيرة و إن تسأل الجارية بريرة تصدقك . فدعا رسول الله ﷺ بريرة و سألها عن أمري قالت بريرة : يا رسول الله و الّذي بعثك بالحقّ نبيّاً ما رأيت عليها أمراً قطّ أكثرمن أنّها جارية حديثة السنّ تنام عن عجين أهلها حتّى تأتي الداجس فتأكله .

قالت : فقام النبيّ ﷺ خطيباً على المنبر فقال : يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي ؛ و هو يعني عبدالله بن اُبيّ فوالله ما علمت من أهلي إلّا خيراً و لقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلّا خيراً وماكان يدخل على أهلي إلّامعي فقام سعد بن معاذ فقال : اُعذرك يا رسول الله منه إن كان من الأوس ضربت عنقه و إن كان من إخواننا من الخزرج فما أمرتنا فعلناه فقام سعد بن عبادة ـ و هو سيّد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ولكن أخذته الحميّة ـ فقال لسعد بن معاذ : كذبت والله ، لاتقدر على قتله فقام اُسيد بن حضير و هو ابن عمّ سعد بن معاذ و قال : كذبت لعمر الله لنقتلنّه و إنّك لمنافق تجادل عن المنافقين فثار الحيّان الأوس و الخزرج حتّى همّوا أن يقتتلوا ، ورسول الله على المنبر فلم يزل يخفضهم حتّى سكنوا .

قالت عائشة : ومكثت يومي ذلك لاترقأ لي دمع و أبواي يظنّان أنّ البكاء فالق كبدي فبيناهما جالسان عندي و أنا أبكي إذ دخل علينا رسول الله فسلّم ثمّ جلس قالت : ولم يجلس عندي منذقيل فيّ ما قيل ، ولقد لبث شهراً لايوحي الله إليه . ثمّ قال : أمّا بعد يا عائشة فإنّه بلغني عنك كذا و كذا فإن كنت بريئة فيبرّئك الله تعالى و إن كنت ألممت بذنب فاستغفري و توبي إليه فإنّ العبد إذا تاب تاب الله عليه . قالت عائشة : فلمّا قضى رسول الله مقالته فاض دمعي ثمّ قلت لأبي : أجب عنّي رسول الله فقال : والله ما أدري ما أقول فقلت لاُمّي : أجيبي عنّي رسول الله ، فقالت : والله لاأدري ما أقول ، فقلت ـ وأنا جارية حديثة السنّ ما أقرأ القرآن كثيراً ـ : إنّي و الله لقدعرفت أنّكم قد سمعتم بهذا حتّى استقرّ في نفوسكم و صدّقتم به فإن قلت لكم : إنّي بريئة لا تصدّقوني ، و إن اعترفت لكم بأمر و الله يعلم أنّي بريئة . و ما كنت أظنّ أن ينزل في شأني وحي يتلى و لكنّي كنت أرجو أن يري رسول الله رؤياً يبرّئني الله بها فأنزل الله تعالى على نبيّه

و أخذه ما كان من برحاء الوحي حتّى أنّه لينحدر عنه مثل الجمان من العرق في اليوم الثاني من ثقل القول الّذي اُنزل عليه فلمّا سري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : أبشري يا عائشة أمّا الله فقد برّأك فقالت لي اُمّي : قومي إليه ، فقلت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلّا الله و هو الّذي أنزل براءتي فأنزل الله الآية [إنّ الّذين جاءوا بالإفك] قالت : فلمّا نزل براءتي قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المنبر فذكر ذلك وتلا الآية فلمّا نزل ضرب عبدالله ابن اُبيّ ومسيطحاً وحمنة وحسّان بن ثابت وزيد بن رفاعة الحدّ .

قوله : [عصبة منكم] أي أتى بهذا الإفك جماعة منكم و إنّما سمّى الكذب والبهتان إفكاً لأنّه مقلوب الصدق .

قوله : [لا تحسبوه شرّاً لكم] خوطب به رسول الله و صفوان و المنتسبين بهم هذا الإفك و الضمير راجع إلى الكذب [بل هو خير لكم] لاكتسابكم به الثواب العظيم وظهور ما نزل من القرآن في براءة ساحتكم وتشديد الوعيد فيمن تكلّم بهذا الأمر والثناء على من ظنّ بكم خيراً .

وقوله : [لكلّ امرىء منهم ما اكتسب من الإثم] أي لكلّ من هؤلاء العصبة الّذين خاضوا في هذا البهتان من المعصية بقدر ما خاضوا و تكلّموا .

[والّذي تولّى كبره] أي معظمه و قرىء بضمّ الكاف لغة في هذا المعنى أي العمدة في هذا الكذب و هو الّذي سبق في هذا الكلام و هو عبدالله بن اُبيّ فإنّه بدأبه وأذاعه بين الناس عداوة لرسول الله [له عذاب عظيم] أي في الآخرة أو في الدنيا فإنّهم جلدوا وردّت شهادتهم ، و تنكير العذاب لعظمه .

هذا إذا كانت الآية نازلة في حقّ عائشة كمارواها العامّة وأمّا الخاصّة فإنّهم رووا أنّها نزلت في مارية القبطيّة ، روي عن الباقر عليه السلام قال : لمّا هلك إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حزن عليه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حزناً شديداً فقالت لهعائشة : ما الّذي يحزنك عليه فما هو إلّا ابن جريح فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام و أمره بقتله فذهب عليّ عليه السلام و معه السيف و كان جريح القبطيّ في حايط فضرب على باب البستان فأقبل جريح ليفتح الباب فلمّا رأى علياً عرف في وجهه الغضب فأدبر راجعاً ولم يفتح باب البستان فوثب

عليّ عليه السلام على الحائط و نزل إلى البستان و أتبعه وولّى جريح مدبراً فلما خشي أن يرهقه صعد في نخلة و صعد عليّ عليه السلام في أثره فلمّا دنا منه رمى بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته فإذاً ليس له ماللرجال ولاله ماللنساء فانصرف عليّ عليه السلام إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال له : يارسول الله إذا بعثتني في الأمر أكون فيه كالمسمار المحمى في الوبر أمضي على ذلك أم أتثبّت ؟ قال : لابل تثبّت قال : و الّذي بعثك بالحق نبيّاً ما له ما للرجال و ماله ما للنساء فقال : الحمدلله الّذي صرف عنّا السوء أهل البيت .

و هذه الرواية أوردها القمّي بعبارة اُخرى في سورة الحجرات عند قوله تعالى «إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا » أي فتثبّتوا وزاد : فاُتي به رسول الله فقال له : ما شأنك يا جريح فقال : يا رسول الله إنّ القبط يجبّون حشمهم و من يدخل إلى أهاليهم والقبطيّون لا يأنسون إلّا بالقبطيّين فبعثني أبوها لأدخل عليها و أخدمها و اُونسها .

قال الفيض : إن صحّ هذا الخبر فلعلّه صلى الله عليه وآله إنّما بعث عليّاً عليه السلام إلى جريح ليظهر الحقّ و يصرف السوء و كان قد علم أنّه لايقتله ولم يكن يأمر بقتله بمجرّد قول عائشة و يدلّ على هذا ما رواه القمّي في سورة الحجرات عن الصادق عليه السلام أنّه سئل كان رسول الله صلى الله عليه وآله أمر بقتل القبطيّ و قد علم أنّها قد كذبت عليه أو لم يعلم و إنّما دفع الله القتل عن القبطيّ بتثبّت عليّ عليه السلام فقال : بلى قد كان والله علم ولو كانت عزيمة من رسول الله القتل ما رجع عليّ عليه السلام حتّى يقتله ولكن إنّما فعل رسول الله لترجع عن ذنبها فما رجعت ولااشتدّ عليها قتل رجل مسلم .

و لمّا ذكر حال القاذفين والمقذوفين عقّبها بمايليق من الآداب والتربية والزواجر عن مثل هذا الأمر بقوله : [لولا إذ سمعتوه] أي هلاّ و معنى « لولا » إذا يليه الفعل هلاّ كقوله «لولا أخّرتني (١)» «فلو لاكانت قرية آمنت(٢)» ولكن إذاوليه الاسم فليس كذلك كقوله : « لولا أنتم لكنّا مؤمنين (٣) » و قوله : « و لولا فضل الله عليكم و رحمته (٤) »

(١) المنافقون : ١٠ .
(٢) يونس : ٩٨ .
(٣) سبأ : ٣١ .
(٤) النساء : ٨٣ . النور : ١٩ .

و معناه : كان الواجب على المؤمنين إذا سمعوا قول القاذف أن يكذّبوه و لايسرعوا إلى التهمة و يشتغلوا بحسن الظنّ فيمن عرفوا طهارته و لم َ لم يظنّوا بهم خيراً لأ نّهم كأنفسهم و المؤمنون كلّهم كنفس واحدة فيما يجري عليهم من الاُمور فإذا جرى على أحدهم محنة فكأنّما جرت على جماعتهم و المؤمن يكون هذا شأنه و قيل : هذا الخطاب لمن أشاعه .

و حاصل المعنى : أنّه هلاّ سمعتموه أو أفشيتموه ما ظننتم لما تظنّونه لأ نفسكم و ذلك لأ نّها اُمّ المؤمنين ومن خلا باُمّه فإنّه لايطمع فيها ولاتطمع فيه و هلاّ قلتم هذا الحديث كذب ظاهر و إفك مبين ؟

قوله : [لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء]أي هلاّ جاءوا على ما قالوه بيّنة و هي أربعة شهداء يشهدون بصدق ما ادّعوه [فإذ لم يأتوا بالشهداء] أي فحين لم يأتوا بالشهداء [فاُولئك عندالله هم الكاذبون] أي في حكمه هم الكاذبون .

قوله : [و لو لافضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة] أي ولو لم يكن فضله عليكم بأن أمهلكم لتتوبوا و لم يعاجلكم بالعقوبة [لمسّكم فيما أفضتم عذاب عظيم] لأ صابكم في قولكم هذا وخوضكم في هذا الحديث عذاب لا انقطاع له .

ثمّ ذكر الوقت الّذي كان يصيبهم العذاب لولا الفضل فقال : [إذتلقّونه بألسنتكم] و يرويه بعضكم عن بعض و تقبلونه من غير حجّة و يتلقّى بعضكم هذا الإفك عن بعض [و تقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم و تحسبونه هيّناً و هو عندالله عظيم] و تلقّي القول معناه : أنّ الرجل كان يلقى الرجل فيقول له : ما وراءك ؟ فيحدّثه بحديث الإفك و القذف حتّى شاع و اشتهر فلم يبق ناد ولابيت إلّا وشاع الخبر و ذلك من العظائم ثمّ إنّ النّاس يتكلّمون بمالا علم لهم و ذلك يدلّ على أنّه لايجوز الإخبار إلا مع العلم و أمّا الّذي لا يعلم صدقه فالإخبار عنه كالإخبار عمّا علم كذبه في الحرمة ونظيره في الآية قوله : « ولاتقف ما ليس لك به علم [(١)] » .

فإن قيل : ما معنى قوله : « بأفواهكم » و القول لا يكون إلّا بالفم ؟ فمعناه أنّ الشيء المعلوم يكون علمه في القلب ثمّ يترجم عنه باللسان والإفك ليس إلّا قولاً يجري

(١) الاسراء : ٣٦ .

على اللسان و نبّه سبحانه على أنّ عظم المعصية ليس بظنّ فاعلها بل بوضع الشارع .

ثمّ زاد سبحانه في باب الآداب فقال : [ولو لاإذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلّم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم] أي هلاّ إذسمعتموه قلتم لايحلّ لنا أن نخوض في هذا الحديث و ما ينبغي لنا أن نتكلّم بهذا سبحانك ياربّنا هذا الّذي قالوه بهتان و كذب وزورعظيم عقابه . و سبحانك هنا معناه التعجّب كقول الأعشى : « سبحان من علقمة الفاخر » أو المعنى ننزّهك يا ربّ من أن نعصيك بهذه المعصية .

ثمّ وعظ تعالى شأنه الّذين خاضوا في الإفك فقال :

يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً ان كنتم مؤمنين (١٧) و يبين الله لكم الايات والله عليم حكيم (١٨) ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب اليم فى الدنيا والاخرة والله يعلم وانتم لا تعلمون (١٩) ولو لافضل الله عليكم ورحمته وان الله رءوف رحيم (٢٠) .

أي ينهاكم الله أويحرّم [الله عليكم أن تعودوا] إلى مثل هذا الإفك طول أعماركم إن كنتم مصدّقين بالله و نبيّه و قابلين موعظة الله [و يبيّن الله لكم الآيات] في الأمر والنهي والأحكام [والله عليم] بمايقع منكم من الردّ والقبول [حكيم] فيما يفعله لايضع الشيء إلّا في موضعه .

ثمّ هدّد القاذفين بقوله تعالى : [إنّ الّذين يحبّون أن تشيع الفاحشة] أي يفشوا و يظهروا الزنا و القبائح [في الّذين آمنوا] بأن ينسبوها إليهم و يقذفوهم بها [لهم عذاب أليم في الدنيا] باقامة الحدّ عليهم [و الآخرة] و هو عذاب النار [و الله يعلم و أنتم لا تعلمون] أي والله يعلم ما فيه من سخط الله وما يستحقّ عليه العقوبة و أنتم لاتعلمون .

و اعلم أنّ قوله تعالى « إنّ الّذين يحبّون » و لو أنّها نزلت في حقّ من قذف عائشة أو مارية و عبدالله بن اُبيّ و أصحابه إلا أنّ العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب فوجب إجرؤها على ظاهرها في العموم و ممّا يدلّ على عدم تخصيصها بالقاذفين قوله : « في الّذين آمنوا » فانّه صيغة جمع ولوأراد عائشة وحدها لم يجز ذلك . قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: إنّي لأعرف قوماً يضربون صدورهم ضرباً يسمعه أهل النار و هم الهمّازون الّذين يلتمسون

عورات المسلمين ويهتكون ستورهم ويشيعون فيهم من الفواحش ما ليس فيهم و عنه صلى الله عليه وآله وسلم لايستر عبد مؤمن عورة عبد مؤمن إلا ستره الله يوم القيامة وعنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر مانهى الله عنه . و عن أنس قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « لايؤمن العبد حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه من الخير » .

و قالت المعتزلة : قوله « إن الذين يحبون » الآية . بالغ الله سبحانه فيها بذم من أشاع الفاحشة و من أحب إشاعتها فلوكان تعالى هو الخالق لأفعال العباد لما كان مشيع الفاحشة إلا هو فكان يجب أن لايستحق الذم على إشاعة الفاحشة إلا هو لأنه هو الذي فعل تلك الإشاعة و غيره لم يفعل شيئاً .

وبالجملة ثم ذكر سبحانه منته عليهم فقال : [ولو لافضل الله عليكم ورحمته و أن الله رءوف رحيم] و جواب «لولا» محذوف لدلالة الكلام عليه أي لعاجلكم بالعقوبة أو « ما زكى أحد منكم » جوابه .

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان و من يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء و المنكر ولو لا فضل الله و رحمته ما زكى منكم من أحد أبداً و لكن الله يزكى من يشاء و الله سميع عليم (٢١) ولا يأتل اولوا الفضل منكم و السعة أن يؤتوا اولى القربى و المساكين و المهاجرين فى سبيل الله و ليعفوا و ليصفحوا الا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم (٢٢) ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا و الاخرة ولهم عذاب عظيم (٢٣) يوم تشهد عليهم السنتهم و أيديهم و أرجلهم بما كانوا يعملون (٢٤) يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق و يعلمون أن الله هو الحق المبين (٢٥) .

قرىء « خطوات » بضم الطاء وسكونها ، جمع خطوة و هو من خطا الرجل يخطو خطواً فإذا أردت الواحدة قلت خطوة مفتوحة الأول .

المعنى : [لا تتبعوا] آثار [الشيطان] ولا تسلكوا مسالكه في الإصغاء إلى البهتان و الإفك و التلقي له و إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا والله تعالى و إن خص بالذكر المؤمنين بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » إلا أنه نهي لكل المكلفين و ممنوعين من ذلك

و إنّما خصّهم بالذكر لأنّهم يمتنعون عن مثل هذه المعاصي .

ثمّ بيّن سبب المنع من اتّباعه فقال : [و من يتّبع خطوات الشيطان فإنّه يأمر بالفحشاء و المنكر ولولافضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً] و الزكيّ من بلغ في طاعة الله مبلغ الرضا ومنه يقال : زكا الزرع أي بلغ فإذا بلغ المؤمن من الصلاح في الدين إلى حال يرضاه الله سمّي زكيّاً أي و لولافضل الله عليكم بأن لطف لكم و أمركم بما تصيرون به أزكياء ما صار منكم أحد زكيّاً و ما طهر منكم أحد من وسوسة الشيطان و ما صلح .

[و لكنّ الله يزكّي من يشآء] و يطهّر بلطفه و يعلم أنّه مستحقّ للّطف بفعله يفعل اللّطف به ليزكو عنده [والله سميع عليم] إنّه يسمع أصواتهم و أقوالهم و يعلم أفعالهم و أحوالهم .

و في الآية دلالة على أنّ الله يريد من خلقه خلاف ما يريده الشيطان لأنّه إذا ذمّ الفحشآء و ذمّ الأمر بالفحشاء فمريد الفحشاء أولى بالذمّ تقدّس و تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً .

[ولا يأتل اُولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا اُولي القربى و المساكين] ذكر في مادّة يأتل قولين : فبعض جعلوا هذه الكلمة من ائتلى من مادّة الالية و الحلف افتقل و قالوا : إنّ أصله يأتلي ذهبت اليآء للجزم و قال بعض : من مادّة « الوت » ولم آل في أمري جهداً أي ما قصرت ويأل و يأتل واحد معناه وقالوا : إذاكان المراد معنى الحلف فيقتضي المنع في الحلف عن الإعطآء وهم أراد والمنع من الحلف على ترك الإعطاء فهذا المعنى قد أقام النفي مقام الإيجاب وجعل المنهيّ عنه مأموراً به والحاصل على قول الثاني معناه لاتقصروا في أن تحسنوا إلى هؤلآء المذكورين .

و أجاب الّذين فسّروا بمعنى الحلف أنّ «لا» محذوفة في الآية وأصله أن لا يؤتوا اُولي القربى ويقولون: إنّ «لا» تحذف كثيراً في اليمين قال الله : «ولاتجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبرّوا » معنى أن لاتبرّوا و قال امرؤ القيس :

فقلت : يمين الله أبرح قاعداً * ولو قطعوا رأسي إليك وأوصالي

أي لا أبرح و بالجملة إذا جعلت «لا» محذوفةً فالمعنيان يقعان متقاربان في المراد من الآية لأنّ المراد في الآية الأمر باعطاء هؤلاء المذكورين .

النزول : قال الفيض نقلاً من الجوامع : نزلت في جماعة من الصحابة حلفوا أن لا يتصدّقوا على من تكلّم بشيء من الافك في هذه القضيّة المذكورة أن لايواسوهم قال المفسّرون من أهل السنّة والجماعة : إنّ الآية نزلت في أبي بكر حيث حلف أن لاينفق على مسيطح أبداً و هو ابن خالة أبي بكر و قد كان يتيماً في حجره وكان ينفق عليه ، فلمّا شاع هذا الافك وكان مسيطح من القاذفين و نزلت الآية وتبيّن الأمر قال لهم أبوبكر : قوموا فلستم منّي ولست منكم ولايدخلنّ عليّ أحد منكم فقال مسيطح : أنشدك الله و الإسلام و أنشدك القرابة و الرحم أن لاتحوجنا إلى أحد فما كان لنا في أوّل الأمر من ذنب و إنّما إفك عبدالله بن اُبي فقال أبوبكر : إن لم تتكلّم فقد ضحكت ولم يقبل عذره وقال : انطلقوا أيّها القوم فإنّ الله لم يجعل لكم فرجاً و لاعذراً فخرجوا لا يدرون أين يذهبون و أين يتوجّهون فبعث رسول الله يخبره بأنّ الله نهاك أن تحرمهم و قد أمر أهل المال منكم و السعة و الغنى أن يعطوا أقاربهم و لايتركوا جهداً في الإنفاق عليهم و المساكين والمهاجرين في سبيل الله . وقد اجتمع في مسيطح الصفات الثلاث كان قريباً بالنسب لأبي بكر مسكيناً مهاجراً .

قوله : [وليعفوا وليصفحوا ألاتحبّون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم] وأمرهم بالعفو و التجاوز عن تقصيرهم و الإغماض عمّن أساء إليهم فقال : أما تحبّون أن يغفر الله لكم معاصيكم جزاءً على عفوكم و صفحكم عمّن أساء إليكم ؟ عنه صلى الله عليه وآله : «من لم يقبل عذر المتنصّل كاذباً كان أو صادقاً فلا يرد على حوضي يوم القيامة » و عنه صلى الله عليه وآله : أفضل أخلاق المسلمين العفو قال المأمون : لو علم أهل الجرائم و عنه صلى الله عليه وآله أيضاً : ينادي مناد يوم القيامة ألامن كان له أجر على الله فليقم فلا يقوم إلّا أهل العفو ثمّ صلى الله عليه وآله تلا هذه الآية « فمن عفا و أصلح فأجره على الله » و عنه صلى الله عليه وآله : لا يكون العبد ذا فضل حتّى يصل من قطعه و يعفو عمّن ظلمه و يعطي من حرمه .

و في الآية دلالة على أنّ اليمين على الامتناع من الخير غير جايز و إنّما يجوز

إذا كانت داعية للخير أو غير داعية للشرّ لا إذا كانت صارفة عنه .

قوله تعالى : [إنّ الّذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة و لهم عذاب عظيم] و اختلفوا في قوله : «إنّ الّذين يرمون المحصنات الغافلات» هل المراد منه كلّ من كان بهذه الصفة أو المراد منه الخصوص ؟ أمّا الاُصوليّون فقالوا : الصيغة عامّة ولا مانع من إجرائها على ظاهرها فوجب حمله على العموم فيدخل فيه قذفة عايشة و قذفة غيرها . وقال بعض : إنّ المراد جملة أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و إنّهنّ لشرفهنّ خصّصن بأنّ من قذفهنّ فهذا الوعيد لاحق به .

و احتجّ القائلون بهذا القول باُمور :

الاول : أنّ قاذف سائر المحصنات تقبل توبته لقوله في أوّل السورة : « والّذين يرمون المحصنات - إلى قوله - « واُولئك هم الفاسقون إلّا الّذين تابوا » قالوا : و أمّا القاذف في هذه الآية فإنّه لاتقبل توبته لأنّه سبحانه قال : « لعنوا في الدّنيا والآخرة[1] » ولم يذكر الاستثناء و أيضاً فهذه صفة المنافقين في قوله « ملعونين أينما ثقفوا[2] » .

الثاني : أنّ قذف ساير المحصنات لا يكفّر و القاذف في هذه الآية يكفّر لقوله تعالى : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم و أيديهم وأرجلهم[3] » وذلك صفة الكفّار و المنافقين لقوله : « ويوم يحشر أعداء الله إلى النّار[4] » .

الثالث : أنّه تعالى قال : « و لهم عذاب عظيم » و العذاب العظيم يكون عذاب الكفر فدلّ على أنّ عقاب هذا القاذف عقاب الكفر وعقاب قذفة سائر المحصنات لا يكون عقاب الكفر .

و ردّ بأنّه لو كان هذا القاذف كافراً لما نزلت الآية في حقّه « و ليعفوا وليصفحوا ألا تحبّون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » ولو ثبت كفر المتولّي كبره وهو عبدالله بن اُبيّ فذاك لنفاقه و أمر خارج لا بسببيّة القذف .

(١) النور : ٢٣ .
(٢) الاحزاب : ٦١ .
(٣) النور : ٢٤ .
(٤) حم السجدة : ١٩ .

والحاصل : قوله تعالى «إنّ الّذين يرمون» الآية أي ينسبون الزنا إلى العفائف من النساء الغافلات عن الفواحش المؤمنات بالله و رسوله و اليوم الآخر لعنوا و اُبعدوا من رحمة الله في الدارين و قيل : استحقّوا العذاب في الدّنيا بالجلد و ردّ الشّهادة و في الآخرة بعذاب النار إن لم يتوبوا و لهم مع ذلك عذاب عظيم و هذا الوعيد عامّ لجميع المكلّفين .

ثمّ بيّن الله أنّ ذلك العذاب يكون في يوم [تشهد عليهم ألسنتهم و أيديهم و أرجلهم بما كانوا يعملون] وتشهد ألسنتهم في ذلك اليوم بالقذف و كذلك تشهد أيديهم بما كسبت و أرجلهم .

و في كيفيّة شهادة الجوارح أقوال :

أحدها : و هو الصحيح أنّ الله يمكّنها النطق و الكلام من جهتها فيكون ناطقة حقيقة .

والثاني: أنّ الله يفعل فيها كلاماً يتضمّن الشهادة فيكون المتكلّم هو الله دون الجوارح واُضيف إليها الكلام على التوسّع لأنّها محلّ الكلام .

والثالث : أنّ الله يجعل فيها علامةً تقوم مقام النطق بالشهادة و ختم الأفواه لا ينافي هذا الأمر لأنّ مواقف القيامة كثيرة .

[يومئذ يوفّيهم الله دينهم الحقّ و يعلمون أنّ الله هو الحقّ المبين] أي ليتمّ الله لهم في ذلك اليوم جزاءهم بالحقّ من غير أن ينقص و يزيد . والدين ههنا بمعنى الجزاء ويجوز أن يكون جزاء دينهم الحقّ فحذف المضاف واُقيم المضاف إليه مقامه و يعلمون الله ضرورة و إلجاءً أنّه الحقّ لأنّه يقضي بالحقّ و يعطي بالحقّ ويأخذ بالحقّ المبين الّذي يظهر لهم حقايق الاُمور .

قوله : الخبيثات للخبيثين و الخبيثون للخبيثات و الطيبات للطيبين و الطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم(٢٦) يا أيها الذين امنوا لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا و تسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون (٢٧) فان لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما

تعملون عليم(٢٨) ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم و الله يعلم ماتبدون وما تكتمون (٢٩).

المعنى : فيه أقوال : أحدها : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء و الطيّبات من النساء للطيّبين من الرجال و الطيّبون من الرجال للطيّبات من النساء عن أبي جعفر و الصادق عليهما السلام و أبي مسلم و الجبّائيّ قالا : هي مثل قوله : « الزاني لا ينكح إلّا زانية أو مشركة [١] » و أنّ اُناساً همّوا أن يتزوّجوا منهنّ فنهاهم الله عن ذلك و كره ذلك لهم .

و قيل : الخبيثات يقع على الكلمات الخبيثة كالقذف الواقع من أهل الإفك ويقع على الكلام الّذي هو كالذمّ و اللعن فالمعنى : أنّ الذمّ و اللعن معدّان للخبيثين من الرّجال و للخبيثات من النساء و كذلك القول في الطيّبات من الأقوال للطيّبين من الرّجال و النساء و متوجّهة إليهم وإليهنّ وأنّهم مبرّؤون ممّا يقول الخبيثون من خبيثات الكلمات و أنّها مبرّءات منها كالرسول و أزواجه و العفائف الصالحات .

و قال الفرّاء : يعني به زوجة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و هو بمنزلة قوله : « فإن كان له إخوة [٢] » أوالاُمّ تحجب بالأخوين فجاء على تغليب لفظ الجمع .

قوله : [لهم مغفرة و رزق كريم] أي لهؤلاء الطيّبين من الرجال و النساء مغفرة من الله وعطيّة كريمة في الجنّة .

قوله : [ياأيّها الّذين آمنوا لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتّى تستأنسوا] أي حتّى تستأذنوا . و الاستيناس طلب الاُنس بالعلم . قال ابن عبّاس : أخطأ الكاتب فيه و كان يقرء حتّى تستأذنوا و قيل : تستأنسوا بالتنحنح و الكلام الّذي يقوم مقام الاستيذان و قد بيّن الله تعالى في قوله : « وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا » و قيل : حتّى تستعملوا و تتعرّفوا . عن أبي أيّوب قال : قلنا : يارسول الله ما الاستيناس ؟ قال : يتكلّم الرجل بالتسبيحة و التحميدة والتكبيرة وبتنحنح على أهل البيت . و روي أنّ رجلاً قال للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: أفأستأذن على اُمّي ؟ فقال : نعم قال : إنّها ليس لها خادم غيري أفأستأذن

---

(١) النور : ٣ .
(٢) النساء : ١٠ .

عليها كلّما دخلت قال : أتحبّ أن تراها عريانة ؟ قال الرجل : لا ، قال : فاستأذن عليها .

[و تسلّموا على أهلها] قيل في الآية تقديماً وتأخيراً تقديره : حتّى تسلّموا على أهلها وتستأنسوا و تستأذنوا فان أذن لكم فادخلوا [ذلكم خير لكم] ذلك الدخول بالاستيذان خير لكم [لعلّكم تذكّرون] مواعظ الله و أوامره و نواهيه و إنّما أمر بعد آية القذف و تفاصيله بهذه الآية لأنّ أهل الإفك غالباً يجدون بهذا السبيل طريقاً إلى البهتان كأنّ ورود الانسان خلوة من غير استيذان طريق إلى التهمة والوقوع فيها فلذلك أدّب الله الخلق بهذه الطريقة حتّى يسلموا من بعد المضارّ المؤدّية إلى التهمة على أنّه إذا حصل الدخول بعد الاستيذان فالإنسان حينئذ مأمون من أن يهجم على ما لا يحلّ له وعن التصرّف في ملك الغير بغير رضاه فيكون كالمغصوب وهو كالغاصب .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الاستيذان ثلاث : بالأولى يستنصتون و بالثانية يستصلحون و بالثالثة يؤذنون أو يردّون و قال : إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يوذن له فليرجع وروي أنّه صلى الله عليه وآله وسلم : كان إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول : السلام عليكم وذلك لأنّ الدور لم يكن عليها حينئذ ستور و معلوم أنّ قرع الباب بعنف و الصياح بصاحب الدار حرام لأنّه يتضمّن الإيذاء و الإيحاش و كفى بقصّة بني أسد زاجرة وما نزل فيها من قوله تعالى : «إنّ الّذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون (١) » .

قوله تعالى :[فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها] أي فإن لم تجدوا أحداً يأذن لكم في الدخول فلا تدخلوها لأنّه ربّما كان فيها ما لا يجوز أن تطّلعوا عليه [حتّى يؤذن لكم] أي لا تدخلوا البيوت حتى يأذن لكم أرباب البيوت في الدخول فبيّن الله سبحانه أنّه لا يجوز دخول دار الغير إلّا أن يؤذن له وإن لم يكن صاحبها فيها فلا يجوز أن يتطّلع إلى المنزل ليرى من فيه فيستأذنه إذا كان الباب مغلقاً .

[و إن قيل لكم ارجعوا فارجعوا] و انصرفوا ولا تلحّوا عليهم في الدخول و ذلك بأن يأمروكم بالانصراف صريحاً أو يوجد منهم ما يدلّ عليه [هو أزكى لكم] أي الانصراف

(١) الحجرات : ٤ .

أنفع لكم في دينكم و دنياكم وأقرب إلى أن تصيروا أزكياء [والله بماتعملون عليم] أي عالم بأعمالكم .

ثمّ قال تعالى : [ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم و ليس عليكم باس و حرج أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة وتدخلونها بغير استيذان .

قيل في معنى هذه البيوت أقوال :

أحدها : أنّها الخانات والحمّامات والأرحية ، عن الصادق عليه السلام وعن محمد بن الحنفيّة و جماعة . ويكون معنى «متاع لكم» أي استمتاع لكم . و الثاني : أنّها الخرابات المعطّلة. و الثالث : الحوانيت و الأسواق و بيوت المتجر الّتي فيها أمتعة التجارة . والرابع : أنّها مناخات الناس في أسفارهم والأولى حمله على الجميع . «والله يعلم ما تبدون وما تكتمون» يعلم سرّكم وعلنكم ولايخفى عليه شيء من ذلك من أهل الريبة وغير أهل الريبة .

الحكم الآخر في النظر قوله تعالى :

قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون (٣٠) و قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن و يحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها و ليضربن بخمرهن على جيوبهن ولايبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آباءهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن او أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بني اخوانهن او بني اخواتهن أو نسائهن أو ماملكت أيمانهن أو التابعين غير اولي الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء و لا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن و توبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون (٣١) .

أي الحكم في النظر أن يغضّوا و يمنعوا أبصارهم عن النظر إلى ما هو محرّم و يحفظوا فروجهم و عوراتهم من النظر المحرّم ذلك الغضّ و المنع و الحفظ أظهر لهم لما فيه من البعيد عن الريبة .

[إنّ الله خبير بما يصنعون] والمعنى أنّهم يغضّوا من أبصارهم ولاينظروا إلى ما حرّم . القمي عن الصادق عليه السلام : كلّ آية في القرآن في ذكر الفرج فهي في الزنى إلا

هذه الآية فإنّها من النظر فإنّ المراد به الستر حتّى لا ينظر إليها أحد فلا يحلّ لرجل أن ينظر إلى عورة أخيه و فرجه .

[و قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن] أي كما أنّ الرجال محكومون بهذا الحكم كذلك النساء لا يحلّ للمرءة أن تنظر إلى فرج اُختها وفي الكافي عنه عليه السلام: في حديث يذكر فيه فرض الإيمان على الجوارح و فرض على البصر أن لا ينظر إلى ما حرّم الله و أن يعرض عمّا نهى الله عنه مما لا يحلّ له و هو عمله و هو من الإيمان فقال تعالى : « قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم » و المرءة لابدّ و أن تحفظ عورتها من أن ينظر إليها والمراد من حفظ الفرج في هذه الآية حفظ النظر .

و عن الباقر عليه السلام قال : استقبل شابّ من الأنصار امرأة بالمدينة و كان النساء يتقنّعن خلف آذانهن فنظر الشابّ إليها و هي مقبلة فلمّا جازت نظر إليها في زقاق يسمى بزقاق بني فلان فجعل الشابّ ينظر خلفها واعترض وجهه عظم في الحائط أو زجاجة فشقّ وجهه فلمّا مضت المرأة نظر فإذاً الدماء تسيل على ثوبه و صدره فقال : والله لآتينّ رسول الله ولاُخبرنّه . قال : فأتاه فلمّا رآه رسول الله صلى الله عليه وآله قال له : ما هذا ؟ فأخبره فهبط جبرئيل بهذه الآية [ولايبدين زينتهنّ إلّا ماظهر منها] أي ولا يظهرن مواضع الزينة لغير محرم ومن هو في حكمه ولم يرد نفس الزينة .

و اعلم أنّ الزينة اسم يقع على محاسن الخلق الّتي خلقها الله تعالى و على سائر ما يتزيّن به الإنسان من فضل لباس أوحليّ و غير ذلك و أنكر بعضهم وقوع اسم الزينة على الخلقة قالوا : لا يقال في الخلقة أنّها من زينتها و إنّما يقال ذلك فيما تكتسبه من كحل و خضاب و ثياب و نحوه و أمّا الّذين قالوا : الزينة عبارة عمّا سوى الخلقة فقد حصروه في اُمور ثلاثة : الأصباغ كالكحل والخضاب و الوسمة في الحواجب و الحنّاء في الكفّين والقدم و ثانيها: الحليّ كالخاتم و السواروالدبلج والخلخال والقلادة و الإكليل و الوشاح والقرط وأشباهه وثالثها: الثياب قال الله تعالى : «خذوا زينتكم عند كلّ مسجد[1]» و أراد من الزينة الثياب .

(١) الاعراف : ٣٠ .

ثمّ اختلفوا في المراد من قوله : [إلّا ما ظهر منها] و فيها ثلاثة أقوال : أحدها أنّ الظاهرة الثياب و الباطنة القرطان و السواران و الخلخال عن ابن مسعود . و ثانيها : أنّ الظاهرة الحليّ و الخاتم و الخضاب في الكفّ و الخدّان عن ابن عبّاس و الكحل والسوارو الخاتم عن قتادة . و ثالثها : الوجه والكفّان عن الضحّاك وعطا والوجه والبنان عن الحسن . وفي تفسير عليّ بن إبراهيم : الكفّان و الأصابع .

و في الكافي عن الصادق في قوله : « إلّا ما ظهر منها » قال الزينة الظاهرة الكحل و الخاتم و العلب و هي السوار و في الجوامع عنهم الكفّان و الأصابع كما ذكرنا قبل هذا .

و القميّ عن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال : هي الثياب و الكحل و الخاتم و خضاب الكفّ و السوار و أنّ الزينة ثلاث : زينة للناس وزينة للمحرم وزينة للزوج فأمّا زينة الناس فقد ذكرناها و أمّا زينة المحرم فموضع القلادة فما فوقها والدبلج و مادونه و الخلخال وما أسفل منه و أمّا زينة الزوج فالجسد كلّه .

و في المجمع عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: للزوّج ما تحت الدرع و للمحرم كالابن والأخ ما فوق الدرع و لغيرذي محرم أربعة أثواب : درع وخمار وجلباب وإزار .

و عنه عليه السلام قال : لا بأس بالنظر إلى رءوس أهل تهامة و الأعراب و أهل السواد و البلوج لأنّهم إذا نهوا لاينتهون قال : و المجنونة و المغلوب على عقلها و لا بأس بالنظر إلى شعرها و جسدها ما لم يتعمد ذلك و عنه عليه السلام قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : لاحرمة لنساء أهل الذمّة أن ينظر إلى شعورهنّ و أيديهنّ وعنه عليه السلام : أنّه سئل عن الرجل يريد أن يتزوّج المرءة يتأمّلها و ينظر إلى خلفها و إلى وجهها قال : لابأس و في رواية اُخرى ينظر إلى شعرها و معاصمها إذا أراد أن يتزوّجها والمعصم موضع السوار ، و في رواية ينظر إلى شعرها ومحاسنها إذا لم يكن متلذّذاً وفي اُخرى إنّما يشتريها بأغلى الثمن .

و في الخصال قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لعليّ عليه السلام: يا عليّ أوّل نظرة لك والثانية عليك لالك هذا ما في المجمع و الصافي من كتبنا .

قال الرازيّ في المفاتيح: اختلفوا في المراد من قوله : « إلّا ماظهر منها » أمّا الّذين

حملوا الزينة على الخلقة فقال القفّال : معنى الآية إلّا ما يظهره الإنسان في العادة الجارية و ذلك في النساء الوجه و الكفّان و في الرجل الأطراف واليدين و الرجلين فاُمروا بستر ما لاتؤدّي الضرورة إلى كشفه و رخّص لهم في كشف ما اعتيد كشفه وأدّت الضرورة إلى إظهاره إذ كانت شرائع الإسلام حنيفية سهلة سمحة ولمّا كان ظهور الوجه و الكفّين كالضروريّ لاجرم قالوا على أنّهما ليسا بعورة .

و أمّا الّذين حملوا الزينة على ما عدا الخلقة قالوا : إنّه سبحانه إنّما ذكر الزينة لأنّه لاخلاف أنّه يحلّ النظر إليها حال مالم تكن متّصلة بأعضاء المرءة فلمّا حرّم الله النظر إليها حال اتّصالها ببدن المرءة كان ذلك مبالغة في حرمة النظر إلى اعضاء المرأة وعلى هذا الوجه يحلّ النظر إلى زينة وجهها من الوشمة و الغمرة والخضاب و الخواتيم و الثياب والسبب في تجوّزها أن تستّرها لها حرج لأنّ المرأة لابدّ لها من مناولة الأشياء بيديها و الحاجة إلى كشف وجهها في بعض المقام كالشهادة و المحاكمة و النكاح انتهى كلام القفّال .

قوله تعالى : [و ليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ] و الخمر المقانع و هو غطاء الرأس من المرأة المنسدل على جيبها اُمرن بإلقاء المقانع على صدورهنّ تغطية لنحورهنّ وأعناقهنّ و كنّ يلقين مقانعهنّ على ظهورهنّ فتبدو صدورهنّ و كنّي عن الصدر بالجيوب لأنّها ملبوسة عليها و قيل : اُمرن بذلك ليستترن شعورهنّ وقرطهنّ قال ابن عبّاس : معناه تغطى المرأة شعرها و صدرها وترائبها و سوالفها و في لفظ الضرب مبالغة في الإلقاء و الباء للإلصاق .

قوله تعالى : [ولا يبدين زينتهنّ إلّا لبعولتهنّ أو آبائهنّ أو آباء بعولتهنّ أو أبنائهنّ أو أبناء بعولتهنّ أو إخوانهنّ أو بني إخوانهنّ أو بني أخواتهنّ] يعني الزينة الباطنة الّتي لايجوز كشفها في الصلاة و قيل : معناه لا يضعن الجلباب و الخمار .

و بالجملة لمّا تكلّم سبحانه في مطلق الزينة شرح في هذه الآية في الزينة الخفيّة الّتي نهاهنّ عن إبدائها للأجانب وبيّن أنّ هذه الزينة الخفيّة يجب إخفاؤها عن الكلّ ثمّ استثنى اثنتي عشرة صورة :

أحدها أزواجهنّ أي يبدين مواضع زينتهنّ لأزواجهنّ فقد روي أنّه لعن السلتاء من النساء والمرهاء والسلتاء الّتي لاتخضب لزوجها والمرهاء الّتي لاتكتحل و لعن المسوّفة

والمسفّلة والمسوّفة الّتي إذا دعاها زوجها إلى المباشرة قالت : سوف أفعل والمفسلة هي الّتي إذا دعاها قالت أنا حائض وهي غير حائض .

و ثانيها : « آباؤهن » و إن علون من جهة الذكران و الإناث كآباء الآباء وآباء الأمّهات .

و الثالث إلى الثامن: قوله تعالى : « أو آباء بعولتهنّ أو أبنائهنّ أو أبناء بعولتهنّ أو إخوانهنّ أو بني إخوانهنّ أو بني أخواتهنّ » فهؤلاء الّذين محرّم عليهم نكاحهنّ بهم و محرّم لهنّ بالأسباب والأنساب . و يدخل أجداد البعولة فيه و إن علوا و أحفادهم و إن سفلوا يجوز إبداء الزينة لهم من غير استدعاء لشهوتهم ويجوز لهم تعمّد النظر من غير تلذّذ ولعلّ السبب في إباحة نظر هؤلاء إلى زينة المرأة لأنّهم مخصوصون بالحاجة إلى مداخلتهنّ ومخالطتهنّ و لقلّة عدم وقوع الفتنة في المحارم .

و تاسعها قوله تعالى : «أو نسائهن» يعني النساء المؤمنات و لايحلّ لها أن تتجرّد ليهوديّة أو نصرانيّة أو مجوسيّة إلّا إذا كانت الكافرة أمة لها لقوله تعالى: « أو ما ملكت أيمانهنّ » و المعنى الإماء الكافرات قالوا : و لا يحلّ للعبد أن ينظر إلى شعر مولاته و كتب عمر إلى أبي عبيدة أن يمنع نساء أهل الكتاب من دخول الحمّام مع المؤمنات .

و قيل : معناه يشمل العبيد و الإماء و روي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام و في الكافي عنه عليه السلام :لابأس أن يرى المملوك الشعر و الساق و في رواية: شعر مولاته وساقها و في اُخرى : لابأس أن ينظر إلى شعرها إذا كان مأموناً و عنه عليه السلام: لايحلّ للمرأة أن ينظر عبدها إلى شيء من جسدها إلّا إلى شعرها غير متعمّد لذلك .

و منشأ الاختلاف أنّ منهم أي العامّة من أجرى الآية على ظاهرها و زعم أنّه لابأس عليهنّ في أن يظهرن لعبيدهنّ من زينتهنّ مايظهرن لذوي محارمهنّ وهو المرويّ عن عائشة واُمّ سلمة واحتجّوا بظاهر الآية و برواية أنس أنّه صلى الله عليه وآله وسلم أتى بعبد قد وهبه لها و عليها ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها و إذا غطّت به رجليها لم يبلغ رأسها فلمّا رأى رسول الله مابها قال : إنّه ليس عليك بأس إنّما هو أبوك و غلامك .

وعن مجاهد كان اُمّهات المؤمنين لايحتجبن عن مكاتبهنّ ما بقي عليه درهم وروي أنّ

عائشة كانت تتمشّط و العبد ينظر إليها .

و قال ابن مسعود و مجاهد والحسن وابن سيرين و سعيد بن المسيّب : إنّ العبد لاينظر إلى شعر مولاته وبه قال أبوحنيفة .

فإن قيل : الإماء دخلن في قولهأو نسائهنّ فأيّ فائدة في الإعادة إذا كان المقصود من قوله « أوما ملكت أيمانهنّ » الإماء ؟ لعلّ المراد أنّه لايظنّ أنّ الإباحة مقصورة على الحرائر من النساء إذكان ظاهر قوله أونسائهنّ يقتضي الحرائر دون الإماء كقوله: «شهيدين من رجالكم» على الأحرار .

قوله تعالى : [أوالتابعين غير اُولي الإربة من الرجال] و هذا الحادي عشر من الأقسام أي اُولي الحاجة إلى النساء من الرجال و الإربة العقل وجودة الرأي وهم الّذين يتّبعونكم لينالوا من فضل طعامكم و لاحاجة لهم إلى النساء لأنّهم بلهٌ لا يعرفون من أمرهنّ شيئاً . القمّي : هو الشيخ الفاني الّذي لا حاجة له إلى النساء . و عن الصادق عليه السلام :الأحمق المولّى عليه الّذي لا يأتي النساء و كذلك الشيوخ الّذين غضّ العمر أبصارهم و ليس بهم حاجة في مثل هذه الاُمور .

و معلوم أنّ الخصيّ والعنين ومن شاكلهما قد لا يكون له إربة في نفس الجماع و يكون له إربة قويّة فيماعداه من التمتّع وذلك يمنع من أن يكون هو المراد و أمثاله و لا يجوز له ما يجوز للتابعين غير اولي الإربة لأنّهم اولي الإربة فتحمل الآية على من هو عادم وجوه التمتّع إمّا لفقد الشهوة أو لفقد العقل والمعرفة كالمعتوه والأبله و الصبيّ و الهرم البالي الفاني و من لا شهوة له ولا يمتنع دخول الكلّ في ذلك وروى هشام بن عروة عن زينب بنت أمّ سلمةعن اُمّ سلمةأنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم دخل عليها وعندها مخنّث فأقبل على أخي اُمّ سلمة فقال : يا عبدالله إن فتح الله لكم الطائف غداً دلّلتك على بنت غيلان فانّها تقبل بأربع وتدبر بثمان فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم لا يدخلنّ عليكم هذا لأنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يظنّ أنّه من غير اُولي الإربة فلمّا عرف أنّه يعرف أحوال النساء و أوصافهنّ علم أنّه من اُولي الإربة فحجبه .

والثاني عشر قوله تعالى : [أوالطفل الّذين لم يظهروا على عورات النساء] الطفل

اسم للواحد و يطلق موضع الجمع لأنّه يفيد الجنس و نظيره قوله : « ثمّ نخرجكم طفلاً » المعنى أي الجماعة من الأطفال الّذين لم يظهروا و لم يطّلعوا و لم يتصوّروا عورات النساء و لم يدروا ماهي من الصغر وقيل : معناه: لم يبلغوا أن يطيقوا إتيان النساء لعدم شهوتهم فإذا بلغوا مبلغ الشهوة فحكمهم حكم الرجال و هذا آخر الصور الّتي استثناها الله تعالى .

قوله تعالى : [ولا يضربن بأرجلهنّ ليعلم ما يخفين من زينتهنّ] قيل : كانت المرأة تضرب برجلها لتسمع قعقعة الخلخال فيها فنها هنّ عن ذلك أو المعنى أنّ المرأة لا تضرب برجلها إذا مشت ليتبيّن خلخالها . و معلوم أنّ الرجل الّذي يغلب عليه شهوة النساء إذا سمع صوت الخلخال و الزينة يصير ذلك داعية له زائدة في مشاهدتهنّ .

و قد علّل سبحانه بأن قال : [ليعلم مايخفين من زينتهنّ] فنبّه به على أنّ الّذي لأجله نهى عنه أن يعلم زينتهنّ من الحلي و غيره .

و لمّا نهى عن استماع الصوت الدالّ على الزينة فلأن يدلّ على المنع من إظهار الزينة و من إظهار مواضع الزينة أولى و ثانياً إذا كانت المرأة منهيّة أن ترفع صوت خلخالها لوقوع الفتنة فرفع صوتها بالكلام للأجانب نهيه أولى إذ كان صوتها أقرب إلى الفتنة من صوت زينتها و لذلك كرهوا أذان النساء لأنّه يحتاج فيه إلى رفع الصوت و المرأة منهيّة عن ذلك و إذا كان المناط و الملاك وقوع الفتنة فالنظر إلى وجهها بالشهوة أقرب إلى الفتنة .

قوله تعالى : [و توبوا إلى الله جميعاً أيّها المؤمنون لعلّكم تفلحون] و قرىء « أيّه المؤمنون » بالضمّ من الهاء و وجهه أنّها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الألف فلمّا سقطت الألف لالتقاء الساكنين أتبعت حركتها حركة ما قبلها .

وفي التوبة وجهان : أحدهما أنّ تكاليف الله في كلّ باب لا يقدر العبد الضعيف على مراعاتها و إن ضبط نفسه واجتهد ولاينفكّ من تقصير يقع منه فلذلك وصّى المؤمنين جميعاً بالتوبة .

و الوجه الثاني قال ابن عبّاس: معناه : توبوا ممّا كنتم تفعلونه في الجاهليّة لعلّكم

تسعدون في الدنيا والآخرة فإن قيل: قد صحّت التوبة بالإسلام والإسلام يجبّ ماقبله فما معنى هذه التوبة ؟ قلنا : قال بعض العلماء : إنّ من أذنب ذنباً ثمّ تاب عنه لزمه كلّما ذكره أن يجدّد عنه التوبة لأنّه يلزمه أن يستمرّ على ندمه إلى أن يلقى ربّه .

الحكم الثامن ما يتعلّق بالنكاح قوله تعالى :

و انكحوا الايامى منكم و الصالحين من عبادكم و امائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم (٣٢) و ليستعفف الذين لايجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله و الذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً و آتوهم من مال الله الذى آتاكم ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء ان اردن تحصناً لتبتغوا عرض الحيوة الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم (٣٣) و لقد أنزلنا اليكم آيات بينات و مثلا من الذين خلوا من قبلكم و موعظة للمتقين (٣٤) .

لمّا أمر سبحانه بغضّ الأبصار عمّا لا يحلّ و حفظ الفروج بيّن في هذه الآية طريق الحلّ فقال :

[و أنكحوا الأيامى منكم] قال النضر بن شميل : الأيمّ في كلام العرب كلّ ذكر لا أنثى معه و كلّ أنثى لا ذكر معها وهو قول ابن عبّاس قال الزمخشري : الأيامى واليتامى ـ أصلهما أيائم ويتائم فقلبا ـ جمع أيّم وأيامى مقلوب أيايم ،والفعل منه أيّم يؤيّم :

فإن تنكحي أنكح و إن تتأيّمي * و إن كنت أفتى منكم أتأيّم

و بالجملة فالمعنى بعد ما زجر سبحانه عن النظر الحرام و السفاح أمر بالتزويج و الإنكاح مع أنّه مقصود بالذات من حيث كونه مناطاً لبقاء النوع أي زوّجوا من لازوج له من أحرار رجالكم ونسائكم وهذا أمر استحباب و ندب ؛ و قد صحّ عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : من أحبّ فطرتي فليستنّ بسنّتي و من سنّتي النكاح . وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : يا معشر الشباب من استطاع منكم الباه فليتزوّج فإنّه أغضّ للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنّ الصوم و جاء أُمّتي . و عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول : شراركم عزّابكم و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : من أدرك له ولد و عنده ما يزوّجه فأحدث

فالإثم بينهما .

و عن أبي أُسامة عن النبيّ ﷺ : قال : أربع لعنهمالله من فوق عرشه و أمّنت عليه ملائكته : أحدهم الّذي يحصر نفسه فلا يتزوّج ولا يتسرّى لئلاّ يولد له و الرجل الّذي يتشبّه بالنساء و قد خلقه الله ذكراً ، و المرأة الّتي تتشبّه بالرجال و قد خلقهاالله اُنثى ، و مضلّل الناس يريد الّذي يهزأبهم مثل أن يقول للمسكين : هلّم اُعطك ، فإذا جاء يقول : ليس معي شيء ، و مثل أن يقول للمكفوف: اتّق الدابّة و ليس بين يديه شيء و الرجل يسأل عن دار القوم فيضلّله .

و بالجملة قال الشافعيّة: في النكاح قسمان منهم من تتوق نفسه في النكاح فيستحبّ له أن ينكح إن وجدا ُهبة النكاح سواء كان مقبلاً على العبادة أو لم يكن كذلك و إن لم يجدا ُهبة النكاح بكسر شهوته بالصوم للرواية المذكورة في قوله ﷺ « يامعشر الشبّاب. إلخ » و أمّا الّذي لا تتوق نفسه إلى النكاح فإن كان ذلك لعلّة به من كبر أو مرض أو عجز يكره له النكاح لأنّه يلزمه ما لا يمكنه القيام بحقّه و إن لم يكن به عجز ولكن لاتتوق نفسه وكان قادراً على القيام بحقّه لم يكره له النكاح لكنّ الأفضل أن يتخلّى للعبادة .

ولكنّ الحنفيّة قالوا : النكاح أفضل من التخلّي للعبادة .

وحجّة الشافعيّ أحدها : قوله تعالى « وسيّداً وحصوراً ونبيّاً من الصالحين(١) » فمدح يحيى بكونه حصوراً و الحصور الّذي لايأتي النساء مع القدرة عليهنّ ولا يقال : هوالّذي لا يأتي النساء مع العجز عنهنّ لأنّ مدح الإنسان بما يكون عيباً غير جائز وإذا ثبت أنّه مدح في حقّ يحيى لزم أن يكون مشروعاً في حقّنا لقوله تعالى : « اُولئك الّذين هدى الله فبهدا هم اقتده (٢) » و لا يجوز حمل الهدى على الاُصول لأنّ التقليد فيها غير جائز فوجب حمله على الفروع على أنّ العبادة و النوافل أشقّ من النكاح لأنّ ميل الطباع إلى النكاح للذّته أكثر من العبادة فتكون العبادة أكثر ثواباً لقوله ﷺ :

(١) آل عمران : ٣٩ .
(٢) الانعام : ٩٠ .

أفضل الأعمال أحمزها و قوله صلى الله عليه وآله وسلم لعائشة : أجرك على قدر نصبك ثمّ لوكان الاشتغال بالنكاح أولى من النافلة لكان الاشتغال بالحراثة و الزراعة أولى من النافلة بالنسبة الى النكاح والجامع كون كلّ واحد منهما سبباً لبقاء هذا العالم ومحصّلاً لنظامه و كما يقدّم واجب العبادة على واجب النكاح كذلك يقدّم مندوب العبادة على مندوب النكاح و النافلة قطع العلائق الجسمانيّة و إقبال على الله و النكاح اشتغال بتحصيل اللذّات الحسّيّة الداعية إلى الدنيا في الأغلب و لذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم : حبّب إليّ من دنيا كم ثلاث : الطيب والنساء و جعلت قرّة عيني في الصلاة فرجّح صلى الله عليه وآله وسلم الصّلاة على النكاح و هذه البيانات حجج من قال : إنّ التخلّي للعبادة المندوبة أفضل من النكاح .

واحتجّ أبو حنيفة برجحان النكاح على العبادة المندوبة و قال : إنّ النكاح يتضمّن صون النفس عن الزنا فيكون ذلك دفعاً للضرر عن النفس و النافلة جلب النفع ، و دفع الضرر أولى من جلب النفع ثمّ إنّ النكاح يتضمّن العدل والعدل أفضل من العبادة لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : لعدل عن ساعة خير من عبادة ستّين سنة ، ثمّ إنّ النكاح سنّة مؤكّدة لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : النكاح سنّتي فمن رغب عن سنّتي فليس منّي و قال في الصّلاة : و إنّها خير موضوع فمن شاء فليستكثر و من شاء فليستقلل انتهى كلامهم .

قوله : [والصالحين من عبادكم و إمائكم] أي زوّجوا المستورين من عبيدكم و ولائدكم و ظاهر الآية الأمر للسادة بتزويج هذين الفريقين و معنى الصلاح في الآية الإيمان .

ثمّ رجع سبحانه إلى الأحرار فقال : [إن يكونوا فقراء] لاسعة لهم في التزويج [يغنهم الله من فضله] وعدهم أن يوسّع عليهم عند التزويج [والله واسع عليم] أي واسع المقدور عليم بأحوالهم و ما يصلحهم و قال أبو عبدالله عليه السلام : من ترك التزويج مخافة العيلة فقد أساء الظنّ بربّه لقوله تعالى : «إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله» .

و إنّما خصّ الصالحين بالذكر ليحصن دينهم و يحفظ عليهم صلاحهم بالتزويج و قيل : المراد بالصالحين المراد الصلاح في النكاح بأنّ مثلاً لا تكون صغيرة لا تتحمّل النكاح و قيل : المراد من قوله تعالى : « إن يكونوا فقراء » ليس وعد من الله أن يغنيهم

حتماً بل معناه أن لا تنظروا إلى فقر من يخطب إليكم أو فقر من تريدون تزويجها ففي فضل الله ما يغنيهم إذا علم المصلحة و المال غادو رائح و ليس الفقر يكون مانعاً لرغبتكم في التزوّج والتزويج و يمكن أن يكون المراد من الغنى العفاف .

قوله : [وليستعفف الّذين لا يجدون نكاحاً حتّى يغنيهم الله من فضله] لمّا ذكر سبحانه تزويج الحرائر و الإماء ذكر في هذه الآية حال من يعجز عن ذلك فقال : و ليستعفف و ليجتهد في العفّة و يحمل نفسه على العفّة الّذين لايجدون و لا يتمكّنون من النكاح أولا يجدون ما ينكح به من المال مثل المهر أي من لا يتمكّن من ذلك فيطلب التعفّف و لينتظر أن يمكّنه الله .

قوله تعالى : [والّذين يبتغون الكتاب ممّا ملكت أيمانكم فكاتبوهم] هذا هو الحكم التاسع في الكتابة لمّا أمر الله سبحانه السيّد على تزويج الصالحين من العبيد والإماء مع الرقبة رغّبهم في أن يكاتبوهم إذا طلبوا منهم ليصيروا أحراراً .

و نزلت الآية في غلام لخويطب بن عبدالعزّى يقال له صبيع سأل مولاه أن يكاتبه فأبى فنزلت الآية فكاتبه على مائة دينار وهب له منها عشرين ديناراً والمكاتبة أن يكاتب الإنسان عبده على مال ينجّمه عليه ليؤدّيه إليه في هذه النجوم المعلومة يقول المولى مثلاً : كاتبتك على كذا من المال تؤدّيه في حولين أو ثلاث فإذا أدّيت ذلك المعلوم فأنت حرّ و يقول العبد: قبلت .

و بالجملة فهذا الأمر ندب و استحباب و ترغيب عند أكثر الفقهاء و قيل : أمر حتم و إيجاب إذا طلبه العبد و علم فيه خيراً عن عطا و عمرو بن دينار والطبري .

قوله : [إن علمتم فيهم خيراً] أي صلاحاً و رشداً لهذا الأمر و قدرة لاكتساب هذا المال للأداء من مال الكتابة و روي أنّ عبداً لسلمان قال له :كاتبني قال : ألك مال ؟ قال :لا، قال : تطعمني أوساخ الناس فأبى عليه .

قوله : [وآتوهم من مال الله الّذي آتاكم] أي حطّوا عنهم من نجوم الكتابة شيئاً و قيل : أي ردّوا عليهم يا معشر السادة من المال الّذي أخذتم شيئاً وهو استحباب وقيل : هو إيجاب: وقال قوم من المفسّرين : إنّه خطاب للمؤمنين بمعونتهم على تخليص رقابهم

من الرقّ . و من قال : إنّ الخطاب للسادة اختلفوا في قدر ما يجب فقيل: يتقدّر بربع المال وروي ذلك عن عليّ عليه السلام و قيل : ليس تقدير بل يحطّ عنه شيء منه . و قيل : إنّه يعطي سهمه من الصدقات في قوله : «وفي الرقاب» وقيل : لولا الكتابة لما جاز له أخذ الصدقات .

و قال أصحابنا : إنّ المكاتبة ضربان مطلق ومشروط فالمشروط أن يقول لعبده في حال الكتابة: متى عجزت عن أداء ثمنك كنت مردوداً في الرقّ فإذا كان كذلك جاز له ردّه في الرقّ عند العجز و المطلق ينعتق منه عند العجز بحساب ما أدّى من المال ويبقى مملوكاً بحساب ما بقي عليه و يرث و يورث بحساب ما عتق .

قوله تعالى : [ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصّناً] الحكم العاشر الإكراه على الزنا نهى سبحانه عن إكراه الإماء على الفجور .

النزول : كان لعبدالله بن اُبيّ المنافق ستّ جوار معاذة و مسيكة و اُميمة وعميرة و أروى و قتيلة يكرههنّ على البغاء و ضرب عليهنّ ضرائب فشكت ثنتان منهنّ إلى رسول الله فنزلت الآية . و قيل : إنّ سبب النزول : جاء عبدالله بن اُبيّ إلى رسول الله و معه جارية من أجمل النساء تسمّى معاذة فقال : يا رسول الله هذه لأيتام فلان أفلا تأمرها بالزنى فيصيبون الأيتام من منافعها فقال : لا ، فأعاد الكلام فنزلت الآية عن ابن عبّاس و قال جابر بن عبدالله : جاءت جارية لبعض الناس وشكت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : إنّ سيّدي يكرهني على البغاء ، فنزلت الآية .

المعنى : و لا تجبروا و لا تكرهوا إماء كم و ولائد كم على الزنى إن أردن تعفّفاً و تزويجاً و إنّما شرط سبحانه إرادة التحصّن لأنّ الإكراه لا يتصوّر ولا يتحقّق إلّا عند إرادة التحصّن فإن لم ترد المرأة التحصّن بغت بالطبع فهذه فائدة الشرط .

[لتبتغوا عرض الحياة الدنيا] من كسبهنّ [و من يكرههنّ] على الزنا من ساداتهنّ من غير ميل منهنّ [فإنّ الله من بعد إكراههنّ غفور] للمكرهات لا للمكره لأنّ الوزر على المكره [رحيم] بهنّ .

توضيح : العرب يقول للمملوك : فتى وللمملوكة فتاة قال سبحانه : «امرأة العزيز تراود فتاها (1)» ، والآية و إن كانت نزلت في الإماء إلّا أنّ حال الحرائر كذلك و في الحديث

(1) يوسف : ٣٠ .

ليقل أحدكم : فتاي و فتاتي ولايقل : عبدي و أمتي .

فلو قيل: إنّ ظاهر الآية يقتضي جواز الإكراه على الزنا عند عدم إراده التحصّن لأنّ المعلّق بكلمة «إن» على شيء عدم عند عدم ذلك الشيء و ينتفي بانتفائه فحينئذ ينتفي المنع عند عدم إرادة التحصّن .

فالجواب أنّ هذا الشيء ممتنع في نفسه لأنّه متى لم توجد إرادة التحصّن في حقّها لم يكن كارهة للزّنا وحال كونها غير كارهة للزّنا يمتنع إكراهها على الزنا فامتنع ذلك لامتناعه في نفسه و ذاته ثمّ إنّ هنا جواباً آخر و هو أنّ مفهوم هذا الشرط ليس بحجّة لأنّه ثبت بدليل منفصل أنّ الزنى حرام . و « إن » بمعنى « إذا » في الآية لأنّ الّتي وردت الآية فيها كانت كذلك كما ذكرنا في قصّة عبدالله بن اُبيّ حين امتنعت الجارية طلباً للعفاف فأكرهها فنزلت الآية نظير قوله تعالى : « وإن كنتم في ريب ممّا نزّلنا على عبدنا [1] » أي إذا كنتم في ريب .

قوله تعالى : [و لقد أنزلنا إليكم آيات بيّنات] واضحات ظاهرات و من قرأ بفتح الياء فمعناه مفصّلات بيّنهنّ الله و فصّلهنّ [و مثلاً من الّذين خلوا من قبلكم] و إخباراً من الّذين مضوا من قبلكم و قصصاً منهم حكيناها لكم لتعتبروا بها [و موعظة للمتّقين] أي و زجراً و منعاً لأهل التقوى و خصّهم بالذكر لأنّهم المنتفعون بها .

قوله تعالى : الله نور السموات و الارض مثل نوره كمشكوة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كانها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية و لاغربية يكاد زيتها يضيء و لو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء و يضرب الله الامثال للناس و الله بكل شيء عليم (٣٥) فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو و الاصال (٣٦) رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلوة و ايتاء الزكوة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب و الابصار (٣٧) ليجزيهم الله أحسن ما عملوا و يزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير

(١) البقرة : ٢٣ .

حساب (٣٨) .

و لمّا بيّن في الآيات السابقة بعض الأحكام أورد الكلام في الإلهيّات و ذكر مثلين مثلاً للإيمان و المؤمن ومثلاً يذكر في الكافر والكفر .

أمّا المثل الأوّل فهو قوله تعالى : [الله نور السماوات و الأرض] في بيان إطلاق اسم النور على الله باعتبار أنّه هادي و منوّر الخلق بمصالحهم ومنوّر السماوات والأرض بالشمس والقمر و النجوم أو منوّر السماوات ومزيّنها بالملائكة ومزيّن الأرض ومنوّرها بالأنبياء والعلماء وإنّما عبّر وورد النور في صفة الله لأنّ كلّ نور وإنعام و نفع منه وهذا كما يقال : فلان رحمة وفلان عذاب إذا كثر فعل ذلك منه كما قال أبوطالب عليه السلام في مدح النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم :

و أبيض يستسقى الغمام بوجهه ❊ ثمال اليتامى عصمة للأرامل

و اتّفقوا أهل الأدب أنّه لم يعن بقوله و « أبيض » بياض لونه صلى الله عليه وآله وسلم و إنّما أراد كثرة إفضاله والاهتداء به ولهذا المعنى سمّاه الله تعالى سراجاً منيراً .

و اعلم أنّ لفظ النور في اللغة موضوع لهذه الكيفيّة الفائضة من الشمس و القمر و النار على الأرض و الجدران و غيرهما و هذه الكيفيّة يستحيل أن تكون إلهاً لوجوه :

أحدها : لأنّ هذه الكيفيّة إن كانت عبارة عن الجسم كان الدليل الدالّ على حدوث الجسم دالّاً على حدوثها وإن كانت عرضاً فمتى ثبت حدوث الجسم لزم حدوث جميع الأعراض القائمة به والحلول على الله محال .

والثاني : أنّا سواء قلنا النور جسم أو عرض حالّ في الجسم و على التقديرين منقسم و كلّ منقسم يفتقر في تحقّقه إلى تحقّق أجزائه و المفتقر إلى الغير ممكن لذاته محدث بغيره فلايكون النور إلهاً .

و الثالث : أنّ هذا النور المحسوس لو كان هو الله لوجب أن لايزول هذا النور لامتناع الزوال على الله و هذا النور المحسوس يقع بطلوع الشمس والكواكب ومتغيّر .

والرابع : أنّ هذه الأنوار لو كانت أزليّة لكانت إمّا متحركة أو ساكنة أمّا الحركة فغير جائزة لأنّ الحركة معناها الانتقال من مكان إلى مكان فحينئذ الحركة

مسبوقة بالحصول في المكان الأوّل و الأزليّ يمتنع أن يكون مسبوقاً بالغير فالحركة الأزليّة محال وأمّا السكون فغير جائز لأنّ السكون لو كان أزليّاً لكان ممتنع الزوال ونحن نرى حسّاً أنّ النور جائز الزوال لأنّا نرى أنّه ينتقل من مكان إلى مكان فدلّ ذلك على حدوث الأنوار والحادث لا يكون إلهاً . وبمجموع هذه الدلائل ثبت بطلان قول المانويّة الّذين يعتقدون أنّ الإله سبحانه هو النور الأعظم .

و أمّا المجسّمة المعترفون بصحّة القرآن فيحتجّ على فساد قولهم بوجهين الأوّل : قوله تعالى « ليس كمثله شيء »(١) ولو كان نوراً لبطل ذلك لأنّ الأنوار كلّها متماثلة . الثاني قوله : « و جعل الظلمات والنور(٢) » و ذلك صريح في أنّ ماهيّة النور مجعولة مخلوقة لله تعالى فيستحيل أن يكون الإله نوراً فلابدّ من التأويل كما بيّنّا من أنّ النور لمّا كان سبباً للهداية و الظهور فيصحّ إطلاق اسم النور على الهداية فقوله : «الله نور السماوات و الأرض » أي ذو نور السماوات وهو هاديهم فهو لهم كالنور الّذي يهتدى به إلى طرق الخير قال جرير : « وأنت لنا نور وغيث وعصمة » .

و يمكن أن يكون المراد ناظم السماوات والأرض فإنّه قد يعبّر بالنور عن النظام يقال : ما أرى لهذا الأمر من نور .

و ذكرنا وجوهاً اُخر في صدر تفسير الآية و أصحّ الأقوال أنّ المراد بالنور في الآية الهداية إلى طريق الحقّ و قوله تعالى في آخر الآية : « يهدي الله لنوره من يشاء » يؤيّد هذا القول .

و صنّف الشيخ الغزالي في تفسير هذه الآية كتاباً سمّاه بمشكاة الأنوار و يؤول حاصل كلام الغزالي بأنّ الله هادي وخالق السماوات و حاصل كتابه في تأويل هذه الآية أنّ الله نور في الحقيقة بل ليس النور إلّا هو ولكن مراده ليس هذا النور المنبسط من الأشعة على الأرض حتّى يلزم الحدوث والافتقار و التجسّم كما بيّنّا .

قال : و يحتاج بيانه إلى بيان مقدّمة وهي أنّ للإنسان بصراً و بصيرة فالبصر هو العين الظاهرة المدركة للأضواء و الألوان و البصيرة هي القوّة العاقلة و كلّ واحد من

(١) الشورى : ١١.
(٢) الانعام : ١ .

الإدراكين يقتضي ظهور المدرك فكلّ واحد من الإدراكين نور إلّا أنّه ورود العيوب و الموانع لنور العين أكثر ممّا يرد على نورالعقل و البصيرة ، و أيضاً إنّ قوّة البصر لاتدرك نفسها و لاتدرك آلاتها و أمّا قوّة العاقلة فإنّها تدرك نفسها و آلاتها من القلب و الدماغ و أيضاً الإدراك العيني و الحسّي لايتّسع لها لأنّ البصر مثلاً إذا توالى عليه ألوان كثيرة عجز عن إدراكها و تمييزها صحيحاًويدرك لوناً عالياً من تلك الألوان و كذلك الإدراك السمعي إذا توالت عليه كلمات كثيرة التبست عليه تلك الكلمات ولم يحصل التميّز وأمّا الإدراك النورالعقلي متّسع له فثبت أنّ نور العقل أكمل من نورالبصر .

هذا أحد وجوه مزيّة نور العقل على نور البصر و رجحانيّة نور المعقول على نور المحسوس .

الثاني أنّ نور البصر يدرك الجزئيّات ونورالبصيرة يدرك الكلّيّات ومدرك الكلّيّات وهو القلب أقوى وأشرف من مدرك الجزئيّات لأنّ إدراك الكلّيّات يتضمّن إدراك الجزئيّات الواقعة تحته ولاعكس .

الثالث أنّ الإدراك العيني و الحسّي غيرمنتج لأنّ من أحسّ بشيء لايكون ذلك الإحساس سبباً لحصول إحساس آخر بل لو استعمل له الحسّ مرّة اُخرى لأحسّ به مرّة اُخرى و أمّا الإدراك و النورالعقلي منتج لاُمور اُخر لأنّا إذا عقلنا اُموراً ثمّ ركّبناها في عقولنا توسّلنا بتركيبها إلى اكتساب علوم اُخر وهكذا كلّ تعقّل حاصل فإنّه يمكن التوصّل به إلى تحصيل تعقّل آخر إلى ما لانهاية له .

الرابع أنّ القوّة الحسّيّة إذا أدركت المحسوسات القويّة ففي ذلك الوقت تعجز عن إدراك الضعيفة فإنّ من سمع الصوت الشديد أو أبصر اللون القوي لايمكنه أن يسمع الصوت الضعيف أو يرى اللون الخفيف و النور العقلي لايشغله معقول عن معقول .

الخامس أنّ القوّة الباصرة لاتدرك المرئي مع القرب القريب ولا مع البعد البعيد و القوّة العقليّة لاتختلف حالها بحسب القرب و البعد فإنّها تترقّى إلى فوق العرش و تتنزّل إلى ماتحت الثرى في أقلّ من لحظة واحدة بل تدرك صفات الله مع كونه سبحانه

منزّهاً عن القرب و البعد و الجهة ومدرك القوّة العاقلة صفات الله و أفعاله و مدرك القوّة الباصرة هو الألوان و الأشكال و الجسم و السطح فنسبة شرف القوّة العاقلة إلى شرف القوّة الباصرة كنسبة شرف الوجود و العدم ، ثمّ إنّ أوّل حكم القوّة العاقلة وهدايتهاو نورها أنّ الوجود و العدم لا يجتمعان و لا يرتفعان وذلك مسبوق لا محالة بتصوّر مسمّى الوجود و العدم فكأنّه بهذين التصوّرين قد أحاط في الجملة بجميع الأمور و أمّا القوّة الباصرة فإنّها تدرك الأضواء والألوان و هما من أخسّ عوارض الأجسام والأجسام أخسّ من الجواهر الروحانيّة .

السادس أنّ القوّة العاقلة غنيّة في إدراكها العقليّ عن وجود المعقول في الخارج والقوّة الحاسّة محتاجة في إدراكها الحسّيّ إلى وجود المحسوس في الخارج ولاشكّ أنّ الغنيّ أشرف من المحتاج .

السابع أنّ الإدراك البصريّ لايتناول إلّا المقابل أو ما هو في حكم المقابل وأمّا القوّة العاقلة فإنّها تدرك ما يقابل و ما لايكون في الجهة و الباصرة يعجز عند الحجاب و هي لايحجبها شيء أصلاً فكانت أشرف .

الثامن : القوّة الباصرة قد تغلط لأنّها أحياناً تدرك المتحرّك ساكناً و الساكن متحرّكاً كالجالس في السفينة فإنّه قد يدرك السفينة المتحرّكة ساكنة والشطّ الساكن متحرّكاً و لولا العقل لما تميّز خطاء البصر عن صوابه فالعقل حاكم و الحسّ محكوم فالإدراك العقليّ أشرف من الإدراك الحسّيّ و كلّ واحد من الإدراكين يقتضي الظهور الّذي هو أشرف خواصّ النور فكان الإدراك العقليّ أولى بكونه نوراً من الإدراك البصريّ .

و إذا ثبت هذا فالأنوار العقليّة على قسمين : أحدهما : واجب الحصول عند سلامة الأحوال و هي التعقّلات الفطريّة . و الثاني : مايكون مكتسباً و هي التعقّلات النظريّة و هذه الأنوار الفطريّة إنّما حصلت بعد أن لم تكن فلا بدّلها من سبب وأمّا التعقّلات النظريّة فقد يعتريها الزيغ و الخطل في الأكثر و إذا كان كذلك فلا بدّ من هادو مرشد ولامرشد فوق كلام الله و لاهادي مثل الأنبياء فكلام الله عند عين العقل بمنزلة نور

الشمس عند عين الباصرة لا عند عين العمياء، إذ بنور الشمس يتمّ الإبصار فبالحريّ أن يسمّى القرآن نوراً كما يسمّى نور الشمس نوراً فنور القرآن يشبه نور الشمس و نور العقل يشبه نور العين و بهذا البيان يظهر معنى قوله : « فآمنوا بالله و رسوله و النور الّذي أنزلنا [١] » و قوله « قد جاءكم برهان من ربّكم و أنزلنا إليكم نوراً مبيناً [٢] » و إذا كان بيان الرسول أقوى من نور الشمس وجب أن يكون نفسه القدسيّة أعظم في النورانيّة من الشمس و كما أنّ الشمس في عالم الأجسام تفيد النور لغيره و لا تستفيده من غيره فكذا نفس النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يفيد الأنوار العقليّة لسائر الأنفس البشريّة و لا تستفيد الأنوار العقليّة من الأنفس البشريّة فلذلك و صف الله الشمس بأنّها سراج حيث قال سبحانه : « و جعل فيها سراجاً و قمراً منيراً [٣] » و وصف محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم بأنّه سراج منير .

إذا عرفت هذا فمن المعلوم عند العقل و النقل أنّ الأنوار الحاصلة في أرواح الانبياء مقتبسة من المبدء الأوّل و الفيض الأقدس الأعلى بتوسّط الملائكة كما قال تعالى : « ينزّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده [٤] » و قال تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك [٥] » و قال : « قل نزّله روح القدس من ربّك بالحقّ [٦] » و قال : « إن هو إلّا وحي يوحى * علّمه شديد القوى [٧] » و الوحي إلى النبيّ لا يكون إلّا بواسطة الملائكة والأنوار مختلفة فبعضها مفيدة و بعضها مستفيدة و لو أنّ المفيدة أيضاً مستفيدة من نور الأنوار قال تعالى في وصف جبرئيل : « مطاع ثمّ أمين [٨] » و إذا كان هو مطاع الملائكة فالمطيعون لابدّ و أن يكونوا تحت أمره ، وقال : « و ما منّا إلّا له مقام معلوم [٩] » فللأنوار درجات و ترقّيات حتّى تنتهي إلى من خلق

(١) التغابن : ٨ .
(٢) النساء : ١٧٣ .
(٣) الفرقان : ٦١ .
(٤) النحل : ٢ .
(٥) الشعراء : ١٩٣ .
(٦) النحل : ١٠٢ .
(٧) النجم : ٤ ، ٥ .
(٨) التكوير : ٢١ .
(٩) النمل : ١٦٤ .

و أظهر وجود هذه الأنوار فحينئذ، هذه الأنوار الحسيّة و العقليّة و الروحانيّة مثل جبرئيل بأسرها ممكنة لذواتها والممكن لذاته يستحقّ العدم من ذاته والعدم هو الظلمة الحاصلة و الوجود هوالنور فكلّ ما سوى الله مظلم لذاته مستنير بإنارة الله و كذا جميع معارفها بعد وجودها حاصل بإيجادالله و وجود الله فهوالّذي أظهر الأنوار بالوجود بعد أن كانت في ظلمات العدم و أفاض عليها أنوار المعارف فلا ظهور لشيء من الأشياء إلّا بإظهاره و أعطى النور النور و الانكشاف و التجلّي .

فثبت أنّ النور المطلق بحسب الوجود هوالله و أنّ إطلاق النور على غيره مجاز إذ كلّ ما سواه فإنّه من حيث هو هو ظلمة محضة لأنّه من حيث إنّه هو عدم محض بل الأنوار إذا نظرنا إليها من حيث هي هي فهي ظلمات لأنّها من حيث هي هي ممكنات و الممكن من حيث هو هو معدوم والمعدوم مظلم فالنور إذا نظرنا إليهمن حيث هوهوظلمة و من حيث إنّ الله أفاض عليهانعمةالوجود فبهذا الاعتبار صارت أنواراً . فثبت أنّه سبحانه هو النور و أنّ كلّ ما سواه فليس بنور إلّا على سبيل المجاز .

و هذا الكلام عن الشيخ الغزالي يرجع حاصله بعد التحقيق إلى معنى كونه سبحانه هادي أهل السماوات والأرض فلا تفاوت بين ما قاله و بين الّذي قاله المفسّرون في المعنى .

رجعنا إلي تفسير الآية : [الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة] اعلم أنّهلابدّفي التشبيه من المشبّهوالمشبّه به وعلى ماذكرناوفصّلنا فالمشبّه فيالآية وهوالنور هداية الله و آياته البيّنات كما هو قول جمهور المتكلّمين و المعنى أنّ هداية الله تعالى بلغت في الجلاء و الظهور إلى أقصى الغاية بمنزلة المشكاة الّتي تكون فيها زجاجة ومعنى المشكاة قيل : القنديل أو الكوّة في الحائط الّتي جعل فيها زجاجة صافية و في الزجاجة مصباح يتّقدبزيت بلغ النهاية في الصفاء .

فإن قيل: لم شبّه بذلك و قد علمنا أنّ ضوء الشمس أبلغ وأقوى من ذلك بكثير ؟

قلنا :إنّه سبحانه أراد أن يصف الضوء الكامل الّذي يلوح فيوسط الظلمة وهدايته فيما بينها تلوح لأنّ الغالب على أوهام الخلق الشبهات الّتي هي كالظلمات و هدايةالله

فيها كالضوء الكامل و هذا المقصود لا يحصل من تشبيه ضوء الشمس لأنّ ضوء الشمس إذا ظهر امتلأ العالم من النور الخالص فهذا المثل أليق بالمقصود.

و في المثل اُمور توجب كمال الضوء :

فأوّلها : المصباح و هو الفتيلة و الشمعة لأنّ المصباح إذا لم يكن في القنديل تفرّقت أشعّته أمّا إذا وضعت الشمعة في المشكاة اجتمعت أشعّته فكانت أكثر إنارة والّذي يصدّق هذا البيان أنّ المصباح إذا كان في زجاجة صافية فإنّ الأشعّة المنفصلة عن المصباح تنعكس من بعض جوانب الزجاجة إلى البعض لما في الزجاجة من الشفّافيّة و الصفاء وبسبب ذلك يزداد الضوء والنور كما أنّ إذا وقع شعاع الشمس على الزجاجة الصافية تضاعف الضوء.

و ثانيها أنّ ضوء المصباح يختلف بحسب اختلاف ما يتّقد به فإذا كان ذلك الدهن صافياً خالصاً كانت حالته بخلاف ما إذا كان كدراً و ليس من ذلك الوقت في الأدهان الّتي توقد ما يظهر فيه من اللون والصفاء مثل الّذي يظهر في الزيت.

و ثالثها أنّ هذا الزيت يختلف بحسب اختلاف شجره فإذا كان غير شرقيّة و غير غربيّة (١).

و في معنى قوله « لا شرقيّة و لا غربيّة » ذكروا وجوهاً :

الأوّل : لا يفيء عليها ظلّ شرق ولا ظلّ غرب بل الزيتونة مصاحبة للشمس غير مفارقة لها لا يظلّها جبل ولا شجر ولا كهف فزيتها يكون أصفى حينئذ و حاصل المعنى على هذا التقدير أنّ الزيتونة تكتسب حرارة الشمس من حين طلوع الشمس إلى غروبها حال النهار كالّتي على قلّة من الجبل و صحراء واسعة ، و هذا قول ابن عبّاس وسعيد بن جبير و قتادة.

وقيل معناه : لا شرقيّة وحدها ولا غربيّة وحدها أي لا في مضحى تشرق الشمس عليها دائماً فتحرقها و لا في مقناة تغيب عنها دائماً فتتركها نيّاً . وفي الحديث لا خير في مقناة و لا خير فيها في مضحى فحينئذ الشجرة الحسنة المثمرة ما كانت تصيبه الشمس والظلّ كلاهما.

---

(١) كذا في الاصل.

و قيل : معناه أنّ الزيتونة ليست من شجرة الدنيا فتكون شرقيّة و غربيّة .

و قيل : أن لا تكون الزيتونة من شجر الشرق و لا من شجر الغرب لأنّ ما اختصّ بإحدى الجهتين كان أقلّ زيتاً وأضعف ضوءاً ولكنّها من شجر الشام وهي مابين الشرق و الغرب .

و بالجملة الله ذونور السماوات و الأرض (ومثله : إنّه عمل غير صالح)أي منورّها و مثل نوره الّذي هدى بهالمؤمنين وهو الإيمان و دلائل التوحيد أومثل نوره الّذي هو القرآن في القلب أو مثل طاعة الله في قلب المؤمن كقنديل فيه شمعة .

و في الآية قلب أي مثل شمعة في مشكاة و قنديل . ويوضع ذلك السراج والمصباح في زجاجة و سمّي الشمع و الفتيلة المشتعلة بالمصباح لأنّ فيه أثر الضوء كالصبح .

[كأنّها كوكب دريّ] أي تلك الزجاجة مثل الكوكب العظيم الّذي يشبه الدرّ في صفائه و نوره و إذا جعلته من الدرء و هو الدفع و دمغ الظلمة فمعناه المندفع السريع الوقع في الانقضاض كالزهرة كأنّه تنتشر منه الضوء إذا نظرت إليه .

قوله : [يوقد من شجرة مباركة] أي يشتعل ذلك المصباح من دهن شجرة مباركة [زيتونة] أراد بالشجرة المباركة شجرة الزيتون لأنّ فيها أنواع البركات لأنّ بزيته يتسرّج و هو أدام و دهان و دباغ و يوقد بحطبه و ثفلة ويغسل برماده الأبريسم ودهنها أصفى و أضوء و قيل : لأنّها أوّل شجرة نبتت في الأرض بعد الطوفان و منبتها منزل الأنبياء لأنّها نبتت في بيت المقدس و بارك فيها سبعون نبيّاً منهم إبراهيم فلذلك سمّيت مباركة .

[لاشرقيّة ولاغربيّة] ذكر تفسيرها .

[يكاد زيتها يضيء و لو لم تمسسه نار] أي من فرط صفائه يقرب أن يشتعل و ينير من قبل أن تصيبه النار .

ثمّ ههنا تحقيق و هو أنّ المحقّقين اختلفوا في المشبّة والمشبّه به كماأشرنا إليه قيل : إنّه مثل ضربه لنبيّه محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم فالمشكاة صدره ، و الزجاجة قلبه ، و المصباح النبوّة ، لا شرقيّة و لاغربيّة أي لا يهوديّة و لا نصرانيّة يوقد من شجرة مباركة أي

شجرة نبوّة إبراهيم الخليل عليه السلام يكاد زيتها يضيء يقرب نور محمّد صلى الله عليه وآله وسلم يبيّن للناس ولولم يتكلّم به كما أنّ ذلك الزيت يكاد يضيء و لولم تمسسه نار و هذا البيان عن كعب وجماعة من المفسّرين .

وقيل : إنّ المشكاة إبراهيم عليه السلام والزجاجة إسماعيل عليه السلام والمصباح محمّد صلى الله عليه وآله وسلم كما سمّي سراجاً .

وقيل : من شجرة مباركة يعني محمّد من شجرة مباركة إبراهيم لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم و أكثر الأنبياء من صلب إبراهيم لا شرقيّة و لا غربيّة أي ملّته حنيفيّة لانصرانيّة ولا يهوديّة لأنّ النصارى تصلّي إلى المشرق و اليهود إلى المغرب يكاد زيت نور محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و محاسنه تظهر قبل أن يوحى إليه نور على نور أي نبيّ من نسل نبيّ .

وقيل : إنّ المشكاة عبد المطّلب والزجاجة والمصباح وهو النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لاشرقيّة ولا غربيّة بل مكّيّة لأنّها وسط الدنيا عن الضحّاك .

و روي عن الرضا عليه السلام أنّه قال : نحن المشكاة فيها المصباح محمّد صلى الله عليه وآله وسلم يهدي الله بولايتنا من قبل و لايتنا وأحبّ .

و في كتاب التوحيد لأبي جعفر بن بابويه بالإسناد عن عيسى بن راشد عن الباقر عليه السلام في قوله « كمشكاة فيها مصباح » قال : نور العلم في صدر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هو المصباح، في زجاجة الزجاجة صدر عليّ عليه السلام صار علم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى صدر عليّ عليه السلام علّم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عليّاً ، يوقد من شجرة مباركة نور العلم لاشرقيّة و لاغربيّة لايهوديّة ولانصرانيّة يكاد العالم من آل محمّد عليهم السلام يتكلّم بالعلم قبل أن يسأل ، نور على نور إمام مؤيّد بنور العلم و الحكمة في أثر إمام من آل محمّد عليهم السلام و ذلك من لدن آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة فهؤلاء الأوصياء الّذين جعلهم الله خلفاء في أرضه لا تخلو الأرض في كلّ عصر من واحد منهم قال أبوطالب :

أنت الأمير محمّد قرم أغرّ مسوّد * لمسوّدين أطاهر كرموا وطاب المولد
أنت السعيد من السعود فكنّفتك الأسعد * من لدن آدم لم تزل فينا وصيّ مرشد
ولقد عرفتك صادقاً و القول لا يتفنّد * مازلت تنطق بالصواب وأنت طفل أمرد

و الحاصل من جملة هذه البيانات أنّ الشجرة المباركة المذكور في الآية هي دوحة التقى و الرضوان و عترة الهدى والإيمان شجرة أصلها النبوّة وفرعها الإمامة و أغصانها التنزيل و أوراقها التأويل وخدمها جبريل و ميكائيل.

ويمكن أن يؤوّل معنى الآية أنّه مثل ضربه الله للمؤمن و المشكاة نفسه و الزجاجة صدره والمصباح الإيمان والقرآن في قلبه يوقد من شجرة مباركة هي الإخلاص لله وحده فهي خضرة ناعمة كشجرة خضرة دائمة كشجرة الزيتونة لا شرقيّة و لا غربيّة لا تضرّه الشمس ولا الفيء وقد احترز من أن يصيبه القتر فهو في بين أربع خلال: إن أُعطي شكر، و إن ابتلي صبر، و إن حكم عدل، و إن قال صدق. فالمؤمن في سائر الناس كالرجل يمشي بين قبور الأموات نور على نور كلامه نور وعلمه نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره إلى نور يوم القيامة.

عن أُبيّ بن كعب و عن الحسن و ابن زيد قالوا: إنّه مثل القرآن في قلب المؤمن فكما أنّ هذا المصباح يستضاء به وهو كما هو لا ينقص فكذلك القرآن يهتدي به و يعمل به فالمصباح هو القرآن و الزجاجة قلب المؤمن و المشكاة لسانه و فمه و الشجرة المباركة شجرة الوحي يكاد زيتها يضيء يكاد حجج القرآن تتّضح و إن لم تقرء و تضيء لمن تفكّر فيها و تدبّرها و لو لم يزل القرآن فإنّ الدلائل على التوحيد يترتّب بعضها على بعض و المؤمن يستفيد منها بمراعاة الترتيب من ضوء نور السراج على ضوء الزيت على ضوء الزجاجة.

قوله: [يهدي الله لنوره من يشاء] أي يهدي الله لدينه وإيمانه من يشاء بأن يفعل له لطفاً و يختار عنده الإيمان إذا علم منه القبول واختيار لعبوديّة قيل: معناه: يهدي الله لنبوّته و خلافته من يشاء ويعلم أنّه يصلح لذلك.

[و يضرب الله الأمثال للناس والله بكلّ شيء عليم] تقريباً للأفهام وتسهيلاً للمرام و هو بكلّ شيء عليم كثير العلم فيضع الأشياء مواضعها.

[في بيوت أذن الله أن ترفع] هذه المشكاة توقد في بيوت يتلى فيها كتابه وأسماؤه الحسنى و هي المساجد في قول ابن عبّاس و جماعة و يؤيّده قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: المساجد

بيوت الله في الأرض و هي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض .

و قيل : إنّها أربع مساجد لم يبنها إلّا نبيّ: الكعبة بناها إبراهيم و إسماعيل و مسجد بيت المقدس بناها داود و سليمان و مسجد المدينة و مسجد قبا بناهما رسول الله .

وقيل : هي بيوت الأنبياء و روي ذلك مرفوعاً أنّه سئل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لمّا قرأ الآية: أيّ بيوت هذه فقال: بيوت الأنبياء فقام أبوبكر و قال : يا رسول الله هذا البيت منها لبيت عليّ وفاطمة ؟ قال : نعم أفاضلها . ويعضد هذا الحديث قوله تعالى: « إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً [(١)] » و قوله « رحمة الله و بركاته عليكم أهل البيت [(٢)] » والمراد بالرفع التعظيم والتطهير .

و قيل : المراد برفعها رفع الحوائج فيها إلى الله . وقيل: المراد من رفعها بناؤها من قوله « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت [(٣)] » .

قوله : [ويذكر فيها اسمه] قيل : المراد قراءة القرآن وقيل :إنّه عام في كلّ ذكر أولا يتكلّم فيها بما لاينبغي [يسبّح له فيها بالغدوّ والآصال] أي يصلّي فيها بالبكرة و العشيّ قال ابن عبّاس : كلّ تسبيح في القرآن صلاة و قيل : الصلوات الخمس و منهم من حمله على صلاتي الصبح و العصر فكانتا واجبتين في الابتداء ثمّ زيد فيهما أو المراد تنزيه الله عمّا لايليق به و وصفه بالصفات الّتي يستحقّها لذاته و أفعاله الّتي كلّها حكمة و صواب .

ثمّ بيّن سبحانه المسبّح [رجال لاتلهيهم] ولا تشغلهم [تجارة و لابيع عن ذكر الله و إقام الصلاة] أي عن إقامة الصلاة حذف التاء و التاء عوض عن الواو في « إقوام » فلمّا أضافه صار المضاف إليه عوضاً عن الهاء . وروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله أنّهم قوم إذا حضرت الصلاة تركوا و انطلقوا إلى الصلاة و هم أعظم أجراً ممّن يتّجر و إنّما خصّ الرجال بالذكر لأنّ النساء لسن من أهل التجارة .

---

(١) الاحزاب : ٣٣ .

(٢) هود : ٧٢ .

(٣) البقرة : ١٢٧ .

قوله تعالى: [وإيتاء الزكاة] يريد الزكاة المفروضة أو إخلاص الطاعة لله [يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب و الأبصار] إذ يوم القيامة تتقلّب فيه أحوال القلوب و الأبصار تنتقل من حال إلى حال فتلفحها النار ثمّ تنضجها ثمّ تحرقها. وقيل: تتقلّب فيه القلوب بين الطمع في النجاة و الخوف من الهلاك و تنقلب الأبصار يمنة و يسرة من أين كتبهم يؤتى وأين يؤخذ بهم أمن قبل اليمين أم من قبل اليسار و قيل: تتقلّب فيه القلوب ببلوغها الحناجر والأبصار بالعمى بعد البصر وقيل: معناه تنتقل القلوب عن الشكّ إلى اليقين فمن كان شاكّاً في دنياه أبصر في آخرته ومن كان عالماً ازداد بصيرة وعلماً فهو مثل قوله: «فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد [١]».

قوله: [ليجزيهم الله أحسن ما عملوا و يزيدهم من فضله] أي يفعلون ذلك طلباً لمرضاة الله و لمجازاتهم بأحسن ما عملوا ولتفضّله عليهم بالزيادة على ما استحقّوه بأعمالهم من فضله و كرمه.

[والله يرزق من يشاء بغير حساب] و الثواب لا يكون إلّا بحساب و التفضّل يكون بغير حساب.

قوله تعالى: و الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً و وجد الله عنده فوفه حسابه و الله سريع الحساب (٣٩) أو كظلمات في بحر لجي يغشه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها و من لم يجعل الله له نوراً فماله من نور (٤٠).

لمّا ذكر سبحانه حال المؤمن و إنّه لإيمانه في النور و كالنور و يكون بسببه متمسّكاً بالعمل الصالح في الدنيا و في الآخرة فائزاً بالنعيم المقيم أتبع في هذه الآية بأنّ الكافر يكون في الآخرة في أشدّ الخسران وفي الدنيا في أعظم الظلمات فقال:

[و الّذين كفروا أعمالهم] الّتي يعملونها و يعتقدونها أنّها طاعات [كسراب بقيعة] كشعاع يتخيّل كالماء يجري على الأرض الواسعة المنبسطة يظنّه العطشان ماء [حتّى إذا جاءه] يشرب منه رأى أرضاً لاماء فيها [و لم يجده شيئاً] ممّا قدّر كذلك الكافر يحسب ما قدّم من عمله نافعاً له و ليس له عليه ثواب والإلّ والسراب واحد وهو

(١) ق: ٢٢.

ما يتراءى للعين وقت الضحى الأكبر في الفلوات سارب شبيه بالماء الجاري و ليس هو بشيء فشبّه سبحانه عمل الكافر في القيامة به كما أنّه ليس بشيء كذلك عمله ليس بشيء.

أمّا قوله : [و وجد الله عنده فوفّاه حسابه] أي، وجد عقاب الله الّذي توعّد به الكافر عند ذلك فتغيّر ما كان فيه من ظنّ النفع العظيم إلى تيقّن الضرر العظيم أووجد زبانية الله عنده يأخذونه فيقبلون به إلى جهنّم فيسقونه الحميم و الغسّاق . و هم الّذين قال الله في حقّهم « عاملة ناصبة » (١) و « يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً » (٢).

و قيل : إنّ الآية نزلت في عتبة بن ربيعة بن اُميّة كان قد تعبّد ولبس المسوح و التمس الدين في الجاهليّة ثمّ كفر في الإسلام.

أمّا قوله : [والله سريع الحساب] لا يشغله حساب عن حساب فيحاسبهم في حالة واحدة قال أمير المؤمنين عليه السلام: كما يرزقهم في حالة واحدة.

قوله : [أو كظلمات في بحر لجّيّ] هذا المثل الثاني ؛ شبّه عقائد الكفّار وأعمالهم في الدنيا بالظلمات الواقعة في البحر اللجّيّ و هو البحر البعيد القعر و ذواللجّة الّتي هي معظم الماء الغمر يكون قعره مظلماً جدّاً بسبب غمورة الماء . قوله : [يغشاه موج من فوقه موج] فإذا ترادفت على غمور الماء الأمواج ازدادت الظلمة . قوله : [من فوقه سحاب] فإذا كان فوق الأمواج سحاب بلغت الظلمة النهاية القصوى.

و الحاصل أنّ الواقع في قعر هذا البحر اللجّيّ يكون في نهاية شدّة الظلمة فالكافر من جهله و حسرته كمن في هذه الظلمات لأنّه من عمله و قوله و اعتقاده متقلّب في ظلمات ثلاث قال اُبيّ بن كعب : إنّ الكافر يتقلّب في خمس ظلمات: كلامه ظلمة وعمله ظلمة و مدخله ظلمة و مخرجه ظلمة و مصيره يوم القيامة إلى ظلمة و هي النار.

[إذا أخرج يده لم يكد يراها]وهذه مبالغة في الظلمة لأنّ العادة في اليد أنّها من أقرب أعضاء يراها الإنسان و من أبعد أعضاء لا يراها الإنسان فذكر سبحانه أنّ الظلمة بحيث إذا أراد الكافر أن يرى يده غير قريبة للرؤية أولا يراها فهو نفي للرؤية و عن مقاربة

---

(١) الغاشية : ٣.

(٢) الكهف : ١٠٥.

الرؤية لأنّ دون هذه الظلمة لايرى فيها و حكم «كاد»إذا لم يدخل عليها حرف نفي أن يكون نافية و إذا دخل دلّت على أن يكون الأمر دفع بعد بطء أولا يقع .

قوله تعالى : [و من لم يجعل الله نوراً فماله من نور] و الكافر ضدّ المؤمن في قوله « نور على نور » وقوله : «يسعى نورهم بين أيديهم و بأيمانهم » ومن لم يكن له في الدنيا نور الإيمان بعدم قبوله وسوء اختياره فماله مخلصاً ونوراً في الآخرة ولا يفوز بالسعادات الأبديّة .

قوله تعالى : الم تر أن الله يسبح له من فى السموات و من فى الارض و الطير صافات كل قد علم صلوته و تسبيحه و الله عليم بما يفعلون (٤١) و لله ملك السموات و الارض و الى الله المصير (٤٢) الم تر ان الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله و ينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار (٤٣) يقلب الله الليل و النهار ان فى ذلك لعبرة لاولى الابصار (٤٤) و الله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه و منهم من يمشى على رجلين و منهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شىء قدير (٤٥) لقد أنزلنا آيات مبينات و الله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم (٤٦) .

قوله تعالى : [ألم]تعلم الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم و المراد جميع المكلّفين [أنّ الله يسبّح له من في السماوات و الأرض] و المراد من التسبيح التنزيه لله عمّا لايليق به أي ينزّه ذاته أهل السماوات و الأرض بألسنتهم وقيل : عنى به العقلاء و غير العقلاء و كنّي عن الجميع بلفظة من تغليباً للعقلاء على غيرهم [و الطير صافّات] أي و يسبّح له الطير واقفات في الجوّ مصطفّات الأجنحة في الهواء وتسبيحها ما يرى عليها من آثار الحدوث لأنّ حركاتها وحدوثها دلالات على الخالق القادر المختار موصوفاً بصفات الجلال منزّهاً عن النقائص و الزوال أو المراد أنّها تنطق بألسنتها بالتسبيح و ينطق و تتكلّم به كما أنّ من العقلاء أيضاً من يسبّح بلسانه كالمؤمن و يسبّح بدلالة وجوده كالكافر و وقوف الطير في الهواء مع هذا الجرم الثقيل لما فيها من القبض و البسط من أعظم الدلائل .

[كلّ قد علم صلاته و تسبيحه] أي إنّ جميع ذلك قد علم الله تسبيحه و صلاته و دعاءه إلى توحيده و تنزيهه و قيل : إنّ الصلاة للإنسان و التسبيح لغيره و قيل : الضمير في « علم » راجع إلى المصلّي و المسبّح أي كلّ منهم يعلم وقت تسبيحه و دعائه و يؤدّيه إلى وقته و القول الأوّل أقرب لأنّ الأشياء كلّها لا يعلم كيفيّة دلالتها على الله و إنّما يعلم الله تعالى ذلك ؛ و روي عن أبي ثابت قال: كنت جالساً عند أبي جعفر عليه‌السلام فقال: لي أتدري ما تقول هذه العصافر عند طلوع الشمس و بعد طلوعها ؟ قلت : لا . قال : فإنّهنّ يقدّسن ربّها و يسألنه قوت يومهنّ .

و بالجملة إنّ جميع الأشياء يسبّح ربّها إمّا بالنطق أو بعضها يسبّح بالدلالة كما أنّا نشاهد بعض الحيوانات ملهمات اُموراً في تحصيل رزقهنّ بأعمالهم لطيفة يعجز عنها أكثر العقلاء فإذا كان كذلك فلمَ لا يجوز أن يلهمها دعاءه و تسبيحه و معرفته ؛ تأمّل في العنكبوت كيف يأتي بالحبل اللطيفة في اصطياد الذباب ، و قد حكي عن الفار اُمور عجيبة و كذلك النحل .

وقد نقل عن بعض الصيّادين في كتاب طبائع الحيوان أنّ الحبارى تقاتل الأفعيّ فتنهشه الأفعيّ فتنهزم من الأفعيّ إلى بقلة تتناول منها ثمّ تعود و تقتل الأفعيّ و تأكله و قد نقل شيخ أنّه كان قاعداً في كنّ غار و كانت تلك البقلة قريبة من الغار من مكامن الحبارى فلمّا اشتغل الحبارى بالأفعيّ قلع الشيخ البقلة فعادت الحبارى إلى منبت البقلة لكي تأكلها و تتداوى بها ففقدته وأخذت تدور حول منبتها دوراناً متتابعاً حتّى خرّت ميّتة فعلم الشيخ أنّها تتعالج بأكلها من اللسعة وتلك البقلة هي الجرجر البرّيّ .

و كذلك القنافذ تحسّ بالعواصف من الشمال و الجنوب قبل الهبوب فتغيّر المدخل إلى جحرها و كان بالقسطنطنيّة رجل قد أثرى و تموّل بسبب أنّه كان ينذر بالرياح قبل هبوبها و ينتفع من الناس بهذا الإنذار وكان السبب فيه قنفذاً في داره يفعل الصنيع المذكور فيستدلّ الرجل به .

و كذلك اللقالق إذا جرحت بعضها بعضاً داوت جراحها بالصعتر الجبليّ و كذلك ابن عرس يستظهر في قتال الحيّة بأكل السداب فإنّ النكهة السدابيّة ممّا تنفر منها

الأفاعيّ و تعجز منها و كذلك الغرانيق تصعد في الجوّ جدّاً عند الطيران فإن حجب بعضها عن بعض ضباب أو سحاب أحدثت عن أجنحتها حفيفاً مسموعاً يلزم به بعضها بعضاً و إذا نامت و انتصرت على جبل فإنّها تضع رؤوسها تحت أجنحتها إلّا القائد فإنّه ينام مكشوف الرأس يسرع إليه انتباهه فإذا سمع صوتاً صاح . و حال النمل معلوم في الذهاب إلى مواضعها على خطّ مستقيم .

و بالجملة فكلّ ما عداه سبحانه من الفلك والملك شواهد قدرته و ألوهيّته وناطق بوحدانيّته و هو سبحانه كما قال سيد الشهداء عليه السلام في دعاء عرفة : متى غبت حتّى تحتاج إلى شهود .

قوله تعالى : [و الله عليم بما يفعلون] أي عالم بأفعالهم و الفعل يعمّ الجزئيّ و الكلّيّ و هذا الكلام ردٌّ على من يزعم أنّه سبحانه غير عالم بالجزئيّات .

[و لله ملك السماوات و الأرض] و كيف لغيره ولا يقدر على خلقها غيره ولا يصحّ إلّا له سبحانه [و إلى الله المصير] المرجع يوم القيامة .

ثمّ قال : [ألم تر أنّ الله يزجي سحاباً] ألم تر أنّه يسوق بأمره السحاب سوقاً رفيقاً إلى حيث يريد [ثمّ يؤلّف بينه] ويضمّ بعضه إلى بعض فيجعل القطع المتفرّقة منه قطعة واحدة [ثمّ يجعله ركاماً] متراكماً متراكباً بعضه فوق بعض [فترى الودق يخرج من خلاله] وترى المطر يخرج من خلال السحاب ومن مخارج القطر من السحاب ، والسحاب واحد في اللفظ ومعناه الجمع والركم جمع الشيء فوق الشيء وخلال جمع خلل مثل جبال جمع جبل أي يجري المطر من مخارق السحاب و شقوقه و كلّ ذلك من التأليف والتراكم وسوق السحاب و تحمّل السحاب الماء الكثير من عجائب قدرته وخلقه .

وقال أهل الطبائع : إنّ تكوّن السحاب والمطر والثلج والبرد والطلّ والصقيع يكون من تكاثف البخار في الأكثر والأقلّ من تكاثف الهواء فقالوا :

البخار الساعد إن كان قليلاً و كان في الهواء من الحرارة ما يحلّل ذلك البخار فتلك الأبخرة تنحلّ وتنقلب هواء وإن كان البخار كثيراً ولم يكن في الهواء من الحرارة

ما يحلّل ذلك البخار فتلك الأبخرة المتصاعدة إمّا أن تبلغ في صعودها إلى الطبقة الباردة من الهواء أولا تبلغ فإن بلغت فإمّا أن يكون البرد هناك قويّاً أولا يكون فإن لم يكن البرد قويّاً تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد واجتمع وتقاطر فالبخار المجتمع هو السحاب والمتقاطر هو المطر والديمة والوابل إنّما يكون من أمثال هذه الغيوم وإمّا أن يكون البرد شديداً فلا يخلو إمّا أن يصل البرد إلى الأجزاء البخاريّة قبل اجتماعها حبّات كباراً أو بعد صيرورتها كذلك فإن كان وصل البرد قبل اجتماعها نزل ثلجاً و إن كان وصل البرد بعد اجتماعها نزل برداً هذا كلّه إذا بلغت الأبخرة في الصعود إلى الطبقة الباردة .

و أمّا إذا لم تبلغ فهي إمّا أن تكون كثيرة أوتكون قليلة فإن كانت كثيرة فهي قد تنعقد سحاباً ماطراً و قد لا تنعقد أمّا الأوّل وهو الماطر فذاك لأحد أسباب عديدة : أحدها : إذا منع هبوب الرياح عن تصاعد تلك الأبخرة أو يتّفق أن يكون الرياح متقابلة متصادمة تمنع صعود الأبخرة حينئذ و ضاغطة إيّاها إلى الاجتماع بسبب وقوع جبال قدّام الريح أو أن يعرض بها شدّة برد الهواء القريب من الأرض كما أنّه يشاهد بعض الأحيان البخار يصعد في بعض الجبال صعوداً يسيرا حتّى كأنّه مكبّ موضوع على وهدة و يكون الناظر إليها فوق تلك الغمامة والّذين يكونون تحت الغمامة يمطرون والّذين فوقها يكونون في الشمس و أمّا إذا كانت الأبخرة القليلة الارتفاع قليلة لطيفة فإذا ضربها برد الليل كثفها وعقدها ماء محسوساً فنزل نزولاً متفرّقاً لا يحسّ به إلّا عند الاجتماع إلى مقدار معتدّ به فإن لم يجمد كان طلّاً و إن جمد كان صقيعاً و نسبة الصقيع إلى الطلّ بنسبة الثلج إلى المطر انتهى كلام الطبايعين .

والجواب أنّا لمّا سلّمنا حدوث الأجسام و دلّلنا أنّ إحداثها و إيجادها بحكم القادر المختار لم يمكننا القطع بما ذكروه لاحتمال أنّه سبحانه خلق أجزاء السحاب دفعة لا بالطريق الّذي ذكروه وهب أنّ الأمر كما ذكرتموه ولكنّ الأجسام بالاتّفاق ممكنة في ذواتها فلا بدّ لها من مؤثّر ثمّ إنّها متماثلة فاختصاص كلّ واحد منها بصفة معيّنة من الصعود والنزول و اللطافة و الكثافة والحرارة والبرودة لا بدّ لها من جاعل

ومخصّص فإذا كان هو سبحانه خالقاً لتلك الطبائع وتلك الطبائع مؤثّرة في هذه الأحوال فخالق السبب خالق المسبّب فكان سبحانه هوالّذي يزجي السحاب لأنّه هوالّذي خلق تلك الطبائع المحرّكة لتلك الأبخرة من باطن الأرض إلى جوّ الهواء فثبت على جميع التقادير أنّ وجه الاستدلال بهذه الأشياء على الخالق القادر ظاهر بيّن .

قوله تعالى : [و ينزّل من السماء من جبال فيها من برد] أي و ينزّل من جبال في السماء تلك الجبال من البرد خلقها الله تعالى كذلك ثمّ ينزل منها ما شاء وهذا القول عليه أكثر المفسّرين و قيل : إنّ المراد من السماء الغيم المرتفع على رءوس الناس سمّي بذلك لسموّه و ارتفاعه وإنّه تعالى أنزل من هذا الغيم الّذي هو سماءُ البرد و أراد بقوله «من جبال» السحاب العظام لأنّها إذا عظمت أشبهت الجبال كما يقال: فلان يملك جبالاً من مال أوله بيتان من التبر، و وصفت بذلك توسّعاً .

وقال بعض المفسّرين : إنّما سمّى الله ذلك الغيم جبالاً لأنّه سبحانه خلقها من البرد و كلّ جسم شديد متحجّر فهومن الجبال فطبعه و خلقته كذلك ومنه قوله «و اتّقوا الّذي خلقكم والجبلّة الأوّلين(١) » و منه فلان مجبول على كذا أي مطبوع .

قال أبوعليّ الفارسيّ قوله تعالى : « من السماء من جبال فيها من برد » فمن الأولى لابتداء الغاية لأنّ ابتداء الإنزال من السماء و الثانية للتبعيض لأنّ ما ينزله بعض تلك الجبال الّتي في السماء و الثالثة للتبيين لأنّ جنس تلك الجبال جنس البرد ويمكن أن يكون البرد يجتمع في السحاب كالجبال ثمّ ينزل منها .

[فيصيب به] أي بالبرد [من يشاء] فيهلك زرعه و ماله [ويصرفه عن من يشاء] و يدفع ضرره عمّن يشاء و يعلم المصلحة بدفعه و ضرره فيكون إصابته نقمة و دفعه نعمة و في الكافي عن الصادق عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ الله سبحانه جعل السحاب غرابيل للمطر هي تذيب البرد لكي لا يضرّ شيئاً يصيبه والّذي ترون فيه من البرد و الصواعق نقمة من الله تعالى يصيب بها من يشاء من عباده و فيه عنه عليه السلام : البرد لا يؤكل لأنّ الله يقول : يصيب به من يشاء .

(١) الشعراء : ١٨٤ .

و في حديث يذكر فيه الرياح قال : و بها يتألّف المفترق و بها يفترق الغمام المطبق حتّى ينبسط في السماء كيف يشاء و يدبّره فيجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله بقدر معلوم لمعاش مفهوم و أرزاق مقسومة و آجال مكتوبة و في الفقيه عن الباقر عليه‌السلام في حديث يذكر فيه أنواع الرياح قال : و منها رياح تحبس السحاب بين السماء و الأرض و رياح تعصر السحاب فتمطره بإذن الله و رياح تفرّق السحاب .

قوله : [يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار] أي يقرب ضوء برق السحاب من أن يذهب بالبصر و يخطفه بشدّة لمعانه نوره كما قال : « يكاد البرق يخطف بالأبصار [1] » و قرىء برقة جمع برقة و « سنا » قرىء ممدوداً و مقصوراً أي يقرب ضوؤه العالي المرتفع يذهب بالأبصار و التاء زائدة و وجه الاستدلال بقوله « يكاد سنا برقه » أنّ البرق الّذي يكون صفته ذلك لابدّ و أن يكون ناراً عظيمة خالصة كما أنّه قد شوهد مراراً أنّ البرق تحرق الحديد الصلب والشجرة المثمرة والنار ضدّ الماء فظهوره من البرد حصل ظهور الضدّ من الضدّ و لا يكون ذلك إلّا لقوّة قاهرة من القادر الحكيم .

قوله: [يقلّب الله الليل والنهار] و يصرفهما في اختلافهما و تعاقبهما و إدخال أحدهما في الآخر [إنّ في ذلك] التقليب [لعبرة] و دلالة [لاُولي الأبصار] أي لذوي العقول والبصائر .

[والله خلق كلّ دابّة من ماء] لمّا استدلّ سبحانه على التوحيد من آثار العلويّة استدلّ في هذه الآية من آثار الحيوانيّة فقال : [والله خلق] وههنا سؤالات :

منها أنّه لمَ قال الله : « والله خلق كلّ دابّة من ماء » مع أنّ كثيراً من الحيوانات غير مخلوقة من الماء أمّا الملائكة فهم من أعظم الحيوانات عدداً و هم مخلوقون من نور و أمّا الجنّ فهم مخلوقون من النار و خلق الله آدم من تراب و خلق عيسى من الريح لقوله « فنفخنا فيه من روحنا [2] » و أيضاً إنّ كثيراً من الحيوان متولّد لامن النطفة . و أجابوا بأجوبة و الأحسن ما قاله القفّال المروزي وهو أنّ قوله « من ماء » صلة

(١) البقرة : ٢٠ .
(٢) الانبياء : ٩١ .

« كلّ دابّة » و ليس هو من صلة « خلق » والمعنى أنّ كلّ دابّة متولّدة من الماء فهي مخلوقة لله .

والجواب الثاني أنّ أصل جميع المخلوقات الماء على ما يروى : أوّل ما خلق الله جوهرة فنظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء ثمّ من ذلك الماء خلق النار و منها الجنّ والهواء و النور و منه خلق الملائكة و لمّا كان المقصود من هذه الآية بيان أصل الخلقة و كان الأصل الأوّل هو الماء لاجرم ذكره على المذكور .

والجواب الثالث أنّ المراد من الدابّة الّتي تدبّ في الأرض و مسكنهم هناك فيخرج عنه الملائكة و الجنّ و لمّا كان الغالب جدّاً من هذه الحيوانات كونهم مخلوقين من الماء أمّا لأنّها من النطفة متولّدة و إمّا لأنّها لاتعيش إلّا بالماء لاجرم أطلق لفظ الكلّ تنزيلاً للغالب منزلة الكلّ توسّعاً .

قوله : [فمنهم من يمشي على بطنه] كالحيّة و الدود و الحوت [و منهم من يمشي على رجلين] كالإنس والدجاج والطير [ومنهم من يمشي على أربع] كالأنعام والوحوش و السباع و لم يذكر ما يمشي على أكثر لأنّ العبرة بالأربع . قال الحكماء : كلّ ماله قوائم كثيرة فإنّ اعتماده إذا سعى على أربعة قوائم فقط ولوأنّ له أربعة و أربعون رجلاً كالّذي يسمّى دخّال الأذن و كالعناكب على أنّ الأقلّ النادر ملحق بالعدم فلا يلزم ذكره .

قوله [يخلق الله ما يشاء إنّ الله على كلّ شيء قدير] من أصنافها تشترك في أعضاء و تتباين في أعضاء كالإنسان و الفرس تشترك الفرس مع الإنسان في اللحم و العصب والعظم مثلاً و تتباين منه في الوضع من الذنب و السلحفاة مثلاً مع العصفور أو الاختلاف في غلبة عنصر على عنصر فبعضها لجيّة و بعضها شطيّة وبعضها طينيّة وبعضها صخريّة و أيضاً منها ما يعتمد في غوصه على رأسه وفي السباحة على رجليه كالضفدع ومنها ما يمشي في قعر الماء كالسرطان .

و أيضاً حيوانات البرّيّة متغايرة أحوالها منها يتنفّس من طريق واحد كالفم و الخيشوم و منها ما لا يتنفّس كذلك بل على نحو آخر من مسامّه كالنحل والزنبور .

و أيضاً من الحيوانات يختلف عاداتها فبعضها تتعايش معاً كالإنسان و في الطيور كالكراكي و الغربان و بعضها يؤثر التفرّد كالطيور الجارحة و العقاب و أمثالها و بعض الحيوان هو الّذي لا يمكنه أن يعيش بتفرّد و أسباب معيشته تلتئم بالمشاركة المدنيّة كالنحل و النمل و الغرانيق .

و كذلك الاختلاف واقع في الحيوان من حيث الأكل فمنهم آكل كلّ لذيذ مثل الإنسان ومنها آكل لحم كالجوارح ومنها لاقط حبّ ومنها آكل عشب ومنها مايكون غذاؤه زهر كالنحل .

و أيضاً فللحيوانات تقسيم آخر فمنها ما هو اُنسيّ بالطبع كالإنسان والهرّة و الفرس ومنها مالايأنس كالنمر و الأسد .

و كذلك فبعضهاهادىء الطبع قليل الغضب مثل البقرة و بعضها شديد الجهل حادّ الغضب كالخنزير البرّيّ و بعضها حليم خدوع كالبعير و بعضها قويّ مغتال كالذئب و بعضها غضوب سفيه إلّا أنّه ملق متردّد كالكلب و بعضها حسود متباه كالطاووس .

و التقسيم الآخر: أيضاً من الحيوان ما أن تلد اُنثاه حين ما تلد حيواناً و بعضها ما تناسله حين ما تلد اُنثاه بيضاً والعقول قاصرة عن الإحاطة بها على سبيل الكمال .

فحينئذ وجه الاستدلال بها على الصانع القادر المختار ظاهر لأنّه لو كان الأمر بتركيب الطبائع الأربع فذلك بالنسبة إلى الكلّ على السويّة فاختصاص كلّ واحد من هذه الحيوانات بأعضاءها و قواها و كيفيّة أبدانها و اختلاف خلقها وخُلقها لابدّ و أن يكون بتدبير مدبّر قاهر حكيم إنّ الله على هذه الاُمور قادر دون غيره مع اتّفاق أصلها ابتداءً أنّ أصلها من الماء .

قوله تعالى : [لقدأنزلنا آيات مبيّنات] و دلالات واضحات [والله يهدي من يشاء] و هو قابل للإيمان و ليس به جحود [إلى صراط مستقيم] و هو طريق الجنّة .

قوله تعالى : و يقولون آمنا بالله و بالرسول و أطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما اولئك بالمؤمنين (٤٧) واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون (٤٨) و ان يكن لهم الحق ياتوا اليه مذعنين (٤٩) .

لمّا ذكر دلائل التوحيد أتبعه بذمّ المنافق و الّذي يعترف بلسانه و لكن لا يقبل بقلبه .

قال مقاتل نزلت هذه الآية في حقّ بشر المنافق و كان قد خاصم يهوديّاً في أرض و كان اليهودي يجرّه إلى رسول الله ليحكم بينهما وجعل بشر يجرّه إلى كعب بن الأشرف و يقول : إنّ محمّداً يحيف علينا .

و قال الضحّاك : نزلت الآية في المغيرة بن وائل كان بينه و بين عليّ بن أبي طالب عليه السلام أرض فتقاسما فوقع إلى عليّ من الأرض مالا يصيبه الماء إلّا بمشقّة فقال المغيرة : بعني أرضك فباعها إيّاه و تقابضا فقيل للمغيرة : أخذت سبخة لا ينالها الماء . فقال لعليّ عليه السلام : اقبض أرضك فإنّما اشتريتها إن رضيتها و لم أرضها فلا ينالها الماء فقال عليّ عليه السلام اشتريتها و رضيتها وقبلتها وقبضتها وعرفت حالها لا أقبلها منك و دعاه أن يخاصمه إلى رسول الله فقال المغيرة : أمّا محمّد فلست آتيه و لا اُحاكم إليه فإنّه يبغضني و إنّي أخاف أن يحيف عليّ فنزلت الآية .

المعنى : و يقولون بلسانهم : صدّقنا بتوحيد الله وبإطاعة الرسول ثمّ يعرض عن طاعتهما طائفة منهم بعد قولهم : آمنّا و ما اُولئك الّذين يدّعون الإيمان ثمّ يعرضون عن حكم الله و رسوله بالمؤمنين .

و في الآية دلالة على أنّ الإيمان ليس بمجرّد القول إذ لو كان كذلك لما سمع النفي بعد الإثبات .

قوله : [وإذا دعوا إلى] كتاب [الله] و شريعة نبيّه [ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * و إن يكن لهم الحقّ يأتوا إليه مذعنين] أي إذا عرفوا أنّ الحكم لهم لا عليهم عدلوا عن الإعراض بل سارعوا إلى الحكم و أذعنوا ببذل الرضا . و الحاصل أنّه ليس لهم اتّباع الحقّ وإنّما يريدون النفع المعجّل وذلك هو النفاق .

قوله تعالى : أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا ام يخافون ان يحيف الله عليهم و رسوله و اولئك هم الظالمون (٥٠) انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله و رسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا و اطعنا و اولئك هم

المفلحون (٥١) و من يطع الله و رسوله و يخش الله و يتقه فاولئك هم الفائزون (٥٢) .

المعنى : أي هل[في قلوبهم] شكّ من نبوّتك ونفاق وهواستفهام يراد به الخبر لأنّه أشدّ في التوبيخ و أثبت للتقرير كما قال جرير :

ألستم خير من ركب المطايا * و أندى العالمين بطون راح

قوله : [أم ارتابوا] في عدلك ورأوا منك ما رابهم لأجله أمرك [أم يخافون أن] يجور [الله عليهم و رسوله] ويميل رسوله في الحكم ويظلمهم لأنّه لاوجه في الامتناع عن المجيء إلّا أحد هذه الأوجه الثلاثة .

فلو قيل : إنّهم لوخافوا أن يحيف الله عليهم فقد ارتابوا في الدين و إذا ارتابوا ففي قلوبهم مرض فالكلّ واحد فأيّ فائدة في التعديد والتقسيم ؟

فالجواب أنّ قوله « أفي قلوبهم » إشارة إلى مرض القلب و هوالنفاق و قوله : «أم ارتابوا » بيان إلى أنّه حدث هذاالشك بعد تقرير الإسلام في القلب و قوله : «أم يخافون أن يحيف الله عليهم » إشارة إلى أنّهم بلغوا من حيث الدنيا إلى حيث امتنعوا عن الدين و قبوله بسبب الدنيا فالذمّ يتعلّق بكلّ من هذه الثلاثة و كلّ واحد منها كفر .

فبيّن سبحانه بقوله: [بل اُولئك هم الظالمون] بطلان ماهم عليه لأنّ الظلم يتناول كلّ معصية وأعظمه الشرك كما قال : «إنّ الشرك لظلم عظيم[١]» و بما أن نسبوا الحيف و الظلم في الحكم إلى الرسول أبطل سبحانه قولهم ونسب الظلم إليهم .

قوله تعالى : [إنّما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله و رسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا و أطعنا] أي المؤمن من كان إذا يدعى لحكم الله والرسول يمتثل ويقول: سمعت وأطعت و إن كان ذلك الحكم فيما يكرهه ويضرّه [و اُولئك هم المفلحون] وروي عن الباقر عليه السلام أنّ المعنيّ بالآية عليّ بن أبي طالب .

قوله تعالى: [ومن يطع الله و رسوله] فيما أمره و نهاه عنه [ويخشى الله] عقابه [ويتّقه] ويخاف عذابه باجتناب معاصيه وبامتثال أو امره وقرىء و «يتّقه» بسكون القاف

(١) لقمان : ١٣.

و كسر الهاء [فأُولئك هم الفائزون] بالثواب و قيل : المعنى و يخشى الله في ذنوبه الّتي عملها ويتّقه فيما بعد .

قوله تعالى : و اقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة ان الله خبير بما تعملون (٥٣) قل أطيعوا الله و أطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم و ان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الاالبلاغ المبين (٥٤) و عد الله الذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم و ليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم و ليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لايشركون بي شيئاً و من كفر بعدذلك فاولئك هم الفاسقون(٥٥) .

قوله : [وأقسموا بالله] المعنى : لمّا بيّن الله في الآية السابقة كراهة المنافقين عن حكم الرسول أتوا إلى الرسول فقالوا : و الله لئن أمرتنا أن نخرج من ديارنا و أموالنا و نسائنا لخرجنا و إن أمرتنا بالجهاد جاهدنا و أجهدوا في اليمين فأمر الله نبيّه بقوله :

[قل لاتقسموا] ولو كان يمينهم على حسب الواقع والصدق لم يجز النهي عنه لأنّ من حلف على القيام بالبرّ و الواجب لايجوز أن ينهى عنه و من نوى الغدر لاالوفاء فقسمه لايكون إلّا قبيحاً .

قوله: [طاعةمعروفة] إذا كانت مرفوعةفهي خبر لمبتدءمحذوف أي المطلوب طاعةمعروفة لاأيمان كاذبة أو مبتدأ خبره محذوف أي طاعة معروفة أمثل من يمينكم أوالتقدير: عليكم بطاعة معروفة وعلى النصب أي أطيعوا طاعة معروفة صحّته .

[إنّ الله خبير بأعمالكم] من طاعتكم بالقول و مخالفتكم بالفعل .

ثمّ أكدّ أمر الطاعة فقال : [قل] لهم : [أطيعوا الله] فيما أمركم به[وأطيعوا الرسول] فيما آتاكم به و احذروا مخالفته [فإن تولّوا] أصله تتولّوا عن طاعة الله [فإنّما عليه] أي على الرسول [ماحمّل] من أداء الرسالة و كلّف [وعليكم ماحمّلتم] من المتابعة [و إن تطيعوه] أي الرسول [تهتدوا] إلى الرشد والصلاح و الجنّة .

[و ما على الرسول إلّا البلاغ المبين] و بيان الشريعة وليس عليه الاهتداء و إنّما ذلك عليكم و نفعه راجع إليكم و المبيّن البيّن الواضح و الموضح لمابكم الحاجة إليه . في

الكافي عن الصادق عليه السلام في خطبة في وصف النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : وأدّى ما حمّل من أثقال النبوّة و عن الباقر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا معاشر قرّاء القرآن اتّقوا الله عزّ وجلّ فيما حمّلكم من كتابه فإنّي مسؤول وإنّكم مسؤولون : إنّي مسؤول عن تبليغ الرسالة و أمّا أنتم فتسألون عمّا حمّلتم من كتاب الله وسنّتي .

قوله : [وعد الله الّذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض] ليجعلنّهم خلفاء بعد نبيّكم صلى الله عليه وآله وسلم [كما استخلف الّذين من قبلهم] يعني وصاة الأنبياء [و ليمكّننّ لهم دينهم الّذي ارتضى لهم] و هو الإسلام [و ليبدّلنّهم من بعد خوفهم] من الأعداء [أمناً] منهم [يعبدونني لا يشركون بي شيئاً] ولا يخافون غيري ولا يراءون بعبادتي أحداً والمثل بقوله : « كما استخلف الّذين من قبلهم » مثل بني إسرائيل إذ أهلك الله الجبابرة بمصر و الشام فأورثهم أرضهم و ديارهم وأموالهم .

و عن اُبيّ بن كعب قال : لمّا قدم رسول الله و أصحابه المدينة و آواهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة و كان الأنصار لا يبيتون إلّا مع السلاح و لا يصبحون إلّا في السلاح و قالوا : أترون أنّا نعيش حتّى نبيت آمنين مطمئنّين لا نخاف إلّا الله فنزلت هذه الآية .

و المراد بالأرض في قوله « في الأرض » قيل : إنّه أراد بالأرض أرض مكّة لأنّ المهاجرين كانوا يسألون ذلك وقد فعل الله لهم و مكّنهم من إظهار دينه بعد أن كانوا يخافون من أذى المشركين وفعل بمن كان بعدهم من هذه الاُمّة و أبدلهم بالخوف أمناً وبسط لهم في الأرض وأنجز موعدته لهم .

وقيل : معنى الآية في قوله تعالى « وليبدّلنّهم من بعد خوفهم » أي بعد خوفهم في الدنيا من الله أمناً في الآخرة و يعضده ما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال حاكياً عن الله سبحانه : إنّي لا أجمع بين خوفين ولا بين أمنين إن خافني في الدنيا أمنته في الآخرة .

تحقيق : و هو أنّ الآية تدلّ على أنّه سبحانه يعلم الأشياء قبل وقوعها خلافاً لهشام بن الحكم فإنّه قال : لا يعلمها قبل وقوعها و وجه الاستدلال به أنّه سبحانه أخبر عن وقوع شيء في المستقبل إخباراً على التفصيل و قد وقع المخبر مطابقاً للخبر ومثل هذا

لايصحّ إلّا مع العلم .

و كذلك تدلّ الآية على أنّه حيّ قادر لأنّه قال: ليستخلفنّهم الخ وقد فعل كلّ ذلك ولولا القدرة لما صدرهذه الأمور .

و قالت المعتزلة :إنّ الآية تدلّ على أنّ فعل الله معلّل بالغرض لأنّ المعنى في الآية: لكي يعبدونني ويريد من الكلّ العبادة لأنّ من فعل فعلاً لغرض فلابدّ وأن يكون مريداً لذلك الغرض .

وأيضاً دلّت الآية على صحّة نبوّة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم لأنّه أخبر بالغيب و عن وقوع أمر سيقع و هو دليل صدقه وإعجازه .

فإن قيل : إنّ الآية فيها دلالة على استخلاف الأئمّة الأربعة لأنّه سبحانه قال : « وعد الله الّذين آمنوا و عملوا الصالحات » و المراد من الحاضرين في زمان محمّد و هذا الوعد بعد الرسول لهولاء الخلفاء لأنّه لانبيّ بعده فالمراد بالاستخلاف الإمامة .

فالجواب أنّ الآية لو كانت كما زعموها فيلزم حصول الخلافة لكلّ من آمن و عمل صالحاً لأنّ ظاهر الآية يشمل العموم وغير مخصوص بهولاء الأربعة فثبت أنّ المراد غير ذلك و ليست هذه الآية حجّة على صحّة خلافتهم و إنّما صحّة خلافة عليّ عليه السلام بآيات عديدة ونصوص من الرسول في مواضع عديدة انتهى .

و قوله : [ومن كفر بعد ذلك فاُولئك هم الفاسقون] أي و من ارتدّ و كفر هذه النعمة وجحدها من بعدما أنعمنا عليه [فاُولئك هم الفاسقون] ذكر الفسق بعد الكفر مع أنّ الكفر أعظم من الفسق لأنّ الفسق في كلّ شيء هو الخروج إلى أكثره والمعنى اُولئك هم الخارجون إلى أقبح وجوه الكفر .

و المرويّ عن أهل البيت عليهم السلام أنّها في المهديّ من آل محمّد عليهم السلام و روى العيّاشيّ بإسناده عن عليّ بن الحسين عليهما السلام أنّه قرأ الآية قال: هم والله شيعتنا أهل البيت والله يفعل الله ذلك بهم على يد رجل منّا و هو مهديّ هذه الاُمّة و هو الّذي قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتّى يتولّى رجل من عترتي اسمه اسمي يملأ الأرض قسطاً و عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً . وروي ذلك عن أبي جعفر

و أبي عبدالله عليه السلام .

فعلى هذا يكون المراد بالّذين آمنوا و عملوا الصالحات النبيّ وأهل بيته المخصوصين و تضمّنت الآية البشارة بالتمكّن والاستخلاف لهم وارتفاع الخوف عنهم عند قيام المهديّ و يكون منهم فحينئذ المراد بقوله سبحانه : « كما استخلف الّذين من قبلهم » هو أن جعل الصالح للخلافة خليفة لا من لا يصلح لها مثل آدم عليه السلام و داود و سليمان و لو لم يكونوا صالحين للخلافة لما سمّاهم خليفة مثل قوله: «إنّي جاعل في الأرض خليفة [1] » و قوله « يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض [2] » و قوله : « فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب و الحكمة [3] » و المراد بالحكمة النبوّة و على هذا إجماع العترة الطاهرة أي الأئمّة الاثنا عشر حجّة ؛ لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي أهل بيتي لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض .

و ههنا تحقيق آخر و هو أنّ التمكين في الأرض على الإطلاق لم يتّفق فيما مضى فهو منتظر لا محالة لأنّ الله لا يخلف وعده . و في الإكمال عن الصادق في قصّة نوح عليه السلام و ذكر انتظار المؤمنين من قومه الفرج حتّى أراهم الله الاستخلاف والتمكين قال عليه السلام : و كذلك القائم عليه السلام فإنّه يمتدّ أيّام غيبته ليصرح الحق عن محضه و يصفو الإيمان من الكدر بارتداد كلّ من كانت طينته خبيثة إذا أحسّوا بالاستخلاف و الأمر المنتشر في عهد القائم ، قال الراويّ : فقلت : يا ابن رسول الله فإنّ هؤلاء يزعمون أنّ هذه الآية نزلت في حقّ من مضى من الخلفاء الأربعة قال: لا متى كان الّذين الّذي ارتضاه الله ورسوله متمكّناً بانتشار الأمن في الأمّة و ذهاب الخوف عن قلوبها و ارتفاع الشكّ من صدورها في عهد واحد من هؤلاء حتّى في عهد عليّ عليه السلام و ارتداد المسلمين و الفتن الّتي كانت تثور في أيّامه و الحروب الّتي كانت تنشب بين الكفّار و بينهم . وروى المقداد عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : لا يبقى على الأرض بيت مدر ولا وبر إلّا أدخله الله كلمة الإسلام بعزّ عزيز أو ذلّ ذليل إمّا أن يعزّهم الله فيجعلهم من أهلها و إمّا أن يذلّهم فيدينون بها .

---

(١) البقرة : ٣٠ .

(٢) ص : ٢٦ .

(٣) النساء : ٥٣ .

قوله‌تعالى : وأقيموا الصلوة و آتواالزكوة و أطيعوا الرسول لعلكم ترحمون (٥٦) لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الارض و مأويهم النار و بئس المصير (٥٧) .

ثمّ أمر سبحانه بإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة و إطاعة أوامر رسوله لترحموا جزاءً على ذلك وتثابوا بالنعم الجزيلة‌ثمّ قال: يامحمّدوأيّها السامع لا تحسبوا أنّ الّذين كفروا سابقين فائتين‌في الأرض‌يقال: طلبته فأعجزني أي‌سبقني وما قدرت عليه أي‌لاتظنّنّ أنّ الكافر يفوتني .

ومستقرّهم [ومأواهم النار وبئس المصير] أي بئس المستقرّ وإنّما وصفها بذلك وإن كانت حكمة وصواباً من فعل الله لما ينال الصائر إليها من الشدائد والآلام .

قوله تعالى : ياأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلوة الفجر و حين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلوة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الايات والله عليم حكيم (٥٨) واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته و الله عليم حكيم (٥٩) .

المعنى : لمّا تقدّم أحكام النساء والرجال في الآيات السابقة من السورة استثنى سبحانه أوقاتاً من الدخول قبل الاستيذان فقال :

[يا أيّها الّذين آمنوا] مروا عبيدكم وإماءكم أن يستأذنوا عليكم إذا أرادوا الدخول في خلواتكم عن ابن عبّاس وفي أخبارنا: أراد العبيد خاصّة ، عن ابن عمر وهو المرويّ عن الباقر والصادق عليهما السلام وفي الكافي عن الصادق عليه السلام هي خاصّة الرجال دون النساء قيل : فالنساء يستأذنّ فيهذه الثلاثة ساعات ؟ قال : لا ولكن يدخلن ويخرجن وفي رواية اُخرى : هم المملوكون‌من الرجال‌والنساء والصبيان .

وأمّا أهل الجماعة قال‌القاضي : قوله « ليستأذنكم الّذين ملكت أيمانكم » وإن

كان ظاهره الرجال فالمراد به الرجال والنساء .

قال الرازيّ : ظاهر قوله : «الّذين ملكت أيمانكم » يدخل فيه البالغون والصغار وحكي عن ابن عبّاس أنّ المراد الصغار واحتجوّا بأنّ الكبير من المماليك ليس له أن ينظر إلّا إلى مايجوز للحرّ أن ينظر إليه. قال ابن المسيّب : لاينبغي للمرأة أن ينظر عبدها إلى قرطها وشعرها وشيء من محاسنها .

وقال آخرون : بل البالغ من المماليك له أن ينظر إلى شعر مالكه و ما شاكله قالوا : وظاهر الآية يدلّ على اختصاص عبيد المؤمنين والأطفال من الأحرار بإباحة ماحظره الله من قبل على جماعة المؤمنين بقوله : « لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم » فإنّه أباح لهم إلّا في الأوقات الثلاثة .

وبالجملة قال بعضهم: نزلت هذه الآية في أسماء بنت أبي مرثد قالت :إنّا لندخل على الرجل والمرأة و لعلّهما يكونان في لحاف واحد وقيل: دخل عليهما غلام لها كبير في وقت كرهت دخوله فيه فأتت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: إنّ خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في وقت نكرهها فنزلت الآية .

قال ابن عمر و مجاهد : قوله « ليستأذنكم » عنى به الذكور دون الإناث لأنّ قوله تعالى: «الّذين ملكت أيمانكم» صيغة الذكور وهذا القول مطابق لما ورد عن الصادق والباقر عليهما السلام وهو الصحيح .

قوله تعالى : [والّذين لم يبلغوا الحلم منكم] أي الّذين لم يبلغوا من أحراركم وأراد الصبيّ الّذي يميّز بين العورة و غيرها فحينئذ قال الجبّائيّ : الاستيذان واجب على كلّ بالغ و كلّ حالة وعلى الأطفال في هذه الأوقات الثلاثة بظاهر الآية ثلاث مرّات في ثلاث أوقات من ساعات الليل والنهار .

ثمّ فسّرها سبحانه بقوله تعالى: [من قبل صلاة الفجر] وذلك أنّ الإنسان ربّما يبيت عرياناً أوعلى حال لايحبّ أن يراه غيره في تلك الحالة والوقت الثاني و[حين تضعون ثيابكم من الظهيرة] يريد عند إلقائها للقائلة والوقت الثالث [ومن بعد صلاة العشاء] الآخرة حين يأوي الرجل إلى إمرأته ويخلو بها وفي الكافي عن الصادق عليه السلام قال : منكم

أي من أنفسكم قال: عليكم الاستيذان من قد بلغ في هذه الساعات الثلاثة لأنّها أوقات التجرّد عن الثياب وأوقات الخلوة والالتحاف وطرح الثياب .

قوله : [ثلاث عورات] المعنى هنّ أي الأوقات ثلاث عورات جمع عورة والقاعدة أنّ ماكان على فعلة من الأسماء تحريك العين في الجمع إلّا أنّ العرب كرهوا تحريك العين فيما كان عينه واواً أو ياءً لما كان يلزم من الانقلاب إلى الألف ولذلك أسكنوا .

وإنّما سمّيت هذه الأوقات عورات لأنّ الإنسان في هذه الأوقات الثلاثة غالباً يضع ثيابه و جلبابه فتبدو عورته قال بعض : كان أُناس من الصحابة يعجبهم أن يواقعوا نساءهم في هذه الأوقات ليغتسلوا[1] ثمّ يخرجون إلى الصلاة فأمرهم الله أن يأمروا غلمانهم والمملوكين أن يستأذنوا في هذه الساعات المخصوصة .

قوله تعالى : [ليس عليكم] أي المؤمنين الأحرار [ولا عليهم] يعني الخدم والغلمان [جناح بعدهنّ] أي حرج في أن لا يستأذنوا في غير هذه الأوقات الثلاثة ثمّ بيّن العلّة بقوله تعالى: [طوّافون عليكم] أي هم خدمكم فلا يجدون بدّاً من دخولهم عليكم في غير هذه الأوقات ويتعذّر عليهم الاستيذان في كلّ وقت لأنّهم أهل الخدمة ليلاً ونهاراً ولابدّ من طواف المماليك على الموالي .

[بعضكم على بعض] فيطوف بعضكم وهم المماليك على بعض وهم الموالي والطوّاف الّذي يكثر الدخول والخروج والتردّد ورفع بعضكم على الابتداء أي بعضكم طائف على بعض وإنّما حذف لأنّ طوّافون يدلّ عليه وفي الكافي عن الصادق عليه السلام ويدخل مملوككم وغلمانكم من بعد هذه الأوقات الثلاثة بغير إذن إن شاء .

قوله: [كذلك يبيّن الله لكم الآيات والله عليم حكيم] أي مثل مابيّن لكم ما تعبّدكم به أيضاً يبيّن الله في هذه الآيات الأحكام والله عليم بمصالحكم حكيم فيما يفعله .

قوله تعالى: [وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم] المعنى أنّ الأحرار [فليستأذنوا]

---

(١) وعليه فلا وجه للوقت الثالث فانه بعد صلاة العشاء .

في جميع الأوقات إذا كبروا و بلغوا حدّ الاحتلام [كما استأذن الّذين من قبلهم] من الأحرار الرجال الكبار الّذين اُمروا بالاستيذان على كلّ حال في الدخول عليكم وحاصل المعنى أنّ البالغ يستأذن في كلّ الأحوال والأوقات وأمّا الطفل والعبد يستأذنان في الأوقات الثلاثة قال سعيد بن المسيّب: ليستأذن الرجل على اُمّه فانّما نزلت هذه الآية في ذلك [كذلك يبيّن الله لكم آياته والله عليم حكيم] مرّ تفسيره.

وحاصل الحكم أنّه أوجب على من بلغ الحلم الجري على سنّة من قبلهم من المستأذنين في سائر الأوقات وألحقهم بمن دخل تحت قوله: لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتّى تستأنسوا وتسلّموا على أهلها.

قوله تعالى: والقواعد من النساء اللاتي لايرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم (٦٠).

قال ابن السكّيت: امرأة قاعد إذا قعدت عن الحيض وقال المفسّرون: القواعد هنّ اللواتي قعدن عن الحيض والولد من الكبر ولا مطمع لهنّ في الأزواج والأولى أن لا يعتبر قعودهنّ عن الحيض لأنّ ذلك ينقطع والرغبة فيهنّ باقية فالمراد قعودهنّ عن حال الزوج.

[فليس عليهنّ جناح] وبأس [أن يضعن ثيابهنّ] يعني الجلباب فوق الخمار والرداء، وقيل: مافوق الخمار من المقانع وغيرها لا أن يكشفن عورتهنّ بل اُبيح لهنّ العقود بين يدي الأجانب في ثيابهنّ من ثياب الأبدان الملاصقة ولابأس بكشف وجهها ويدها لا كلّ الثياب [غير متبرّجات بزينة]أي غير قاصدات بوضع ثيابهنّ إظهار زينتهنّ والتبرّج كشف المرأة للرجل باظهار محاسنها فاظهار الزينة في القواعد و غيرهنّ محظور و أمّا الشابّات فانّهنّ يمنعن من وضع الجلباب والخمار ويؤمرن بلبس أكثف الجلابيب لئلاّ تريهنّ وتصفهنّ ثيابهنّ وقد روي عن النبي ﷺ أنّه قال: للزوج ماتحت الدرع وللابن والأخ مافوق الدرع ولغير ذي محرم أربعة أثواب درع وخمار وجلباب وإزار والخمار المقنعة.

قوله : [وأن يستعففن] أي واستعفاف القواعد وهو أن يطلبن العفّة بلبس الجلابيب [خير لهن ّ والله سميع] لأقوالكم [عليم] بنيّاتكم .

قوله : ليس على الاعمى حرج ولاعلى الاعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على انفسكم أن تاكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت اخوانكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو اشتاتاً فاذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الايات لعلكم تعقلون (٦١) .

الحرج الضيق مشتق ّ من الحرجة وهي الشجر الملتف ّ بعضه ببعض لضيق المسالك لمّا تقدّم ذكر الاستيذان عقّبه سبحانه بذكر دفع الحرج عن المؤمنين في الانبساط بالأكل والشرب فقال :

[ليس على الأعمى حرج] واختلف في تأويله على وجوه :

أحدها أن ّ المعنى ليس عليكم في مؤاكلتهم حرج لأنّهم كانوا يتحرّجون من ذلك ويقولون :إن ّ الأعمى لايرى فنأكل حينئذ الطعام دونه عن ابن عبّاس وهو مكفوف البصر والأعرج لايتمكّن من الجلوس والمريض يضعف عن الأكل فعلى هذا «على» في الآية بمعنى «في» .

وثانيها أن ّ المسلمين كانوا إذا غزوا خلّفوا زمناهم في منازلهم وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا ممّا في بيوتنا فكان اُولئك يتحرجون من ذلك ويقولون: لا ندخلها وهم غيّب فنفى الله الحرج عن الزمنى في أكلهم من بيت أقاربهم أو من بيت من تدفع إليهم المفتاح إذا خرج للغزو عن سعيد بن المسيّب والزهري ّ .

و ثالثها أن المعنى ليس على الأعمى والأعرج والمريض ضيق ولا إثم في ترك الجهاد والتخلّف عنه ويكون قوله ولا على أنفسكم كلاماً مستأنفاً فأوّل الكلام في الجهاد وآخره في رخصة الأكل عن ابن زيد والحسن والجبّائي ّ .

ورابعها أنّ العميان والعرجان والمرضى تركوا مؤاكلة الأصحّاء أمّا الأعمى كان يقول: إنّي لا أرى شيئاً فربّما آخذ الأجود وأترك الأرده وأمّا الأعرج والمريض فخافا أن يفسدا الطعام على الأصحّاء لأجل أنّ الأصحّاء يتكرّهون منهم فلذلك تركوا المؤاكلة مع الأصحّاء فنفى الله الحرج عنهم ورخّصهم.

وخامسها أنّ الزمنى والعميان والمرضى رخّص الله لهم في الأكل من بيوت سمّاهم في الآية وذلك أنّ قوماً من أصحاب رسول الله كانوا إذا لم يكن عندهم ما يطعمونهم ذهبوا بهم إلى بيوت آبائهم واُمّهاتهم وقراباتهم فكان أهل الزمانة يتحرّجون من أكل ذلك الطعام لأنّه كان يطعمهم غير مالكه وكان المؤمنون يذهبون بالعميان والضعفاء إلى بيوت أزواجهم وأولادهم وقراباتهم وأصدقائهم فيطعمونهم منها فلمّا نزل قوله تعالى: «لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلّا أن تكون تجارة عن تراض [1]» فعند ذلك امتنع الناس وامتنعوا أن يأكلوا من طعام أحد فنزلت الآية قال بعض المفسّرين: مثل قتادة كانت الأنصار في أنفسها قذارة وكانت لا تأكل من هذه البيوت إذا استغنوا و يتحرّجون من أكله فأنزل الله هذه الرخصة.

قوله تعالى: [ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم] قيل: يعني من البيوت الّتي فيها أزواجكم وعيالكم فيدخل فيها بيوت الأولاد لأنّ بيت الولد كبيته لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنت ومالك لأبيك» و قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه وإنّ ولده من كسبه» وفي الكافي عن الصادق عليه السلام أنّه سئل: ما يحلّ للرجل من مال ولده قال: قوت بغير سرف إذا اضطرّ إليه قيل: فقوله صلى الله عليه وآله وسلم للرجل الّذي قدّم أباه: أنت و مالك لأبيك فقال: عليه السلام إنّما جاء بأبيه إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله هذا أبي وقد ظلمني ميراثي من اُمّي فأخبره الأب أنّه قد أنفقه عليه وعلى نفسه فقال صلى الله عليه وآله وسلم أنت ومالك لأبيك ولم يكن عند الرجل شيء أو كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحبس الأب للابن.

وبالجملة [ولا على أنفسكم] أي وليس عليكم حرج أن تأكلوا من بيوتكم [أو بيوت آبائكم أو بيوت اُمّهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو

(١) النساء: ٢٩.

بيوت عمّاتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ماملكتم مفاتحه] في الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله : « ماملكتم مفاتحه » قال : الرجل له وكيل يقوم في ماله فيأكل بغير إذنه . وعن أحدهما عليهما السلام ليس عليك جناح فيما أطعمت أو أكلت ممّا ملكت مفاتحه مالم تفسده .

والحاصل أنّ هذه الرخصة في أكل مال القرابات وهم لايعلمون كالرخصة لمن دخل حائطاً وهو جائع أن يصيب من ثمره أومرّ في سفره بغنم وهو عطشان أن يشرب من رسله بوسعة منه على عباده ولطفاً لهم ورغبة بهم عن دناءة الأخلاق .

وقال الجبّائي : إنّ الآية منسوخة بقوله : « لاتدخلوا بيوت النبيّ إلّا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه [(١)] » وبقول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: لايحلّ مال امرء مسلم إلّا بطيبة نفسه ولكنّ المرويّ عن أئمّة الهدى عليهم السلام أنّهم قالوا: لا بأس بالأكل لهؤلاء من بيوت ذكر الله بغير إذنهم قدر حاجتهم من غير سرف .

وقوله تعالى: « أوماملكتم مفاتحه» مرّ تفسيره حيث قال: وكيل الرجل في اُموره وقيل: معناه ليس حرج في الأكل من بيوت عبيدكم ومماليككم وإنّ السيّد يملك منزل عبده والمفاتح هنا الخزائن لقوله «وعنده مفاتح الغيب» [(٢)] .

قوله تعالى : [أوصديقكم] رفع الحرج عن الأكل في بيت صديقه بغير إذنه إذا كان عالماً بأنّه يطيب نفسه بذلك لا أن يعلم كراهته و يأكل و الصديق هو الّذي صدقك عن مودّته و لفظ الصديق يقع على الواحد والجمع قال جرير :

دعون الهوى ثمّ ارتمين قلوبنا ❊ بأسهم أعداء و هنّ صديق

و قال أبوعبدالله عليه السلام: لهو والله الرجل يأتي بيت صديقه فيأكل طعامه بغير إذنه و روي أنّ صديقاً للربيع بن خيثم دخل منزله و أكل من طعامه فلمّا عاد الربيع إلى المنزل أخبرته جاريته بذلك فقال الربيع : إن كنت صادقة فأنت حرّة . و عن ابن عبّاس: الصديق أكثر برّاً من الوالدين لأنّ أهل جهنّم لمّا استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والاُمّهات

(١) الاحزاب : ٥٣ .

(٢) الانعام : ٥٩ .

بل بالأصدقاء فقالوا: « مالنا من شافعين ﴿ ولا صديق حميم[1] » .

قوله تعالى : [ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً] القمي عن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال : و ذلك أن أهل المدينة قبل أن يسلموا كانوا يعتزلون الأعمى و الأعرج و المريض و كانوا لا يأكلون معهم و عزلوا لهم طعاماً على ناحية كانوا يرون في مؤاكلتهم جناح و كان الأعمى و الأعرج و المريض يقولون : لعلّنا نؤذيهم إذا أكلنا فاعتزلوا مؤاكلتهم فلمّا قدم المدينة النبي صلى الله عليه وآله وسلم سألوه عن ذلك فأنزل الله هذه الآية: ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً .

و قيل : نزلت الآية في حيّ من كنانة ، كان الرجل منهم لا يأكل وحده يمكث يومه فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً و ربّما كانت معه الإبل الجفل فلا يشرب من ألبانها حتّى يجد من يشاربه فأعلم الله سبحانه أنّ الرجل إذا أكل وحده لا حرج عليه و هذا قول ابن عبّاس و قيل : كانت الأنصار إذا نزل بواحد منهم ضيف لم يأكل إلّا وضيفه معه فرخّص الله لهم أن يأكلوا كيف شاءوا مجتمعين أو متفرّقين .

و أشتاتاً جمع شتّ و شتّى جمع شتيت و شتّان تثنية شتّ و قيل : الشتّ مصدر بمعنى التفرّق ثمّ يوصف به و يجمع .

قوله تعالى: [فإذا دخلتم بيوتاً فسلّموا على أنفسكم] المعنى أنّه تعالى جعل أنفس المسلمين كالنفس الواحدة على مثال قوله ولا تقتلوا أنفسكم قال ابن عبّاس : فإن لم يكن أحد فعلى نفسه فليقل: السلام علينا من قبل ربّنا و إذا دخل المسجد فليقل: السلام على رسول الله و علينا من ربّنا و إن كان في البيت أهل الذمّة فليقل: السلام على من اتّبع الهدى .

و قوله [تحيّة] نصب على المصدر تقديره : حيّوا تحيّة [من عند الله] أي الأمر بهذه التحيّة شرعه الله و من أمر الله قال ابن عبّاس : من قال السلام عليكم معناه اسم الله عليكم . قوله : [مباركة طيّبة]أي إنّ السلام مبارك ثابت لما فيه من الأجر و الثواب فإنّهم كانوا يقولون : عم صباحاً فبيّن الله أنّ السلام دعاء بالسلامة من آفات الدنيا والآخرة .

(١) الشعراء : ١٠١ .

[كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلّكم تعقلون] أي كما بيّن لكم الأحكام يفصّل و يشرح لكم الأدلّة على جميع ما يأمركم به لتعقلوا معالم دينكم .

قوله تعالى : انما المؤمنون الذين آمنوا بالله و رسوله و اذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستاذنوه ان الذين يستاذنونك اولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم و استغفر لهم الله ان الله غفور رحيم (٦٢) لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم (٦٣) الا ان لله ما في السموات والارض قد يعلم ما أنتم عليه و يوم يرجعون اليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم (٦٤) .

القمّي : نزلت في قوم كانوا إذا جمعهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لأمر من الأمور في بعث يبعثه أو في حرب قد حضرت يتفرّقون بغير إذنه فنهاهم الله عن ذلك .

و حاصل المعنى أنّ الله لما بيّن في الآيات السابقة كيفيّة المعاشرة والمؤاكلة من المؤمنين شرح في هذه الآية حكم المعاشرة مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ليس المؤمنون على الحقيقة إلّا الّذين صدقوا بتوحيد الله و عدله و أقرّوا بصدق رسوله [و إذا كانوا على أمر جامع] أي إذا كانوا مع الرسول على أمر يقتضي الإجماع عليه والتعاون فيه من حضور حرب أو أمر مهمّ أو صلاة جمعة و عيد و خطبة و ما أشبه ذلك [لم يذهبوا] ولم ينصرفوا عن الرسول [حتّى يستأذنوه] إلّا بعد الإذن منه في الانصراف .

قال الكلبيّ في سبب النزول : كان صلى الله عليه وآله وسلم يعرض في خطبته بالمنافقين و يعيبهم فينظر المنافقون يميناً و شمالاً فإذا لم يرهم أحد انسلّوا و خرجوا و لم يصلّوا و إن أبصرهم أحد ثبتوا و صلّوا خوفاً فنزلت الآية فكان بعد نزول هذه الآية لا يخرج المؤمن لحاجته حتّى يستأذن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و كان المنافقون يخرجون من غير إذن .

قوله : [إنّ الّذين يستأذنوك] يا محمّد [أُولئك الّذين يؤمنون بالله و رسوله] و هم المصدّقون على الحقيقة دون الّذين ينصرفون بغير إذن [فإذا استأذنوك لبعض

شأنهم] أي متى استأذنك المؤمنون لبعض مهمّاتهم و حاجاتهم [فأذن لمن شئت منهم] خيّر سبحانه نبيّه بين الإذن و بين أن لا يأذن و هكذا حكم من قام مقامه من الأئمّة [و استغفر الله لهم] أي اطلب المغفرة بهم من الله و الستر على تمسّكهم بآداب الله في الاستيذان في مقابلة أن لم يذهبوا من غير إذنك [إنّ الله غفور رحيم] ساتر للمؤمنين ذنوبهم رحيم بهم و منعم عليهم .

ثمّ أمر سبحانه جميع المكلّفين فقال: [لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً] اختلف في تأويله على وجوه :

احدها أنّه علّمهم تفخيم النبيّ في المخاطبة و أعلمهم فضله فيه على سائر البريّة أي لا تقولوا عند دعائه : يا محمّد أو ياابن عبدالله كما يدعو بعضكم بعضاً و لكن قولوا : يا رسول الله يا نبيّ الله في خفض صوت و لين و تواضع عن ابن عبّاس و جماعة .

و ثانيها أنّه نهى عن التعرّض لدعاء رسوله عليهم فالمعنى : احذروا دعاءه عليكم إذا أسخطتموه فإنّ دعاءه يجاب بغير شكّ ، و ليس كدعاء غيره عن ابن عبّاس في رواية اُخرى .

و ثالثها أنّ المعنى ليس الّذي يأمركم به الرسول و يدعوكم إليه كما يدعو بعضكم بعضاً لأنّ في القعود عن أمره قعود عن أمر الله .

و في المناقب عن الصادق عليه السلام: قالت فاطمة عليها السلام : لمّا نزلت هذه الآية هبت[1] رسول الله أن أقول له : يا أبه فكنت أقول : يا رسول الله فأعرض عنّي مرّة أو ثنتين أو ثلاثة ثمّ أقبل عليّ فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: يا فاطمة إنّها لم تنزل فيك و لا في أهلك و لا في نسلك أنت منّي و أنا منك إنّما نزلت في أهل الجفاء والغلظ من قريش أصحاب البذخ و الكبر ، قولي : يا أبة فإنّها أحيا للقلب و أرضى للربّ .

[قد يعلم الله الّذين يتسلّلون منكم لواذاً] و «قد» في هذه الآية للتحقيق كما أنّ ربّ يجيء للتكثير و الفعل أتى بلفظ المضارع لأنّه حكاية عن الحال الآتية والحال الحاضر مع أنّ القياس أن يكون الفعل ماضياً قال ابن عبّاس: اللواذ هو أن يلوذ

---

(١) من هاب يهاب .

بغيره فيهرب و ذلك أنّ المنافقين كان يثقل عليهم خطبته فيلوذون ببعض أصحابه فيخرجون من المسجد استتاراً من غير استيذان و قيل : كان المنافقون يتسلّلون في الجهاد رجوعاً عنه فقال سبحانه :

[فليحذر الّذين يخالفون عن أمره] حذّرهم الله عن مخالفتهم للرسول أو عن أمر الله [أن تصيبهم فتنة] عقوبة في الدنيا [أو يصيبهم] في الآخرة [عذاب أليم] والآية صريحة على أنّ مخالفة الرسول حرام و غير جائز .

ثمّ نبّه سبحانه بقوله : [ألا إنّ لله ما في السماوات والأرض] له التصرّف في جميع ذلك و ليس لأحد مخالفة أمره لأنّه لا يجوز للعبد مخالفة أمر مالكه [قد يعلم ما أنتم عليه و يوم يرجعون إليه فينبّئهم بما عملوا] و « قد » ههنا للتحقيق بمعنى ربّما و إنّما أتى بلفظ المستقبل لبيان إحاطة علمه سبحانه بما يتجدّد من أعمالهم و ما عملوا من الإيمان و النفاق [والله بكلّ شيء عليم] كثير العلم يجازي كلاًّ على عمله .

تمّت السورة بحمد الله

هنا ينتهي الجزء السابع من الكتاب ، و قد حوى
سور مريم ، طه ، الأنبياء ، الحجّ ، المؤمنون
والنور ، و نسأل المولى أن يديم
التوفيق إلى ختام الأجزاء

الجزء الثامن

من كتاب التفسير

المسمى بمقتنيات الدرر

تأليف

الحاج مير سيد على الحائرى الطهرانى

اعلى الله مقامه

المعروف بالمفسر

الناشر

الشيخ محمد الآخوندى

مدير

دار الكتب الاسلامية

بازار سلطانى - طهران

مطبعة الحيدرى بطهران

١٣٣٨ ه‍ ش

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى نزل القرآن نوراً و سراجاً و قمراً منيراً . و الصلاة و السلام على رسوله الذى انزل عليه الكتاب بياناً للناس و هدى وموعظة للمتقين ، وعلى آله الطيبين ؛ ثانى الثقلين . و لعنة الله على اعدائهم اجمعين .

و بعد فقد بذل علماء الاسلام قديماً و حديثاً جهدهم فى تفسير علوم القرآن و تبيين لغاته و مشكلاته ؛ ففريق فسروا الفاظه و بينوا حقائقه من مجازه ، و جمع جمعوا احكامه و بينوا حلاله و حرامه ، و طائفة كشفوا عن تأويلاته قناعه . و كيفما كان ما وصلوا الا الى مبلغ علمهم و منتهى هممهم و انى لهم الوصول الى حقائق التنزيل و دقائق التاويل ؟ لان القرآن هو النور الذى انزل الله على قلب حبيبه محمد صلى الله عليه و آله . الا ان المتمسكين بولاء اهل بيت الوحى المستضيئين بنورعلمهم المامورين بالتمسك بهم فى حديث الثقلين قد اغترفوا من بحار علوم اهل بيت النبى غرفاً وغاصوا فيها و اقتنوا منها درراً ؛

وها هى المقتنيات الدرر قد اقتناها علم من الاعلام : ثمرة الشجرة الطيبة ، و النخبة من السلالة الطاهرة . «الحاج المير سيد على الحائرى» تغمده الله بغفرانه ، و اوتى كتابه هذا بيمينه ؛ قد اقتنى من الدرر اغلاها و من الغرر اسناها ؛ فحقيق ان يتنافس المتنافسون فى الاستفادة منها .

و قد وفق الله تلميذه المستضىء بنور علمه المقتفى اثره الحاج ميرزاعبدالحسين المعروف بمحسنيان لبذل الجهد باحياء هذا السفر الجليل القيم .

هذا و منّ الله سبحانه على عبده الزاكى صاحب الهمة القعساء و ارومة الفضل الحاج محمود الكاشانى ؛ فانعم عليه وشرفه باعطاء نفقة طبع الكتاب خدمة للدين و اتحافاً للطيفة والده السعيد الحاج محمد حسين الكاشانى طيب الله رمسه . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

و نشكر جميل مساعى الشاب الفاضل الاريب السيد الكاظم الموسوى المياموى حيث بذل جل اوقاته لمقابلة اجزاء الكتاب مع نسخة الاصل و تخريج الايات المنثورة فى ثناياه و اسناد مايهم من رواياته و بعض الاصلاح فيه . ونسأل الله تعالى ان يوفقنا لاتمامه بمحمد و آله .

محمد الاخوندى

اعوذ بالله من الشيطان الرجيم

سورة الفرقان

مكية إلّا ثلاث آيات نزلت بالمدينة من قوله : « والّذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ـ إلى قوله ـ غفور رحيم » . سبع وسبعون آية .

فضلها : عن اُبيّ بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من قرأ سورة الفرقان بعث يوم القيامة وهو يؤمن أنّ الساعة آتية لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور و دخل الجنّة بغير حساب .

وروى إسحاق بن عمّار عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : يا ابن عمّار لا تدع قراءة تبارك فإنّ من قرأها في كلّ ليلة لم يعذّبه الله أبداً ولم يحاسبه وكان منزله في الفردوس الأعلى .

بسم الله الرحمن الرحيم

تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً (١) الذى له ملك السموات والارض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا (٢) واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولايملكون لانفسهم نفعاً ولا ضراً ولايملكون موتاً ولاحيوة ولا نشوراً (٣) وقال الذين كفروا ان هذا الاافك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزورا (٤) وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة واصيلا (٥) قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات و الارض انه كان غفوراً رحيماً (٦) وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيراً (٧) أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا (٨) انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا (٩) تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا (١٠) .

[تبارك] تفاعل من البركة و البركة كثرة الخير وثبوته أي تزايد و تكاثر خيره من كلّ شيء في ذاته وصفاته وجلّ بوجوب وجوده وقدمه عن جواز الفناء والتغيّر و منزّه أن يكون علمه كسبيّاً أو تصوّريّاً وتعالى شأنه من أن يكون قدرته محتاجة إلى مادّة أو مدّة ومثال وأصل الكلمة من بروك الإبل بمعنى الثبوت والبقاء أي باق سبحانه في ذاته أزلاً و أبداً يمتنع التغيّر والتبدّل .

ولمّا قال سبحانه : « تبارك » ومعناه كثرة الخير والبركة فذكر عقيب هذه الكلمة أمر القرآن للدلالة على أنّ القرآن منشأ الخيرات و أعمّ البركات و هو المنبع للعلوم

والمعارف فالعلم بأحكام الله أشرف المخلوق وأعظم الأشياء خيراً و بركة [الّذي نزّل الفرقان على عبده] والفرقان هو القرآن وصف بذلك لأنّ به يفرق بين الحقّ و الباطل والصواب والخطاء . والمراد بالعبد محمّد صلى الله عليه وآله ليكون هذا العبد بالقرآن نذيراً لأهل العالم، وعلى قول من قال : إنّ الضمير في « يكون » راجع إلى الفرقان فأضاف الإنذار إلى الفرقان كما أضاف الهداية إليه في قوله : « إنّ هذا القرآن يهدي [١] » وهو بعيد لأنّ الإنذار والمنذر من صفة الفاعل و إذا وصف به القرآن فهو مجاز و حمل الكلام على الحقيقة إذا أمكن هو الواجب .

ثمّ قالوا : إنّ الآية تدلّ على أمور : الأوّل أنّ العالم كلّ ما سوى الله ويتناول جميع المكلّفين من الجنّ والإنس و الملائكة و يبطل بهذا قول من قال : إنّه كان رسولاً إلى بعض دون بعض فرسالته على الخلق عامّة وبقوله : « وخاتم النبيّين [٢] » خاتميّته إلى يوم القيامة .

قالت المعتزلة : دلّت الآية على أنّه سبحانه أراد من الكلّ الإيمان وفعل الطاعات لأنّه إنّما بعثه إلى الكلّ فيكون نذيراً للكلّ فأراد من الكلّ الاشتغال بالحسن والإعراض عن القبيح .

ثمّ وصف سبحانه نفسه فقال : [الّذي له ملك السماوات والأرض ولم يتّخذ ولداً] كما زعمت اليهود والنصارى والمشركون [ولم يكن له شريك في الملك] فيشاركه فيما خلق ويمنعه عن مراده [وخلق كلّ شيء] ممّا يطلق عليه اسم المخلوق [فقدّره تقديراً] على ما اقتضته الحكمة . و التقدير تبيين مقادير الأشياء بأن كتبها على مقاديرها في اللوح . وقيل : معناه قدّر طوله وعرضه ولونه ومدّة كونه وبقائه .

ثمّ أخبر سبحانه عن الكفّار فقال : [واتّخذوا من دونه] أي دون الله [آلهة] من الأصنام والأوثان ووجّهوا عبادتهم إليها .

ثمّ وصف آلهتهم بما ينبىء عن عدم الاستحقاق للعبادة فقال : [لا يخلقون شيئاً وهم

---

(١) الاسراء : ٩.

(٢) الاحزاب : ٤٠ .

يخلقون] أي هي غير خالقة بل مخلوقة مصنوعة [ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً] فيدفعونه عن أنفسهم [ولا نفعاً] فيجرّونه إلى أنفسهم [ولا يملكون موتاً ولا حياة] أي لا يستطيعون إماتة ولا إحياءً [ولا نشوراً] ولا إعادة بعد الموت فإنّ جميع هذه الأمور يختصّ الله بالقدرة عليه فكيف يعبدون من لا يقدر على شيء من ذلك ويتركون عبادة ربّهم الّذي يملك ذلك كلّه .

ثمّ أخبر سبحانه عن تكذيبهم بالقرآن فقال : [وقال الّذين كفروا إن هذا إلّا إفك افتراه] أي ماهذا القرآن إلّا كذب اختلقه محمد من تلقاء نفسه [وأعانه عليه قوم آخرون] قالو : أعان محمداً على هذا القرآن عداس مولى حويطب بن عبدالعزّى ويسار غلام العلاء بن الحضرمي وجبير مولى عامر وكانوا من أهل الكتاب ، وقيل : قالوا : أعانه قوم من اليهود [فقد جاءوا ظلماً وزوراً] أي فقد قالوا شركاً وكذباً حين زعموا أنّ القرآن ليس من الله. ومتى قيل : كيف اكتفى بهذا القدر في جوابهم ؟ قلنا : إنّما تقدّم التحدّي وعجزهم عن الإتيان بمثله اكتفى بالتنبيه على ذلك .

[وقالوا أساطير الأوّلين اكتتبها] قالوا : هذا حديث المتقدّمين وما سطروه في كتبهم انتسخها واستكتبها محمد [فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً] أي هذه الأحاديث تقرأ عليه طرفي نهاره حتّى يحفظها صبحاً وعشيّاً .

[قل] أنزل القرآن [الّذي يعلم السرّ في السماوات والأرض إنّه كان غفوراً رحيماً] فإن قيل : كيف يكون هذا الكلام جواباً عن كلامهم ؟ لأنّ القرآن مشتمل على الأخبار عن الغيوب وذلك لايتأتّى إلّا من العالم بكلّ المعلومات ، وأيضاً أنّ القرآن جامع لنظام مصالح العباد وذلك لا يكون إلّا من العالم بالمصلحة كماقال سبحانه : «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً (١) » فلمّا دلّ القرآن من هذه الوجوه على أنّه ليس القرآن إلّا كلام الله لا جرم هذا البيان صار بياناً لهم وجواباً شافياً قوله « قل أنزله الّذي يعلم السرّ في السماوات والأرض » ومن جملة ماتسرّونه أنتم المنافقون من الكيد لرسوله .

---

(١) النساء : ٨١ .

وإنّما ذكر سبحانه في هذا الموضع «الغفور الرحيم» تنبيهاً على أنّهم استوجبوا بكيدهم أن يصبّ عليهم العذاب صبّاً ولكن صرف ذلك عنهم بكونه سبحانه غير مستعجل في العقوبة غفور رحيم يمهل بهم بإرسال الرسل إليهم .

ثمّ أوردوا شبهة اُخرى في نبوّته وهي أركك من الاُولى بل شبهات ركيكة أوردوها بزعمهم أنّها تخلّ بالرسالة :

احداها قولهم : [ما لهذا الرسول يأكل الطعام] .

وثانيتها : [ويمشي في الأسواق] يعني إنّه لمّا كان كذلك فمن أين له الفضل علينا وهو مثلنا في هذه الاُمور ؟

وثالثتها : [لولا اُنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً] أي هلاّ اُنزل إليه ملك يصدّقه ويشهد له ؟

ورابعتها : [أو يلقى إليه كنز] أي من السماء فينفقه ولا يحتاج إلى طلب المعاش .

وخامستها : [أو تكون له جنّة يأكل منها] وقرىء نأكل منها بالنون والمعنى إن لم يكن له كنزٌ فلا أقلّ من أن يكون كواحد من الدهاقين فيكون له بستان يأكل ويعيش منه .

وسادستها : [إن تتّبعون إلّا رجلاً مسحوراً] أي ماتتّبعون إلّا رجلاً قد سحر فغلب على عقله أو المفعول بمعنى الفاعل أي ساحراً و ذا سحر .

قوله تعالى : [انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلاً] انظر كيف اشتغل القوم بضرب هذه الأمثال والنسب الّتي نسبوها إليك ولا فائدة فيها لهم لأنّ مثل هذه الاُمور الّتي زعموها قدحاً لك في نبوّتك فاسد ولا تقدح في معجزة كتابك ولا في نبوّتك وإنّهم أرادوا القدح وما وجدوا إلى طريق قدح نبوّتك سبيلاً وضلّوا لإلزامك إيّاهم بنبوّتك الحجّة عليهم وما أوردوا عليك حجّة في إبطال أمرك .

قوله تعالى : [تبارك الّذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك] أي تقدّس الإله الّذي إن أراد جعل لك خيراً من ذلك الّذي ذكروه من نعم الدنيا كالكنز و الجنّة .

ثمّ فسّر ذلك الخير بقوله : [جنّات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً]
وحاصل المعنى أنّه قادر على أن يعطي الرسول كلّ ما ذكروه ولكنّه يدبّر عباده بحسب المصلحة أو على وفق المشيئة فيفتح على واحد أبواب المعارف والعلوم و يسدّ عليه أبواب الدنيا ، و في حقّ الآخر بسبب استحقاقه بالعكس والثاني يقع بسوء اختيار المكلّف، وقد عيّره المشركون بفقد جنّة واحدة وهو قادر بإعطائك جنّات كثيرة .

وقال قوم « إن » ههنا بمعنى « إذن » أي قد جعلنا لك في الآخرة جنّات وبنينا لك قصوراً و إنّما اُدخل « إن » تنبيهاً للعباد على أنّه لا ينال ذلك إلّا برحمته و أنّه خلق على محض مشيئته .

وفي مصحف اُبيّ و ابن مسعود : « تبارك الّذي إن شاء يجعل » .

وعن ابن عبّاس وطاوس قال : بينا رسول الله جالس و جبرئيل عنده قال جبرئيل : هذا ملك قد نزل من السماء استأذن ربّه في زيارتك فلم يلبث إلّا قليلاً إذجاء الملك و سلّم على رسول الله وقال : إنّ الله يخيّرك بين أن يعطيك مفاتيح كلّ شيء لم يعطها أحداً قبلك ولايعطيه أحداً بعدك من غير أن ينقصك ممّا ادّخر لك شيئاً فقال ﷺ : بل يجمعها جميعاً لي في الآخرة فنزل قوله : « تبارك الّذي إن شاء » الآية .

وعن ابن عبّاس قال ﷺ : عرض عليّ جبرئيل بطحاء مكّة ذهباً فقلت : شبعة و ثلاث جوعات وذلك أكثر لذكري ومسألتي لربّي . وفي رواية اُخرى : أشبع يوماً وأجوع ثلاثاً فأحمدك إذا شبعت وأتضرّع إليك إذا جعت .

وعن الضحّاك لمّا عيّر المشركون رسول الله بالفاقة نزل جبرئيل معزّياً له وقال : إنّ الله يقرؤك السلام ويقول : وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلّا إنّهم ليأكلون الطعام قال : بينما جبرئيل والنبيّ ﷺ يتحدّثان إذ فتح باب من أبواب السماء لم يكن فتح قبل ذلك ثمّ قال : ابشر يا محمّد هذا رضوان خازن الجنّة قد أتاك بالرضا من ربّك فسلّم عليه وقال : إنّ ربّك يخيّرك بين أن تكون نبيّاً ملكاً وبين أن تكون نبيّاً عبداً ومعه سفط من نور يتلألأ ثمّ قال : فهذه مفاتيح خزائن الدنيا فاقبضها من غير أن ينقصك الله ممّا أعدّ لك في الآخرة جناح بعوضة فنظر النبيّ ﷺ إلى جبرئيل كالمستشير فأومأ بيده أن تواضع فقال رسول

الله ﷺ : بل نبياً عبداً فكان ﷺ بعد ذلك لم يأكل متكئاً .

قوله تعالى : بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً (١١) اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً (١٢) واذا القوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً (١٣) لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبورا كثيرا (١٤) قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا (١٥) لهم فيها مايشاؤن خالدين كان على ربك وعدا مسؤلا (١٦) ويوم يحشرهم ومايعبدون من دون الله فيقول ءأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل (١٧) قالوا سبحانك ماكان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم و آباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بورا (١٨) فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيرا (١٩) وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا (٢٠)

ثمّ شرح حال المكذّبين نبوّته وما أعدّ لهم على قبيح أقوالهم و عقائدهم فقال : سبب تكذيبهم إيّاك ليس لأنّك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق بل لأنّهم لم يقرّوا بالبعث و النشور والثواب والعقاب ولهذا أنكروا نبوّتك وماقبلوا ما أمرتهم ولهذا قال :

[بل كذّبوا بالساعة وأعتدنا] أي وهيّأنا [لمن كذّب بالساعة سعيراً] أي ناراً تتلظّى . و في الآية دلالة صريحة على أنّ جهنّم مخلوقة موجودة معدّة .

ثمّ وصف ذلك السعير فقال : [إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيّظاً وزفيراً] ونسب الرؤية إلى النار وإنّما يراها الكفّار لأنّ ذلك أبلغ كأنّها تراهم رؤية الغضبان الّذي يزفر غيظاً من مسيرة مائة عام .

هذا قول الطبرسيّ ، وأمّا ماقاله الرازيّ في المفاتيح قال : مذهب أصحابنا أنّ البنية ليست شرطاً في الحياة فالنار على ماهي عليه يجوز أن يخلق الحياة و النطق فيها فيجب إجراؤه على الظاهر لأنّه لا امتناع في أن تكون النار حيّة رائية مغتاظة على الكفّار ، وعند المعتزلة ذلك غير جائز وليس لهم في هذا الإنكار حجّة إلّا استقراء العادات و هذا الكلام

لايليق إلّا بأُصول الفلاسفة فالمعتزلة احتاجوا إلى التأويل وذكروا فيه وجوهاً : أحدها معنى رأتهم ظهرت لهم من قولهم : دورهم تترامى و تتناظر . قال عليه السلام : إنّ المؤمن و الكافر لاتتراءى ناراهما أي لاتتقابل لما يجب من مخاطبة المؤمن الكافر والمشرك . ويقال دور فلان متناظرة أي متقابلة .

وقال الجبّائيّ : إنّ الله تعالى ذكر النار وأراد الخزنة الموكّلة بتعذيب أهل النار كقوله : « واسأل القرية [1]» أراد أهلها .

ولو قيل : إنّ التغيّظ عبارة عن شدّة الغضب و ذلك لايكون مسموعاً فكيف قال : « سمعوا لها تغيّظاً » ؟

فالجواب أنّ التغيّظ وإن لم يسمع ولكن يسمع مايدلّ عليه من الصوت كقولهم : رأيت غضب الأمير على فلان إذا رأى مادلّ عليه أي سمعوا لها صوتاً يشبه صوت المتغيّظ .

والجواب الثاني ما قاله الزجّاج ، المعنى : علموا لها تغيّظاً و سمعوا لها زفيراً كقول الشاعر : «متقلّداً سيفاً ورمحاً » والرمح مايتقلّد . روي عن عبيد بن عمر : إنّ جهنّم لتزفر زفرة لا يبقى أحد إلّا و ترعد فرائصه حتّى أنّ إبراهيم عليه السلام يجثو على ركبتيه و يقول : نفسي نفسي .

قوله تعالى : [وإذا أُلقوا منها مكاناً ضيّقاً مقرّنين دعوا هنالك ثبوراً] لمّا وصف حال الكفّار حال يكونون بالبعد من جهنّم وصف حالهم في هذه الآية عند ما يلقون فيها نعوذ بالله منها بما لاشيء أبلغ منه قال بعضهم : إنّ جهنّم لتضيق على الكافر كضيق الزجّ [2] على الرمح وسئل النبيّ صلى الله عليه وآله عن ذلك فقال : و الّذي نفسي بيده إنّهم يستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط .

وقال الكلبيّ الأسفلون يرفعهم اللّهيب ، و الأعلون يخفضهم الداخلون فيزدحمون في تلك الأبواب الضيّقة ، وكما أنّ الله سبحانه جمع لأهل الجنّة أنواع الملاذّ كذلك

---

(١) يوسف : ٨٢ .

(٢) الحديدة في اسفل الرمح .

جمع لأهل النار أنواع العذاب وضمّ إليها الضيق الشديد مقرّنين في السلاسل قرنت أيديهم إلى أعناقهم. قيل : يقرن مع كلّ كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الأصفاد ، ومقرّنين حال من مفعول «ا ُلقوا». حين ما يشاهدون هذا النوع من العقاب الشديد دعوا بالثبور أي بالهلاك: هذا أوان حضورك .

وروى أنس مرفوعاً : أوّل ما يكتسى حلّة من النار إبليس فيعضّها على جانبيه ويسحبها من خلفه ذرّيّته وهو يقول : يا ثبوراه و ينادون يا ثبورهم حتّى يردوا النار .

أمّا قوله : [لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً] أي هلاككم أكبر من أن تدعونه مرّة واحدة ولا ينفعكم هذا النداء، وإن كثر منكم .

[قل أذلك خيرٌ أم جنّة الخلد] قل يا محمّد : ذلك العذاب الموصوف خير أم جنّة الخلد ؟ فإن قيل : كيف بهذا الكلام وهل يجوز أن يقول الإنسان : السكّر أحلى من الصبر ؟ نعم هذا الكلام يحسن عند التقريع كما إذا أعطى السيّد عبده مالاً فتمرّد و استكبر فيضربه المولى ضرباً وجيعاً ويقول له في معرض التوبيخ والتقريع : هذا أطيب أم ذاك ؟ [الّتي وعد المتّقون] أي كانت تلك الجنّة لهم موعودين بها جزاءً على أعمالهم [ومصيراً] مستقرّاً ومرجعاً [لهم فيها ما يشاءون] و يشتهون من المنافع و اللّذات [خالدين] مؤبّدين لا يفنون فيها [كان على ربّك وعداً مسؤولاً] و في قوله تعالى « مسؤولاً » ذكروا وجوهاً :

أحدها : أي من يكون مسؤولاً لأنّه حقّ واجب إمّا بحكم الاستحقاق على قول المعتزلة أو بحكم الوعد على قول أهل السنّة .

الثاني : أنّ المكلّفين سألوه بقولهم « ربّنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك[٢] » .

والثالث : أنّ الملائكة سألوا الله تعالى ذلك بقولهم : « ربّنا و أدخلهم جنّات عدن [٣] » .

فإن قيل : قوله « لهم فيها ما يشاءون » إذا شاهد أهل الدرجات النازلة أهل

(١) صبغ مر يعالج به . آل عمران : ١٩٣ .
(٣) المؤمن : ٨ .

الدرجات الرفيعة لابدّ وأن يريدوها فإذا سألوها ربّهم فإن أعطاهم إيّاها لم يبق بين الناقص والكامل تفاوت في الدرجة وإن لم يعطها قدح ذلك في قوله «لهم فيهاما يشاءون» . وأيضاً فالأب إذا كان ولده في دركات النيران وأشدّ العذاب إذا اشتهى أن يخلصه الله من ذلك العذاب فلا بدّ أن يسأل ربّه أن يخلصه منه فإن فعل الله ذلك قدح في أنّ عذاب الكافر مخلّد وإن لم يفعل قدح ذلك في قوله : لكم فيها ماتشتهى أنفسكم .

فالجواب أنّ الله يزيل ذلك الأمر عن قلوب أهل الجنّة بل كون اشتغال كلّ واحد منهم بما فيه من اللذّات شاغلاً عن الالتفات إلى حال غيره ومن شرط نعيم الجنّة أن يكون دائماً ولم يكن مشوباً بالكدورات قال المتنبّي :

أشدّ الغمّ عندي في سرور ❊ تيقّن عنه صاحبه انتقالاً

ولذلك قال صلى الله عليه وآله : من طلب مالم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق فقيل : وما هو يا رسول الله ؟ فقال : سرور يوم .

قوله تعالى : [يوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله] أي و يوم يجمعهم و ما يعبدون غير الله يعني عيسى و عزير عليهما السلام و الملائكة . و قيل : يعني الأصنام فيقول الله لهؤلاء المعبودين : [ءأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلّوا السبيل] أي طريق الجنّة و الحسنة والنجاة.

[قالوا] يعني المعبودين من الملائكة والإنس والأصنام أن أحياهم الله وأنطقهم : [سبحانك] أي تنزيهاً لك عن الشريك وعن أن يكون معبوداً سواك [ماكان ينبغي لنا أن نتّخذ من دونك أولياء] أي ليس لنا أن نوالي أعداءك بل أنت وليّنا من دونهم وما كان يحقّ لنا أن نأمر أحداً بأن يعبدنا ولا يعبدك [ولكن متّعتهم وآباءهم حتّى نسوا الذكر] ولكن طوّلت أعمارهم وأعمار آبائهم و متّعتهم بالأموال و الأولاد بعد موت الرسل حتّى نسوا الذكر المنزل على الأنبياء وتركوه [وكانوا قوماً بوراً] أي هلكى فاسدين ، هذا تمام الحكاية عن قول المعبودين في عبدتهم .

[فقد كذّبوكم] أي كذّبكم المعبودون أيّها المشركون [بما تقولون] أي بقولكم : إنّهم آلهة شركاء [فما تستطيعون صرفاً] أي فما يستطيع المعبودون صرف العذاب عنكم

[ولا نصراً] لكم يدفع العذاب عنكم ، و من قرأ بالتاء أي فما تستطيعون أيّها المتّخذون الشركاء صرف العذاب عن أنفسكم .

قوله تعالى : [ومن يظلم منكم] نفسه بالشرك وارتكاب المعاصي [نذقه في الآخرة عذاباً كبيراً] أي شديداً عظيماً .

ثمّ رجع سبحانه إلى مخاطبة النبيّ صلى الله عليه وآله فقال : [وما أرسلنا قبلك] يا محمد من المرسلين [إلّا أنّهم ليأكلون الطعام و يمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون] هذا ردّ عليهم بقولهم : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام و يمشي في الأسواق » أي فقل لهم : كذلك كان من خلا من الرسل فكيف يكون محمد بدعاً منهم ؟ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أي امتحاناً وابتلاءً وهو افتتان الفقير بالغنيّ يقول : لوشاء الله لجعلني مثله غنيّاً و الأعمى بالبصير يقول : لوشاء الله لجعلني مثله بصيراً والسقيم بالصحيح،وقيل : معناه ابتلاء فقراء المؤمنين بالمستهزئين من قريش كانوا يقولون : انظروا إلى هؤلاء الّذين اتّبعوا محمداً من موالينا ورذالنا،فقال الله لهؤلاء الفقراء : أتصبرون أيّها الفقراء على الأذى والاستهزاء ؟ [وكان ربّك بصيراً] إن صبرتم ، وقيل : معناه : أتصبرون أيّها الفقراء على فقركم ولا تفعلون مايؤدّي إلى مخالفتنا ؟ أتصبرون أيّها الأغنياء فتشكرون ولا تفعلون ما يؤدّي إلى مخالفتنا ؟ فيغتني من أوجبت الحكمة إغناءه ويفتقر من أوجبت الحكمة إفقاره وهو بصير بمن يصبر وبمن يجزع .

قوله تعالى: وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا انزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا (٢١) يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا (٢٢) وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا (٢٣) أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا و أحسن مقيلا (٢٤) و يوم تشقق السماء بالغمام و نزل الملائكة تنزيلا (٢٥) الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً (٢٦) ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا (٢٧) ياويلتى ليتني لم أتخذ

فلاناً خليلا (٢٨) لقد أضلني عن الذكر بعد اذجاءني وكان الشيطان للانسان خذولا (٢٩) وقال الرسول يارب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا (٣٠)

هذه شبهة لمنكري نبوّة محمد صلى الله عليه وآله و حاصلها : [قال الّذين] لا يأملون لقاء جزائنا وقيل : معناه : لايخافون لقاءنا ، وهي لغة تهامة هذيل يضعون الرجاء موضع الخوف إذا كان معه جحد لأنّ من رجا شيئاً خاف فوته فإنّه إذا لم يخف كان يقيناً ومن خاف شيئاً رجا الخلاص منه فوضع أحدهما موضع الآخر و الحاصل أنّ منكري البعث و المعاد أوردوا هذا الكلام : هلاّ اُنزل الملائكة ليخبرونا بأنّ محمّداً نبي ؟ [أونرى ربّنا] فيخبرنا بذلك و يأمرنا باتّباعه وتصديقه .

ثمّ أقسم الله عزّ اسمه فقال : [لقد استكبروا] بهذا القول السخيف [وعتوا] و بغوا بهذا الكبر والتجبّر بغير حقّ وعاندوا [عتوّاً كبيراً] و تمرّدوا في ردّ أمرالله .

ثمّ أعلم سبحانه أنّ الوقت الّذي يرون فيه الملائكة هو يوم القيامه و أنّ الله قد حرّم البشرى لهم في ذلك اليوم فقال : [يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين] أي لا بشارة لهم بالجنّة و الثواب و المراد من الملائكة هنا ملائكة الموت أو العذاب و يقول الملائكة لهم : [حجراً محجوراً] حراماً محرّماً عليكم سماع البشرى كقولهم : موت مائت وذيل ذايل . و «محجوراً» صفة لتأكيد معنى الحجر أي منعاً ممنوعاً من الخير و البشارة ، وقيل : إنّ القائل هم الكفّار لأنّهم كرهوا لقاء الملائكة لعذابهم إيّاهم ولأنّهم لا يلقونهم إلاّ بما يكرهونه فيقولون عند رؤيتهم هذا الكلام . وقيل : إنّ الكفّار يوم القيامة إذا شاهدوا مايخافونه فيعوذون منه و يقولون : حجراً محجوراً .

قوله : [وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً] أي و قصدنا و عمدنا إلى عمل الكفّار في الدنيا ممّا رجوا به النفع وطلبوا به الثواب والبرّ مثل إعتاقهم وصدقاتهم وماكانوا يتقرّبون به إلى الأصنام فجعلناه هباءً منثوراً و هو الغبار يدخل الكوّة من شعاع الشمس أوما تسفيه الرياح و تذريه من التراب ، وقيل : الماء المهراق ، وهذا مثل والمعنى : يذهب أعمالهم باطلاً ولم ينتفعوا بها من حيث عملوها لغيرالله .

في الكافي عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال : إن كانت أعمالهم لأشدّ

بياضاً من القباطي[1] فيقول : كن هباءً منثوراً ، و ذلك أنّهم كانوا إذا شرع لهم الحرام أخذوه وفي رواية : لم يدعوه .

والقمي عن الباقر عليه السلام قال : يبعث الله يوم القيامة قوماً ما بين أيديهم نور كالقباطيّ ثمّ يقال له : كن هباءً منثوراً ثمّ قال : أما و الله إنّهم كانوا يصومون و يصلّون ولكن كانوا إذا عرض لهم الحرام أخذوه و إذا ذكرلهم من فضل أمير المؤمنين أنكروه . وفي البصائر عن الصادق عليه السلام : سئل عن هذه الآية فقال : أعمال مبغضينا ومبغضي شيعتنا .

قوله تعالى : [أصحاب الجنّة يومئذ خير مستقرّاً وأحسن مقيلاً] لمّا بيّن حال الكفّار وخيبتهم شرح حال أهل الجنّة فقال : أصحاب الجنّة يومئذ أي يوم القيامة أفضل منزلاً في الجنّة وأحسن مقيلاً ، موضع القائلة هي الاستراحة نصف النهار إذا اشتدّ الحرّ وإن لم يكن مع ذلك نوم ولذلك في الجنّة لانوم فيها ، قال ابن مسعود وابن عبّاس : لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتّى يقيل أهل الجنّة في الجنّة وأهل النار في النار . وقيل : خير في نفسه لابمعنى أفعل التفضيل كقوله تعالى : «وهو أهون عليه[2] » و كقوله : الله أكبر لابمعنى أكبر من شيء غيره لأنّه لايقال : العسل أحلى من الخلّ .

فلوقيل : دلّت الآية على أنّ المستقرّ لهم غير مقيلهم ؛ قالوا : إنّهم يقيلون في الفردوس ثمّ يعودون إلى مستقرّهم . وقيل : إنّ بعد الفراغ من المحاسبة و الذهاب إلى الجنّة يكون وقت القيلولة و نصف النهار . وقال مقاتل : يخفّف الحساب على أهل الجنّة حتّى يكون بمقدار نصف يوم من أيّام الدنيا ثمّ يقيلون من يومهم ذلك في الجنّة .

فلو قيل : إنّ اليوم لا يحصل لأهل الجنّة ولا لأهل النار فكيف ؟

فالجواب هذا كقوله : « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيّاً » والغرض بيان أنّ مواضع الجنّة أطيب المواضع .

قوله : [ويوم تشقّق السماء بالغمام] وأصله تتشقّق أبدلت وأدغمت التاء في الشين

---

(١) جمع القبطية : ثياب من كتان .

(٢) الروم : ٢٧ .

أي يوم يرون تتشقق السماء وعليها غمام، وقوله: «بالغمام» كقوله: ركب الأمير بجنده وسلاحه يعني معه سلاحه وإنّما تتشقّق السماء لنزول الملائكة [ونزّل الملائكة تنزيلاً] قال ابن عبّاس: تتشقّق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر من أهل الأرض من الجنّ والإنس ثمّ تنشق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر من أهل السماء الدنيا والجنّ والإنس ثمّ كذلك إلى السماء السابعة وأهل كلّ سماء يزيدون على أهل السماء الّتي قبلها ثمّ ينزل الكروبيّون وحملة العرش ويصيرون سبع صفوف.

ولو قيل: كيف بذلك وقد ثبت أنّ الأرض بالنسبة إلى السماء الدنيا كحلقة في فلاة فكيف بالكرسيّ والعرش؟ وكيف تتّسع لهم الأرض جميعاً؟ فيمكن أنّ الله يزيد في طول الأرض وعرضها ويبلغها مبلغاً تتّسع لهم الأرض جميعاً ومن المفسّرين قالوا: الملائكة يكونون في الغمام والله تعالى يسكن الغمام فوق أهل القيامة ويكون ذلك الغمام مقرّ الملائكة.

والصفة الأخرى لذلك اليوم قوله [الملك يومئذٍ الحقّ للرحمن] قيل: الحقّ صفة للملك وتقديره: الملك الحقّ يومئذ للرحمن أي ذلك اليوم لا مالك سواه لا في الصورة ولا في المعنى فتخضع له الملوك وتذلّ له الجبابرة وتعفر له الوجوه [وكان يوماً على الكافرين عسيراً] عسر اليوم عليهم لشدّته ويهون على المؤمنين كأدنى صلاة صلّوها في دار الدنيا وفي هذا بشارة للمؤمنين حيث خصّ بشدّة ذلك اليوم الكافرين.

قوله تعالى: [ويوم يعضّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتّخذت مع الرسول سبيلاً] ندماً وتأسّفاً قيل: المراد هو عقبة بن أبي معيط وقيل: هو عام في كلّ ظالم ونادم يوم القيامة وكلّ خليل يخالّ غيره في غير ذات الله. قال عطا: يأكل يديه حتّى تذهبا إلى المرفقين ثمّ لا يزال هكذا كلّما أنبتت يده أكلها ندامة على ما فعل يقول: [يا ليتني اتّخذت مع الرسول سبيلاً] أي ليتني اتّبعت محمّداً واتّخذت معه سبيلاً إلى الهدى.

قوله: [يا ويلتى ليتني لم أتّخذ فلاناً خليلاً] وقرىء بالياء «يا ويلتي» يقول وينادي: الويل احضري هذا أوان حضورك. وإنّما قلّب الياء ألفاً مثل عذارى وصحارى. ليتني لم أتّخذ فلاناً؛ قيل: أراد به الشيطان أو الظالم أي نوع الظالم وكلّ خليل يضلّ

عن الدين ولو كان يقول مثلاً : فرعون أو هامان و إبليس اطال الكلام فقال : فلاناً حتّى يتناول كلّ مضلّ في الدين [لقد أضلّني عن الذكر] أي عن القرآن والإيمان [بعد إذ جاءني] الذكر وتمكّنت منه ، وتمّ الكلام ثمّ قال الله : [وكان الشيطان للإنسان خذولاً] لأنّه يتبرّأ منه في الآخرة ويسلّمه إلى الهلاك ولا يغني عنه شيئاً .

قوله تعالى : [وقال الرسول] يعني محمّد ﷺ يشكو قومه : [يا ربّ إنّ قومي اتّخذوا هذا القرآن مهجوراً] يعني هجروا القرآن وهجروني و كذّبوني وجعلوه متروكاً لا يسمعونه ولا يتفهّمونه . قال أكثر المفسّرين : إنّ هذا القول واقع من الرسول و يؤيّد هذا القول قوله : « و كذلك جعلنا لكلّ نبيّ عدوّاً من المجرمين[1] » لأنّ ما ذكره الله تعالى من قوله : « و كذلك جعلنا » كلام في مقام التسلية للرسول ولا يليق إلّا إذا كان وقع ذلك القول منه .

وقال أبومسلم : بل المراد أنّ الرسول يقوله في القيامة وهو كقوله : « فكيف إذا جئنا من كلّ أُمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً[2] » والقول الأوّل أولى.

بيان : و في قوله « يوم يعضّ الظالم » قال ابن عبّاس : نزلت الآية في عقبة بن أبي معيط وأُبيّ بن خلف و كانا متخالّين وذلك أنّ عقبة كان لا يقدم من سفر إلّا صنع طعاماً فدعا إليه أشراف قومه وكان يكثر مجالسته للرسول فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاماً فلمّا قرّبوا الطعام قال رسول الله ﷺ : ما أنا بآكل من طعامك حتّى تشهد أن لا إله إلّا الله و أنّي رسول الله ، فقال عقبة : أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمّداً رسول الله ، فبلغ ذلك أُبيّ بن خلف فقال : صبأت[3] يا عقبة ؟ قال : لا والله ما صبأت ولكن دخل عليّ رجل فأبى أن يطعم من طعامي إلّا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له فطعم ، فقال : إنّي ما كنت براض عنك أبداً حتّى تأتيه فتبزق في وجهه ففعل ذلك عقبة وارتدّ وأخذ رحم دابّة فألقاها بين كتفيه فقال النبيّ ﷺ : لا ألقاك خارجاً من مكّة إلّا علوت

---

(١) الفرقان : ٣١ .
(٢) النساء : ٤٠ .
(٣) صبأ : خرج من دين الى آخر .

رأسك بالسيف فضرب عنقه يوم بدر صبراً . وأمّا أُبيّ بن خلف فقتله النبيّ صلّى الله عليه وآله يوم اُحد في المبادرة . وقال الضحّاك : لمّا بزق عقبة في وجه رسول الله عاد بزاقه في وجهه فأحرق خدّيه وكان أثر ذلك فيه حتّى مات أو قتل ، هذا قول ابن عبّاس .

وقيل : نزلت في كلّ كافر أو ظالم تبع غيره في الكفر أو الظلم .

وقال أبو عبدالله عليه السلام : ليس رجل من قريش إلّا وقد نزلت فيه آية أو آيتان تقوده إلى جنّة أو تسوقه إلى نار ، انتهى .

قوله تعالى : وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا (٣١) وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا (٣٢) ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيرا (٣٣) الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم اولئك شر مكانا واضل سبيلا (٣٤) ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه اخاه هرون وزيرا (٣٥) فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا (٣٦) وقوم نوح لما كذبوا الرسل اغرقناهم وجعلناهم للناس آية واعتدنا للظالمين عذابا اليما (٣٧) وعادا وثمود واصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا (٣٨) وكلا ضربنا له الامثال وكلا تبرنا تتبيرا (٣٩) ولقد اتوا على القرية التى امطرت مطر السوء افلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا (٤٠) .

المعنى : ثمّ عزّى الله نبيّه : كما جعلنا لك عدوّاً من مشركي قومك [جعلنا لكلّ نبيّ] من كفّار قومه لأنّ الأنبياء كانوا مأمورين من الله أن يدعون قومهم إلى الإيمان به وترك ما ألفوه من دين آبائهم و إلى ترك عبادة الأوثان و كانت هذه أسباباً داعية إلى العداوة فإذا أمرهم الله بهذا فقد جعلهم عدوّاً لهم [و كفى بربّك هادياً و نصيراً] أي حسبك الله هادياً إلى الحقّ وناصراً لأوليائه .

[وقال الّذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة] أي قال الكفّار لرسول الله صلّى الله عليه وآله : هلّا آتيتنا بالقرآن جملة واحدة كما اُنزلت التوراة والإنجيل و الزبور جملة واحدة ؟ .

قال الله : [كذلك] أي أنزلناه كذلك متفرّقاً [لنثبّت به فؤادك] لنقوّي به قلبك فتزداد بصيرة وذلك أنّه إذا كان يأتيه الوحي متجدّداً في كلّ حادثة و كلّ أمر كان ذلك أقوى لقلبه وأزيد في بصيرته ، وقيل : إنّما اُنزلت الكتب بجملة واحدة لأنّها نزلت على الأنبياء يكتبون و يقرؤون فنزلت عليهم مكتوبة و القرآن إنّما نزل على نبيّ اُمّيّ لايكتب ولا يقرء ولذلك نزل متفرّقاً[١] . وأيضاً فإنّ في القرآن الناسخ والمنسوخ وفيه ما هو جواب لمن سأله عن اُمور وفيه إنكار لما هو كان الحكمة إنزاله متفرّقاً .

[و رتّلناه ترتيلاً] أي بيّنّاه تبييناً بعضه إثر بعض . روي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قال : يا ابن عبّاس إذا قرأت القرآن فرتّله ترتيلاً قال : وماالترتيل ؟ قال : بيّنه تبييناً ولا تنثره نثر الرمل ؛ قفوا عند عجائبه وحرّكوا به القلوب ولا يكوننّ همّ أحدكم آخر السورة .

قوله تعالى : [ولا يأتونك بمثل] من الجنس الّذي تقدّم ذكره من الشبهات [إلّا جئناك بالحقّ] الّذي يبطله ويدحضه أي لا يأتيك المشركون بمثل يضربونه لك واعتراض في نبوّتك إلّا أبطلناه بالحقّ وهو القرآن [و أحسن تفسيراً] أي و بأحسن تفسيراً ممّا أتوابه من المثل بياناً و كشفاً .

قوله : [الّذين يحشرون على وجوههم إلى جهنّم] أي يسحبون على وجوههم إلى النار وهم كفّار مكّة وذلك أنّهم قالوا : لمحمّد (صلّى الله عليه وآله) وأصحابه هم شرّ خلق الله ، فقال الله :

---

(١) و هذا القول يستلزم امورا لايتفوه بها مسلم : منها كون سائر الانبياء افضل من نبينا صلى الله عليه وآله وامتيازهم عنه بعلم الكتابة والقراءة و منها عدم اطلاعه صلى الله عليه وآله على الايات قبل نزولها ، و هو تعالى يقول : « ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه » (طه : ١١٤) الدال على أنه صلى الله عليه وآله كان يقرء الايات الى آخرها قبل ان يلقيها عليه روح القدس . و منها انه صلى الله عليه وآله لم يكن متمكنا من الكتابة والقراءة مع ان عدم الكتابة لا يلازم عدم التمكن بل السر فيه ازالة ريب التعلم على ما اشار اليه في قوله تعالى : « ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون » (العنكبوت : ٤٨) وليت شعري ماجرأ الانسان بربه الكريم و نبيه العظيم ؛

[أُولئك شرّ مكاناً] أي منزلاً ومصيراً [وأضلّ سبيلاً] أي ديناً و طريقاً من المؤمنين و التفاضل المذكور في الآية واقع على هذا التقدير الّذي فرضتموه أنتم بقولكم : أصحاب محمد شرّ خلق الله أي أنتم على هذا الفرض شرّ منهم والمشي على الوجه .

قال أكثر المفسّرين : إنّهم يمشون في الآخرة مقلوبين وجوههم إلى القرار و أرجلهم إلى فوق . روي ذلك عن النبيّ صلى الله عليه وآله وقال : إنّ الّذين أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم . وقال آخرون : يحشرون و يسحبون على وجوهم ، و هذا مرويّ عن الرسول صلى الله عليه وآله .

ثمّ ذكر سبحانه حديث الأنبياء تسلية للرسول وتبصرة لاُمّته :

القصّة الأولى : قوله تعالى : [ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً] لمّا قال سبحانه « وكذلك جعلنا لكلّ نبيّ » أتبعه بذكر جماعة من الأنبياء و عرّف نبيّه محمداً بما نزل عليهم من اُممهم وتكذيبهم إيّاهم فقال : «ولقد آتينا موسى الكتاب» أي لست يا محمد بأوّل من أرسلناه فكذّب وآتيناه الآيات فردّ فقد آتينا موسى التوراة وقوّينا عضده بأخيه هارون ومع ذلك فقد ردّ [فقلنا اذهبا إلى القوم الّذين كذّبوا بآياتنا فدمّرناهم تدميراً] وقلنا لموسى وهارون : اذهبا إلى القوم المكذّبين يعني فرعون وقومه ، وفي الكلام حذف و تقديره : فذهبا إليهم فلم يقبلوا منهما وجحدوا نبوّتهما فدمّرناهم تدميراً أي أهلكناهم إهلاكاً بأمرفيه اُعجوبة .

[وقوم نوح لمّا كذّبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية و أعتدنا للظالمين عذاباً أليماً] أي وأغرقنا قوم نوح بالطوفان وهومجيء السماء بماء منهمر ويفجّر الأرض عيوناً والمراد بتكذيب الرسل لأنّ من كذّب نبيّاً كذّب تمام الأنبياء و جعلناهم للناس آية أي هلاكهم عبرة وعظة و أعتدنا و هيّأنا للظالمين عذاباً أليماً سوى ما حلّ بهم في الدنيا .

قوله : [وعاد وثمود] أي أهلكنا عاد وثمود [وأصحاب الرسّ] والرسّ بئر رسّوا فيها نبيّهم وألقوه فيها ، عن عكرمة . وقيل : إنّهم كانوا أصحاب مواش ولهم بئر يقعدون عليها وكانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعيباً فكذّبوه فانهار البئر و انخسفت بهم

الأرض فهلكوا .وقيل : الرسّ قرية باليمامة يقال لها : فلج ، فقتلوا نبيّهم فأهلكهم الله ، عن قتادة . وقيل : كان لهم نبيّ يسمّى حنظلة فقتلوه فأُهلكوا ، عن سعيدبن جبير و الكلبيّ . وقيل : الرسّ بئر بأنطاكية فقتلوا فيها حبيب النجّار فنسبوا إليها ، و قيل : أصحاب الرسّ كان نساؤهم سحّاقات ، عن أبي‌عبدالله عليه السلام .

قوله : [وقروناً بين ذلك كثيراً] أي وأهلكنا أيضاً قروناً كثيراً بين عاد وأصحاب الرسّ على تكذيبهم .

و قيل : المراد من البين بين نوح و أصحاب الرسّ و القرون سبعون‌سنة ، و قيل : أربعون .

[و كلاًّ ضربنا له الأمثال] أي و كلاًّ منهم بيّنّا أنّ العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا أو بيّنّا لهم الأحكام في الدين والدنيا ومايضرّهم وماينفعهم [و كلاًّ] لمّا لم‌يؤمنوا [تبرّنا]هم [تتبيراً] وأهلكناهم إهلاكاً مثل كسارة الذهب وا الفتيت .

قوله : [ولقد أتوا على القرية الّتي اُمطرت مطرالسوء] أي ولقد أتوا كفّار مكّة على قرية «سدوم» من قرى قوم لوط و كانت خمساً أهلك الله أربعاً بأهلها و بقيت واحدة و مطرالسوء الحجارة والمعنى : إنّ أهل مكّة مرّوا مراراً كثيرة في متاجرهم إلى الشام‌على تلك القرية الّتي اُهلكت بالحجارة من السماء أفلم ينظروا إلى آثار عذاب الله و نكاله فيعتبروا [أفلم يكونوا يرونها] ثمّ قال : [بل كانوا] قوماً كفرة [لايرجون‌نشوراً] أي لا يعتقدون و يتوقّعون البعث ولا يأملون ثواباً ولا يخافون عقاباً فركبوا المعاصي و الكفر .

قوله : واذارأوك‌أن‌يتخذونك‌الا هزوا أهذاالذى بعث‌الله‌رسولا(٤١) ان كاد ليضلنا عن‌آلهتنا لولا أن صبرنا عليها و سوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا (٤٢) أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا (٤٣) أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أويعقلون ان هم الا كالانعام بل هم‌أضل سبيلا (٤٤) .

المعنى : لمّا بيّن مبالغة المشركين في إنكار نبوّته وفي إيراد الشبهات بيّن‌أنّهم

إذا رأوا الرسول لم يقتصروا على ترك الإيمان به بل زادوا عليه بالاستهزاء و الاستحقار و يقول بعضهم لبعض : [أهذا الّذي بعث الله رسولاً] أي إذا رأوك قالوا مستهزئين : أبعث الله هذا رسولاً ؟ و « إن » الأولى نافية والثانية مخفّفة من المثقّلة ، واللام هي الفارقة بينهما . و كانوا يقولون فيه : لقد كاد يصرفنا عن عبادة آلهتنا أي قد قارب أن يضلّنا و يهلكنا [لولا أن صبرنا عليها] و الجواب محذوف مقدّر أي لولا نقيم على عبادة آلهتنا لهلكنا ، فقال متوعّداً سبحانه لهم : [وسوف يعلمون حين يرون العذاب] الّذي ينزل بهم عياناً [من أضلّ سبيلاً] وأخطأ الطريق الحقّ هم أم المؤمنون ؟ ثمّ عجّب نبيّه بكلمة : [أرأيت من اتّخذ إلهه هواه] في الكلام تعجيب من جهل هؤلاء الّذين اتّخذوا إلههم هواهم يعنى اتّخذ ميله وهواه إلهه .

قال سعيد بن جبير : كان الرجل من المشركين يعبد الصنم فإذا رأى أحسن منه رماه واتّخذ الآخر وعبده [أفأنت تكون عليه وكيلاً] أي مثل هذا الجاهل تكون تحفظه من اتّباع هواه ؟ يعني لست كذلك نحو قوله : « لست عليهم بمسيطر [1] » و « لا إكراه في الدين [2] » .

قوله : [أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون] ثمّ قال للنبيّ : أم تحسب - وأم منقطعة - أنّ أكثرهم يسمعون ما تقوله سماع طالب إفهام و يعقلون ما تقرأ عليهم ؟ لا تظنّ بذلك [إن هم إلّا كالأنعام] ماهم إلّا كالبهائم الّتي تسمع النداء ولا تعقل [بل هم أضلّ سبيلاً] من البهائم لأنّهم مكّنوا من المعرفة والأنعام لم يمكّنوا من المعرفة ولأنّ الأنعام عرفت أكثر منافعها ومضارّها ولا تفعل مايضرّها وهؤلاء يسعون في إهلاك أنفسهم وتجنّبوا سبيل نجاتهم فهم أضلّ منها .

قوله تعالى : الم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلا (٤٥) ثم قبضناه الينا قبضاً يسيراً (٤٦) وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشورا (٤٧) وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا (٤٨) لنحيى به

---

(١) الغاشية : ٢٢ .　(٢) البقرة : ٢٥٦ .

بلدة ميتاً و نسقيه مما خلقنا انعاماً و اناسي كثيرا(٤٩) و لقد صرفناه بينهم ليذكروا فابى أكثر الناس الا كفورا(٥٠) .

الخطاب للنبيّ والمراد به سائر المكلّفين أي [ألم تر] و تعلم [إلى] فعل [ربّك كيف مدّ الظلّ] و تقديره : ألم تر إلى الظلّ كيف مدّه ربّك.معنى الظلّ من وقت طلوع الفجر إلى طلوع الشمس و جعله ممدوداً لأنّه لاشمس معه كما قيل في ظلّ الجنّة : ممدوداً ؛إذلم يكن معه الشمس . قال أبوعبيدة : والظلّ ما نسخته الشمس وهو بالغداة والفيء ما نسخ الشمس و هو بعد زوال الشمس و سمّي فيئاً لأنّه فاء من جهة الشرق إلى جانب الغرب. و قيل : مدّ الظلّ من وقت غروب الشمس إلى وقت طلوعها فيكون الظلّ بالليل لأنّه ظلّ الأرض .

[ولو شاء لجعله ساكناً] أي مقيماً دائماً لايزول ولا ينسخه الشمس يقال : فلان يسكن بلد فلان إذا أقام به وهو مثل قوله : « أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة [(١)] » في المعنى .

و في هذا إشارة إلى أنّه قادر على تسكين الشمس حتّى يبقى الظلّ ممدوداً بخلاف ما يقوله الفلاسفة . و اعلم أنّ الظلّ الممدود هو الأمر المتوسّط بين الضوء الخالص و بين الظلمة الخالصة و كذا الكيفيّات الحاصلة داخل السقف وأفنية الجدران و هذه الحالة أطيب الأحوال لأنّ الظلمة الخالصة يكرهها الطبع و ينفر عنها الحسّ و كذلك الضوء الخالص و هو الكيفيّة الفائضة من الشمس فهي لقوّتها تبهر العين و تفيد السخونة القويّة وهي مؤذية لو دامت فإذن أطيب الأحوال هو الظلّ فهو من النعم العظيمة و إذا طلعت الشمس و وقع ضوؤها على الجسم زال ذلك الظلّ ولولا وقوع الشمس على الأجرام لما عرف أنّ للظلّ وجوداً وماهيّة و لولا الظلمة لما عرف النور ، فحينئذ ظهر للعقول أنّ الظلّ كيفيّة زائدة على الجسم فلهذا قال سبحانه : [ثمّ جعلنا الشمس عليه دليلاً] أي خلقنا الظلّ أوّلاً بما فيه من المنافع واللذّات ثمّ أطلعنا الشمس فصارت الشمس دليلاً على وجود هذه النعمة .

[ثمّ قبضناه إلينا قبضاً يسيراً] أي أزلنا الظلّ لا دفعة واحدة بل يسيراً يسيراً ،

---

(١) القصص ٧١ .

فإنّه كلّما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظلّ في جانب الغرب و لمّا كانت الحركات النوريّة المكانيّة لاتوجد دفعة واحدة بل يسيراً يسيراً كذلك زوال الظلّ لايكون دفعة واحدة بل يسيراً يسيراً .

و المراد من القبض الإعدام و الإزالة و لو حصل دفعة واحدة لاختلّت المصالح و بالتدريج يفيد أنواعاً من المصالح الزرعيّة والخلقيّة . و قيل : المراد من القبض عند قيام الساعة و ذلك بقبض أسبابها وهي الأجرام الّتي بسببها يقع الظلّ ولايخفى أنّ الظلّ ليس أمراً عدميّاً محضاً بل هو أضواء مخلوطة بظلم و عبارة عن الضوء الحاصل من هذه الأضواء المخلوطة و هو أمر وجوديّ و يتطرّق التغيّر عليه فلا بدّ له من وجوده بعد العدم و عدمه بعد الوجود من صانع مقدّر فحصول الظلّ إمّا أن يكون واجباً أوجائزاً أمّا الواجب لا يتغيّر فثبت تغيّره و إمكانه فحينئذ احتاج إلى مدبّر قاهر يقدّره بسبب الأجرام العلويّة فصحّ الاستدلال قوله تعالى : [وهوالّذي جعل لكم الليل لباساًوالنوم سباتاً] أي جعل الليل غطاءً ساتراً للأشياء بالظلام كاللباس الّذي يشمل على لابسه : فهو سبحانه ألبسنا الليل و غشّانا به لنسكن و نستريح من كدّ الأعمال كما قال في موضع آخر: « لتسكنوافيه[1] » « وجعلنا نومكم سباتاً[2] » وراحة وتعطيلاً لأعمالكم ، والانقطاع عن الحركة في الروح هوالسبات .

[و جعل النهار نشوراً] لانتشار الروح باليقظة في النهار مأخوذ من نشور البعث ولأنّ الناس ينشرون في النهار لطلب معايشهم فيكون النشورهنابمعنى التفرّق في الأرض لابتغاء الرزق .

[وهوالّذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته] قرئ بالنون أي الرياح ناشرات للسحاب و بالباء الموحّدة أي مبشّرات بين يدي رحمته استعارة لطيفة أي الرياح مبشّرة قدّام المطر [و أنزلنا من السماء ماءً طهوراً] و أنزلنا الماء من السماء طاهراً في نفسه مطهّراً لغيره مزيلاً للأحداث و النجاسات و ، في الآية نصّ على أنّه تعالى نزل الماء من السماء لا من السحاب و قول من يقول : السحاب سماء ضعيف ؛ لأنّ ذاك بحسب الاشتقاق وأمّا بحسب وضع اللغة فالسماء اسم لهذا السقف المعلوم فصرفه عنه ترك للظاهر ،

---
(١) يونس : ٦٧ . (٢) النبأ : ٩ .

والطهور ما يتطهّر به كالفطور ما يفطر به والسحور ما يتسحّر به .

قوله : [لنحيي به بلدةً ميتاً] قدمات بالجدب ، وأراد بالبلدة البلد أو المكان أي لنخرج بالماء النبات و الثمار [و نسقيه ممّا خلقنا أنعاماً وأناسيّ كثيراً] أي و لنسقي من ذلك الماء أنعاماً جمّة و أُناساً كثيرة .

[ولقد صرّفنا] المطر [بينهم] يدور في الجهات و قسّمناه بينهم فلا يدوم على مكان فيفسد و لا ينقطع بالكلّيّة عن مكان فيهلك و يزيد لقوم و ينقص لآخرين على حسب المصلحة [ليذّكّروا فأبى أكثر الناس إلّا كفوراً] ليتفكّروا ويستدلّوا به على قدرتنا و يعلمون أنّه لا يجوز العبادة لغير المنعم فأبى أكثر الناس بتصديق النعمة و زادوا جحوداً و كفوراً بالبعث والنشر فيقولون : مطرنا بنوء كذا و كذا ، على طريقتهم الخبيثة حيث كانوا يستندون الأمطار إلى الأنواء و قال ابن عبّاس : ما عام بأكثر من عام ولكن يصرفه في الأرض ثمّ قرأ هذه الآية . وروى ابن مسعود عن النبيّ ﷺ أنّه قال : ما من عام بأمطر من عام ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي حوّل الله ذلك إلى غيرهم فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي .

وقال الكعبيّ : قوله : « ولقد صرّفناه بينهم ليذّكّروا » حجّة على من زعم أنّ القرآن وبال على الكافرين وأنّه تعالى لم يرد بإنزاله أن يؤمنوا لأنّ قوله : «ليذّكّروا» عامّ في الكلّ لأنّه لا يجوز أن يقال : أنزلناه على قريش ليؤمنوا فأبى أكثر بني تميم إلّا كفوراً .

قوله تعالى : ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا (٥١) فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا (٥٢) وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح اجاج وجعل بينهما برزخاً و حجرا محجورا (٥٣) و هو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسباً و صهرا و كان ربك قديرا (٥٤) و يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا (٥٥) وما أرسلناك الا مبشرا و نذيرا (٥٦) قل ما أسألكم عليه من أجر الا من شاء ان يتخذ الي ربه سبيلا (٥٧) و توكل علي الحى الذى لا يموت وسبح بحمده

وكفى به بذنوب عباده خبيرا (٥٨) الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة ايام ثم استوى على العرش الرحمن فاسئل به خبيرا (٥٩) و اذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن انسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا (٦٠)

[و لوشئنا لبعثنا في كلّ قرية نذيراً] ينذرهم ولكن بعثناك يا محمّد إلى القرى كلّها رسولاً لعظيم منزلتك لدينا والنذير هو الداعي إلى ما يؤمن معه الخوف من العقاب أي لوشئنا لقسمنا بينهم النذر كماقسمنا بينهم الأمطار و لكنّا نفعل ما هوالأصلح لهم والأنفع في دينهم ودنياهم فبعثناك إليهم كافّة .

[فلا تطع الكافرين] فيما يدعونك إليه من المداهنة [وجاهدهم] في الله [به] أي بالقرآن [جهاداً كبيراً] أي تامّاً شديداً و في الآية دلالة على أنّ أعظم الجهاد جهاد المتكلّمين في حلّ شبهة الملحدين و المبطلين و أعداء الدين ويمكن أن يتأوّل عليه قوله : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، وحاصل المعنى : أمرالله نبيّه بسبب كونه نذيراً لكافّة القرى والأمصار والناس جهاداً كبيراً جامعاً .

قوله تعالى : [وهو الّذي مرج البحرين هذا عذب] هذا هو النوع الرابع من الدلائل الدالّة على القدرة و التوحيد . مرج البحرين أي خلاّهما وأرسلهما ، مرجت الدابّة إذا أرسلتها وخلّيتها ترعى، وأصل المرج الإرسال والخلط والمعنى: سمّى الماءين الكبيرين الواسعين بحرين أي أرسلهما في مجاريهما كما ترسل الخيل . وقوله : [هذا عذب فرات] البالغ في العذوبة والأجاج نقيضه والآخر [ملح أُجاج] و أنّه سبحانه بقدرته يفصل بينهما و يمنعهما التمازج و جعل من عظم قدرته برزخاً حائلاً مع أنّهما متجاورين متلاصقين . وقيل : المراد بالبحر العذب النهر العظيم وبالمالح البحر العظيم و بالبرزخ ما بينهما من الأرض فيكون أثر القدرة في اختلاف الصفة مع أنّ مقتضى طبيعة كلّ عنصر التشابه في الكيفيّة .

[وحجراً محجوراً] وهذه كلمة يقوله المتعوّذ وهي ههنا على سبيل المجاز كأنّ كلّ واحد من البحرين يتعوّذ من صاحبه ويقول له : حجراً محجوراً كما قال : « لا يبغيان[1] »

(١) الرحمن : ٢٠ .

أي لا يبغي أحدهما على صاحبه بالممازجة فانتفاء البغي كالتعوّذ و هي من أحسن الاستعارات ، و قيل : معنى حجراً محجوراً أي منع ممتنع و حرام محرّم أن يفسد الملح العذب.

[وهو الّذي خلق من الماء بشراً] أي خلق من النطفة إنساناً ، وقيل : أراد آدم عليه السلام فإنّه خلق من التراب الّذي خلق من الماء ، وقيل : المراد أولاد آدم فإنّهم مخلوقون من الماء [فجعله نسباً وصهراً] قيل في معناه : النسب الّذي لا يحلّ نكاحه ، والصهر النسب الّذي يحلّ نكاحه كبنات العمّ والخال . وقيل : النسب سبعة أصناف والصهر خمسة ذكرهم في قوله : « حرّمت عليكم اُمّهاتكم » وقد تقدّم بيانه في سورة النساء[1] وقيل : النسب البنون والصهر البنات اللاّتي يستفيد الإنسان بهنّ الأصهار فكأنّه قال : فجعل منه البنين والبنات .

وقال ابن سيرين : نزلت في النبيّ صلى الله عليه وآله وعليّ بن أبي طالب زوّج فاطمة عليّاً فهو ابن عمّه وزوج ابنته فكان نسباً لأنّه ابن عمّه و صهراً لأنّه زوج فاطمة .

و في الكافي عن الباقر عليه السلام ، والقمّيّ عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال : إنّ الله تعالى خلق آدم من الماء العذب وخلق زوجته من سنخه فبرأها من أسفل أضلاعه فجرى بذلك الضلع بينهما سبب ونسب ثمّ زوّجها إيّاه فجرى بينهما بسبب ذلك صهر قوله : « نسباً وصهراً » فالنسب ما كان بسبب الرجال والصهر ما كان بسبب النساء .

و في المعاني عن الباقر عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : ألا و إنّي مخصوص في القرآن بأسماء ، احذروا في أن تغلبوا عليها فتضلّوا في دينكم أنا الصهر لقول الله تعالى : « وهو الّذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً » .

وفي الأمالي بإسناده إلى أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : قلت له : يا رسول الله عليّ أخوك ؟ قال : نعم ، عليّ أخي ، قلت : يا رسول الله صف لي كيف عليّ أخوك ؟ قال : إنّ الله عزّ وجلّ خلق ماء تحت العرش قبل أن يخلق آدم عليه السلام بثلاثة آلاف عام ، وأسكنه في لؤلؤة خضراء في غامض علمه إلى أن خلق آدم فلمّا خلق آدم نقل ذلك الماء من اللؤلؤة

(١) الآية : ٢٢ .

فأجراه في صلب آدم إلى أن قبضه ثمّ نقله إلى صلب شيث فلم يزل ذلك الماء ينقل من ظهر إلى ظهر حتّى صار في صلب عبدالمطّلب ثمّ شقّه نصفين فصار نصفه في صلب أبي عبدالله ونصفه في صلب أبي‌طالب فأنا من نصف الماء وعليّ من النصف الآخر فعليٌّ أخي في الدنيا والآخرة ثمّ قرأ رسول‌الله الآية . وأيضاً في روضة الواعظين يذكر حديثاً يشمل هذا البيان انتهى .

[وكان ربّك قديراً] أي قادراً على ما أراد .

ثمّ أخبر عن حال الكفّار فقال : [ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرّهم] من الأصنام والأوثان [فكان الكافر على ربّه ظهيراً] أي الكافر معيناً للشيطان على ربّه بالكفر والمعاصي لأنّه يعاون الشيطان على عداوة الله ومعصيته لأنّ عبادتهم الأصنام معاونة للشيطان معاداة لله تعالى ، و قيل : المعنى : كان الكافر على ربّه ظهيراً أي الكافر عند الله متروك و مستخفّ به ومنه قوله : « واتّخذتموه وراءكم ظهريّاً [(١)] » . وقيل : المراد بالكافر أبوجهل لأنّ الآية نزلت فيه ، والأولى حمله على العموم لأنّ خصوص السبب لا يقدح في عموم اللّفظ .

قوله تعالى : [وما أرسلناك إلّا مبشّراً ونذيراً] ووجه تعلّق الآية بما تقدّم هو أنّ الكفّار كانوا يطلبون العون على الله والرسول والله بعث رسوله إليهم ليبشّرهم على الطاعة وينذرهم على المعصية فلا جهل أعظم من جهل من استفرغ جهده في إيذاء شخص استفرغ جهده في إصلاح مهمّاتهم ديناً ودنياً ولا يسألهم عليه أجراً .

[قل ما أسألكم عليه] أي على القرآن أجراً و على تبليغ الوحي [من أجر [إلّا من شاء أن يتّخذ إلى ربّه سبيلاً] بإنفاق ماله في طاعة الله والمعنى: إنّي لا أسألكم أجراً ولا أمنع من إنفاق المال في طلب مرضات الله .

قوله : [وتوكّل على الحيّ الّذي لا يموت] أي لمّا لم يقبلوا قولك فوّض اُمورك إلى الحيّ الّذي لا يموت فلن يفوته الانتقام [وسبّح بحمده] أي احمد منزّهاً له عمّا لا يليق به من الصفات مثل أن تقول : الحمد لله ربّ العالمين ، الحمد لله على نعمه وإحسانه

(١) هود : ٩٢ .

الّذي لا يقدر عليه غيره الحمد لله عظيم المنزلة وما أشبه ذلك . قوله : [و كفى به بذنوب عباده خبيراً] أي عليماً فيحاسبهم ويجازيهم بها فحقيق بأن يخافوه ويراقبوه .

[الّذي خلق السماوات والأرض وما بينهما] أيما بين هذين الصنفين [في ستّة أيّام ثمّ استوى على العرش الرحمن] فإن قيل : إنّ الأيّام عبارة عن حركات الشمس في السماوات فقبل السماوات لا أيّام ؛ المراد : في مدّة مقدارها هذه المدّة لو كانت . ومن الناس من قال : في ستّة أيّام من أيّام الآخرة و كلّ يوم ألف سنة وهو بعيد لأنّ التعريف يكون بأمر معلوم .

ولو قيل : لمَ قدّر الخلق والإيجا و بهذا التقدير ولم يخلقها في لحظة واحدة وهو قادر عليه ؟

فالجواب أنّه سبحانه العالم بالأصلح ويجب على الإنسان أن يقطع الطمع عن أمثال هذه الأسئلة فإنّه لا ساحل لها ، وذلك مثل تقدير الملائكة الّذين يعذّبون أصحاب النار بتسعة عشر وحملة العرش بالثمانية و شهور السنة باثني عشر و السماوات بالسبع و كذا الأرض و كذا القول في عدد الصلوات و مقادير النصب في الزكوات و كذا مقادير الحدود والكفّارات فالإقرار بأنّ كلّ ما قاله الله حقّ هو الدين وترك البحث عن هذه الأشياء هو الواجب .

ولعلّ الجواب في هذا الموضوع ما قاله سعيد بن جبير أنّه خلقها في ستّة أيّام و هو يقدر أن يخلقها في لحظة تعليماً لخلقه الرفق والتأنّي والتثبّت و هو سبحانه خلق الأشياء على تؤدة وتدرّج .

قوله : [ثمّ استوى على العرش] ومن المعلوم أنّه لا يجوز حمله على الاستيلاء والقدرة لأنّ الاستيلاء والقدرة في أوصاف الله لم يزل ولا يصحّ دخول « ثمّ » فيه و كذلك الاستقرار غير جائز لأنّه يقتضي التغيّر الّذي هو دليل الحدوث والتركيب و كلّ ذلك محال على الله فالمعنى : ثمّ خلق العرش ورفعه وهو مستول مثل قوله : « و لنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين »[1] فإنّ المراد حتّى يجاهد المجاهدون ونحن بهم عالمون .

---

(١) محمد : ٣١ .

فإن قيل : فعلى هذا التفسير يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السماوات و ليس كذلك لقوله: «وكان عرشه على الماء» .

فالجواب أنّ كلمة «ثمّ» ما دخلت على خلق العرش بل على رفعه على السماوات.

قوله : [الرحمن] خبر لقوله «الّذي خلق» أوصفة للحيّ أوخبرمبتدء محذوف أي هو الرّحمن .

قوله :[فاسأل به خبيراً] اختلف في تفسيره فقيل : إنّ المعنى فأسأل عنه خبيراً و الباء بمعنى «عن» و الخبير ههنا هو الله ، و أنشد في قيام الباء مقام «عن» قوله علقمة بن عبدة :

فإن تسألوني بالنساء فإنّني ❊ خبير بأدواء النساء طبيب

إذا شاب رأس المرء أوقلّ ماله ❊ فليس لهمن ودّهنّ نصيب

وقيل : إنّ الباء على أصلها و المعنى : فاسأل بسؤالك أيّها الإنسان خبيراً يخبرك بالحقّ وروي أنّ اليهود حكوا عن ابتداء الخلق بخلاف ما أخبر الله عنه فقال سبحانه : «فاسأل به خبيراً» أي سلني عنه وقيل : إن الخبيرهنا محمد ﷺ والمعنى : ليسأل كلّ منكم عن الله محمّداً فإنّه الخبير العارف به ويؤيّد هذا المعنى آية البعد في قوله : «وما الرّحمن» .

قوله : [وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرّحمن] أي وإذا قيل لهؤلاء المشركين: اسجدوا للرحمن قالوا : وأيّ شيء الرحمن إنّا لانعرف الرحمن قال بعض المفسّرين : إنّ أبا جهل قال : إنّ الّذي يقول محمد شعر . فقال ﷺ : الشعر غير هذا إن هذا إلّا كلام الرحمن ، فقال أبوجهل : بخ بخ لعمري إنّه لكلام الرحمن الّذي هو يعلّمك فقال ﷺ: الرحمن هو إله السماء و من عنده يأتيني الوحي . فقال أبو جهل : يا آل غالب من يعذرني من محمد يزعم أنّ الله واحد و هو يقول : الله يعلّمني والرحمن ، ألستم تعلمون أنّهما إلهان ؟ ثمّ قال : ربّكم الله الّذي خلق هذه الأشياء والرحمن فهومسيلمة .

وكانوا يقولون للنبيّ ﷺ : [أنسجد لما تأمرنا] بسجوده و نحن لا نعرف الرحمن أيّ شيء و قرىء يأمرنا بالياء أي كان بعضهم يقول لبعض هذا القول [وزادهم نفوراً] أي وزادهم ذكر الرحمن نفوراً و تباعداً عن الحقّ و قبول قول النبيّ ﷺ . و صيغة «الرحمن»

فعلان بناء من أبنية المبالغة ؛ تقول : رجل ريّان و عطشان في النهاية من الريّ والعطش وفرحان كذلك .

قوله تعالى : تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمرا منيرا (٦١) وهوالذى جعل الليل والنهارخلفة لمن أراد أن يذكرأو أراد شكورا (٦٢) وعبادالرحمن الذين يمشون على الارض هوناً واذاخاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً(٦٣) والذين يبيتون لربهم سجد و قياماً(٦٤) والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذاباً كان غرآماً (٦٥) انها كانت مستقراً ومقاماً (٦٦) والذين أن انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً(٦٧) والذين لايدعون مع الله الهاً آخر ولايقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولايزنون ومن يفعل ذلك يلق اثاما (٦٨) يضاعف له العذاب يوم القيمةو يخلد فيه مهانا (٦٩) الا من تاب وآمن وعمل صالحا فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما (٧٠) .

[تبارك] وثبت بالبركة والدوام الإله [الّذي جعل] وخلق [في السماء] منازل للنجوم الكبار أو السبعة السيّارة و هي زحل والمشتري والمرّيخ والشمس و القمر والزهرة وعطارد وهي اثنا عشر برجاً : الحمل والثور والجوزا والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت وسمّيت بروجاً مأخوذاً من القصور العالية وأنّها كالمنازل والاشتقاق من البرج والظهور .

[وجعل فيها سراجاً] والمراد من السراج الشمس لقوله تعالى : « وجعل الشمس سراجاً » وقرىء «سرجاً» وهي الشمس والكواكب الكبار [وقمراً منيراً] أي مضيئاً بالليل إذا لم تكن شمس .

[وهو الّذي جعل اللّيل والنهار خلفة] أي يخلف واحد منهما صاحبه في ما يحتاج أن يعمل فيه فمن فاته عمل اللّيل استدركه بالنهار و من فاته عمل النهار استدركه بالليل قوله : [لمن أراد أن يذّكّر] أي أراد شكر ربّه و يستدلّ بذلك على أنّ لهما مدبّراً و خالقاً و مصرّفاً [أو أراد شكوراً] يقال : شكر شكراً و شكوراً . و قيل في معنى : « لمن

(١) نوح : ١٦ .

أراد أن يذ ّكر، روي عن أبي عبدالله عليه السلام قال : تقضى صلاة النهار بالليل و صلاة الليل بالنهار .

الصفة الاولى قوله:[وعبادالرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً] وعباد الرحمن مبتدء وخبره في آخر السورة : « اُولئك يجزون الغرفة » ويجوز أن يكون خبره «الذين يمشون هوناً» و هذا وصف سيرتهم بالنهار أي هينون ، و الهون الرفق أي مشيهم في لين و سكينة و وقار وتواضع و لا يضربون أقدامهم أشراً وبطراً و لايتبتخرون لأجل الخيلاء ويمشون بسجيّة الرحمة .

الصفة الثانية : [و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً] أي يظهرون الحلم في مقابلة الجهل لأنّ الإغضاء عن السفهاء و ترك المقابلة مستحسن في العقل والشرع و سبب للورع .

الصفة الثالثة قوله : [والّذين يبيتون لربّهم سجّداً وقياماً] و معنى « يبيتون لربّهم أن يكونوا في لياليهم مصلّين . قال أهل اللغة : كلّ من أدركه الليل فقد بات ؛ نام أم لم ينم . وحاصل المعنى : أنّ المؤمنين إذا انتشروا في النهار مشيهم مشي الهون وليلهم خيرليل إذا خلّوا فيما بينهم وبين ربّهم في القيام والسجود .

الصفة الرابعة : [والّذين يقولون ربّنا اصرف عنّا عذاب جهنّم إنّ عذابها كان غراماً] قال ابن عبّاس : يقولون في سجودهم وقيامهم هذا القول وخشعوا بالنهار وتعبوا بالليل فرقاً من عذاب جهنّم و قوله «غراماً» أي هلاكاً وخسراناً ملحّاً لازماً ومنه الغريم لإلحاحه وإلزامه وفلان مغرم بالنساء أي مولع بهنّ و قيل في الغرام : إنّه تعالى سأل الكفّار ثمن نعمته فما أدّوها إليه فأغرمهم فأدخلهم النّار [إنّها ساءت مستقرّاً ومقاماً] إشارة إلى كونه مضرّة خالصة دائمة وبئس المقرّ والمقام جهنّم .

الصفة الخامسة : [والّذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا] والسرف مجاوزة الحدّ في النفقة ، والإقتار التقصير عما لابدّ منه وروى عن معاذ : أنّه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن ذلك فقال : من أعطى في غير حق ّفقد أسرف ومن منع من حقّ فقد قرّ وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : ليس في المأكول والمشروب سرف وإن كثر . وفي الكافي عن الصادق عليه السلام إنّما

الإسراف فيما أفسد المال وأضرّ بالبدن قيل : فما الإقتار ؟ قال : أكل الخبز والملح وأنت تقدر على غيره ، قيل : فما القصد ؟ قال : الخبز والملح واللبن والخلّ والسمن مرّة هذا ومرّة هذا . و عنه عليه السلام أنّه تلا هذه فأخذ قبضه من حصى و قبضها بيده فقال : هذا الإقتار الّذي ذكره الله في كتابه ثمّ قبض قبضة اُخرى فارخى كفّه كلّها ثمّ قال : هذا الإسراف ثمّ أخذ قبضة اُخرى فأرخى بعضها و أمسك بعضها و قال : هذا القوام .

الصفة السادسة قوله : [و الّذين لايدعون مع الله إلهاً آخر] أي لايجعلون لله سبحانه شريكاً بل يوجّهون عبادتهم إليه [ولا يقتلون النفس الّتي حرّم الله] قتلها [إلّا بالحقّ] و النفس المحرّم قتلها نفس المسلم و المعاهد والمستثناة قتلها نفس الحربيّ ومن يجب قتلها على وجه القود والارتداد والزنا بعد الإحصان وللسعي في الأرض بالفساد [ولا يزنون و من يفعل ذلك يلق أثاماً] بفتح الهمزة والزنا هو الفجور بالمرءة في الفرج .

وفي هذا دلالة على أنّ أعظم الذنوب بعد الشرك القتل والزنا و روى البخاريّ و مسلم في صحيحهما بالإسناد عن عبدالله بن مسعود قال : سألت رسول الله أيّ الذنب أعظم؟ قال : إن تجعل لله نداً فهو خلقك قال : قلت : ثمّ أيّ ؟ قال : ان تقتل و لدك مخافة أن يطعم معك قال : ثم أيّ ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك فأنزل الله تصديقها بقوله : «والّذين لا يدعون مع الله» الآية .

قوله : [و من يفعل ذلك يلق أثاماً] أي عقوبة و جزاءً لما فعل قال الفرّاء : أثمه الله يأثمه إثماً و أثاماً أي جازاه جزاء الإثم وقيل : إنّ أثاماً واد في جهنّم ثمّ فسّر سبحانه لقي الأثام بقوله : [يضاعف له العذاب يوم القيامة] قيل : معناه : إنّه يستحق على كلّ معصية منها عقوبة فيضاعف عليه العقاب [و يخلد فيه مهاناً] و يدوم في العذاب و إنّما قال : ذلك لأنّه عزّ اسمه قد يوصل الآلام إلى بعض المكلّفين لا على وجه الإهانة .

قوله تعالى : [إلّا من تاب وآمن و عمل عملاً صالحاً فاُولئك يبدّل الله سيّئاتهم حسنات و كان الله غفوراً رحيماً] قال الرازيّ : دلّت الآية على أنّ التوبة مقبولة والاستثناء لا يدلّ على ذلك لأنّه سبحانه أثبت أنّه يضاعف له العذاب ضعفين فيكفي في صحّة الاستثناء أن لا يضاعف العذاب للتائب و إنّما الدالّ على ذلك قوله :

« فأُولئك يبدل الله سيّئاتهم حسنات » نقل عن ابن عبّاس أنّه قال : توبة القاتل غير مقبولة و زعم أنّ هذه الآية منسوخة بقوله : « و من يقتل مؤمناً متعمّداً » و قالوا : نزلت الغليظة بعد الليّنة بمدّة يسيرة و قيل : بثمان سنين و اختلفوا في المراد بالتبديل فقال جماعة كابن عبّاس و مجاهد و مقاتل : إنّ التبديل إنّما يكون في الدنيا فيبدّل الله قبائح أعمالهم من المعاصي والكفر بمحاسن الأعمال في الإسلام فيبدّلهم بالكفر إيماناً و بالزنى عفّة و إحصاناً فيستوجبوا بها الثواب و قيل : يبدّلهم معناه : يمحوالسّيئة عن العبد و يثبت له بدلها الحسنة ، عن سعيدبن المسيّب ومكحول وعمرو بن ميمون ، و احتجّوا بالحديث الّذي رواه مسلم في الصحيح مرفوعاً إلى أبي ذرّ قال : قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم : يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال : اُعرض عليه صغار ذنوبه و محي عنه كبارها فيقول : عملت يوم كذا و كذا و كذا و كذا وهو مقرّ لا ينكر و هو مشفق من الكبائر فيقال : اُعطوه مكان كلّ سيّئة عملها حسنة فيقول : أنّ لي ذنوباً ما أراها هٰهنا ، قال : ولقدرأيت رسول الله صلّى الله عليه و آله ضحك حتّى بدت نواجذه . والحاصل أنّ قوماً قالوا : أنّ السيّئة تمحى بالتوبة والإيمان والعمل الصالح و تكتب الحسنة مع التوبة والكافر يحبط الله عمله ويثبت عليه السيّئات .

[وكان الله غفوراً رحيماً] معاصي التائبين رحيماً و منعماً عليهم بالرحمة والفضل .

و في الأمالي عن الباقر عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال عليه السلام : يؤتى بالمؤمن المذنب يوم القيامة حتّى يوقف بموقف الحساب فيكون الله تعالى هوالذّي يتولّى حسابه لا يطّلع على حسابه أحد من خلقه حتّى إذا أقرّ بسيّئاته قال الله للكتبة : بدّلوها حسنات وأظهروها للناس فيقول الناس حينئذ : ما كان لهذا العبد سيّئة واحدة ثمّ يأمرالله به إلى الجنّة فهذا تأويل الآية وهي للمذنبين من شيعتنا خاصّة . وعن الرضا عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال : قال رسول الله ﷺ : حبّنا أهل البيت يكفّر الذنوب و يضاعف الحسنات وإنّ الله ليتحمّل من محبّينا أهل البيت ما عليهم من مظالم العباد إلاّ ما كان منهم على إضرار و ظلم للمؤمنين فيقول للسيّئات : كوني حسنات.

وفي العيون عنه عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله : إذا كان يوم القيامة

تجلّى الله تعالى لعبده المؤمن فيقفه على ذنوبه ذنباً ذنباً ثمّ يغفر له لا يطلع الله على ذلك ملكاً مقرّباً ولا نبيّاً مرسلاً ويستر عليه مايكره أن يقف عليه أحد ثمّ يقول لسيّئاته : كوني حسنات والقمي عنه عليه السلام قال : إذا كان يوم القيامة أوقف الله عزّ وجل العبد بين يديه وعرض عليه عمله فينظر في صحيفته فأوّل مايرى من سيّئاته فيتغيّر لذلك لونه و ترتعد فرائصه ثمّ تعرض عليه حسناته فيفرح لذلك ويبدّل الله سيّئاته حسنات ويظهرها للناس فيقول الناس : أما كان لهؤلاء سيّئة واحدة و هو قوله تعالى : « يبدّل الله سيّئاتهم حسنات » و الآيات في هذا المعنى كثيرة .

و في حديث أبي إسحاق اللّيثي عن الباقر عليه السلام الّذي ورد في طينة المؤمن و طينة الكافر ما معناه أنّ الله تعالى يأمر يوم القيامة بأن تؤخذ حسنات أعدائنا فتردّ على شيعتنا و تؤخذ سيّئات محبّينا فتردّ على مبغضينا .

قال : وهو قوله تعالى : « فأُولئك يبدّل الله سيّئاتهم حسنات » يبدّل الله سيّئات شيعتنا حسنات يبدّل الله وحسنات أعدائنا سيّئات .

وفي روضة الواعظين عن النبيّ صلّى الله عليه و آله : ما جلس قوم يذكرون الله إلّا نادى بهم مناد من السماء قوموا فقد بدّل الله سيّئاتكم حسنات .

قوله تعالى : و من تاب و عمل صالحاً فانه يتوب الى الله متاباً (٧١) والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراماً (٧٢) و الذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً و عمياناً (٧٣) والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا و ذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما (٧٤) اولئك يجزون الغرفة بما صبروا و يلقون فيها تحية و سلاماً (٧٥) خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً (٧٦) قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً (٧٧).

ومن أقلع عن معاصيه وندم عليها وتدارك بالعمل الصالح فإنّ التائب بهذه الصورة يرجع إلى الله مرجعاً عظيماً جميلاً و فرّق جماعة بين التوبة المذكورة في الآية السابقة و هذه الآية ولولا الفرق لكان هذا تكريراً وقالوا : التوبة الأُولى التوبة من القبيح لقبحه والرجوع عن الشرك و المعاصي والتوبة المذكورة في هذه الآية الرجوع والانقطاع إلى الله

لطلب رضائه فإن من انقطع إلى خدمة بعض الملوك فقد أحرز شرفاً فكيف المنقطع إلى الله؟ و قيل في تأويل الآية : إن من تاب و أتى بتوبة صحيحة في الماضي على سبيل الإخلاص فقد وعده الله بأنه سيوفقه للتوبة في المستقبل وهذا من أعظم البشارات .

الصفة السابعة [والذين لا يشهدون الزور] أي لا يشهدون شهادة الكذب أقيم المضاف إليه مقام المضاف و قيل : المعنى : لا يشهدون مواضع الكذب ويحتمل أن يكون المراد حضور كل موضع يجري فيه مالا ينبغي فيدخل فيه أعياد المشركين ومجامع الفساق لأن من خالط أهل الشر و حضر مجامعهم فقد شاركهم في تلك المعصية بل قد يكون حضوره سبباً لوجود تلك المعصية والزيادة فيها لأن الذي حملهم على فعله استحسان النظارة و رغبتهم في النظر إليه . قال محمد بن الحنفية: الزور ، الغناء كل هذه الوجوه محتملة ولكن استعماله في الكذب أكثر.

[و إذا مروا باللغو مروا كراماً] و قيل في اللغو: كل مايجب أن يتقى ويترك . و منهم فسر اللغو بكل ما ليس بطاعة ، وهو ضعيف ؛ لأن المباحات لا تعد لغواً أي إذا مروا بأهل اللغو يكرمون أنفسهم عن مثل حال اللغو و إكرامهم بالإعراض عن اللغو و بترك المعاونة عليه و يدخل في اللغو جميع مالا ينبغي و أصل الكلمة مأخوذة من قولهم : ناقة كريمة إذا كانت لا تبالي بما يحلب منها للغزارة فاستعير ذلك للصفح عن الذنب .

وقيل : مرورهم كراماً هو أن يمروا بمن يسبهم فيصفحون عنه و قيل: هم الذين إذا أرادوا ذكر الفرج كنوا عنه .

الصفة الثامنة قوله تعالى : [و الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً] قال صاحب الكشاف : الآية ليس بنفي للخرور و إنما هو إثبات له ونفي للصمم والعمى كما يقال : لايلقاني زيد مسلماً هو نفي للإسلام لا للقاء . و المعنى أنهم إذا ذكروا بالآيات أكبوا عليها حرصاً على استماعها مقبلين على من يذكر بها .

وحاصل المعنى أنهم إذا وعظوا بالقرآن والأدلة نظروا فيها وتفكروا في مقتضياتها ولم يقعوا عليها كالأصم والأعمى بحيث لا ينتفع منها كالمنافقين .

الصفة التاسعة قوله : [والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا و ذرياتنا

قرّة أعين واجعلنا للمتّقين إماماً] و قرىء «ذرّيّتنا » والمراد أنّهم سألوا أزواجاً و ذرّيّة يكون لهم قرّة أعين في الدين لا في الدنيا فأحبّوا أن يكونوا معهم في التمسّك بطاعة الله فتمّ سرورهم بذلك في الجنّة ، أي هب لنا من جهتهم ما تقرّ به عيوننا من الطاعة والصلاح .

[و اجعلنا للمتّقين إماماً] أي اجعلنا ممّن يقتدي بنا المتّقون و طلبوا العزّ بالتقوى لا بالدنيا و يحتمل أن يكون المعنى و اجعل لنا المتّقين إماماً فحينئذ اللام و إن ورد على كلمة المتّقين ولكن في المعنى : على كلمة «نا» ولكن الأقرب أنّهم سألوا الله أن يبلغهم في الطاعة والعبادة المبلغ الّذي يشار إليهم ويقتدى بهم .

وفي الآية على هذا المعنى ما يدلّ على أنّ الرياسة في الدين أمر مرغوب فيه و ينبغي أن يطلب كما قال الخليل: «واجعل لي لسان صدق في الآخرين[١] » .

قوله تعالى: [اُولئك يجزون الغرفة بما صبروا] أي الموصوفين بهذه الصفات يجزون الغرفة و الغرفة في اللغة العلية و كلّ بناء عال فهو غرفة والمراد أنّ لهم الدرجات العالية في الجنّة بسبب صبرهم و ذكر الصبر و لم يذكر المصبور عنه ليعمّ كلّ نوع من المشاقّ من ترك الشهوات ومن مشاقّ الطاعات وأذيّة الجهلة من الناس ومشاقّ الجهاد والفقر و رياضة النفس و المكاره في سبيل الله .

[ويلقون فيها تحيّة و سلاماً] والتحيّة الدعاء بالتعمّر والسلام الدعاء بالسلامة و حاصل التحيّة كونهم دائمين على نعيم الجنّة في مقابلة قوله « يلق أثاماً » [خالدين فيها حسنت مستقرّاً و مقاماً] فبيّن سبحانه أنّ الموصوفين مؤبّدون في هذه النعم أي حسنت الغرفة من حيث الاستقرار والمقام .

قوله : [قل ما يعبأ بكم ربّي] قل يا محمّد : ما يصنع بكم ربّي ؟ أولا يبالي بكم[٢] عن أبي عمرو بن العلا و مالا يعبأ به فوجوده و عدمه سواء والمعنى : قل للمشركين : أيّ نفع له سبحانه فيكم ؟ و أيّ ضرر يعود إليه من عدمكم ؟ و أيّ قدرتكم عند الله حتّى يدعوكم إلى الإيمان ؟ لكنّ الواجب في الحكمة دعاؤكم إلى الدين و إرسال الرسول و قد فعل و قيل : معناه : لولا عبادتكم له وإيمانكم به وتوحيدكم إيّاه ، عن الكلبيّ

(١) الشعراء : ٨٤ . (٢) و عليه ما فتكون «ما» نافية .

و مقاتل و مجاهد فيكون الدعاء بمعنى العبادة و على هذا المعنى الآية تدلّ على أنّ من لا يعبد الله ولا يطيعه فلا وزن له عندالله و قيل : معناه : لولا دعاؤُ كم له إذا مسّكم ضرّ أو أصابكم سوء رغبة و خضوعاً له ، روى العيّاشيّ بإسناده عن بريدبن معاوية العجليّ قال : قلت لأبي جعفر عليه‌السلام : كثرة القراءة أفضل أم كثرة الدعاء ؟ قال عليه السلام : كثرة الدعاء أفضل و قرأ هذه الآية .

قوله : [فقد كذّبتم] الخطاب لأهل مكّة أي إنّ الله دعاكم بواسطه الرسول إلى توحيده و عبادته فقد كذّبتم الرسول [فسوف يكون] العذاب [لزاماً] أي فسوف يكون عقابه على تكذيبكم رسوله لازماً لكم و واقعاً بكم لا محالة أوالمعنى : ما خلقتكم وبي إليكم حاجة إلّا أن‌تسألوني فاُعطيكم وتستغفروني فأغفرلكم و أعلمتكم أنّ حكمي أنّي لا أعتدّ بعبادي إلّا لعبادتهم فقد خالفتم بتكذيبكم حكمي فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم و مخالفتكم و هو عذاب الآخرة ونظيره أن يقول الملك لمن استعصى عليه : إنّ من عادتي أن اُحسن إلى من أطاعني و قد عصيت فسوف ترى ما يحلّ بك من عصيانك .

فإن قيل : الخطاب إلى من يتوجّه ؟ فالخطاب يتوجّه إلى
المكلّف على الإطلاق و ترك اسم «كان» للعلم به
لأنّ بسبب التكذيب يكون العذاب
لازماً . تمّت السورة بعون الله

سورة الشعراء

مكية إلّا قوله « والشعراء يتّبعهم الغاوون » إلى آخر السورة فإنّها مدنيّة .

فضلها : عن اُبيّ بن كعب : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بنوح و كذّب به وهود و شعيب و صالح و إبراهيم و بعدد من صدّق بمحمّد و كذّب بعيسى .

وروى أبو بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال : من قرأ الطواسين الثلاث في ليلة الجمعة كان من أولياء الله و أسكنه الله في جنّة عدن وسط الجنان مع النبيّين و المرسلين والوصيّين الراشدين ولم يصبه في الدنيا بؤس أبداً و اُعطي من الأجر في الآخرة حتّى يرضى و فوق رضاه و زوّجه الله مائة حوراء من الحور العين .

بسم الله الرحمن الرحيم

طسم (١) تلك آيات الكتاب المبين (٢) لعلك باخع نفسك الا يكونوا مؤمنين (٣) ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعنا قهم لها خاضعين (٤) وما يأتيهم من ذكر من الرحمن الا كانوا عنه معرضين (٥) فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ماكانوا به يستهزءون (٦) اولم يروا الى الارض كم انبتنا فيها من كل زوج كريم (٧) ان فى ذلك لاية وماكان اكثرهم مؤمنين (٨) وان ربك لهو العزيز الرحيم (٩).

قرأ بعض مثل حمزة بإظهار النون بعد السين والآخرون بالإدغام . قدن كرمعاني الحروف المقطّعة في أوّل البقرة . و قال بعض: إنّ «طس» و«طسم» من أسماء القرآن و قال ابن عبّاس في رواية الوالبيّ: «طسم» قسم وهو من أسماء الله . و قال القرطبيّ : أقسم الله بطوله و سنائه و ملكه . وروي عن محمّد بن الحنفيّة عن عليّ عليه السلام عن النبيّ ﷺ : لمّا نزلت «طسم» قال : الطاء طور سيناء و سين الإسكندريّة و الميم مكّة . وقيل: الطاء شجرة طوبى والسين سورة المنتهى والميم محمّد ﷺ .

[تلك آيات الكتاب المبين] أشار بتلك إلى ما ليس بحاضر لكنّه متوقّع فهو كالحاضر لحضور المعنى في النفس و التقدير : تلك الآيات الّتي و عدتم بها هي آيات القرآن الّذي يبيّن الحقّ من الباطل .

[لعلّك باخع] تهلك [نفسك] وقاتل نفسك بأن [لايكونوا مؤمنين] و بأن يقيموا على الكفر . و إنّما قال سبحانه ذلك تسلية لنبيّه ﷺ وتخفيفاً عن اغتمامه . البخع أن يبلغ بالذبح النخاع وهو الخرم النافذ في ثقب الفقرات وذلك أقصى حدّ الذبح و كلمة «لعلّ» للإشفاق .

فإن قيل : إنّ القوم لمّا كانوا كفّاراً فكيف يكون الآيات مبيّنة لهم مايلزمهم و إنّما تبيّن بذلك الأحكام ؟

قلنا : ألفاظ القرآن من حيث تعذر عليهم أن يأتوا بمثله يستدلّ به على أنّه كلام خالقهم فبيّن به التوحيد و دليله و كذلك لعجزهم بالإتيان يبيّن ويثبت النبوّة وإذا ثبت هذا فصارت آيات القرآن كافية في كلّ الاُصول والفروع أجمع ثمّ بيّن سبحانه أنّه قادر على أن ينزّل آية يذلّون عندها و يخضعون .

فإن قيل : كيف صحّ مجيء «خاضعين» خبراً عن الأعناق ولأنّها وصفت بالخضوع الّذي هو صفة للعقلاء؟

قيل : «خاضعين»مثل قوله : « رأيتهم لي ساجدين [1]» أوالمرادجماعات الناس تقول : جاء عنق من الناس أي فوج فحينئذ معناه : أصحاب الأعناق ، فحذف المضاف واُقيم المضاف إليه مقام المضاف لدلالة الكلام عليه و قد يوصف ما لا يعقل بصفة من يعقل في كلام العرب .

و ذكر أبوحمزة الثماليّ في هذه الآية أنّ الآية صوت يسمع من السماء في النصف من رمضان و تخرج له العواتق من البيوت .

وقال ابن عبّاس : نزلت فينا وفي بني اُميّة قال : سيكون لنا عليهم الدولة فتخضع لنا أعناقهم بعد صعوبتها و تلين ، وهي الصيحة من السماء باسم صاحب الأمر .

وفي الإرشاد قال المفيد عن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال : سيفعل الله ذلك بهم قيل: ومن هم ؟ قال : بنواُميّة وشيعتهم ،قال : وما الآية ؟ قال : ركود الشمس ما بين زوال الشمس إلى وقت العصر و خروج صدر و وجه في عين الشمس يعرف بحسبه و نسبه و ذلك في زمان السفيانيّ و عندها يكون بواره و بوار قومه . وفي الإكمال عن الرضا عليه السلام في حديث يصف فيه القائم قال : و هو الّذي ينادي مناد من السماء يسمعه جميع أهل الأرض بالدعاء إليه يقول : ألا إنّ حجّة الله قد ظهرت عند بيت الله فاتّبعوه فإنّ الحقّ معه وفيه وهو قول الله تعالى : « إن نشأ ننزّل عليهم » الآية .

قوله تعالى : [و ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلّا كانوا عنه معرضين] أخبر سبحانه عن حال الكفّار أنّه لا يأتيهم ذكر جديد يعني القرآن كما : قال « إنّا نحن نزّلنا الذكر و إنّا له لحافظون»[2] إلّاأعرضوا عنه ولم يتدبّروا فيه [فقد كذّبوا

(١)يوسف :٤.
(٢) الحجر :٩.

فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون] يوم القيامة فنبّه تعالى بأنّه مع قدرته على أن يجعلهم ملجائين بالإيمان بسبب الآية المنزلة رحيم بهم من حيث يأتيهم حالاً بعد حال بالقرآن وهو الذكر و يكرّر عليهم وهم مع ذلك على حدّ واحد من الإعراض والتكذيب والاستهزاء فلذلك زجرهم بقوله : « فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون » و هو كقوله « ولتعلمنّ نبأه بعد حين » (١)

ثمّ إنّه سبحانه بيّن أنّ مع إنزاله القرآن حالاً فحالاً لتدبّرهم قد أظهر أيضاً أدلّة تحدث حالاً بعد حال لتعقّلهم في القادر الحكيم فقال : [أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كلّ زوج كريم] والزوج هو الصنف والكريم صفة لكلّ ما يرضى ويحمد في بابه يقال : وجه كريم إذا كان مرضيّاً في حسنه وجماله و كتاب كريم إذا كان مرضيّاً في فوائده ومعانيه و النبات الكريم المرضيّ في منافعه ، و إنّه وصفه بالكريم لأنّه ما أنبت شيئاً إلّا وفيه فائدة عظيمة و إن غفل عنها الغافلون .

[إنّ في ذلك لآية] ودلالة في ذلك الإنبات على قدرتنا و وحدانيّتنا [و ما كان أكثرهم مؤمنين] أي لا يصدّقون ولا يعترفون به إمّا عناداً وتقليداً لأسلافهم وهرباً من مشقّة التكليف قال سيبويه : « كان » هنا زائدة [وإنّ ربّك] يا محمّد [لهو العزيز] أي الغالب القادر الّذي لا يعجز ، المنعم [الرحيم] على عباده بأنواع النعم .

قوله تعالى : و اذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين (١٠) قوم فرعون ألا يتقون (١١) قال رب اني اخاف ان يكذبون (١٢) و يضيق صدري ولا ينطلق لساني فارسل الى هرون (١٣) ولهم علي ذنب فأخاف ان يقتلون (١٤) قال كلا فاذهبا بآياتنا انا معكما مستمعون (١٥) فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين (١٦) ان أرسل معنا بني اسرائيل (١٧) قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين (١٨) و فعلت فعلتك التي فعلت و أنت من الكافرين (١٩) قال فعلتها اذا و انا من الضالين (٢٠) ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما و جعلني من المرسلين (٢١) و تلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني اسرائيل (٢٢) قال فرعون وما رب العالمين (٢٣) قال رب السموات والارض

(١) ص : ٨٧

و ما بينهما ان كنتم موقنين (٢٤) قال لمن حوله الا تستمعون (٢٥) قال ربكم و رب آبائكم الاولين (٢٦) قال ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون (٢٧) قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون (٢٨) قال لئن اتخذت الها غيرى لاجعلنك من المسجونين (٢٩) قال اولو جئتك بشيء مبين (٣٠).

المعنى : واتل يا محمد عليهم الوقت الذي وافصص لهم النداء الذي نادى ربك موسى [أن ائت القوم الظالمين] وسجل سبحانه هذا الاسم عليهم لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر وظلموا بني إسرائيل بالعذاب ولا شك عندنا أي الإمامية و المعتزلة أن النداء الذي سمعه موسى عليه السلام من جنس الحروف و الأصوات خلافاً للأشاعرة فإن عندهم المسموع هو الكلام القديم و قالوا : كما أن ذاته تعالى منزه لا تشبه سائر الأشياء مع أنها معلومة فكذا كلامه منزه عن مشابهة الحروف والأصوات مع أنه مسموع .

و بالجملة أمره سبحانه أن يأت فرعون و قومه فقال : [قوم فرعون] وهو عطف بيان للقوم الظالمين وقوله [ألا يتقون] قرىء بكسر النون عوضاً عن الياء و قرئ بالخطاب لأن الأهم في بدء البعثة لكل رسول أن ينهي قومه عن الشرك و عن القبائح و لذا قال سبحانه : ألا يتقون عن الشرك و الظلم ؟

فإن قيل : على كون الضمير للخطاب والالتفات فما الفائدة و المخاطبون كانوا غائبين ؟

قلنا : أجري ذلك في تكليم موسى في معنى إجرائهم بالحضرة كما يقال: ألا تستحي من الناس ؟

[قال رب إني أخاف أن يكذبون* ويضيق صدري ولا ينطلق لساني] فطلب موسى أن يبعث معه هارون فذكر الأمور الداعية له في ذلك الطلب فقال : أخاف أن ينسبون إلي الكذب و ذلك موجب لضيق صدري و قلبي و ذلك سبب لتغير الكلام على من يكون في لسانه رتة و حبسة .

وأما هارون فليس كذلك [فأرسل إلى هارون* ولهم علي ذنب] أراد قتله القبطي والمراد أن لهم علي ذنب بزعمهم لا أنه أذنب بهذا القتل [فأخاف أن يقتلون] خاف أن

يقتلوه بذلك القتل .

قال الله : [كلاّ] أي لا يكون ذلك ولن يقتلوك به فإنّي لا اُسلّطهم عليك [فاذهبا بآياتنا إنّامعكم مستمعون] أي فاذهب أنت وأخوك نحن نحفظكم وسامعون ما يجري بينكم ، و «مستمعون» هنابمعنى سامعون لأنّ الاستماع لا يجوز عليه سبحانه .

قوله : [فأتيا فرعون فقولا إنّا رسول ربّ العالمين] فإن قيل : هلاّ ثنّي الرسول كما ثنّي في قوله « فقولا » ولم يقل : « رسولا ربّ العالمين » ؟ لأنّ الرسول قد يكون لمعنى الجمع قال الهذليّ :

ألكني إليها وخيرالرسول ✻ أعلمهم بنواحي الخبر

أوالمعنى ذورسالة أوالرسول اسم للماهيّة من غير بيان أنّ تلك الماهيّة واحدة أو كثيرة والماهيّة محمولة على الواحد وعلى الأكثر فصحّ قوله : «إنّا رسول ربّ العالمين» .

[أن أرسل معنا بني إسرائيل] أي أمرك الله بأن أطلق بني إسرائيل من الاستعباد وخلّ عنهم . وفي الكلام حذف تقديره : إنّهما أتيا فرعون وبلّغا الرسالة .

[قال فرعون ألم نربّك فينا وليداً] والتربية تنشئة الشيء حالاً بعد حال معناه : ألم تكن فينا وليداً صبيّاً صغيراً فربّيناك ؟ [ولبثت فينا من عمرك سنين] أي أقمت سنين كثيرة عندنا وهي قيل: ثمانية عشر . وقيل : ثلاثين سنة ، وقيل : أربعين سنة . وأظهر لؤمه حيث ذكر صنائعه .

[و فعلت فعلتك الّتي فعلت] يعني قتل القبطيّ [و أنت من الكافرين] لنعمتنا و تربيتنا ، أوالمعنى : أنت من الكافرين حيث لا تعبدنا [قال فعلتها إذاً وأنا من الظالمين] أي فعلت هذه و أنا من الجاهلين بأنّ هذه الوكزة موجبة للقتل لأنّي ما تعمّدته وإنّما وقع منّي على وجه الخطأ كمن يرمي طائراً و أصاب إنساناً [فوهب لي ربّي حكماً] أي نبوّة وجعلني نبيّاً وهوالّذي يدعو إليه الحكمة من التوراة والعلم بالشرائع [وجعلني من المرسلين] و نبيّاً من الأنبياء .

[وتلك نعمة تمنّها عليّ أن عبّدت بنى إسرائيل] قيل فيه أقوال :

أحدها أنّ همزة التوبيخ مضمر والمعنى : أوتلك نعمة تمنّها علي أن عبّدت قومي بني إسرائيل ولم تعبّدني ؟

والثاني أنّ المعنى : أتمنّ عليّ بأن ربّيتني واستعبدت بني إسرائيل فهذه ليست بنعمة يريد أنّ اتّخاذك بني إسرائيل الّذين هم قومي أحبط نعمتك .

والثالث أنّ معناه أنّك لو كنت لاتستعبد بني إسرائيل ولا تقتل أبناءهم لكانت أُمّي مستغنية عن قذفي في التابوت وإنّك تمنّ عليّ بماكان بلاؤك سبباً ولو لم تعبّدهم لكفلني أهلي و« تلك » إشارة إلى خصلة مبهمة يفسّرها : أن عبّدت بني إسرائيل .

[قال فرعون وما ربّ العالمين] لأنّ موسى وهارون قالا : إنّا رسول ربّ العالمين، قال : أيّ جنس ربّ العالمين الّذي تدعوني إلى عبادته ؟ [قال] موسى في جوابه : [ربّ السماوات والأرض] أي مبدعهما وخالقهما [و ما بينهما] والمراد جهتيهما ـ و لذا أتى بالتثنية ـ من الحيوان والنبات والجماد [إن كنتم موقنين] بأنّ الربّ من كان بهذه الصفة أو موقنين بأنّ هذه الأشياء محدثة والمحدث لا بدّ له من محدث ، ولم يشتغل موسى عليه السلام بالجواب عمّا سأله فرعون لأنّ الله تعالى ليس بجنس بل اشتغل ببيان صفاته و ربوبيّته والحجّة الدالّة على وحدانيّته من خلقه الّذي يعجز المخلوقون عن مثله .

[قال] فرعون : [لمن حوله ألا تستمعون] يريد ألا تستمعون مقالة موسى ؟ أو ألا تصغون إليه و تفهمون مايقوله ؟ تعجّباً من قوله . يريد : انظروا إلى هذا الرجل أسأله عن شيء فيجيب غيره فأجاب موسى في الرفق و تأكيد الحجّة [قال ربّكم و ربّ آبائكم الأوّلين] تأكيداً لما قبله من الحجّة لأنّ فرعون يدّعي الربوبيّة على أهل عصره فبيّن موسى أنّ المستحقّ للربوبيّة من هو ربّ كلّ عصر فعند ذلك موّه عليهم بهذا الكلام .

[قال إنّ رسولكم الّذي أُرسل إليكم لمجنون] لأنّه لا يوافق جوابه سؤالي كما يفعل المجنون فلمّا سمع موسى منه هذه النسبة أكّد الحجّة و [قال ربّ المشرق والمغرب و مابينهما إن كنتم تعقلون] .

فلمّا طال الاحتجاج على فرعون [قال] مهدّداً لموسى : [لئن اتّخذت إلهاً غيري لأجعلنّك من المسجونين] و كان إذا سجن أحداً لم يخرجه حتّى يموت فلمّا توعّده

بالسجن قال موسى : [أولوجئتك بشيء مبين] معناه : أتسجنني ولو جئتك بشيء وأمر ظاهر تعرف صدقي عن كذبك وحجّة ظاهرة تدلّ على نبوّتي ؟ وهل تستجيز أن تسجنني مع اقتداري على أن آتيك بأمر بيّن في توحيد الله و إثبات نبوّتي وإنّما قال : «لأجعلنّك من المسجونين » إشارة إلى أنّي جاعلك واحداً من جملتهم في سجوني و كان سجنه أشدّ من القتل و آخره الموت أو القتل و كان من عادته أن يأخذ من يريد أن يسجنه فيطرحه في بئر عميقة فرداً لا يبصر فيها ولا يسمع . والواو في قوله « أولوجئتك» و اوالحال دخلت عليها همزة الاستفهام معناه : أتفعل بي ذلك ولو جئتك بشيء ظاهر .

قوله تعالى : قال فائت به ان كنت من الصادقين(٣١) فالقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين (٣٢) و نزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين (٣٣) قال للملاء حوله ان هذا لساحر عليم (٣٤) يريد ان يخرجكم من ارضكم بسحره فماذا تأمرون (٣٥) قالوا ارجه و اخاه وابعث فى المدائن حاشرين (٣٦) يأتوك بكل سحار عليم (٣٧) فجمع السحرة لميقات يوم معلوم (٣٨) و قيل للناس هل انتم مجتمعون (٣٩) لعلنانتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين (٤٠) فلما جاء السحرة قالوا لفرعون ائن لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين (٤١) قال نعم و انكم اذا لمن المقربين (٤٢) قال لهم موسى ألقوا ما انتم ملقون (٤٣) فالقوا حبالهم و عصيهم و قالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون (٤٤)فالقى موسىعصاه فاذا هىتلقف مايأفكون (٤٥) فالقىالسحرة ساجدين (٤٦)قالوا آمنا برب العالمين (٤٧) رب موسى و هرون (٤٨) قال آمنتم له قبل أن آذنلكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون لاقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف و لاصلبنكم اجمعين (٤٩) قالوا لاضيرانا الى ربنا منقلبون(٥٠) .

قال فرعون لموسى عليه السلام : هات ما ادّعيته من المعجزات إن كنت صادقاً [فألقى] موسى حينئذ عصاه [فإذا هي ثعبان] حيّة عظيمة أوالذكر من الحيّات العظام [مبين] لا شبهة فيه ، روي أنّه لمّا انقلبت العصاحيّة ارتفعت في السماءقدر ميل ثمّ انحطّت مقبلة

إلى فرعون و جعلت تقول : يا موسى مرني بما شئت ، و يقول فرعون : يا موسى أسألك بالّذي أرسلك ألاّ أخذتها فعادت عصاً .

ثمّ إنّ موسى لمّا أتى بهذه الآية قال له فرعون : هل غيرها ؟ قال : نعم ، فأراه يده ثمّ دخلها في جيبه ثمّ أخرجها فإذا هي بيضاء تضيء الوادي من شدّة بياضها من غير برص لها شعاع كشعاع الشمس و هذا قوله : [و نزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين] فعند هذا أراد فرعون تعمية هذه الحجّة على قومه [قال للملأ حوله إنّ هذا لساحر عليم] وكان الزمان علم السحر كثير عندهم و روّج هذا القول عليهم بأنّه [يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره] و هذا يجري مجرى التنفير عنه لئلاّ يقبلوا قوله ، و معلوم أنّ مفارقة الوطن المألوف أمر صعب ينفّرهم عنه بذلك .

ثمّ قال : [فما ذا تأمرون] فأظهر من نفسه أنّي متّبع لرأيكم و بهذا الكلام جذب قلوبهم إلى نفسه وأبعدهم عن موسى فعند هذه الكلمات اتّفقوا على جواب واحد [قالوا أرجه] أو أرجئه بالهمز و التخفيف لغتان أي أخّره و مناظرته لوقت اجتماع السحرة ، وقيل : معناه : احبسه . روي أنّ فرعون أراد قتله ولم يكن يصل إليه فقالوا له: لا تفعل فإنّك إن فعلته أدخلت على الناس شبهة ولكن أرجه [وأخاه وابعث في المدائن] بإنفاذ [حاشرين] و جامعين يجمعون السحرة من جميع البلدان فيأتون لك بكلّ عالم في السحر فحشر وهم [فجمع السحرة لميقات يوم معلوم] أي لوقت معيّن اختاروه وهو يوم عيدهم يوم الزينة [و قيل للنّاس] أي لأهل مصر : [هل أنتم مجتمعون لعلّنا نتّبع السحرة إن كانوا هم الغالبين] أي إنّهم بعثوا على الحضور من الناس ليشاهدوا ما يكون من الجانبين لعلّنا نتّبع السحرة أي إنّا نرجو أن يكون الغلبة للسحرة فنتّبعهم و كان ذلك الأمر مطلوب موسى لتظهر حجّته .

[فلمّا جاء السحرة قالوا لفرعون أئنّ لنا أجراً إن كنّا نحن الغالبين * قال نعم] فابتدءوا بطلب الجزاء وهو إمّا المال أو الجاه فبذل لهم ذلك وأكّده بقوله : [وإنّكم إذاً لمن المقرّبين] لأنّه نهاية مقصودهم المال و رفع المنزلة.

[قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون] قال للسحرة : ألقوا ما أنتم هيّأتم من

أُمور كم و هذا بصورة الأمر ولكنّ المراد به التحدّي [فألقوا حبالهم و عصيّهم و قالوا بعزّة فرعون إنّا لنحن الغالبون] فطرحوا ما كان من الحبال و العصيّ المموّهة بالسحر المعمولة بالزيبق و بعض الأدوية المركّبة المعدّة لهذا الفنّ وأقسموا بعزّة فرعون والمراد من العزّة القوّة الّتي تمتنع بها من لحاق ضيم لعلوّ منزلتها و كان هذا القول قسم منهم وإن كان غير مبرور [فألقى] عند ذلك [موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون] أي إنّ العصا لقفت و تناولت و خلست جميع ماموّهوا به في أوجز مدّة من الزمان .

[فأُلقي السحرة ساجدين] و قد بهرهم ما أظهره موسى و علموا أنّ ذلك من عند الله إذ كانوا أساتيد في علم السحر وعرفوا أنّ أحداً من البشر لا يقدر على مثل ذلك [قالوا آمنّا بربّ العالمين * ربّ موسى و هارون] بعد ذلك قال فرعون مهدّداً لهم : أصدقتموفيما يدعو إليه [قبل أن آذن لكم] في تصديقه ؟ [إنّه لكبيركم الّذي علّمكم السحر فلسوف تعلمون] فيما بعد فيما أفعله بكم من العقوبة ثمّ فسّر لهم بقوله : [لأُقطّعنّ أيديكم و أرجلكم من خلاف] يعني قطع اليد من جانب والرجل من الجانب الآخر بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى [ولأُصلّبنّكم أجمعين] مع ذلك على الجذوع ولا أترك أحداً منكم لا تناله عقوبتي .

[قالوا] في جوابه عن ذلك : [لاضير] أي لاضرر علينا في ما تفعله يقال : ضاره يضيره ضيراً و ضرّه يضرّه ضرّاً [إنّا إلى ربّنا منقلبون] أي إلى ثواب ربّنا راجعون ولا يضرّنا قطعك و صلبك فإنّه ألم ساعة ثمّ إلى النعيم الدائم .

قوله تعالى : انا نطمع ان يغفر لنا خطايانا ان كنا اول المؤمنين(٥١) و اوحينا الى موسى ان اسر بعبادى انكم متبعون (٥٢) فارسل فرعون فى المدائن حاشرين (٥٣) ان هؤلاء لشرذمة قليلون (٥٤) و انهم لنا لغائظون (٥٥) و انا لجميع حاذرون (٥٦) فأخرجناهم من جنات وعيون(٥٧)وكنوز و مقام كريم (٥٨) كذلك و اورثناها بنى اسرائيل (٥٩) فأتبعوهم مشرقين (٦٠) فلماتراءى الجمعان قال اصحاب موسى انا لمدركون (٦١) قال كلا ان معنى ربى سيهدين (٦٢) فاوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم (٦٣) وازلفنا ثم الاخرين (٦٤) و انجينا موسى و

من معه اجمعين(٦٥) ثم اغرقنا الاخرين (٦٦) ان في ذلك لاية و ماكان اكثرهم مؤمنين(٦٧) و ان ربك لهو العزيز الرحيم (٦٨).

قوله [إنّا نطمع] إشارة إلى الكفر والسحر منهم والطمع في هذا الموضع يحتمل أن يكون اليقين كقول إبراهيم: «والّذى أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين[1]» ويحتمل أن يكون بمعنى الظن لأنّ المرء لايعلم ما سيجيء من بعد وأمّا قوله : [أن كنّا أوّل المؤمنين] فالمراد: لأنّا كنّا مؤمنين من الجماعة الّذين حضروا ذلك الموقف . وقرىء «إن» على معنى الشرطيّة و أنّهم أوّل من آمن لموسى في ذلك اليوم من أهل الموقف عند فرعون و أنّ بني إسرائيل كانوا مصدّقين بموسى من قبل .

قوله : [وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي] و أسرى وسرى لغتان فحينئذ يجوز بهمزة القطع والوصل . ولمّا ظهر أمر موسى عليه السلام أمره الله بأن يخرج ببني إسرائيل و هم الّذين من قوم موسى وآمنوا به وأراد سبحانه تخليصهم من يد فرعون وتمليكهم بلاد فرعون وما يؤدّي إلى استيصال قوم فرعون وهو عليه السلام أسرى بهم ، ثمّ إنّ قوم موسى قالوا لقوم فرعون : إنّ لنا في هذا الليلة عيداً ثمّ استعاروا منهم حليّهم وحللهم بهذا السبب فخرجوا بتلك الأموال في الليل إلى جانب البحر.

فلمّا سمع فرعون ذلك [أرسل في المدائن حاشرين] يحشرون ويجمعون إليه الناس وأمر أن يجمعوا له الجيش ليقبضوا على موسى وقومه . فلّما اجتمع الناس عنده قال فرعون لهم : [إنّ هؤلاء لشرذمة قليلون] و الشرذمة عصبة قليلة من عصب كثيرة أي عصابة قليلة قوم موسى. قال المفسّرون : الشرذمة الّذين قلّلهم فرعون ستّمائة ألف ولايحصى عدد أصحاب فرعون فأطمع فرعون أصحابه بقلّة أصحاب موسى ووصفهم بالقلّة ثمّ قال : [و إنّهم لنا لغائظون] يعني يفعلون أفعالاً تغيّظنا وتضيّق صدورنا و اختلفوا في تلك الأفعال على وجوه : أحدها : ما تقدّم من أمر الحليّ ، و ثانيها : خروج بني إسرائيل عن عبوديّة فرعون و استقلالهم في الدين و لم يتّخذوا فرعون إلهاً . قوله : [وإنّا لجميع حاذرون] وقرىء «حذرون» والحاذر الحذر المستعدّ و الحذر المتيقّظ أي إنّا شاكو السلاح و مستعدّون وذووقوّة .

---

(١) السورة : ٨٢

ثمّ أخبر سبحانه عن كيفيّة إهلاكهم بقوله : [فأخرجناهم] يعني آل فرعون [من جنّات] أي بساتين [وعيون] جارية [و كنوز] أي أموال مخبأة ودفائن [ومقام كريم] قيل: المراد منابر تخطب عليها الخطباء ، عن ابن عبّاس ، وقيل : هو مجالس الأعيان والأمراء الّتي كان تحفّ بها الأتباع ، و قيل : المنازل الحسان الظريفة الّتي كانوا مقيمين فيها في كرامة وعزّة . وقيل : مرابط الخيل لتفرّد الرؤساء بارتباطها .

[كذلك] أي أمرهم كما وصفنا لك [وأورثناها بني إسرائيل] وذلك أنّ الله ردّ بني إسرائيل إلى مصر بعد ما أغرق فرعون و قومه و أعطاهم جميع ما كان لفرعون و قومه من الأموال والمساكن والعقار والديار.

[فأتبعوهم مشرقين] يعني قوم فرعون أدركوا موسى و أصحابه حين شرقت الشمس وظهر ضوؤها و ذلك [فلمّا تراءى الجمعان] وتقابلا بحيث يرى كلّ فريق صاحبه [قال أصحاب موسى إنّا لمدركون] أي سيدركنا جمع فرعون و لا طاقة لنا بهم [قال] موسى ثقة بنصر الله [كلّا] لن يدركونا و لا يكون ما تظنّون فانتهوا عن هذا القول [إنّ معي ربّي] بنصره [سيهدين] أي سيرشدني إلى طريق النجاة وسيكفيني .

[فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر] و هو نهر النيل ما بين أيلة و مصر، وقيل : هو بحر قلزم ما بين مكّة واليمن إلى مصر ، وفيه حذف أي فضرب [فانفلق] أي فانشقّ البحر وظهر فيه اثنا عشر طريقاً وقام الماء عن يمين الطريق ويساره كالجبل العظيم وذلك قوله : [فكان كلّ فرق كالطود العظيم] أي فكان كلّ قطعة من البحر كالجبل العظيم والفرق الاسم لما انفرق .

روي عن ابن عبّاس أنّ موسى عليه السلام لمّا انتهى إلى البحر مع بني إسرائيل أمرهم أن يخوضوا البحر فامتنعوا إلّا يوشع بن نون فإنّه ضرب دابّته و خاض في البحر حتّى عبر ثمّ رجع إليهم فأبوا أن يخوضوا فقال موسى للبحر: انفرق لي فقال ما اُمرت بذلك و لا يعبر عليّ العصاة فقال موسى : يا ربّ قد أبى البحر أن ينفرق فقيل له : اضرب بعصاك البحر فضرب به ما نفرق و صار فيه اثنا عشر طريقاً لكلّ سبط منهم طريق فقال : كلّ سبط : قتل أصحابنا فعند ذلك دعا موسى ربّه فجعلها مناظر كهيئة الطبقات حتّى نظر بعضهم

إلى بعض على أرض يا بسة .

وعن عطاء السائب : إنّ جبرئيل كان بين بني إسرائيل و بين آل فرعون وكان يقول لبني إسرائيل : ليلحق آخر كم بأوّلكم ، ويستقبل القبط فيقول : رويد كم ليلحق آخر كم . والطود الجبل المتطاول .

قوله : [وأزلفنا ثمّ الآخرين] أي وقرّبنا ثمّ أي حيث انفلق البحر للآخرين قوم فرعون والحاصل : قرّبنا إلى البحر فرعون وقومه حتّى أغرقنا هم ، عن ابن عبّاس . و قيل : معناه: جمعنا في البحر فرعون وقومه.وقيل : معناه : وقرّبنا هم إلى المنيّة لمجيء وقت إهلاكهم حيث انفلق البحر للآخرين قوم فرعون وجمعنا هم حتّى لا ينجو منهم أحد . و من الناس من قال : «وأزلفنا» أي حبسنا فرعون وقومه عند طلبهم موسى بأن أظلمنا عليهم الدنيا بسحابة وقفت عليهم فوقفوا حيارى . و قرىء «أزلقنا» بالقاف أي أزللنا أقدامهم و أذهبنا عزّهم ، ويحتمل أن يجعل الله طريقهم في البحر على خلاف ما جعله لبني إسرائيل يبساً و أزلقهم .

وههنا بحث و هو أنّه تعالى أضاف ذلك الإزلاف إلى نفسه مع أنّ اجتماعهم هنالك كفر ؛ و اُجيب عنه بأنّ قوم فرعون تبعوا بني إسرائيل وبنو إسرائيل إنّما فعلوا ذلك بأمر الله فلمّا كان مسيرهم بتدبيره وهؤلاء تبعوا ذلك أضافه إلى نفسه توسّعاً و هذا كما يتعب أحدنا في طلب غلام له فيقول : أتعبني الغلام ؛ لأنّه حدث ذلك التعب عند فعله . واُجيب أيضاً أي أزلفنا هم إلى الموت لأجل أنّهم في ذلك الوقت قربت آجالهم قال الشاعر :

و كلّ يوم مضى أوليلة سلفت * فيها النفوس إلى الآجال تزدلف

و أجاب الكعبيّ من هذه الشبهة أنّه تعالى لمّا حلم عنهم و ترك البحر يبساً وطمعوا في عبوره جازت الإضافة كالرجل يسفه عليه صاحبه مراراً فيحلم عنه فإذا تمادى في السفه و أراد قدرته عليه قال له : أنا أحوجتك إلى هذا و صبّرتك بحلمي ،لا يريد بذلك أنّه أراد ما فعل ، أو جمعهم ليعاقبهم و يغرقهم للاستحقاق . و هذا الجواب أكمل من جملة الأجوبة .

قوله تعالى : [وأنجينا موسى و من معه أجمعين] يعني بني إسرائيل أنجينا هم من الغرق والهلاك [ثمّ أغرقنا الآخرين] أي فرعون و جنوده .

[إنّ في ذلك لآية] أي إنّ الّذي حدث من هذه الأمور في البحر وإهلاك فرعون وقومه ونجاة موسى و قومه آية عجيبة من الآيات العظيمة الدالّة على القدرة و لمّا كان ماوقع مصلحة في الدين والدنيا و على صدق موسى ولاعتبار المعتبرين فيكون تحذيراً من الإقدام على مخالفة أمر الله تعالى وأمر رسوله ويكون فيه عبرة لأمّة محمد ﷺ .

ثمّ قال عقيب ذلك : [و ما كان أكثرهم مؤمنين] و في ذلك تسلية لمحمّد ﷺ لأنّه قد كان يغتمّ بتكذيب قومه فنبّهه الله تعالى بهذا البيان على أنّ له اُسوة بموسى فإنّ الّذي ظهر على موسى من هذه المعجزات العظام الّتي تبهر العقول لم يمنع من أكثرهم كذّبوه و كفروا به مع مشاهدتهم لما شاهدوه في البحر وغيره فكذلك أنت يا محمد لاتعجب من تكذيب قومك أكثرهم لك واصبر على إيذائهم فقد جرى العادة في أسلافهم من إنكار الحقّ و قبول الباطل ، والسبب في تكرّر بيان هذه القصص في القرآن لأنّها من عظائم الأمور الواقعة من الاُمم فيكرّرها سبحانه تعالى ليتسلّى بها رسوله ﷺ و لئلاّ يضيق صدره .

[و إنّ ربّك لهو العزيز] الغالب سلطانه [الرحيم] بخلقه.

قوله تعالى : واتل عليهم نبأ ابراهيم (٦٩) اذ قال لابيه و قومه ما تعبدون (٧٠) قالوا نعبدا صناماً فنظل لها عاكفين(٧١) قال هل يسمعو نكم اذ تدعون (٧٢) او ينفعو نكم أو يضرون (٧٣) .

فقد ذكر سبحانه في هذه الآية قصّة إبراهيم عليه السلام ليعرف محمد ﷺ أنّ حزن إبراهيم كان بسبب عدم إيمان قومه و هو كان حزنه مثل حزنك على قومك و أيّ حزن أعظم من أن يرى الإنسان أقاربه في النار وهو لا يتمكّن من إنقاذهم إلّا بالدعوة و لا يفيد الدعوة .

فقال لهم : [ما تعبدون] وكان يعلم إبراهيم أنّهم عبدة الأصنام ولكنّه سألهم

لإلقاء الحجّة عليهم فأجابوا بقولهم : [قالوا نعبدأصناماً فنظلّ لها عاكفين] و العكوف الإقامة على الشيء و إنّماقالوا : نظل ، لأنّهم كانوا يعبدونها بالنهاردون الليل و غرضهم بهذا البيان من الابتهاج والافتخار بهذه العبادة وإلّا لكان يكفيهم في الجواب بقولهم : « نعبد أصناماً » .

[فقال]إبراهيم منبّهاً على فسادطريقتهم : [هل يسمعونكم إذ تدعون* أوينفعونكم أو يضرّون] وفي الكلام حذف والتقدير : هل يسمعون دعاءكم إذ تدعون ، والحاصل أنّ الّذين تعبدونهم هل يسمعون دعاءكم فيستجيبون لكم في بذل منفعة أودفع مضرّة .

قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون (٧٤) .

وهذا إخبار منهم عن تقليدهم صرفاً آباءهم في عبادة الأصنام من غير نفع أوضرّ فقال إبراهيم منكراً لهم على التقليد :

قال افرأيتم ما كنتم تعبدون (٧٥) انتم وآباؤكم الاقدمون (٧٦) فانهم عدولى الا رب العالمين(٧٧) .

أي أنظرتم و تأمّلتم فعلمتم ما كنتم تعبدونه أنتم والقدماء من أسلافكم وآبائكم أحقّ أم باطل ؟ و مقصوده أنّ الباطل لا يتغيّر بأن يكون قديماً أو حديثاً أو يكون فاعلوه كثيرين أوقليلين.

[فإنّهم عدوّلي إلّا ربّ العالمين] معناه أنّ عبّاد الأصنام مع الأصنام عدوّلي، و غلب من يعقل على ما لا يعقل في الضمير ولذا أتى بجمع العقلاء لمّا وصفها بالعداوة الّتي لا تكون إلاّ من العقلاء و جعل الأصنام كالعدوّ في الضرر من جهة عبادتها فاستثنى من المعبودين إلاّ الله فقال : [إلاّ ربّ العالمين] .

قوله تعالى : الذى خلقنى فهو يهدين(٧٨) والذى هو يطعمنى ويسقين (٧٩) و اذا مرضت فهو يشفين (٨٠) و الذى يميتنى ثم يحيين (٨١)والذى أطمع أن يغفرلى خطيئتى يوم الدين (٨٢) رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين (٨٣) واجعل لى لسان صدق فى الاخرين (٨٤) واجعلنى من ورثة جنة النعيم (٨٥) واغفر لابى انه كان من الضالين (٨٦) ولاتخزنى يوم يبعثون (٨٧) يوم لاينفع مال ولا بنون (٨٨) الا من أتى الله بقلب سليم (٨٩)

وازلفت الجنة للمتقين (٩٠) و برزت الجحيم للغاوين (٩١) وقيل لهم أينما كنتم تعبدون (٩٢) من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون (٩٣) فكبكبوا فيها هم و الغاون (٩٤) وجنود ابليس أجمعون (٩٥) قالوا و هم فيها يختصمون (٩٦) تالله ان كنا لفي ضلال مبين (٩٧) اذ نسويكم برب العالمين (٩٨) وما اضلنا الا المجرمون (٩٩) فما لنا من شافعين (١٠٠) ولا صديق حميم (١٠١) فلو ان لنا كرة فنكون من المؤمنين (١٠٢) ان في ذلك لاية وما كان اكثرهم مؤمنين (١٠٣) و ان ربك لهو العزيز الرحيم (١٠٤).

قوله :[الّذي خلقني فهو يهدين] ولمّا قال إبراهيم « فإنّهم عدوّ لي إلّا ربّ العالمين » - والعدوّ والصديق يجيئان في الواحد والجمع - و بيان العداوة من الجماد أنّه تعالى يحيي ماعبدوه من الأصنام حتّى يقع منهم البراءة عن عابديهم والتوبيخ منهم عابديهم كما قال سبحانه في سورة مريم في الأوثان قوله : « كلاّ سيكفرون بعبادتهم و يكونون عليهم ضدّاً »[1] فأطلق إبراهيم لفظ العدوّ عليها على هذا المعنى أو بسببهم يقع الضرر من العذاب ، وهذا فعل العدوّ ، فاستثنى إلّا ربّ العالمين وهذا الاستثناء منقطع أي لكن ربّ العالمين ثمّ وصف ربّه بما يستحقّ العبادة فأثنى عليه بأنّه خلقه و هداه و بهما يحصل جميع المنافع .

وههنا نكتة وهو أنّ قوله : « الّذي خلقني » ذكره بلفظ الماضي « ثمّ يهدين » بلفظ المستقبل و السبب في ذلك أنّ خلق الذات لا يتجدّد في الدنيا بل لمّا وقع بقي إلى الأمد المعلوم و أمّا هدايته فهي يتكرّر كلّ حين وأوان سواء كان ذلك هداية في المنافع الدينيّة أو الدنيويّة و ذلك بأن يحكم العقل بتميّز الحقّ عن الباطل والخير عن الشرّ فخلقه في الماضي دفعة و الهداية إلى مصالح الدين بالدنيا بضروب الهدايات كلّ لحظة ولمحة .

و البيان الثاني من قول إبراهيم : [والّذي هو يطعمني و يسقين] و قد دخل فيه كلّ ما يتّصل بمنافع الرزق و ما يوجب كونه سبباً لبقاء النعمتين أعني الخلق والهداية إذ لو لم يكن معه ما يتمكّن معه الإنسان من الاغتذاء به نحو الشهوة والقوّة والتميّز لم تكمل النعمة للحاجة في البقاء إليه .

---

(١) الآية ٨٣ .

[وإذا مرضت فهو يشفين] و إنّما قال : « إذا مرضت» وما قال : أمرضني ؛ لأنّ كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في المطعم و المشرب و من ثمّ قالت الحكماء : لوقيل لأكثر الموتى : ماسبب آجالكم ؟ لقالوا : التخم . وإنّ المرض يحدث باستيلاء بعض الأخلاط على بعض و ذلك الاستيلاء غالباً يحصل بسبب عدم بقاء الأخلاط على اعتدالها الطبيعيّ من شره النفس و سوء التدبير في الغذاء فيقع التنافر فحينئذ ما أضاف الأمراض إلى الله، ولكنّ الصحّة يحتاج إلى إعادة الاعتدال في الطبع بسبب قاهر يقهرها على العود و دفع التنافر فأضاف إلى الله القاهر وما أضاف المرض إليه ولو أنّ بعض الأمراض منه لكن لمّا كان الغالب ليس منه فما أضاف ، على أنّ مقصود إبراهيم تعديد النعم ولمّا لم يكن الأمراض في الأذهان من النعم ولكنّ الشفاء من أصول النعم أضافه إليه سبحانه .

فإن نقضته بالإماتة حيث يقول عليه السلام : [والّذي يميتني ثمّ يحيين].

فالجواب أنّ الموت ليس بضرر إنّما الضرر في مقدّماته وهو المرض وقد عرفت أنّ الأرواح إذا كملت في المعارف والعلوم والأخلاق فإبقاؤها في هذه الأجساد عين الضرر وخلاصها عنها عين السعادة.

[والّذي أطمع أن يغفرلي خطيئتي يوم الدين] والطمع ههنا اليقين وهو المرويّ عن بعض المفسّرين . و قال بعض المفسّرين : إنّما ذكره على هذا الوجه تعليماً منه لأمّته كيفيّة الدعاء و على سبيل الانقطاع إلى الله لا على سبيل أنّ له خطيئة يحتاج أن يغفر له يوم القيامة لأنّ عندنا الإماميّة لا يجوز أن يقع من الأنبياء شيء من القبائح وعند جميع أهل العدل و إن جوّزوا عليهم الصغائر فإنّها تقع عندهم محبطة مكفّرة فليس شيء غير مغفور فيحتاج إلى أن يغفر يوم القيامة . و قيل معناه : أطمع أن يغفر لمن يشفّعني فيه فأضافه إلى نفسه كقوله لنبيّه : «ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر» [1] والوجه الأقوم في معنى الآية أنّ هذا الكلام منه عليه السلام استغفار لما عسى يندر منه من خلاف الأولى و عبّر بالخطيئة هضماً لنفسه و منه : حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين .

---

(١) الفتح : ٢ .

فلو قيل: لم علّق مغفرة الخطيئة بيوم الدين و إنّما تغفر في الدنيا؟ لأن أثر الغفران يظهر ذلك اليوم.

فإن قيل: ما فائدة «لي» في قوله «يغفر لي»؟ أمّا الفائدة أنّه إذا عفى الأب عن ولده أوالسيّد عن عبده في أكثر الأمر إنّمايكون طلباً للثواب أورقّة عن العقاب أو طلباً للمحمدة و الثناء فلا بدّأن يكون نفعاً راجعاً إلى العافي والمعفوّ عنه أمّا الإله سبحانه فمنزّه من أن تحدث لهصفة كمال أو نفع لم يكن له و إنّه كامل لذاته و إذا كان كذلك فغفرانه له راجع لرعاية حال المعفوّ عنه لا لأجل رعاية حال العافي و لهذا قال: «لي».

قوله: [ربّ هب لي حكماً وألحقني بالصالحين] فبعد أن أثنى على الله سبحانه ذكر مسألته و ذلك تنبيه على أنّ تقديم الثناءعلى الدعاء من المهمّات.

و تحقيق الكلام فيه أنّ هذهالأرواح البشريّة من جنس الملائكة فكلّما اشتغل بذكر الله وكان اشتغالها بمعرفة اللهومحبّته و الانجذاب إلى عالم القدس أشدّ كانتمشاكلتها للملائكة أتمّ فكانت أقوى على التصرّف في أجسام هذا العالم و كلّما كان اشتغالها بلذّات هذا العالم و استغراقها في ظلمات هذه الجسمانيّات أشدّ كانت مشاكلتها للبهائم أشدّ فكانت أكثر عجزاً و ضعفاً و أقلّ تأثيراً في هذا العالم فمن أراد أن يشتغل بالدعاء يجب أن يقدّم على الدعاء ثناء الله و ذكر عظمته و كبريائه حتّى بسبب ذلك الذكر يصير قريباً في المشاكلة إلى الملائكة فتحصل له بسبب تلك المشاكلة قوّة ملكيّة سماويّة فيصير مبدءاً لحدوث مطلوبه من دعوته وهذا تحقيق قوله: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أُعطي السائلين.

فإن قال قائل: لم لم يقتصر إبراهيم عليه السلام على الثناء مع أنّه مرويّ عنه أنّه قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي؟

فالجواب أنّه عليه السلام اشتغل بالدعاء لأنّ الشارع لا بدّ له من تعليم الخلق و حين كان مشتغلاً بدعوة الخلق كان مشتغلاً بالثناء ثمّ الدعاء و أمّا حين ما خلا بنفسه ولم

يكن غرضه تعليم الخلق بالآداب كأن يقتصر على قوله : « حسبي من سؤالي علمه بحالي».

و كان من سؤالاته اُمور :

المطلوب الاول « ربّ هب لي حكماً» قيل : منعاه النبوّة ، وردّ بأنّه حينئذ كان نبيّاً و تحصيل الحاصل محال بل المراد كمال القوّة العلميّة والنظريّة أي زدني علماً إلى علمي، « وألحقني بالصالحين » و ذلك بإدراك الحقّ كاملاً و كمال القوّة العملية ، و ذلك بأن أكون عاملاً في الخير.

وإنّما قدّم قوله « ربّ هب لي حكماً » لأنّ القوّة النظريّة مقدّمة على القوّة العمليّة ذاتاً و شرفاً والعلم صفة الروح والعمل صفة البدن وكما أنّ الروح أشرف من البدن كذلك العلم أشرف من العمل و إنّما عبّر معرفة الأشياء بالحكم لأنّ الإنسان لا يعرف حقائق الأشياء إلّا إذا استحضر في ذهنه صورالماهيّات ثمّ نسب بعضها إلى بعض بالنفي أوالإثبات و تلك النسبة بالوقوع أو اللاّوقوع هي الحكم وهذا معنى: « اللّهمّ أرني الأشياء كما هي » فمثل هذا الإدراك والقوّة يسمّى حكمة وحكماً ، وأمّا قوله : « وألحقني بالصالحين » أمّا الصلاح فهو كون القوّة العاقلة متوسّطة بين رذيلتي الإفراط والتفريط و ذلك لأنّ الإفراط في أحد الجانبين تفريط في الجانب الآخر و بالعكس فالصلاح لا يحصل إلاّ بالاعتدال و لمّا كان الاعتدال الحقيقيّ شيئاً واحداً لا يقبل القسمة البتّة و الأفكار البشريّة في هذا العالم قاصرة عن إدراك أمثال هذه الأشياء لاجرم لا ينفكّ البشر عن الخروج عن ذلك الحدّ ولو أنّ خروج المقرّبين عنه بعيد جدّاً و يكون في القلّة بحيث لا يحسّ به و خروج غيرهم متفاحش جدّاً ولذا أظهر إبراهيم احتياجه إلى أن قال : « وألحقني بالصالحين » فاستمدّ من الله سبحانه في تحصيل هذه القوّة بهذا القول . و من هذا البيان ظهر لك المراد من قوله : حسنات الأبرار سيئّات المقرّبين .

المطلوب الثاني لإبراهيم عليه السلام قوله تعالى : [واجعل لي لسان صدق في الآخرين] فطلب الذكر الجميل في الملّة الحنيفيّة الحقّة الباقي على وجه الدهر كما أنّه

بقي ملّة أبيكم إبراهيم و قيل : سأل ربّه أن يجعل من ذرّيّته في آخر الزمان من يكون داعياً إلى الحقّ و ذلك محمّد صلى الله عليه وآله فالمراد من قوله : « واجعل لي » بعثة محمّد صلى الله عليه وآله و هذا المعنى الثاني يؤول إلى المعنى الأوّل ، و أعطاه الله ذلك لأنّك لا ترى أهل دين إلّا و يتوالون إبراهيم .

المطلوب الثالث قوله : [واجعلني من ورثة جنّة النعيم] ولمّا طلب من ربّه معرفته والسعادة في الدنيا والدين طلب ماهوسعادة الآخرةوهي جنّةالنعيم وعبّربالإرث لأنّه لا مانع من الإرث .

المطلوب الرابع [واغفر لأبي إنّه كان من الضالّين] -وفيه وجوه- و قوله : «إنّه كان من الضالّين »أي من الذاهبين عن الصواب و وصفه بكونه ضالّاً يدلّ على أنّه كان كافراً كفر جهالة لا كفر عناد .

ومن الوجوه أنّ المغفرة مشروطة بالإسلام و طلب المشروط متضمّن لطلب الشرط فقوله « واغفر لأبي »معناه يرجع إلى أنّه عليه السلام دعا لأبيه بالإسلام .

الوجه الثاني أنّ أباه وعده بالإسلام كما قال تعالى : « و ما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلّا عن موعدة وعدها »[1] أي وعد ابنه أن يستسلم فدعا له إبراهيم لهذا الشرط ولا يمتنع الدعاء للكافرعلى هذا الشرط فلمّا تبيّن له أنّه عدوّ لله تبرّأ منه .

الثالث أنّ أباه قال له : إنّه على دين إبراهيم باطناً وعلى دين نمرود ظاهراً تقيّة و خوفاً فدعا له لاعتقاده أنّ الأمر كذلك فلمّا تبيّن له خلاف ذلك تبرّأمنه .

المطلوب الخامس قوله : [ولا تخزني يوم يبعثون] الخزي هوالهوان . فلو قيل : إنّ إبراهيم كان يعلم بالضرورة هذا الأمر و هو قوله تعالى : «إنّ الخزي اليوم والسوء علي الكافرين »[2] و يعلم أنّ الخزي نصيب الكفّار فقط فكيف يخافه المعصوم؟ فالجواب كما أنّ حسنات الأبرارسيّئات المقرّبين فكذا درجات الأبرار دركات المقرّبين و خزي كلّ واحد بما يليق به . والضمير في « يبعثون»راجع إلى العباد أوالضالّين .

وبالجملة المعنى أنّه لاتفضحني ولاتعيّرني بقصور يوم يحشر الخلائق ، وهذا الدعاء

(١) التوبة : ١١٥ .	(٢) النحل : ٢٧ .

كان منه على وجه الانقطاع إلى الله لما بيّنّا أنّ القبيح لا يجوز وقوعه من الأنبياء .

ثمّ فسّر ذلك اليوم بأن قال : [يوم لاينفع مال ولا بنون] أي لاينفع المال والبنون أحداً إذ لايتهيأ لذي مال أن يفتدي من شدائد ذلك اليوم به ولايتحمّل من صاحب البنين بنوه شيئاً من معاصيه [إلّا من أتى الله بقلب سليم] من الشرك ، و قيل : من الفساد والمعاصي . و إنّما خصّ القلب بالسلامة لأنّه إذا سلم القلب سلم سائر الجوارح من الفساد من حيث إنّ الفساد بالجارحة لايكون إلّا عن قصد بالقلب الفاسد . و روي عن الصادق أنّه قال : هو القلب سلم من حبّ الدنيا ، و يؤيّده قول النبيّ صلى الله عليه وآله : حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة .

والحاصل فقوله : «إلّا من أتى الله بقلب سليم» أي خالياً و سالماً عن العقائد الفاسدة والميل إلى شهوات الدنيا و لذّاتها ، و قيل في تأويل الآية : إنّ السليم هو اللّديغ من خشية الله .

قوله تعالى : [و اُزلفت الجنّة للمتّقين] أي إنّ الجنّة قد تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون إليها و يفرحون بأنّهم المحشورون إليها والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء بمرأى منهم يتحسّرون على أنّهم المسوقون إليها فقال :

[و برّزت الجحيم للغاوين] الضالّين و إنّما يفعل الله ذاك ليكون سروراً معجّلاً للمؤمنين و غمّاً عظيماً للكافرين أي كشف الغطاء واُظهرت الجحيم للضالّين عن طريق الحقّ [و قيل لهم] على وجه التوبيخ في ذلك اليوم [أينما كنتم تعبدون من دون الله] من الأصنام والأوثان و أين آلهتكم هل يمنعونكم [هل ينصرونكم] بنصرتهم لكم بدفع العذاب عنكم [أوينتصرون] أي يمتنعون من العذاب .

[فكبكبوا فيها]والكبكبة تكرير الكبّ مرّة بعد مرّة حتّى يستقرّ في قعرها .

في الكافي و القمّي عن الصادق «هم» قوم و صفوا عدلاً بألسنتهم ثمّ خالفوا إلى غيره . وفي خبر آخر : «هم» بنواُميّة و الغاوون بنوالعبّاس . أي جمعوا و طرح بعضهم على بعض يعني الآلهة الّتي تعبدونها [و الغاوون] يعني العابدون ، و الحاصل أنّ العابد والمعبود يطرح في النار [وجنود إبليس أجمعون] أي و كبكب جنود الشيطان ،يريد من تبعه من ولده و ولد آدم .

[قالوا وهم فيها يختصمون * تالله إن كنّا لفي ضلال مبين * إذ نسوّيكم بربّ العالمين] قالوا وهم أي قال هؤلاء و هم في النار والآية حكاية حالهم كأنّه قيل : ماذا قالوا حين فعل بهم مافعل ؟ قال العبدة وهم في النار معترفين بخطئهم في انهماكهم في الضلالة والحال أنّهم في الجحيم بصدد الاختصام مع من معهم مخاطبين لمعبوديهم بعد أن يجعل الله الأصنام صالحة للاختصام بأن يعطيها القدرة على الفهم والنطق : تالله إن كنّا لفي ضلال مبين إذ سوّيناكم في العبادة بربّ العالمين .

و« إن » في قوله : «إن كنّا » مخفّفة من المثقّلة و معناه لقد كنّا في الضلالة .

ثمّ قالوا : [و ما أضلّنا إلّا المجرمون] أي إلّا أوّلنا الّذين اقتدينا بهم و إنّهم أجرموا فاقتدينا هم عن الكلبيّ . و قيل : إلّا الشياطين . و قيل : الكافرون الّذين دعونا إلى الضلال .

ثمّ أظهروا الحسرة فقالوا : [فما لنا من شافعين] يشفعون لنا في أمرنا كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيّين [ولا صديق حميم] من الّذين كنّا نعدّهم أصدقاء ، والحميم من الاحتمام وهو الاهتمام وهو الّذي يهمّه ما يهمّك ، أومن الحامة بمعنى الخاصّة وهو الصديق الخالص ، و إنّما جمع الشفعاء ووحّد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة و قلّة الصديق فإنّ الرجل التحق و هوفي الأزهاق قد ينهض بجماعة وافرة في تخليصه رحمة له و أمّا الصديق فهو أعزّ من بيض الأنوق ، أو يريد بالصديق أيضاً معنى الجمعيّة .

ثمّ إنّه سبحانه حكى قولهم عنهم بقوله : [فلو أنّ لنا كرّة فنكون من المؤمنين] بأنّهم تمنّوا الرجعة إلى الدنيا ، و كلمة « لو » في مثل هذا الموضع في معنى التمنّي كأنّه قيل : فليت لنا رجوع في الدنيا ، وبين «لو» و«ليت» في المعنى قرب و يجوز أن يكون على أصل معناها و حذف الجواب تقديره : لفعلنا كيت و كيت . وهذا القول إخبار عن عزمهم تلك الساعة و ليس خبراً عن إيمانهم لأنّه سبحانه أخبر على خلاف ذلك بقوله : « ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه » (١)

و قوله : [إنّ في ذلك لآية و ما كان أكثرهم مؤمنين] أي إنّ في ما قصصناه

(١) الانعام : ٢٨ .

دلالات لمن نظر فيها واعتبر بها و ما كان أكثرهم مؤمنين ، تسلية للنبيّ صلى الله عليه وآله [و إنّ ربّك لهو العزيز الرحيم] أي قادر على تعجيل الانتقام لكنّه رحيم بالإمهال لكي يؤمنوا

تذييل : في قوله : « فمالنا من شافعين » في المحاسن عن الصادق عليه السلام : الشافعون الأئمّة عليهم السلام و الصديق المؤمنون . والقمّي عنهما عليهما السلام : والله لنشفعنّ في المذنبين من شيعتنا حتّى يقولوا أعداؤنا إذا رأوا ذلك : فمالنا من شافعين ولا صديق حميم.

و في الكافي عن الباقر عليه السلام وإنّ الشفاعة لمقبولة و ما تقبل في ناصب وإنّ المؤمن ليشفع لجاره و ما له حسنة فيقول : يا ربّ جاري كان يكفّ عنّي الأذى فيشفّع فيه فيقول الله تعالى : أنا ربّك و أنا أحقّ بمن كافى عنك ، فيدخله الله الجنّة و ما له حسنة و إنّ أدنى المؤمنين شفاعة ليشفع لثلاثين إنساناً فعند ذلك يقول أهل النار : فما لنا من شافعين .

وفي الخبر المأثور عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : إنّ الرجل يقول في الجنّة ما فعل صديقي فلان وصديقه في الجحيم فيقول الله تعالى: أخرجوا له صديقه إلى الجنّة فيقول من بقي في النار : فمالنا من شافعين .

وروي بالإسناد عن عمران بن أعين عن أبي عبدالله عليه السلام قال : والله لنشفعنّ لشيعتنا والله لنشفعنّ لشيعتنا والله لنشفعنّ لشيعتنا حتّى يقول الناس : «فما لنا من شافعين-إلى قوله- فنكون من المؤمنين» . وفي رواية أُخرى : حتّى يقول عدوّنا .

و عن أبان بن تغلب قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : إنّ المؤمن ليشفع يوم القيامة لأهل بيته فيشفّع فيهم حتّى يبقى خادمه فيقول و يرفع سبّابتيه يارب خويدمي كان يعينني الحرّ والبرد فيشفّع فيه . انتهى .

قوله تعالى : كذبت قوم نوح المرسلين (١٠٥) اذقال لهم أخوهم نوح ألا تتقون (١٠٦) اني لكم رسول أمين (١٠٧) فاتقوا الله وأطيعون (١٠٨) وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين (١٠٩) فاتقوا الله و اطيعون (١١٠) قالوا أنومن لك واتبعك الارذلون (١١١) قال و ما علمى بما كانوا يعملون (١١٢) ان حسابهم الا على ربى لو تشعرون (١١٣) ومانا

بطارد المؤمنين (١١٤) ان أنا الا نذير مبين (١١٥) قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين (١١٦) قال رب ان قومي كذبون (١١٧) فافتح بيني و بينهم فتحاً و نجني ومن معي من المؤمنين (١١٨) فانجيناه ومن معه في الفلك المشحون (١١٩) ثم أغرقنا بعد الباقين (١٢٠) ان في ذلك لاية وماكان اكثرهم مؤمنين (١٢١) وان ربك لهو العزيز الرحيم (١٢٢).

و لمّا قصّ سبحانه على محمّد خبر موسى و إبراهيم لتسليته فيما يلقاه من أذى قومه بيّن له نبأ نوح ممّا لقي من قومه وكان نبؤه أعظم لأنّه كان يدعوهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً و مع ذلك كذّب به قومه فقال سبحانه :

[كذّبت قوم نوح] و إنّما قال : كذّبت ولو أنّ القوم مذكّر لأن تصغيرها قويمة و باعتبار الجماعة و حكي عنهم أنّهم كذّبوا المرسلين لأنّ قوم نوح كذّبوا جميع [المرسلين] لأنّهم كانوا من الزنادقة أومن البراهمة و أيضاً تكذيب نبيّ يلزم تكذيب جميع الأنبياء لأنّ كلّ رسول يأمر بتصديق جميع الرسل قال أبوجعفر عليه السلام : يعني بالمرسلين نوحاً والأنبياء الّذين كانوا بينه و بين آدم .

[إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتّقون] أي في النسب لا في الدين ، ألا تتّقون عذاب الله في تكذيبي و مخالفتي ؟ ثمّ وصف شأنه لهم فقال : [إنّي لكم رسول أمين] و ذلك لأنّه كان فيهم مشهوراً بالأمانة كمحمّد صلى الله عليه وآله في قريش كما أنّه قال : كنت أميناً من قبل فكيف تتّهموني اليوم ؟ [فاتّقوا الله] بطاعته وعبادته [و أطيعون] فيما آمركم به من الإيمان [و ما أسألكم عليه] أي على هذه الدعوة [من أجر] و مال ، و « من » زائدة [إن أجري] ما ثوابي و جزائي [إلّا على ربّ العالمين] وخالق الخلائق أجمعين ، ثمّ كرّر عليهم قوله : [فاتّقوا الله و أطيعون] لاختلاف المعنى ، لأنّ التقدير : فاتّقوا الله وأطيعون لأنّي رسول أمين و اتّقوا الله و أطيعون لأنّي لا أسألكم عليه أجراً فتخافوا ضرر أموالكم به ، و كلّ واحد من هذين المعنيين يقوّي الداعي إلى قبول الحقّ و بعد عن موضع التهمة ولا تكرار فيه كما تقول: ألا تخاف الله وقد ربّيتك صغيراً ؟ ألا تخاف الله وقد أتلفت لك مالي ؟

ثمّ بعد ذلك جاوبوه بقولهم : [أنؤمن لك واتّبعك الأرذلون] أي وأتباعك الأرذلون و

قرىء « أتباعك » و إنّما استرذلوهم لقلّة نصيبهم من الدنيا و كانوا من أهل الصناعات الخسيسة كالحجامة والسكافة والحياكة . و هذه الشبهة في غاية الركاكة لأنّ نوحاً بعث إلى الخلق كافّة فلا يختلف في ذلك بسبب الفقر والغنى و شرف الصنعة و دناءتها .

فأجابهم نوح بالحقّ وهو قوله : [و ما علمي بما كانوا يعملون] أي است أعلم صنائعهم ولم اُكلّف ذلك و إنّما كلّفت أن أدعوهم إلى الله وقد أجابوا إليه [إن حسابهم إلّا على ربّي لو تشعرون] أي ليس حسابهم إلّا على الّذي خلقني و خلقهم لو تعلمون ذلك ما عيّبتهم بصنائعهم [و ما أنا بطارد المؤمنين] وفي الآية كالدلالة على أنّ القوم سألوه عن إبعادهم لكي يتّبعوه ، فبيّن أنّ الّذي يمنعه عن طردهم أنّهم آمنوا به ولست مكلّفاً بهذا الأمر [إن أنا إلّا نذيرمبين] .

ثمّ إنّ نوحاً لمّا تمّم هذاالجواب لم يكن منهم إلّا التهديد [فقالوا لئن لم تنته يا نوح لتكوننّ من المرجومين] و المعنى أنّهم خوّفوه بأن يقتل بالحجارة فعند ذلك حصل اليأس لنوح عليه السلام من فلاحهم [قال] نوح : [ربّ إنّ قومي كذّبون فافتح بيني وبينهم فتحاً] وليس الغرض منه إخبارالله بالتكذيب لعلمه أنّ عالم الغيب والشهادة أعلم ولكنّه أراد أنّي لا أدعوعليهم لمّا آذوني و إنّما أدعو لأجل دينك ولأنّهم كذّبوني في وحيك و رسالتك فافتح بيني و بينهم و احكم ، والفتاحة الحكومة و الفتّاح الحاكم لأنّه يفتح المستغلق والمراد من هذا الحكم إنزال العقوبة لأنّه عليه السلام عقّبه [ونجّني] ولولا أنّ إنزال العقوبة لما كان لذكر النجاة بعده معنى حيث قال : و نجّني [و من معي من المؤمنين] .

[فأنجيناه و من معه] من أهل دينه [في الفلك المشحون] أي المملوء ،والفلك السفينة الواحد على وزن قفل والجمع على وزن اُسد [ثمّ أغرقنا بعد الباقين] أي أغرقنا بعد نجاة أصحاب نوح ونوح، الباقين الخارجين من السفينة الكافرين به [إنّ في ذلك لآية]وعلامة واضحة على معرفة القادر [و ما كان أكثر هم مؤمنين * و إنّ ربّك لهو العزيز] في إهلاك قوم نوح بالغرق [الرحيم] بالمؤمنين حيث نجّاهم .

قوله تعالى : كذبت عاد المرسلين (١٢٣) اذ قال لهم أخوهم هود

ألا تتقون (١٢٤) انی لكم رسول أمين (١٢٥) فاتقوا الله وأطيعون (١٢٦) وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين (١٢٧) أتبنون بكل ريع آية تعبثون (١٢٨) و تتخذون مصانع لعلكم تخلدون (١٢٩) واذا بطشتم بطشتم جبارين (١٣٠) فاتقوا الله و اطيعون (١٣١) واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون (١٣٢) امدكم بانعام و بنين (١٣٣) و جنات وعيون (١٣٤) انی اخاف عليكم عذاب يوم عظيم (١٣٥) قالوا سواء علينا اوعظت ام لم تكن من الواعظين (١٣٦) ان هذا الا خلق الاولين (١٣٧) و ما نحن بمعذبين (١٣٨) فكذبوه فأهلكناهم ان فی ذلك لاية وما كان اكثر هم مؤمنين (١٣٩) و ان ربك لهو العزيز الرحيم . (١٤٠)

أخبر سبحانه عن عاد أي قبيلة عاد ، و فاتحة هذه القصّة وفاتحة قصّة نوح واحدة و مستغنى عن إعادة التفسير ثمّ إنّ سبحانه ذكر الأمور الّتي تكلّم هود فيها مع قومه و هي ثلاثة :

فأولها قوله : [أتبنون بكلّ ريع آية تعبثون] والريع بالكسر والفتح المكان المرتفع والآية العلم . عن ابن عباس : إنّهم كانوا يبنون بكلّ ريع علماً يعبثون فيه بمن في الطريق إلى هود . والثاني أنّهم كانوا يبنون في الأماكن المرتفعة ليعرف بذلك غناهم تفاخراً على الفقراء فنهوا عنه . والثالث أنّهم كانوا ممّن يهتدون بالنجوم في أسفارهم فاتّخذوا في طريقتهم أعلاماً طوالاً فكان ذلك عبثاً لأنّهم أغناهم الله بالنجوم وكان ذلك أمر لغو و سرف. والرابع أنّهم بنوا بكلّ ريع بروج الحمّام .

و ثانيها من كلمات هود قوله : [و تتّخذون مصانع لعلّكم تخلدون] المصانع مآخذ الماء و قيل القصور المشيّدة ، لعلّكم ترجون الخلود في الدنيا أو تشبيه حالكم حال من يخلد ولا يموت ، و في مصحف أُبيّ كأنّكم ،و قرىء « تخلدون » بضمّ التاء مخفّفاً و مشدّداً .

و ثالثها قوله : [وإذا بطشتم بطشتم جبّارين] البطش الأخذ باليد أي إذا أردتم إنزال عقوبة بأحدٍ عاقبتم عقوبة المتجبّر يريد التجبّر بارتكاب العظائم . وقيل : معناه : إذا عاقبتم

قتلتم؛ فمعنى الجبّار القتّال بغير حقّ وحاصل المعنى : أنّهم أحبّوا العلوّ والكبر و البقاء ، و هذه الصفات ممتنعة الحصول للعبد و إذا استغرق الإنسان فيها فيخرج عن حدّ العبوديّة و يحوم حول ادّعاء الربوبيّة .

ثمّ بعد أن ذكر هذه الأمور الثلاثة قال : [فاتّقوا الله و أطيعون] زجراً لهم عن حبّ الدنيا بالأمر بالتقوى ثمّ نبّههم على نعم الله إجمالاً أوّلاً بقوله : [واتّقوا الّذي أمدّكم] ثمّ فصّل بقوله : [أمدّكم بأنعام وبنين * وجنّات وعيون * إنّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم] فحينئذ بلغ في دعوتهم بالوعظ والترغيب والترهيب .

فكان جوابهم : [قالوا سواء علينا أو عظت أم لم تكن من الواعظين] أي لا نقبل نصحك على كلّ حال و حصول الوعظ منك وعدمه مستويان عندنا ، ثمّ بيّنوا السبب لعدم اكتراثهم بكلامه و هو أنّ ما جئت به اختلاق الأوّلين و تخرّصهم و لست بنبيّ و هذا المعنى على قراءة « خلق الأوّلين » أو المعنى أنّ خلقنا هذا مثل خلق القرون الماضية يحي كحياتهم و نموت كمماتهم ولا بعث ولا نشور و لا حساب ، ومن قرأ « خلق » بضمّتين أو واحدة فمعناه : ما هذا الّذي نحن عليه من الدين إلّا عادة الأوّلين و نحن بهم مقتدون . قيل: المعنى : إنّ هذا الّذي نحن عليه من تشييد البناء واتّخاذ المصانع والبطش الشديد من عادة من قبلنا [و ما نحن بمعذّبين] على ما تدّعيه لا في الدنيا و لا في الآخرة .

] فكذّبوه فأهلكناهم] بعذاب الاستيصال [إنّ في ذلك لآية و ما كان أكثرهم مؤمنين * و إنّ ربّك لهو العزيز الرحيم] مرّ تفسيره

قوله تعالى : كذبت ثمود المرسلين (١٤١) اذ قال لهم اخوهم صالح الا تتقون (١٤٢) انى رسول امين (١٤٣) و ما اسألكم عليه من اجر ان اجرى الاعلى رب العالمين (١٤٤) اتتركون فيما ههنا آمنين (١٤٥) فى جنات و عيون و زروع و نخل طلعها هضيم (١٤٦) و تنحتون من الجبال بيوتاً فارهين (١٤٧) فاتقوا الله و اطيعون (١٤٨) ولا تطيعوا امر المسرفين (١٤٩) الذين يفسدون فى الارض ولا يصلحون (١٥٠) قالوا انما انت من المسحرين (١٥١) وما انت الا بشر مثلنا فائت بآية ان كنت من الصادقين (١٥٢) قال

هذه ناقة لها شرب و لكم شرب يوم معلوم (١٥٥) ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم (١٥٦) فعقروها فأصبحوا نادمين (١٥٧) فأخذهم العذاب ان في ذلك لاية و ما كان اكثرهم مؤمنين (١٥٨) وان ربك لهو العزيز الرحيم (١٥٩) .

و اعلم أنّ صالحاً عليه السلام خاطب قومه بأمور :

أحدها قوله : [أتتركون فيما ههنا آمنين] أي أتظنّون أنّكم تتركون فيما أعطاكم الله من الخير في هذه الدنيا آمنين من الزوال والموت والعذاب أي لايبقى ما أنتم فيه من النعم و إنّها ستزول عنكم . ثمّ عدّد بعض نعمهم الّتي كانوا فيها فقال : [في جنّات] أي بساتين مستورة بالشجر [و عيون] جارية [و زروع و نخل طلعها هضيم] و الطلع هو الّذي يطلع من النخلة كنصل الصيف في خوخة شماريخ ، والهضيم اللطيف وقيل : معنى الهضيم ههنا النضيج أي نخل قد أرطب ثمره وأصلح .

والثاني قوله [وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين] أي تنحتون وأنتم نشّاط و أقوياء .

وثالثها قوله : [فاتّقوا الله] في مخالفته [وأطيعون]فيما آمركم به ثمّ [لاتطيعوا أمر المسرفين] من رؤسائكم وهم تسعة رهط من ثمود عقروا الناقة ثمّ وصفهم فقال : [الّذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون] فإن قيل:ما فائدة قوله «ولا يصلحون»؟ فالمراد أنّ فسادهم خالص من الصلاح .

ثمّ إنّ القوم أجابوه [قالوا إنّما أنت من المسحّرين] والمسحّر هو الّذي سحر كثيراً حتّى غلب على عقله . وقيل:المعنى من المسحّرين أي من له بطن يأكل و يشرب وحاصل المعنى أنّك تأكل كما نأكل وتشرب كما نشرب فلمَ صرت أولى منّا بالنبوّة ؟ [ما أنت إلّا بشر مثلنا] أو من مثلنا [فائت بآية] بمعجزة يدلّ على صدقك [إن كنت من الصادقين* قال هذه ناقة] و هي الناقة الّتي أخرجها الله من الصخرة عشراء ترغو[1] على ما اقترحوه روي أنّهم قالوا : نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة فتلد سقباً فقعد صالح يتفكّر فقال له جبرئيل : صلّ ركعتين و سل ربّك الناقة ، ففعل فخرجت الناقة وبركت بين

(١) الاية : ٢٢ .

أيديهم وحصل لها سقب مثلها في العظم .

و وصّاهم صالح بأمرين : الأوّل قوله : [لها شرب ولكم شرب يوم معلوم] وقرىء شرب بالضمّ، وكانت الناقة يوم شربها شربت ماءهم كلّه ويوم شربهم لاتشرب هي . والثاني من وصيّة صالح لهم قوله : [ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم] أي لاتصيبوها بضرب أو عقر أو إيذاء فحينئذ يأخذكم عذاب عظيم و « عظيم » صفة العذاب أوصفة اليوم بحلول العذاب فيه . حكي أنّهم عقروها . روي أنّ مصدعاً ألجأها إلى مضيق فرماها بسهم فسقطت ثمّ ضربها قدار بن سالف .

قوله : [فعقروها فأصبحوا نادمين] فإن قيل : لمَ أخذهم العذاب و قد ندموا ؟ فالجواب من وجهين : الأوّل : أنّه لم يكن ندمهم ندم التائبين لكن ندم الخائفين من العذاب العاجل . الثاني : أنّ الندم وإن كان ندم التائبين ولكن كان ذلك في غير وقت التوبة بل عند معاينة العذاب و قال الله تعالى : « وليست التوبة للّذين يعملون السيّئات » الآية[1] .

[فأخذهم العذاب إنّ في ذلك لآية و ما كان أكثرهم مؤمنين] والألف واللام في العذاب إشارة إلى عذاب يوم عظيم .

قوله تعالى : كذب قوم لوط المرسلين (١٦٠) اذ قال لهم اخوهم لوط الا تتقون (١٦١) انى لكم رسول امين (١٦٢) فاتقوا الله وأطيعون (١٦٣) و ما أسألكم عليه من اجر ان اجرى الا على رب العالمين (١٦٤) أتاتون الذكران من العالمين (١٦٥) و تذرون ما خلق لكم ربكم من ازواجكم بل أنتم قوم عادون (١٦٦) قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين (١٦٧) قال انى لعملكم من القالين (١٦٨) رب نجنى و اهلى مما يعملون (١٦٩) فنجيناه و اهله أجمعين (١٧٠) الاعجوزاً فى الغابرين (١٧١) ثم دمرنا الاخرين (١٧٢) وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين (١٧٣) ان فى ذلك لاية وماكان أكثرهم مؤمنين (١٧٤) وان ربك لهو العزيز الرحيم (١٧٥)

هذه هي القصّة السادسة : شرح سبحانه تكذيب قوم لوط نبيّهم و الأنبياء لأنّ من كذّب نبيّاً كذّب تمام الأنبياء و بلّغ لوط قومه ما بلّغ الأنبياء قبله مثل نوح و

---

(١) النساء : ١٧ .

هود وصالح فلم يقبلوا منه ثمّ قال لهم ووبّخهم على الأمر القبيح فقال : اخترتم الذكران من الناس و تركتم أزواجكم الّتي خلقها الله [من أزواجكم] يمكن أن يكون « من » للتبيين لما خلق و أن يكون للتبعيض ويراد بما خلق العضو المباح منهنّ و المعنى : أتركبون هذه المعصية العظيمة [بل أنتم قوم عادون] في جميع المعاصي فهذه المعصية من جملة ذاك ، أو المعنى : أنتم أحقّاء بأن توصفوا بالعدوان والتجاوز من الحدود .

فقالوا له : [لئن لم تنته يا لوط لتكوننّ من المخرجين] أي إذا ما انتهيت من نهيك لتكوننّ في جملة من أخرجناه من بلدنا و لعلّهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوء الأحوال .

فقال لهم لوط : [إنّي لعملكم من القالين] القلي البغض الشديد كأنّه بغض يقلي الفؤاد والكبد وهذا القول أبلغ من أن يقول : أنا لعملكم قال ، أي من الكاملين في قلاكم و بغضكم .

ثمّ قال تعالى : [فنجّيناه وأهله] من عقوبة عملهم [إلّا عجوزاً في الغابرين] و أراد سبحانه بالعجوز امرأة لوط لأنّها كانت تدلّ على أهل القرية بالفساد على الأضياف فكانت من الباقين في العذاب و هلكت فيما بعد مع من خرج من القرية بما أمطره الله من الحجارة والغابر الباقي في قلّة كالتراب الّذي يذهب بالكنس فيبقى غباره والغبر بقيّة من اللبن في الأخلاف قال الحارث بن حلّزة :

لا تكسع الشول بأغبارها ❊ إنّك لا تدري من الناتج

والمراد من الأهل أهليّة الزواج لا الشركة في الدين .

قوله : [ثمّ دمّرنا الآخرين] أهلكناهم بالخسف وقيل : بالانقلاب ثمّ أمطر على من كان غائباً منهم بالحجارة من السماء وهو قوله: [وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين] أي بئس و اشتدّ مطر الكافرين مطرهم والمخصوص بالذّم محذوف وهو مطرهم .

وههنا تحقيق وهو أنّ قوله تعالى : « و تذرون ما خلق لكم ربّكم من أزواجكم » تدلّ على بطلان الجبر لأنّه لا يقال : تذرون إلاّ مع القدرة على خلافه و لذلك لا يقال للمرء : لمَ تذر الصعود إلى السماء ؟ كما يصحّ أن يقال له : لمَ تذر الدخول والخروج .

ثمّ إنّ الله سبحانه قال : « ما خلق لكم » ولو كان خلق الفعل لله لكان الّذي خلق لهم ما عاقبهم و ما كانوا ملومين بقوله : « بل أنتم عادون » لأنّه تعالى إن كان خلق فيهم ما كانوا يعملون فكيف ينسبون إلى أنّهم تعدّوا ؟ وهل يقال للأسود : إنّك متعدّ في لونك؟ إذ هو في اللون مقهور لأنّه وضع السواد في جسمه ولايلومه أحد في سواده انتهى .

قوله تعالى : كذب أصحاب الايكة المرسلين (١٧٦) اذ قال لهم شعيب الا تتقون (١٧٧) انى لكم رسول امين(١٧٨) فاتقوا الله وأطيعون (١٧٩) و ما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين (١٨٠) أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين (١٨١) وزنوا بالقسطاس المستقيم (١٨٢) ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الارض مفسدين (١٨٣) واتقوا الذى خلقكم والجبلة الاولين (١٨٤) قالوا انما انت من المسحرين(١٨٥) وما انت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين (١٨٦) فأسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين (١٨٧) قال ربي اعلم بما تعملون (١٨٨) فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم (١٨٩) ان فى ذلك لاية وما كان اكثرهم مؤمنين (١٩٠) وان ربك لهو العزيز الرحيم (١٩١) .

المعنى : ثمّ أخبر سبحانه عن أصحاب الأيكة الّذين بعث إليهم شعيب و ماكانوا من قومه ولذلك ما قال: أخوهم شعيب ، وكان شعيب أخامدين اُرسل إليهم و إلى أصحاب الأيكة و قرىء بدون الألف واللام . و بالجملة الأيكة الغيضة الملتفّة بالشجر ، وقيل : شجرهم كان شجر المقل فأمرهم شعيب بأشياء :

أحدها قوله : [أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين] و ذلك لأنّ الكيل على ثلاثة أضرب واف و زائد و طفيف فأمر بالواجب الّذي هو الإيفاء و نهى عن المحرّم الّذي هو التطفيف بقوله : « ولا تكونوا من المخسرين » و لم يذكر الزائد لأنّه إن لم يفعلوا فلا إثم عليهم و بعد أن أمر بالإيفاء بيّن أنّه كيف يفعل فقال : [وزنوا بالقسطاس المستقيم] و قرىء مضموماً و مكسوراً في القاف وهو الميزان ، وقيل : القرسطون .

الثاني قوله : [ولا تبخسوا الناس أشياءهم] أي لا تمنعوا حقوقهم ولا تنقصوها .

الثالث : [ولا تعثوا في الأرض مفسدين] والعثي أشدّ الفساد بالخراب نحو قطع الطريق والغارة وإهلاك الزرع و كانوا يفعلون ذلك مع توليتهم أنواع الفساد .

الرابع : [و اتّقوا الّذي خلقكم والجبلّة الأوّلين] و قرئ الجبلّة بوزن اُبلّة والمراد : اتّقوا الربّ الّذي خلقكم وخلق الخلقة المتقدّمة عليكم ممّن لولا خلقهم لما كنتم مخلوقين .

فأجابوا [قالوا إنّما أنت من المسحّرين * و ما أنت إلّا بشر مثلنا] مرّ تفسيره قبيل هذه [وإن نظنّك لمن الكاذبين] أي و إنّا نظنّك كاذباً من جملة الكاذبين و « إن» هذه مخفّفة من المثقّلة ولذلك لزمها اللام في الخبر [فأسقط علينا كسفاً من السماء] أي قطعة من السماء أي السحاب ، وهم إنّما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه فظنّوا أنّه إذا لم يقع ظهر كذبه .

فعنده قال شعيب : [ربّي أعلم بما تعملون] وفوّض الأمر إلى الله فلمّا استمرّوا على التكذيب أنزل الله عليهم العذاب على نحو ما اقترحوا من عذاب الظلّة ، روي أنّه حبس عنهم الريح سبعاً وغشيتهم سحابة فلمّا خرجوا إليها طلباً للبرد من شدّة الحرّ أمطرت عليهم ناراً فأحرقتهم فكان من أعظم الأيّام في الدنيا عذاباً و ذلك قوله [إنّه كان عذاب يوم عظيم] ومعنى الظلّة ههنا السحابة الّتي أظلّتهم .

و انه لتنزيل رب العالمين (١٩٣) نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين (١٩٤) بلسان عربى مبين (١٩٥) و انه لفى زبر الاولين (١٩٦) اولم تكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل (١٩٧) ولو نزلناه على بعض الاعجمين (١٩٨) فقرأه عليهم ماكانوا به مؤمنين (١٩٩) كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين (٢٠٠) لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم (٢٠١) فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون (٢٠٢) فيقولوا هل نحن منظرون (٢٠٣) افبعذابنا يستعجلون (٢٠٤) افرأيت ان متعناهم سنين (٢٠٥) ثم جاءهم ماكانوا يوعدون (٢٠٦) ما اغنى عنهم ماكانوا يمتعون (٢٠٧) و ما اهلكنا من قرية الا لها منذرون (٢٠٨) ذكرى وما كنا ظالمين (٢٠٩) وما تنزلت به الشياطين (٢١٠) وما ينبغى لهم وما يستطيعون (٢١١) انهم عن السمع لمعزولون (٢١٢) .

ثمّ بيّن سبحانه أمر القرآن بعد قصص الأنبياء المذكورين و اتّصل بها حديث نبيّنا فقال :

[و إنّه لتنزيل ربّ العالمين] أي إنّ القرآن منزل من ربّ العالمين [نزل] الله بالقرآن [الروح الأمين] يعني جبرئيل و هو أمين الله لا يغيّره ولا يبدّله وسمّاه روحاً لأنّه يحيي به الدين أو يحيي به الأرواح بما ينزل من البركات أو لأنّه جسم روحانيّ [على قلبك] يا محمّد لأنّ الله يسمعه جبرئيل فيحفظه و ينزل جبرئيل به على الرسول و يقرؤه على النبيّ ﷺ فيحفظه بقلبه و هذا معنى : « نزل به الروح الأمين على قلبك » ، وجعل الله قلبه و عاءً له [لتكون من المنذرين] لتخوّف به الناس و تنذرهم بآيات الله .

[بلسان عربيّ مبين] بلغة العرب مبين للناس ما بهم إليه الحاجة في دينهم و إنّما جعله عربيّاً لأنّ المنزّل عليه عربيّ ولأنّه تحدّى بفصاحته العرب،وقد تضمّنت هذه الآية تشريف هذه اللغة ولذلك اختارها لأهل الجنّة .

[و إنّه لفي زبر الأوّلين] أي في كتب الأوّلين ذكر القرآن و خبره على وجه البشارة به و بمحمّد لا بمعنى أنّ الله أنزله على غير محمّد ﷺ وقيل : معنى الآية أنّه أنزل على سائر الأنبياء من الدعاء إلى التوحيد والعدل والاعتراف بالبعث مثل الّذي نزل في القرآن .

قوله : [أولم تكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل] المراد من الآية ذكر الحجّة على نبوّة محمّد ﷺ وتقريره أنّ جماعة من علماء بني إسرائيل أسلموا و نصّوا على مواضع في التوراة والإنجيل ذكر سبحانه فيها الرسول ﷺ . بصفته ونعته وقد كان مشركو قريش يذهبون إلى اليهود و يتعرّفون منهم هذا الخبر ، و هذا دليل ظاهر على نبوّته لأنّ تطابق الكتب الإلهيّة على نعته و صفته دليل قطعيّ على نبوّته . و قرىء « يكن » بالتذكير و « آية » بالنصب على أنّها خبره فحينئذٍ «أن يعلمه » اسمه و قرىء « تكن » بالتأنيث و « آية » اسمه و « أن يعلمه » خبره .

قوله : [ولو نزّلناه على بعض الأعجمين * فقرأه عليهم ماكانو به مؤمنين] القميّ

عن الصادق عليه السلام: لو نزّلنا القرآن على العجم ما آمنت به العرب لفرط استنكاف العرب من اتّباع العجم و قد نزل على العرب فآمنت به العجم. أقول: فهذه فضيلة العجم.

و قال الرازيّ: يعني إنّا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربيّ بلسان عربيّ مبين فسمعوه و فهموه و عرفوا فصاحته و أنّه معجز لا يعارض بكلام مثله و انضمّ إلى ذلك بشارة كتب الله السالفة به فلم يؤمنوا و جحدوه و سمّوه شعراً تارة و سحراً أُخرى فلو نزّلناه على بعض الأعجمين الّذي لايحسن العربيّة لكفروا به أيضاً لجحودهم و استنكافهم لاتّباع العجم لكنّا أنزلناه على أفصح رجل منهم من أشرف بيت ليدّبّروا فيه و ليكون أدعى إلى اتّباعه و تصديقه و مع ذلك ما آمنوا به.

قوله تعالى: [كذلك سلكناه في قلوب المجرمين] أي كما أنزلنا القرآن مبيّناً و واضحاً أمررناه و أدخلناه في قلوب الكافرين بأن أمرنا نبيّنا حتّى قرأه عليهم وبيّنه لهم و فهموا فصاحته ومعانيه وأنّه خارج عن القوى البشريّة حيث لم يأتوا بمثله من حيث النظم و من حيث الإخبار بالغيب و انضمام تصديق علماء بني إسرائيل.

قوله: [لا يؤمنون به حتّى يروا العذاب الأليم] جملة مستأنفة أي مع ذلك لا يتأثّرون بأمثال تلك الأُمور ولا يؤمنون به حتّى يعاينوا العذاب الأليم الملجئ إلى الإيمان حتّى لا ينفعهم [فيأتيهم] العذاب [بغتة] فجأة [وهم لايشعرون] بمجيئه [فيقولوا هل نحن منظرون] فيقولون تحسّراً و تأسّفاً أي هل مؤخّرون لنؤمن و لنصدّق كما يستغيث المرء عند تعذّر الخلاص، وإنّهم علموا أن لاملجأ لهم.

قوله: [أفبعذابنا يستعجلون] لمّا أوعدهم النبيّ صلى الله عليه وآله بالعذاب استعجلوا العذاب تكذيباً له فقال الله سبحانه: « أفبعذابنا يستعجلون » و استعجالهم بقولهم « أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم [١]» وقولهم «فائتنا بما تعدنا [٢]» ونحوهما، هذا كان قولهم و حالهم عند نزول العذاب طلبوا النظرة.

ثمّ قال سبحانه: [أفرأيت إن متّعناهم سنين * ثمّ جاء هم ماكانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتّعون] ثمّ بيّن تعالى أنّ استعجال العذاب على وجه التكذيب

---

(١) الانفال: ٣٢. (٢) الاعراف: ٦٩.

إنّما يقع منهم ليتمتّعوا في الدنيا إلّا أنّ ذلك جهل منهم لأنّ مدّة التمتّع في الدنيا متناهية قليلة و مدّة العذاب غير متناهية و ليس بجائز ترجيح لذّات متناهية قليلة على آلام غير متناهية .

عن ميمون بن مهران : أنّه لقي بعض الأكابر في الطواف فقال له : عظني ، فلم يزد على تلاوة هذه الآية ، فقال ميمون : لقد وعظت فأبلغت .

و حاصل معنى الآية: لم يغن عنهم تمتّعهم المتطاول في دفع العذاب و تخفيفه . في الكافي عن الصادق عليه السلام قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وآله في منامه بني اُميّة يصعدون منبره من بعده يضلّون الناس عن الصراط إلى القهقرى فأصبح كئيباً حزيناً فهبط جبرئيل فقال : يارسول الله مالي أراك حزيناً ؟ قال صلى الله عليه وآله : يا جبرئيل إنّي رأيت بني اُميّة في ليلتي هذه يصعدون منبري من بعدي يضلّون الناس عن الصراط ، فقال : والّذي بعثك بالحقّ نبيّاً إنّ هذا شيء ما اطّلعت عليه ، فعرج إلى السماء فلم يلبث أن نزل عليه بآيتين من القرآن يؤنسه بهما والآية الأولى هذه «أفرأيت» والثانية «إنّا أنزلناه في ليلة القدر» حيث جعل الله ليلة القدر لنبيّه خيراً من ألف شهر ملك بني اُميّة .

و بالجملة أرأيت و أبصرت إن أنظرناهم و أخّرناهم سنين و متّعناهم بشيء من حطام الدنيا ثمّ أتاهم العذاب لم يغن عنهم ما متّعوا به في تلك السنين من النعيم لازديادهم في الآثام و اكتسابهم من المعاصي وهو استفهام في معنى التقرير .

قوله : [و ما أهلكنا من قرية إلّا لها منذرون] أي نهلكهم بعد إقامة الحجّة عليهم بتقديم الإنذار و إرسال الرسل . قوله : [ذكرى و ما كنّا ظالمين] أي أنذرناهم تذكرة ، وأنذر و ذكر متقاربان كأنّه قيل : مذكورون تذكرة ، ولسنا ظلمنا هم بإصرارهم على الكفر والعناد .

و هذه الآية تكذيب لمن زعم أنّ كلّ ظلم و كفر في الدنيا وهو من خلقه وإرادته ، و غاية الظلم أن يعاقب عباده على شيء هو خلقه فيهم و أراده منهم ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً .

قوله تعالى : [و ما تنزّلت به الشياطين * وما ينبغي لهم و ما يستطيعون] كان

الكفّار يقولون : لم لايجوز أن يكون القرآن من إلقاء الجنّ والشياطين كسائر ماينزل على الكهنة من جانب الشياطين ؟ فأجاب الله سبحانه بأنّ ذلك لا يتسهّل للشياطين لأنّهم مرجومون بالشهب ممنوعون عن ذلك معزولون عن استماع كلام أهل السماء .

فلو قيل : إنّ قبول امتناع الشياطين لا يحصل إلّا بواسطة قول النبيّ والقرآن وهم لم يقبلوا هذا الأمر بأنّه صادق فيما ادّعى فكيف بهذا الدليل ؟

فالجواب أنّ العلم بكون الشياطين ممنوعين عن ذلك ليس منحصراً بإخبار النبيّ حتّى يقع الدور بل نحن نعلم بالضرورة أنّ الاهتمام بشأن الصديق أقوى من الاهتمام بشأن العدوّ ، و أيضاً نحن نعلم بالضرورة أنّ محمّداً ﷺ كان يلعن الشياطين كما أنّ كتابه ينطق بلعنه وكان ﷺ يأمر الناس بلعنهم فلو كان هذا الغيب إنّما حصل من إلقاء الشياطين لكان الكفّار أولى بأن يحصل لهم هذا الغيب و هذا العلم فكان يجب اقتدارهم على مثل هذا الغيب و مثل هذا البيان أولى فلمّا لم يكن كذلك علمنا أنّ الشياطين ممنوعون عن ذلك و أنّهم معزولون عن تعرّف الغيوب .

قوله تعالى : فلا تدع مع الله الهاً آخر فتكون من المعذبين (٢١٣) و أنذر عشيرتك الاقربين (٢١٤) واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين (٢١٥) فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون (٢١٦) و توكل على العزيز الرحيم (٢١٧) الذي يريك حين تقوم (٢١٨) و تقلبك في الساجدين (٢١٩) انه هو السميع العليم (٢٢٠) .

خاطب نبيّه والمراد به سائر المكلّفين فقال : [لا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون] بسبب ذلك [من المعذّبين]و إنّما أفرده بالخطاب ليعلم أنّ العظيم الشأن إذا اُوعد فكيف حال من دونه ؟ و هذا لعظم الحكم فإذا حذّر الكبير فغيره أولى بالتحذير .

[و أنذر عشيرتك الأقربين] أي رهطك الأدنين و أنذرهم من غير تليين بالقول، و إنّما خصّهم بالذكر تنبيهاً على أنّه ينذر غيرهم وأنّه لايداهنهم لأجل القرابة ليقطع طمع الأجانب عن المداهنة في الدين ، و اُمر ﷺ بأن يبدأ بهم في الإنذار والدعوة

إلى الله ثمّ بالّذين يلونهم كما قال : « قاتلوا الّذين يلونكم من الكفّار [1] » و كذلك يقتضي حسن الترتيب .

و في الخبر المأثور عن البراء بن عازب أنّه قال : لمّا نزلت هذه الآية جمع رسول الله صلّى الله عليه وآله بني عبدالمطّلب وهم يومئذٍ أربعون رجلاً الرجل منهم يأكل الجذعة أو المسنّة و يشرب العسّ من اللبن . وروي أنّه صلّى الله عليه وآله لمّا نزلت هذه الآية صعد الصفا فنادى الأقرب منه فالأقرب ، و قال : يا بني عبدالمطّلب يا بني هاشم يا بني عبد مناف يا عبّاس عمّ محمّد يا صفيّة عمّة محمّد ! إنّي لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من المال ما شئتم و روي أيضاً أنّه جمع بني عبدالمطّلب وهم يومئذٍ أربعون رجلاً على رجل شاة و قعب من لبن و كان الرجل منهم يأكل الجذعة و يشرب العسّ فأكلوا و شربوا ثمّ قال : يا بني عبدالمطّلب لوأخبرتكم أنّ بسفح هذا الجبل خيلاً أتصدّقوني ؟ قالوا : نعم ، فقال : إنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

و في المجمع : فأمر صلّى الله عليه وآله عليّاً عليه السلام برجل شاة فأدمها ثمّ قال : ادنوا باسم الله فدنا القوم عشرة عشرة فأكلوا حتّى صدروا ثمّ دعا بقعب من لبن فجرع منه جرعة ثمّ قال : اشربوا باسم الله فشربوا حتّى رووا فبدر أبولهب و قال : هذا ما سحركم به الرجل، فسكت صلّى الله عليه وآله يومئذٍ ولم يتكلّم ثمّ دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام و الشراب ثمّ أنذرهم صلّى الله عليه وآله فقال : يا بني عبدالمطّلب إنّي أنا النذير إليكم من الله والبشير فأسلموا وأطيعوني تهتدوا ثمّ قال : من يؤاخيني و يؤازرني و يكون وليّي و وصيّي بعدي و خليفتي في أهلي و يقضي ديني ؟ فسكت القوم فأعادها ثلاثاً كلّ ذلك فسكت القوم و يقول عليّ عليه السلام أنا ، فقال في المرّة الثالثة : أنت ، فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب : أطع ابنك فقد اُمّر عليك ، أورده الثعلبيّ في تفسيره .

وروي عن أبي رافع أنّه صلّى الله عليه وآله جمعهم في الشعب و صنع لهم رجل شاة فأكلوا حتّى تضلّعوا و سقاهم عسّاً فشربوا كلّهم حتّى رووا ثمّ قال : صلّى الله عليه وآله إنّ الله أمرني أن اُنذر عشيرتي الأقربين و أنتم عشيرتي و رهطي ، و إنّ الله لم يبعث نبيّاً إلّا جعل له من أهله أخاً و وزيراً ووصيّاً و خليفةً في أهله فأيّكم يقوم ويبايعني على أنّه أخي ووارثي

(١) التوبة : ١٢٤ .

و وزيري و يكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي فسكت القوم فقال: ليقومنّ قائمكم أو ليكوننّ في غيركم ثمّ لتندمنّ ثمّ أعاد الكلام ثلاث مرّات، فقام عليّ عليه السلام فبايعه و أجابه ثمّ قال ادن منّي فدنا منه ففتح فاه و مجّ في فيه من ريقه وتفل بين كتفيه وثندوتيه فقال عليه السلام أبولهب: فبئس ماحبوت به ابن عمّك أن أجابك فملأت فاه و وجهه بذاقاً فقال صلّى الله عليه وآله: ملأته حكمة و علماً.

وعن ابن عبّاس قال: لمّا نزلت الآية صعد رسول الله على الصفا فقال: يا صباحاه! فاجتمعت قريش فقالوا: مالك؟ فقال: أرأيتكم إن أخبرتكم أنّ العدوّ مصبحكم أو ممسيكم ما كنتم تصدّقوني؟ قالوا: بلى، قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد، قال أبولهب: تبّاً لك ألهذا دعوتنا جميعاً؟ فأنزل الله «تبّت يدا أبي لهب» إلى آخر السورة.

قوله: [واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين] أي ألن جانبك و تواضع لهم وحسّن أخلاقك معهم [فإن عصوك] يعني أقاربك إن عصوك بعد الإنذار وخالفوك فيما تدعوهم إليه [فقل لهم إنّي بريء ممّا تعملون] من أعمالكم القبيحة وعبادتكم الأصنام.

[وتوكّل على العزيز الرحيم] أي فوّض أمرك إلى العزيز المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه يكفيك كيد أعدائك [الّذي يراك حين تقوم] الّذي يبصرك حين تقوم من مجلسك أو فراشك إلى الصلاة وحدك أو في الجماعة. وقيل: المراد بالقيام للصلوات فقط، أو حين تقوم للإنذار و أداء الرسالة [و تقلّبك في الساجدين] أي ويرى تصرّفك بالركوع و السجود والقيام والقعود. وقيل: المراد انتقالك في أصلاب الموحّدين من نبيّ إلى نبيّ حتّى أخرجك نبيّاً، وهو المرويّ عن أبي جعفر و أبي عبدالله عليهما السلام قالا: في أصلاب النبيّين نبيّ بعد نبيّ حتّى أخرجه من صلب أبيه من نكاح غير سفاح من لدن آدم عليه السلام [إنّه هو السميع العليم] يسمع ما تتلو في صلاتك و يعلم ما تضمر فيها.

قوله: هل انبئكم على من تنزل الشياطين (٢٢١) تنزل على كل أفاك أثيم (٢٢٢) يلقون السمع و اكثرهم كاذبون (٢٢٣) والشعراء يتبعهم الغاون (٢٢٤) الم تر أنهم في كل واد يهيمون (٢٢٥) وانهم يقولون مالا يفعلون (٢٢٦) الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات و ذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون (٢٢٧).

لمّا أخبرالله أنّ القرآن ليس ممّا ينزل الشياطين و إنّه وحي من الله عقّبه بذكر من تنزّل عليه الشياطين فقال : [هل اُنبّئكم على من تنزّل الشياطين تنزّل على كلّ كذّاب فاجر عامل بالمعاصي وهم الكهنة ، وقيل : طليحةومسيلمة . ولست بكذّاب أنت يا محمّدولا أثيم فلا يتنزّل عليك الشياطين وإنّما يتنزّل عليك الملائكة .

[يلقون السمع] معناه : إنّ الشياطين يلقون ما يسمعونه إلى الكهنة و يخلطون به كثير من الأكاذيب و يوحونه إليهم [و أكثرهم] و أكثرالكهنة أو أكثر الشياطين [كاذبون] قيل : هم الّذين يسترقون السمع من الملائكة فيلقون إلى الكهنة ، وهذا قبل أن اُوحي إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله و بعد ذلك«فمن يستمع الآن يجدله شهاباً رصداً»[1] .

قوله : [والشعراء يتّبعهم الغاوون] قال ابن عبّاس : يريد شعراء المشركين . وذكر مقاتل أسماءهم فقال : منهم عبد الله بن الزبعرى والسهميّ و أبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطّلب وهبيرة بن وهب المخزوميّ ومنافع بن عبدمناف الجمحيّ وأبوغرّة عمرو بن عبدالله كلّهم من قريش واُميّة بن أبي الصلت الثقفيّ تكلّموا بالكذب وقالوا : نحن نقول مثل ما قال محمّد ، و قالوا الشعر ، واجتمع إليهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم ويروون عنهم حين يهجون النبيّ صلّى الله عليه وآله وأصحابه بالشعر فذلك قوله تعالى : «يتّبعهم الغاوون» أي الضالّون .

وقيل : أراد بالشعراء الّذين غلبت عليهم الأشعار حتّى اشتغلوا بها عن القرآن والسنّة . و قيل : هم الشعراء الّذين إذا غضبوا سبّوا و إذا قالوا كذبوا والشعر يدعوه إلى الكذب ووصف الإنسان بما ليس فيه من الفضائل والرذائل . وقيل : إنّهم القصّاصون الّذين يكذبون في قصصهم و يقولون ما يخطر ببالهم . وفي تفسير عليّ بن إبراهيم : إنّهم الّذين يغيّرون دين الله و يخالفون أمره . وروى العيّاشيّ بالإسناد عن أبي عبدالله عليه السلام قال : هم قوم تعلّموا و تفقّهوا بغير علم فضلّوا و أضلّوا .

قوله تعالى : [ألم تر أنّهم في كلّ واد يهيمون] أي في كلّ فنّ من الكذب يتكلّمون و في كلّ حديث يخوضون : يمدحون بالباطل ويذمّون بالباطل ، وهذا المعنى المراد من هيمانهم كالبهائم من أقاويلهم اللغويّة والغلوّ في المدح والذمّ [و إنّهم يقولون

(١) الجن : ٩ .

مالا يفعلون] أي يحثّون على أشياء لا يفعلونها و ينهون عن أشياء يرتكبونها .

ثمّ استثنى من جملتهم فقال : [إلّا الّذين آمنوا وعملوا الصالحات] و هم شعراء المؤمنين مثل عبدالله بن رواحة و كعب بن مالك و حسّان بن ثابت و سائر شعراء المؤمنين الّذين مدحوا النبيّ ﷺ وردّوا هجاء من هجاه وأتوا بأشعار الحكمة كقولهم [١]:

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل * و كلّ نعيم لا محالة زائل

و لمّا وصف الله تعالى الشعراء بهذه الأوصاف الخسيسة بأنّهم يرغّبون النا س بالجود وهم يرغبون عنه ، و ينفّرون عن البخل وهم مصرّون عليه ، وبيّن أنّ محمّداً ﷺ على خلاف ذلك وأنّه دعا الناس بتوحيد الله ثمّ دعا بالأقرب فالأقرب من عشيرته و كلّ ذلك على خلاف طريقة الشعراء ، وقدح الشعراء بأنّهم يقولون مالا يفعلون فاستثنى عنهم الموصوفين بهذه الصفات الأربع و هوقوله : «إلّا الّذين آمنو» . والثاني : العمل الصالح . والثالث . [و ذكروا الله كثيراً] أن يكون شعرهم في التوحيد والنبوّة ودعوة الخلق إلى الحقّ أولم يشغلهم الشعر عن ذكر الله . والرابع أن لايذكروا هجواً واحداً [وانتصروا] من المشركين للرسول وللمؤمنين أي و ردّوا على المشركين ماكانوا يهجون به رسول الله والمؤمنين [من بعد ما ظلموا] وهو كقوله : «لا يحبّ الله الجهر بالسوء إلّا من ظلم [٢]» .

ثمّ هدّد الظالمين بقوله تعالى : [فسيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون] أي سوف يعلم الّذين يظلمون الرسول والمؤمنين أيّ مرجع يرجعون من النار وإنّ منصرفهم إلى النار . تمّت السورة بحمدالله .

---

(١) البيت من لبيد بن ربيعة .

(٢) النساء : ١٤٧ .

سورة النمل

(مكية)

فضلها :قال أُبيّ بن كعب : قال رسول الله ﷺ : من قرأ «طس» كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بسليمان و كذّب به وهود وشعيب وصالح و إبراهيم ويخرج من قبره وهو ينادي : لا إله إلّا الله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طس تلك آيات القرآن و كتاب مبين (١) هدى و بشرى للمؤمنين (٢) الذين يقيمون الصلوة و يؤتون الزكوة وهم بالاخرة هم يوقنون (٣) ان الذين لا يؤمنون بالاخرة زينا لهم اعمالهم فهم يعمهون (٤) اولئك الذين لهم سوء العذاب و هم في الاخرة هم الاخسرون (٥) و انك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم (٦) اذ قال موسى لاهله انى آنست ناراً سآتيكم منها بخبر اوآتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون (٧) فلما جاء ها نودى ان بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين (٨) يا موسى انه انا الله العزيز الحكيم (٩) والق عصاك فلما رآها تهتز كانها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى لاتخف انى لايخاف لدى المرسلون (١٠) .

[طس] مرّ بيانه في المقطّعات و الرموز ، عن الصادق معناه : أنا الطالب المتمتّع [تلك آيات القرآن و كتاب مبين] تلك إشارة إلى ما وعدوا به من القرآن ومجيئه إضافة الآيات إلى القرآن وآيات القرآن هي القرآن فهو كقوله « إنّه لحقّ اليقين[1] » والقرآن والكتاب معناهما واحد وصفه بالصفتين ليفيد أنّه ممّا يظهر بالقراءة ويظهر بالكتابة وهو تارة بمنزلة الناطق وغير الناطق بما فيه من الأمرين ووصفه بقوله«مبين»تشبيهاً له بالناطق بكذا من البيان أي إنّ الله بيّن فيه أمره ونهيه وحلاله وحرامه ، والبيان هو الدالّة الّتي تبيّن بها الأشياء و المبين المظهر لذلك .

[هدىً و بشرى للمؤمنين] أي هدىً من الضلالة إلى الحقّ بالبيان الّذي فيه وباللطف فيه من جهة الاستحكام و الإعجاز و بشارة للمؤمنين بالجنّة والثواب ، ويجوز بالنصب على الحاليّة أي هادياً ومبشّراً و بالرفع على الخبريّة أي هو هدىً وبشرى

(١) الحاقة : ٥١ .

ثمّ وصف المؤمنين فقال سبحانه : [الّذين يقيمون الصلاة] بحدودها و واجباتها وأوقاتها [ويؤتون الزكاة] ويخرجون ما يجب عليهم من أموالهم إلى من يستحقّها [وهم بالآخرة] بالنشأة الآخرة والبعث والجزاء [هم يوقنون] ولا يشكّون ، فيه وتكرار الضمير لأنّ الجملة اعتراضيّة كأنّه قيل : وهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإتيان بالأعمال الصالحة هم الموقنون بالآخرة هم المؤمنون حقّ الإيمان ومهتدون بالقرآن .

ثمّ وصف من خالفهم قال سبحانه : [إنّ الّذين لا يؤمنون بالآخرة زيّنّا لهم أعمالهم فهم يعمهون] اختلف في معناه فقيل : المراد : إنّا زيّنّا لهم أعمالهم بأن جعلناها محبوبة لأنفسهم فهم يعمهون عنها و يتحيّرون عنها ولايدر كون مايتبعها أي زيّنّا أعمالهم الّتي أمرناهم بها بأحسن الوجوه والترغيب فهم يتحيّرون بالذهاب عنها ، عن الحسن والجبّائيّ وأبي مسلم . وقيل : معناه : زيّنّا لهم أعمالهم بأن خلقنا فيهم شهوته القبيحة الداعية إلى فعل المعاصي ليجتنبوا المشتهي فهم عن هذا المعنى يعمهون ويتردّدون في الحيرة . وقيل : معناه : حرمناهم التوفيق عقوبة على كفرهم فتزيّنت أعمالهم في أعينهم و حليت في صدورهم .

[اُولئك الّذين لهم سوء العذاب] وشدّته وصعوبته [وهم في الآخرة هم الأخسرون] أي لا أحد أخسر صفقة منهم لأنّهم يخسرون الثواب ويحصل لهم بدلاً منه العقاب .

[و إنّك] يا محمّد [لتلقّى القرآن] أي لتعطى [من لدن حكيم] في أمره [عليم] بمصالح خلقه ، وقوله «عليم» مبالغة في أنّه عالم ويفيد أنّه متى يصحّ معلوم فهو عالم كما أنّ سميعاً يفيد أنّه متى وجد مسموع فهو سامع له .

قوله : [إذ قال موسى لأهله] أي اذكر قصّة موسى حين قال لامرأته وهي بنت شعيب : [إنّي آنست ناراً] أي أبصرت وأحسست ناراً ، ومنه اشتقاق الإنس لأنّ المأنوس به مرئيّ [سآتيكم منها بخبر] أي ألزموا مكانكم لعلّي آتيكم من هذه النار بخبر الطريق لأنّهم كانوا ضلّوا الطريق و كانت ليلة شاتية باردة مظلمة [أو آتيكم بشهاب قبس] وقبس النار المقبوسة أي بشعلة من النار ، والشهاب نور كالعمود من النار و كلّ نور يمتدّ مثل العمود يسمّى شهاباً ، و إنّما قال لامرأته : آتيكم على لفظ خطاب الجمع أقامها

مقام الجماعة بسبب اُنسه معها في الأمكنه الموحشة [لعلّكم تصطلون] أي لكي تستدفئوا بها .

[فلمّا جاء ها] أي جاء موسى إلى المكان الّذي ظنّ أنّها النار وهي نور [نودي أن بورك من في النار من حولها] قال وهب : لمّا رأى موسى النار وقف قريباً منها فرآها تخرج من فرع شجرة خضراء شديدة الخضرة لا تزداد النار إلّا اشتعالاً ولا تزداد الشجرة إلّا خضرة و حسناً فلم تكن تحرق النار الشجرة ولا الشجرة برطوبتها تطفىء النار فعجب منها وأهوى إليها بضغث في يده ليقتبس منها فمالت إليه فخافها فتأخّر عنها ثمّ لم يزل تطمعه و يطمع فيها إلى أن نودي والمراد به نداء الوحي و«إن» هي المفسّرة يعنى القول أي قيل له :أن بورك من في النار و من حولها أي بورك فيمن في النار وهم الملائكة و فيمن حولها يعني موسى ؛ و ذلك أنّ النور الّذي رأى موسى و ظنّ أنّه نار كان فيه ملائكة بهم زجل بالتسبيح و التقديس ومن حولها هو موسى وكان بالقرب منها و لم يكن فيها ، قال : بارك الله على من في النّار و عليك ياموسى .

وقيل : المعنى بورك من في النار سلطانه و برهانه ، وتأيله تبارك من نوّر هذا النور ومن حولها يعني موسى والملائكة . وقيل:معناه : بورك من في طلب النار ، وهو موسى و بحذف المضاف ، وهذا تحيّة من الله لموسى بالبركة كما حيّى إبراهيم عليه السلام بالبركة على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا : «ورحمة الله و بركاته عليكم أهل البيت[1]» .

ثمّ نزّه سبحانه ذاته فقال : [و سبحان الله ربّ العالمين] أي تنزيهاً له عمّا لا يليق بصفاته عن أن يكون جسماً يحتاج إلى جهة أو عرضاً يحتاج إلى محلّ أو يكون ممّن يتكلّم بآلة .

ثمّ أخبر سبحانه عن نفسه و تعرّف إليه بصفاته فقال : [يا موسى إنّه أنا الله العزيز الحكيم] أي إنّ الّذي يكلّمك هو الله العزيز الغالب الّذي لايمتنع عليه شيء الحكيم في أفعاله المحكم لتدابيره والسبب الّذي لأجله بوركت البقعة و بورك من فيها حدوث تكليم الله موسى عليه السلام و وقوع نبوّته في ذلك المكان ولهذا جعل الله أرض الشام موسومة

---

(١) هود : ٧٣ .

بالبركات في قوله « ونجّيناه ولوطاً إلى الأرض الّتي باركنا فيها للعالمين[١]» وحقّت أن تكون كذلك فهي مبعث الأنبياء و مهبط الوحي و كفّلتهم أحياءً وأمواتاً .

قوله تعالى : [وألق عصاك فلمّا رآها تهتزّ] و في الكلام حذف تقديره : فألقاها فصارت حيّة فلمّا رآها متحرّكة تتحرّك كما يتحرّك الجانّ و هو الحيّة الّتي ليست بعظيمة ، و إنّما شبّهها بالجانّ في خفّة حركتها مع أنّها كانت عظيمة أوصارت عظيمة فهاله ذلك حتّى [ولّى مدبراً] ورجع موسى من ورائه [ولم يعقّب] و كلّ راجع معقّب أي هرب ولم يقف ولم يلتفت .

فقال الله سبحانه : [يا موسى لا تخف إنّي لا يخاف لديّ المرسلون] وهذا تسكين من الله لموسى ونهي له عن الخوف يقول : إنّك مرسل و المرسل لا يخاف لأنّي أمرتهم باظهار أمرومعجز فينبغي أن لا يخافوا فيما يتعلّق باظهار ذلك وإلّا فالمرسل قد يخاف لا محالة .

قوله تعالى : الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفوررحيم(١١) و أدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غيرسوء فى تسع آيات الى فرعون وقومه انهم كانوا قوماً فاسقين(١٢) فلماجاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذاسحر مبين(١٣) وجحدوا بها و استيقنتها انفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين (١٤).

وقيل في هذا الاستثناء : إنّه متّصل ، وعلى قول من قال : متّصل محمول على ما يصدر من الأنبياء من ترك الأفضل والأولى وقالوا تعريض لطيف لموسى عليه السلام في وكزه القبطيّ أمّا ما عليه جمل المفسّرين أنّه استثناء منقطع و المعنى : لكن من ظلم نفسه بفعل القبيح من غير المرسلين لأنّ الأنبياء لا يقع منهم قبيح لكونهم معصومين من الذنوب فيكون هذا الاستثناء منقطعاً و إنّما حسن ذلك اجتماع الأنبياء و غيرهم في معنى و هو التكليف .

قوله : [ثمّ بدّل حسناً] وقرىء حسَناً ، أي بدّل توبة وندماً على مافعله من القبيح و

(١) الانبياء : ٧١ .

عزماً على عدم العود [فإني غفور رحيم] أي ساتر لذنبه ورحيم البتة به وقرىء في الآية «ألا من ظلم» بحرف التنبيه فحينئذ بيان مستأنف والكلام جملة معترضة .

[وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء] وأعطاه آية وقد سبق بيانها [في تسع آيات] أي مع تسع آيات أخر أنت مرسل بها إلى فرعون وقومه وكانت الآيات إحدى عشر : ثنتان منها اليد والعصا والتسع الفلق والطوفان والجراد والقمل و الضفادع والدم والطمسة والجدب في بواديهم والنقصان في مزارعهم ولكن الصحيح أن العصا و اليد من التسع والأخيرين واحد والفلق لا يعد منها وفي قوله «أدخل يدك في جيبك» قيل : لأنه كان لموسى عليه السلام مدرعة صوف لا كم لها . وقيل : الجيب القميص لأنه يجاب عنه ويقطع ، أو المعنى : « في تسع آيات » معناه : من تسع آيات أي أظهرهاتين الآيتين من جملة تسع آيات .

[إنهم كانوا قوماً فاسقين] أي خارجين عن طاعة الله إلى أقبح وجوه الكفر .

[فلما جاءتهم آياتنا] أي حججنا ومعجزاتنا [مبصرة] أي واضحة بينة على من أبصر أنها خارجة عن قدرة البشر وهو مثل قوله : «وآتينا ثمود الناقة مبصرة[1]» [قالوا هذا سحر مبين] أي سحر ظاهر .

[وجحدوا بها] وأنكروا المعجزات ولم يقروا بأنها من عندالله ، والباء زائدة قال العجاج: «نضرب بالسيف و نرجو بالفرج » [واستيقنتها أنفسهم] أي عرفوها وعلموها يقيناً بقلوبهم وإنما جحدوها بألسنتهم ظلماً على بني إسرائيل [ظلماً وعلواً] طلباً للعلو و الرتبة وتكبراً عن أن يؤمنوا بما جاء موسى [فانظر] يا محمد أو أيها السامع [كيف كان عاقبة المفسدين] في الأرض بالمعاصي ؟

قوله تعالى : و لقد آتينا داود و سليمان علماً و قالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين (١٥) و ورث سليمان داود و قال يا ايها الناس علمنا منطق الطير واوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين(١٦) وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون (١٧) حتى اذا

---

(١) الاسراء : ٥٩ .

اتوا على وادى النمل قالت نملة يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون (١٨) فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب اوزعنى ان اشكر نعمتك التى انعمت على وعلى والدى وان اعمل صالحاً ترضاه و ادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين (١٩).

المعنى : ثمّ عطف سبحانه على قصّة موسى قصّة داود وسليمان فقال :

[ولقد آتينا داود وسليمان علماً] بالقضاء بين الخلق وبكلام الطير والدوابّ [وقالا الحمدلله الّذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين] أي اختارنا من بين الخلق بأن جعلنا أنبياء والملوك و بالمعجزات الّتي أعطى لنا من إلانة الحديد و تسخير الشياطين و الجنّ والإنس .

[وورث سليمان داود] وفي الآية دلالة على أنّ الأنبياء يورّثون المال كتوريث غيرهم [وقال] سليمان مظهراً لنعم الله : [يا أيّها الناس علّمنا منطق الطير] فإن قيل : كيف : قال علّمنا واُوتينا ، وهو من كلام المتكبّرين ؟ فالجواب أنّ هذه يقال ليهابون الواحد المطاع وقد يتعلّق بتعظيم الملك مصالح .

قال أهل العربيّة : لا يطلق النطق على غير بني آدم وإنّما يقال الصوت لأنّ النطق عبارة عن الكلام ولا كلام للطير إلّا أنّه لمّا فهم سليمان معنى صوت الطير سمّاه منطقاً مجازاً ، و قال عليّ بن عيسى: إنّ الطير كانت تكلّم سليمان معجزة له كما أخبر عن الهدهد ، ومنطق الطير صوت يتفاهم به معانيها على صيغة واحدة بخلاف منطق الناس الّذي يتفاهمون به المعاني على صيغ مختلفة ، و كذلك لانفهم عنها مع طول مصاحبتها ولاتفهم هي عنّا لأنّ أفهامها مقصورة على تلك الاُمور المخصوصة ، ولمّا جعل الله سليمان يفهم عنها كان قد علم منطقها .

[واُوتينا من كلّ شيء] يؤتى الأنبياء والملوك ، و قيل : من كلّ شيء يطلبه طالب لحاجته إليه و انتفاعه به . روى الواحديّ بالإسناد عن محمّد بن جعفر بن محمّد عن أبيه عليه السلام قال اُعطي سليمان بن داود ملك مشارق الأرض ومغاربها فملك سبع مائة سنة وستّة أشهر ملك أهل الدنيا كلّهم من الجنّ والإنس والشياطين والدوابّ والطير والسباع واُعطي علم كلّ شيء ومنطق كلّ شيء و في زمانه صنعت الصنائع العجيبة وذلك قوله تعالى: «علّمنا

منطق الطيروأوتينا من كل شيء » .

[إن هذا لهوالفضل المبين] أي هذا فضل الله الظاهر الذي لا يخفى على أحد و هذا قول سليمان على وجه الشكر و الاعتراف ، و يحتمل من قول الله على وجه الإخبار .

[و حشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير] قال المفسرون :كان سليمان إذا أراد سفراً أمر فجمع له طوائف من هؤلاء أي الجن و الإنس و الطيور على بساط ثم يأمر الريح فتحملهم بين السماء والأرض .

قال محمدبن كعب:بلغناأن سليمان بن داود كان معسكره مائة فرسخ خمسة وعشرون منها للإنس وخمسة و عشرون للجن وخمسة و عشرون للوحش و خمسة و عشرون للطير وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة منكوحة وسبعمائة سرية وقد نسجت له الجن بساطاً من ذهب وأبريسم فرسخاً في فرسخ و كان يوضع منبره في وسطه و هو من ذهب فيقعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب و فضة فيقعد الأنبياء عليهم السلام على كراسي الذهب ، والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين و تظلّه الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس و ترفع ريح الصبا البساط فيسير به مسيرة شهر .

ويروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله و يأمر الرخاء تسيره فأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض:إني قدزدت في ملكك لا يتكلّم أحد بشيء إلا ألقته الريح في سمعك فيحكى أنه مر بحراث فقال : لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً ، فألقته الريح في أذنه فنزل و مشى إلى الحراث وقال : إنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ثم قال سليمان : لتسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير مما أوتي آل داود .

وههنا نكتة و هي أن العمل الصالح ولو تسبيحة كيف يترجح إذا كان مقبولاً عندالله من ملك آل داود مع هذه البسطة التي ما اتفقت لأحد حتى علم أصوات الحيوانات . و يحكى أنه مر على بلبل في شجرة يحرك رأسه و يميل ذنبه فقال سليمان لأصحابه : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : الله و رسوله أعلم ، قال : يقول : إذا أكلت نصف تمرة

فعلى الدنيا العفا . و صاحت فاختة فأخبر أنّها تقول : ليت الخلق لم يخلقوا . و صاح طاووس فقال ، يقول : كما تدين تدان . وصاح هدهد فقال ؛ يقول : استغفروا الله يامذنبين. وصاح طيطوى فقال : يقول : كلّ حيّ ميّت و كلّ جديد بال . و صاح خطّاف فقال : يقول : قدّموا تجدوه . وصاح قمريّ فأخبر أنّه تقول : سبحان ربّي الأعلى . وصاحت رخمةفقال : تقول : سبحان ربّي الأعلى ملء سمائه وأرضه وقال الحداءة: كلّ شيء هالك إلّا الله والقطاة تقول : من سكت سلم . و الببغاء تقول : ويل لمن الدنيا همّه . والديك يقول : اذ كروا الله يا غافلين . والنسر يقول : يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت . و العقاب يقول : في البعد اُنس . والضفدع يقول : سبحان ربّي القدّوس .

قوله : [فهم يوزعون] أي يمنع أوّلهم على آخرهم أي كلّ صنف من جنوده وزعة تردّ أوّلهم على آخرهم ليترتّبوا و يتلاحقوا ولا يتفرّقوا كما أنّ الجيوش يتوزّعون و يترتّبون ولا يختلف نظمهم .

[حتّى إذا أتوا على وادي النمل] أي سارسليمان وجنوده حتّى إذا أشرفوا على واد وهو بالطائف و قيل : هو بالشام [قالت نملة] أي صاحت بصوت خلق الله لها ، ولمّا كان الصوت مفهوماً لسليمان عبّر عنه بالقول ، و قيل كانت النملة رئيسة النمل : [ياأيّها النمل] قرئ بضمّ النون والميم و قرئ بضمّ الميم و كان الأصل النمل بوزن الرجل لكنّ الاستعمال النمل كالنحل تخفيفاً فالمعنى : أنّها تكلّمت بصوتها ، وهذا غيرمستبعد أن يخلق الله فيها العقل والنطق .

وعن قتادة أنّه دخل الكوفة فالتفّ عليه الناس فقال : سلوا عمّا شئتم فسأله غلام حدث عن نملة سليمان أكانت ذكراً أم اُنثى ؟ فاُفحم ، فقال الغلام : كانت اُنثى ، فقيل له : من أين عرفت ؟ فقال الغلام : من كتاب الله وهو قوله « قالت نملة » ولو كان ذكراً لقال : « قال نملة » و ذلك لأنّ النملة مثل الحمامة و الشاة في وقوعها على الذكر والاُنثى ولابدّ أن يميّز بينهما بعلامة نحو قولهم : حمامة ذكر وحمامة اُنثى أوهو وهي .

و بالجملة صاحت النملة يا أيّها النمل لايكسرنّكم [سليمان و جنوده و هم لا يشعرون] بحطمكم و وطئكم وهذا يدلّ على أنّ سليمان وجنوده كانوا ركباناً و مشاة

على الأرض ولم تحملهم الريح بين السماء والأرض لماخافت النمل أن يطأها بأرجلهم ، أو كان هذه القصّة قبل تسخير الله الريح لسليمان عليه السلام .

فإن قيل : كيف عرفت النملة سليمان وجنوده حتّى قالت هذه المقالة ؟

فالجواب: إذا كانت مأمورة بطاعته فلابدّ أن يخلق لها من الفهم ما تعرف به ولا يمتنع أن يكون لها من الفهم ما يستدرك به ذلك و قد علمنا أنّها تشقّ ما تجمع من الحبوب بنصفين مخافة أن يفسده الندى فتنبت إلّا الكزبرة فإنّها تكسرها بأربع قطع لأنّها تنبت إذا شقّت بنصفين فمن هدا ها إلى هذا ؟ فإنّه جلّ جلاله هدا ها إلى تميّز ما يحطمها . و قيل : إنّها كانت معجزة لسليمان عليه السلام قال ابن عبّاس : فوقف سليمان بجنوده حتّى دخل النمل مساكنه .

[فتبسّم] سليمان [ضاحكاً من قولها] أي تبسّم شارعاً في الضحك و تجاوز حدّ التبسّم إلى حدّ الضحك وذلك أنّ الإنسان إذا رأى مالا عهد به فعجب وضحك . وقيل : إنّ الريح أطارت كلامها إليه من ثلاثة أميال حتّى سمع ذلك فانتهى إليها و هي تأمر النمل بالمبادرة فتبسّم من حذرها .

[و قال ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك الّتي أنعمت عليّ] قال الزمخشري: حقيقة «أوزعني» اجعلني أزع شكر نعمتك عندي و أكفّه عن أن ينقلب عنّي حتّى أكون شاكراً لك أبداً والحاصل : ألهمني ووفّقني أن أشكر نعمتك بأن علّمتني منطق النمل وأسمعتني صوتها من بعيد حتّى أمكنتني الكفّ وأكرمتني بالنبوّة والملك [وعلى والديّ] فأكرمته بالنبوّة وفصل الخطاب و ألنت له الحديد و أنعمت على والدتي بأن زوّجتها نبيّك [و أن أعمل صالحاً] أي وفّقني للعمل الصالح في المستقبل [ترضاه و أدخلني برحمتك في عبادك الصالحين] قال ابن عبّاس: يعني إبراهيم وإسماعيل و إسحاق و يعقوب و من بعد هم من النبيّين عليهم السلام أي أدخلني في جملتهم و أثبت اسمي في أسمائهم . و قيل في عبادك أي مع عبادك .

قوله تعالى : و تفقد الطير فقال مالى لا ارى الهدهد ام كان من الغائبين (٢٠) لاعذبنه عذاباً شديداً اولا ذبحنه اوليأتينى بسلطان مبين (٢١).

فمكث غير بعيد فقال احطت بما لم تحط به و جئتك من سبأ بنبأ يقين (٢٢) انى وجدت امراة تملكهم و اوتيت من كل شيء و لها عرش عظيم (٢٣) وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون (٢٤) الا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والارض و يعلم ما تخفون وما تعلنون (٢٥) الله لا اله الا هو رب العرش العظيم (٢٦) .

ثمّ أخبر سبحانه عن سليمان فقال :

[وتفقّد الطير] وتعرّف فلم يجد فيها الهدهد وكان سليمان إذا قعد على كرسيّه جاءت جميع الطير الّتي سخّرها الله له فتظلّ الكرسيّ والبساط بجميع من عليه عن الشمس فغاب عنه الهدهد من بين الطير فوقع الشمس من موضعه في حجر سليمان فرفع رأسه [فقال مالي لا أرى الهدهد] أي ما للهدهد لا أراه ؟ تقول العرب : مالي أراك كئيباً ، معناه : مالك كئيباً ، وهو من القلب الّذي يوضحه المعنى .

واختلف في سبب تفقّده الهدهد فقيل : بسبب المذكور وهو وقوع الشمس على رأسه من خلوّ مكان الهدهد . وقيل : إنّه احتاج إليه في سفره ليدلّه على الماء لأنّه يقال : إنّه يرى الماء في بطن الأرض كما يراه في القارورة ، عن ابن عبّاس . وروى العيّاشيّ بالإسناد قال : قال أبوحنيفة لأبي عبدالله عليه السلام كيف تفقّد سليمان الهدهد من بين الطير ؟ قال عليه السلام : لأنّ الهدهد يرى الماء في بطن الأرض كما يرى أحدكم الدهن في القارورة ، فنظر أبوحنيفة إلى أصحابه و ضحك ، قال أبوعبدالله عليه السلام : ما يضحكك ؟ قال : ظفرت بك جعلت فداك ، قال : و كيف ذلك ؟ قال : الّذي يرى الماء في بطن الأرض لا يرى الفخّ[1] في التراب حتّى يؤخذ بعنقه ؟ قال أبوعبدالله عليه السلام : يا نعمان أما علمت أنّه إذا نزل القدر أغشى البصر ؟ و بالجملة وقيل : السبب في تفقّده للإخلال بنوبته في الخدمة .

فقال عليه السلام : [أم كان من الغائبين] أتأخّر عصياناً أم غاب لعذر وحاجة ؟ وقيل : « أم » هنا هي المنقطعة . قال المبرّد : لمّا تفقّده ولم يره على تقدير أنّه مع جنوده وهو لا يراه

---

(١) آلة يصاد بها .

ثمّ أدركه الشكّ في غيبته ثمّ قال : أم كان أي بل هو من الغائبين .

ثمّ أوعده على غيبته فقال : [لأُعذّبنّه عذاباً شديداً] معناه : بنطف ريشه وإلقائه في الشمس ، عن ابن عبّاس و جماعة . وقيل : بأن أجعله مع أضداده ، و كما صحّ نطق الطير وتكليفه في زمانه جازت معاتبته على ما وقع منه من تقصير فإنّه كان مأموراً بطاعته فاستحقّ العقاب على غيبته [أولأذبحنّه] أي لأقطعنّ حلقه عقوبة على عصيانه [أو ليأتينّي بسلطان مبين] أي بحجّة واضحة تكون له عذراً صحيحاً في سبب غيبته .

واعلم أنّ الملاحدة طعنت في هذه القصّة من وجوه : منها أنّ سليمان كان بالشام فكيف طار الهدهد في تلك الساعة من الشام إلى اليمن ثمّ رجع إليه ؟ و كيف خفي على سليمان حال مثل تلك الملكة العظيمة مع مايقال أنّ الجنّ والإنس كانوا في طاعته وأنّه ملك الدنيا بالكلّيّة وكان تحت راية بلقيس جماعة كثيرة وكان أُولو مشورتها ـ على ماقيل ـ ثلاثمائة واثني عشر قيلاً [١] كلّ قيل منهم تحت رايته ألف مقاتل مع أنّه يقال : إنّه لم يكن بين سليمان وبين بلدة بلقيس حال طيران الهدهد إلّا مسيرة ثلاثة أيّام ؟ ومنها : من أين حصل للهدهد معرفة الله ووجوب السجود له وإنكار سجودهم للشمس من دون الله وإضافته إلى الشيطان وتزيينه ؟

و الجواب عن الكلّ أنّ الإيمان و التصديق بافتقار الخلق و العالم إلى القادر المختار يزيل هذه الشكوك و البنية ليست شرطاً في القدرة فإذا أراد الله بأمر حصل فيه ما أراد فحينئذ يمكن أن يكون يصدر من الهدهد اُمور عقلانيّ لا يصدر عن مثل ألف فيثاغورث وأفلاطون ويكون عرش بلقيس في وسط بساط سليمان وهو عليه السلام لا يحسّ به إلّا إذا أراد الله .

وبالجملة قوله تعالى : [فمكث غير بعيد] أي لم يلبث سليمان إلّا زماناً يسيراً حتّى جاء الهدهد أو المعنى : فلبث الهدهد في غيبته قليلاً ثمّ رجع ، فيجوز أن يكون التقدير : فمكث الهدهد في مكان غير بعيد فأتاه الهدهد بحجّة [فقال أحطت بما لم تحط به] أي اطّلعت بما لم تطّلع عليه [و جئتك من سبأ بنبأ يقين] بخبر صادق عن

(١) بالفتح : كل قائد من قواد اليمن .

سبأ و هي مدينة بأرض اليمن ، وقيل : إنّ الله بعث إلى سبأ اثني عشر نبيّاً ، وسئل النبيّ صلى الله عليه وآله عن سبأ فقال : هو رجل ولد له عشرة من العرب تيامن منهم ستّة وتشاءم أربعة فالّذين تشاءموا : لخم وجذام وغسّان وعاملة ، والّذين تيامنوا : كندة والأشعرون والأزد ومذحج وحمير وأنمار ، ومن الأنمار خثعم وبجيلة وإذا كان اسم مدينة لا ينافي هذا الكلام لأنّها مسمّاة باسم هذا الرجل .

قوله : [إنّي وجدت امرأة تملكهم واُوتيت من كلّ شيء] وهو خبر بلقيس قال : وجدت امرأة تتصرّف بالسلطنة فيهم بحيث لا يعترض عليها أحد ولها من سعة مالها وملكها كلّ شيء يحتاج إليه الملوك من زينة الدنيا وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ . قيل : إنّ اُمّها جنّيّة ولدها أربعون ملكاً آخرهم أبوهاشم شرحبيل من ملوك حجر [ولها عرش عظيم] أي ولها سرير عظيم وكان مرصّعاً بالياقوت الأحمر والزمرّد الأخضر مكلّل بألوان الجواهر ، وعليه سبعة أبيات على كلّ بيت باب مغلق .

[وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزيّن لهم الشيطان أعمالهم] أي عبادتهم للشمس ولا يعبدون الله [فصدّهم عن السبيل] أي صرفهم الشيطان عن سبيل الحقّ [فهم لا يهتدون] غير مهتدين و في الضلالة .

وقال بعض علماء الاعتزال مثل الجبّائي وأمثاله : لم يكن الهدهد عارفاً بالله وإنّما أخبر بذلك كما يخبر مراهقو صبياننا لأنّه لا تكليف إلّا على الملائكة والإنس والجنّ فيرانا الصبيّ على عبادة الله فيتصوّر الصبي أنّ ما خلاها باطل فكذلك الهدهد تصوّر أنّ ما خالف فعل سليمان باطل .

ولكن ردّ هذا القول بأنّ هذا الّذي ذكره الجبّائي خلاف ظاهر القرآن لأنّه لا يجوز أن يفرق بين الحقّ الّذي هو السجود لله و بين الباطل الّذي هو السجود للشمس وأنّ أحدهما قبيح والآخر حسن إلّا العارف بالله سبحانه وبما يجوز وبما لا يجوز مع نسبة أعمالهم وصدّهم عن طريق الحقّ إلى الشيطان وهذه مقالة من يعرف العدل و أنّ القبيح على الله غير جائز .

قوله تعالى: [ألّا يسجدوا لله] قرىء بالتخفيف على أنّه الأمر والتنبيه على السجود ومعناه: ألا يا قوم اسجدوا الله، والجملة معترضة اعترضت في الكلام، وعلى قراءة التشديد فالمعنى زيّن لهم الشيطان ضلالتهم لئلاّ يسجدوا لله. وعلى قراءة التخفيف «ألا» حرف التنبيه و«يا» حرف النداء والمنادى محذوف ويجوز أن يكون لا مزيدة ويكون المعنى: فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا، وفي قراءة عبدالله بن مسعود والأعمش بقلب الهمزة هاء أي هلاّ تسجدون لله، على الخطاب.

[الّذي يخرج الخبء في السماوات والأرض] والخبء المخبوء وهو كلّ ما غاب عن الإدراك وما يوجده الله فيخرجه من العدم إلى الوجود، وقيل: المراد من خبء السماوات المطر ومن خبء الأرض النبات وهو يتناول جميع أنواع الأرزاق والأشياء حتّى النطفة في الأصلاب ويعمّ إشراق الشمس بعد إستتارها.

وفي الآية دلالة على الردّ فيمن يعبد الشمس لأنّها ليست كذلك فليست قابلة للمعبوديّة والإلهيّة لأنّ الإله هو القادر على إخراج الخبء وعالماً بالخفيّات والشمس جسم متناه في الذات وكلّما كان متناه في الذات متناه في الصفات.

وذكر الفرّاء أن قراءة «ألا يسجدوا» بالتشديد لا يوجب سجدة التلاوة. قال الطبرسيّ: وهذا غير صحيح لأنّ الكلام قد تضمّن الذمّ على ترك السجود فيكون فيه دلالة على وجوب السجود لأنّه كقوله: «وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن [(١)]».

وهذا الكلام قيل من الله اعترض في الكلام، وقيل: إنّه من كلام الهدهد قاله لقوم بلقيس حين وجدهم يسجدون لغير الله. وقيل: قاله سليمان عند عود الهدهد إليه استنكاراً لما وجدهم عليه.

قال الرازيّ: وعلى القراءتين أي تشديداً وتخفيفاً فالسجدة في الآية واجبة خلافاً للزجّاج حيث إنّه يقول في وجوب السجدة على قراءة التخفيف دون التشديد. وقال الرازيّ: إنّ أصحابنا اتّفقوا على أنّ سجدات القرآن أربع عشرة سجدة وهذا واحد منها ولأنّ مواضع السجدة إمّا أمر بها أو مدح لمن أتى بها أو ذمّ لمن تركها وعلى هذه الصورة

(١) الفرقان: ٦٠.

إحدى القراءتين أمر بالسجود والأخرى ذمّ للتارك .

قوله [ويعلم ما تخفون وما تعلنون] أي يعلم السرّ والعلانية [الله لا إله إلّا هو ربّ العرش العظيم] إلى ههنا تمام الحكاية لما قاله الهدهد ، و يحتمل أن يكون أوّل إخبار الله تعالى ، والعرش سرير الملك الّذي عظّمه الله و رفعه فوق السماوات السبع و جعل الملائكة تحفّ به وترفع أعمال العباد إليه وتنشأ البركات من جهته فهو عظيم الشأن و هو أعظم خلق الله .

قوله تعالى : قال سننظر اصدقت أم كنت من الكاذبين (٣٧) اذهب بكتابي هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون (٣٨) قالت يا أيها الملا انى القى الى كتاب كريم (٢٩) انه من سليمن و انه بسم الله الرحمن الرحيم (٣٠) الاتعلوا على و أتونى مسلمين (٣١) .

لمّا سمع سليمان مااعتذر به الهدهد قال عند ذلك : [سننظر أصدقت] في قولك الّذي أخبرتنا به [أم كنت من الكاذبين] ثمّ كتب سليمان كتاباً و ختمه بخاتمه ودفعه إليه فذلك قوله تعالى : [اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم] يعني أهل سبأ [ثمّ تولّ عنهم] أي استتر عنهم قريباً منهم بعد إلقاء الكتاب إليهم [فانظر ماذا يرجعون] أي مايردّون من الجواب ، وفي الكلام حذف تقديره : فمضى الهدهد بالكتاب و ألقاه إليهم .

قال قتادة : أتى الهدهد إلى بلقيس فوجدها نائمة مستلقية على قفاها فألقى الكتاب على نحرها وكانت لها كوّة مستقبلة للشمس تقع الشمس عندما تطلع فيها فإذا نظرت إليها سجدت فجاء الهدهد إلى الكوّة سدّها بجناحه فارتفعت الشمس و لم تعلم فقامت تنظر فرمى الكتاب إليها فلمّا أخذت الكتاب جمعت الأشراف وهم يومئذٍ ثلثمائة و اثنا عشر قيلاً فقالت لهم:

[إنّي أُلقي إليّ كتاب كريم] و إنّما سمّته كريماً لأنّه كان مختوماً و يؤيّد هذا المعنى الحديث حيث يقول : إكرام الكتاب ختمه . و قيل : و صفته بالكريم لأنّه صدّره ببسم الله الرحمن الرحيم . وقيل : لحسن خطّه وجودة لفظه وبيانه . وقيل : لأنّه عن من يملك الإنس والجنّ و الطير وقد كانت سمعت بخبر سليمان .

[إنّه من سليمان] أي إنّ الكتاب من سليمان و[إنّه] و إنّ الكتاب مكتوب فيه [بسم الله الرحمن الرحيم * أن لا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين] و« أن» في هذاالموضع بمعنى أي نحو قوله : « و انطلق الملأ منهم أن أمشوا و اصبروا » أي امشوا والحاصل أي لا ترفّعوا ولا تتكبّروا عليّ و أتوني منقادين طائعين أو مسلمين مؤمنين بالله و كذا كانت عادة الأنبياء كتبهم موجزة مقصورة على الدعوة إلى الله من غير بسط .

قوله تعالى : قالت يا ايها الملا افتونى فى امرى ما كنت قاطعة امرآ حتى تشهدون (٣٢) قالوا نحن اولوا قوة و اولوا بأس شديد والامر اليك فانظرى ماذاتأمرين (٣٣) قالت ان الملوك اذادخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة وكذلك يفعلون (٣٤) وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون (٣٥) فلما جاءسليمان قال اتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتيكم بل انتم بهديتكم تفرحون (٣٦) ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها و لنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون(٣٧).

المعنى : ولمّا وقفت بلقيس على كتاب سليمان قالت لأشراف قومها : [ياأيّها الملأ أفتوني في أمري]أي أشيروا عليّ وأظهروالي الحكم فجعلت المشورة هنافتيا [ما كنت قاطعة أمراً حتّى] تحضروني أي إلّا بحضرتكم و مشورتكم [قالوا] لها في الجواب عن ذلك : [نحن اُولو قوة] و أصحاب قدرة وأهل عدد [و اُولو بأس شديد] أي نحن ذو شجاعة شديدة [والأمر إليك] مفوّض في القتال وغيره [فانظري ماذا تأمرين] أي ما الّذي تأمريننا به لنمتثله .

[قالت] مجيبة لهم عن التعريض بالقتال : [إنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها] أي إذا دخلوها عنوة و غلبة خربوها وأهلكوها [وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة] أي أهانوا أشرافها و كبراءها كي يستقيم لهم الأمر وحذّرتهم مسير سليمان إليهم و دخوله بلادهم يصدّق الله سبحانه كلامها بقوله تعالى : [و كذلك يفعلون] وقيل : الكلام متّصل بعضه ببعض وهو من كلامها .

[و إنّي مرسلة إليهم بهديّة فناظرة بمَ يرجع المرسلون] أي باعثة إلى سليمان و قومه بهديّه أصانعه بذلك عن ملكي فمنتظرة بمَ يرجع المرسلون بقبول أم ردّ ، وإنّما

فعلت ذلك لعادة الملوك في حسن موقع الهدايا عندهم وكان غرضها أن يتبيّن لها بذلك أنّه ملك أو نبيّ فإن قبل الهديّة تبيّن أنّه ملك و إن ردّها فتبيّن أنّه نبيّ. واختلف في الهديّة فقيل: أهدت إليه وصفاء و وصائف ألبستهم لباساً واحداً حتّى لا يعرف ذكر من اُنثى عن ابن عبّاس. وقيل: أهدت مائتي غلام ومائتي جارية ألبست الغلمان لباس الجواري والجواري لباس الغلمان و أهدت إليه صفائح الذهب في أوعية من الديباج.

فلمّا بلغ ذلك سليمان أمر الجنّ أن يموّهوا له الآجرّ بالذهب ثمّ أمر به فاُلقي في الطريق فلمّا جاؤوا رأوه ملقى في الطريق في كلّ مكان فلمّا رأوا ذلك صغر في أعينهم ما جاؤوا به، عن ثابت البنانيّ.

وقيل: إنّها عمدت إلى خمس مائة غلام وخمسمائة جارية فألبست الجواري الأقبية و المناطق و ألبست الغلمان في سواعدهم أساور من ذهب مرصّع وفي أعناقهم أطواقاً من ذهب بالجواهر وفي آذانهم أقراطاً وحملت الجواري على خمسمائة رمكة والغلمان على البرازين و على كلّ فرس لجام من ذهب مرصّع بالجواهر وبعثت إليه خمسمائة لبنة من ذهب و كذلك من الفضّة وتاجاً مكلّلاً بالجواهر وعمدت إلى حقّة فجعلت فيها درّة يتيمة غير مثقوبة وخرزة مثقوبة معوّجة الثقب و ودعت رجلاً من أشراف قومها اسمه المنذر بن عمرو وضمّت إليه رجالاً من قومها أصحاب عقل و رأي و كتبت إليه كتاباً نسخة الهديّة وقالت: إن كنت نبيّاً فميّز بين الوصفاء و الوصائف و أخبر بما في الحقّة قبل أن تفتحها و اثقب الدرّة ثقباً مستوياً وأدخل الخرزة خيطاً من غير علاج إنس ولا جنّ. و قالت للرسول: انظر إليه إن دخلت عليه فإن نظر إليك نظر غضب فاعلم أنّه ملك فلا يهولنّك أمر فإنّا أعزّ منه، و إن نظر إليك نظر لطف فاعلم أنّه نبيّ مرسل.

فانطلق الرسول بالهدايا وأقبل الهدهد مسرعاً إلى سليمان وأخبره الخبر فأمر سليمان الجنّ أن يضربوا لبنات[1] الذهب والفضّة وأن يجعلوها حول الميدان حائطاً من الذهب والفضّة ففعلوا، ثمّ أمرهم أن يبسطوا من موضعه الّذي هو فيه إلى بضع فراسخ ميداناً واحداً بلبنات الذهب والفضّة، ثمّ قال للجنّ: عليّ بأولادكم فاجتمع خلق كثير فأقامهم

(١) جمع لبنة: المضروب من الطين مربعاً للبناء.

على يمين الميدان ويساره ثمّ قعد سليمان في مجلسه على سرير ووضع له أربعة آلاف كرسيّ عن يمينه ومثله عن يساره وأمر الشياطين أن يصفّوا صفوفاً فراسخ وأمر الوحوش والسباع والهوامّ والطير فاصطفّوا فراسخ عن يمينه وشماله .

فلمّا دنا القوم من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان فتقاصرت أنفسهم ورموا بما معهم من الهدايا فلمّا وقفوا بين يدي سليمان نظر إليهم نظراً حسناً بوجه طلق وقال : ماوراءكم ؟ فأخبره رئيس القوم بما جاءوا له وأعطاه كتاب الملكة فنظر إليه وقال : أين الحقّة فأُتي بها فحرّكها وجاءه جبرئيل فأخبره بما في الحقّة فقال : إنّ فيها درّة غير مثقوبة وخرزة مثقوبة معوجّة الثقب فقال الرسول : صدقت فانقب الدرّة وأدخل الخيط في الخرزة فأرسل سليمان إلى الأرضة فجاءت فأخذت شعرة في فيها ودخلت الثقب حتّى خرجت من الجانب الآخر ثمّ قال سليمان : من لهذه الخرزة يسلكها الخيط فقالت دودة بيضاء : أنا لها. فأخذت الدودة الخيط ودخل في الثقب وخرج من الجانب الآخر . ثمّ ميّز بين الجواري والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم فكانت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ثمّ تجعله على اليد الآخر ثمّ تضرب به في الوجه ، والغلام كان يأخذ من الآنية يضرب به وجهه و كانت الجارية تصبّ على باطن ساعدها و الغلام على ظهر الساعد وكانت الجارية تصبّ الماء صبّاً وكان الغلام يحدر الماء على يده حدراً فميّز بينهنّ بذلك هذا كلّه مرويّ عن وهب وغيره .

وقيل: إنّها أنفذت مع هدايا عصاكان يتوارثها ملوك حمير وقالت : أُريد أن تعرّفني رأسها من أسفلها ، وبقدح وقالت : تملؤه ماءً ليس من الأرض ولا من السماء فأرسل سليمان العصا إلى الهواء وقال : أيّ الرأسين سبق إلى الأرض فهو أصلها و أمر بالخيل فأُجريت حتّى عرقت وملأ القدح من عرقها .

[فلمّا جاء سليمان] فلمّا جاء الرسول سليمان بالهدايا [قال أتمدّونن بمال] أي تزيدونني مالاً ؟ وهذا استفهام إنكار [فما آتاني الله خير ممّا آتاكم] أي ما أعطاني الله من الملك والنبوّة والحكمة خير ممّا أعطاكم من الدنيا و أموالها [بل أنتم بهديّتكم

تفرحون] إذا هدى بعضكم إلى بعضكم و أمّا أنا فلا أفرح بها ، إشارة إلى قلّة اكتراثه بأموال الدنيا .

ثمّ قال للرسول [ارجع إليهم] بما جئت به من الهدايا [فلنأتينّهم بجنود لا قبل لهم بها] لا قدرة لهم على دفعها [ولنخرجنّهم منها أذلّة] أي من تلك المملكة ومن أرضها وملكها [وهم صاغرون] ذليلون صغيرو القدر إن لم يأتوني مسلمين .

فلمّا ردّ سليمان الهديّة و ميّز بين الغلمان والجواري إلى غير ذلك علموا أنّه نبيّ مرسل وأنّه ليس كالملوك الّذين يغترّون بالمال .

قوله تعالى : ياايها الملاء ايكم يأتيني بعرشها قبل ان يأتوني مسلمين(٣٨) قال عفريت من الجن انا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك و اني عليه لقوى امين (٣٩) قال الذى عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك فلما رءاه مستقرآ عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني ءاشكر ام اكفرو من شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم (٤٠) قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى ام تكون من الذين لايهتدون (٤١) فلما جاءت قيل اهكذا عرشك قالت كأنه هو واوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين (٤٢) و صدها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين (٤٣) قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة و كشفت عن ساقيها قال انه صرح ممرد من قوارير قالت رب اني ظلمت نفسي واسلمت مع سليمان لله رب العالمين (٤٤) .

القصة : فلمّا رجع الرسول وعرّفها أنّه نبيّ وأنّها لاتقاومه فتجهّزت للمسير إليه وأخبر جبرئيل سليمان أنّها خرجت من اليمن مقبلة إليه فقال سليمان لأماثل جنده و أشراف عسكره : [ياأيّها الملأ أيّكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين] ؟ يعني آتوني بعرشها ، واختلف في السبب الّذي خصّ به العرش بالطلب فقيل: أراد أن يختبر عقلها ويختبر فطنتها هل تعرفه أوتنكره ؟ وقيل : أراد أن يجعل ذلك دليلاً و معجزة على صدق نبوّته لأنّها خلّفته في دارها و وكّلت به ثقات قومها يحرسونه و يحفظونه . و قال ابن عبّاس : كان سليمان رجلاً مهيباً لا يبتدأ بكلام حتّى يكون هو الّذي يسأل عنه فخرج يوماً فجلس على سريره فرأى رهجاً قريباً منه ، فقال : ماهذا ؟ فقالوا : يا رسول الله بلقيس وقد

نزلت منّا بهذا المكان وكان ما بين الحيرة والكوفة على قدر فرسخ فقال : أيّكم يأتيني بعرشها ·
وفي قوله «مسلمين» فيه وجهان : أحدهما أنّه أراد مؤمنين موحّدين أو مستسلمين منقادين .

[قال عفريت من الجنّ] أي مارد قويّ داهية : [أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك] أي من مجلسك الّذي تقضي فيه [و إنّي عليه لقويّ أمين] أي على حمله لقويّ و على الاتيان به وفي هذه المدّة قادر وعلى ما فيه من الذهب والجواهر أمين ، وفي هذا دلالة على أنّ الاستطاعة والقدرة قبل الفعل لأنّه أخبر بأنّه قويّ عليه قبل أن يجيء به ، وكان سليمان يجلس في مجلسه للقضاء غدوة إلى نصف النهار ·

فقال سليمان : اُريد أسرع من ذلك فعند ذلك [قال الّذي عنده علم من الكتاب] وهو آصف بن برخيا وكان ابن اخت سليمان ووزيره وكان صدّيقاً يعرف اسم الله الأعظم الّذي إذا دعي به أجاب . و قيل : إنّ ذلك الاسم الله والّذي يليه الرحمن . وقيل : هو ياحيّ ياقيّوم و بالعبرانيّة آهياً شراهياً . وقيل : هو ياذا الجلال والإكرام . وقيل : إنّه قال : يا إلهنا وإله كلّ شيء إلهاً واحداً لا إله إلّا أنت .

وفي البصائر والكافي عن الباقر عليه السلام : إنّ اسم الله الأعظم على ثلاثة و سبعين حرفاً وإنّما كان عند آصف بن برخيا حرف واحد فتكلّم به فخسف به الأرض ما بينه وبين سرير بلقيس حتّى تناول السرير بيده ثمّ عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين ، وعندنا نحن من الاسم الأعظم اثنان و سبعون حرفاً وحرف عند الله استأثر به في علم الغيب عنده ولا حول ولا قوّة بالله العليّ العظيم .

و في رواية اُخرى في الكافي عن الهادي عليه السلام قال : فتكلّم به فانخرقت له الأرض فيما بينه وبين سبأ فتناول عرش بلقيس حتّى صيّره إلى سليمان ثمّ انبسطت الأرض في أقلّ من طرفة عين وقال عليه السلام : ولم يعجز سليمان عليه السلام عن معرفة ما عرف آصف لكنّه أحبّ أن يعرف الجنّ والإنس أنّه الحجّة بعده .

وقيل : إنّ الّذي عنده علم من الكتاب هو جبرئيل أذن الله له في طاعة سليمان بأن يأتيه بالعرش الّذي طلبه . وقيل : هو سليمان قال ذلك للعفريت ليريه نعمة ربّه ، وهذا قول بعيد لم يؤثر عن أهل التفسير .

والكتاب قيل : إنّه اللوح المحفوظ . وقيل : المراد الجنس من كتب الله المنزلة على أنبيائه وليس المراد به كتاباً بعينه والجنس قد يعرّف بالألف واللام .

قوله : [أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك] اختلف في معناه فقيل : يريد قبل أن يصل من كان منك على قدر مدّ البصر . وقيل : معناه : قبل أن يبلغ طرفك مداه و غايته ويرجع إليك . وقال سعيد بن جبير : قال لسليمان : انظر إلى السماء فما طرف حتّى جاء به فوضعه بين يديه والمعنى: حتّى يرتدّ إليك طرفك بعد مدّه إلى السماء . و قيل : معنى ارتداد الطرف إدامة النظر حتّى يرتدّ طرفه خاسئاً . فعلى هذا معناه : أنّ سليمان مدّ بصره إلى أقصاه وهو يديم النظر فقبل أن ينقلب بصره إليه حسيراً يكون قدأُتي بالعرش .

وذكر العلماء في ذلك وجوهاً : أحدها أنّ الملائكة حملته بأمر الله، والثاني أنّ الريح حملته، والثالث أنّ الله خلق فيه حركات متوالية ، والرابع أنّه انخرق في مكانه حيث هو هناك ثمّ نبع بين يدي سليمان ، والخامس أنّ الأرض طويت له ، وهو المرويّ عن الصادق عليه السلام . و السادس أنّه أعدمه الله في موضعه و أعاده في مجلس سليمان ، وهذا لايصحّ على مذهب أبي هاشم و يصحّ على مذهب أبي عليّ الجبّائيّ فإنّه يجوز فناء بعض الأجسام دون بعض .

وبالجملة [فلمّا] حضر العرش و [رآه] سليمان [مستقرّاً عنده قال هذا من فضل ربّي] أي هذا من نعمته وإحسانه عليّ بتيسّره وتسخيره مع صعوبته [ليبلوني ءأشكر أم أكفر] ليخبرني هل أقوم بشكر هذه النعمة أم أكفر بها [ومن شكر فإنّما يشكر لنفسه] لأنّ عائد شكره له دون غيره [ومن كفر فإنّ ربّي غنيّ كريم] غنيّ عن شكر العباد، متفضّل عليهم شاكرهم وكافرهم، عاصيهم ومطيعهم .

[قال نكّروا لها عرشها] قال سليمان : غيّروا سريرها إلى حال تنكّرها إذا رأته، وأراد بذلك اعتبار عقلها [لننظر أتهتدي أم تكون من الّذين لايهتدون] أي أتهتدي إلى معرفة عرشها بعد التغيّر أم لاتهتدي إلى ذلك . وقيل : المعنى : أتستدلّ بعرشها على قدرة الله

وصحّة نبوّته وتهتدي إلى طريق الإيمان والتوحيد أم لا ، وغيّروه فما كان على العرش من الجواهر والفصوص أحمر جعلوا مكانه أخضر وما كان أخضر جعلوا مكانه أحمر و زيد ونقص فيه .

[فلمّا جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنّه هو] فلم تثبته ولم تنكره و ذلك لعقلها وجودة ذهنها حيث لم تقل : لا ، إذ كان يشبه سريرها ، ولم تقل : نعم ، إذ وجدت فيه ما غيّر ولأنّها خلّفته في بيتها وحمله في تلك المدّة إلى ذلك الموضع غير داخل في قدرة البشر وكانت خلّفته وراء سبعة أبواب لمّا خرجت .

ثمّ قالت : [وأُوتينا العلم] بصحّة نبوّة سليمان [من قبلها] أي من قبل الآية في العرش [و كنّا مسلمين] طائعين لأمر سليمان ، و قيل : إنّه من كلام سليمان يعني و أُوتينا العلم بالله و قدرته على ما يشاء من قبل هذه المرّة و كنّا مخلصين لله . و قيل : و أُوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة .

[وصدّها ماكانت تعبد من دون الله] أي و منعها عبادة الشمس عن الإيمان بالله . و قيل : معناه : و صدّها سليمان عمّا كان تعبدها دون الله ومنعها عنها ثمّ استأنف فقال : [إنّها كانت من قوم كافرين] أي من عبدة الشمس قد كبرت ونشأت فيهم فلم تعرف إلّا عبادة الشمس .

[قيل لها ادخلي الصرح] وذلك أنّ سليمان لمّا أقبلت صاحبة السبأ أمر الشياطين ببناء الصرح وهو كهيئة السطح من قوارير أُجري تحته الماء و جمع في الماء الحيتان و الضفادع ودوابّ البحر ثمّ وضع له فيه سرير فجلس عليه ، و قيل : إنّه قصر من زجاج كلّه كأنّه الماء بياضاً ، و كلّ بناء من زجاج أوصخر أملس موثّق فهو صرح ، وإنّما أمر سليمان بالصرح لأنّه أراد أن يختبر عقلها لأنّ الجنّ والشياطين خافت أن يتزوّجها سليمان فلا ينفكّون من تسخير ذرّيّة سليمان بعده لو تزوّجها وذلك لأنّ أُمّها على ما قالوا كانت جنّيّة فأساؤوا الثناء عليها عند سليمان لأن لا يميل سليمان إليها وقالوا لسليمان: إنّ في عقلها شيئاً و إنّ رجلها كحافر الحمار ولذلك قال سليمان لها : ادخلي الصرح . وقيل : ذكر لسليمان أنّ على رجليها شعراً .

[فلمّا رأته] أي رأت بلقيس الصرح [حسبته لجّة] واللجّة معظم الماء [و كشفت عن ساقيها] لدخول الماء ، و قيل : إنّها لمّا رأت الصرح قالت : ماوجد ابن داود عذاباً يقتلني به إلّا الغرق وأنفت أن ينسب إليها الجبن ولم يكن من عادتهم لبس الخفاف ، فلّما كشف عن ساقيها [قال إنّه صرح ممرّد من قوارير] قال لها سليمان : إنّه قصر مملّس من قوارير و ليس بماء ولمّا رأت سرير سليمان و الصرح [قالت ربّ إنّي ظلمت نفسي و أسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين] .

وقيل: إنّها لمّا جلست دعاها سليمان إلى الإسلام فأجابته وأسلمت لما رأت من الآيات، و اختلف في أمرها بعد ذلك فقيل: إنّه تزوّجها وأقرّها على ملكها . وقيل: إنّه زوّجها من ملك يقال له تبّع وردّها إلى أرضها وأمر زبيعة أمير الجنّ باليمن أن يعمل لها ويطيعها وصنع لها الصنائع أو المصانع باليمن . وقيل: إنّ سليمان قال لها : اختاري من قومك من اُزوّجك منه، فقالت : مثلي لاينكح الرجال مع سلطاني ،فقال : النكاح من الإسلام ، فقالت : إن كان كذلك فزوّجني ذا تبّع ملك اليمن فزوّجها إيّاه . و من قال : إنّ سليمان تزوّجها ليس له سند صحيح و ذكرٌ في الكتاب و لا في خبر مقطوع بصحّته .

و لقد أرسلنا الى ثمود أخاهم صالحاً ان اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون (٤٥) قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون (٤٦) قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل انتم قوم تفتنون (٤٧) وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الارض ولايصلحون(٤٨) قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه واهله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك اهله وانا لصادقون (٤٩) و مكروا مكراً و مكرنا مكراً وهم لا يشعرون(٥٠) فانظر كيف كان عاقبة مكرهم انا دمرناهم وقومهم اجمعين(٥١) فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان فى ذلك لاية لقوم يعلمون (٥٢) وانجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون (٥٣) .

المعنى : ثمّ عطف سبحانه على قصّة سليمان قصّة صالح فقال :

[ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم] في النسب[صالحاً أن اعبدوا الله] أي أمرناه بأن يأمرهم

أن يعبدوا الله وحده [فإذا هم فريقان يختصمون] أي مؤمنون و كافرون يقول كلّ فريق : الحقّ معي .

[قال] صالح للفريق المكذّب [ياقوم لمَ تستعجلون بالسيّئة قبل الحسنة] أي بالعذاب قبل الرحمة أي لمَ قلتم : إن كان ما آتيتنا به حقّاً فائتنا بالعذاب ، و سمّي العذاب سيّئة لما فيه من الآلام ولأنّه جزاء على السيّئة لأنّ السّيّئة هي الخصلة الّتي تسوء صاحبها [لولا تستغفرون الله] أي هلاّ تطلبون مغفرته من الشرك بأن تؤمنوا [لعلّكم ترحمون] فلاتعذّبون في الدنيا ، وذلك أنّ صالحاً لمّا راى أنّ قومه كذّبوه فوعّدهم بالعذاب فقالوا: «ائتنا بعذاب من الله إن كنت من الصادقين»(١) على وجه الاستهزاء فجاوبهم صالح بهذا القول وهو قوله « لمَ تستعجلون بالسيّئة قبل الحسنة» وقال : هلاّ تستغفرون الله قبل نزول العذاب و استعجال الخير أولى من استعجال الشرّ.

ولمّا قرّر صالح هذا الكلام أجابوه بكلام فاسد وهو قولهم : [اطّيّرنا بك وبمن معك] أي تشأّمنا بك يعني الّذي يصيبنا من الشدائد أوالقحط فهو لشؤمك و بشؤم من معك ، وإنّما استعير الشؤم بلفظ الطير لأنّ الرجل يخرج مسافراً فيمرّ بطائر فيزجره فإن مرّ صالح تيمّن و إن مرّ بارح تشأّم فلمّا نسبوا الخير والشرّ إلى الطائر استعير لما كان للخير والشرّ.

فأجاب صالح : [قال طائركم عندالله بل أنتم قوم تفتنون] أي السبب الّذي يجيء منه نفعكم و ضرّكم عندالله إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم . ثمّ قال : «أنتم قوم تفتنون» فيحتمل أنّ غيرهم دعاهم إلى هذا القول ويحتمل أن يكون مراده أنّ الشيطان أوقعكم في الفتنة بوسوسته ، وذلك أنّ قوم صالح أصابهم قحط المطر وجاعوا ولهذا اطّيّروا به . وقيل : معنى: «بل أنتم قوم تفتنون» تبتلون بالطاعة والمعصية و تختبرون بالخير والشرّ.

[وكان في المدينة] الّتي بها صالح و هي الحجر [تسعة رهط يفسدون في الأرض] والمراد من الرهط الجمع إذا المتبادر من الرهط الجماعة لاالواحد ويمكن المراد من الرهط

---

(١) العنكبوت : ٢٩ .

النفر الواحد لكنهم من قبائل متعددة ، ودخلوا تحت العدد لاختلاف أحوالهم وطوائفهم فبيّن سبحانه أنّهم يفسدون في الأرض ولا يخلطون بفسادهم صلاح ، وهم غواة قوم صالح وهم الّذين سعوا في عقر الناقة [ولا يصلحون] ولا يطيعون الله ، وذكر ابن عبّاس أسماءهم وهم قدار بن سالف ومصدع و دهمي و دهيم و دعمى و دعيم و أسلم و قتال و صداف .

[قالوا تقاسموا بالله] أي قالوا فيما بينهم : أحلفوا بالله على معنى الأمريّه أو على معنى الخبريّة [لنبيّتنّه] أي لنقتلنّ صالحاً وأهله بياتاً [ثمّ لنقولنّ لوليّه] أي لرحمه و صاحب دمه إن سألنا عنه : [ما شهد مهلك أهله] أي ما حضرنا هلاكهم أو وقت هلاكهم أو مكان هلاكهم فضلاً أن نتولّى إهلاكم ، ومقصودهم إنّا ما كنّا شاهدين بل كنّا مباشرين مثل قولك : ما رأيت رجلاً ثمّة بل رجلين [وإنّا لصادقون] و عزموا على هذا الأمر والمكر

[و مكروا مكراً و مكرنا مكراً] أي جازينا هم جزاءً على مكرهم بتعجيل عقوبتهم [وهم لا يشعرون] بمكر الله لهم فإنّهم دخلوا على صالح عليه السلام ليقتلوه وقالوا: زعم صالح إنّه يفرغ منّا إلى ثلاث فنحن نفرغ منه و من أهله قبل الثلاث فخرجوا إلى الشعب وقالوا : إذا جاء يصلّي قتلناه ثمّ رجعنا إلى أهله فقتلناهم . فبعث الله صخرة فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب وهلكوا و هلك الباقون بالصيحة و شبّه سبحانه فعله بهم بمكر الماكر على سبيل الاستعارة . و قيل : جاءوا بالليل شاهرين سيوفهم فأرسل الله الملائكة ملء دار صالح فدفعوهم بالحجارة يرون الأحجار ولا يرون رامياً فذاك مكر الله . وقيل : إنّ الله أخبر صالحاً بمكرهم فتحرّز عنهم فذاك مكر الله في حقّهم .

[فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنّا دمّرناهم وقومهم أجمعين] وكان عاقبة أمرهم أنّا أهلكناهم و قومهم بصيحة جبرئيل [فتلك بيوتهم] فانظر إليها فارغة خالية [خاوية بما ظلموا] بسبب ظلمهم و شركهم بالله [إنّ في ذلك] أي في إهلاكهم [لآية لقوم يعلمون] لعبرة لمن اعتبر بها وهذه البيوت بوادي القرى بين المدينة والشام .

[وأنجينا الذين آمنوا به وكانوا يتّقون] قالوا :إنّهم أربعة آلاف خرج بهم صالح

إلى حضرموت و سمّي حضر موت لأنّ صالحاً لمّا دخلها مات .

ولوطاً اذ قال لقومه اتأتون الفاحشة وانتم تبصرون (٥٤) أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل انتم قوم تجهلون (٥٥) فما كان جواب قومه الا ان قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم اناس يتطهرون (٥٦) فانجيناه وأهله الا امراته قدرناها من الغابرين (٥٧) وامطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين (٥٨) قل الحمد لله و سلام على عباده الذين اصطفى ءالله خير اما يشركون (٥٩) .

واذكر [لوطاً] وأرسلنا لوطاً،قوله : [أتاتون الفاحشة] على وجه التنكير و إن كان بلفظ الاستفهام أبلغ،قوله: [وأنتم تبصرون] لأنّهم ما كانوا يتحاشون من إظهار هذا الأمر القبيح ولا يتكاتمون أو المراد بصر القلب أي تعلمون أنّها قبيحة ولم يسبقكم أحد في هذا الأمر القبيح وإنّ الله لم يخلق الذكر للذكر فهي مضادّة لله في حكمته .

ثمّ بيّن الفاحشة الّتي يأتونها فقال : [أئنّكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون] أي تفعلون أفعال الجهّال من عاقبة العصيان [فما كان جواب قومه إلّا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنّهم أُناس يتطهّرون] عن إتيان الرجال في أدبارهم ، و إنّما قالوا ذلك على وجه الهزء .

ثمّ بيّن سبحانه أنّه ينجّي لوطاً وأهله إلّا امرأته وأهلك الباقين بقوله : [فأنجيناه و أهله إلّا امرأته قدّرناها] أي جعلناها [من الغابرين] أي الباقين في العذاب [وأمطرنا عليهم مطراً] فهو الحجارة [فساء مطر المنذرين] أي الّذين أبلغهم لوط النذارة و أعلمهم بموضع المخافة ليتّقوها فخالفوا و قد تقدّم شرح عذابهم .

[قل] يا محمّد : [الحمد لله] شكراً على نعمه بأن وفّقنا للإيمان ، وقيل : الحمد لله على هلاك الأُمم الكافرة [و سلام على عباده الّذين اصطفى] اصطفاهم الله و اجتباهم على بريّته . و قيل : هم آل محمّد صلى الله عليه وآله و معنى السلام عليهم أنّهم سلموا ممّا عذّب الله به الكفّار .

قوله : [آلله خير أمّا يشركون] مخاطباً للمشركين من أهل مكّة وعبدة الأصنام

وهذا إلزام الحجّة على المشركين بعد ذكر هلاكا ُولئك الفسقة بأنّ الله ينجّي عابديه من الهلاك والأصنام لم تغن شيئاً من عابديها عند نزول العذاب .

قوله تعالى : امن خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوها شجرها ءاله معالله بل هم قوم يعدلون (٦٠) أمن جعل الارض قراراً وجعل خلالها انهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا ءاله مع الله بل أكثرهم لايعلمون (٦١) أمن يجيب المضطر اذا دعاه و يكشف السوء و يجعلكم خلفاء الارض ءاله مع الله قليلا ماتذكرون (٦٢) امن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ءاله معالله تعالى الله عما يشركون (٦٣) امن يبدء الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض ءاله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين (٦٤) قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله ومايشعرون ايان يبعثون (٦٥) .

المعنى : ولمّا أمر سبحانه محمّداً بالحمد والشكر لربّه في مقابلة هذه النعمة أنّ الله لم يعذّب قومه كعذاب سائر الاُمم و أنّ عذاب الاستيصال مرتفع عن قومه و بكت المشركين بأنّهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله وهو الخالق لاُصول النعم و فروعها ومع هذا كيف تحسن عبادة ما لا منفعة منه ؟

فذكر أنواعاً من النعم فبيّن أنّه الّذي اختصّ بأن خلق السماوات والأرض وجعل السماء مكاناً للماء والأرض للنبات وما يتحصّل منها من الحدائق البهجة المونقة ولا يقدر على هذا الإنبات والإيجاد إلّا الله فالمختصّ بهذه الخلقة و هذا الإنعام يجب أن يختصّ بالعبادة دون غيره وهذا معنى قوله :

[أمّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها] و « أم » متّصلة في صدر الآية ، ومع ذلك [ءإله مع الله بل هم قوم يعدلون] عن هذا الحقّ الظاهر ، وقيل : معناه : يعدلون بالله سواه . وإنّما أتى بضمير الالتفات في قوله « فأنبتنا » لئلّا يتوهّم أنّ ملقي البذر هو منبت الشجرة ، تقول : أنا منبت الشجرة حيث أسقيها واُربّيها وأسعى في تشمّسها ، وفاعل السبب فاعل للمسبّب

فإذن أنا القائم بالأمر فقال سبحانه : « ما كان لكم أن تنبتوا شجرها » فلهذه النكتة حسن الالتفات .

النوع الثاني : [أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً] وذلك أنّه دحاها وسوّاها للاستقرار وجعلها متوسّطة في الصلابة والرخاوة فليست في الصلابة كالحجر الّذي يتألّم الإنسان بالاضطجاع عليها و ليست في الرخاوة كالماء الّذي يغوص فيه . و الثالث جعلها كثيفة غبراء ليستقرّ عليها النور ولو كانت لطيفة لما استقرّ النور عليها ولو لم يستقرّ النور عليها لصارت من شدّة بردها بحيث يموت الحيوانات . الرابع أنّه جعل الشمس بسبب ميل مدارها عن مدار منطقة الكلّ بحيث تبعد تارة وتقرب اُخرى من سمت الرأس ولولا ذلك لما اختلف الفصول ولما حصلت المنافع الأرضيّة من الربيعيّة والصيفيّة والخريفيّة والشتائيّة . والخامس أنّه سبحانه جعل الأرض ساكنة فإنّها لو كانت متحرّكة لم يحصل الانتفاع بالسكنى عليها . السادس يطرح عليها كلّ قبيح ويخرج منها كلّ مليح .

قوله : [و جعل خلالها أنهاراً] وجعل في الأرض أنهاراً .

اعلم أنّ المياه المنبعثة عن الأرض أربعة : الأوّل : ماء العيون السيّالة وهي تنبعث من أبخرة كثيرة المادّة قويّة الاندفاع تفجر الأرض بقوّة ثمّ لا يزال يستتبع جزء منها جزءاً . الثاني : ماء العيون الراكدة وهي تحدث من أبخرة بلغت من قوّتها أن اندفعت إلى وجه الأرض ولم تبلغ من قوّتها و كثرة مادّتها أن يطرد تاليها سابقها . الثالث : مياه القنى والأنهار وهي متولّدة عن أبخرة ناقصة القوّة عن أن تنشقّ الأرض فإذا اُزيل عن وجهها ثقل التراب صادفت حينئذ تلك الأبخرة منفذاً تندفع إليه بأدنى حركة . الرابع: مياه الآبار وهي نبعيّة كمياه الأنهار إلّا أنّه راكد و ليس له ميل إلى موضع يسيل إليه ونسبة القنى إلى الآبار نسبة العيون السيّالة إلى العيون الراكدة فلولا صلابة الأرض لما اجتمعت الأبخرة في باطن الأرض ولولا اجتماع الأبخرة في باطنها لما حدثت هذه العيون في ظاهرها .

قوله تعالى : [وجعل لها رواسي] هذه المنفعة الثالثة للأرض والمراد من الرواسي الجبال أثبتت بها الأرض لئلّا تميد وفيها منافع اُخر من العيون والسحب والمعدنيّات أمّا

العيون لأنّ الأرض إذا كانت رخوة نشفت الأبخرة عنها فلا يجتمع قدر يعتدّ به فالأبخرة النافعة لا تجتمع إلّا في الأرض الصلبة والجبال أصلب الأرض فلا جرم كانت أقواها على حبس هذا البخار حتّى يجتمع ما يصلح أن يكون مادّة للعيون فمستقرّ الجبل أملأ ماء، و يكون الجبل في حقن الأبخرة مثل الأنبيق الصلب المعدّ للتقطير و يمنع تحليل البخار بصلابته والأرض الّتي تحت الجبل كالقرعة والعيون كالأذناب والبخار كالمادّة ولذلك ترى أكثر العيون يتفجّر من الجبال وأقلّها في البراريّ و ذلك الأقلّ لا يكون إلّا إذا كانت الأرض صلبة بالنسبة وأمّا أنّ أكثر السحب تكون في الجبال لأنّ في باطن الجبال من النداوات ما لا يكون في باطن الأرضين الرخوة وأنّ الجبال بسبب ارتفاعها أبرد فلا جرم يبقى على ظاهرها من الأنداء و الثلوج ما لا يبقى على سائر الأرضين والسبب المحلّل وهو الحرّ أقلّ فلذلك أثر السحاب في الجبال أكثر .

المنفعة الرابعة للأرض قوله : [وجعل بين البحرين حاجزاً] المراد أن لا يفسد بالاتّصال كالمؤمن في قلبه بحران بحر الإيمان و الحكمة و بحر الطغيان و الشهوة وهو بتوفيقه جعل بينهما حاجزاً لكي لا يفسد أحدهما بالآخر .

قال بعض أهل المعرفة في قوله تعالى : « مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان[١] » قال : عند عدم البغي « يخرج منهما اللّؤلؤ والمرجان[٢] » يخرج ويظهر الإيمان والشكر في القلب فإن قيل : لمَ جعل البحر ملحاً قلنا لولا ملوحته لإجن وانتشر فساد اُجونته في الأرض وأحدث الوبا العامّ فلمّا بيّن أنّه المختصّ بالقدرة على خلق الأرض الّتي فيها مثل هذه المنافع العظيمة وجب أن يكون هو المختصّ بالإلهيّة والمعبوديّة .

[ءإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون] ولا يشعرون بالذهاب والتعمّق في هذه الاُمور .

قوله : [أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه] و الاضطرار الحالة المحوجة إلى الالتجاء وهو الّذي أحوجه أمر أو نازلة من نوازل الدهر أو مرض أو فقر إلى التضرّع إلى الله لدفعه . وقيل : الّذي لا حول ولا قوّة له . وقيل : المذنب إذا استغفر .

(١ـ٢) الرحمن : ٢٠ ، ٢٢ .

فإن قيل: قد عمّ المضطرّين بهذا القول و كم من مضطرّ يدعو فلا يجاب له ؛ فجوابه قد ذكر في أُصول الفقه أنّ المفرد المعرّف لايفيد العموم وإنّما يفيد الماهيّة فقط والحكم المثبت للماهيّة يكفي في صدقه ثبوته في فرد من أفراد الماهيّة على أنّه تعالى وعد بالاستجابة ولم يذكر أنّه يستجيب في الحال.

وأمّا قوله: [ويكشف السوء] فهو كالتفسير للاستجابة فإنّه لا يقدر على كشفه إلّا القادر الّذي لا يعجزه أمر.

[ويجعلكم خلفاء الأرض] يخلف كلّ قرن منكم القرن الّذي قبله فيهلك قرناً وينشيء قرناً. وقيل: يجعلكم خلفاء من الكفّار بنزول بلادهم وطاعة الله تعالى بعدشركهم [ءإله مع الله قليلاً ما تذكّرون] أي قليلاً ماتتّعظون، و«ما» زائدة للتأكيد.

[أمّن يهديكم في ظلمات البرّ والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته] أي أم من يرشدكم إلى القصد والسمت في البرّ و البحر بما نصب لكم من الدلالات و العلامات من الكواكب و القمر إذا ضللتم وجنّ عليكم اللّيل مسافرين في البرّ والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ؟ فإنّه سبحانه هو الّذي يحرّك الرياح فتثير السحاب ثمّ تسوقه إلى حيث يشاء.

فإن قيل: إنّ الفلاسفة قالت: الرياح إنّما يتولّد عن الدخان و ليس الدخان كلّه هو الجسم الأسود المرتفع ممّا احترق بالنار بل كلّ جسم أرضيّ يرتفع بتصعيد الحرارة سواء كانت الحرارة حرارة النار أو حرارة الشمس فهو دخان. وقالوا: وتولّد الرياح من الأدخنة بسبب صعود الأدخنة إلى فوق فعند وصولها إلى الطبقة الباردة ينكسر حرّها بسبب برد ذلك الهواء لا محالة فينزل فيحصل من نزولها تموّج الهواء فتحدث الريح و ربّما أوجبت هيئة صعود تلك الأدخنة من تحت مانعاً للأدخنة النازلة من فوق إلى أن يغفل ذلك فلأجل هذا السبب يتحرّك إلى سائر الجوانب فتحدث رياحاً متفرّقة.

واعلم أنّ أهل الاسلام أوردوا على فساد هذه العلّة وجوهاً: الأوّل أنّ الأجزاء الدخانيّة أرضيّة فهي أثقل من الأجزاء البخاريّة المائيّة و أجزاء البخاريّة لمّا يبرد ينزل

على الخطّ المستقيم مطراً فالدخان لمّا يبرد فلما ذا لم ينزل على الخطّ المستقيم بل يذهب يمنة ويسرة ؟

فإن قلت : لولا مصادفة صعود بعض الأدخنة حين نزول الأدخنة النازلة من فوق كان يلزم أن ينزل إلى خطّ مستقيم ولكن هذا التصادف يذهب به يمنة ويسرة .

فالجواب أنّ حركة تلك الأجزاء إلى أسفل طبيعيّة وحركتها يمنة يسرة عرضيّة ، والطبيعيّة أقوى من العرضيّة ، وإذا لم يكن طبيعيّة أقوى من العرضيّة فلا أقلّ من المساوات ثمّ إنّ الريح عند حركتها يمنة و يسرة ربّما تقوى على قلع الأشجار و رمي الجدار بل الجبال فتلك الأجزاء الدخانيّة عند ماتحرّكت حركتها الطبيعيّة الّتي وهي الحركة إلى السفل وجب أن تهدم السقوف و نحن نرى الغبار نزل من الهواء ولا يحسّ بنزوله من أن يهدم شيئاً فثبت فساد ما ذكروه في علّة الرياح .

على أنّه يقول هب إنّ الأمر كما ذكروه ولكنّ الأسباب الفاعليّة والقابليّة لها مخلوقة لله فإنّه لولا الشمس و تأثيرها في تصعيد الأبخرة والأدخنة ولولا طبقات الهواء لما حدثت هذه الأمور و معلوم أنّ من وضع أسباباً أدّت إلى منافع عجيبة و حكمة بالغة فذلك الواضع هو الّذي فعل تلك المنافع فهو الّذي يرسل الرياح والأمطار ويوجد بأمره ما يحتاج إليه خلقه فسبحان المتفرّد بالإيجاد ولايشاركه أحد من العباد .

قوله تعالى : [أمّن يبدء الخلق ثمّ يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض] أمّن يبدء ويخترع الخلق وينشئه على غيرمثال واحتذاء ثمّ يميته فيعيده بعد الإماتة . فإن قيل : كيف يقال لهم : « ثمّ يعيده » وهم منكرون للإعادة ؟ لأنّهم كانوا معترفين بالابتداء ودلالة الابتداء على الإعادة دلالة قويّة .

[ءإله مع الله] مع أنّه أنشأكم وما أنشأكم غيره و رزقكم من السماء والأرض قل لهم إذا كان لكم في شريكي برهان : [فائتوا به إن كنتم صادقين * قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلّا الله ومايشعرون أيّان يبعثون] لمّا بيّن أنّه المختصّ بالقدرة والإيجاد فكذلك بيّن أنّه المتختصّ بعلم الغيب . فلو قيل : معنى الاستثناء أن يكون سبحانه من الّذين في السماوات والأرض وذلك يوجب كونه في المكان وهو منزّه عن مثل

هذه الأمور بل معناه أنّه في كلّ مكان على أنّه محيط بكلّ مكان وعلمه في الأماكن كلّها لا أنّه متحيّز في مكان من السماوات والأرض .

قل يا محمد لا يعلم من في السماوات و الأرض من الملائكة و الإنس و الجنّ الغيب - والغيب ماهوغائب علمه عن الخلق ممّا يكون في المستقبل - إلّا الله وحده ومن أعلمه الله « وما يشعرون أيّان يبعثون » أي ما يعلمون أهل السماوات ولا أهل الأرض أيّان أي متى ، و كلمة أيّان مركّبة من أيّ وأن وهوالوقت أي أيّ وقت يحشرون فصار علم الساعة علم الغيب .

قوله تعالى : بل ادارك علمهم فى الاخرة بل هم فى شك منها بل هم منهاعمون(٦٦) وقال الذين كفروا أئذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون (٦٧) لقد وعدنا هذا نحن وآباءنا من قبل ان هذا الا أساطير الاولين (٦٨) قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين (٦٩) ولاتحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون (٧٠) ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين(٧١) قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون (٧٢) وان ربك لذوفضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون(٧٣) وان ربك ليعلم ما تكن صدوركم وما يعلنون (٧٤) وما من غائبة فى السماء والارض الا فى كتاب مبين (٧٥)

وفي « ادّارك » لغات و اللفظ بصيغة الماضي والمراد به الاستقبال أي يتدارك علمهم ويستحكم ويتكامل علمهم وحاصل المعنى: أنّه سيدرك علمهم في الآخرة بوقوع القيامة حين لاينفعهم اليقين . وقيل : معناه : أدرك هذا العلم جميع العقلاء لو تفكّروا ونظروا لأنّ العقل يقتضي أنّ الإهمال قبيح فلابدّ من تكليف والتكليف يقتضي الجزاء و إذا لم يكن ذلك في الدنيا فلابدّ من دار الجزاء .

وقيل : إنّ الآية إخبار عن ثلاث طوائف : طائفة أقرّت بالبعث ، و طائفة شكّت فيه ، وطائفة تفقّه كما قال سبحانه في الطائفة الشاكّة : [بل هم في شكّ منها] وفي الثالثة : [بل هم منها عمون] .

وقيل : على كونهم موصوفين بتتابع العلم تهكّم بهم كما تقول لأجهل الناس : ما

أعلمك ! على سبيل الهزؤ وذلك حيث شكّوا في إثبات ماهو الطريق إليه واضح ظاهر ، و المراد بالعمى عمى القلب وعمون جمع عمى لتركهم التدبّر و النظر .

قوله : [وقال الّذين كفروا] بإنكارهم البعث [أئذا كنّا تراباً وآباؤنا أئنّا لمخرجون] فحكى الله سبحانه عنهم أنّهم تعجّبوا من إخراجهم أحياء وقد صاروا تراباً وطعنوا بقولهم: [لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل] أي هذا كلام كما قيل لنا قيل لآبائنا من قبل أن يقال لنا [إن هذا] الكلام أي ليس [إلّا أساطير الأوّلين] يريدون قصصاً غير صحيحة [قل] يا محمّد : [سيروا فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين] أي كيف أهلك الله المكذّبين بآياته وخرّب بلادهم و أبادهم .

قوله [ولاتحزن عليهم] على تكذيبهم و تركهم الإيمان [ولاتكن في ضيق] و هو ما يضيق به الصدر [ممّا يمكرون] أي يدبّرون في أمرك بأنّ الله تعالى يحفظك و ينصرك عليهم .

[ويقولون متى هذا الوعد] الّذي تعدنا يا محمّد من العذاب : [إن كنتم صادقين] بأنّه يكون [قل] يا محمّد [عسى أن يكون ردف لكم] أي قرب لكم ؟ فأجابهم الله عسى و قرب لكم [بعض الّذي تستعجلون] وهو عذاب يوم بدر، واللام زائدة للتأكيد كالباء في ولا تلقوا بأيديكم (١) ، أوضمّن معنى فعل يتعدّى باللام نحو و دنى لكم وأزف لكم و معنى ردف لكم تبعكم و لحقكم ، و عسى ولعلّ في وعد الملوك وعيدهم يدلّان على صدق الأمر وإنّما يعنون بذلك أظهار وقارهم ولأنّهم لا يعجلون بالانتقام لوثوقهم بأنّ الطلب من عدوّهم لا يفوتهم .

ثمّ إنّه سبحانه بيّن السبب في عدم تعجيل العذاب فقال :] و إنّ ربّك لذو فضل على النّاس] يتفضّل عليهم بتأخير العقوبة [ولكنّ أكثرهم لايشكرون] ولايعرفون هذا النعمة و هذه الآية تبطل قول القائل بأنّه لا نعمة لله على الكفّار .

ثمّ بيّن أنّه سبحانه مطّلع بما قلوبهم فقال : [وإنّ ربّك ليعلم ماتكنّ صدورهم و مايعلنون]وقدّم ماتكنّه لأنّ ما يكنّه الصدور هو الدواعي وأسباب ومعدّات لما يعلنون

(١) البقرة : ١٩٥ .

من أفعال الجوارح ، والعلم بالعلّةعلّة للعلم بالمعلول ، وحاصل المعنى أنّه عالم بالظاهر و الباطن بما يخفون من النفاق والكيد في حقّ النبيّ .

[و ما من غائبة في السماء والأرض إلّا في كتاب مبين] التاء في غائبة كالتاء في العافية و العاقبة والنطيحة والذبيحة في أنّها أسماء غير صفات ويجوز أن تكون تاؤها للمبالغة كالراوية مثل قولهم ويل للشعر من راوية السوء كأنّه قال سبحانه : و ما من شيء شديد الغيبوبة و الخفاء إلّا و علمه الله وأحاط به وأثبته في اللوح المحفوظ ، والمبين الظاهر البيّن لمن ينظر فيه من الملائكة .

قوله تعالى : ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون(٧٦) و انه لهدى و رحمة للمؤمنين (٧٧) ان ربك يقضى بينهم بحكمه و هو العزيز العليم(٧٨) فتوكل على الله انك على الحق المبين (٧٩) انك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء اذا ولوامدبرين(٨٠) و ما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ان تسمع الامن يؤمن بآياتنا فهم مسلمون (٨١) و اذا وقع القول عليهم أخرجنالهم دابة من الارض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لايوقنون(٨٢) ويوم نحشر من كل امة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون(٨٣) حتى اذا جاءوا قال أكذبتم بآياتي و لم تحيطوا بها علماً اما ذا كنتم تعملون(٨٤) ووقع القول عليهم بماظلموا فهم لاينطقون (٨٥) .

لمّا تمّ الكلام في المبدأ والمعاد شرع بما فيه إثبات للنبوّة و لمّا كانت العمدة في إثبات نبوّة محمد صلى الله عليه وآله القرآن بيّن أنّ الأقاصيص المذكورة في القرآن موافقة لما كانت مذكورة في التوراة والإنجيل(١) مع العلم بأنّه صلى الله عليه وآله كان أُمّيّاً ولم يخالط أحداً من العلماء ولم يشتغل بالاستفادة و التعلّم فإذن لايكون ذلك إلّا من قبل الله و[هذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل أكثر] مختلفاتهم من حديث مريم و عيسى و النبيّ المبشّر به في التوراة حيث قال بعضهم : هو يوشع ، و قال بعضهم : لا ، بل هو منتظر لم يأت بعد .

[وإنّه] أي القرآن [لهدى و رحمة للمؤمنين] و ذلك لأنّه لمّا تأمّلنا القرآن

(١) بل هو الاصل القويم الذى يصحح هفوات الكتابين به ، فان الموجود بيد اهل الكتاب لم يكن الا المحرف الذى نسب فيه اشنع الاتهام الى الانبياء الكرام .

فوجدنا فيه من الدلائل العقليّة على التوحيد والمعاد و النبوّة و الشرائع الّتي موافقه لنظام العالم ومبرّء عن شائبة الانتقاد و التصرّف بحيث لا يتمكّن أحد أن يقول : لو كان هذا الحكم الّذي في القرآن لوتبدّل بهذا الحكم لكان أحسن أوحسن و هذا معنى الهداية و الرحمة و النعمة .

[إنّ ربّك يقضي بينهم بحكمه] يريد بين المختلفين في الدين يوم القيامة فلوقيل: إنّ القضاء و الحكم بمعنى واحد أي قضاؤه بعد له لأنّ حكمه لايقتضي إلّا العدل وقرىء بحكمه جمع حكمة [و هوالعزيز] الغالب على أمره [العليم] بكلّ شيء .

ثمّ أمر نبيّه بعد ظهور نبوّته وإظهار حججه بأن يتوكّل على الله ولا يلتفت إلى أعداء الله فقال سبحانه : [فتوكّل على الله] ثمّ علّل ذلك أمرين : أحدهما قوله : [إنّك على الحقّ] الظاهر [المبين] و من حقّ المحقّ التوكّل والانتظار لنصرة الله والثاني قوله : [إنّك لاتسمع الموتى] لأنّهم لايلتفتون إلى شيء من الدلائل [ولاتسمع الصمّ الدعاء] والأصمّ لايسمع الدعوة . قوله : [إذا ولّوا مدبّرين] تأكيد لبيان حال الأصمّ لأنّه إذا تباعد عن الداعي بأن تولّى عنه مدبّراً كان أبعد عن إدراك صوته فحال أولئك مثل حال الميّت الأصم المدبر والحاصل أنّ إسماعك إيّاهم مايجدي لهم نفعاً .

قوله : [وماأنت بهادي العمي عن ضلالتهم] في الدين بالآيات الدالّة على الهدى إذا أعرضوا عنها كما لا يمكنك أن تهدي الأعمى إلى قصد الطريق فجعل سبحانه الجهل بمنزلة العمى لأنّه يمنع عن إدراك الحقّ كما يمنع العمى عن إدراك المبصرات . قوله:[إن تسمع إلّا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون] أي ماتسمع إلّا من يطلب الحقّ بالنظر في آياتنا فهم منقادون و مستسلمون .

قوله : [وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابّة من الأرض تكلّمهم] أي إذا وجب العذاب عليهم وذلك عند خروج القائم وأنّ نزول العذاب بهم عند اقتراب الساعة فيسمّى المقول قولاً كما يقال : جاء الخبير الّذي قلت ويراد به المخبر قال أبوسعيد الخدريّ وابن عمر : وذلك إذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر وجب السخط عليهم وأخذوا بمبادىء العذاب أخرجنا لهم دابّة من الأرض و ذلك من أشراط الساعة يخرج بين الصفا

و المروة فتخبر المؤمن بأنّه مؤمن والكافر بأنّه كافر وعند ذلك يرتفع التكليف ولا تقبل التوبة حينئذ . و قيل : لا يبقى مؤمن إلّا مسحته ولا يبقى منافق إلّا حطيّته يخرج ليلة جمع و الناس يسيرون إلى منى . وروى محمّد بن كعب القرطبي قال : سئل علي عليه السلام عن الدابّة فقال : أما و الله مالها ذنب و إنّ لها اللحية . و في هذا البيان إشارة إلى أنّها من الإنس. وروي عن ابن عبّاس أنّها دابّة من دوابّ الأرض لها زغب [١] وريش ولها قوائم أربع . و عن حذيفة قال : دابّة الأرض ستّون ذراعاً لا تدركها طالب ولا يفوتها هارب فيتسم المؤمن بين عينيه و يكتب بين عينيه مؤمن وتسم الكافر بين عينيه كافر و معها عصا موسى و خاتم سليمان فتجلو وجه المؤمن بالعصا و تختم أنف الكافر بالخاتم حتّى يقال: يامؤمن وياكافر.

وروي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه يكون للدابّة ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خروجاً بأقصى المدينة فيفشو ذكرها في البادية ولا يدخل ذكرها القرية يعني مكّة ثمّ تمكث زماناً طويلاً ثمّ تخرج خرجة أُخرى قريباً من مكّة فيفشو ذكرها في البادية و يدخل ذكرها القرية يعني مكّة ثمّ سار الناس يوماً في أعظم المساجد على الله حرمة و أكرمها على الله يعني المسجد الحرام ولم ترعهم إلّا وهي من ناحية المسجد تدنو كذا و كذا ما بين الركن الأسود إلى باب بني مخزوم فيرفض الناس عنها و يثبت لها عصابة عرفوا أنّهم لن يعجزوا الله فخرجت عليهم بنعض رأسها من التراب فمرّت بهم فجلّت عن وجوههم حتى تركها كأنّها الكوكب الدرّيّة ثمّ ولّت في الارض لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب حتّى أنّ الرجل ليقوم فيتعوّذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفة فيقول : يافلان الآن تصلّي؟ فيقبل عليها بوجهه فتسمه في وجهه . وقرىء تكلّمهم بغير التشديد من الكلم لا من الكلام بمعنى الجرح.

والقمّي عن الصادق عليه السلام - وهو أصحّ الأقوال - قال : أتى رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى أمير المؤمنين عليه السلام و هو نائم في المسجد قد جمع رملاً و وضع رأسه عليه فحرّكه صلّى الله عليه وآله برجله ثمّ قال له : قم يا دابّة الأرض فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله أيسمّي بعضنا بعضاً بهذا الاسم فقال صلّى الله عليه وآله: لا والله ما هو إلّا له خاصّة و هو دابّة الأرض الّذي ذكر الله في كتابه فقال عزّ وجلّ: «وإذا وقع القول عليهم » الآية ، ثمّ قال : يا عليّ إذا كان

---

(١) صغار الشعر والريش .

آخر الزمان أخرجك الله في أحسن صورة و معك ميسم تسم به أعداءك .

وعنه عليه السلام قال : قال الرجل لعمّار بن ياسر : يا أبا اليقظان إنّ آية في كتاب الله قد أفسدت قلبي و شكّكتني ، فقال : و أيّة آية هي ؟ قال : قوله تعالى : « و إذا وقع القول » الآية ، فأيّة دابّة هذه ؟ قال عمّار : والله ما أجلس ولا آكل ولا أشرب حتّى اُريكها فجاء عمّار مع الرجل إلى أمير المؤمنين وهو يأكل تمراً فقال عليّ عليه السلام : يا أبا اليقظان ! هلمّ فأقبل عمّار و جلس يأكل معه فتعجّب الرجل منه فلمّا قام عمّار قال الرجل : سبحان الله إنّك حلفت أن لا تأكل ولا تشرب ولا تجلس حتّى تريني الدابّة ، قال : قد أريتك إن كنت تعقل . وفي المجمع أنّه روى العيّاشيّ هذه القصّة بعينها عن أبي ذرّ أيضاً .

و في الكافي عن الباقر عليه السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : و لقد اُعطيت الستّ : علم المنايا والبلايا والوصايا وفصل الخطاب وإنّي لصاحب الكرّات ودولة الدول و إنّي لصاحب العصا والميسم والدابّة الّتي تكلّم الناس .

و في الإكمال عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث بعد أن يذكر الدجّال ومن يقتله قال : ألا إنّ بعد ذلك الطامّة الكبرى قيل : وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : خروج دابّة الأرض من عند الصفا معها خاتم سليمان و عصا موسى تضع الخاتم على وجه كلّ مؤمن فيستطبع فيه : هذا مؤمن حقّاً ويضعه على وجه كلّ كافر فيكتب : هذا كافر حقّاً ، حتّى ينادي المؤمن الويل لك حقّاً يا كافر ، وأنّ الكافر ينادي طوبى لك يا مؤمن وودت أنّي كنت مثلك فأفوز فوزاً عظيماً . ويرفع الدابّة رأسها من بين الخافقين بإذن الله و ذلك بعد طلوع الشمس من مغربها فعند ذلك ترفع التوبة فلا تقبل توبة ولا عمل ينفع و يرفع ولا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ثمّ قال عليه السلام لا تسألون عمّا يكون بعد هذا فإنّه عهد إليّ حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله أن لا اُخبر به غير عترتي .

قوله : [تكلّمهم أنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون] تكلّم الدابّة بما يسوؤهم ويتحدّثهم بأنّ هذا مؤمن وهذا كافر ، وعلى هذا المعنى قوله : « إنّ الناس كانوا » من كلام الله ، وقيل : من كلام دابّة الأرض تكلّمهم بأن تقول لهم : إنّ الناس كانوا بآياتنا ، معناها بكلامها وخروجها لا يوقنون . و قرأ ابن مسعود : تكلّمهم بأنّ الناس . وبإنّ المكسورة

حكاية لقول الدابّة وإذا كان حكاية قول الله بيّن به أنّه أخرج الدابّة لهذه العلّة أنّهم ما كانوا يوقنون بآياتنا

فإن قيل : إذا كانت حكاية لقول الدابّة فكيف يقول : بآياتنا ؟ على معنى بآيات ربّنا أو كما يقول بعض خاصّة الملك : خيلنا وبلادنا ، وإنّما هي خيل مولاه وبلاده . هذه على قراءة « إنّ الناس » بالكسر وعلى قراءة الفتح فعلى حذف الجارّ أي تكلّمهم بأنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون .

قوله : [ويوم نحشر من كلّ اُمّة فوجاً ممّن يكذّب بآياتنا فهم يوزعون] أي يدفعون أو يحسبون و«من» الأولى للتبعيض والثانية للتبيين .

و استدلّ الإماميّة بهذه الآية على صحّة الرجعة و قالوا : إنّ دخول « من » في الكلام يوجب التبعيض فدلّ ذلك على أنّ اليوم المشار إليه في الآية يحشر فيه قوم دون قوم و ليس ذلك صفة يوم القيامة الّذي يقول فيه سبحانه : « وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً [1] » وقد تظاهرت الأخبار عن أئمّة الهدى من آل محمّد من أنّ الله تعالى سيعيد عند قيام المهديّ قوماً ممّن تقدّم موتهم من أوليائه وشيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته ويبتهجوا بظهور دولته ويعيد قوماً من أعدائه لينتقم منهم وينالوا بعض ما يستحقّونه من العقاب في القتل على أيدي شيعته و يرون الذلّ و الخزي بما يشاهدون من علوّ كلمته ، ولا يشكّ عاقل أنّ هذا الأمر مقدور لله تعالى غير مستحيل في نفسه وقد فعل الله مثل ذلك في الاُمم الخالية ونطق به القرآن في عدّة مواضع مثل قصّة عزير وغيره على ما فسّر في موضعه وصحّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله قوله : سيكون في اُمّتي كلّ ما كان في بني إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذّة بالقذّة حتّى لو أنّ أحدهم دخل في جحر ضبّ لدخلتموه .

ولو أنّ جماعة من الإماميّة تأوّلوا ما ورد من الأخبار في الرجعة على رجوع الدولة والأمر والنهي والشوكة للمهديّ عليه السلام دون رجوع الأشخاص و إحياء الأموات وأوّلوا الأخبار الواردة في هذا الباب لما ظنّوا أنّ الرجعة تنافي التكليف و ليس كذلك لأنّه ليس فيها ما يلجىء إلى فعل الواجب و يلجىء إلى الامتناع من القبيح و إذا كان الأمر

(١) الكهف : ٤٨ .

كذلك فالتكليف يصح معها كما كان يصح مع ظهور المعجزات الباهرة والآيات القاهرة كفلق البحر وانقلاب العصا ثعباناً وما أشبه ذلك .

وبالجملة فهذا المعنى الذي بيّنّا على أنّ المراد من هذا الحشر في الرجعة المهدويّة صلوات الله عليه ، وأمّا على قول من قال : المراد به يوم القيامة قال : المراد بالفوج الجماعة من الرؤساء والمتبوعين في الكفر حشروا وجمعوا لإقامة الحجّة عليهم .

[حتّى إذا جاءوا] إلى موقف الحساب قال الله تعالى لهم : [أكذّبتم بآياتي] أي كذّبتم بأنبيائي ودلالاتي الدالّة على ديني [ولم تحيطوا بها علماً] ولم تطلبوا معرفة ديني ولم تبنوا ما أوجب الله عليكم فيها ، والواو حاليّة بجملة مفيدة لزيادة شناعة التكذيب أي أجمعتم بين التكذيب و عدم الإحاطة في التدبّر بالآيات [أم ما ذا كنتم تعملون] أي أيّ شيء كنتم تعملون غير ذلك بمعنى أنّه لم يكن لهم عمل غير ذلك ولم يخلقوا إلّا لهذا الأمر وهو المعرفة والطاعة وهم عكسوا القصّة كأنّهم لم يخلقوا إلا للكفر و المعصية فيخاطبون بهذا الكلام تبكيتاً ثمّ يكبّون في النار وذلك قوله : [ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون] يريد أنّ العذاب الموعود يغشاهم بسبب التكذيب فيشغلهم عن النطق و الاعتذار ، هذا البيان على المعنى الثاني وأمّا على المعنى الأوّل المراد بالتكذيب بالآيات تكذيب الأئمّة الطاهرين .

قوله تعالى : ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ان فى ذلك لايات لقوم يؤمنون (٨٦) و يوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات و من فى الارض الا من شاء الله و كل أتوه داخرين (٨٧) و ترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى اتقن كل شىء انه خبير بما تفعلون (٨٨) من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون (٨٩) ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون الا ما كنتم تعملون (٩٠) انما امرت أن اعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء وامرت أن أكون من المسلمين (٩١) و أن أتلو القرآن فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل انما أنا من المنذرين (٩٢) وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون (٩٣) .

المعنى : ثمّ بيّن سبحانه قدرته على الإعادة والبعث بما احتجّ به على الكفّار فقال: [ألم يروا أنّا جعلنا اللّيل ليسكنوا فيه] عن التعب والحركات [والنهار] أي يبصر فيه ويمكن التصرّف فيه لضيائه ويدرك بنوره جميع الأشخاص كما يدرك بنور البصر و جعل الإبصار للنهار وهو لأهله تنبيهاً على أنّ هذه الصفة فيه [إنّ في ذلك لآيات] دلالات [لقوم يؤمنون] .

[و] اذكر [يوم ينفخ] إسرافيل بأمر الله [في الصور] ويجوز أن يكون على حذف في الكلام والتقدير: ويوم ينفخ في الصور يكون النشأة الثانية . واختلف في معنى الصور فقيل : هو صور الخلق جمع صورة ، و قيل : هو قرن ينفخ فيه شبه البوق و قد ورد ذلك في الحديث .

[ففزع من في السماوات و من في الأرض] أي ماتوا لشدّة الخوف والفزع يدلّ عليه قوله في موضع آخر: «فصعق من في السماوات [1]» الآية وقيل : هي ثلاث نفخات: الاُولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخ القيام لربّ العالمين [إلّا من شاء الله] من الملائكة الّذين يثبت الله قلوبهم وهم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، وقيل: يعني الشهداء فإنّهم لا يفزعون في ذلك اليوم .

[وكلّ أتوه داخرين] أي كلّ من الأحياء الّذين ماتوا يأتونه في المحشر أذلّاء صاغرين، وإنّما أتى سبحانه بلفظ الماضي في قوله «ففزع وأتوه» ولم يقل يفزع، للإشعار بتحقيق الأمر وثبوته و أنّه كائن لا محالة لأنّ فعل الماضي يدلّ على وجود الفعل و كونه مقطوعاً به . وقيل في الاستثناء : المراد الحور وخزنة النار وحملة العرش ، وعن جابر: أنّ موسى منهم لأنّه صعق مرّة ، وقرىء « أتاه داخرين » والدخير الصاغر .

قوله : [وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب] هذه العلامة الثالثة وهي تسيير الجبال والوجه في حسبانهم أنّها جامدة فلأنّ الأجسام الكبار إذا تحرّكت حركة سريعة على نهج واحد في السمت والكيفيّة ظنّ الناظر إليها أنّها واقفة مع أنّها تمرّ مرّاً حثيثاً ويتخيّل الرائي أنّها واقفة مكانها لاتسير ولاتتحرّك في مرءى العين وفي مثل هذا

(١) الزمر : ٦٨ .

المعنى قول النابغة الجعدي يصف جيشاً :

بارعن مثل الطود تحسب أنّهم ❊ وقوف لحاج والركاب تمهّج

أي تحسب أنّهم وقوف لكثرتهم فكذلك الجبال إنّك لا ترى سيرها لبعد أطرافها كما لا ترى السحاب إذا انبسط وتراكم .

[صنع الله الّذي أتقن كلّ شيء إنّه خبير بما تفعلون] أي جعل هذا الصنع من جملة الأشياء الّتي أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب، وفي الآية دلالة على أنّ القبائح ليست من خلقه وإلّا وجب وصفها بأنّها متقنة «إنّه خبير بما تفعلون» أي عليم بما يفعل أعداؤه من المعصية وبما يفعل أولياؤه من الطاعة .

ثمّ أخبر سبحانه (؟) الجزاء على أفعال الفريقين فقال : [من جاء بالحسنة فله خير منها] أي من أتى بكلمة التوحيد ، وقيل : بالإيمان و وافى يوم القيامة فله الخير من تلك الحسنة ويصل الخير إليه بسبب تلك الحسنة وهو الثواب والأمن من العقاب . و«خير» اسم ليس صيغة التفضيل [وهم من فزع يومئذ آمنون] قيل : إذا أطبقت النار على أهلها فزعوا فزعة لم يفزعوا مثلها و أهل الحسنة آمنون من ذلك الفزع .

[ومن جاء بالسيّئة] أي المعصية الكبيرة الّتي هي الكفر والشرك ، عن ابن عبّاس وأكثر المفسّرين [فكبّت وجوههم في النار] أي اُلقوا في النار على وجوههم [هل تجزون إلّا ما كنتم تعملون] يعني يقال لهم : إنّ هذا جزاء فعلكم وليس بظلم .

حدّثنا [(١)] السيّد أبوالحامد مهديّ بن نزار الحسينيّ بحذف الأسانيد في تفسير هذه الآية قال أميرالمؤمنين عليه السلام : الحسنة حبّنا أهل البيت والسيّئة بغضنا. وأيضاً حدّثنا أبوالحامد بحذف الأسانيد من صاحب هذه النسخة عن جابر عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : يا عليّ لو أنّ اُمّتي صاموا حتّى صاروا كالحنايا ثمّ أبغضوك لأكبّهم الله على مناخرهم في النار .

قوله تعالى : [إنّما اُمرت أن أعبد ربّ هذه البلدة] كأنّه قيل لنبيّه : قل لهم : إنّما اُمرت أن أعبد ربّ مكّة ، وقيل : هي منى [الّذي حرّمها] أي جعلها حرماً آمناً

(١) منقول من المجمع .

يحرم فيها ما يحلّ في غيرها لا ينفر صيدها ولا يقتصّ فيها [وله كلّ شيء] ومالك كلّ شيء ممّا أحلّه وحرّمه فيحرّم ما شاء ويحلّ ما شاء [و أُمرت أن أكون من المسلمين] المخلصين لله بالتوحيد [و]أُمرت [أن أتلو] عليكم[القرآن] وأدعوكم إلى ما فيه .

[فمن اهتدى] إلى الحقّ والعمل بما فيه [فإنّما يهتدي لنفسه] و راجع نفعه إليه و جزاؤه يصل إليه [ومن ضلّ] و جار ولم يعمل بما فيه ولم يهتد إلى الحقّ [فقل] له يا محمّد[إنّما أنا من المنذرين]الّذين يخوّفون بعقاب الله ولا أقدر على إكراههم على الإيمان والدين [وقل الحمد لله] اعترافاً بنعمته إذ اختارني لرسالته [سيريكم آياته]يوم القيامة [فتعرفونها] وتعرفون حينئذ أنّها على ما أُخبرتم بها في الدنيا ورأوا ذلك حين عجلوا بهم إلى النار [وما ربّك بغافل عمّا تعملون] بل هو عالم بجميع ذلك فيجازيكم عليها . وإنّما يؤخّر عقابكم إلى وقت يقتضيه الحكمة . تمّت السورة .

سورة القصص

☆(مكية)☆

فضلها : أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال : من قرأ طسم القصص أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بموسى و كذّب به ولم يبق ملك في السماوات و الأرض إلّا شهد له يوم القيامة أنّه كان صادقاً أنّ كلّ شيء هالك إلّا وجهه .

لمّا أمر سبحانه في خاتمة تلك السورة بتلاوة القرآن بيّن في هذه السورة أنّ « طسم » من تلك الآيات القرآن فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

طسم (١) تلك آيات الكتاب المبين (٢) نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون (٣) ان فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين (٤) ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين (٥) ونمكن لهم في الارض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (٦) .

[طسم] معناه كسائر الفواتح من السور وقد تقدّم فيها ، و [تلك] إشارة إلى [آيات] السورة ، و [الكتاب المبين] هو إمّا اللوح وإمّا الكتاب الّذي وعد الله إنزاله على محمّد ﷺ وحاصل المعنى أنّ آيات هذه السورة هي آيات ذلك الكتاب ووصفه بأنّه مبين لأنّه بيّن فيه الحلال والحرام أو لأنّه بفصاحته وإعجازه بيّن أنّه من كلام الخالق دون الخلق أو لأنّه بيّن خبر الأوّلين والآخرين .

قوله تعالى : [نتلو عليك من نبأ موسى و فرعون بالحقّ] أي نتلو على لسان جبرئيل لأنّه كان يتلو على محمّد ﷺ فيحفظه ، بعض خبر [موسى وفرعون] بالحقيقة [لقوم يؤمنون] لأنّهم المنتفعون بمواعظ الله ولو أنّ غيرهم مأمورون بالانتفاع .

قوله : [إنّ فرعون علا في الأرض] وقرىء بضمّ الفاء ، استكبر وتجبّر في أرض مملكته أرض مصر وتوابعها [وجعل أهلها شيعاً] أي فرقاً فرقاً وفرّق بين القبط وبين بني إسرائيل أكرم أقواماً من القبط و أذلّ آخرين من بني إسرائيل بالاستعباد والاستعمال في الأعمال الشاقّة وأغرى بينهم العداوة ليكونوا له أطوع .

[يستضعف طائفة منهم] أي يستخدم بني إسرائيل و [يذبّح أبناءهم] و يبقي [نساءهم] والسبب في ذلك أنّ كاهناً قال له : يولد مولود في بني إسرائيل في ليلة كذا يذهب

ملكك على يده فولد تلك اللّيلة اثناعشر غلاماً فقتلهم أجمع وبقي هذا العذاب في بني إسرائيل سنين متطاولة . قال وهب : قتل القبط في طلب موسى عليه السلام خوفاً من قول الكاهن تسعين ألفاً من بني إسرائيل . وقيل : إنّ السبب على إقدام فرعون على قتل بني إسرائيل أنّ فرعون رأى في منامه أنّ ناراً قبلت من بيت المقدس واشتملت على مصر فأحرقت القبط دون بني إسرائيل.فسأل عن رؤياه ،فقالوا : يخرج من هذا البلد الّذي جاء منه بنوإسرائيل رجل يكون على يده هلاك مصر فأمر بقتل الذكور . و قيل : السبب في ذلك أنّ الأنبياء الّذين كانوا قبل موسى بشّروا بمجيء موسى وكان فرعون قدسمع ذلك فلهذا كان يذبح أبناء بني إسرائيل .

[إنّه كان من المفسدين] بسبب القتل .

[ونريد أن نمنّ على الّذين استضعفوا في الأرض] المعنى : إنّ فرعون كان يريد إهلاك بني إسرائيل وإفناءهم ونحن نريد أن نمنّ عليهم ، و«نريد أن نمنّ» جملةمعطوفة على قوله «إنّ فرعون علا في الأرض» واُريد به حكاية حال ماضية و يجوز أن يكون حالاً من يستضعف أي يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمنّ عليهم .

[ونجعلهم أئمّة ونجعلهم الوارثين] ونجعلهم قادة ورؤساء في الخير والدين يقتدى بهم ونجعلهم الوارثين لديار فرعون وقومه وأموالهم،وقد صحّت الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال : والّذي فلق الحبّة وبرأ النسمة لتعطفنّ علينا الدنيا بعد شماسها عطف الضروس على ولدها و تلا عقيب هذا الحديث : « و نريد أن » الآية ، و روى العيّاشيّ بالإسناد عن أبي الصباح الكنانيّ قال : نظر أبوجعفر إلى أبي عبدالله عليهما السلام قال : هذا والله من الّذين قال الله تعالى : « ونريد أن نمنّ على الّذين » الآية . وقال سيّد العابدين عليّ بن الحسين عليه السلام : والّذي بعث محمّداً بالحقّ بشيراً ونذيراً إنّ الأبرار منّا أهل البيت بمنزلة موسى وشيعته و إنّ عدوّنا و أشياعهم بمنزلة فرعون و أشياعه . و في المجالس عنه عليه السلام في هذه الآية قال : هي لنا أوفينا . و في الإكمال والغيبة : إنّ القائم لمّا تولّد نطق بهذه الآية .

والقمّي : أخبر الله نبيّه بما لقي موسى وأصحابه من فرعون من القتل والظلم ليكون

تعزية له فيما يصيبه في أهل بيته ، ثمّ بشّره أنّه يتفضّل عليهم بعد ذلك و يجعلهم خلفاء في الأرض و أئمّة على اُمّته و يردّهم إلى الدنيا مع أعدائهم حتّى ينتصفوا منهم فقال : «ونريد أن نمنّ» الآية .

قوله : [و نمكّن لهم في الأرض] أي ونمكّن لبني إسرائيل في أرض مصر [ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم] أي من بني إسرائيل [ماكانوا يحذرون] لأنّهم يخافون ذهاب ملكهم على يد رجل من بني إسرائيل وقد أريناهم ما كانوا يتخوّفون منه . قال الضحّاك : عاش فرعون أربعمائة سنة وكان قصيراً دميماً[١] وهو أوّل من خضب بالسواد . وعاش موسى مائة وعشرين سنة .

قوله تعالى : واوحينا الى ام موسى ان ارضعيه فاذا خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين (٧) فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين (٨) وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا او نتخذه ولداً وهم لا يشعرون (٩) .

لمّا قال سبحانه « ونريد أن نمنّ » ابتدأ في هذه الآية بذكر نعمه في هذا الباب و كيف دبّر في إهلاك فرعون فقال :

[و أوحينا] أي قذفنا في قلبها وليس بوحي نبوّة ، و قيل : أتاها جبرئيل بذلك . وقيل :كان هذا الوحي رؤيا منام عبّرها من علماء بني إسرائيل [أن أرضعيه] ما لم تخافي عليه الطلب من فرعون [فإذا خفت عليه] من القتل [فألقيه في اليمّ] في النيل [ولا تخافي] عليه الضيعة [ولا تحزني] من فراقه [إنّا رادّوه إليك] عن قريب [وجاعلوه من المرسلين] والأنبياء .

فائدة : الخوف غمّ يحصل بسبب مكروه يتوقّع حصوله في المستقبل والحزن غمّ يلحق بسبب مكروه حصل في الماضي .

قال وهب بن منبّه : لمّا حملت اُمّ موسى بموسى كتمت أمرها عن جميع الناس فلم

---

(١) الحقير القبيح المنظر .

يطّلع على حملها أحد من خلق الله وذلك شيء ستره الله ولم ينبت بطنها و لم يظهر لبنها فلمّا كانت السنة الّتي يولد فيها موسى بعث فرعون القوابل و أمرهنّ أن يفتّشن النساء تفتيشاً صعباً شديداً وكانت القوابل لا يعرض لها لأنّها ماكانت ممّن يظنّ بها الحبل ولمّا كانت اللّيلة الّتي ولد موسى عليه السلام ولدته اُمّه ولا رقيب عليها ولا قابلة ولم يطّلع عليها أحد إلّا اُخت موسى اسمها مريم أو كلثمة أومريم .

ولكن قال ابن عبّاس : لمّاقربت ولادة اُمّ موسى وكانت قابلةمن النساء اللّاتي وكلّهن فرعون بحبالى بني إسرائيل صديقةلاُمّ موسى فلمّا ضربها الطلق أرسلت إليهافجاءت فعالجتها فلمّا ولد موسى رأت نوراً بين عينيه فارتعش كلّ مفصل منها ودخل حبّ موسى في قلبها ثمّ قالت : ياهذه ما جئت إليك إلّا من و رائي قتل لأنّه أمر ربّي بقتل مولودك ولكن وجدت لابنك هذاحبّاًماوجدت حبّ شيء مثل حبّه فاحفظي ابنك فإنّي أراه هوعدوّنا فمّا خرجت القابلة من عندها أبصرتها جواسيس فرعون وعيونه فجاءوا ليدخلوا على اُمّ موسى فقالت مريم : يا اُمّاه هذه الحرّس بالباب فلفّت موسى في خرقة و طاش[1] عقلها فوضعته في تنّورمسجور ولم تعقل ما تصنع فدخلوا فإذاالتنّور مسجور ورأوا اُمّ موسى و فتّشوا فلم يجدوا شيئاً فخرجوا من عندها فرجع إليها عقلها فقالت لاُخت موسى : أين الصبيّ؟ قالت : لاأدري،فسمعت بكاءً في التنّور فانطلقت إليه وقد جعل الله النارعليه برداً و سلاماً فأخذته .

ثمّ إنّ اُمّ موسى لمّا رأت فرعون جدّ في طلب الولدان خافت على ابنها فقذف الله في قلبها أن تتّخذ له تابوتاً ثمّ تقذف التابوت في النيل فذهبت إلى نجّار من أهل مصرفاشترت منه تابوتاً فقال لها النجّار : ماتصنعين به ؟ فقالت : ابن لي أخشى عليه كيد فرعون أخبؤه فيه ، وماعرفت أنّه يفشي الخبر وإنّما قالت ذلك خوفاً من الكذب فلمّا انصرفت ذهب النجّار ليخبربه الذبّاحين فلمّا جاءهم أمسك الله لسانه وجعل يشيربيده فضربوه وطردوه حملاً بفعله السفاهة والجنون فلمّا عاد إلى دكّانه ردّالله عليه لسانه فذهب مرّة اُخرى ليخبرهم فأخرسه الله فضربوه وطردوه فلمّا عاد إلى موضعه ردّالله عليه نطقه فذهب مرّة

---

(١) اى ذهب .

ثالثة فأخذالله بصره و لسانه فجعل لله تعالى: إن ردّ عليه بصره ولسانه يتوب ، فعلم الله منه الصدق فردّ الله عليه بصره ولسانه .

وبالجملة انطلقت أمّ موسى وألقت التابوت في النيل وكان لفرعون بنت لم يكن له ولد غيرها وكان لها كلّ يوم ثلاث حاجات ترفعها إلى أبيها وكان بها برص شديد وكان فرعون شاور الأطبّاء و السحرة في أمرها فقالوا لها : إنّها لاتبرأ إلّا من قبل البحر يوجد منه طفل فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك وذلك في يوم كذا في شهر كذا حتّى تشرق الشمس فلمّا كان ذلك اليوم غدا فرعون إلى مجلس كان له على شفير النيل و معه آسية بنت مزاحم و أقبلت فرعون في جواريها حتّى جلست على الشاطىء إذ أقبل النيل بتابوت تضربه الأمواج و تعلّق بشجرة فرأى فرعون و قال : ائتوني به به فابتدروه بالسفن من كلّ جانب حتّى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح التابوت فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه فنظرت آسية فرأت نوراً في جوف التابوت فعالجته ففتحته فإذا بصبيّ صغير في التابوت و نور بين عينيه فالقى الله محبّته في قلوب القوم و عمدت ابنة فرعون إلى ريقه فلطخت به برصها لمّا كانت سامعة هذا الخبر من الكهنة قبل ذلك فبرئت فضمّته إلى صدره ، فقالت الغواة من قوم فرعون : إنّا نظنّ أنّ هذا هو الّذي نحذر منه رمي في البحر فرقاً[١] منك فهمّ فرعون بقتله فاستوهبته آسية امرأة فرعون و وتبنّته فترك قتله .

والحاصل [فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً و حزناً] و الالتقاط إصابة الشيء من غير طلب، والمراد بآل فرعون جواريه واللام في «ليكون» لام العاقبة ومعناه أنّهم ما التقطوه إلّا ليكون قرّة عين وراحة ولكن آل وانتهى هذا الالتقاط لهم بالحزن والعداوة عليهم و على ملكهم مثل قوله : «ولقد ذرأنا لجهنّم[٢]» وقول الشاعر: «لدوا للموت وابنوا للخراب» و معلوم أنّه لا يلد أحد لأن يموت ولا يبني أحد لأن يخرب ولكن يؤول إلى الموت والخراب ، وقرىء حزناً بضمّ الحاء وسكون الزاي وهما لغتان مثل السقم و السقم .

[إنّ فرعون وهامان و جنودهما كانوا خاطئين] فيما كانوا عليه من الكفر والظلم، وقيل:

---

(١) أي خوفا وفزعاً .　(٢) الاعراف : ١٧٨ .

المراد من الخطاء لامن الخطيئة لأنّهم ما شعروا أنّه الّذي يذهب بملكهم.

[وقالت امرأة فرعون قرّة عين لي ولك] ولمّا أراد فرعون قتله بعد أن حذّروه قالت آسية : « لاتقتله عسى أن يكون قرّة عين لي ولك» فقال فرعون : أن يكون لك وأمّا أنا فلاحاجة لي فيه ، قال ابن عبّاس : لمّا قال فرعون : وأمّا أنا فلا حاجة لي فيه قال : والّذي يحلف به لو أقرّ فرعون أن يكون قرّة عين له كما أقرّت آسية لهداه الله كما هداها [أو نتّخذه ولداً] .

أمّا قوله : [وهم لايشعرون] ابتداء كلام من الله أي لايشعرون أنّ هلاكهم بسببه وعلى يده وإنّه هو الّذي يطلبونه .

قوله تعالى : وأصبح فؤاد ام موسى فارغاً ان كادت لتبدی به لولاأن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين(١٠) .

أي أصبح خاليا قلبها من كلّ شيء إلّا من ذكر موسى وقيل : فارغا من الحزن لعلمها بأنّ ابنها نجى سكوناً و وعداً من الله . و قيل : فارغاً من الوحي الّذي اُوحي إليها ونسيت ما وعدها الله [إن كادت] أي أنّها قربت تبدي بذكر موسى و تصيح يا ابناه من شدّة الغمّ والوجد . وقيل : لمّا دعوها للإرضاع بولدها همّت بأن تقول: أنا اُمّه لشدّة سرورها به لمّا رأته .

وقيل : المعنى أنّها كادت تبدي بالوحي [لولاأن ربطنا على قلبها] بالصبر واليقين ، والربط على القلب إلهام الصبر لمّا سمعت أنّه وقع بيد فرعون من شدّة الجزع والخوف على ابنه ، وقرىء فرغاً أي هدر وخلى وبطل قلبها من شدّة ما ورد عليها وذاك حين رأت يرفع تابوته ويضع [لتكون من المؤمنين] من المصدّقين بوعدالله .

قوله تعالى : وقالت لاخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لايشعرون(١١) وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل ادلكم على اهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون(١٢) فرددناه الى امه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعدالله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون(١٣) و لما بلغ اشده واستوى آتيناه

حكماً وعلماً وكذلك نجزى المحسنين(١٤) ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدومضل مبين(١٥) .

[وقالت] أُمّ موسى لأُخت موسى واسمها كلثمة : [قصّيه] أي اتّبعي أثره ولعلّ تعرفي خبره [فبصرت به عن جنب] و في الكلام حذف و اقتصار وتقديره فذهبت كلثمة فوجدت آل فرعون أخرجوا التابوت و أخرجوا موسى فبصرت به ورأت أخاها عن بعد و عن جانب تنظر إليه كأنّها لاتريده عن مكان جنب بعيد [وهم لايشعرون] وآل فرعون لايشعرون أنّها أُخته ، و كرّر سبحانه هذا القول وهو عدم شعورهم بأنّه لوكان إلهاً لكان يشعر بمثل هذا الأمر.

[وحرّمنا عليه المراضع] أي لا تؤتى بمرضع فيقبلها أي منعنا هنّ منه وبغضناهنّ إليه.وقيل:هوجمع مرضع بمعنى الرضاع أي منعناه عن الرضاع ، ومرضع موضع الرضاع أي الثدي [من قبل] أي من قبل أن رددناه إلى أُمّه ومن قبل مجيء أُخته و من قبل ولادته في حكمنا وقضائنا فعند ذلك لشدّة محبّة فرعون لموسى طلب له المراضع وكان موسى لا يقبل ثدي واحدة منهنّ بعد أن أتت مرضع بعد مرضع فلمّا رأت أُخت موسى حبّهم له ورقّتهم عليه [قالت لهم هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لكم] و يحسنون تربيته [وهم له ناصحون] يشفقون عليه والنصح إخلاص العمل من شائبة الفساد.قيل : إنّها لمّا قالت:و هم له ناصحون.قال هامان:قد عرفت هذا الغلام فدلّينا على أهله ، قالت : ما أعرفه ولكنّي إنّما قلت هم للملك ناصحون ليزول شغل قلبه .

قوله : [فرددناه إلى أُمّه كي تقرّ عينها ولا تحزن] فانطلقت كلثمة أُخت موسى إلى أُمّها فجاءت بها إليهم فلمّا وجد موسى أُمّه قبل ثديها وسكن بكاؤه . قال الضحّاك : إنّ موسى لمّا قبل ثدي أُمّه تعجّب فرعون وهامان وقالا : إنّك لأُمّه ؟ قالت : لا ، قال : فما بالك قبل ثديك من بين النسوة ؟ قالت أيّها الملك إنّي امرأة حلوة اللبن ما ارتضع صبيّ ثديي إلّا قبل فلم يبق أحد من آل فرعون إلّا أهدى إليها وأتحفها بالذهب والجواهر.

[ولتعلم أنّ وعد الله حق] والمراد بالوعد قوله تعالى: «إنّا رادّوه إليك». قوله تعالى: [ولكن أكثرهم لا يعلمون] تحقيق وعد الله.

قوله تعالى: [ولمّا بلغ أشدّه واستوى] وقيل في معنى بلوغ الأشدّ والاستواء: إنّهما واحد وهو استكمال القوّة واعتدال المزاج والبنية. وقيل: المراد من بلوغ الأشدّ عبارة عن كمال القوّة الجسمانيّة والاستواء عبارة عن كمال القوّة العقليّة. قال ابن عبّاس: الأشدّ ما بين ثمانية عشر سنة إلى الثلاثين ثمّ من الثلاثين إلى الأربعين يبقى سواء من غير زيادة ولا نقصان فلهذا السرّ اختار الله هذا السنّ للوحي. والأشدّ قيل: مفرده شدّة كما أنّ واحدة الأنعم نعمة، وقيل: لم يسمع لهذا الجمع مفرد.

والحاصل: لمّا وصل موسى إلى هذه الدرجة [آتيناه حكماً وعلماً] أعطينا النبوّة والعلم وأنّ موسى حين كبر كان يركب مراكب فرعون ويلبس ما يلبس ويدعى ابن فرعون وكان قد علم أنّ فرعون وقومه على الباطل وكان عليه السلام يتكلّم بالحقّ ويعيب دينهم واشتهر ذلك منه حتّى آل الأمر إلى أن أخافوه وخافهم ولمّا كان صغيراً ضرب يوماً رأس فرعون بالعصا ونتف لحيته فقال فرعون: لا أقتله ولكن أخرجوه عن الدار والبلد فأُخرج ولم يدخل عليهم حتّى كبر والقوم نسوا ذكره.

وما كان موسى عليه السلام من خوفه يدخل مدينة فرعون إلّا خائفاً فدخلها يوماً [على حين غفلة من أهلها] ودخلها نصف النهار وقت ما هم قائلون، وقيل: بين المغرب والعشاء.

قوله تعالى: [فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوّه] يختصمان أحدهما إسرائيليّ والآخر قبطيّ يسخّره الإسرائيليّ ليحمل حطباً إلى مطبخ فرعون. قيل: أحدهما مسلم من شيعته ومن متابعي موسى والقبطيّ كافر من متابعي فرعون فاستغاث بموسى [الّذي من شيعته] واستنصره الإسرائيليّ لينصره عليه. روي عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: ليهنئكم الاسم، قال: قلت: وما الاسم؟ قال: الشيعة، أما سمعت قول الله يقول: «فاستغاثه الّذي من شيعته على الّذي من عدوّه»؟ [فوكزه موسى] أي دفع صدره بجمع

كفّه.وقيل : ضربه بعصاه [فقضي عليه] أي مات المدفوع [قال هذا من عمل الشيطان إنّه عدوّ مضلّ مبين] .

واجتجّ الطاعنون في عصمة الأنبياء من وجوه :

احدها إنّ ذلك القبطيّ إمّا أن يكون مستحقّ القتل أو لم يكن كذلك فإن كان الأوّل فلمَ قال «هذا من عمل الشيطان» ولمَ قال «ربّ ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له» ولمَ قال في سورة اُخرى : «فعلتها إذاً وأنا من الضالّين[1]» ؛ وإن كان الثاني وهو أنّ ذلك القبطيّ لم يكن مستحقّ القتل كان قتله معصية وذنباً .

وثانيها : أنّ قوله « و هذا من عدوّه» على أنّه كان كافراً حربيّاً فكان دمه مباحاً فلمَ استغفر عنه والاستغفار عن الفعل المباح غير جائز لأنّه يوهم في المباح كونه حراماً .

و **ثالثها** أنّ الركز لا يقصد به القتل ظاهراً فكان ذلك القتل قتل خطأ فلمَ استغفر منه ؛

والجواب عن الأوّل لمَ لا يجوز أن يقال: إنّه كان لكفره مباح الدم أمّا قوله « هذا من عمل الشيطان » لعلّ الله وإن أباح قتل الكافر إلّا أنّه قال:الأولى تأخّر قتلهم إلى زمان آخر فلمّا قتل فقد ترك المندوب فقوله: «هذا من عمل الشيطان»معناه إقدامي على ترك المندوب من عمل الشيطان. وثانيها أنّ قوله « هذا من عمل الشيطان » إشارة إلى المقتول لا إلى عمل نفسه أي عمل هذا المقتول من عمل الشيطان وإنّه من جند الشيطان فقال فلان من عمل الشيطان أي من حزبه أمّا قوله « ربّ ظلمت نفسي فاغفر لي » فعلى نهج قول آدم عليه السلام بقوله «ربّنا ظلمنا أنفسنا » وهو إمّا على سبيل الانقطاع إلى الله و الاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه وإن لم يكن هناك ذنب أو من حيث حرّم نفسه الثواب بترك المندوب أي فاغفر لي ترك هذا المندوب .

وقيل في تأويل هذه الآية وجه آخر وهو أن يكون مراده ربّي إنّي ظلمت نفسي حيث قتلت هذا الملعون ولو عرف ذلك فرعون ، لقتلني به فاغفر لي أي فاستره عليّ حتّى

(١) الشعراء : ٢٠ .

لا يصل خبر هذا القتل إلى فرعون ، ويؤيّدهذا التأويل أنّه عقّبه بهذا الكلام حيث قال : « ربّ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين » ولوكانت إعانة المؤمن الإسرائيليّ سبباً للمعصية لما قال عليه‌السلام ذلك .

وأمّا قوله : « فعلتها وأنا من الضالّين » فليس مراده عليه‌السلام أنّي صرت بذلك القتل ضالّاً ولكن فرعون لمّا نسب إليه الكفر بسبب القتل نفى عن نفسه الكفر و قال : كنت متحيّراً لا أدري ما يجب عليّ وأمّا استغفاره من قتله على كونه كافراً حربيّاً فلنا لعلّ بسبب اختلاف الشرائع كان الأولى عدم قتله في ذلك الوقت .

وبالجملة قال الرازيّ : على أنّ لوفرضنا وسلّمنا دلالة هذه الآية على صدور المعصية لكنّا بيّنّا أنّه لا دليل البتّة على أنّه كان رسولاً في ذلك الوقت فيكون ذلك صادراً منه قبل النبوّة وذلك لا نزاع فيه(١) .

قوله تعالى : قال رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له انه هو الغفور الرحيم(١٦) قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين (١٧) فأصبح في المدينة خائفاً يترقب فاذا الذى استنصره بالامس يستصرخه قال له موسى انك لغوى مبين(١٨) فلما اراد ان يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى اتريد ان تقتلني كما قتلت نفساً بالامس ان تريد الا ان تكون جباراً في الارض و ما تريد ان تكون من المصلحين (١٩) وجاء رجل من اقصى المدينة يسعى قال يا موسى ان الملاء يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج انى لك من الناصحين (٢٠) .

ثمّ حكى سبحانه أنّ موسى حين قتل القبطيّ ندم على ذلك و قال : [ربّ إنّي ظلمت نفسي] في هذا القتل فإنّهم لو علموا بذلك يقتلوني. قال المرتضى : إنّما قاله على سبيل الانقطاع إلى الله والاعتراف بالتقصير عن أداء حقوق نعمه أو من حيث حرّم نفسه الثواب المستحقّ بفعل الندب [فاغفر لي] و قبول الاستغفار و التوبة قد يسمّى غفراناً [فغفر له إنّه هو الغفور الرحيم] بهم المنعم عليهم .

---

(١) وهذا يصح على مذهبهم ، اما الامامية فلايفرقون فى عصمة الانبياء عليهم السلام بين زمن النبوة و قبله .

[قال] موسى : [ربّ بما أنعمت عليّ] من المغفرة وصرف بلاء الأعداء عنّي [فلن أكون ظهيراً للمجرمين] أي فلك عليّ أن لا أكون مظاهراً للمشركين. وقيل : المراد بما أنعمت عليّ يعني من القوّة حتّى قتلت رجلاً خطاه بوكزة فلن أكون ظهيراً للمجرمين بل اُجاهدهم بهذه القوّة في سبيلك حتّى ترضى .

قوله : [فأصبح في المدينة خائفاً يترقّب] فبعد موت ذلك الرجل القبطيّ من الوكز أصبح موسى من غد ذلك اليوم خائفاً من أن يظهر أنّه هو القاتل فيطلب به و خرج على استتار [فإذا الّذي استنصره بالأمس يستصرخه] وهو الإسرائيليّ بالأمس يطلب نصرته بصياح وصراخ [قال له موسى إنّك لغويّ مبين] يجوز أن يكون فعيل بمعنى المفعل أي أنت مغوٍ فإنّي وقعت فيما وقعت فيه بسببك ، و يجوز أن يكون بمعنى الفاعل يعني أنت الغاوي ، وإنّما سمّاه غويّاً لأنّ من تكثر منه المخاصمة على وجه يتعذّر عليه دفع خصمه و مع ذلك يطلب الخصومة فهو ضالّ عن طريق الرشد ولم يرد الغواية في الدّين .

قوله تعالى : [فلمّا أراد أن يبطش بالّذي هو عدوّ لهما] المعنى : فلمّا أخذته الرقّة على الإسرائيليّ وأراد أن يدفع القبطيّ الّذي هو عدوّ لموسى و الإسرائيليّ عنه ويبطش به أي يأخذه بشدّة فظنّ الإسرائيليّ أنّ موسى قصده لأنّه قال له: إنّك لغويّ مبين فقال : [ياموسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس] وقيل : هذا من كلام القبطيّ لا الإسرائيليّ والظاهر هذا الوجه الثاني و يؤيّد هذا القول أنّه عقّب قوله بأن قال : [إن تريد إلّا أن تكون جبّاراً في الأرض] و هذا القول لا يليق إلّا بأن يكون قولاً للكافر ، والجبّار هو الّذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل والظلم [وما تريد أن تكون من المصلحين] .

وبالجملة فأكثر المفسّرين على أنّ هذا الكلام وهو قوله : «أتريد أن تقتلني، الآية » من قول الإسرائيليّ و لمّا قال الإسرائيلي ذلك علم القبطيّ أنّ قاتل القبطيّ أمس موسى ولم يكن أحد يعلم بذلك فانطلق القبطيّ إلى فرعون وأخبر به فأمر فرعون بقتل موسى و طلبه .

قوله : [و جاء رجل من أقصى المدينة] أي من آخر المدينة واختار طريقاً قريباً حتّى سبق خدمة فرعون وأتى إلى موسى [يسعى] ويسرع وأخبره بذلك و كان الرجل حزقيل ابن عمّ فرعون ، وقيل : شمعون [قال يا موسى إنّ الملأ] أي الأشراف من آل فرعون [يأتمرون بك] أي يتشاورون في قتلك أويأمر بعضهم بعضاً [ليقتلوك فاخرج] من أرض مصر [إنّي لك من الناصحين] .

قوله : فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين (٢١) ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي ان يهديني سواء السبيل (٢٢) ولما ورد ماء مدين وجد عليه امة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وابونا شيخ كبير (٢٣) فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب انى لما انزلت الي من خير فقير (٢٤) فجاءت احداهما تمشي على استحياء قالت ان ابي يدعوك ليجزيك اجر ما سقيت لنا فلما جاءه و قص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين (٢٥) .

ثمّ خرج موسى من مصر [خائفاً] من أن يطلب فيقتل [يترقّب] الطلب ، قال ابن عبّاس: خرج موسى متوجّهاً نحو مدين وليس له علم بالطريق إلّا حسن ظنّه بربّه [قال ربّ نجّني من القوم الظالمين] بغير زاد ولا حذاء ولا ظهر وكان لا يأكل إلّا حشيش الصحراء حتّى بلغ ماء مدين .

[ولمّا توجّه تلقاء مدين] والتوجّه صرف الوجه إلى تلك الجهة ، قال الزجّاج : معناه : ولمّا سلك في الطريق الّذي يلقى مدين منها وهي على مسيرة ثمانية أيّام من مصر نحو ما بين البصرة إلى الكوفة ولم يكن له علم بالطريق و لذلك قال : [عسى ربّي أن يهديني سواء السبيل] أي يرشدني السبيل المؤدّي إلى النجاة ، وقيل: إنّه عليه السلام لم يقصد موضعاً بعينه ولكنّه أخذ في طريق مدين . ومن الناس من قال: جاءه جبرئيل وعلّمه الطريق. وقيل: جاءه ملك على فرس وبيده عنزة وعلّمه الطريق ، وقوله: «عسى ربّي أن يهديني»[1]

(١) القصص : ٢٢ .

نظير قول جدّه إبراهيم حيث قال : « إنّي ذاهب إلى ربّي سيهدين[٢] » و هكذا الخلف الصدق للسلف الصالح صلوات الله عليهم أجمعين .

[ولمّا ورد ماء مدين] وهو الماء الّذي يسقون منه وكان بئراً [وجد عليه اُمّة من الناس] وجد على شفير البئر ومستقاه جماعة كثيرة من اُناس مختلفين [ووجد من دونهم] في مكان أسفل من مكانهم [امرأتين تذودان] تدفعان أغنامهما وتحبسان أغنامها عن السقي وكانتا تكرهان المزاحمة على الماء لأنّ على الماء من كان أقوى منهما ولئلاّ يخلط أغنامهما بأغنامهم ولئلاّ تختلطا بالرجال .

[قال] موسى: [ما خطبكما] وشأنكما وما مقصود كما من الذياد ؛ فقالتا : [لانسقي حتّى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير] أي إنّا لا نطيق السقي فننتظر فضول الماء وانصراف الناس وأبونا لكبره وضعفه لا يتمكّن أن يتولّى السقي ، وإنّما قالتا ذلك تعريضاً للطلب من موسى أن يعينهما على السقي [فسقى لهما] أي سقى موسى غنمهما الماء ورفع حجراً عن البئر ما كان يقدر على رفع ذلك الحجر عنها إلّا عشرة رجال و سألهم أن يعطوه دلواً فناولوه دلواً وقالوا له : انزح إن أمكنك فكان لا ينزحها إلّا عشرة فنزحها وحده و سقى أغنامهما ولم يستق إلّا ذنوباً واحداً حتّى رويت الغنم .

[ثمّ تولّى إلى الظلّ] فانصرف إلى ظلّ سمرة فجلس تحتها من شدّة الحرّ و الواصب والجوع . قيل :إنّه عليه السلام ذهب يحفى رجليه من المشي في الطريق لأنّه ما كان له حذاء . وبالجملة فوقف في ظلّ الشجرة [وقال ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير] يعني أي شيء أنزلته إليّ من خير جلّ أو قلّ فقير له و محتاج إليه ، و لتضمّن كلامه معنى السؤال والطلب جيء بلام الدعامة لتقوية العمل ، والجارّ والمجرور متعلّق بفقير و حاصل المعنى : إنّي فقير لأيّ شيء أعطيتني جليلاً كان أو حقيراً قال : ابن عبّاس : سأل نبيّ الله فلق خبز يقيم به صلبه . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : والله ما سأله إلّا خبزاً يأكله لأنّه كان يأكل بقلة الأرض ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزاله وتشذّب لحمه .

وبالجملة قال ابن إسحاق : فرجعتا إلى أبيهما في ساعة كانتا لاترجعان فيها فأنكر

(٢) الصافات : ٩٩ .

شأنهما وسألهما فأخبرتاه الخبر ، فقال لإحداهما : عليّ به ، فرجعت الكبرى إلى موسى لتدعوه . وذلك قوله تعالى : [فجاءته إحداهما] وهي صفوراء [تمشي على استحياء] أي أنّها مستحيية غطّت وجهها بكمّ درعها[1]. وقيل : المراد أنّها كانت تمشي عادلةعن الطريق وكانت من الخفرات [2] اللاتي لا يحسنّ المشي بين أيدي الرجال وما كانت ولّاجة ولا خرّاجه .

[قالت إنّ أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا] ويكافيك على سقيك لغنمنا ، وقال أكثر المفسّرين:إنّ أباها شعيب.وقيل : هو يبرون ابن أخي شعيب و كان شعيب مات قبل ذلك بعد ما كفّ بصره ودفن بين المقام و زمزم . ولمّاقالت صفوراء هذا الكلام لموسى كره موسى لذلك و أراد أن لا يتبعها ولم يجد بدًّا من أن يتبعها لأنّه كان في أرض مسبعة [3] و خوف فخرج معها وكانت الريح تضرب ثوبها فتبيّن وجهها فجعل يعرض موسى عنها تارة ويغضّ اُخرى فناداها : يا أمةالله كوني خلفي وأريني السمت بقولك .

فلمّا دخل على شعيب إذا هو بالعشاء مهيّأً فقال له شعيب:اجلس يا شاب فتعشّ ، فقال له موسى:أعوذ بالله،قال : شعيب ولمَ ذلك ألست بجائع؟قال:بلى ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً للمعروف الّذي صنعت وإنّا أهل بيت لانبيع شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً فقال له شعيب : لا والله يا شابّ ولكنّها عادتي و عادة آبائي نقري الضيف ونطعم الطعام ، فجعل موسى يأكل وذلك قوله : [فلمّا جاءه وقصّ عليه القصص] أي جاء موسى شعيباً وقصّ عليه أمره أجمع من أوّل ما التقطه فرعون إلى قتل القبطيّ [قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين] أي من فرعون و قومه نجوت ولا سلطان له على أرضنا و لسنا في مملكته .

قوله تعالى: قالت احداهما ياابت استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين (٢٦) قال انى اريد ان انكحك احدى ابنتى هاتين على ان تأجرنى

---

(١) درع المرأة : قميصها .
(٢) المرأة المستحيية اشد الحياء .
(٣) ذات سباع ضارية .

ثمانى حجج فان اتممت عشراً فمن عندك وما اريد ان اشق عليك ستجدني انشاء الله من الصالحين (٢٧) قال ذلك بيني وبينك ايما الاجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل (٢٨) فلما قضى موسى الاجل وسار باهله آنس من جانب الطور ناراً قال لاهله امكثوا انى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر او جذوة من النار لعلكم تصطلون (٢٩) فلما اتاها نودى من شاطيء الواد الايمن فى البقعة المباركة من الشجرة ان يا موسى انى انا الله رب العالمين (٣٠) .

ثمّ ذكر سبحانه أمر موسى في مدين وانصرافه عنه :

[قالت إحداهما] وهي صفورياء وهي الّتي تزوّجها : [ياأبت استأجره] أي اتّخذه أجيراً [إنّ خيرمن استأجرت القويّ الأمين] أي أحسن من استعملت من يكون قويّاً على العمل ويكون أميناً ، ولمّا قالت البنت هذا القول قال شعيب : وما علمك بأمانته وقوّته ؟ قالت : أمّا قوّته فلأنّه رفع حجراً عن البئر لايرفعه كذا و كذا من الرجال ، وأمّا أمانته فإنّه قال : امشي خلفي فأنا أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لي جسدك .

فلمّا ذكرالبنت من حاله زاده رغبة فيه [قال إنّي اُريد أن اُنكحك] واُزوّجك [إحدى ابنتيّ هاتين على أن تأجرني ثماني حجج] أي تكون أجيراً لي وتستخدمني ثمان سنين [فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن] أميل[1] [عليك] و ذلك تفضّل منك وليس بواجب إتمام العشرفزوّجه ابنته بمهر و استأجره للرعي و لم يجعل ذلك مهراً و إنّما شرط ذلك عليه [ستجدني إنشاء الله من الصالحين] في حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء .

[قال ذلك] أي قال موسى ذلك الّذي و صفت و شرطت عليّ فلك و ما شرطت لي من تزويج بنتك فلي وتمّ الكلام ، ثمّ قال موسى: [أيّما الأجلين] من الثماني والعشر[قضيت وأتممت فلاعدوان عليّ] بأن اُكلّف أكثرمنها واُطالب بالزيادة عليها [والله على ما نقول وكيل] أي شهيد فيما بيني و بينك ، وعن النبيّ ﷺ أنّه سئل : أيّ الأجلين قضى

(١) اى اجوروأظلم ، من الميل بمعنى الخروج عن العدل والاستواء .

موسى ؟ قال ﷺ : أو فاهما وأبطأهما . وفي رواية أنّه سئل أيّ الابنتين تزوّج موسى ؟ فقال : الصغرى وهي الّتي جاءت وقالت : « يا أبت استأجره » وهي الّتي قالت لموسى : إنّ أبي يدعوك ، قيل : فدخل بها قبل أن يمضي الشرط أو بعد انقضائه ؟ قال ﷺ: قبل انقضائه، قيل له : فالرجل يتزوّج المرأة و يشترط لأبيها إجارة شهرين أيجوز ذلك ؟ قال : لا . و في الكافي و الفقيه عن علي عليه السلام قال : لايحلّ النكاح اليوم في الإسلام بإجارة بأن أعمل عندك كذا و كذا سنة على أن تزوّجني اُختك أو ابنتك ، قال : هو حرام لأنّه ثمن رقبتها وهي أحقّ بمهرها وإنّما كان ذلك لموسى بن عمران لأنّه علم أنّه يفي .

[فلمّا قضى موسى الأجل] وقضى بأوفاهما ولمّا زوّجها منه أمر الشيخ أن يعطى موسى عصاً يدفع السباع عن غنمه بها وهذه العصا لم يزل الأنبياء يتوارثونها حتّى وصلت إلى شعيب فأعطاها موسى . وقيل : كانت تلك العصا استودعها شعيباً ملك في صورة رجل فأمر شعيب ابنته أن تأتيه بعصا فدخلت و أخذت العصا فأتته بها فلمّا عرفها الشيخ قال : لا ، ايتيه بغيرها فألقتها و أرادت أن تأخذ غيرها فكانت لاتقع في يدها إلّا هي وفعلت ذلك مراراً فأعطاها موسى .

قوله : [وسار بأهله] فمكث موسى عند شعيب بعد انقضاء الأجل عشراً اُخرى وبقي عنده عشرين سنة ثمّ استأذنه في العود إلى مصر ليزور والدته وأخاه فأذن له فسار بأهله . و قيل: لمّا قضى الأجل سار بأهله أي بامرأته وبالغنم الّتي كانت له وكانت قطيعاً فأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام وامرأته في شهرها فسار في البرّيّة فألجأه المسير إلى جانب الطور الأيمن في ليلة مظلمة شديد البرد وأخذ امرأته الطلق وضلّ الطريق و تفرّقت ماشيته فأصابه المطر فبقي لايدري أين يتوجّه .

فبينا هو كذلك [آنس من جانب الطور الأيمن ناراً] أي أبصر من طرف الطور ناراً [قال لأهله امكثوا إنّي آنست ناراً لعلّي آتيكم منها] أي من أهل النار بخبر من الطريق الّذي اُريده [أو جذوة من النار لعلّكم تصطلون] أي أو آتيكم بقطعة و درنة من النار تستدفئون بها .

[فلمّا أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن] نودي موسى من الجانب الأيمن

للوادي [في البقعة المباركة] وهي البقعة الّتي قال الله فيها :«اخلع نعليك[1]» وإنّما كانت مباركة لأنّها معدن الوحي والرسالة و كلام الله ، وسمع موسى كلام الله من الشجرة وجعل الله الشجرة محلّ الكلام وكان كلامه سبحانه : [أنّ ياموسى إنّي أنا الله ربّ العالمين] أي إنّ المتكلّم لك هو الله ربّ العالمين أي خالق الكلام لك و خالق الخلق أجمعين تعالى من أن يحلّ في محلّ أويكون في مكان لأنّه ليس بعرض ولاجسم .

قوله تعالى وان الق عصاك فلما رأها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف انك من الامنين (٣١) اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملائه انهم كانوا قوماً فاسقين (٣٢) قال رب انى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون (٣٣) وأخي هرون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءاً يصدقني انى أخاف أن يكذبون (٣٤) قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلايصلون اليكما بآياتنا انتما ومن اتبعكما الغالبون(٣٥)

وفي بعض الأخبار أنّ موسى عليه السلام لمّا عقد العقد مع شعيب وأصبح من الغد و أراد الرعي قال له شعيب : اذهب بهذه الأغنام فإذا بلغت مفرق الطريق فخذ على يسارك ولا تأخذ على يمينك و إن كان الكلاء بها أكثر فإنّ بها تنيّناً عظيماً فأخشى عليك و على الأغنام منه فذهب موسى بالأغنام فلمّا بلغ مفرق الطريق أخذت الأغنام ذات اليمين فاجتهد موسى على أن يستردّها فلم يقدر فسار على أثرها فرأى عشباً كثيراً ثمّ إنّ موسى عليه السلام نام و الأغنام ترعى و إذا بالتنّين قد جاء فقامت عصا موسى فقاتلته حتّى قتلته وعادت إلى جنب موسى وهي دامية فلمّا استيقظ موسى رأى العصا دامية و التنّين مقتولاً فارتاح لذلك وعلم أنّ لموسى وعصاه شاناً .

فعاد موسى إلى شعيب و كان ضريراً فمسّ الأغنام فإذا هي أحسن حالاً ممّا كانت فسأله عن ذلك فأخبره موسى بالقصّة ففرح بذلك فأراد أن يجازي موسى على حسن رعيه إكراماً وصلة لابنته فقال : إنّي وهبت لك من السخال الّتي تضعها أغنامي في هذه

(١) طه : ١٢ .

السنة كلّ أبلق و بلقاء فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك الماء الّذي تسقي الغنم منه ففعل فما أخطأت واحدة منهنّ إلّا وضعت حملها مابين أبلق و بلقاء فعلم شعيب أنّ ذلك رزق ساقه الله إليه .

وبالجملة قوله : [وأن ألق عصاك] اعلم أنّ الله سبحانه كرّر هذه القصّة تقريراً للحجّة على أهل الكتاب واستمالة بهم إلى الحقّ، وإنّ أهل التوراة كانوا يحبّون موسى ومن أحبّ شيئاً أحبّ ذكره ولايخلو التكرار من مزيد فائدة ، وفي الآية حذف تقديره: فألقاها فانقلب بإذن الله ثعباناً .

[فلمّا رآها تهتزّ كأنّها جانّ] أي في سرعة حركتها مع غاية عظمها و كبر جثّتها كالحيّة الصغيرة تتحرّك بسرعة [ولّى] موسى عليه السلام [مدبراً] إلى عقبه من الخوف [ولم يعقّب] أي لم يرجع إلى موضعه فنودي [ياموسى أقبل ولا تخف إنّك من الآمنين] من ضررها وفي انقلاب العصا حيّة دلالة على أنّ البنية ليست بشرط في الإيجاد ، والأجسام والجواهر متماثلة ولا حال أبعد من حال الحيوان و الخشب فلمّا صحّ قلب الخشب إلى الحيوان صحّ قلب الأسود إلى الأبيض .

قوله : [اسلك يدك في جيبك] أي أدخلها في جيبك [تخرج بيضاء من غير سوء] مثل البرص أو عيب و ذلك أنّ موسى عليه السلام كان شديد السمرة فلمّا أخرج يده بعد ما أدخلها في جيبه فأضاءت له الدنيا ، قيل: المعنى فإن أهالك أمر يدك لما تبصر من شعاعها [فاضمم إليك جناحك من الرهب] أي ضمّ يدك إلى صدرك إن كنت خائفاً فحينئذ لاخوف عليك ، وقيل : معنى الخوف في الآية لامن اليد البيضاء بل من الحيّة عند معاينتها ، أمره سبحانه أن لايتّقي بيده عن الحيّة لأنّه عليه السلام بسط يده كالمتّقي فقال له : لاتبسط يدك خوف الحيّة ، فإنّ من هاله أمر أزعجه حتّى كأنّه يطير و آلة الطيران الجناح فسكن خوفه سبحانه بأن ضمّ منشور جناحك وأسكن .

[فذانك برهانان من ربّك] قرىء مخفّفاً ومشدّداً إشارة إلى العصا واليد فالتخفيف مثنّى ذاك و التشديد مثنّى ذلك أي حجّتان نيّرتان . و « برهان » فعلان أبره الرجل إذا أتى بالبرهان وبره الرجل إذا ابيضّ ويقال للمرأة البيضاء : برهاء ، وهذا المعنى مأخوذ

من الظهور والوضوح كالجسم الأبيض الواضح كما أنّ السلطان مأخوذ من السليط لإنارتها والحاصل أنّه أعطاه هاتين المعجزتين قبل لقاء فرعون .

ثمّ أمره بالذهاب إلى فرعون وقال : [إلى فرعون وملائه إنّهم كانوا قوماً فاسقين] أي إذهب إلى فرعون و أشراف قومه إنّهم خارجين من طاعة الله إلى أعظم المعاصي وهو الكفر .

[قال] موسى : [ربّ إنّي قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون] بتلك النفس [وأخي هارون هو أفصح منّي لساناً] و إنّما قال ذلك لأنّه كانت عقدة في لسانه وقد مرّ ذكر سببها [فأرسله معي ردءاً يصدّقني] فأرسله معي معيناً على تبليغ رسالتك ، والردء الناصر [إنّي أخاف أن يكذّبون] وقيل لكي يصدّقني فرعون .

[قال سنشدّ عضدك بأخيك] قال الله : سنجعله معك ونقرنه إليك في النبوّة و ننصرك به [ونجعل لكما سلطاناً] وحجّة وقوّة [فلا يصلون إليكما بآياتنا] أي لا يصل فرعون وقومه إلى الإضرار بكما بسبب ما نعطيكم من الآيات والمعجزات ويخاف فرعون منكما بسبب الآيات .

ثمّ أخبر سبحانه أنّ الغلبة لكما عليهم فقال : [أنتما ومن اتّبعكما الغالبون] على فرعون وقومه ، وهذه الغلبة بالقهر لا بالبرهان والدليل وذلك حين هلك فرعون وقومه و ملك موسى وقومه .

وروي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل قال : فلمّا رجع موسى إلى امرأته قالت من أين جئت ؟ قال موسى : من عند ربّ تلك النار فغدا إلى فرعون لكأنّي أنظر إليه طويل الباع ذو شعر آدم عليه جبّة من صوف في كفّه عصا مربوط حقوه بشريط نعله من جلد حمار شراكها من ليف فأتى على باب فرعون فقيل لفرعون : إنّ على الباب فتى يزعم أنّه رسول ربّ العالمين فقال فرعون لصاحب الأسود : حلّ سلاسلها و كان إذا غضب على رجل خلّاها ، فخلّاها فقرع موسى الباب الأوّل و كانت تسعة أبواب فلمّا قرع الباب الأوّل انفتحت له الأبواب التسعة فلمّا دخل جعلن يتبصبصن تحت رجليه كأنّهن جراء فقال فرعون لجلسائه : أرأيتم مثل هذا الساحر قطّ ؟ فلمّا أقبل إليه موسى عليه السلام انتبه فرعون

فقال: «ألم نربّك فينا وليداً» إلى قوله: «وأنا من الضالّين [1]» فقال فرعون لرجل من أصحابه قم فخذ بيده وقال للآخر: اضرب عنقه فضرب جبرئيل بالسيف حتّى قتل ستّة من أصحابه فقال فرعون: خلّوا عنه فأخرج يده فإذا هي بيضاء قدحال شعاعها بينه وبين وجه فرعون ثمّ ألقى العصا فإذا هي ثعبان فالتقمت الأيوان بلحييها فدعاه أن يا موسى أقلني [2] إلى غد ثمّ كان من أمره ماكان.

قوله تعالى: فلما جاءهم موسى بآياتنا قالوا ما هذا الا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين (٣٦) و قال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى ومن تكون له عاقبة الدار انه لايفلح الظالمون (٣٧) وقال فرعون ياايها الملاء ماعلمت لكم من اله غيرى فاوقد لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلى اطلع الى آله موسى وانى لاظنه من الكاذبين (٣٨) و استكبر هو وجنوده في الارض بغير الحق وظنوا انهم الينا لايرجعون (٣٩) فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين (٤٠) و جعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لاينصرون (٤١) واتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيمة هم من المقبوحين (٤٢).

قوله تعالى: [فلمّا جاءهم موسى] التقدير: بعد أن مضى موسى إلى فرعون وقومه و أتاهم وأراهم بالمعجزات الواضحات فوصفوا الآيات و حملوها على السحر المختلق وقالوا: [ما] هذه المعجزات [إلّا سحر] و كذب [وماسمعنا بهذا] الّذي يقوله موسى ويدّعيه [في آبائنا] الّذين كانوا قبلنا، والمعنى أنّ هذا الّذي يقوله موسى ما صدّقوا به آباؤنا ولا دانوا به، وليس المعنى أنّه ماسمعنا بالدعوة إلى توحيد الله و كيف يكون لم يسمعوا بهذا الأمر وقد اشتهر قصّة نوح وهود و صالح وغيرهم من النبيّين الّذين يدعون الخلق إلى طاعة الله؟

[و قال موسى] مجيباً لهم: [ربّي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده] أي ربّي شاهد و عالم بأنّي جئت بهذه الآيات الدالّة على الهداية فهو شاهد لي على ذلك إن

---

(١) الشعراء: ٢٠.

(٢) اى امهلنى.

كذّبتموني و يعلم أنّ العاقبة الحميدة لنا ولأهل الحقّ ، و هذا الكلام كما يقال : الله أعلم بالمحقّ منّا والمبطل [إنّه لايفلح الظالمون] ولا يفوز بالخير من ظلم نفسه بالشرك وعصى ربّه بالمخالفة .

[وقال فرعون] منكراً لما أتى به موسى عليه السلام لمّا عجز اللعين عن جواب موسى و حججه [يا أيّها الملأ] يريد أشراف قومه [ماعلمت لكم من إله غيري فأوقد لي ياهامان على الطين] بيان ذلك أنّ موسى عليه السلام لمّا دعا فرعون إلى الإيمان بالله قال فرعون لموسى وهارون : من ربّكما ؟ قال : ربّ السماوات و الأرض ، فأوهم الخبيث في هذا البيان أنّه أمّا في الأرض فليس إله غيري ولأجل أنّ موسى يدّعي أنّ الله ربّ السماوات موّه على أغمار الناس و أمر وزيره هامان بأن اتّخذ ألباناً[1] و أوقد عليها و ابن منها صرحاً عالياً و قصراً متطاولا حتّى نرى أنّ موسى هل يصدق أو يكذب ونطّلع على حال ربّه وما أظنّ أن يصدق بل أظنّه من الكاذبين في إدّعائه إلهاً غيري وأنّ موسى رسوله .

واختلفوا في أنّ فرعون هل بنى هذا الصرح فقال قوم : قد بنى وجمع هامان العمّال حتّى اجتمع خمسون ألف بنّاء سوى الأتباع والاُجراء وأمر بطبخ اللبن والجصّ ونجر الخشب و ضرب المسامير فشيّدوه حتّى بلغ مالم يبلغه بنيان أحد من الخلق فبعث الله جبرئيل عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع :قطعة وقعت على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل وقطعة وقعت في البحر وقطعة وقعت في المغرب ولم يبق أحد من عمّاله إلّا وقد هلك . وقد روي في هذه القصّة أنّ فرعون ارتقى فوقه ورمى نشابة نحو السماء فأراد الله أن يفتنهم فردّت إليهم و هي ملطوخة بالدم ، فقال : قد قتلت إله موسى ! فعند ذلك بعث الله جبرئيل لهدمه .

ومن الناس من قال: إنّه لم يبن ذلك الصرح لأنّه يبعد من العقلاء أن يظنّوا أنّهم بصعود الصرح يقربون من السماء مع علمهم بأنّ من علا أعلى الجبال الشاهقة يرى السّماء كما كان يراها حين كان على قرار الأرض وهكذا القول فيما يقال في كيفيّة السهم .

قال الرازيّ في المفاتيح : لا يليق بالعقل و الدين حمل القصّة الّتي حكاها الله في

---

(١) جمع لبنة : الآجرّ .

القرآن على محمل يعرف فساده بضرورة العقل فيصير ذلك مشرعاً قوياً لمن أحبّ الطعن في القرآن والأقرب أنّه كان أوهم البناء ولم يبن أو بنى على سبيل المغالطة والتعمية من تتمّة قوله : « ما علمت لكم من إله غيري » .

قوله : [لعلّي أطّلع إلى إله موسى] وهذا تلبيس منه وإبهام على العوامّ [واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحقّ] أي رفع فرعون وجنوده أنفسهم في الأرض بالظلم والباطل وأنفوا و تعظّموا عن قبول الحقّ [وظنّوا أنّهم إلينا لا يرجعون] أي أنكروا البعث وشكّوا فيه .

[فأخذناه و جنوده فنبذناهم في اليمّ] وطرحناهم في البحر و أهلكناهم بالغرق وعنى باليمّ نيل مصر، وقيل: بحرٌ من وراء مصر يقال له أساف. وأظنّ أنّه المراد من بحر سوف المذكور في دعاء السمات غرقهم الله فيه [فانظر كيف كان عاقبة الظالمين] أي تدبّر بعين قلبك كيف وخامة عاقبة الظلم .

[وجعلناهم أئمّة يدعون إلى النار] وقد تمسّك بظاهر الآية الأشاعرة في كونه خالقاً للخير والشرّ وأجاب العدليّة والمعتزلة بأنّ المراد من الجعل في الآية التسمية أي سمّيناهم به ومنه قوله : « وجعلوا الملائكة الّذين هم عباد الرحمن إناثاً [1] » وقال الكعبيّ : وجعلناهم أئمّة من حيث خلّى بينهم وبين ما فعلوه ولم يمنعهم بالقهر. وقال أبومسلم : معنى الإمامة التقدّم فلمّا عجّل الله تعالى لهم العذاب صاروا متقدّمين لمن وراءهم من الكافرين و هذا معنى الإمامة في الآية ومعنى دعوتهم إلى النار دعوتهم إلى موجباتها من الكفر والمعاصي فإنّ أحداً لا يدعو إلى النار وإنّما جعلهم الله أئمّة في هذا الباب لأنّهم بلغوا في الكفر أقصى النهايات ومن بلغ إلى هذا الحدّ استحقّ أن يكون إماماً يقتدى به في ذلك الباب .

قوله : [و يوم القيامة لا ينصرون] ولا ينصر بعضهم بعضاً كما كانوا يتناصرون في الدنيا .

[وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين] أي لهم في الدنيا بعد

(١) الزخرف : ١٩ .

عن الرحمة والخير وألزمناهم اللّعنة وأمرنا المؤمنين بلعنهم ويوم القيامة من المشوّهين في الخلقة بسواد الوجه وزرقة العين ومن المقبوحين المغضوبين .

قوله : ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما اهلكنا القرون الاولى بصائر الناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون (٤٣) وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين (٤٤) ولكنا انشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاوياً فى اهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين (٤٥) وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتيهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون (٤٦) ولولا ان تصيبهم مصيبة بما قدمت ايديهم فيقولوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين (٤٧) فلما جاء هم الحق من عندنا قالوا لولا اوتى مثل ما اوتى موسى أولم يكفروا بما اوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا انا بكل كافرون (٤٨) قل فأتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما اتبعه ان كنتم صادقين (٤٩) فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون اهواءهم ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لايهدى القوم الظالمين (٥٠) .

ثمّ ذكر سبحانه من أخبار موسى مافيه دلالة على معجزة نبيّنا فقال :

[ولقد آتينا موسى الكتاب] يعني التوراة [من بعد ما أهلكنا] الجموع الّتي كانت قبل موسى من الكفّار مثل قوم نوح وعاد وثمود ، ويجوز أن يريد بالقرون قوم فرعون لأنّه سبحانه أعطى موسى التوراة بعد إهلاكهم بمدّة ووصف التوراة بأنّه [بصائر للناس] من حيث يستبصر به في باب الدين [وهدى] من حيث يستدلّ به وأنّه [رحمة] لمن عمل به لأنّ كتابه رحمة ونعمة على من تعبّد به ، وروى أبوسعيد الخدريّ عن النبيّ ﷺ أنّه قال : ما أهلك الله قرناً من القرون بعذاب من السماء ولا من الأرض منذ أنزل الله التوراة غير أهل القرية الّتي مسخها قردة .

قوله : [لعلّهم يتذكّرون] المعنى: لكي يتذكّروا . قال القاضي عبدالجبّار الهمدانيّ : وذلك يدلّ على إرادة الله التذكّر من كلّ مكلّف سواء اختار ذلك التذكّر أو لم يختره ،

وفيه إبطال مذهب المجبّرة الذين يقولون ما أراد التذكّر إلّا ممّن يتذكّر فأمّا من لايتذكّر فقد كره ذلك ونصّ القرآن دافع لهذا القول .

قوله تعالى : [وما كنت بجانب الغربيّ] والجانب الغربيّ المكان الواقع في شقّ الغرب وهو المكان الّذي وقع فيه ميقات موسى من الطور ، والأمر المقضيّ إلى موسى الوحي الّذي اُوحي إليه ، والخطاب في قوله « وما كنت » للرسول صلّى الله عليه وآله يقول سبحانه : وما كنت حاضراً المكان الّذي أوحينا فيه إلى موسى ولا كنت من جملة الشاهدين للوحي إليه .

فلو قيل لمّا ثبت قوله :«وما كنت» ثبت أنّه لم يكن شاهداً لأنّ الشاهد لابدّ و أن يكون حاضراً فما الفائدة في إعادة قوله :«وما كنت من الشاهدين» ؟ قال ابن عبّاس: التقدير : ولو حضرت فما شاهدت تلك الوقائع .

أمّا قوله : [ولكنّا أنشأنا قروناً] وهذا الاستدراك ماوجهه و كيف يتّصل؟ فالوجه أنّا أنشأنا بعد عهد موسى إلى عهدك قروناً كثيرة [وتطاول عليهم العمر] و هو القرن الّذي أنت فيه واندرست العلوم فوجب إرسالك إليهم وعرّفناك أحوالهم ولأنّه طال عهدهم بالمهلكين قبلهم و فترة النبوّة فحملهم ذلك على الاغترار فأرسلناك للناس رسولاً كما جعلنا موسى رسولاً وقيل : إنّ المعنى : خلقنا كثيراً عهدنا إليهم في نعتك وصفتك وأمرنا الأوّل بالإبلاغ إلى الطبقة الثانية وهكذا فامتدّ بهم الزمان فنسوا عهدنا إليهم فيك .

[وما كنت ثاوياً في أهل مدين] أي ما كنت مقيماً في قوم شعيب [تتلو عليهم آياتنا] ولم تشهدهم فتقرأ على أهل مكّة خبرهم ولم تشاهد الأنبياء و قصصهم وما تلوت من أخبارهم شيئاً [ولكنّا أوحينا إليك] وقصصناها عليك حتّى تخبر قومك بهذه الأخبار فيدلّ ذلك العلم على صحّة نبوّتك ولولا الوحي لما علمت ذلك [ولكنّا كنّا مرسلين] إيّاك أي أرسلناك إلى أهل مكّة و غيرها و أنزلنا عليك هذه الأخبار لتتلو عليهم هذه الأخبار [ولكنّا كنّا مرسلين] في كل زمان رسولاً فأرسلنا إلى أهل مدين شعيباً وأرسلناك لتكون خاتم الأنبياء وتتلو عليهم الأخبار ليصدّقوا نبوّتك .

[وما كنت بجانب الطور إذ نادينا] يريد مناداة موسى ليلة المناجاة وتكليمه أي ولم تك يا محمد حاضراً بناحية الجبل الّذي كلّمنا عليه موسى وناديناه يا موسى خذ الكتاب

بقوّة . وقيل : المراد المرّة الثانية الّتي كلّم الله فيها موسى حين اختار من قومه سبعين رجلاً يسمعوا كلام الله [ولكن رحمة من ربّك] أي ولكن أعلمك وعرّفك رحمة من ربّك وهو أن بعثك نبيّاً وأخبرك هذه الأخبار لتكون معجزة لصدق نبوّتك [لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك] أي لتنذر الّذين لم يأتهم رسول في زمن الفترة لكي يتفكّروا وينزعوا عن المعاصي .

قال الفيض في الصافي : ونقل الرازيّ عن وهب وجملة من المفسّرين في قوله:«إذ نادينا» وجوهاً :

أحدها : إذ نادينا أي قلنا لموسى :«ورحمتي وسعت كلّ شيء ـ إلى قوله ـ أُولئك هم المفلحون» .

وثانيها : قال ابن عبّاس : إذ نادينا اُمّتك في أصلاب آبائهم يا اُمّة محمّد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني قال: وإنّما قال الله ذلك حين اختار موسى عليه السلام سبعين رجلاً لميقات ربّه .

وثالثها : قال وهب : لمّا ذكر الله لموسى فضل اُمّة محمّد صلى الله عليه وآله قال: ربّ أرنيهم قال: إنّك لن تدركهم وإن شئت أسمعتك أصواتهم ،قال: بلى يا ربّ فقال سبحانه : يا اُمّة محمّد ، فأجابوه من أصلاب آبائهم فأسمعه الله أصواتهم ثمّ قال الله سبحانه : أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني .وروى سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في قوله : «وما كنت بجانب الطور إذ نادينا» قال صلى الله عليه وآله : كتب الله كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام ثمّ وضعه على العرش ثمّ نادى يا اُمّة محمّد إنّ رحمتي سبقت غضبي أعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني من لقيني منكم يشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله أدخلته الجنّة . انتهى بيان الرازيّ .

وفي العيون عن النبيّ صلى الله عليه وآله : لمّا بعث الله موسى بن عمران واصطفاه نجيّاً وفلق له البحر ونجّى بني إسرائيل وأعطاه التوراة والألواح رأى مكانته من ربّه فقال : ربّ لقد أكرمتني بكرامة لم تكرم بها أحداً من قبلي ، فقال الله تعالى : يا موسى أما علمت أنّ محمّداً أفضل عندي من جميع ملائكتي وجميع خلقي ؟ قال موسى: يا ربّ فإن كان محمّد أكرم

عندك من جميع خلقك فهل في آل الأنبياء من أكرم عندك ؟ قال الله : يا موسى أما علمت أنّ فضل آل محمّد على جميع آل النبيّين كفضل محمّد على جميع المرسلين ؟ فقال موسى : يا ربّ فإن كان آل محمّد كذلك فهل في اُمم الأنبياء أفضل عندك من اُمّتي ؟ ظلّلت عليهم الغمام ، وأنزلت عليهم المنّ والسلوى ، وفلقت لهم البحر ؟ فقال جلّ جلاله : يا موسى أما علمت أنّ فضل أمّة محمّد على جميع الاُمم كفضله على جميع خلقي ؟ قال موسى : ليتني كنت أراهم فأوحى الله : يا موسى لن تراهم وليس هذا أوان ظهورهم ولكن سوف تراهم في الجنان جنّات عدن والفردوس بحضرة محمّد في نعيمها ينقلبون ، أتحبّ يا موسى أن اُسمعك كلامهم ؟ قال : نعم يا إلهي ، قال الله جلّ جلاله : قم بين يديّ و اشدد مئزرك قيام العبد الذليل بين يدي الملك الجليل ففعل ذلك موسى عليه السلام فنادى سبحانه يا اُمّة محمّد فأجابوه كلّهم وهم في أصلاب آبائهم و أرحام اُمّهاتهم بلبّيك ، اللّهم لبّيك لا شريك لك لبّيك إنّ الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك ،قال : فجعل الله تلك الإجابة شعار الحجّ .

ثمّ نادى ربّنا عزّ و جلّ يا اُمّة محمّد إنّ قضائي عليكم أنّ رحمتي سبقت غضبي و عفوي قبل عقابي فقد استجبت لكم قبل أن تدعوني و أعطيتكم من قبل أن تسألوني من لقيني بشهادة أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأنّ محمّداً عبده و رسوله صادق في أقواله محسن في أفعاله و إنّ عليّ بن أبي طالب أخوه ووصيّه من بعده ووليّه ويلزم طاعته كما يلزم إطاعة محمّد و إنّ أولياءه المصطفين الطاهرين المطهّرين المنابين بعجائب آيات الله و دلائل حجج الله من بعدهما أولياء و من تولّاهم اُدخله جنّتي وإن كانت ذنوبه مثل زبد البحر ، قال : فلمّا بعث الله عزّ وجل محمّداً قال : يا محمّد وما كنت بجانب الطور إذ نادينا اُمّتك بهذه الكرامة ، ثمّ قال الله لمحمّد . قل الحمد لله ربّ العالمين على ما اختصّنا به من هذه الفضائل .

قوله تعالى : [و لولا أن تصيبهم مصيبة بما قدّمت أيديهم فيقولوا ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك ونكون من المؤمنين] وجواب لو لا محذوف أي لو لا قولهم إذا أصابتهم عقوبة وعذاب بسبب كفرهم: ربّنا هلّا أرسلت إلينا يبلّغنا آياتك فنتّبعها و نكون من المصدّقين ما أرسلناك و أرسلناك قطعاً لعذرهم وإلزاماً للحجّة عليهم . قال صاحب الكشّاف:

« لولا » الأولى امتناعيّة و جوابها محذوف والثانية تحضيضيّة وحاصل المعنى ولولا أنّهم قائلون إذا عذّبوا بسبب اقدامهم على الشرك والمعاصي : لمَ ماأرسلت إلينا رسولاً علينا ؟ لما أرسلنا الرسول .

واحتجّ الكعبيّ بهذه الآية على أنّ الله يقبل حجّة العباد وليس الأمر كما يقوله أهل السنّة وظهر بهذا أنّه ليس المراد من قوله « لايسأل عمّا يفعل[1] » ما يظنّه أهل الجماعة، وإذا ثبت أنّه يقبل الحجّة وجب أن لايكون فعل العبد بخلق الله و إلّا لكان للكافر أعظم حجّة على الله .

قال القاضي : في الآية إبطال القول بالجبر من جهات : إحداها أنّه إذا خلق الكفر فيهم وأراد لوجب حصوله سواء أرسل الرسل أم لا فما الفائدة في هذا البيان و أيّ فائدة لإرسال الرسل و الكتب ؟ و إذ كان إيمانهم و كفرهم موقوفاً بخلق الله و إرادته فإرسال الرسل و إنزال الكتب و عدمها سواء و ليس لهذه الآية معنى و هي « لئلّا يكون للناس على الله حجّة بعد الرّسل[2] » فثبت أنّ العبد قادر ومختار على قبول الإيمان كما هو قادر على قبول الكفر .

أمّا قوله [فلمّا جاءهم الحقّ من عندنا] أي محمد والقرآن والإسلام [قالوا لو لا أُوتي] أي هلاّ أُعطي محمد [مثل ما أُوتي موسى] من فلق البحر واليد البيضاء والعصا، وقيل: المراد منهم : هلاّ أُوتي كتاباً جملة واحدة مثل التوراة . و ذلك القول من المشركين بتعليم اليهود فاحتجّ الله عليهم بقوله [أولم يكفروا بما أُوتي موسى من قبل] و قد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد [وقالوا سحران تظاهرا] يعنون التوراة والقرآن ، ومن قرأ «ساحران» فمعناه أنّهم قالوا : تظاهر موسى عليه السلام و محمد صلى الله عليه وآله [وقالوا إنّا بكلّ كافرون] من التوراة والقرآن .

قال بعض المفسّرين : و كانت هذه المقالة حين بعثوا الرهط منهم إلى رؤساء اليهود بالمدينة في عيد لهم فسألوهم عن محمد فأخبروهم بنعته وصفته في كتابهم التوراة فرجع الرهط

---

(١) الانبياء : ٢٣.

(٢) النساء : ١٦٤.

إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود فقالوا عند ذلك : سحران تظاهرا .

[قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتّبعه إن كنتم صادقين] أي قل يا محمّد لكفّار قومك : فأتوا بكتاب هو أهدى وأجمع وأنفع من التوراة والقرآن حتّى أتّبعه إن صدقتم في أنّ التوراة و القرآن سحران . و قيل : المعنى : فأتوا بكتاب من عند الله لم يكذّب به طائفة من الناس .

ثمّ قال لنبيّه : [فإن لم يستجيبوا لك] أي إن لم يأتوا بمثل التوراة والقرآن، وقيل: فإن لم يستجيبوا لك إلى الإيمان مع ظهور الحقّ [فاعلم أنّما يتّبعون أهواءهم] و يميل إليه طباعهم ويطاوعون مشتهيات أنفسهم ولا حجّة لهم بما اعترضوا .

ثمّ ذمّهم فقال : [ومن أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هدىً من الله] أي لا أحد أضلّ ممّن يتّبع هواه بغير رشاد من الله [إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين] إلى طريق الجنّة و لا يحكم الله بهدايتهم إذا لم يهتدوا بهداية الله .

قوله تعالى : ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون (٥١) الذين آتينا هم الكتاب من قبله هم به يؤمنون (٥٢) واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين (٥٣) اولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا و يدرءون بالحسنة السيئة و مما رزقناهم ينفقون (٥٤) و اذا سمعوا اللغوا أعرضوا عنه و قالوا لنا اعمالنا و لكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين (٥٥) .

التوصيل صيرورة الشيء بعضه يلي بعضاً بيّن سبحانه صفة القرآن بقوله : [ولقد وصّلنا] أي فصّلنا لهم القول وآتينا آية بعد آية وبيان بعد بيان وأخبرناهم بأخبار الأنبياء والمهلكين من اُممهم ليتذكّروا ويتفكّروا ويتّعظوا .

قوله : [الّذين آتينا هم الكتاب من قبله هم به يؤمنون] نزلت في أربعين رجلاً من أهل الإنجيل كانوا مسلمين بالنبيّ صلى الله عليه وآله قبل مبعثه اثنان و ثلاثون من الحبشة أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب وقت قدمه و ثمانية قدموا من الشام منهم بحيراء الراهب و أبرهة والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع وتميم . المعنى : الّذين آتيناهم الكتاب من قبل محمّد

هم بمحمّد يؤمنون . وقيل : من قبل القرآن هم بالقرآن يؤمنون .

[وإذا يتلى عليهم] القرآن [قالوا آمنّا به أنّه الحقّ من ربّنا إنّا كنّا من قبل] نزول القرآن [مسلمين] به وذلك أنّ ذكر النبي صلى الله عليه وآله والقرآن كان مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل فهؤلاء لم يعاندوا .

فأثنى الله عليهم بقوله : [أولئك يؤتون أجرهم بما صبروا مرّتين] مرّة بسبب تمسّكهم بدينهم حتّى أدركوا محمداً مثل عبدالله بن سلام وتميم الدارمي والجارود العبدي وسلمان الفارسي ومرّة بإيمانهم بمحمّد صلى الله عليه وآله وقيل : بما صبروا وعملوا بالكتاب الأوّل وعلى الكتاب الثاني [ويدرءون بالحسنة السيّئة] أي يدفعون بالكلام الحسن الكلام القبيح الّذي يسمعونه من الكتاب ويمنعون بالمعروف المنكر أن أمكنهم وبالحلم الجهل وبالمدارة مع الناس أذاهم عن أنفسهم [وممّا رزقنا هم ينفقون] فمدحهم الله بالطاعات الماليّة .

ثمّ بيّن كيفيّة إعراضهم عن الجهّال فقال : [وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه] ولم يقابلوه بمثله [وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم] أي لا نسأل نحن عن أعمالكم ولا تسألون أنتم عن أعمالنا بل كلّ يجازى على عمله أو المعنى لنا ديننا ولكم دينكم ولنا عملنا ولكم سفهكم [سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين] أي أمان وسلامة منّا لكم أن نقابل لغوكم بمثله ونحن لا نطلب مجالسة الجاهلين وإنّما نبتغي الحكماء والعلماء .

قوله تعالى : انك لاتهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء و هو اعلم بالمهتدين(٥٦) وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من ارضنا اولم نمكن لهم حرماً آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن اكثرهم لا يعلمون (٥٧) وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الاقليلاوكنانحن الوارثين (٥٨) وماكان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى امها رسولا يتلوعليهم آياتنا وماكنامهلكى القرى الا واهلها ظالمون(٥٩) وما اوتيتم من شيء فمتاع الحيوة الدنيا وما عند الله خير وابقى افلاتعقلون(٦٠)

المعنى : لمّا تقدّم ذكر الرسول والقرآن فبيّن في هذه الآية فقال :

[إنّك] يا محمد ليس عليك الإجبار على الاهتداء ولا تقدر على ذلك وقيل : المعنيّ والمراد من الهداية هنا اللطف الّذي يختار عنده الإيمان فإنّه لا يقدر عليه إلّا الله [ولكنّ الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين] أي القابلين للهدى فيدبّر الاُمور على علمه .

وههنا مسألة وهي أنّه قيل : نزلت هذه الآية في أبي طالب قال الزجّاج : أجمع المسلمون على أنّها نزلت في أبي طالب وذلك أنّ أبا طالب قال عند موته : يا معشر بني عبدمناف أطيعوا محمّداً وصدّقوه تفلحوا وترشدوا فقال ﷺ : يا عمّ تأمرهم بالنصح لأنفسهم وتدعها لنفسك ؟ قال : فما تريد يا ابن أخي ؟ قال : اُريد منك كلمة واحدة فإنّك في آخر يوم من أيّام الدنيا أن تقول : لا إله إلّا الله أشهد لك بها عند الله ، قال : يا ابن أخي قد علمت أنّك صادق ولكنّي أكره أن يقال : جزع عند الموت ، ولولا أن يكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة ومسبّة بعدي لقلتها ولكنّي سوف أموت على ملّة الأشياخ عبدالمطّلب وهاشم وعبدمناف . انتهى كلام الزجّاج .

أقول : والحق أنّ من عبّر وسمّاه بالزجّاج ما أخطأ لأنّه لو كان جوهريّاً لعرف من هذه المقالة ـ أي مقالة أبي طالب ـ أنّه أوّل من آمن بالله ولو لم يؤمن لمّا تكلّم بهذه الكلمات وماكان يتكفّل لمحمّد ﷺ مثل هذا التكفّل الّذي أربى على الوالد الشفيق و كيف يتعقّل أنّ الإنسان يفعل هذا الصنيع بمن هو أعدى عدوّ دينه . و على فرض أنّه على زعمكم ما أقرّ بهذه الكلمة لمصلحة تقوية أمر النبيّ كما ينبىء عن هذا المعنى قوله : « ولولا أن يكون عليك و على بني أخيك غضاضة ومسبّة » . على أنّ أهل البيت أجمعوا على أنّ أبا طالب مات مسلماً وتظاهرت الروايات بذلك وقد أشرنا إليه في سورة الأنعام و من المعلوم أنّ كلّ كلام يخالف إجماعاً كل البيت فذلك كبندق فارغ خليّ من المعنى ولكن يقلقل .

ولنذكر شرذمة من اُمور تدلّ على إسلامه :

القمّي : قال نزلت قوله تعالى : « إنّك لا تهدي » الآية في أبي طالب ، كان رسول الله ﷺ يقول : يا عمّ قل : لا إله إلّا الله أنفعك بها يوم القيامة فيقول : يا ابن أخي أنا أعلم بنفسي فلمّا مات شهد العبّاس بن عبدالمطّلب عند رسول الله أنّه تكلّم بها عند الموت فقال

رسول الله صلى الله عليه وآله : أمّا أنا فلم أسمعها منه وأرجو أن أنفعه يوم القيامة وقال صلى الله عليه وآله : لو قمت المقام المحمود لشفعت في اُمّتي وأبي وعمّي وأخ لي كان مؤاخياً لي

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام : إنّ مثل أبي طالب مثل أصحاب الكهف ؛ أسرّوا الايمان وأظهروا الشرك فآتاهم الله أجرهم مرّتين .

أقول : و إنّما أسرّ الايمان ليكون أقدر على نصرة محمد صلى الله عليه وآله كما يستفاد هذا المعنى من كلمات أبي طالب وأخبار اُخر .

وعن الصادق عليه السلام قيل له : إنّهم يزعمون أنّ أباطالب كان كافراً فقال عليه السلام كذبوا كيف يكون كافراً وهو يقول :

ألم تعلموا أنّا وجدنا محمّداً ❊ نبيّاً كموسى خطّ في أوّل الكتب

والمراد من أوّل الكتاب اللّوح المحفوظ .

و في حديث آخر : كيف يكون أبوطالب كافراً وهو يقول :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ❊ ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وعن الصادق عليه السلام : قال : لمّا توفّي أبوطالب نزل جبرئيل على رسول الله فقال : يا محمد اخرج من مكّة فليس لك بها ناصر وثارت قريش بالنبيّ فخرج هارباً حتّى جاء إلى جبل يقال الجحون فصار إليه قال : فنزل جبرئيل عليه و قال : إنّ ربّك يقرؤك السلام ويقول : إنّي حرّمت النار على صلب أنزلك وبطن حملك و حجر كفلك فالصلب صلب أبيه عبدالله بن عبدالمطّلب والبطن بطن آمنة بنت وهب والحجر حجر أبي طالب . وزاد في رواية : فاطمة بنت أسد .

و في كتاب بشارة المصطفى عنه عن آبائه عن أميرالمؤمنين عليه السلام قال : كان ذات يوم جالساً بالرحبة والناس مجتمعون فقام إليه رجل فقال : يا أميرالمؤمنين إنّك بالمكان الّذي أنزلك الله به وأبوك يعذّب بالنار ؟ فقال له عليه السلام مه ! فضّ الله فاك والّذي بعث محمّداً بالحقّ نبيّاً لو شفع أبي في كلّ مذنب على وجه الأرض لشفّعه الله تعالى فيهم ليعذّب أبي بالنار وابنه قسيم الجنّة والنار ؟ ثمّ قال والّذي بعث محمّداً بالحقّ أنّ نور أبي طالب يوم القيامة ليطفيء أنوار الخلق في المحشر إلّا نور محمد ونور عليّ ونور فاطمة ونور الحسن ونور الحسين

وأنوار الأئمّة من ولد الحسين عليه السلام .

وبالجملة فمن نظر إلى أشعار أبي طالب في مديح النبيّ وهو أهل النظر عرف أنّه موحّد مصدّق بنبوّته و ليست بقصيدة ولا عشرة بل استيفاء جميعه لا يستطيع الطوامير وأنّه لو صحّ عدم مجاهرة الأعداء في أمر إقراره استصلاحاً لأمر النبيّ وحسن تدبيره في كيدهم عن الرسول شفقة عليه لئلاّ يلجئوا الرسول ما ألجؤوه إليه بعد موته .

قوله تعالى : [وقالوا إن نتّبع الهدى معك نتخطّف من أرضنا] نزلت في قريش حين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الإسلام والهجرة قال الحارث بن نوفل بن عبدمناف قال للنبيّ صلى الله عليه وآله إنّا لنعلم أنّ قولك حقّ ولكن أن نتبع الهدى معك و نؤمن بك نخاف أن يتخطّفنا العرب من أرضنا ولا طاقة لنا بالعرب فنخرج منها فأنزل الله هذه الآية رادّاً عليهم :

[أولم نمكّن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كلّ شيء رزقاً من لدنّا ولكنّ أكثرهم لا يعلمون] أي أو لم نجعل لهم في أمن وأمان قبل هذا ودفعنا ضرر الناس عنهم فكيف يخافون زواله لو آمنوا بل حالة الإيمان والطاعة أولى بالأمن والسلامة من حالة الكفر ويجتمع فيه ثمرات كلّ أرض وبلدة بالتجارة والمسافرات [رزقاً من لدنّا] وأعطاء منّا جارياً عليهم [ولكنّ أكثرهم لا يعلمون] جهلة لا يتفطّنون .

[و كم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها] أي وربّ أهل قرية و بلدة كانت حالهم كحالكم في الأمن وحفض العيش حتّى أشروا و طغوا وبغوا فدمّر الله عليهم وخرب ديارهم [فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلّا قليلاً] وتلك إشارة إلى ما يعرفونه من ديار عاد وثمود ولوط لأنّهم كانوا يمرّون عليها وهي خاوية وخربة غير مسكونة إلّا قليل منها كالمسافر ساعة أو ساعتين فإنّ ديار عاد إنّما كانت بالأحقاف وهو موضع بين اليمن والشام وديار ثمود بواد القرى وديار قوم لوط بسدوم وكانوا في تجاراتهم يمرّون بها [و كنّا نحن الوارثين] أي المالكين لديارهم .

ثمّ خاطب نبيّه بقوله : [وما كان ربّك مهلك القرى حتّى يبعث في اُمّها رسولاً يتلو عليهم آياتنا] كأنّ سائلاً يسأل لمّا ذكر سبحانه أنّه أهلك تلك القرى بسبب بطر

أهلها لماذا ما أهلك الله الكفّار والمشركين مع بطرها وطغيانها بمكّة فأجاب سبحانه: وما كان ربّك يا محمّد مهلك القرى أي أهل القرى حتّى يبعث في أُمّها وأصلها وكرسيّها رسولاً لإلزام الحجّة وقطع المعذرة فوجب أن لا يجوز إهلاكهم إلّا بعد البعثة أو المعنى إنّما ماعدّبنا أهل مكّة والأعراب الّتي حولها لأنّه لابدّ وإن نبعث في أُمّ القرى وهي مكّة وأصل الأرض رسولاً وهو محمّد يتلو عليهم آياتنا ويؤدّي ويبلّغ عنّا.

[وما كنّا مهلكي القرى إلّا وأهلها ظالمون] بالشرك والمعاصي فإن قيل: فلمَ ما أهلك أهل مكّة؟ لأنّ أهل مكّة بعضهم قد آمن وبعضهم قد علم الله أنّه سيؤمن وآخرون علم الله أنّهم وإن لم يؤمنوا لكنّه يخرج من نسلهم من يكون مؤمناً أو لشرافة النبيّ رفع الله سبحانه عن أُمّته عذاب الاستيصال.

قوله تعالى: [وما أُوتيتم من شيء] أي ما أعطيتم من شيء [فمتاع الحياة الدنيا] أي هو شيء تتمتّعون به في الدنيا وتتزيّنون به يوماً أو عشراً [وما عند الله] من الثواب ونعيم الآخرة [خير] من هذه النعم [وأبقى] لأنّها فانية ونعيم الآخرة باقية [أفلا تعقلون] حتّى تميّزوا بين الباقي والفاني.

قوله تعالى: أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحيوة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين (٦١) ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون (٦٢) قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرءنا ماكانوا ايانا يعبدون (٦٣) و قيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم و رأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون (٦٤) ويوم يناديهم فيقول ماذا اجبتم المرسلين (٦٥) فعميت عليهم الانباء يومئذ فهم لا يتساءلون (٦٦) .

النزول : قيل: نزلت «أفمن وعدناه، الآية» في رسول الله وأبي جهل. وقيل: نزلت في حمزة وعليّ بن أبي طالب عليه السلام و في أبي جهل. وقيل: نزلت في عمّار والوليد بن المغيرة، والأولى أن يكون عامّاً في كلّ من يكون بهذه الصفة.

المعنى : لمّا ذكر من أُوتي من زينة الدنيا عقّب بالفرق بين هاتين النعمتين فقال:

[أفمن وعدناه وعداً حسناً] من ثواب الحسنة جزاء على طاعته [فهو لاقيه] وواصل إليه ومدرك تلك النعمة لا محالة كمن متّعناه متاع الحياة الدنيا من الأموال وغيرها [ثمّ هو يوم القيامة من المحضرين] للجزاء والعقوبة وقيل: المعنى من المحضرين في النار والحاصل أنّ حالهما لا يكون سواء.

[و يوم يناديهم] واذكر يوم ينادي تعالى الكفّار و هو يوم القيامة وهذا نداء تبكيت و تقريع [فيقول] الله سبحانه : [أين شركائي الّذين كنتم تزعمون] شركائي في الإلهيّة وتعبدونهم وتحسبون أنّهم ينفعونكم.

[قال الّذين حقّ عليهم القول] أي حقّ عليهم الوعيد بالعذاب من الجنّ والشياطين والّذين أغووا من الإنس والمراد من القول في الآية هو قوله: «لأملأنّ جهنّم من الجنّة والناس أجمعين[١]» أي حقّ مقتضى القول [ربّنا هؤلاء] مبتدء و « الّذين أغوينا » صفة للمبتدء من هؤلاء الموصوفين بالغيّ «أغويناهم» خبر للمبتدء فغووا كما غوينا والمراد أنّه كما أنّ غيّنا باختيارنا فكذا غيّهم باختيارهم وأغوائنا ما ألجأهم إلى الغواية بل كانوا مختارين بالإقدام على تلك العقائد الفاسدة ، ومثل هذا المعنى قد حكى الله عن الشيطان حيث قال: «إنّ الله وعدكم وعد الحقّ ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلّا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم[٢]» .

ثمّ قال الّذين حقّ عليهم القول [تبرّأنا إليك] منهم ومن أفعالهم ويتبرّأ بعض من بعض وصاروا أعداء [ماكانوا إيّانا يعبدون] أي لم يكونوا يعبدوننا بل كانوا يعبدون الشيطان الّذين زيّن لهم عبادتنا .

قوله : [وقيل ادعوا شركاءكم] أي ويقال للأتباع : ادعوا الّذين عبدتموهم من دون الله وزعمتم أنّهم شركاء ليدفعوا عنكم العذاب وإنّما نسب الشركاء إليهم لأنّه لايجوز أن يضاف إلى الله شريك ولكنّهم كانوا يزعمون أنّها شركاء الله [فدعوهم فلم يستجيبوا] أي فيدعونهم فلا يجيبونهم إلى ملتمسهم [ورأوا العذاب] أي ويرون العذاب [لو أنّهم كانوا يهتدون]

---

(١) هود : ١١٩ .
(٢) ابراهيم : ٢٢ .

أي لو أنّهم كانوا يهتدون لرأوا العذاب واعتقدوا انّ العذاب حقّ في الدنيا وما أنكروا القيامة .

قوله تعالى : [ويوم يناديهم فيقول ما ذا أُجبتم المرسلين] ومن الأُمور التي يسأل الله الكفّار في ذلك اليوم فيقول الله لهم ما الّذي أجبتم من دعوة المرسلين وما كان جوابكم لمن أُرسل إليكم من النبيّين و هذا سؤال تقرير بالذنب فإنّ الرسل كانوا يدعون بالعلم والعمل كأنّه يقال لهم ماذا علمتم وما الّذي عملتم .

[فعميت عليهم الأنباء يومئذ] فخفيت عليهم طرق الجواب يومئذ كالأعمى لانسداد طرق الأخبار عليهم كما تنسدّ طرق الأرض على الأعمى وا ُلبست عليهم الحجج فلا ينطقون بالحجّة [فهم لايتساءلون] أي لايسأل بعضهم بعضاً عن حاله لشغله بنفسه، وقيل: لا يسأل بعضهم بعضاً عن أن يحمل عنه ذنوبه .

قوله تعالى : فأما من تاب و آمن و عمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين (٦٧) وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون (٦٨) وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون (٦٩) و هو الله لا اله الا هو له الحمد فى الاولى و الاخرة وله الحكم واليه ترجعون(٧٠)

ثمّ لمّا بيّن حال المعذّبين من الكفّار أتبعه بذكر من يتوب منهم في الدنيا ترغيباً في التوبة وزجراً عن الثبات على الكفر فقال :

[فأمّا من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين] وفي عسى وجوه : أحدها أنّه من الكرام تحقيق والله أكرم الأكرمين . و ثانيها أن يراد ترجّي التائب وطمعه كأنّه قال : فليطمع في الفلاح . وثالثها عسى أن يكونوا كذلك إن داموا على التوبة والإيمان لجواز أن لا يدوموا . وإنّما أتى سبحانه بلفظة «عسى» مع أنّه مقطوع بفلاحه لأنّه على رجاء أن يدوم على ذلك فيفلح وقد يجوز أن يزلّ في ما بعد فيهلك على أنّه قد قيل : إنّ «عسى» من الله سبحانه لفظة وجوب في جميع القرآن .

قوله : [وربّك يخلق ما يشاء ويختار ماكان لهم الخيرة] وفي الآية ردّ على المشركين

حيث أو ردوا شبهة و قالوا : « لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم [١] » فاختاروا عظيماً من مكّة وهو الوليد بن المغيرة ومن الطائف عروة بن مسعود الثقفي فأجاب الله سبحانه بقوله : « وربّك يخلق مايشاء ويختار » لهم ما هو الأصلح « ماكان لهم الخيرة » و «ما» في الآية بمعنى الّذي أي ويختار الّذي لهم الخيرة ، والخيرة اسم من الاختيار أقيم مقام المصدر و حاصل المعنى أنّ الاختيار له وليس لغيره.وقيل:«ما»نافية فيكون الوقف في الآية حينئذٍ على قوله : « ويختار » .

قوله : [سبحان الله وتعالى عمّا يشركون] أي تقدّس و تنزّه عن أن يكون له شريك واختيار لأحد من دونه .

ثمّ أقام البرهان على صحّة اختياره بقوله [وربّك يعلم ما تكنّ صدورهم وما يعلنون] أي هو العالم بما يخفونه وما يظهرونه فإليه الاختيار و أمّا الّذي لا يعلم فلا اختيار له لأنّه غيرقابل بعلم الأصلح [وهوالله لاإله إلّا هو] وهذاالموصوف الله ليس إله غيره [له الحمد في الأولى والآخرة] وله الثناء والمدح والتعظيم على ما أنعم به على خلقه في الدنيا والعقبى [وله الحكم] بينهم بما يميّز به الحقّ والباطل : يحكم لأهل طاعته بالفضل والمغفرة و لأهل معصية بالشقاء والويل [وإليه ترجعون] و إلى حكمه مرجعكم .

قوله تعالى : قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيمة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون (٧١) قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيمة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون (٧٢) ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه و لتبتغوا من فضله و لعلكم تشكرون (٧٣) ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون (٧٤) ونزعنا من كل امة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون (٧٥) .

المعنى : [قل] يا محمد لقومك والّذين عبدوا الآلهة تنبيهاً على خطائهم و بياناً لموجبات الحمد الّذي ذكره في الآية السابقة حيث قال : «وله الحمد في الأولى والآخرة »

(١) الزخرف : ٣١ .

فنبّه سبحانه بأنّ اللّيل والنهار نعمتان يتعاقبان لأنّ الإنسان لابدّ وأن يتعب لتحصيل ما يحتاج إليه ولا يتمّ له ذلك لولا ضوء النهار و الاجتماعات ليتمكّن الإنسان من المعاملات وأيضاً لا يتمّ هذا الأمر لولا الراحة والسكون باللّيل فلا بدّ منهما فقال :

[أريتم] إذا بقي اللّيل من غير النهار من [يأتيكم بضياء] ونهار ولا قادر على ذلك إلّا الله [أفلاتسمعون] ما بيّنه لكم من الأدلّة على التوحيد وتتفكّرون فيه، و كذلك [إن جعل الله] النهار من غير ليل تسكنون فيه للراحة ويكون دائماً النهار من غير ليل من [يأتيكم بليل] تستريحون فيه من النصب والحركة غير الله [أفلا تبصرون] وتتبصّرون من البصيرة أو من المشاهدة فتعلموا أنّهما من صنيع مدبّر حكيم .

ثمّ قال : [ومن رحمته جعل لكم اللّيل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون] أي ومن رحمته و إحسانه إليكم جعل اللّيل للسكونة والراحة والنهار لابتغاء المعاش والكسب والفضل [ولعلّكم تشكرون] من نعم الله عليكم وتعرفون حقّه [ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الّذين كنتم تزعمون] مضى تفسيره كراراً و إنّما كرّر ذكر النداء للمشركين بأين شركائي تقريعاً لهم بعد تقريع ، أو أنّ النداء الأوّل في الآية السابقة لتقرير إقرارهم على أنفسهم بالغيّ والثاني للتعجيز عن إقامة البرهان بحضرة الأشهاد .

[ونزعنا من كلّ اُمّة شهيداً] أي وأخرجنا من كلّ اُمّة من الأمم رسولها الّذي يشهد عليهم بالتبليغ وبماكان صدر منهم وهم عدول الآخرة ولا يخلو كلّ زمان منهم يشهدون على الناس بما علموا ليكون ذلك زائداً في غمّهم ، والشهداء الّذين يشهدون يعمّ الأنبياء والمؤمنين في أيّام الفترات فعلم الكفّار حينئذ [أنّ الحقّ لله وضلّ] وغاب وضاع مفترياتهم من الباطل والكذب .

قوله تعالى : ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة اولى القوة اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين (٧٦) وابتغ فيما آتاك الله الدار الاخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الارض

ان الله لا يحب المفسدين (٧٧) قال انما اوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون (٧٨) فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحيوة الدنيا ياليت لنامثل ما اوتي قارون انه لذو حظ عظيم (٧٩) وقال الذين اوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقيها الا الصابرون (٨٠) فخسفنا به وبداره الارض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين (٨١) وأصبح الذين تمنوا مكانه بالامس ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر و لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون (٨٢) .

اعلم أنّ نصّ القرآن يدلّ على أنّ قارون كان من قوم موسى عليه السلام وظاهر ذلك يدلّ على أنّه ممّن قد آمن بموسى ، ولا يبعد أيضاً حمله على القرابة ؛ واختلفوا في كيفيّة القرابة قيل : إنّه كان ابن عمّ موسى عليه السلام لأنّه كان قارون بن يصهر بن فاهث بن لاوي وموسى ابن عمران بن فاهث بن لاوي . وقيل : إنّه كان عمّ موسى لأنّ موسى ابن عمران ابن يصهر بن فاهث ، و قارون ابن يصهر بن فاهث . وقال ابن عبّاس : إنّه كان ابن خالته . ثمّ قيل : إنّه كان يسمّى المنوّر لحسن صورته وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة إلّا أنّه نافق كما نافق السامريّ .

أمّا قوله : [فبغى عليهم] قيل : إنّه بغى بسبب ماله وبغيه أنّه استخفّ بالفقراء ولم يرع لهم حقّ الإيمان ولاعظّمهم مع كثرة أمواله . وقيل : كان بغيه من الظلم ملّكه فرعون على بني إسرائيل فظلمهم و بغى عليهم وطلب الفضل عليهم و جعلهم تحت يده . وقيل : طغى عليهم واستطال فلم يوافقهم في أمر. وقيل : بغيه عليهم أنّه زاد عليهم في الثياب شبراً للتكبّر .

وقيل : إنّ بغيه عليهم أنّه حسد هارون عليه السلام على الحبورة[1] ؛ يروى أنّ موسى عليه السلام لمّا قطع البحر و أغرق الله فرعون جعل الحبورة لهارون عليه السلام فخلصت له النبوّة والحبورة وكان صاحب القربان والمذبح وكان لموسى عليه السلام الرسالة فوجد قارون من ذلك

(١) بالضم : الإمامة .

في نفسه فقال : يا موسى لك الرسالة و لهارون الحبورة و لست في شيء ولا أصبر أنا على هذا ، فقال موسى: والله ماصنعت ذلك لهارون ولكنّ الله جعله له . فقال: والله لا اُصدّقك أبداً حتّى تأتيني بآية أعرف بها أنّ الله جعل ذلك لهارون،قال : فأمر موسى عليه السلام رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كلّ رجل منهم بعصاه فجاءوا بها فألقاها موسى عليه السلام في قبّة له وكان ذلك بأمر الله فدعا ربّه أن يريهم بيان ذلك فباتوا يحرسون عصيّهم فأصبحت عصا هارون عليه السلام تهتزّ ،بها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال موسى عليه السلام : ياقارون أما ترى ما صنع الله لهارون ؟ فقال : والله ما هذا بأعجب ممّا تصنع من السحر ، فاعتزل قارون بأتباعه و كان كثير المال و التبع من بني إسرائيل فما كان يأتي موسى عليه السلام و لا يجالسه .

وروى أبو أمامة الباهليّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال :كان قارون من السبعين المختارة الّذين سمعوا كلام الله .

أمّا قوله : [وآتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة اُولي القوّة] ففيه أبحاث ، فإن قيل : إنّ الله لا يعطي الحرام فكيف أضاف الله مال قارون إلى نفسه بقوله «وآتيناه» فاُجيب بأنّه لا حجّة في أنّه حرام ولعلّ أنّه قد وصل إليه بعضه بالإرث وبعضه بالتكسّب ، وقيل إنّه أصاب كنزاً من كنوز يوسف .

وبالجملة «وآتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة اُولي القوّة» و «ما» هذه موصولة أي أعطيناه من الأموال المدّخرة قدر الّذي تنوء مفاتحه بالعصبة ، و المفاتح المراد الخزائن مثل قوله : « وعنده مفاتح الغيب [1]» ، أي خزائن،من قول أكثر المفسّرين وابن عبّاس . وقيل : هي المفاتح الّتي تفتح بها الأبواب . وقيل : كانت مفاتيح قارون من جلود و كلّ مفتاح مثل الإصبع . واختلف في معنى العصبة فقيل : ما بين عشرة إلى خمسة عشر . وقيل : إلى أربعين . وقيل : أربعون رجلاً . والعشرة عصبة بدليل قوله تعالى في إخوة يوسف : « ونحن عصبة [2] » وكانوا عشرة لأنّ يوسف وأخاه لم يكونا معهم .

---

(١) الانعام : ٥٩ .

(٢) يوسف : ٨ و ١٤ .

و بالجملة « لتنوء بالعصبة » أي تنوء و تعجز العصبة بها ، وناءت العصبة بها، و الباء لتعدّي الفعل و لكثرة هذه الأموال أو المفاتيح تتعب القائمين عليها أن يحفظوها و يحملوها .

ثمّ بيّن سبحانه أنّه كان في قوم قارون من وعظه بأُمور :

أحدها قوله : [إذ قال له قومه لا تفرح إنّ الله لا يحبّ الفرحين] والمراد أن لا تبطر بالنعمة ولا يلهيك المال عن الآخرة لأنّ من يعلم أنّه سيفارق الدنيا لم يفرح بها .

وثانيها قوله : [وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة] و الظاهر أنّه كان مقرّاً بالآخرة .

وثالثها : [ولا تنس نصيبك من الدنيا] أي لا بأس بوجوه التمتّع التمتّع المباحة، أو المراد الإنفاق في طاعة الله فإنّ ذلك هو نصيب المرء من الدنيا قال ﷺ : فليأخذ العبد من نفسه لنفسه و من دنياه لآخرته و من الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت فوالّذي نفس محمّد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار إلّا الجنّة والنار .

ورابعها : [وأحسن كما أحسن الله إليك] ويدخل فيه وجوه الخير والإعانات [ولا تبغ الفساد في الأرض] والمراد ما كان عليه من الظلم والبغي . وقيل : إنّ هذا القائل هو موسى. وقيل: القائل بل مؤمنو قومه لكن أبى أن يقبل بل زاد قارون بكفر النعمة فقال :

[إنّما أُوتيته على علم عندي] أي إنّ المال حصل لي على علم عندي بوجوه المكاسب وبأُمور لا يتهيّأ لأحد أن يكتسبه من التجارات والزراعات، وقيل : على علم عندي بصنعة الذهب وهو علم الكيمياء ، حكي انّ موسى علّم قارون الثلث من صنعة الكيمياء وعلّم يوشع الثلث منها وعلّم كالب بن هارون الثلث منها فخدعهما قارون حتّى علم ماعندهما وعمل بالكيمياء فكثرت أمواله فكان يأخذ الرصاص فيجعله فضّة والنحاس فيجعله ذهباً .

فأجاب الله عن كلامه بقوله : [أولم يعلم أنّ الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشدّ منه قوّة وأكثر جمعاً] والمراد أولم يعلم في جملة ما عنده من العلم أنّ الله قد أهلك قبله من القرون من هو أغنى منه وأقوى ، و ذلك لأنّه قرأه في التوراة وأُخبر به و سمعه

من الأحبار . والمراد من قوله: « أكثر جمعاً » أكثر جمعاً للمال أو أكثر جماعة في العدد .

وأمّا قوله : [ولايسأل عن ذنوبهم المجرمون] أي إذا جاء و نزل العذاب فالاغترار بالمال الكثير والعدو العظيم لاينفع ويدخلون النار والملائكة تعرفهم بسيماهم فلا يسألون عنهم لعلامتهم ويأخذونهم بالنواصي والأقدام فيصيّرونهم إلى النّار وهذا كقوله «فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولاجانّ[(١)] » فأمّاقوله :«فوربّك لنسئلنّهم أجمعين[(٢)]» فإنّما ذلك سؤال تقريع وتوبيخ لا ليعلم ذلك .

قوله [فخرج على قومه في زينته قال الّذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما اُوتي قارون إنّه لذو حظّ عظيم] فقوله «فخرج على قومه في زينته » يدلّ على أنّه خرج بأظهر زينة وأكملها و ليس في القرآن إلّا هذا القدر إلّا أنّ الناس ذكروا وجوهاً كثيرة في كيفيّة تلك الزينة قال مقاتل : خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف فارس على الخيول وعليها الثياب الاُرجوانيّة ومعه ثلاثمائة جارية بيض عليهنّ الحليّ والثياب الحمر على البغال الشهب . وقال بعضهم : في تسعين ألفاً هكذا . والأولى ترك هذه التقريرات لأنّها متعارضة .

ثمّ إنّ الناس لمّا رأوه على ذلك الزيّ و الزينة قال من كان يرغب منهم في الدنيا: «ياليت لنا مثل ما اُوتي قارون » من هذه الأموال والاُمور وأمّا أهل الدين فقالوا للّذين تمنّوا هذا : [ويلكم ثواب الله خير] من هذه النعم لأنّه دائم ، و كلمة و يلك أصله الدعاء بالهلاك ثمّ يستعمل في الزجر والردع[وما يلقّاها إلّا الصابرون] أي لايوفّق لها ، والضمير إلى الكلمة أي كلمة ثواب الله خير إلّا الصابرون أو الضمير راجع إلى الايمان والعمل الصالح أي لايؤتيها إلّا الصابرون في الطاعة والرضا بماقسم الله لهم .

وقوله : [فخسفنا به وبداره] أي إنّ قارون لمّا أشر وبطر خسف الله به وبداره جزاءً على عتوّه ، والفاء تدلّ على هذا المعنى لأنّ الفاء تشعر بالعلّيّة . قيل : إنّ قارون كان يؤذي موسى عليه السلام كلّ وقت وهو يتحمّل عنه للقرابة الّتي بينهما حتّى نزلت التوراة وآية الزكاة فصالحه موسى عن كلّ ألف دينار على دينار و عن كلّ ألف درهم على درهم فاستكثره قارون بعد ماحسبه فشحّت نفسه فجمع بني إسرائيل وقال : إنّ موسى يريد أن

---

(١) الرحمن : ٣٩ . (٢) الحجر : ٩٢ .

يأخذ أموالكم فقالوا : أنت سيّدنا و كبيرنا فمرنا بما شئت قال : نبرطل(؟) فلانة البغيّ حتّى تنسبه إلى نفسه فرفضه بنو إسرائيل فجعل لها طستاً مملوءاً من الذهب .

فلمّا كان يوم عيد قام موسى فقال : يابني إسرائيل من سرق قطعناه ومن زني وهو غير محصن جلدناه وإن أحصن رجمناه فقال قارون : وإن كنت أنت ؟ قال : و إن كنت أنا . قال : فإنّ بني إسرائيل يقولون : إنّك فجرت بفلانة ! فاُحضرت فناشدها موسى بالله الّذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق فتدار كها الله فقالت : كذبوا ، بل جعل قارون لي جعلاً على أن أقذفك بنفسي فخرّ موسى ساجداً لله يبكي وقال يارب : إن كنت رسولك فاغضب لي ، فأوحى الله إليه أن مر الأرض بما شئت فإنّها مطيعة لك .

فقال : يابني إسرائيل إنّ الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا جميعاً غير رجلين ثمّ قال موسى : ياأرض خذيهم ، فأخذتهم إلى الركب ، ثمّ قال : خذيهم ، فأخذتهم إلى الأوساط ، ثمّ قال : خذيهم ، فأخذتهم إلى الأعناق ؛ وقارون وأصحابه يتضرّعون إلى موسى ويناشدونه بالله والرحم وموسى لايلتفت إليهم ثمّ قال موسى : ياأرض خذيهم ، فانطبقت الأرض عليهم ، فأوحى الله إلى موسى : استغاثوا بك مراراً فلم ترحمهم أما و عزّتي لودعوني مرّة واحدة لوجدوني قريباً مجيباً .

ونقل صاحب المجمع هذه الرواية عن السدّي مع اختلاف يسير في العبارة قال : دعا قارون امرأة من بني إسرائيل بغيّاً فقال : إنّي اُعطيك ألفين على أن تجيئين غداً إذا اجتمعت بنو إسرائيل عندي فتقولي : يامعشر بني إسرائيل مالي ولموسى قد آذاني ؟ فقالت : نعم فأعطاها خريطتين عليهما خاتمه فلمّا جاءت إلى بيتها ندمت وقالت : ياويلتى قد عملت كلّ فاحشة فمابقي إلّا أن أفتري على نبيّ الله و كليمه فلمّا أصبحت أقبلت ومعها الخريطتان حتّى قامت بين بني إسرائيل فقالت : إنّ قارون قد أعطاني هاتين الخريطتين على أن أقول هكذا ومعاذالله أن أفتري على نبيّ الله و هذه دراهمه عليها خاتمه فعرف بنو إسرائيل خاتم قارون فغضب موسى فدعا الله إلى آخر القصّة .

وقيل : لمّا صبّ قارون على رأس موسى رماداً قد خلط بالماء دعا عليه .

قال مقاتل : ولمّا أمر موسى الأرض فابتلعته قال بنو إسرائيل : إنّما فعل موسى

ذلك ليرثه لأنّه كان ابن عمّه فخسف بداره بعدثلاثة أيّام .

قوله : [فماكان له من فئة ينصرونه من دون الله] وما أفاده جمعه ولاماله وماتمكّن أحد أن ينصره من عذاب الله [وما كان من المنتصرين] والممتنعين من عذاب الله و كان يعذّب و يجلجل في طبقات الأرض إلى أن لاقى و سمع تسبيح يونس في بطن الحوت و سأله عن قومه وترحّم عليهم فرفع الله عنه العذاب في الدنيا إلى آخر القصّة قوله : [وأصبح الّذين تمنّوا مكانه بالأمس] حين خرج عليهم في زينته [يقولون و يكأنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عبادة ويقدر] وفي كلمة « وي كأنّ » أقوال من أئمّة النحاة و أهل اللغة : قال ابن جنّي : في «وي كأنّه» ثلاثة أقوال منهم من جعلها كلمة واحدة فلم يقف على وي ، و منهم من وقف على « وي » . و منهم من قال:«ويك» أي أعجب و الكاف للخطاب مثل ذلك فالمعنى أعجب أنّه لايفلح الكافرون واعجب أنت أنّه يبسط الرزق لمن يشاء ، وعلى كون كلمة «وي»مفصولة عن«كأن»فهي مستعملة عند التنبّه للخطأ وإظهار التندّم فالمعنى في الآية:إنّهم لما قالوا : ياليت لنا مثل ما أُوتي قارون ثمّ شاهدوا الخسف تنبّهوا لخطائهم فقالوا : وي ، ثمّ قالوا : كأنّ الله يبسط الرزق بحكمته لا لكرامته عليه ويضيق على من يشاء لالهوانه عليه . وقيل :«ويلك» أنّه بحذف اللام وجاز هذا الحذف لكثرتها في الكلام وأنّه مفتوحة بعدها بفعل مضمر كأنّه قال : و يك أعلم أنّه يبسط الرزق ويقدر .

قوله : [لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا ويكأنّه لايفلح الكافرون] ثمّ قالوا : لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا و كنّا مثله وي كأنّه لا يفلح الكافرون لما قبله .

و **النظم** في قصّة قارون في الآيات لأنّ الله سبحانه قال :«فما أُوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وماعند الله خير وأبقى» فأكّد هذا البيان بحديث قارون وحاله .

قوله تعالى : تلك الدار الاخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين (٨٣) من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون (٨٤) ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين (٨٥) وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين (٨٦) ولا يصدنك عن آيات الله بعد

اذ انزلت اليك وادع الى ربك ولاتكونن من المشركين (٨٧) ولا تدع مع الله الهاً آخر لا اله الا هو كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون (٨٨) .

[تلك الدار الآخرة] الّتي سمعت خبرها وبلغك وصفها [نجعلها للّذين لا يريدون علوّاً] وغلبة [في الأرض ولافساداً] وظلماً على الناس . في المجمع عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه كان يمشي في الأسواق وهو وال يرشد الضالّ و يعين الضعيف ، ويمرّ على البقّال والبيّاع ويقرء هذه الآية ويقول : نزلت في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة . وعنه عليه السلام قال : إنّ الرجل ليعجبه شراك نعله فيدخل في هذه الآية . يعني إنّ من تكبّر على غيره بلباس يعجبه فهو ممّن يريد علوّاً في الأرض .

وعنه عليه السلام أنّه قال لحفص بن غياث : ياحفص مامنزلة الدنيا من نفسي إلّا بمنزلة الميتة إذا اضطررت إليها أكلت منها ياحفص إنّ الله علم ما العباد عاملون وإلى ماهم صائرون فحلم عنهم عند أعمالهم السيّئة لعلمه السابق فيهم فلا يغرنّك حسن الطلب ممّن لا يخاف الفوت ثمّ تلا «تلك الدار الآخرة» الآية وجعل يبكي ويقول : ذهبت والله الأمانيّ عند هذه الآية ، فاز والله الأبرار أتدري منهم هم الّذين لايؤذون الذرّ ، كفى بخشية الله علماً و كفى بالاغترار جهلاً ، الحديث .

قوله : [و العاقبة للمتّقين] الّذين اتّقوا المعاصي وعقاب الله بأداء فرائضه .

قوله : [من جاء بالحسنة فله خير منها] لمّا بيّن أنّ الدار الآخرة للمتّقين بيّن لهم مايحصل فقال : من أتى بحسنة فله قد حصل خير من تلك الحسنة فيزوّد ثواباً [ومن جاء بالسيّئة فلايجزى الّذين عملوا السيّئات إلّاماكانوا يعملون] أي لايزادوا على مايستحقّون ، ثبت أنّ في الحسنات مزيد الفضل والثواب ولايجزى بالسيّئة إلّا مثلها .

فلوقيل . كيف لاتجزى السيّئة إلّا بمثلها مع أنّ المتكلّم بكلمة الكفر إذا مات في الحال عذّب أبد الآباد ؟

فالجواب أنّه كان على عزم أنّه لوعاش أبداً كان القائل بذلك فعومل بمقتضى عزمه وقصده كما أنّ الكافر لوكان موبّداً في الدنيا لكان مؤبّداً في كفره فيكون مؤبّداً في عذابه .

قوله : [إنّ الّذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد] النزول : قيل : لمّا نزل النبيّ ﷺ بالجحفة في مسيره إلى المدينة مهاجراً اشتاق إلى مكّة فأتاه جبرئيل فقال : أتشتاق إلى بلدك ومولدك ؟ فقال : نعم ، قال جبرئيل : فإنّ الله يقول : « إنّ الّذي فرض » الآية ، أي إنّ الّذي أوجب عليك القرآن بما تضمّنه من الأحكام لرادّك إلى مكّة وبعيدك إليها كما كنت فيها وهذا أحد الدلالات على كونه نبيّاً لأنّه تعالى أخبره عن الغيب وقد وقع كما أخبر فكان معجزاً وصار المخبر مطابقاً للخبر . و قيل : المعنى إلى المرجع يوم القيامة وبعيدك بعد الموت كما بدأك .

ثمّ ابتدأ بكلام آخر فقال سبحانه : [قل] يا محمّد [ربّي أعلم من جاء بالهدى] الّذي يستحقّ الثواب [ومن هو في ضلال مبين] أي لا يخفى عليه الضالّ والمهتدي و المؤمن و الكافر ، والتأويل أنّي قد جئتكم بالهدى من عنده وإنّكم في ضلال وسينصرني عليكم .

ثمّ ذكر سبحانه النعم الّتي أنعم الله على نبيّه فقال : [وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب] أي وما كنت يا محمّد ترجو فيما مضى أن يوحي الله إليك ويشرّفك بهذه الشرافة العظيمة من إنزال الكتاب عليك [إلّا رحمة من ربّك] و إلّا في الآية قيل للاستدراك أي ما كنت ترجوا هذا الأمر العظيم لكن تداركتك رحمة عظيمة من الله خصّصت بها .

ثمّ أمره بأُمور :

أحدها : بأن لا يكون مظاهراً للكفّار فقال [ولا تكوننّ ظهيراً للكافرين] وهذا الخطاب وأمثاله وإن كان للنبيّ لكنّ المراد قومه روي عن ابن عبّاس أنّه كان يقول : القرآن كلّه إيّاك أعني واسمعي ياجارة .

و ثانيها : قال سبحانه : [ولا يصدّنّك عن آيات الله بعد إذ اُنزلت إليك] الميل إلى المشركين وذلك حين دعوه إلى دين طائفته ليزوّجوه ويقاسموه شطراً من أموالهم أي لاتلتفت إلى ما يقولون ولا تركن إليهم فيصدّوك عن اتّباع آيات الله .

و ثالثها : [وادع إلى] دين [ربّك] وأراد التشدّد في دعوة الكفّار و المشركين فقال : [ولا تكوننّ من المشركين] لأنّ من رضي بطريقتهم أومال إليهم كان منهم ، والمراد الأُمّة وإن كان الخطاب إليه وهو للتعظيم .

و رابعها : قوله [ولا تدع مع الله إلهاً آخر] فإن قيل : إنّ الرسول كان معلوماً منه أن لا يفعل شيئاً من ذلك البتّة فما الفائدة في هذا النهي ؟ و الجواب ما قاله ابن عبّاس و قد ذكرناه قبيل ذلك .

قوله : [لا إله إلّا هو] أي لا تستدع حوائجك من غيره لا معبود إلّا هو .

[كلّ شيء هالك إلّا وجهه] و بائد و فان إلّا ذاته وهذا كما يقال : هذا وجه الرأي و وجه الطريق و وجه العمل ، و في هذا دلالة على أنّ الأجسام تفنى ثمّ تعاد . وقيل : معنى « كلّ شيء هالك إلّا وجهه » يعني ما اُريد به وجهه فإنّ ذلك يبقى ثوابه وهذا المعنى اختيار جماعة من المفسّرين مثل ابن عبّاس وأبي العالية والكلبيّ . قال الفرّاء : أستغفر الله ذنباً لست محصيه ربّ العباد إليه الوجه والعمل أي إليه اُوجّه العمل .

و كلّ عمل مشروع اُريد به وجه الله فهو باق وثابت حتّى أنّ العبد يشرب من الماء فيستوجب الجنّة ؛ قال الصادق عليه السلام : إنّ الرجل يشرب الماء فيقطعه ثمّ ينحّي الإناء وهو يشتهيه فيحمد الله ثمّ يعود فيه ويشرب ثمّ ينحّيه وهو يشتهيه فيحمد الله ثمّ يعود فيشرب فيوجب الله له بها الجنّة ، و كذلك في البسملة يفعمل كما فعل في التحميد يدخل به الجنّة .

[له الحكم] أي القضاء النافذ في خلقه و الفصل بين الخلائق في الآخرة [و إليه ترجعون] وتردّون . والنظم في الآيات أمّا قوله : « تلك الدار الآخرة » بما قبله على معنى أنّه سبحانه كما حرّم نعم الدنيا عليهم بالهلاك كذلك حرّم عليهم نعم الآخرة .

وأمّا وجه النظم في قوله « إنّ الّذي فرض ، الآية » بما قبله
فقد ذكر فيه من حمل المعاد على البعث أنّه اتّصل بقوله « تلك
الدار الآخرة » ومن حمله على العود إلى مكّة قال :
إنّه سبحانه لمّا بيّن وعده لاُمّ موسى ورجوعه
إلى اُمّه كذلك وعده ربّه العود إلى
مكّة مع الشرف العظيم وقد أنجز
وعده كما أنجز وعده هناك .

تمّت السورة

سورة العنكبوت

☼(مكية كلها وقيل : مدنية وقيل : بعضها مكية وبعضها)☼
☼(مدنية . عدد آيها تسع وستون آية)☼

فضلها : أُبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كلّ المؤمنين .

وروى أبو بصير عن الصادق عليه السلام قال : من قرأ سورة العنكبوت والروم في شهر رمضان ليلة ثلاث وعشرين فهو والله يا أبا محمد من أهل الجنّة ولا أستثني فيه أبداً ولا أخاف أن يكتب الله عليّ في يميني إثماً وإنّ لهاتين السورتين من الله مكاناً .

بسم الله الرحمن الرحيم

الم(١)احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون(٢)ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذى صدقوا وليعلمن الكاذبين (٣) ام حسب الذين يعملون السيئات ان يسبقونا ساء مايحكمون (٤) من كان يرجو لقاء الله فان اجل الله لات وهو السميع العليم (٥) .

النزول : قيل : نزلت الآية في عمّار بن ياسر وكان يعذّب في الله و كذلك عيّاش ابن ربيعة والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وكانوا يعذّبون بمكّة . وقيل : إنّها نزلت في أقوام بمكّة هاجروا وتبعهم الكفّار فاستشهد بعضهم ونجا الباقون .

[أحسب الناس أن يتركوا] يعني أظنّوا أنّهم يتركون بمجرّد قولهم آمنّا وهم لا يمتحنون بالفرائض البدنيّة كالجهاد والعبادات والماليّة كالزكاة وأمثالها ، لأنّ الإنسان إذا قال : آمنت باللّسان فقد ادّعى محبّة الله في القلب ولابدّ له من شهود فإذا استعمل الأركان في الإتيان بما عليه حصل له على دعواه شهود كما أنّه إذا بذل في سبيل الله نفسه وماله وزكّى ، بترك ماسواه أعماله زكّي شهوده ، فيثبت في جرائد المحبّين اسمه ويقرّر في دفتر المؤمنين وإليه الإشارة بهذه الآية أي دعوى بلا شهود وشهود بلا تزكية غير مقبول وهي أدنى درجات العبوديّة فإنّ ما دونه دركات الكفر .

واعلم أنّ المستخدمين عند الملوك على أقسام : منهم من يكون ناهضاً في شغله ماضياً في فعله فيترقّى من خدمة إلى خدمة أعلى منها مرتبة ، و منهم من يكون كسلاناً متخلّفاً فينتقل من خدمة إلى خدمة أدنى منها ، ومنهم من يترك على شغله من غير تغيير ، ومنهم من يقطع اسمه بسبب الخيانة ويمحى عن الجرائد اسمه فكذلك العباد قد يكون العبد مقبلاً على العبادة مقبولاً للسعادة وهي درجة المقرّبين ومنهم من يكون قليل الطاعة مشتغلاً بالخلاعة فينتقل إلى مرتبة العصاة و منزلة الفسّاق وقد يكون يزيد على هذا الأمر

ويستصغر العيوب ويستكثر الذنوب فيصير محروماً ويلحق بأهل العناد مرجوماً . والحاصل أنّ الإنسان بمجرّد قوله «آمنت» غير متروك ولابدّ أن يفتن .

قوله : [ولقد فتنّا الّذين من قبلهم فليعلمنّ الله الّذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين] ثمّ أقسم سبحانه فقال : ولقد ابتلينا الّذين من قبل اُمّة محمّد صلّى الله عليه وآله من سالف الاُمم بالفرائض الّتي فرضناها عليهم وبالشدائد والمصائب مثل إبراهيم خليل الرحمن وقوم كانوا معه و من بعد إبراهيم نشروا بالمناشير على دين الله فلم يرجعوا عنه ومثل قوم بني إسرائيل ابتلوا بفرعون يسومونهم سوء العذاب .

« فليعلمنّ الله » أي ليميّزنّ الله الّذين صدقوا من الّذين كذّبوا بالجزاء والمكافاة وعبّر عن الجزاء والتميّز بالعلم وأقام السبب مقام المسبّب والملزوم مقام اللاّزم ومثله من إقامة السبب مقام المسبب قوله تعالى « كانا يأكلان الطعام[1] » فهذا سبب قضاء الحاجة فكنّى بذكره عنها والفائدة في اختلاف الصيغة بالماضي في صدقوا وبالفاعل في الكاذبين أنّ اسم الفاعل يدلّ على الثبوت و الاستمرار و الفعل لا يدلّ على الاستمرار لأنّه لا يفهم من معنى الفعل التكرار كما يقال :فلان شرب الخمر وشارب الخمر،ولمّا كانت الآية وقت نزولها حكاية عن قوم قريبي العهد في الإسلام و عن قوم مستديمي الكفر مستمرّين عليه فلهذه العلّة قال سبحانه في حقّ المؤمنين الّذين صدقوا بصيغة الفعل أي وجد منهم الصدق وقال في حقّ الكافر بالصيغة الفاعل المنبئة عن الثبوت .

وأمّا قوله[أم حسب الّذين يعملون السيّئات أن يسبقونا ساء مايحكمون] « أم » هذا استفهام منقطع عمّا قبله وليست الّتي معادلة الهمزة والمعنى:بل أحسب الّذين يفعلون الكفر و القبائح أن يفوتونا و يعجزونا فلا نقدر على أخذهم و الانتقام منهم بئس الأمر الّذي يحكمون ويعتقدون،وحاصل المعنى:أنّ من امتحن بأمر و كلّف ولم يأت به إن لم يعذّب في الحال يعذّب في الاستقبال ولا يفوتنا عذابه ولا يتخيّلون أنّ الإمهال يفضي إلى الإهمال والتعجيل في العقوبة شغل من يخاف الفوت .

قوله : [من كان يرجو لقاء الله فإنّ أجل الله لآت وهو السميع العليم] وبالعكس

(١) الزمر : ٦٨ .

إنّ الّذين يعترفون بالآخرة و يعملون لها ، وفسّر بعضُ الرجاء في الآية بمعنى الخوف والمراد من قوله « أجل الله» الموت أو الحياة الثانية بالحشر ولعلّ المراد من ذكر إتيان الأجل وقوع وعد المطيع من الثواب ووعيد العاصي من العقاب وحاصل المعنى : من كان يرجو الثواب و يخشى البعث والحساب فليبادر بالطاعة قبل الأجل فإنّه لآت لا محالة .

واعلم أنّ أكثر آيات القرآن لا ينفصل عن ذكر الأصول كما أنّ في هذه الآيات قد ذكر الأُصول الثلاثة : والأوّل الإيمان بوحدانيّته كما بيّن «أن يقولوا آمنّا» وفيه إشارة إلى الأصل الأوّل والأصل الثاني وهو إرسال الرسل والنبوّات وتصديقهم، كما أشار بقوله :«أم حسب الّذين يعملون السيّئات» بالأصل الثاني وأشار بأصل الثالث في قوله :«من كان يرجو لقاء الله» .

أمّا قوله : « وهو السميع العليم » ولم يذكر في المقام صفة غيرهما لأنّه قد سبق في الآية ذكر القول بقوله «أن يقولوا آمنّا» وسبق ذكر الفعل بقوله:«لا يفتنون» ومناسبة الإدراك في القول السّمع و في العمل العلم فقال : و هو السّميع لأقوالهم و العليم بأفعالهم

وأصناف حسنات العبد ثلاثة: أحدها نيّته وقلبه في التصديق وهو لا يرى ولا يسمع وإنّما يعلم ، والثاني عمل لسانه وهو يسمع وعمل أعضائه و جوارحه وهو يرى فإذا أتى العبد بهذه الأُمور الثلاثة جعل لمسموعه ما لا أُذن سمعت ولمرئيّه ما لا عين رأت و لعمل قلبه ما لا خطر على قلب بشر، كما ذكر في الحديث في وصف الجنّة .

وبالجملة **ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغنى عن العالمين(٦)**

ولمّا بيّن سبحانه أنّ التكليف واقع و عليه وعد ووعيد ليس لهما دافع بيّن أن طلب الله ذلك من المكلّف ليس لنفع يعود إليه سبحانه فإنّه غنيّ مطلق فمن سعى في تكليف فقد سعى لنفسه وطلب أمراً يرجع نفعه إلى نفسه فليكن الإنسان دأبه أن يجاهد الشيطان بمخالفته ويدفع وسوسته عن نفسه وإغوائه ويجاهد أعداء الدين لإحيائه ويجاهد مع نفسه في شهواتها و كل ذلك نفع وفائدة للمكلّف والله غنيّ عن جميع العوالم وأهلها.والآية تدلّ على أنّه ليس في مكان لا على العرش ولا على غيره فإنّه من العالم وهو غنيّ عنه .

قوله تعالى : والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم احسن الذى كانوا يعملون (٧) ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلاتطعهما الي مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون (٨) و الذين آمنوا و عملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين (٩) ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا اوذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين (١٠)

مسألة الإيمان هو التصديق كما قال : « وما أنت بمؤمن لنا[١] » أي مصدّق لنا، واختصّ في استعمال الشرع بالتصديق بجميع ما قال الله والرسول إن علم على سبيل التفصيل أنّه قول الله أو قول الرسول أوعلى سبيل الإجمال فيما لم يعلم ، والأعمال الصالحة كاشفة عن وقوع التصديق ولا يتمّان إلّا معاً والأعمال داخلة فيما هو المقصود من الإيمان لأنّ تكفّر السيّئات والجزاء بالأحسن معلّق على الأعمال وهي ثمرة الإيمان و مثاله شجرة مثمرة لا شكّ في أنّ عروقها وأغصانها منها والماء الّذي يجري عليها والتراب الّذي حواليها غيرداخل فيها لكنّ الثمرة لا تحصل إلّا بذلك الماء والتراب الخارج فكذلك العمل الصالح مع الإيمان ، و أيضاً الشجرة لواحتفّت بها الحشايش المفسدة والأشواك المضرّة ينقص ثمرة الشجرة وإن غلبتها عدمت الثمرة بالكلّيّة و فسدت فكذلك الذنوب تفعل بالإيمان .

ثمّ إنّ العمل الصالح باق لأنّ الصالح في مقابلة الفاسد والفاسد هوالهالك التالف يقال : فسد الزرع إذا هلك أوخرج عن حدّ الانتفاع به،والعمل كيف بنفسه يبقى مع أنّه عرض فلا يبقى إلّا بالعامل و العامل أيضاً لايبقى لأنّه هالك كما قال :« كلّ شيء هالك» فبقاء العمل لابدّ وأن يكون بشيء باق لكنّ الباقي هووجه الله بقوله :«إلّا وجهه»فإذا كان العمل لوجهه فباق وما لا يكون من العمل لوجهه لا يبقى لا بنفسه ولا بالعامل ولا بالمعمول له لأنّ الكل فان فالإخلاص لوجهه سبب لبقاء العمل وهو المرفوع والمقبول لقوله:«والعمل الصالح يرفعه[٢] » لكنّه لا يرتفع إلّا بالكلم الطيّب كما قال:«إليه يصعد الكلم الطيّب»

(١) الحاقة : ٥١ .

وهو يرفع العمل ، فالعمل من غير المؤمن لا يقبل ولهذا تقدّم الإيمان في الذّكر على العمل .

قوله‌تعالى : [لنكفّرنّ عنهم سيّئاتهم ولنجزينّهم أحسن الّذي كانوا يعملون] ولمّا ذكر من أعمال العبد نوعين الإيمان و العمل الصالح فذكر في مقابلتها أمرين فتكفير السيّئات في مقابلة الإيمان والجزاء بالأحسن في مقابلة العمل الصالح والتكفير الستر والإبطال. ومقتضى ظاهر الآية أنّ المؤمن العاصي لا يخلد في النار لأنّ بإيمانه تكفّر سيّئاته فلا يخلّد في العذاب .

قوله‌تعالى : [ووصّينا الإنسان بوالديه حسناً] وقرىء إحساناً وهو أنّ الله تعالى وصّى الإنسان بأن يفعل مع والديه حسن التأتّي بالفعل والقول . ونكّر حسناً للعموم وللدلالة على الكمال والتكثّر مثل قولك إنّ لزيد مالاً .

وهذا القول في الآية دليل على أنّ متابعتهم في الكفر لا يجوز وبيان ذلك أنّ الإحسان بالوالدين وجب و حسن بأمر الله فلو ترك العبد عبادة الله بقول الوالدين لترك طاعة الله و اتّباع العبد أبويه لأجل الإحسان إليهما يفضي إلى ترك الإحسان إليهما وما يفضي وجوده إلى عدمه باطل فالاتّباع باطل .

ثمّ قال سبحانه : [وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما] أي وإن جاهداك أبواك أيّها الإنسان و ألزماك في دعوتهم إيّاك في الشرك على عبادتي وليس لك ولأحد به علم وحجّة و دليل فلا يحسن اعتقاده فأمر سبحانه إطاعتهما في الواجبات و المباحات ونهى عن طاعتهما في المحذورات ومن اُمور معرّاة من الأدلّة و غير صحيحة .

[إليّ مرجعكم فاُنبّئكم بما كنتم تعملون] أي مآلكم و عاقبتكم إليّ و إن كان اليوم مخالطتكم مع الآباء والأقارب فاُخبركم بأعمالكم أي أنا حاضر و لست غائب عنكم وعالم بأعمالكم .

النزول : روي عن سعد بن أبي وقّاص قال : كنت رجلاً بارّاً بأُمّي فلمّا أسلمت قالت : ياسعد ما هذا الدين الّذي أحدثت لتدعنّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتّى أموت فتعيّر بي فيقال فيك : يا قاتل اُمّه فقلت : لا تفعلي يا اُمّه إنّي لا أدع ديني هذا الشيء فمكثت يوماً

لا تأكل وليلة ثمّ مكثت يوماً آخر وليلة ، قال سعد : فلمّا رأيت ذلك قلت : يا اُمّه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني فكلي واشربي وإن شئت فلا تأكلي ولا تشربي فلمّا رأت ذلك أكلت، فنزلت هذه الآية . واُمّه كانت جمنة بنت أبي سفيان بن اُميّة ابن عبد شمس .

وروي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه قال: قلت للنبيّ : يارسول الله من أبرّ ؟ قال أمّك ، قلت : ثمّ من ؟ قال أمّك ، قلت : ثمّ من ؟ قال : ثمّ أباك ثمّ الأقرب فالأقرب . قال أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ : الجنّة تحت أقدام الاُمّهات .

أمّا قوله : [والّذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنّهم في الصالحين] أي في زمرتهم وجملتهم في الجنّة .

قوله : [ومن الناس من يقول آمنّا بالله فإذا اُوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله] لمّا ذكر حال خيار المؤمنين عقّبه بذكر المنافقين و الضعفاء في الدين أي بعض الناس يقولون آمنّا بالله بلسانهم فإذا اُوذي في دين الله أو في ذات الله مثلاً إذا آذاه إنسان أو أصابه ضرّاً وبليّة دخل في دينهم ويحسب أنّ ما يفعله الناس به هو مثل عذاب الله الّذي لا ينقطع فيسوّي بين عذاب فانٍ منقطع وبين عذاب دائم غير منقطع وذلك لقلّة تميّزه ، و المراد من فتنة الناس عذاب الّذي يقع من الناس عليه .

قوله : [ولئن جاء نصر من ربّك] يا محمّد من الله للمؤمنين و دولة لأولياء الله على الكافرين [ليقولنّ] هؤلاء المنافقين [إنّا كنّا معكم] على عدوّكم ، وإنّما يقولون ذلك لطمعهم في الغنيمة بأن يشاركوا المؤمنين فيها فكذّبهم الله تعالى فقال : [أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين] من الإيمان والنفاق .

قوله تعالى : وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين (١١) و قال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا و لنحمل خطاياكم و ماهم بحاملين من خطاياهم من شيء انهم لكاذبون (١٢) وليحملن أثقالهم و أثقالا مع أثقالهم وليسئلن يوم القيمة عما كانوا يفترون (١٣) ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الاخمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون(١٤) فأنجيناه واصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين (١٥) .

ولمّا بيّن أنّه أعلم بما في القلوب بيّن أنّه يعلم المؤمن المحقّ وإن لم يتكلّم و المنافق وإن تكلّم فقال :

[وليعلمنّ الله الّذين آمنوا وليعلمنّ المنافقين] وأكّد هذا المعنى بلام القسم قال الجبّائي : معناه : وليميّزنّ الله المؤمن من المنافق، فوضع العلم موضع التميّز توسّعاً ، وفي الآية تهديد للمنافقين وبيّن لهم أن نفاقكم ظاهر عند من يملك الجزاء .

قوله : [وقال الّذين كفروا] الآية ، لمّا بيّن الله سبحانه الفرق الثلاثة من المؤمن والكافر والمنافق وأحوالهم ذكر أنّ الكافر يدعو المؤمن إلى طريقته كأنّه يقول له : لأيّ شيء تصبر في الذلّ والإيذاء ولمَ لاتدفع عن نفسك الذلّ والعذاب بموافقتنا وكان المؤمن يقول ويجاوبه: خوفاً من عذاب الله على خطيئة مذهبكم، فقال الكافر : لاخطيئة فيه وإن كان فيه خطيئة فعلينا فاتّبعوا طريقتنا ونحن نحمل آثامكم عنكم وقوله : «ولنحمل» بصيغة الأمر وفيه معنى الجزاء و تقديره إن تتّبعوا ديننا حملنا خطاياكم عنكم ولنحمل هو المتكلّم به نفسه في مخرج اللفظ والمراد به إلزام النفس هذا المعنى .

فإن قيل : ولنحمل صيغة أمر والمأمور لابدّ أن يكون غير الأمر فكيف يصحّ أمر النفس من الشخص ؟ فإذا كان المعنى معنى الجزاء صحّ أي ليكن منكم الاتّباع بطريقتنا وليكن منّا الحمل من خطاياكم .

فأخبر الله سبحانه بقوله : [وماهم بحاملين من خطاياهم من شيء] أي لايمكنهم حمل ذنوبهم عنهم يوم القيامة فإنّ الله لايعذّب أحداً بذنب أحد [أنّهم لكاذبون] فيما ضمنوا . قوله [وليحملنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم] أي يحملون عذاب ضلالتهم بسبب كفرهم وعذاب إضلال غيرهم وهذا كقوله ﷺ : من سنّ سنّة سيّئة الخبر وهذا كقوله «ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الّذين يضلّونهم بغير علم[١]» .

قوله : [وليسألنّ يوم القيمة عمّا كانوا يفترون] ولمّا قالوا : أن تتّبعونا نحمل يوم القيامة خطاياكم يقال لهم فاحملوا خطاياهم فلايحملون فيسألون لم افتريتم أو المعنى أنّ الكفّار إنّما تعهّدوا بحمل خطاياهم حيث إنّهم ما كانوا يعتقدون الحشر فإذا جاء يوم القيامة ظهر لهم خلاف ذلك فيسألون ويقال لهم: أما قلتم أن لاحشر فلم افتريتم ؟ وهذا

(١) النحل : ٢٥ .

السؤال سؤال تقريع .

قوله : [ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه] النظم : لمّا بيّن أقسام الناس من المؤمن والكافر والمنافق وبيّن لهم الوعد والوعيد أراد أن يذكر أنّ هذا التكليف ليس مختصاً بالنبيّ و اُمّته بل جميع مكلّفون ومن جملة من كلّف نوح وقومه وإبراهيم وقومه ولقد أرسلنا نوحاً يدعو قومه إلى توحيد الله عزّ و جلّ [فلبث فيهم ألف سنة إلّا خمسين عاماً] فلم يجيبوه و كفروا به و ذكر المدّة لتسلية خاطر النبيّ لأنّه ﷺ بسبب عدم دخول الكفّار في الإسلام كان يضيق صدره فقال : أنّ نوحاً لبث قريب ألف في الدعوة ولم يؤمن من قومه إلّا قليل وصبر فأنت أولى بالصبر لقلّة مدّة بثك وأيضاً أنّ كفّار قوم نوح مع طول هذا المدّة ما نجوا من العذاب فقومك مع هذه المدّة القليلة لا ينبغي أن يغترّوا فإنّ الذلّ يشملهم .

قوله : [فأخذهم الطوفان] جزاء على كفرهم [وهم ظالمون] لأنفسهم بما فعلوه من الشرك والعصيان [فأنجيناه وأصحاب السفينة] فأنجينا نوحاً من ذلك الطوفان و الّذي ركبوا معه في السفينة من المؤمنين [وجعلناها] أي السفينة [آية للعالمين] علامة للخلائق والأمم يعتبرون بها إلى يوم القيامة و أنّها كانت آية لأجل أنّه قبل الطوفان أمر الله نوحاً باتّخاذها و أنبأه بأمر السفينة فلهذا كانت آية ويمكن أن يكون ضمير الهاء راجعة إلى النجاة .

قوله تعالى : وابراهيم اذقال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون (١٦) انما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون افكاً ان الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق و اعبدوه و له اليه ترجعون (١٧) وأن يكذبوا فقد كذب امم من قبلكم وما على الرسول الا البلاغ المبين (١٨) أولم يروا كيف يبدیء الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير (١٩) قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدء الخلق ثم الله ينشیء النشأة الاخرة ان الله على كل شيء قدير (٢٠) .

ثمّ عطف على نوح [إبراهيم] لمّا أرسلناه [إذقال لقومه] أطيعوا الله وخافوه باجتناب

معاصيه [ذلك] أي التقوى [خير لكم إن كنتم تعلمون] ما هو خير لكم وما شرّ لكم [إنّما تعبدون من دون الله أوثاناً] من الحجارة أو غيرها لا تضرّ ولا تنفع و تخلقون و تقدّرون و تفعلون كذباً بأن تسمّون هذه الأوثان آلهة وقريء تخلّقون بالتشديد من باب التفعيل أو معناه تخلقون بأيديكم وتصنعون أشكالاً وتسمّونها آلهة ثمّ ذكر عجز آلهتهم عن رزق عابديها فقال : [إنّ الّذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً] ولايقدرون أن يرزقوكم ومن لايملك ولا يحسّ كيف يرزق غيره و كيف يستحقّ العبادة ؟ [فابتغوا عندالله عندالله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون] أي إلى حكمه تصيرون يوم القيامة .

ثمّ خاطب سبحانه العرب من قوم محمّد فقال : [وأن يكذّبوا] محمّداً [فقد كذّب اُمم من قبلكم] أنبياءهم الّذين بعثوا إليهم [وماعلى الرسول إلّا البلاغ المبين] و ليس على الرسل التبليغ الظاهر البيّن وليس عليه حمل من اُرسل إليه على الايمان وقيل:الخطاب من قوله : و أن يكذّبوا إلى قوم إبراهيم أيضاً .

فإن قيل: كيف يفهم من قوله : فقد كذّب اُمم مع أنّ إبراهيم لم يسبقه إلّا قوم نوح وهم اُمّة واحدة ؟

فالجواب إنّ قبل نوح كان أقوام كقوم إدريس وشيث وآدم وإنّ نوحاً عاش أكثر من ألف و كان القرن يموت و يجيء أولاده و الآباء كانوا يوصون بالامتناع عن اتّباع نوح أبناءهم و كفى لقوم نوح اُمماً و المراد من البلاغ ذكر الأحكام و المبين أقامة البرهان عليها .

و في الآية دلالة على أنّ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز لأنّ الرّسول إذا لم يبيّن لم يأت بالبلاغ المبين فلا يكون آتياً بما عليه .

قوله : [أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثمّ يعيده] يعني كفّار مكّة الّذين أنكروا البعث وأقرّوا بأنّ الله هو الخالق فقال سبحانه : أو لم يتدبّروا ويتفكّروا كيف أبدأ الله الخلق بعد العدم كذلك يعيدهم ثانياً إذ أعدمهم بعد وجودهم والمراد الخلق الأوّل في الدّنيا و الخلق الآخر في الآخرة [إنّ ذلك] الأمر و الخلق بعد العدم [على الله يسير] .

[قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق] أي إن لم يحصل لكم هذا العلم بابداء الله الخلق وإعدامه وإعادته فسيروا في الأرض وانظروا بالعلم النظري وأجيلوا ذهنكم في الحوادث الخارجة عن أنفسكم من الآفاق فيؤدّيكم ذلك إلى العلم بربّكم فحينئذ تعلمون أنّ غير الله لا يكون خالقاً بل لا يقدر أحد ولا يوجد أحد يدّعي هذا الادّعاء فاذا علمتم أنّه لا خالق إلّا الله لزمتكم الحجّة في الإعادة وهو قوله :

[ثمّ الله ينشىء النشأة الآخرة] أي ثمّ الله الّذي أنشأ خلقها ابتداء ينشئها ثانية ومعنى الإنشاء الإيجاد من غير سبب والنشأة مثل الرأفة منصوبة على المصدريّة [إنّ الله على] الإنشاء والإفناء والإعادة و [كلّ شيء قدير] .

قوله تعالى: يعذب من يشاء ويرحم من يشاء واليه تقلبون(٢١) وما أنتم بمعجزين في الارض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير(٢٢) والذين كفروا بآيات الله ولقائه اولئك يئسوا من رحمتي واولئك لهم عذاب أليم(٢٣) ماكان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه أوحرقوه فأنجاه الله من النار ان في ذلك لايات لقوم يؤمنون(٢٤) وقال انما اتخذتم من دون الله اوثاناً مودة بينكم في الحيوة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين (٢٥) .

لمّا ذكر النشأة الآخرة ذكر مايكون فيه وهو تعذيب أهل التكذيب عدلاً وحكمة وإثابة أهل الإنابة فضلاً ورحمة فقال :

[يعذّب من يشاء] أي هو المالك للثواب والعقاب فيعذّب من يشاء ممّن يستحقّ العقاب ويرحم من يشاء ممّن هو مستحقّ للرحمة بأن يغفر له بالتوبة وغير التوبة [وإليه تقلبون] وتردّون وترجعون والقلب هو الرجوع والردّ والحاصل أنّه تأخير عنكم التعذيب والرحمة فلا تظنّوا أنّه مات فإنّ إليه وعليه حسابكم ولهذا قال بعدها :

[وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء] أي لا يمكنكم الهرب والفرار في الأرض أو الصعود إلى محلّ السماك في السماء أو إلى السموك في الماء لا تخرجون من قبضة قدرة الله ولا مطمع في الإعجاز بالهرب وما لكم من دون الله من وليّ يشفع أو نصير

يدفع لا بالهرب ولا بالثبات إلى ركن منيع .

قوله : [والّذين كفروا بآيات الله ولقائه اُولئك يئسوا من رحمتي] أي كذّبوا بالقرآن وبأدلّة الله في توحيده وبيانه وأنكروا بلقائه أي جحدوا بالبعث بعد الموت فأخبر سبحانه أنّه آيسهم من رحمته و جنّته أو المعنى يجب أن يئسوا من رحمتي [واُولئك لهم عذاب أليم] مولم،وفي الآية دلالة على أنّ المؤمن بالله وباليوم الآخر لا يكون ييأس من رحمته .

ثمّ عاد إلى قصّة إبراهيم فقال : [فماكان جواب قومه] حين دعاهم إبراهيم إلى الله ونهاهم عن عبادة الأصنام [إلّا أن قالوا اقتلوه أو حرّقوه] فإن قيل : كيف سمّى هذا الكلام جواباً ؟ لأنّ الله أراد أن يبيّن ضلالتهم وهو أنّهم ذكروا في معرض الجواب هذا الكلام مع أنّه ليس بجواب .

[فأنجاه الله من النار] وههنا حذف وتقديره : ثمّ اتّفقوا على إحراقه فأجّجوا ناراً فألقوه فيها فأنجاه الله منها [إنّ في ذلك لآيات] أي علامات واضحات و حجج بيّنات [لقوم يؤمنون] بصحّة ما أخبرناه به وبتوحيد الله وقدرته .

[وقال إنّما اتّخذتم من دون الله أوثاناً مودّة بينكم] ولمّا خرج إبراهيم من النار عاد إلى عذل الكفّار وقال إبراهيم لقومه:إنّما اتّخذتم عبادة الأوثان وتركتم عبادة الله لأجل مودّة بعضكم بعضاً فلا يريد أحدكم أن يفارق طريقة صاحبه ويخالف سيرته ، أو بينكم وبين آبائكم مودّة فورثتموه وأخذتم ضلالتهم وجهالتهم وليس لكم دليل أصلاً بل اخترتم هذه العبادة الملعونة لتتوادّوا بها في الحياة الدنيا .

[ثمّ يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين] أي إذا كان يوم القيامة يتبرّأ القادة من الأتباع ويلعن الأتباع القادة فكلّ خلّة تنقلب ذلك اليوم عداوة إلّا خلّة المتّقين ، و مستقرّكم النار وما لكم من ناصرين يدفعون عنكم عذاب الله .

قوله تعالى : فآمن له لوط وقال انى مهاجر الى ربى انه هو العزيز الحكيم (٢٦) ووهبنا له اسحق و يعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الاخرة لمن الصالحين (٢٧) ولوطاً اذ قال

لقومه انكم لتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين (٢٨) انكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه الا ان قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين (٢٩) قال رب انصرني على القوم المفسدين (٣٠).

قوله : [فآمن له لوط] وهو ابن اُخت إبراهيم يعني لمّا رأى معجزته آمن بنبوّته، ودرجة لوط كانت عالية بأن لم يكن مؤمناً إلى ذلك الوقت وإليه الإشارة بقوله: «فآمن له لوط» ولم يقل: فآمن لوط وأمّا بالوحدانيّة فآمن قبل ذلك .

وبالجملة لمّا بالغ إبراهيم في الإرشاد ولم يهتد قومه وحصل له اليأس الكلّيّ حيث رأى القوم آياته الكبرى ولم يؤمنوا وجبت المهاجرة لأنّه إن لم يبق للإقامة وجه وجبت المهاجرة فقال : [إنّي مهاجر إلى ربّي] وأطلب الله [إنّه هو العزيز] الغالب يمنع أعدائي عن إيذائي [الحكيم] لا يفعل إلّا ما هو المقتضي للحكمة .

قوله : [ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذرّيّته النبوّة والكتاب] وخرج إبراهيم ومعه لوط وسارة امرأة إبراهيم وكانت ابنة عمّه وخرجوا من كوثى قرية من سواد الكوفة إلى أرض الشّام مثل هجرة المسلمين من مكّة إلى أرض الحبشة أوّلاً ثمّ إلى المدينة .

فبدّل الله جميع أحوال إبراهيم في الدنيا بأضدادها فبدّل الله عذابه بالنار بالبرد والسلام لمّا عذّبوه وانقلب وحدته بالكثرة حتّى ملأ الدنيا من ذرّيّته ولمّا كان أوّلاً أقاربه القريبة ضالّين مضلّين من جملتهم عمّه آزر بدّل الله أقاربه بأقارب مهتدين هادين وهم ذرّيّته الّذين جعل فيهم النبوّة والكتاب ، وكثر ماله حتّى كان له من المواشي ماعلم الله عدده حتّى قيل : إنّه كان له اثنا عشر ألف كلب حارس لماشيته بأطواق ذهب هذا من الماليّة الدنيويّة وأمّا الجاه فالنبوّة ويقرن الصلاة عليه مع سائر الأنبياء إلى يوم القيامة وقد صار خليل الرحمن ومعروفاً بشيخ المرسلين بعد أن كان خامل الذكر حتّى قال قائلهم «سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم[1]» وهذا الكلام لا يقال إلّا في مجهول بين الناس

(١) الانبياء : ٦٠ .

وقال الله في حقّه : [وإنّه في الآخرة لمن الصالحين] ومعنى الصالح الباقي على ما ينبغي أي ليس هذه المقامات له في الدنيا فحسب كما يكون لمن قدّم له ثواب حسناته أو اُملي له استدراجاً ليكثر من سيّئاته بل له هذه الأُمور عجالة و له في الآخرة ثواب الدلالة والرسالة وغيرها وقد يجمع الله لأقوام كرامة الدنيا والآخرة .

قوله : [ولوطاً إذ قال لقومه] أي واذكر لوطاً أووأرسلنا لوطاً إلى قومه حين قال لهممنكراً لفعلهم إذا قرىء بلفظ الاستفهام أو بلفظ الجرّ : [إنّكم لتأتون الفاحشة] والمراد بالفاحشة ههنا إتيان الذكران [ما سبقكم بها من أحد من العالمين] يحتمل أنّ قبلهم لم يأت أحد بهذا القبيح أو أنّ قبلهم ربّما أتى به واحد في الندرة لكنّهم بالغوا فيه فقال لهم : ماسبقكم بها من أحد كما يقال : فلان سبق البخلاء في البخل إذا زاد عليهم .

ثمّ قال : [إنّكم لتأتون الرجال] أي تقضون الشهوة بالرجال مع قطع السبيل المعتاد مع النساء المشتمل على المصلحة الّتي هي بقاء النوع [وتأتون في ناديكم المنكر] يعني ما كفاكم قبيح فعلكم حتّى تضمّون إليه قبح الإظهار .

وقيل : معنى الآية في قوله : « وتأتون في ناديكم المنكر»غير ما ذكر و هو أنّهم يقطعون الناس عن الأسفار وكانوا يفعلون هذا الفعل بالمجتازين من ديارهم وبالأضياف وكانوا يرمون ابن السبيل بالحجارة بالحذف فأيّهم أصابه كان أولى به ويأخذ ماله وينكحه وكان قاض لهم يقضي بذلك ، وقيل : يقطعون الطريق على الناس ويأتون في ناديهم المنكر يتضارطون في مجالسهم من غير حشمة ولا حياء ويأتون الرجال في مجالسهم يرى بعضهم بعضاً وأنواع المنكرات والقمار وكشف العورات .

قوله : [فماكان جواب قومه إلّا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين * قال ربّ انصرني على القوم الكافرين] ولمّا أنكر لوط على قومه من أفعالهم قالوا له هزؤاً : ائتنا بعذاب إن كنت صادقاً ، ولمّا كرّر لوط لهم نصحه ويئس من إيمانهم طلب النصرة من الله عليهم وما طلب نبيّ من الأنبياء هلاك قوم إلّا إذا علم أنّ عدمهم خير من وجودهم كما قال نوح لمّا علم حال قومه : « ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً [(١)]» .

---

(١) نوح : ٢٦ .

تحقيق : إنّما سمّي هذا الفعل الشنيع بالفاحشة لأنّ معنى الفاحشة القبيح الظاهر الفاحش قبحه، ثمّ إنّ الشهوة والغضب صفتا قبيح لولا مصلحة ماكان يخلقهما الله في الإنسان فمصلحة الشهوة الفرجيّة هي بقاء النوع بتوليد الشخص وهذه المصلحة لاتحصل إلّا بوجود الولد وبقائه بعد الأب فإنّه لو وجد ومات قبل الأب كان يفنى النوع بفناء القرن الأوّل لكنّ الزنا قضاء شهوة ولايفضي إلى بقاء النوع لأنّا بيّنّا أنّ البقاء بالوجود وبقاء الولد بعد الأب لكنّ الزنا وإن كان يفضي إلى الوجود لكن لا يفضي إلى البقاء لأنّ المياه إذا اشتبهت لا يعرف الوالد ولده فلا يقوم بتربيته والإنفاق عليه فالغالب أن يضيع و يهلك فحينئذٍ لا يحصل مصلحة البقاء فضلاً عن مفاسد اُخر .

فإذاً الزّنا شهوة قبيحة خالية عن المصلحة الّتي لأجلها خلقت فهو قبيح ظاهر قبحه حيث لا تستره المصلحة فهو فاحشة فإذا كان الزنى فاحشة مع أنّه يفضي إلى وجود الولد ولكن لا يفضي إلى البقاء في الغالب فاللواطة الّتي لا تفضي إلى الوجود أولى بأن يكون فاحشة وقد اشتركت مع الزنا في كونهما فاحشة حيث قال سبحانه : «ولاتقربوا الزنى إنّه كان فاحشة (١) » وإنّ الله عذّب قوم لوط إمطار الحجارة حيث أمطر عليهم و جعل حدّها في الشرع بمن أتى بها الرجم .

قوله تعالى : ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكوا أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين (٣١) قال ان فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه و أهله الا امرأته كانت من الغابرين (٣٢) ولما ان جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقالوا لاتخف ولاتحزن انا منجوك وأهلك الا امرأتك كانت من الغابرين(٣٣) انا منزلون على اهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون (٣٤) و لقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون (٣٥) .

ثمّ بيّن سبحانه أنّه استجاب دعاء لوط وبعث جبرئيل و معه الملائكة لتعذيب قومه بقوله :

---

(١) الاسراء : ٣٢ .

[و لمّا جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى] أي يبشّرونه بإسحاق ومن ورائه يعقوب ومن بعد ما بشّروه [قالوا إنّا مهلكوا أهل هذه القرية] يعنون قرية قوم لوط وهي قرية سدوم وإنّما قالوا : هذه، لأنّ قريتهم كانت قريبة من قرية قوم إبراهيم [إنّ أهلها كانوا ظالمين] أي مشركين مرتكبين للفواحش فلذلك أمرنا الله بإهلاكهم و هذا الكلام بيان لحسن الأمر .

ثمّ إنّ إبراهيم لمّا سمع قولهم [قال] لهم : [إنّ فيها لوطاً] إشفاقاً عليه ليعلم حاله أو قال تعجيباً هذا الكلام لأنّه كان يعلم أنّ الله لا يهلك قوماً وفيهم رسوله فقالت الملائكة : [نحن أعلم بمن فيها] أي نعلم أنّ فيهم لوطاً فننجّينّه وأهله ونهلك الباقين ونخلصنّ لوطاً من العذاب بإخراجه من القرية وأهله المؤمنين كذلك [إلّا امرأته كانت من الغابرين] فإنّها تبقى في العذاب ولا تنجومنه وذلك قوله «كانت من الغابرين» أي من الباقين في العذاب والمهلكين ، وفي استعمال الغابر في المهلك وجهان و ذلك لأنّ الغابر لفظ مشترك في الماضي وفي الباقي ؛ يقال : فيما غبر من الزمان أي فيما مضى من الزمان . فقالت الملائكة: إنّها من الغابرين أي الماضي ذكرهم لا من الّذين تنجّي منهم أو المعنى أنّها من الفانين الماضين زمانها لا من الناجين الباقين .

[ولمّا أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم] و«أن» زائدة أي ساء لوطاً مجيء الملائكة لمّا رآهم في أحسن صورة لما كان يعلم من سيرة خبيثة قومه أوساءه هذا الأمر لما علم من عظيم البلاء النازل بهم [وضاق بهم ذرعاً] أي جاءه ماساءه « وضاق بهم ذرعاً » كناية عن العجز في تدبيرهم وهو قصير الذراع أي عاجز ويقال : ضاق ذرعه .

فلمّا رأى الملائكة حزنه وانقباضه وخوفه قالوا : [لا تخف إنّا منجّوك و أهلك إلّا امرأتك] الكافرة [كانت من الغابرين] الباقين في العذاب .

[إنّا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون] والمراد من القرية القرية المعلومة وفيها الماء الأسود اسمها سدوم بين القدس والكرك قرب جبال لبنان والعذاب الّذي نزل بهم قيل : الخسف ، وقيل : الحجارة ، وقيل : نار وعلى هذا فلا يكون عينه من السّماء والمراد أنّ الأمر وقع من السماء .

فلو قيل : إنّ القوم عذّبوا بسبب ماكان يصدر عنهم من الفاحشة و امرأته لم يصدر منها تلك فكيف كانت من الغابرين معهم ؟ لأنّ للدّال على الشرّ نصيب كفاعل الشرّ كما أنّ الدالّ على الخير كفاعله و هي كانت تدلّ القوم على ضيوف لوط حتّى كانوا يقصدونهم فبالدلالة صارت منهم .

ثمّ علّل الملائكة في سبب العذاب بقولهم : [بما كانوا يفسقون] بسبب خروجهم من طاعة الله .

[ولقد تركنا منها آية بيّنة لقوم يعقلون] أي تركنا من تلك القرية عبرة واضحة ودلالة بيّنة وهي الحجارة الّتي اُمطرت عليهم وقيل : آثار منازلهم الخربة لقوم يتعقّلون أنّ اختصاص قوم بالعذاب دون قوم ومكان دون مكان ووجود العذاب في زمان دون زمان لا يكون إلّا بأمر آمر قادر .

قوله تعالى : والى مدين أخاهم شعيباً فقال ياقوم اعبدالله وارجوا اليوم الاخر ولا تعثوا فى الارض مفسدين (٣٦) فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين (٣٧) وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم و زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل و كانوا مستبصرين (٣٨) وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم بالبينات فاستكبروا فى الارض وما كانوا سابقين (٣٩) فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من ارسلنا عليه حاصباً و منهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من أغرقنا وماكان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون (٤٠) .

قوله [و إلى مدين أخاهم] واختلف المفسّرون في مدين فقيل : إنّه اسم رجل في الأصل وحصل له ذرّيّة فاشتهر في القبيلة مثل تميم وقيس ، وقال بعضهم : اسم ماء نسب القوم إليه واشتهر في القوم ، ولعلّ الأوّل أصحّ لأنّ الله أضاف الماء إلى مدين حيث قال : « ولمّا ورد ماء مدين » ولو كان اسماً للماء لكانت الإضافة غير صحيحة أو غير حقيقيّة والأصل في الإضافة التغاير حقيقة . وقوله « أخاهم » لأنّ شعيباً كان منهم نسباً .

فأمرهم بعبادة الله [وارجوا اليوم الآخر] وأمّلوا ثواب اليوم الآخر واخشوا عقابه

بفعل الطاعات وتجنّب السيّئات [ولا تعثوا في الأرض مفسدين] ولا تسعوا في الأرض بالفساد . ثمّ إنّ قومه كذّبوه بعد ما بلغ [فكذّبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين] فأخذتهم الزلزلة فأصبحوا باركين على ركبهم ميّتين .

وهنامسألة وهي أنّه قال في هذه السورة و في الأعراف «فأخذتهم الرجفة[1]» وقال في هود : « فأخذتهم الصيحة [2] » والحكاية واحدة ؟

فالجواب أنّه لا تعارض بينهما فإنّ الصيحة كانت سبباً للرجفة إمّا لرجفة الأرض لأنّ جبرئيل صاح فتزلزلت الأرض من صيحته و إمّا لرجفة الأفئدة فإنّ قلوبهم ارتجفت وتقطّعت منها وماتوا ، والإضافة إلى السبب لا تنافي الإضافة إلى سبب السبب إذ يصحّ أن يقال : روي فقوي و أن يقال شرب فقوي فكلاهما في صورة واحد .

قوله : [وعاداً وثمود] أي أهلكنا أيضاً عاداً وثمود جزاءً على كفرهم [وقد تبيّن لكم] معاشر الناس كثير [من مساكنهم] وظهر لكم يا أهل مكّة من منازلهم بالحجر و اليمن آية في إهلاكهم [و زيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل وكانوا مستبصرين] ومنعهم الشيطان عن طريق الحقّ وكانوا عقلاء يمكنهم التمييز بين الحقّ والباطل بالاستدلال و الرسل فإنّهم أوضحوا السبيل ولكنّهم أغفلوا ولم يتدبّروا .

[وقارون وفرعون وهامان] أي وأهلكناهم كما أهلكنا عاداً وثمود وكانوا أيضاً مستبصرين بالرسل [ولقد جاءهم موسى بالبيّنات] أي الآيات [فاستكبروا] عن عبادة الله [في الأرض] و ذلك لأنّ من في الأرض أضعف ومن في السماء أقوى وما استكبروا [وما كانوا سابقين] ولا يقدرون أن يفوتون الله .

ثمّ قال : [فكلاًّ أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة و منهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون] فذكر الله أربعة أشياء : العذاب بالحاصب ، وقيل : إنّه كان بحجارة محماة يقع على كلّ واحد منهم وينفذ من الجانب الآخر فحينئذ هذا العذاب هو عذاب النار ،والثاني

---

(١) الاية : ٧٧ .
(٢) الاية : ٧٣ .

العذاب بالصيحة وهو هواء متموّج فإنّ الصوت قيل : سببه تموّج الهواء و وصوله إلى الغشاء الّذي على منفذ الأُذن وهو الصماخ فيقرعه فيحسّ . والثالث العذاب بالخسف وهو الغمر في التراب والأرض . والرابع العذاب بالإغراق ، فحصل العذاب بالعناصر الأربعة والإنسان مركّب منها وبها قوامه وبسببها بقاؤه ودوامه ومع ذلك فإذا أراد الله إهلاكه جعل ما منه وجوده سبباً لعدمه وما به بقاؤه سبباً لفنائه .

ثمّ قال سبحانه : «وما كان الله ليظلمهم » يعني لم يظلمهم الله بالهلاك و إنّما هم ظلموا أنفسهم بالإشراك ووضعوا أنفسهم في غير موضع الّذي وضعهم الله فإنّ موضعهم الكرامة كما قال سبحانه : « ولقد كرّمنا بني آدم[١] »فظلموا أنفسهم بعبادة غير الله واختاروا الدناءة والخسّة والعذاب .

قوله تعالى : مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون (٤١) ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم (٤٢) وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون (٤٣) خلق الله السموات و الارض بالحق ان في ذلك لاية للمؤمنين (٤٤) اتل ما اوحى اليك من الكتاب واقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله اكبر والله يعلم ما تصنعون (٤٥) .

المعنى : شبّه الله تعالى حال الكفّار الّذين اتّخذوا غيره آلهة بحال العنكبوت أي من اتّخذ الأصنام آلهة ويريدون منها النصر والنفع و يرجعون إليها عند الحاجة [كمثل العنكبوت] والعنكبوت يذكّر ويؤنّث [اتّخذت] لنفسها [بيتاً] لتأوي إليه فكما أنّ بيت العنكبوت لا يغني عنها شيئاً لكونه في غاية الوهن والضعف كذلك الأصنام لا تغني عنها شيئا ولا يقدر الأصنام أن تدفع عذاب ساعة من عذاب العاجل والآجل وإنّ حكم آلهتهم كحكم العنكبوت وبيته لا يجير آوياً ولا يريح ثاوياً لأنّ البيت ينبغي أن يكون له أُمور : حايط حائل وسقف مظلّ وباب يغلق للحفظ عن البرد والحرّ وغيرهما فإذا

(١) الاسراء : ٧٠ .

لم يحصل من البيت هذه الاُمور فهوكالبيداء و كذلك المعبود ينبغي أن يكون منه الخلق والرزق والنفع ودفع الضرر فإن لم يكن كذلك فهو والمعدوم سواء.

على أنّه أدنى مراتب البيت أنّه إذا لم يكن سبب ثبات و ارتفاق فلا أقلّ من أن لا يكون سبب شتات وافتراق لكن بيت العنكبوت يصيرسبب انزعاج العنكبوت فإنّ العنكبوت لو دام بيته في زاوية مدّة واتّخذ بيتاً أتبعه صاحب الملك بتنظيف البيت منه والكنس ويقدم باُمور مؤذية لجسم العنكبوت فكذلك العابد للوثن إن دام على عبادته فذلك يوجب له العذاب الدائم.

و إنّما عبّر سبحانه بقوله: «من دون الله أولياء» ولم يقل آلهة إشارة إلى الشرك الخفيّ وفساده فإنّ من عبدالله رياءً لغيره فقد اتّخذولياً غيره فمثله مثل العنكبوت.

ثمّ قال سبحانه: [و إنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لوكانوا يعلمون] صحّة ما أخبرناهم، وتقدير الآية: لوعلموا أنّ اتّخاذهم الأولياء كاتّخاذ العنكبوت بيتاً سخيفاً لم يتّخذوهم أولياء.

قوله تعالى: [إنّ الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم] هذا زيادة توكيد على التمثّل أي إنّ الله يعلم أنّ ما يدعونه ليس بشيء ويعلم عبادتهم لغيره وهو قادر على إهلاكهم وحكيم في الاُمور يمهلهم للمصلحة ووجه النظم مع الآية السابقة هوأنّه لما مثّل أهل عبادة غير الله كمثل العنكبوت والكافر لو يقول أنا لا أعبد هذه الأوثان الّتي أتّخذها وهي تحت تسخيري وإنّما أعبد صورة كوكب أو شخص أنا تحت تسخيره ومنه نفعي وضرري وخيري و شرّي ووجودي ودوامي فله سجودي وإعظامي فقال: إنّ الله يعلم أنّ كلّ مايعبدون من دون الله هومثل بيت العنكبوت لأنّ الكوكب والملك و الفلك و كلّ ماعدا الله لاينفع ولايضرّ إلّا بإذن الله فعبادتكم للغائب الّذي يزعمكم هو النافع وتزعمون هذا الحاضر الّذي تعبدونه مثال ذلك الغائب وهيكله و لهذا الهيكل تعلّق بذلك الأصل فكلّ هذه المزعومات مثل العنكبوت ولا يستحقّون العبادة.

قوله: [وتلك الأمثال نضربها للنّاس ومايعقلها إلّا العالمون] قال الكافرون: كيف يضرب خالق السّماوات و الأرض الأمثال بالحشرات و الهوامّ مثل البعوض و الذباب

والعنكبوت ؟ فيقال : الأمثال تضرب للنّاس وإن لم يكونوا كالبهائم يحصل لكم تدبّرو إدراك والتشبيه يؤثّر في النفس مثل تأثير الدليل فإنّ الحكيم إذا قال لمن يغتاب : إنّك بالغيبة كأنّك تأكل لحم ميّت لأنّك وقعت في هذا الرجل وهو غائب لا يفهم ما تقول ولا يسمع حتّى يجيب كمن يقع في لحم ميّت يأكل منه والميّت لا يعلم ولا يقدر على دفعه فحينئذٍ ينفر الإنسان بعد هذا التشبيه من الغيبة ، وما يعقلها وما يفهم هذه الأمثال إلّا العلماء الّذين عقلوا الطاعة عن المعصية فعمل بالطاعة واجتنب عن المعصية .

ثمّ بيّن ما يدلّ على الهيئة فقال : [خلق الله السّماوات والأرض] و أخرجهما من العدم إلى الوجود ولم يخلقهما عبثاً بل خلقهما ليسكنهما خلقه وليستدلّوا بهما على إلهيته ووحدانيّته [بالحقّ]أي حقيقة على وجه الحكمة والإتقان ولإظهار الحقّ [إنّ في ذلك] الخلق والأمر [لآية للمؤمنين] لأنّهم المنتفعون بذلك ولذلك خصّ المؤمنين بالذكر و إلّا أنّهما آية للمؤمن والكافر ولمّا لم ينتفع الكافر اُضيفت إلى المؤمن .

ثمّ خاطب نبيّه فقال : [اتل ما اُوحي إليك من الكتاب] أي اقرأ ما اُوحي إليك من القرآن على المكلّفين واعمل بما تضمّنه [وأقم الصلاة] أي أدّها بحدودها في مواقيتها [إنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر] .

و في الآية دلالة على أنّ فعل الصلاة لطف للمكلّف في ترك القبيح والمعاصي الّتي ينكرها الشرع والعقل فإذا كان أثرها أنّها تنهى عن القبيح يكون توقيفيّاً . وقيل : إنّ الصّلاة بمنزلة الناهي بالقول إذا قال لا تفعل الفحشاء والمنكر وذلك لأنّ فيها التكبير والتسبيح والقراءة والوقوف بين يدي الله وغير ذلك من صنوف العبادة و كلّ ذلك يدعو إلى شكله و يصرف عن ضدّه لأن شبيه الشيء ينجذب إليه فحينئذٍ يكون مثل الآمر والناهي ومؤدّ إلى الخير وصارف عن الشرّ الّذي ضدّه .

و قيل : تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ما دام فيها كقوله : « ومن دخله كان آمناً (١) » وهذا ضعيف لأنّه ليس مدحاً للصّلاة بل النوم كذلك .

وقال ابن عبّاس في الصّلاة منهى و مزدجر عن معاصي الله فمن لم تنهه صلاته عن

---

(١) آل عمران ٩٧

المعاصي لم يزدد من الله إلّا بعداً . وقال الحسن وقتادة : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلاة وهي وبال عليه . وروى أنس بن مالك الجهني عن النبيّ صلّى الله عليه وآله قال : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلّا بعداً . و روي عن أنس بن مسعود عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال : لاصلاة لمن لم يطع الصلاة وطاعة الصلاة أن ينتهي المصلّي عن الفحشاء والمنكر فإذا لم ينته عن المعاصي لم تكن صلاته بالصفة الّتي وصفها الله بها فإن تاب من بعد ذلك وترك المعاصي فقد تبيّن أنّ صلاته كانت نافعة له و ناهية و إن لم ينته إلّا بعد زمان .

وروى أنس أنّ فتى من الأنصار كان يصلّي الصلاة مع رسول الله صلّى الله عليه وآله و يرتكب الفواحش فوصف ذلك لرسول الله صلّى الله عليه وآله فقال : إنّ صلاته تنهاه يوماً . و عن جابر قال : قيل لرسول الله : إنّ فلاناً يصلّي بالنهار ويسرق بالليل فقال : إنّ صلاته لتردعه . و روى أصحابنا عن أبي عبدالله عليه السلام قال : من أحبّ أن يعلم أقبلت صلاته أم لم تقبل فلينظر هل منعته صلاته عن الفحشاء والمنكر فبقدر ما منعته قبلت منه . انتهى .

وفي المسألة تحقيق آخر وهو أنّ من كان من العقلاء وهو مشتغل بخدمة ملك عظيم الشأن كثير الإحسان في حقّه إذا رأى أنّ عبداً من عبيد ذلك الملك جنى جناية عظيمة بحيث طرده الملك طرداً لا يتصوّر قبوله وفاته الخير بحيث لايرجى حصوله فإذاً هذا العبد المتقرّب عند الملك كيف يقرّب في طاعة ذلك المطرود و يخالف مولاه فكذلك المصلّي إذا صلّى وقام بين يدي الله وناجى مولاه فكيف يترك طاعة الله و يدخل تحت طاعة الشيطان المطرود .

وهناك مثال آخر وهو أنّ من يباشر القاذورات كالزبّال و الكنّاس يكون له لباس نظيف فإذا لبسه لايباشر معه القاذورات و كلّما كان ثوبه أرفع و أبهى كان امتناعه عن الخبائث أكثر فكذلك العبد إذا صلّى لبس لباس التقوى فكيف مع هذا اللباس يباشر قاذورات الفحشاء والمنكر ؟ ثمّ إنّ الصلوات متكرّره واحدة بعد واحدة فيدوم هذا اللبس فيدوم الامتناع .

وفي الآية وجه وتحقيق معقوليّ وهو أنّ المراد من قوله : « إنّ الصلاة تنهى عن

الفحشاء والمنكر » هو أنّها تنهى عن التعطيل والإشراك و التعطيل هو إنكار وجود الله و الإشراك إثبات أُلوهيّة لغيرالله فالتعطيل عقيدة فحشاء لأنّ الفاحش هو القبيح الظاهر القبح لكن وجودالله أظهر من الشمس والإشراك منكر وذلك أنّ الله لمّا أطلق اسم المنكر على من نسب نفساً إلى غير الولد حيث قال : « إن أُمّهاتهم إلّا اللائي ولدنهم و إنّهم ليقولون منكراً من القول »^(١) فالمشرك الّذي يقول: الملائكة بنات الله، وينسب الولد إلى من لم يلد كيف لايكون قوله منكراً ؟

فالصلاة تنهى عن الفحشاء أي هذه الفحشاء و هذا المنكر و ذلك لأنّ العبد أوّل مايشرع في الصلاة يقول : « الله أكبر » فبقوله «الله» ينفي التعطيل وعقيدة الفحشاء وبقوله « أكبر » ينفي التشريك لأنّ الشريك لا يكون أكبر من الشريك الآخر فإذا قال « بسم الله » نفى التعطيل وإذا قال «الرحمن الرحيم » نفى الإشراك لأنّ الرحمن من يعطي الوجود بالخلق بالرحمة والرحيم من يعطي البقاء بالرزق بالرحمة فإذا قال : «الحمد لله رب العالمين » أثبت بقوله «الحمد» خلاف التعطيل وبقوله «ربّ العالمين » خلاف الإشراك فإذا قال « إيّاك نعبد » نفى التعطيل والإشراك و كذا بقوله « وإيّاك نستعين» فإذا قال «اهدنا الصراط» نفى التعطيل لأنّ طالب الصراط له مقصد والمعطّل لامقصد له و« المستقيم » نفى الإشراك لأنّ المستقيم هو الأقرب و المشرك يعبد الأصنام حتّى أنّه يعبد صورة صوّرها إله العالمين ويظنّون أنّهم يشفعون لهم وعبادة الله من غير واسطة أقرب وعلى هذا إلى آخر الصلاة فيقول : « أشهد أن لا إله إلّا الله » فينفي الإشراك والتعطيل والصلاة أوّلها لفظة الله وآخرها لفظة الله فيقتضي أنّ المصلّي يكون من أوّلها إلى آخرها حاضر القلب مع الله و وجب شهادة الرسالة لمحمّد في الصلاة ليعلم المصلّي أنّه إنّما وصل بهذه المنزلة الرفيعة بأن يخاطب ويناجي ربّه بهداية محمد صلى الله عليه وآله فلابدّ أن يذكر إحسان محمد بالصلاة عليه .

ثمّ إنّ المصلّي إذا رجع من سفر معراجه يسلم أوّلاً على نبيّه الّذي به نال هذه المرتبة ثمّ يسلّم على إخوانه المؤمنين . و اعلم أنّ الصلاة هيئة فيها هيبة فإنّ أوّلها وقوف العبد المملوك بين يدي مولاه و آخرها جثوّ كما يجثو بين يدي السلطان كمن

---

(١) المجادلة : ٢ .

أكرمه السلطان بالشرافة في الجلوس لأنّ العبد بالوقوف في الصلاة والثناء على الله يتكرّم عندالله بهذه العبادة فيشرّف بالجلوس ماجلسه وجثا .

وبالجملة [ولذكرالله أكبر والله يعلم ماتصنعون] أي و ذكرالله إيّاكم برحمته أكبر من ذكركم إيّاه بطاعته عن ابن عبّاس وسلمان وابن مسعود و جماعة وقيل : ذكر العبد ربّه أفضل وأكبر من سائر أعماله الصالحة ويمكن أن يكون معناه إنّ أكبر شيء للنهي عن الفحشاء ذكر العبد ربّه فإنّه أقوى لطف يدعو إلى الطاعة وترك المعصية وهو أكبر من كلّ لطف أي من كان ذاكراً لله فيجب أن ينهاه ذكره عن الفحشاء و المنكر .

وروى ثابت البناني قال : إنّ رجلاً أعتق أربع رقاب فقال رجل آخر وهو فقير : سبحان الله والحمدلله ولاإله إلّا الله والله أكبر ثمّ دخل المسجد فأتى حبيب بن أوفى السلمي وأصحابه فقال : ماتقولون في رجل أعتق أربع رقاب وإنّي أقول : سبحان الله و الحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر فأيّهما أفضل ؟ فنظروا هنيئة فقالوا : مانعلم شيئاً أكبر وأفضل من ذكرالله . و عن معاذبن جبل قال : ما عمل آدميّ عملاً أنجا له من عذاب الله من ذكر الله عزّوجل قيل : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل الله فإنّ الله يقول : « ولذكرالله أكبر » وعنه : قال : سألت رسول الله ﷺ : أي الأعمال أحبّ إلى الله ؟ قال : أن تموت ولسانك رطب عن ذكر الله و قال : يا معاذ إنّ السابقين الّذين يسهرون ويذكرون الله عزوجلّ ومن أحبّ أن يرتع في رياض الجنّة فليكثرذكرالله .

وروي عن عطاء بن السائب عن عبدالله بن ربيعة عن ابن عبّاس قال : قال عبدالله بن عبّاس : أرأيت قول الله : « ولذكر الله أكبر » ؟ قال : ذكر الله بالقرآن حسن و ذكره بالصلاة حسن و بالتسبيح و التكبير حسن و أحسن من ذلك أن يذكر الرجل ربّه عند المعصية فينحجز عنها فقال ابن عبّاس : لقد قلت قولاً عجيباً و أمّا هو كما قلت و لكن ذكرالله إيّاكم أكبر من ذكركم إيّاه .

هذا كلّه إذا كان اللفظ بمعنى التفضيل وأمّا إذاكان بمعنى الوصف فمعناه أنّ ذكر الله له الكبر لالغيره كمايقال في الصلاة : الله أكبر أي له الكبر لالغيره ، ولعلّ في ترك ذكر المفضّل عليه هذه النكتة وهي أنّه لايقال : الجبل أكبر من الخردلة و إنّما يقال هذاالجبل

أكبر من ذلك الجبل إذ كلّ كبير وعظيم بالنسبة إلى كبريائه أصغر من الخردلة .

قوله : [والله يعلم ماتصنعون] عالم بصنائعكم من التلاوة والصلاة والذكر وجميع ما أنتم صانعون .

قوله : ولاتجادلوا اهل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى انزل الينا وانزل اليكم والهنا و الهكم واحد و نحن له مسلمون (٤٦) .

لمّا بيّن في الآية السابقة طريقة الدعاء والذكر شرح في هذه الآية طريقة دعوة أهل الكتاب و إرشادهم فقال :

ولا تجادلوهم بالسيف والخشونة وجادلوهم بالحجّة و الرفق واللينة لحصول الخير والنفع بها والمراد من أهل الكتاب قيل : نصارى نجران ، وقيل : اليهود والنصارى وفي الآية دلالة على وجوب استعمال القول الجميل في التنبيه على آيات الله .

[إلّا الّذين ظلموا منهم] أي إلّا من أبى أن يقرّ بالجزية منهم و نصب الحرب فجادلوا هؤلاء بالسيف حتّى يسلموا أو يعطوا الجزية . و قيل : معنى « إلّا الّذين ظلموا منهم » بالعناد و كتمان صفة بعد العلم به . وقيل : إلّا الّذين ظلموا منهم بالإقامة على الكفر بعد قيام الحجّة . والأولى أن يكون معناه إلّا الّذين ظلموك في جدالهم أوفي غيره ممّا يقتضي الإغلاظ لهم فيجوز أن يسلكوا معهم طريقة الغلظة وقيل : الآية منسوخة بآية السيف و الصحيح أنّها غير منسوخة لأنّ الجدال على الوجه الأحسن هو الواجب الّذي لايجوز غيره .

[وقولوا لهم] في المجادلة والدعوة : [آمنّا بالّذي اُنزل إلينا و اُنزل إليكم] أي آمنّا بالكتاب الّذي اُنزل إلينا وبالكتاب الّذي اُنزل إليكم [وإلهنا و إلهكم واحد] لاشريك له [ونحن له مسلمون] وطائعون .

قوله تعالى : و كذلك أنزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا الا الكافرون (٤٧) وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك اذالارتاب المبطلون(٤٨)

بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون (٤٩) وقالوا لولا انزل عليه آيات من ربه قل انما الايات عندالله وانما أنا نذير مبين (٥٠) .

[و كذلك] أي و مثل ما أنزلنا الكتاب على موسى وعيسى [أنزلنا]عليك القرآن [فالّذين آتيناهم الكتاب] أي علم الكتاب [يؤمنون به] بالقرآن .

وقيل : المراد مؤمني أهل الكتاب مثل عبدالله بن سلام و نظرائه .

و قيل : الضمير في « به » راجع إلى النبيّ صلى الله عليه وآله [ومن هؤلاء]يعني كفّار مكّة [من يؤمن به] أي من أسلم منهم ويحتمل أن هو يريد بقوله : « الّذين آتيناهم الكتاب » المسلمين و الكتاب القرآن ، و« من هؤلاء » يعني و من اليهود و النصارى من يؤمن به [وما يجحد بآياتنا إلّا الكافرون] أي وما ينكر دلائلنا و آياتنا الشاهدة على توحيدنا إلّا الكافرون ، القميّ مايجحد بأمير المؤمنين والأئمّة إلّاالكافرون .

ثمّ خاطب نبيّه : [وما كنت تتلومن قبله من كتاب] أي وما كنت يامحمّد تقرأ قبل القرآن كتاباً أي إنّك لم تكن تحسن القراءة قبل أن يوحى إليك بالقرآن [ولا تخطّه بيمينك] أي وما كنت أيضاً تكتبه بيدك أي ولو كنت تقرأ كتاباً أو تكتبه اوجد المبطلون طريقاً إلى اكتساب الشكّ والمناقشة في أمرك وإلقاء الريبة لضعفة الناس في نبوّتك ولقالوا : إنّما تقرء علينا ما جمعته من كتب الأوّلين فلمّا ساويتهم في المولد و المنشأ ثمّ آتيتهم بماعجزوا عنه وجب أن يعلموا أنّه من عندالله وليس من عندك .

قال الشريف المرتضى علم الهدى قدّس الله روحه : هذه الآية تدلّ على أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله ماكان يحسن الكتابة قبل النبوّة فأمّا بعد النبوّة فالّذي نعتقده في ذلك التجويز بكونه عالماً بالكتابة والقراءة وبكونه غير عالم بالقراءة والكتابة من غير قطع على أحد الأمرين وظاهر الآية يقتضي أنّ النفي قد تعلّق بما قبل النبوّة فأمّا ما بعدالنبوّة فلاتعلّق له بالريبة والتهمة فيجوز أن يكون قد تعلّم من جبرئيل بعد النبوّة .

ثمّ قال سبحانه : [بل هو آيات بيّنات في صدور الّذين أُوتوا العلم] في الكافي عن الباقر عليه السلام أنّه تلاهذه الآية فأومأ عليه السلام إلى صدره و في حديث آخر و إيّانا عنى

ونحن . وقوله تعالى : « بل هو » يعني أنّ القرآن دلالات واضحات في صدور العلماء وهم النبيّ والأئمة و المؤمنون حيث إنّ المؤمنين حفظوه و وعوه ورسخ في قلوبهم ، وقيل : هم الأئمّة من آل محمّد خاصّةً عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام .

قوله : [ومايجحد بآياتنا إلّا الظالمون] الّذين ظلموا أنفسهم بترك النظر فيها و العنادلها و قيل : المراد بالظالمين كفّار اليهود أو كفّار مكّة ، أو المراد من الظالمين في الآية المشركون الّذين ظلموا أنفسهم بشرك كما قال الله : « إنّ الشرك لظلم عظيم » .

قوله : [وقالوا لولا اُنزل عليه آية من ربّه قل إنّما الآيات عندالله وإنّما أنانذير مبين] أوردوا شبهة على النبيّ صلى الله عليه وآله فقالوا : إنّك تقول : إنّه اُنزل إليك كتاب كما اُنزل إلى موسى وعيسى وليس كذلك لأنّ موسى اُوتي تسع آيات وأنت ما اُوتيت شيئاً منها ، فأرشدالله نبيّه إلى جوابهم بقوله : «قل» يامحمّد لهم : « إنّما الآيات عندالله » ينزلها ويظهرها بحسب مايعلم من مصالح عباده و ينزل على كلّ نبيّ منها ماهو الأصلح لاُمّته وله ولذلك لم تتّفق آيات الأنبياء كلّها وإنّما جاء كلّ نبيّ بفنّ منها .

ثمّ إنّه ليس من شرط الرسالة الآية والمعجزة لأنّ الرسول يرسل أوّلاً و يدعو إلى الله فإن توقّف الخلق في قبوله أوطلبوا منه دليلاً فإن أرادالله أنزلها و إن لم يرد لا ينزلها وهذا لأنّ ماهو من ضرورات الشيء إذا خلق الله الشيء لابدّ أن يخلقها كالمكان من ضرورات الإنسان فلا يخلق الله إنساناً إلّا ويكون قدخلق مكاناً أو يخلقه معه لكنّ الرّسالة والمعجزة ليستا كذا فالله إذا خلق رسولاً وجعله رسولاً ليس من ضروراته أن تعلم له معجزة نعم لابدّ أن يثبت رسالته بقول من تثبت رسالته فنبيّنا صلى الله عليه وآله لاحاجة له إلى معجزة لأنّ رسالته علمت بقول من قبله مثل موسى وعيسى فتبيّن بطلان شبهتهم حيث قالوا : « لولا اُنزل عليه آيات من ربّه » .

« و إنّما أنا نذير مبين » أي منذر مخوّف من معصية الله مظهر طريق الحقّ و الباطل وقد فعل الله سبحانه ما يشهد بصدقه من المعجزات .

أولم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة و ذكرى لقوم يؤمنون (٥١) قل كفى بالله بينى و بينكم شهيداً يعلم ما فى

السموات و الارض و الذين آمنوا بالباطل و كفروا بالله اولئك هم الخاسرون (٥٢) ويستعجلونك بالعذاب ولولا اجل مسمى لجاءهم العذاب و ليأتينهم بغتة وهم لايشعرون (٥٣) يستعجلونك بالعذاب وان جهنم لمحيطة بالكافرين (٥٤) يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت ارجلهم و يقول ذوقوا ماكنتم تعملون (٥٥) .

لمّا تقدّم طلبهم للآيات أجابهم فقال :

[أولم يكفهم أنّا أنزلنا عليك] يا محمّد القرآن [يتلى عليهم] و هذا لأنّ القرآن معجزة أتمّ من كلّ معجزة تقدّمتها لوجوه : أحدها أنّ تلك المعجزات وجدت وما دامت فإنّ قلب العصا ثعباناً وإحياء الميّت لم يبق لنا منه أثر فلولم يكن واحد يؤمن بكتب الله ويكذّب بوجود هذه الأشياء في غير زمان وقوعها لايمكن إثباتها معه بدون الكتاب وأمّا القرآن فهو باق لوأنكره واحد فيقال له : فائت بآية من مثله .

ثمّ قال سبحانه : [إنّ في ذلك] أي إنّ في القرآن [لرحمة] أي نعمة عظيمة لأنّ من عمل به نال الثواب و فاز بالجنّة [و ذكرى] مصدر أي تذكيراً و موعظة [لقوم يؤمنون] يصدّقون به ، وقيل : إنّ قوماً من المسلمين كتبوا شيئاً من كتب أهل الكتاب فهدّدهم سبحانه في هذه الآية ونهاهم عنه وقال النبيّ ﷺ : جئتكم بها بيضاء نقيّة .

[قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً] لي بالصدق و الإبلاغ وقد شهد الله سبحانه لي بالنبوّة والصدق وشهادته له قوله : « محمّد رسول الله » وهو في كلام معجز قد ثبت أنّه من الله [يعلم مافي السماوات و الأرض] فيعلم أنّي على الهدى و أنّكم على الضلالة .

[و الّذين آمنوا بالباطل] وصدّقوا بغير الله أو بعبادة الشيطان [و كفروا بالله] و جحدوا وحدانيّته [أُولئك هم الخاسرون] خسروا ثواب الله بارتكاب الجحود والمعاصي ؛ فلو قيل : إنّ من آمن بالباطل فقد كفر بالله فما الفائدة في العطف ؟ الفائدة في العطف التأكيد مثل قوله : قم ولا تقعد واقرب منّي ولا تبعد ، على أنّ ذكر الثاني لبيان قبح الأوّل كقول القائل : أتقول بالباطل وتترك الحق ؟ لبيان أنّ القول بالباطل قبيح .

قوله : [ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمّى لجاءهم العذاب] أي يستعجلونك ويسألونك يا محمّد نزول العذاب عاجلاً كما قال النضر بن الحارث : «فأمطر علينا حجارة

من السّماء[1]» ولولا وقت قدّره الله تعالى أن يعاقبهم فيه وهو يوم القيامة وأجّل أن يبقيهم إلى ذلك الوقت لضرب من المصلحة لجاءهم العذاب الّذي استحقّوه [و ليأتينّهم] العذاب فجأةً [وهم لايشعرون] بوقت مجيئه .

ثمّ ذكر موعد عذابهم فقال : [ويستعجلونك بالعذاب] وقوله تعالى بالأوّل : «و يستعجلونك بالعذاب» إخباراً عنهم وفي الثاني تعجّب منهم [و إنّ جهنّم لمحيطة بالكافرين] يعني إنّ العذاب وإن لم يأتيهم في الدنيا فإنّ جهنّم لتحيطهم وجامعة لهم وهم معذّبون بها لامحالة .

[يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم] أي النار تغشاهم لا أنّه تصل إلى موضع منهم دون موضع فلا يبقى جزء منهم إلّا وهو معذّب في النار [ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون] والقائل الملك الموكّل بعذابهم ذوقوا جزاء أعمالكم وأفعالكم القبيحة، وهذا إطلاق اسم المسبّب على السبب .

قوله : ياعبادى الذين آمنوا ان ارضى واسعة فاياى فاعبدون (٥٦) كل نفس ذائقة الموت ثم الينا ترجعون (٥٧) والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها نعم اجر العاملين (٥٨) الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون (٥٩) و كأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها و اياكم وهو السميع العليم (٦٠) .

نزلت الآية في المستضعفين والصعاليك بمكّة ؛ أُمروا بالهجرة ونزل قوله :«و كأيّن من دابّة » الآية ، في جماعة كانوا بمكّة يؤذيهم المشركون فأُمروا بالهجرة إلى المدينة فقالوا : كيف نخرج إليها وليس لنا بها دار ولا عقار ومن يطعمنا ومن يسقينا .

والحاصل بيّن الله سبحانه أنّه لاعذر للعباد في ترك طاعته فقال :

[ياعباد الّذين آمنوا إنّ أرضي واسعة فإيّاي فاعبدون] أي إن تعذّرت العبادة عليكم في بعض البلاد فهاجروا إلى غيرها . وبهذا علم أنّ السكنى في دار لايمكن العبادة لله والكون على الإسلام حرام والخروج منها واجب .

---

(١) الانفال : ٣٢ .

ثمّ خوّفهم بالموت ليهوّن عليهم الهجرة فقال سبحانه : [كلّ نفس ذائقة الموت] يعني كلّ نفس أحياها الله بحياة خلقها فيه ذائقة مرارة الموت بأيّ أرض كانت فلا تقيموا بدار الشرك خوفاً من الموت في غيرها [ثمّ إلينا ترجعون] بعد الموت .

ثمّ ذكر سبحانه ثواب من حفظ إيمانه و هاجر فقال : [و الّذين آمنوا و عملوا الصالحات] يعني المؤمنين المهاجرين [لنبوّئنّهم] أي لننزلنّهم [من الجنّة غرفاً]أي أماكن عاليات وغرف الدرّ والزبرجد و الياقوت [تجري] من تحت تلك الغرف[الأنهار خالدين فيها] مؤبّدين ببقاء الله [نعم أجر العاملين] اُجورهم لله تلك الغرف كماأنّ بئس للكافرين تغشى الكافرين من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

ثمّ وصف المؤمنين فقال : [الّذين صبروا و على ربّهم يتوكّلون] لم يتركوا دينهم لشدّة تنالهم و أذىً يلحقهم وصبروا في مشقّة الطاعات وهم متوكّلون على الله في مهمّات اُمورهم ومهاجرة دورهم .

قوله تعالى : [و كأيّن من دابّة لاتحمل رزقها] لمّا ذكر سبحانه حال المتوكّلين أي و كم من دابّة لايكون رزقها مدخّراً معدّاً و مع ذلك فالله يرزقها وهي لاتدخّر القوت لغدها إلّا قليلاً من الدوابّ كالنملة و الفارة وابن آدم وباقي الحيوانات تأكل بقدر كفايتها فقط .

« و كأيّن » إذا كانت بمعنى « كم» لاتستعمل مع « من » إلّا نادراً و في « كأيّن » لغات : كائن على وزن راع وعلى أوزان آخر وهي مركّبة من كاف التشبيه وأيّ الّتي تستعمل استعمال « من » و « ما » ركّبتا وجعل المركّب بمعني « كم» ولم تكتب إلّا بالنون للفرق بين « كأيّن » بمعنى « كم » الّتي هي المركّبة وبين «كايّ» الّتي ليست مركّبة و الّتي غير مركّبة لايجوز إدخال من بعدها .

و بالجملة فمعنى الآية على هذا البيان أنّ الحيوان مع عدم إدراكها الكلّيّ إذا كان لايدّخر شيئاً لقوتها فالإنسان المتوكّل العارف أولى بأن لايحرص و يدّخر فكما أنّ الله يرزقه كذلك يرزقكم فتوكّلوا .

فإن قال قائل : من يقول بأنّ الله يرزق الدوابّ من النبات في الصحراء ينبت

يسعى إليه ويرعى.

فالجواب بأنّ الله يرزقها من ثلاثة أوجه: نظراً إلى الرزق و إلى المرتزق و إلى مجموع الرزق والمرتزق أمّا بالنظر إلى الرزق فلأنّ الله لو لم يخلق النبات لم يكن للحيوان رزق و أمّا بالنظر إلى المرتزق فلأنّ الاغتذاء ليس بمجرّد الابتلاع بل لا بدّ من تشبّثه بالأعضاء حتّى يصير الحشيش عظماً ولحماً ودماً وما ذاك إلّا بحكمة الله تعالى حيث خلق فيه جاذبة وما سكة وهاضمة ودافعة وغيرها من القوى وذلك لمحض قدرة الله فهو الّذي يرزقها،وأمّا بالنظر إلى المرتزق و الرزق فلأنّ الله لو لم يهد الحيوان إلى الغذاء ليعرفه من الشمّ ماكان يحصل له الغذاء ألا ترى أنّ من الحيوان مالا يعرف نوعاًمن أنواع الغذاء حتّى يوضع في فمه بالشدّة ليذوق فيأكله بعدذلك فإنّ كثيراًمّا يكون البعيرلايعرف الخمير ولا الشعير حتّى يلقم مرّتين أو ثلاثاً فيعرفه فيأكله بعد ذلك.

فإن قيل: كيف يصح قياس الإنسان على الحيوان فيما يوجب التوكّل والحيوان رزقه لايتعرّض إليه إذا أكل منه اليوم شيئاً وترك بقيّة يجدها غداً مامدّ إليه أحد يداً والإنسان إن لم يأخذ اليوم لا يبقى له غداً شيئاً. و أيضاً حاجات الإنسان كثيرة فإنّه يحتاج إلى أجناس اللباس وأنواع الأطعمة وليس كذلك الحيوان، و أيضاً قوت الحيوان مهيّأ وقوت الإنسان يحتاج إلى تكلّف كالزرع و الحصاد و الطحن و الخبز فلو لم يجمعه قبل الحاجة ويهيّئه ماكان يجده وقت الحاجة.

فالجواب أنّه إذا كان حاجات الإنسان كثيرة فمكاسبه أيضاً كثيرة فإنّه يكتسب بيده كالخيّاط و النسّاج وبرجله كالساعي وبعينه كالناطور و بلسانه كالحادي و المنادي و بفهمه كالمهندس و التاجر و بعلمه كالفقيه و الطبيب ثمّ الأكمل من الكلّ الإدراك الكلّي والحيوان ليس له شيء من هذه الأمور فالإنسان مع هذه الأسباب أولى بالتوكّل ثمّ إنّ الله ملّك الإنسان عمائر الدنيا و جعلها تدخل في ملكه شاء أم أبى حتّى أنّ نتاج الأنعام و ثمار الأشجار تدخل في ملكه وإن لم يرده مالك الأنعام و الأشجار وإذا مات قرن ينتقل ذلك إلى قرن آخر شاءوا أم أبوا وليس كذلك الحيوان أصلاً فإذاً الإنسان لو توكّل أقرب للعقل.

و قيل : معنى قوله تعالى : « لاتحمل رزقها » أي لاتطيق حمل رزقها لضعفها « الله يرزقها و إيّاكم » يرزق تلك الدابّة الضعيفة الّتي لاتقدر على حمل رزقها ويرزقكم أيضاًفلا تتركوا الهجرة بهذا السبب من خوف الفقر .

وعن عطا و غيره عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتّى دخل بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط التمر ويأكل فقال : ياابن عمر مالك لاتأكل؟فقلت : لاأشتهيه يارسول الله قال : لكنّي أشتهيه وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ولو شئت لدعوت ربّي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك ياابن عمر إذا بقيت مع قوم يخبؤون رزق سنتهم لضعف اليقين ؛ فوالله ما برحنا حتّى نزلت الآية « و كأيّن من دابّة لاتحمل رزقها الله يرزقها و إيّاكم » .

[وهو السميع] لأقوالكم عند مفارقة أو طانكم [العليم] بأحوالكم .

قوله تعالى : و لئن سألتهم من خلق السموات و الارض وسخر الشمس و القمر ليقولن الله فأني يؤفكون (٦١) الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ان الله بكل شيء عليم (٦٢) و لئن سألتهم من نزل من السماء ماء فاحيا به الارض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لايعقلون(٦٣) وما هذه الحيوة الدنيا الا لهو و لعب و ان الدار الاخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون (٦٤) فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذاهم يشركون (٦٥) ليكفروا بما آتيناهم و ليتمتعوا فسوف يعلمون (٦٦) اولم يروا أنا جعلنا حرما آمناً و يتخطف الناس من حولهم افبالباطل يؤمنون و بنعمة الله يكفرون (٦٧) ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا او كذب بالحق لما جاءه اليس فى جهنم مثوى للكافرين(٦٨) والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا و ان الله لمع المحسنين (٦٩) .

المعنى : عجّب نبيّه والمؤمنين من إيمان المشركين بالباطل مع اعترافهم بأنّ الله هو الخالق الفاعل فقال :

[ولئن سألتهم] ياتمد هؤلاء المشركين [من خلق السماوات والأرض] وأخرجهما من العدم إلى الوجود وذلّل الشمس و القمر و سيّرهما في دورانهما على طريقة واحدة لا تختلف [ليقولنّ] في جواب ذلك [الله] الخالق لذلك لأنّهم كانوا يقولون بحدوث

العالم والنشأة الأولى [فأنّى يؤفكون] فكيف يقلّبون الأمر و يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره من أشياء الّتي لاتضرّ ولا تنفع .

و إنّما ذكر سبحانه أمرين : أحدهما خلق السماوات و الأرض و الآخر تسخير الشمس والقمر لأنّ الإيجاد قد يكون للذوات و قد يكون للصفات فخلق السماوات و الأرض إشارة إلى إيجاد الذوات ، وتسخير الشمس والقمر إشارة إلى إيجاد الصفات وهي الحركة فذكر من القبيلين .

قوله تعالى : [الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده] أي الخلق والرزق له وهوولّي الإحسان يبسط لمن يكون صلاحه البسط [ويقدر] لمن يكون صلاحه القبض فكيف يعبدون غيرالله ! و إنّما خصّ الذكر ببيان الرزق لئلاّ يتخلّف أهل الهجرة خوف العيلة [إنّ الله بكلّ شيء عليم] يعلم مصالح عباده فيرزقهم بحسب المصلحة .

[و لئن سألتهم من نزّل من السّماء ماء فأحيابه الأرض من بعد موتها ليقولنّ الله قل] يامحمّد عند ذلك : [الحمد لله] على كمال قدرته وتمام نعمته و بيّن سبب الرزق .

ثمّ قال : [بل أكثرهم لايعقلون] توحيد ربّهم مع إقرارهم بأنّه خالق الأشياء ومنزّل المطر من السّماء لأنّهم لا يتدبّرون و عن الطريق المفضي إلى الحقّ يعدلون فلذلك لايعقلون .

[وما هذه الحياة الدّنيا إلّا لهو و لعب] و الفرق بين اللهو و اللعب أنّ المقبل على الباطل لاعب و المعرض عن الحقّ لاه فقال : « وما هذه الحياة الدّنيا » لأنّها تزول كما يزول اللهو و اللعب فيستمتع الإنسان مدّة ثمّ تنصرم و تنقطع و يبقى وبالها .

[وإنّ الدار الآخرة] أي الجنّة [لهي الحيوان] أي الحياة على الحقيقة لأنّها الدائمة الّتي لا زوال ولا موت فيها أي دار الآخرة ذات الحياة [لو كانوا يعلمون] الفرق بين الزائل و الثابت ولو علموا لرغبوا في الباقي و زهدوا في الفاني .

قوله تعالى : [فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدّين فلمّا نجّاهم إلى البرّ إذاهم يشركون] ثمّ أخبر الله عن حال المقبلين إلى الدّنيا المعرضين عن عبادة الله فقال : إنّهم إذا ركبوا في البحر و هاجت به الريح وتلاطمت به الأمواج و خافوا الهلاك

أخلصوا الدعاء لله مستيقنين أنّه لا يكشف السوء إلّا هو وتركوا شركاءهم فلم يطلبوا منهم إنجاءهم فلمّا نجّاهم إلى البرّ و خلصهم من الهلاك وأمنوا منه عادوا إلى ماكانوا عليه .

[ليكفروا بما آتيناهم و ليتمتّعوا فسوف يعلمون] إن جعلت اللام للأمر فمعناه التهديد أي ليجحدوا نعم الله في إنجائه إيّاهم و ليتمتّعوا بباقي عمرهم « فسوف يعلمون عاقبة كفرهم ، و إن جعلتها لام كي فالمعنى : إنّهم يشركون ليكفرون نعمة الإنجاء و سائر النعم .

قوله : [أولم يروا أنّا جعلنا حرماً آمناً ويتخطّف الناس من حولهم] وجه تعلّق الآية بما قبلها هو أنّ المراد من الآية أنّكم في أخوف ما كنتم في لجّة البحر دعوتم الله على سبيل الإخلاص وفي آمن مكان حصل لكم في بيوتكم كفرتم به ورجعتم إلى التوجّه بالأصنام والحالة أنّ حال الأمن وحصول نعمته أولى بأن تتوجّهون إلى الله وتعبدونه . « أولم يروا » أي أولم يعلم هؤلاء الكفّار « أنّا جعلنا » مسكنهم « حرماً آمناً » يأمنون فيه من القتل والغارة يقتل بعضهم بعضاً في ماحولهم من ذئاب العرب والحالة أنّهم آمنون ولا يصيبهم أذىً وهم يبدلون هذه النعمة بالكفران .

ثمّ قال مهدّداً لهم : [أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون] .

ثمّ قال : [ومن أظلم ممّن افترى على الله كذباً] أي لا ظالم أظلم ممّن أضاف إلى الله ما لم يقله من عبادة الأصنام وما لا يرضاه من اُمورهم [أو كذّب بالحقّ] بالقرآن .

وقيل : بمحمّد ﷺ [لمّا جاءه] الضمير راجع إلى المكذّب [أليس في جهنّم مثوىً للكافرين] استفهام تقريريّ أي أما لهؤلاء الكفّار المكذّبين مثوىً ومقام في جهنّم أي إنجاز هذا الوعيد واجب لهم لأنّ من يكذّب صادقاً لايجوز عليه الكذب أظلم الظالمين فإنّهم قبلوا المتّخذ من خشب منحوت بالإلهيّة ولم يقبلوا ذا حسب منعوت بفيع مبعوث بالرسالة والعجب ممّن يقبل العجل الّذي يساوي قيمته عشرة دراهم بالربوبيّة ولا يقبل موسى بالنبوّة ومثل هذا أظلم من كلّ ظالم ويستحقّ العذاب لا محالة .

قوله تعالى : [والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا و إنّ الله لمع المحسنين] لمّا

فرغ البيان من تقريع الكفّار سلّى سبحانه قلوب المؤمنين أي من جاهد بالطاعة هداه الله سبل الجنّة وإنّه مع من أحسن في الطاعة و في معنى المعيّة إشارة زيادة على حسناته كقوله : « للّذين أحسنوا الحسنى وزيادة[1] » .

و في الآية معنى حكميّ وهو أي إنّ الّذين نظروا في آياتنا و دلائلنا يحصل فيهم الهداية والعلم كما قال المتكلّمون : إنّ النظر كالشرط للعلم الاستدلاليّ والله يخلق في الناظر علماً عقيب نظره ، و وافقهم الفلاسفة على هذا المعنى و قالوا : النظر معدّ للنفس لقبول الصورة المعقولة وإذا استعدّت النفس حصل لها العلم من فيض واهب الصور الجسمانيّة والعقليّة فإذاً إذا لم ينظروا ولم يجتهدوا لم يهتدوا فالهداية تشمل الّذين يتّقون التعصّب والمخالفة فينظرون فيهتدون .

وقوله : « إنّ الله لمع المحسنين» إشارة إلى درجة أعلى من الاستدلال كأنّه قد تقسّم الناس ثلاثة أقسام : منهم من يكون بعيداً لا يتقرّب للهداية وهم الكفّار ، و منهم من يتقرّب بالسلوك والنظر فيهديهم الله و يقرّبهم ، ومنهم من يكون الله معه ويستعلم الأشياء من الله ولا يعلمه من النظر والأشياء ودرجته فوق درجة الاستدلال والنظر وصعد عن هذه الدرجة إلى أعلى منها فقوله :

« والّذين جاهدوا » إشارة إلى الثاني من الأقسام

وقوله : « وإنّ الله لمع المحسنين » إشارة إلى

الثالث والله أعلم بأسرار كتابه .

تمّت السّورة

---

(١) يونس : ٢٦ .

سورة الروم

☼(مكية الا آية « فسبحان الله حين تمسون »)☼

عن أُبيّ بن كعب قال : ومن قرأها كان له من الأجر عشر حسنات
بعدد كل ّملك سبّح لله ما بين السّماء والأرض .

بسم الله الرحمن الرحيم

الم (١) غلبت الروم (٢) فى ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون (٣) فى بضع سنين لله الامر من قبل و من بعد ويومئذ يفرح المؤمنون (٤) بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم (٥) وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن اكثر الناس لا يعلمون (٦) .

وقد ذكرنا في سورة البقرة مفتتحات بعض السورة وبيانها في الجملة ، وقد قيل : أيضاً إنّ هذه الحروف الّتي في أوائل السور لا يعلم تفسيرها إلّا من اُنزل عليه لتنبّه السامع فيقبل بقلبه على الاستماع لأنّ ما بعدها في الأغلب إخبار عن اُمور سيأتي و هو إخبار بالغيب ومعجزة .

ووجه تعلّق هذه السورة بما قبلها أنّ في السورة المتقدّمة قال الله و أمر نبيّه بقوله : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلّا بالّتي هي أحسن » و كان صلّى الله عليه وآله يجادل المشركين بنسبتهم إلى عدم العقل وعنادهم .

وكان أهل الكتاب يوافقون النبيّ صلّى الله عليه وآله في الإله كما قال : « و إلهنا و إلهكم واحد[1] » وكانوا يؤمنون ببعض ما يقوله النبيّ صلّى الله عليه وآله : وشرذمة منهم آمنوا به كما قال سبحانه : « والّذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به [2] » فأبغض المشركون أهل الكتاب وتركوا مراجعتهم وكانوا من قبل يراجعونهم في الاُمور فلمّا وقعت الكرّة على الروم حتّى قاتلهم الفرس وهم المجوس فرح المشركون بذلك لغلبة الفرس أهل الكتاب فأنزل الله هذه الآيات لبيان أنّ الغلبة لا تدلّ على الحقّ وكان ذلك على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله

(١) العنكبوت : ٤٦ .
(٢) « « : ٤٧ .

وساء ذلك المسلمين وكان بيت المقدس لأهل الروم كالكعبة للمسلمين فدفعهم فارس عنه [في أدنى الأرض] وبيت المقدس قريب بأرض العرب .

قوله تعالى : [وهم بعد غلبهم سيغلبون] « وهم » يعني الروم من بعد مغلوبيّتهم من فارس يصيرون غالبين على فارس في بضع سنين بين مدّة أقلّ من عشرة ولا أنقص من سبع سنة يقع هذا الأمر .

و في هذه الآية دلالة على أنّ القرآن من عند الله لأنّ إنباء ما سيكون لايعلم به إلّا الله وقد وقعت بعد السنة التاسعة عام الحديبيّة .

و في الكافي عن الباقر عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية فقال : إنّ لها تأويلاً لا يعلمها إلا الله والراسخون في العلم من آل محمد صلى الله عليه وآله ؛ إنّ رسول الله لمّا هاجر إلى المدينة وأظهر الإسلام كتب إلى ملك الروم كتاباً وبعث به مع رسول يدعوه إلى الإسلام و كتب إلى ملك فارس كتاباً يدعوه إلى الإسلام و بعثه إليه مع رسوله فأتى ملك الروم فعظّم كتاب رسول الله وأكرم رسوله وأمّا ملك فارس فإنّه استخفّ بكتاب رسول الله ومزّقه واستخفّ برسوله و كان ملك الروم يومئذ يقاتل ملك فارس وكان المسلمون يهوون أن يغلب ملك الروم ملك فارس فلمّا غلب ملك فارس ملك الروم كره ذلك المسلمون واغتمّوا به فأنزل الله بذلك الآية . والمراد بأدنى الأرض الشامات وما حولها « وهم من بعد غلبهم سيغلبون » والمراد يغلبهم المسلمون « في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنين بنصر الله ينصر من يشاء » قال : فلمّا غزا المسلمون فارس وافتتحوها فرح المسلمون بنصر الله .

قيل : أليس الله يقول : « في بضع سنين » وقد مضى للمؤمنين سنون كثيرة مع رسول الله و في إمارة أبي بكر وإنّما غلب المؤمنون فارس في إمارة عمر فقال : ألم أقل لك إنّ لهذا تأويلاً وتفسيراً و القرآن ناسخ ومنسوخ أما تسمع لقول الله : « لله الأمر من قبل ومن بعد » يعني إليه المشيّة أن يؤخّر ما قدّم و يقدّم ما أخّر في القول إلى يوم تحتّم القضاء بنزول النصر فيه على المؤمنين وذلك قوله : « و يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » أي يوم تحتّم القضاء .

و في تأويل هذه الآية قول آخر : وهو على قراءة « غلبت » بفتح الغين على المعلوم و في « سيغلبون » على المجهول بضمّ حرف المضارعة وفتح اللاّم وهذا البيان والقول لابن ميثم قال : لقد روينا من طريق علماء أهل البيت في أسرارهم وعلومهم الّتي خرجت منهم إلى علماء شيعتهم أنّ قوماً ينسبون من قريش وليسوا من قريش بحقيقة النسب وهذا ممّا لايعرفه إلّا معدن النبوّة وورثة علم الرسالة و ذلك مثل بني اُميّة أنّهم ليسوا من قريش و إنّ أصلهم من الروم وفيهم تأويل الآية « ألم ※ غلبت الروم » فمعناه أنّهم غلبوا على الملك وسيغلبهم على ذلك بنو العبّاس .

وبالجملة فالبيان الأوّل في خصوص السنة التاسعة عام الحديبية من غلبة الروم على الفرس يكون تفسير ظاهر الآية وهذه الرواية يكون تأويل الآية .

وتمام القصّة عن الزهريّ قال : كان المشركون يجادلون المسلمين بمكّة يقولون : إنّ الروم أهل كتاب وقد غلبهم الفرس وأنتم تزعمون أنّكم ستغلبون بالكتاب الّذي اُنزل إليكم إلى نبيّكم فنحن المشركون سنغلبكم كما غلبت فارس الروم فأنزل الله الآية إلى قوله : « في بضع سنين » قال : فأخبرني عبدالله بن عتبة بن مسعود أنّ أبابكر ناحب أي خاطر بعض المشركين قبل أن يحرم القمار على شيء إن لم تغلب فارس في سبع سنين فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لمَ فعلت ؟ فكلّ مادون العشرة بضع ، فكان ظهور فارس على الروم إلى مدّة تسع سنين ثمّ في العاشرة أظهر الله الروم على فارس زمن الحديبية ففرح المسلمون بظهور أهل الكتاب .

وروى أبوعبدالله الحافظ بالإسناد عن ابن عبّاس في قوله : « ألم ※ غلبت الروم » قال : قد غلبت فارس على الروم ثمّ غلبت الروم على فارس ولقى رسول الله مشركي العرب والتقت الروم و فارس فنصر الله النبيّ صلى الله عليه وآله ومن معه من المسلمين على مشركي العرب ونصر الله أهل الكتاب على مشركي العجم في تلك السنة ففرح المسلمون بنصر الله إيّاهم و نصر أهل الكتاب على العجم . وسألت أباسعيد الخدريّ عن ذلك فقال : التقينا مع رسول الله و مشركو العرب و التقت الروم وفارس فنصرنا الله على مشركي العرب و نصر أهل الكتاب على المجوس ففرحنا بذلك لوقوع النصر لنا ولهم .

وروي أنّ الروم استردّوا بيت المقدس من فارس وأنّ ملك الروم مشى إليه شكراً وبسطت له الرياحين فمشى عليها . و قال الشعبيّ : لم تمض تلك المدّة الّتي عقدها أبوبكر مع اُبيّ بن خلف حتّى غلبت الروم فارساً و ربطوا خيولهم بالمدائن و بنوا الروميّة فأخذ أبوبكر الخطر من ورثته و جاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فتصدّق به .

روي أنّ أبابكر لمّا أراد الهجرة بأهله تعلّق به اُبيّ وأخذ ابنه عبدالله بن أبي‌بكر كفيلاً فلمّا أراد أن يخرج اُبيّ إلى اُحد تعلّق به عبدالله بن أبي‌بكر وأخذ منه ابنه كفيلاً وخرج اُبيّ بن خلف في اُحد جرحه رسول الله وعاد اُبيّ بعد الجراحة إلى مكّة فمات من تلك الجراحة . وجاءت الرواية عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : لفارس نطحة أونطحتان ثمّ لا فارس بعدها أبداً والروم ذات القرون كلّما ذهب قرن خلق قرن إلى آخر الأبد انتهى .

قوله : [بنصرالله ينصر من يشاء و هو العزيز الرحيم] أي يوم يغلب الروم فارساً يكون بنصر الله ينصر من يشاء من عباده و هو الغالب في الانتقام من أعدائه الرحيم بمن هو أهل الرحمة ومن أناب إليه من خلقه .

قوله تعالى : يعلمون ظاهراً من الحيوة الدنيا و هم عن الاخرة هم غافلون (٧) .

أي [يعلمون] منافع الدنيا ومضارّها ومتى يزرعون ومتى يحصدون و كيف يبنون و كيف يجمعون المال وهم جهّال بالآخرة فعمروا دنياهم وخربوا آخرتهم، قيل : بلغ من علم أحدهم بدنياه أن يقلّب الدرهم و الدينار على ظهره فيخبرك بوزنه حتّى القيراط و يعلم الزجر و النجوم وحركات الأفلاك وما يحسن أن يصلّي .

قوله تعالى : أولم يتفكروا فى انفسهم ماخلق الله السماوات والارض ومابينهما الا بالحق واجل مسمى وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون (٨) اولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا اشد منهم قوة واثاروا الارض وعمروها اكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون (٩) ثم كان عاقبة الذين اساءوا السوأى ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن (١٠) .

ثمّ حثّ سبحانه على التفكّر فيما يدل على توحيده من خلق السماوات و الأرض وفي قرون الحالية والأمم الماضية فقال :

[أولم يتفكّروا] عند أنفسهم في حال الخلوة لأنّ الإنسان في تلك الحالة يحضر ذهنه ويتمكّن من التدبّر ، وقيل : معنى الآية : أولم يتفكّروا في خلق الله أنفسهم فيعلموا، وحذف لدلالة الكلام .

قوله : [ماخلق الله السماوات و الأرض إلّا بالحقّ] أي إلّا لإقامة الحقّ وللدلالة على وجود الصانع ومعرفته وإطاعته [وأجل مسمّى] أي لوقت معلوم توفّى فيه كلّ نفس ما كسبت وخلقها في أوقات قدّرها اقتضت المصلحة خلقها فيها .

فلو قيل : كيف يعلم المتفكّر في نفسه أنّ الله لم يخلق عبثاً ؟

فالجواب إنا علم بالنظر في نفسه أنّه محدث مخلوق علم أنّ له محدث قديماً قبله و يستكشف من خلقة بدنه و تركيبه بهذه الكيفيّة المخصوصة أنّ خالق هذا التركيب قادر حكيم لا يعادل حكمته و قدرته أحد مثلاً خلقهم على أحسن تقويم فخلق للإنسان معدةً فيها ينهضم غذاؤه لتقوى به أعضاؤه و لها منفذان : أحدهما لدخول الطعام فيه و الآخر لخروج الطعام منه فإذا دخل الطعام فيها انطبق المنفذ الآخر بعضه على بعض بحيث لا يخرج منه ذرّة ولا بالرشح و تمسكه الماسكة إلى أن ينضج نضجاً صالحاً ثمّ يخرج من المنفذ الآخر ، وخلق تحت المعدة عروقاً دقاقاً صلاباً كالمصفاة الّتي يصفى بها الشيء فينزل منها الصافي إلى الكبد وينصبّ الثفل والدرديّ إلى معى مخلوق تحت المعدة مستقيم متوجّهاً إلى الخروج وما يدخل في الكبد من العروق المذكورة يسمّى الماساريقا بالعبريّة و العبريّة عربيّة مفسودة في الأكثر يقال : لموسى ميشا وللإله إيل، إلى غير ذلك فالماساريقا معناها ماساء ربق ، فاشتمل عليه الكبد وأنضجه نضجاً آخر ويكون مع الغذاء المتوجّهة من المعدة إلى الكبد فضل ماء مشروب ليرقّق و ينذرق في العروق الدقاق المذكورة وفي الكبد ثمّ يستغني الكبد عن ذلك الماء فيتميّز عنه ذلك الماء و ينصبّ من جانب جذبة الكبد إلى الكلية و معه دم يسير تغتذي به الكُلية

وغيرها ثمّ يخرج الدم الخالص من الكبد في عرق كبير ثمّ يتشعّب ذلك النهر الكبير إلى جداول و الجداول إلى سواقٍ و السواقي إلى رواضع و يصل بها إلى جميع البدن و هذه حكمة واحدة جزء من ألف جزء وبهذه كفاية لمن أراد أن يعرف خالقه و حكمته ومن يكون كذلك لابدّ وأن يكون واحداً فاعلاً مختاراً وإلّا لكان عاجزاً عند إرادة شريكه ضدّ ما أراده لأنّ الشريك هل هو قادر على إيجاد أمر هو ضدّ ماأراده شريكه أم لا فإن كان قادراً فالأوّل عاجز وإن لم يقدر فالثاني عاجز و العاجز ناقص لايصلح للإلهيّة .

فبهذا ثبت التوحيد و المبدء وأمّا المعاد لأنّ الإنسان إذا تفكّر في نفسه يرى قواه صائرة إلى الزوال وأجزائه مائلة إلى الانحلال فله فناء ضروريّ كأبيه وأُمّه فلو لم يكن له حياة اُخرى لكان خلقه على هذا الوجه للفناء عبثاً مع هذه المفاسد الّتي باشرها الإنسان في هذه النشأة فلا بدّ و أن يكون له حياة اُخرى و عود آخر للجزاء فثبت المعاد ، ومع ذلك .

[وإنّ كثيراً من النّاس بلقاء ربّهم لكافرون] و بيوم البعث والقيامة جاحدون و غير معترفين به .

ثمّ نبّههم سبحانه تنبيهاً آخر فقال : [أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم] من الاُمم [كانوا أشدّ منهم قوّة] فهلكوا وبادوا فيعتبروا بهم لأنّهم إنّما هلكوا بتكذيبهم وكانوا أقوى منهم [وأثاروا الأرض] وقلّبوها وحرثوها [وعمروها أكثر ممّا عمروها] هؤلاء لأنّهم كانوا أكثر أموالاً منكم وأطول أعماراً وأعداداً وحفروا الأنهار مثل دجلة وفرات و غرسوا الأشجار وشيّدوا القصور و بنوا الدور ثمّ انتقلوا إلى القبور وإلى الهلاك والثبور .

[وجاءتهم رسلهم بالبيّنات] وأتتهم رسلهم بالدلالات الواضحات من عند الله ، وفي الكلام حذف تقديره : فجحدوا الرسل وأشركوا في العبادة فأهلكهم الله بالعذاب [فما كان الله ليظلمهم] بأن يهلكهم من غير استحقاق [ولكن كانوا أنفسهم يظلمون] بأن جحدوا و كذّبوا بآيات الله .

[ثمّ كان عاقبة الّذين أساءوا السوءى] أي أساءوا إلى نفوسهم الخلّة الّتي بسوء صاحبها إذا أدركها وهي عذاب النار [أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون] أي لتكذيبهم واستهزائهم بآيات الله ورسله استحقّوا العذاب الدائم .

قوله تعالى : الله يبدء الخلق ثم يعيده ثم اليه ترجعون (١١) و يوم تقوم الساعة يبلس المجرمون (١٢) ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء و كانوا بشركائهم كافرين (١٣) ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون (١٤) فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون (١٥) واما الذين كفروا و كذبوا بآياتنا ولقاء الاخرة فاولئك في العذاب محضرون (١٦) فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون (١٧) وله الحمد في السموات والارض وعشيا وحين تظهرون (١٨) يخرج الحي من الميت و يخرج الميت من الحي و يحي الارض بعد موتها وكذلك تخرجون (١٩) ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنشرون (٢٠) .

المعنى : ثمّ أكدّ سبحانه بيان الإعادة فقال :

[الله يبدء الخلق ثمّ يعيده] أي يخلقهم ابتداءً ثمّ يعيدهم بعد الموت أحياء كما كانوا [ثمّ إليه ترجعون] للجزاء .

ثمّ بيّن سبحانه ما يكون وقت الرجوع إليه فقال : [و يوم تقوم الساعه يبلس المجرمون * ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين] أي بيّن إبلاسهم ويأسهم و إفلاسهم ومعنى « الإبلاس» يأس مع حيرة ومثّلوا حال المجرم والإبلاس وغرور إبليس بمثال من يكون في بستان وحوله الملاعب و الملاهي و عنده ما يفتخر به و يباهي فيخبره صادق بمجيء عدوّ قويّ لا يردّه رادّ ولا يصدّه صادّ إذا جاءه لا يبلغه ريقاً ولا يترك له إلى الخلاص طريقاً و ينبّهه ذلك المخبر الصادق بسلوك طريق الخلاص ثمّ يقول : له طفل أومجنون أنّ هذه الشجرة الّتي أنت تحتها لنا من الخواص دفع الأعادي عمّن يكون تحتها فيقبل ذلك الغافل على استيفاء ملاذّه معتمداً على الشجرة بقول ذلك الطفل : فيجيء العدوّ ويحيط به فأوّل مايريه العدوّ قلع تلك الشجرة فيبقى هذا الغافل

متحيّراً آيساً فكذلك المجرم في دار الدنيا أقبل على استيفاء اللذّات وأخبره النبيّ الصادق بأنّ الله يجزيه ويأتيه عذاب يخزيه فقال له النفس الأمّارة والشيطان : إنّ هذه الأخشاب و الأحجار الّتي تعبدها دافعة عنك كلّ بأس و شافعة لك عند خمود الحواسّ فاشتغل بما هو غيّه واستمرّ على غيّه حتّى إذا جاءته الطامّة الكبرى فأوّل مايرى إلقاء الأصنام في النار فلا يجد إلى الخلاص من طريق و يحيق عليه عذاب الحريق فييأس أيّ أياس و يبلس أشدّ إبلاس فيكفرون بأصنامهم حينئذٍ .

ثمّ قال سبحانه : [ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرّقون] و« يوم » ظرف « ليتفرّقون» و « يومئذ » بدل منه . ثمّ بيّن سبحانه أمراً آخر و هو التفرّق بعد الإبلاس و تميّز بينهم ويجعل فريق في الجنّة وفريق في السعير ويتفرّقون أصحاب اليمين عن أصحاب الشمال هؤلاء في أعلا علّيّين وهؤلاء في أسفل السافلين وهو قوله :

[فأمّا الّذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون] يسرّون بكلّ مسرّة ومنه كلّ حبرة تتبعها عبرة وإنّما أعاد قوله : « و يوم تقوم الساعة » لأنّها أمر هائل فكرّره تأكيداً للتخويف ولذا اعتاد الخطباء تكرير يوم القيامة في الخطب لتذكير أهواله. « والروضة » البستان المتناهي منظراً و طيباً .

وقيل : معنى « يحبرون » أي يكرمون . وقيل : يلذّذون بالسماع .

وعن يحيى بن كثير والأوزاعي : أخبرنا أبو الحسن عبيدالله بن محمّد بن أحمد البيهقيّ قال : أخبرنا جدّي أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقيّ قال : حدّثنا أبو سعيد عبدالملك بن أبي عثمان الزاهد قال : أخبرنا أبو الحسن عليّ بن بندار قال : حدّثنا جعفر بن محمّد بن الحسن القربانيّ قال : حدّثنا سليمان بن عبدالرحمن الدمشقي قال : حدّثنا خالد بن زيد بن أبي مالك عن أبيه عن خالد بن معدان عن أبي أمامة الباهليّ أنّ رسول الله ﷺ قال : ما من عبد يدخل الجنّة إلّا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين تغنّيانه بأحسن صوت ماسمعه الإنس والجنّ وليس بمزمار الشيطان ولكن بتمجيد الله وتقديسه .

وعن أبي الدرداء قال : كان رسول الله ﷺ يذكّر الإنسان فذكر الجنّة وما فيها من الأزواج والنعيم وفي القوم أعرابيّ فجثا على ركبتيه وقال : يا رسول الله أهل في الجنّة

من سماع ؟ قال : نعم ، يا أعرابي إنّ في الجنّة نهراً حافتاه الأبكار من كلّ بيضاء يتغنّين بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها قطّ فذلك أفضل نعيم الجنّة قال الراوي : سألت أبا الدرداء بمَ يتغنّين ؟ قال : بالتسبيح .

وعن إبراهيم : إنّ في الجنّة لأشجاراً عليها أجراس من فضّة فإذا أراد أهل الجنّة السماع بعث الله ريحاً من تحت العرش فيقع في تلك الأشجار فتحرّك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طرباً .

و عن أبي هريرة قال : قال رسول الله : الجنّة مائة درجة ما بين كلّ درجتين منها كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها سموّاً وأوسطها محلّة و منها تنفجر أنهار الجنّة فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله إنّي رجل حبّب إليّ الصوت فهل في الجنّة صوت حسن ؟ فقال صلى الله عليه وآله : إي والّذي نفسي بيده إنّ الله يوحي إلى شجرة في الجنّة أن أسمعوا عبادي الّذين اشتغلوا بعبادتي و ذكري عن عزف البرابط والمزامير فيرفع صوت لم يسمع الخلائق بمثله قطّ من تسبيح الربّ .

وبالجملة ثمّ أخبر سبحانه بعد حال المؤمنين حال الكافرين فقال : [و أمّا الّذين كفروا و كذّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأُولئك في العذاب محضرون] أي بدلائلنا وبالقيامة « محضرون » ولفظ الإحضار لايستعمل إلّا فيما يكره الإنسان يقال : أُحضر فلان مجلس القضاء إذا جيء به لما لا يؤثره و منه حضور الوفاة .

ثمّ ذكر سبحانه ما يدرك به النجاة و الجنّة فقال : [فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * و له الحمد في السماوات والأرض وعشيّاً وحين تظهرون] وهذا خبر والمراد به الأمر أي فسبّحوه ونزّهوه عمّا لايليق به أو ينافي تعظيمه من صفات النقص بأن تصفوه بما لا يليق من الصفات والأسماء ، والإمساء الدخول في المساء وهو مجيء ظلام اللّيل والإصباح نقيضه وهو الدخول في الصباح ، وله الثناء والمدح في السماوات والأرض أي هو المستحقّ لمدح أهلها لإنعامه عليهم ، وسبّحوا في العشيّ وحين تدخلون في الظهيرة وهي نصف النهار .

وههنا بيان في معنى « سبحان » ولفظه أمّا لفظه « فعلان » اسم للمصدر الّذي هو

التسبيح سمّي التسبيح سبحان وجعل علماً له.وأمّا المعنى فقال بعض المفسّرين : المراد منه الصلاة أي صلّوا وقالوا : أشار إلى الصلوات الخمس . و قال بعضهم : أراد به التنزيه أي نزّهوه في هذه الأوقات وإنّما خصّ هذه الأوقات بالذكر والحمد وإن كان حمده واجباً في جميع الأوقات لكنّ الإنسان ما دام في الدنيا لا يمكن أن يصرف جميع أوقاته إلى التسبيح لكونه محتاجاً إلى اُمور منها الأكل والشرب وتحصيل المأكول والمشروب فأشار الله إلى أوقات إذا أتى العبد بتسبيح الله فيها أدرك الأوّل و الآخر والأوسط فكأنّه لم يفتر مثل الملائكة الّذين ملازمون للتسبيح على الدوام .

واعلم أنّ في وضع الصلاة في أوقاتها وركعاتها و هيآتها حكمة بالغة وقد شرحها العلماء في كتب أسرار الصلاة على القول بأنّ الآية تدلّ على الصلوات الخمس فقوله تعالى : « حين تمسون » يقتضي المغرب والعشاء الآخرة وقوله : « وحين تصبحون» يقتضي صلاة الصبح « وعشيّاً » يقتضي صلاة العصر « وحين تظهرون » صلاة الظهر ، عن ابن عبّاس ومجاهد . و إذا كان المراد من التسبيح والتحميد مطلق ذكر الله فهو حسن في كلّ وقت و في هذه الأوقات المخصوصة أحسن .

وفي رواية مسنداً إلى رواة العامّة عن النبيّ صلى الله عليه وآله من قال وقت منامه مرّة :«سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر » تكتب له ألف حسنة ومن قال خلف كلّ صلاة مكتوبة عشر مرّات : سبحان الله وعشر مرّات الحمد لله وعشر مرّات الله أكبر الله أكبر اُدخل الجنّة .

واعلم أنّ الله له صفات لازمة لا من فعله وصفات ثابتة له من فعله :

فالاُولى صفات كمال وجلال و خلافها نقص مثلاً إذا أدرك المكلّف بأنّ الله لا يجوز أن يخفى عليه شيء لكونه عالماً بكلّ شيء فقد نزّهه عن الجهل ووصفه بضدّه وإذا عرفه بأنّه سبحانه لا يعجز عن شيء لكونه قادراً على كلّ شيء فقد نزّهه عن العجز وإذا بان له أنّه لا يسبقه العدم لاتّصافه بالقدم فقد نزّهه و هكذا فحينئذ إذا قال قائل متحضّراً بقلبه : سبحان الله ، متنبّهاً لما يقوله من كونه منزّهاً له عن كلّ نقص فإتيانه بهذا التسبيح على هذا الوجه من الإجمال يقوم مقام إتيانه به على سبيل التفصيل فكأنّه هذا العبد المسبّح

بهذه الكيفية مسبح طول عمره ومدة بقائه إذا ثبت على هذه العزيمة فيخلع بخلع الكرامة من ربه الكريم وكما أن العبد ينزه الله في أول النهار وآخره و وسطه فإن الله يطهره في أوله وهو دنياه وآخره وهو عقباه و في وسطه و هو حالة كونه في قبره وهو مغناه .

وأما الثانية وهو صفات الفعل فالإنسان إذا نظر إلى خلق الله السماوات يعلم أنها نعمة و كرامة ورزق فيقول : الحمد لله ، أو رأى الشمس ويعلم أنها نعمة وعافية للدنيا فيقول: الحمد لله ، و كذلك القمر والماء و كل حيوان ونبات فيقول : الحمد لله ، ولو أن الإنسان لو حمد الله على كل شيء على حدة لا يفي عمره به فإذا استحضر في ذهنه النعم التي لا تحصى كما قال : «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها(١)» ويقول : الحمد لله ، متنبهاً بالنعم فهذا الحمد على وجه الإجمال يقوم منه مقام الحمد على سبيل التفصيل فهذا الحامد بهذا الترتيب مع عزمه على دوام الحمد وثبوته كالمستغرق في الحمد طول دهره وقد وعد الله سبحانه الشاكر الحامد بالزيادة له فهو مستغرق في كرامة الله و كذلك المتدبر في صفات الأفعال فكل مايقع عقله من حقيقته فينبغي أن يقول : الله أكبر بما أدركه وأتصوره بعقلي لأن عقلي لا يدرك جميع المدركات و عاجز عن إدراكات لا نهاية لها فإذا أراد أن يقول على سبيل التفصيل: الله أكبر من هذا الذي أدركته من هذا الوجه وأكبر مما أدركته من ذلك الوجه طول عمره فلا يفي فيقول على وجه الإجمال : الله أكبر من كل شيء من مدركاتي و إليه الإشارة بقوله : العجز عن درك الإدراك إدراك ، فهذا خاصية التسبيح والحمد وبه الكفاية.

قوله تعالى : [يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي] و في تعلق الآية بما تقدم أن الإنسان عند الإصباح يخرج من شبه الموت وهو النوم إلى شبه الوجود وهو اليقظة وعند العشاء يخرج الإنسان من اليقظة إلى النوم .

واختلف المفسرون في قوله : « يخرج الحي من الميت » قيل : يخرج الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة و كذلك الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان ، وقال بعضهم : المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن أو اليقظان من النائم والنائم من اليقظان .

(٢) النحل : ١٨ .

[و يحيي الأرض بعد موتها و كذلك تخرجون] و يحيي الأرض بالنبات بعد جدوبها و كما أحيا الأرض بالنبات كذلك يحييكم وتخرجون من قبوركم أحياء .

[ومن آياته أن خلقكم من تراب] أي خلق آدم الّذي هو أبوكم وأصلكم من تراب ثمّ خلقكم منه [ثمّ إذا أنتم] ذرّيّة [بشر تنتشرون] من لحم ودم تنبسطون في الأرض وتنصرفون على ظهرها وتتفرّقون في أطرافها فهلّا دلّكم هذا الأمر على أنّه لا يقدر على ذلك غيره وهو مستحقّ أن يعبد لا غيره .

قوله تعالى : ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة و رحمة ان فى ذلك لايات لقوم يتفكرون (٢١) و من آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم والوانكم ان فى ذلك لايات للعالمين (٢٢) ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان فى ذلك لايات لقوم يسمعون (٢٣) ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء من ماء فيحيى به الارض بعد موتها ان فى ذلك لايات لقوم يعقلون(٢٤) ومن آياته ان تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون (٢٥).

المعنى : قوله : [ومن آياته] عطف على ما تقدّم من تنبيه العباد على شواهد القدرة ودلائل التوحيد كإخراج الحيّ من الميّت وإحياء الأرض بعد الإماتة و خلق آدم الّذي هو أصلنا من تراب الّذي هو أبعد الأشياء والعناصر عن درجة الأحياء و ذلك من حيث كيفيّته فإنّ التراب باردٌ يابس والحياة بالحرارة والرطوبة و كذلك من حيث لونه فإنّ التراب كدرٌ والروح نيّر ومن حيث فعله فإنّه ثقيل والأرواح الّتي بها تحصل لها الحياة خفيفة ومن حيث السكون فإنّ التراب بعيد عن الحركة غايةً والحيوان متحرّك يمنة ويسرة وخلفاً وقدّاماً فثبت أنّ التراب أبعد من قبول الحياة مادّة عن سائر العناصر لأنّ الماء فيه الصفاء والرطوبة والحركة و كلّها على طبع الأرواح والنار أيضاً أقرب إلى الحياة لأنّها كالحركة الغريزيّة منضجة جامعة مفرّقة و كذا الهوى أقرب إلى الروح والحياة لخفّته ولطافته فهو سبحانه بقدرته خلق آدم من أبعد الأشياء عن مرتبة الأحياء

حيّاً هو في أعلى المراتب من الأجسام والنبات والحيوان و كيف لا يكون وهو المسبّح و الحامد لله وقد شابه هذا الخلق الملائكة المسبّحين فهذه آية من شواهد ربوبيّته ووحدانيّته .

وأيضاً [من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها] أي جعل لكم شكلكم أنفسكم وجنسكم أزواجاً لأنّ الشكل إلى الشكل أميل

و قيل : معناه أنّ حوّاء خلقت من ضلع آدم « لتسكنوا إليها » أي لتأتلفوا بها ويستأنس بعضكم بعضاً .

[وجعل بينكم مودّة ورحمة] يريد بين المرأة و زوجها فهما يتوادّان و يتراحمان و يحبّ أحدهما الآخر من غير رحم بينهما و نسب و المودّة تفضي إلى الرحمة فإنّ الزوجة قد تخرج عن محلّ الشهوة بكبر أومرض ويبقى قيام الزوج بها وبالعكس وليس ذلك إلّا بجعله سبحانه فيهما [إنّ في ذلك] خلق الأزواج بهذه الكيفيّة المطبوعة [لآيات] لأهل التدبّر والفكر .

[ومن آياته خلق السماوات والأرض] ولمّا بيّن سبحانه دلائل الأنفس ذكر سبحانه دلائل الآفاق وأظهر دلائلها خلق السماوات والأرض فإنّ بعض الكفّار يقول ويناقش في خلق البشر و غيره أنّه بسبب ما في العناصر من الكيفيّات ولكن لا يقدر أن يقول: خلق السماوات بسبب امتزاج العناصر ، لأنّها ليست من العناصر .

[واختلاف ألسنتكم وألوانكم] فإنّ واحداً منهم مع كثرة عددهم لا يشتبه بغيره مع أنّ الغير قد حصل له في الخلقة ما حصل لمثله و كذلك اختلاف الألسنة واختلاف كلامهم فإنّ عربيّين هما أخوان إذا تكلّما بلغة واحدة يعرف أحدهما من الآخر حتّى أنّ من يكون محجوباً عنهما لا يبصرهما يقول : هذا صوت فلان وهذا صوت فلان الآخر ، و فيه حكمة بالغة و ذلك لأنّ الإنسان يحتاج إلى التمييز بين الأشخاص ليعرف صاحب الحقّ من غيره والعدوّ من الصديق و ذلك قد يكون بالبصر فخلق اختلاف الصور وقد يكون بالسمع فخلق اختلاف الأصوات وأمّا اللّمس والشمّ والذوق فلا يفيد هذه الفائدة فلا يقع بها التميز .

وقيل : المراد اختلاف اللّغات كالعربيّة والفارسيّة والروميّة والأوّل أصحّ .

ثمّ قال : [إنّ في ذلك لآيات للعالمين] .

ثمّ قال : [ومن آياته] الدالّة على توحيده [منامكم باللّيل والنهار وابتغاؤكم من فضله] لمّا ذكر بعض العرضيّات اللازمة و هو الاختلاف ذكر في هذه الآية الأعراض المفارقة ومن جملتها النوم باللّيل والحركة طلباً للرزق بالنهار وابتغاء الفضل و المعاش والتقدير : ومن آياته منامكم وابتغاؤكم باللّيل والنهار من فضله [إنّ في ذلك لآيات لقوم يسمعون] ذلك فيقبلونه ويتفكّرون في الأدلّة .

[ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزّل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها] ذكر سبحانه في هذه الآية العرضيّات الّتي في الآفاق فيرى الإنسان من العوارض الآفاقيّة أمطاراً هاطلة وبروقاً هائلة و كما أنّ في إنزال المطر و إنبات الشجر منافع كذلك في تقدّم البرق والرعد على المطر منفعة وذلك لأنّ البرق إذا لاح فالّذي لا يكون تحت كنّ (١) يخاف الابتلاء فيستعدّ له خوفاً من الصواعق وطمعاً في الغيث والّذي له زرع ويحتاج إلى الماء أو مصنع أو صهريج فيصلح مجاري الماء ويطمع في السقي وأيضاً أهل البوادي والعرب منهم لا يعلمون البلاد المعشبة إن لم يكونوا قد رأوا البروق اللائحة من جانب دون جانب والبرق فيه آية عظيمة لأنّه يخرج من السحاب و ليس في السحاب إلّا ماء وهواء وخروج النار منهما بحيث تحرق الجبال أمر عظيم .

قالت الفلاسفة : السحاب فيه كثافة فإذا هبّت ريح قويّة تخرّق السحاب بعنف فيحدث صوت الرعد و يخرج منه النار كمساس جسم بجسم بعنف و هذا كما أنّ النار يخرج من وقوع الحديد على الحجر .

فالجواب أنّه هب كما يقولون فهبوب الريح القويّة من الأمور الحادثة الّتي لابدّ من سبب وينتهي إلى خالق الأسباب فهو آية على قدرة الله كيف ماكان .

قوله تعالى : [فيحيي به] بذلك الماء [الأرض بعد موتها] بعد انقطاع الماء الأرض وجدوبها [إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون] أي للعقلاء المكلّفين .

---

(١) الكن ـ بالكسر ـ الستر .

[ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره] بلادعامة تدعمها ولاعلاقة تتعلّق بهما بأمره سبحانه لهما بالقيام كقوله : «إنّما أمرنا لشيء إذا أردناه» .

وقيل : أي بفعله وإمساكه إلّا أنّ أفعال الله يضاف إليه بلفظ الأمر لأنّه أبلغ في الاقتدار ومعنى القيام الثبات والدوام يقال : السوق قائمة .

فإن قيل : إنّها تتحرّك في مكانها كالرحى ولكن اتّفق العقلاء على أنّها في مكانها لاتخرج عن مكانها وهذه آية ظاهرة لأنّ كونهما في الموضع الّذي هما فيه وعلى الموضع الّذي هما عليه من الأمور الممكنة و كونهما في غير ذلك الموضع جائز فكان يمكن أن يخرجا منه فلمّا لم يخرجا كان ذلك ترجيحاً للجائز على غيره و ذلك لايكون إلّا بتقدير فاعل مختار .

[ثمّ إذا دعاكم دعوة من الأرض] أي من القبر عن ابن عبّاس ، يأمر الله سبحانه إسرافيل فينفخ في الصور بعدما يصوّر الصور في القبور فيخرج الخلائق كلّهم من قبورهم [إذا أنتم تخرجون] من الأرض أحياء وعبّر ذلك بالدعاء إذ هو بمنزلة الدعاء وبمنزلة «كن فيكون» في سرعة تأتي ذلك وامتناع التعذّر .

قوله تعالى : وله من في السموات والارض كل له قانتون (٢٦) وهو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الاعلى في السموات والارض وهو العزيز الحكيم (٢٧) ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فانتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الايات لقوم يعقلون (٢٨) بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله ومالهم من ناصرين (٢٩) فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون (٣٠) .

ولمّا ذكر الدلائل الّتي مفادها الحشر وهي الأصل الآخر والتوحيد وهو الأصل الأوّل أشار بأنّ له وملكه كلّ من في السماوات وكلّ من في الأرض و نفس السماوات والأرض فكلّ منقادون قانتون مطيعون له طوعاً و كرهاً في الحياة والبقاء والموت و البعثة

والخلقة وإن عصوا في العبادة ولو كان له شريك لكان الشريك منازعاً له وممائلاً وماكان يحصل اختصاص الملكيّة من السماوات والأرض له سبحانه .

[وهو الّذي يبدء الخق ثمّ يعيده وهو أهون عليه] أي يخلقهم إنشاءً و يخترعهم ابتداءً ثمّ يعيدهم بعد أن يفنيهم ثمّ أكّد بيان الإعادة بعد الإفناء بقوله : « وهو أهون عليه » يعني الإعادة هيّن وسهل عنده كقوله : « الله أكبر » يعني الله كبير لايدانيه أحد في كبريائه قال الفرزدق :

إنّ الّذي سمك السماء بنى لنا ❊ بيتاً دعائمه أعزّ وأطول

أي عزيزة طويلة . و قيل : المعنى على صيغة التفضيل و معناه أنّ الإعادة أهون من الإبداء فإذا كان الإبداء سهلاً فالإعادة أهون و أسهل ، و الهيّن هو مالا يتعب فيه الفاعل .

ثمّ قال سبحانه : [وله المثل الأعلى] أي وله الصفات العليا في السماوات والأرض وهي لاإله إلّا هو وحده لاشريك له وله الوصف العجيب الشأن الّذي ليس لغيره مايساويه أويدانيه أحد . في توحيد الصدوق عن الصادق عليه السلام : « ولله المثل الأعلى » الّذي لايشبهه شيء ولا يوصف ولايتوهّم فذلك المثل الأعلى .

وفي العيون عن الرضا عليه السلام أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال لعليّ عليه السلام : وأنت المثل الأعلى . وفي رواية قال صلى الله عليه وآله في آخر خطبة : نحن كلمة التقوى وسبيل الهدى و المثل الأعلى . وفي زيارة الجامعة الجواديّة عليه السلام : السلام على أئمّة الهدى و مصابيح الدّجى وأعلام التقى و ذوي النهى واُولي الحجى و كهف الورى وورثة الأنبياء والمثل الأعلى إلى قوله : « و المثل الأعلى » .

قوله : [في السماوات والأرض] يعني يصفه به ما فيهما أجمع نطقاً و دلالة [وهو العزيز الحكيم] الغالب على أمره الكامل في قدرته .

ثمّ احتجّ على المشركين فقال : [ضرب لكم] أيّها المشركون [مثلاً من أنفسكم] أي بيّن ذلك المثل شبهاً لحالكم و أنفسكم [هل لكم ممّا ملكت أيمانكم] من عبيدكم و إمائكم [من شركاء فيما رزقناكم] من المال والأملاك والنعم أي هل يقدرون أن يشاركونكم

فيها ؟ [فأنتم فيه سواء] أي هل أنتم وعبيدكم وإمائكم فيما أعطيناكم سواء .

[تخافونهم كخيفتكم أنفسكم] أي هل تخافون أن يشاركونكم هؤلاء العبيد فيما ترثونه من آبائكم وفيما حصل لكم من أموالكم كما تخافون من أحراركم وذوي قرابتكم؟ لأنّ الرجل يخاف شريكه الحرّ في المال الّذي يكون بينهما أن ينفرد دونه فيه بأمر و كما يخاف الرجل شريكه في الميراث أن يشاركه لأنّه يحبّ أن ينفرد به فهو يخاف شريكه ، ومعنى « أنفسكم » أي أمثالكم من الأحرار كقوله : « ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً »[1] أي بأمثالهم .

وحاصل المعنى أنّه كما لايشارك العبد الحرّ كذلك لايشارك هذه الأصنام المنحوتة المخلوقة الخالق القادر و كما أنّكم لاترضون في عبيدكم أن يكونوا شركاء كم في أموالكم فكيف تجعلون لربّكم الّذي خلقكم أن يكون له شركاء في العبادة وهذه الآية نزلت بعد تلبية قريش بهذه التلبية الّتي علّمها إبليس وهي : « لبّيك اللهمّ لبّيك لا شريك لك إلّا شريك هولك تملكه وماملك» فأنزل الله هذه الآية ردّاً عليهم وإنكاراً لقولهم فما تدّعون إلهيّته و تعبدونه لايملك خردلة ولا يعظّم بالعبادة مثل ذلك العبد الّذي لا يشاركم في المال .

[كذلك نفصّل الآيات] أي كما ميّزنا و بيّنّا لكم نفصّل الأدلّة والبيان لأهل العقل والتدبّر .

ثمّ قال سبحانه مبيّناً : [بل اتّبع الّذين ظلموا أهواءهم] في الشرك [بغير علم] يعلمونه جاءهم من الله أو بيان من رسله بل صرف اتّباع هوى أنفسهم و اقتفاء آبائهم [فمن يهدي] أي من يهدي إلى الثواب والجنّة [من أضلّ الله] عن ذلك .

وقيل : معناه إنّ الله الّذي هو خالقهم ورازقهم والمنعم عليهم مع ما نصب لهم من الأدلّة وما اهتدوا فمن يهديهم بعد ذلك الضلال عن أبي مسلم وهو من قولهم : أضلّ فلان بعيره يعني ضلّ بعيره عنه وهو كقول الشاعر :

هبوني امرءاً منكم أضلّ بعيره * له ذمّة إنّ الذمام كبير

(١) النور : ١٢ .

و إنّما المعنى ضلّ بعيره عنه [و مالهم من ناصرين] ينصرونهم و يدفعون عنهم العذاب إذا حلّ بهم .

ثمّ خاطب نبيّه والمراد جميع المكلّفين و قال : [فأقم وجهك للدين]أقم قصدك و توجّهك للدين و كن معتقداً له ودم على الاستقامة و الخلوص [حنيفاً] أي مائلاً إلى الدين ثابتاً عليه لاترجع فيه إلى غيره .

[فطرة الله الّتي فطر الناس عليها] أي الزم فطرة الله وهي التوحيد فإنّ الله خلق الناس عليه حيث أخذ منهم العهد في ظهر آدم من ذرّاتهم وسألهم : «ألست بربّكم فقالوا بلى »

وقيل : معناه اتّبع من الدين مادلّك عليه فطرة الله وهو ابتداء خلقة الأشياء لأنّه خلقهم وصوّرهم على وجه صانع حكيم يستدلّ بهذه الخلقة على صانعها و الفطرة دلّت على هذا المعنى .

[لاتبديل لخلق الله] أي لاتغيير لدين الله الّذي أمر الناس بالثبات عليه من اُصول الدّين وقالوا : إنّ «لا» ههنا بمعنى النهي أي لاتبدّلوا دين الله الّذي اُمرتم بالثبات عليه وقيل : المراد به النهي عن الخصاء عن ابن عبّاس وعكرمة .

ويحتمل أن يكون المعنى خلق الله الخلق لعبادته وهم كلّهم عبيد ولا خروج للخلق عن العبادة والعبوديّة ؛ وهذا البيان يفسد قول من يقول : العبادة لتحصيل الكمال و العبد يكمل بالعبادة فإذا كمل لايبقى عليه تكليف . و كذلك يفسد قول المشركين : إنّ الناقص لايصلح لعبادة الله وإنّما الإنسان عبد الكواكب والكواكب عبيد الله فنحن نعبد الكواكب والأصنام ، و كذلك يفسد قول النصارى : إنّ عيسى عليه السلام حلّ الله فيه وصار إلهاً فقال سبحانه : لا تبديل لخلق الله الّذي خلقهم له و هو أن يعبدوه خاصّة ولا يشركوا به شيئاً .

[ذلك الدين القيّم] أي ذلك هو الدين المستقيم الّذي لاعوج فيه [ولكنّ أكثر النّاس لايعلمون] لعدولهم عن النظر والتدبّر .

قوله تعالى : منيبين اليه و اتقوه و اقيموا الصلوة ولا تكونوا من المشركين(٣١)من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون(٣٢)

واذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه ثم اذا اذاقهم منه رحمة اذا فريق منهم بربهم يشركون (٣٣) ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون (٣٤) أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون (٣٥).

الإنابة الانقطاع إلى الله بالطاعة ومنه الناب لأنّه قاطع المعنى أي فأقيموا وجوهكم حال كونكم منقطعين وراجعين إلى الله لأنّ مخاطبة النبيّ يدخل فيها الأُمّة ولذا أتى بلفظ الجمع والدليل عليه قوله : «ياأيّها النبيّ إذا طلّقتم النساء» [واتّقوه و أقيموا الصلاة] أي إذا أقبلتم عليه فلا تأمنوا فتتركوا عبادته بل خافوه والزموا التقوى وداوموا على العبادة وإقامة الصلاة .

[ولاتكونوا من المشركين] بعد الإيمان ولا تقصدوا بذلك غيرالله [من الّذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً] ولاتكونوا من الّذين وقع فيهم الاختلاف في دينهم وصاروا ذوي أديان مختلفة فصار بعضهم يعبدوثنا وبعضهم يعبد ناراً وبعضهم يعبد شمساً إلى غيرذلك [كلّ حزب بما لديهم فرحون] أي أهل كلّ ملّة بماعندهم من الدين راضون ومسرورون ومعجبون يظنّون أنّهم على حقّ . وقوله : «شيعاً» يعنى فرقةً فرقةً وحزباً حزباً .

قوله تعالى : [وإذا مس الناس ضرّ دعوا ربّهم] أي إذا أصابهم مرضٌ أوفقر أوشدّة دعوا الله نادوا ربّهم منقطعين و [منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه] من الضرّ ، و الضمير في «منه» راجع إلى الضرّ [رحمة] بأن يعافيهم من المرض أويعافيهم من الفقر وينجيّهم من الشدّة [إذا فريق منهم بربّهم يشركون] يعودون إلى عبادة غيرالله ويقابلوا النعم بالكفران .

ثمّ بيّن سبحانه أنّهم يفعلون ذلك [ليكفروا بما آتيناهم] من النعم إذ قابلوا النعم بالكفران [فتمتّعوا فسوف تعلمون] أي انتفعوا بنعيم الدنيا كيف شئتم فسوف تعلمون عاقبة كفركم .

و قيل : إنّ اللام في « ليكفروا » للأمر على سبيل التهديد مثل قوله : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر [(١)] » .

قوله : [أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلّم بما كانوا به يشركون] هذا استفهام

---

(١) العنكبوت : ٢٩ .

مستأنف أي هل هل أنزلنا عليهم برهاناً وحجّة فيسلّطون بذلك البرهان على ما ذهبوا إليه من الشرك وذلك البرهان كأنّه ينطق بصحّة شركهم و يكون لهم حجّة في هذا الأمر يعني لا يقدرون على تصحيح ذلك ولا يمكنهم ادّعاء برهان بل صرف الضلالة والهوى منهم .

قوله تعالى واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها و ان تصبهم سيئة بما قدمت ايديهم اذاهم يقنطون (٣٦) اولم يروا ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ان في ذلك لايات لقوم يؤمنون (٣٧) فآت ذاالقربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله واولئك هم المفلحون (٣٨) وما اوتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عندالله وما اوتيتم من زكوة تريدون وجه الله فاولئك هم المضعفون (٤٠) الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون (٤٠) .

المعنى : لمّا تقدّم ذكر المشركين شرح أحوالهم من البطر عند النعمة والبأس عند الشدّة بقوله :

[وإذا أذقنا الناس] الآية ، أي إذا آتيناهم نعمة من عافية وصحّة جسم أوسعة رزق أوأمن [فرحوابها] وسرّوا بتلك الرحمة [وإن تصبهم سيّئة بما قدّمت أيديهم] وإن أصابهم قحط وبلاء وعقوبة بذنوبهم الّتي قدّموها وسمّي ذلك « سيّئة » توسّعاً لكونه جزاء على السيّئة أولأنّها تسوء بصاحبها [إذاهم يقنطون] وييئسون من رحمة الله وقوله : « بماقدّمت أيديهم » على التغليب فإنّ أظهر العمل وأكثره باليدين .

ثمّ نبّههم سبحانه على معرفته و توحيده فقال : [أولم يروا أنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر] و يوسّعه أولم يعلموا أنّ الكلّ من الله فالمحقّق العارف ينبغي أن لايكون نظره على مايوجد بل إلى من يوجد ويكون فرحه بمن وصل من لطفه إليه .

فإن قيل : الفرح بالنعمة والرحمة مأمور به حيث يقول : « قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا » وههنا ذمّهم على الفرح بالرحمة فكيف ذلك ؟

فالجواب أنّ هناك فرحوا برحمة الله من حيث إنّها مضافة إلى الله وههنا فرحوا بنفس

الرحمة والنعمة حتّى مثلاً لوكان المطر من غيرالله لكان فرحهم به مثل فرحهم بما إذا كان من الله مثاله كما أنّ الملك لو وضع عند أمير رغيفاً على السماط أو أمر الغلمان بأن يحطّوا عنده زبديّة طعام أو دجاجة مشويّة يفرح ذلك الأمير به ولو أعطى الملك فقيراً غير ملتفت إليه رغيفاً أوزبديّة طعام فيفرح الفقير أيضاً لكن فرح الأمير بكون ذلك من الملك وفرح الفقير بكون ذلك رغيفاً وزبديّة .

وبالجملة فهو الّذي يبسط ويضيّق ويقدر على حسب مايقتضيه مصالح العباد [إنّ في ذالك] في بسط الرزق لقوم و تضييقه لقوم آخرين [لآيات] و دلالات [لقوم يؤمنون] بالله .

ثمّ خاطب فقال : [فآت ذا القربى حقّه و المسكين وابن السبيل] وأعط يا محمّد ذوي قرباك حقوقهم الّتي جعلها الله لهم من الأخماس عن مجاهد والواقديّ و روى أبوسعيد الخدريّ وغيره أنّه نزلت هذه الآية في حقّ فاطمة عليها السلام ولمّا نزلت هذه الآية على النبيّ صلى الله عليه وآله أعطى فاطمة فدكاً وسلّمه إليها وهو المرويّ عن الصادق و الباقر عليهما السلام « والمسكين وابن السبيل» يعني وآت المسكين والمسافر المحتاج مافرض الله لهم من مالك ، و قيل : إنّه خطاب له صلى الله عليه وآله ولغيره و المراد قرابة الرجل وهو أمر بصلة الرحم ولكن لمّا قال سبحانه: « فآت ذا القربى حقّه » ثمّ عطف المسكين وابن السبيل ففي الآية دلالة في تعظيم حقّ ذي القربى بالنسبة إلى المسكين و ابن السبيل ولو أنّ العطف اقتضى التشريك كما إذا قال الملك : خلّ فلاناً يدخل يكون في التعظيم فوق ما إذا قال : خلّ فلاناً وفلاناً يدخلان ، و إلى هذا أشار النبيّ صلى الله عليه وآله بقوله : «بئس خطيب القوم أنت» حيث قال الرجل : من أطاع الله ورسوله فقد اهتدى ومن عصاهما فقد غوى ولم يقل ومن عصى الله ورسوله انتهى .

قوله تعالى : [ذلك خيرٌ للذين يريدون وجه الله] يمكن أن يكون معناه ذلك خير من غيره ويمكن أن يكون خيرٌ في نفسه فيكون بمعنى الوصفيّة لا الأفضليّة و معنى الثاني أولى لعدم الاحتياج إلى الإضمار و لكونه أكثر فائدة لأنّ الخير من الغير قد يكون نازل الدرجة كما يقال : السكوت خيرٌ من الكذب وقوله : «للذين يريدون» إشارة إلى أنّ الاعتبار بالقصد لابنفس الفعل فإنّ من أنفق جميع أمواله رياء الناس لاينال درجة

من يتصدّق برغيف لله ، يريدون بذلك وجه الله يعني رضاه ولا يطلبون بها المكافاة من أحد غير الله [أُولئك هم المفلحون] أي هم الفائزون بالجنّة .

قوله تعالى : [وما آتيتم من رباً ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله] قيل : في الرباء المذكور في الآية قولان : أحدهما إنّه ربا حلال وهو أن يعطي الرجل العطيّة أو يهدي الهديّة ليثاب وينتفع أكثر منها فليس فيه أجر ولا وزر، عن ابن عبّاس وطاوس وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام .

والقول الآخر أنّه الربا المحرّم فعلى هذا يكون المعنى « يمحق الله الربى ويربي الصدقات » قال الرازيّ : يعني إذا طلب منكم واحداً باثنين ترغبون فيه و تؤتونه وذلك لا يربو عند الله ولكنّ الصدقة تنمو عند الله كما أخبر النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّ الصدقة تقع في يد الرحمن فتربو حتّى تصير مثل الجبل فينبغي أن يكون إقدامكم على الصدقة أكثر .

قوله تعالى : [وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاُولئك هم المضعفون] أي وما أعطيتموه أهله على وجه الزكاة تريدون بذلك الإعطاء ثواب الله ورضاه ولا تطلبون بها المكافاة والعوض فأهلها هم المضعفون يضاعف لهم الثواب و قيل : المضعفون ذوو الأضعاف في الحسنات . وقيل : معناه هم المضعفون للمال في العاجل والثواب في الآجل لأنّ الله سبحانه جعل الزكاة سبباً لزيادة المال ؛ في الحديث : إنّ الملك يدعو اللهمّ أعط كلّ منفق خلفاً و كلّ ممسك تلفاً ومنه الحديث : ما نقص مال من صدقة وقال أمير المؤمنين: فرض الله تعالى الصلاة تنزيهاً عن الكبر والزكاة تسبيباً للرزق و الصيام ابتلاء لإخلاص الخلق أي لتبيّن إطاعتهم وخلوصهم وصلة الأرحام منماة للعدد .

قوله : [الله الّذي خلقكم] عاد سبحانه إلى دليل التوحيد أي أنشأكم وأوجدكم [ثمّ رزقكم] وأعطاكم أنواع النعم [ثمّ يميتكم] بعد ذلك ليصحّ إيصالكم إلى ما عرّضكم له من الثواب الدائم [ثمّ يحييكم] ليجازيكم على أفعالكم [هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء] أي هل من شركائكم الّتي عبدتموها من دونه تقدر على هذه الأمور فيجوز لذلك توجّه العبادة إليه ؟

ثمّ نزّه سبحانه نفسه عن أن يشرك معه في العبادة فقال : [سبحانه و تعالى عمّا يشركون] .

قوله تعالى : ظهر الفساد فى البر والبحر بماكسبت ايدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون(٤١)قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان اكثرهم مشركين (٤٢) فأقم وجهك للدين القيم من قبل ان يأتي يوم لامرد له من الله يومئذ يصدعون (٤٣) من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلا نفسهم يمهدون (٤٤) ليجزى الذين آمنوا و عملوا الصالحات من فضله ان الله لايحب الكافرين (٤٥).

المعنى : لمّا بيّن أنّ الكفّار يشركون في العبادة غير الله أخبر سبحانه أنّ إظهارهم الشرك مورث لظهور الفساد ولوفعل بهم مايقتضيه قولهم وفعلهم لفسدت السماوات والأرض كما قال : « تكاد السماوات يتفطّرن منه وتنشقّ الأرض و تخرّ الجبال هدّاً» و إلى هذا المعنى أشار بقوله : « ليذيقهم بعض الّذي عملوا » فذكر ما أصاب الخلق بسبب ترك التوحيد وارتكاب المعاصي فقال :

[ظهر الفساد] أي ظهر قحط المطر و قلّة النبات [في البرّ] حيث لا يجري نهر و البرّ البوادي و أصل البرّ من البرّ لأنّه يبرّ بصلاح المقام فيه و كذلك البرّ لأنّه يبرّ بصلاحه في الغذاء أتمّ صلاح [والبحر] وهو كلّ قرية على شاطىء نهر عظيم فعلى هذا المراد : ظهر الفساد في أهل البوادي وأهل الأمصار وليس المراد « بالبرّ و البحر» في كلّ برّ وبحر في الدنيا و قال الفرّاء : معناه أجدب البرّ وانقطعت مادّة البحر بذنوبهم وشركهم وبما كسبوا من المعاصي وكان ذلك ليذوقوا الشدّة في العاجل وقيل : « البرّ» ظهر الأرض « والبحر » هو المعروف و قيل : فساد البرّ قتل قابيل هابيل و فساد البحر أخذ السفينة غصباًوقيل : ولاة السوء في البرّ والبحر وقيل : فساد البرّ مايحصل فيه من المخاوف المانعة من سلوكه ويكون ذلك بخذلان الله تعالى لأهله وفساد البحر اضطراب أمره وقيل: البرّ البرّيّة والبحر الرسف والمواضع الخصبة .

قوله : ليصيبهم و [ليذيقهم بعض الّذي عملوا لعلّهم يرجعون] أي ليرجعوا عنها في

المستقبل أو ليرجع من يأتي بعدهم عن المعاصي إذا سمع ماصنع بمن سلف من آبائهم .

[قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبل] قل يا محمّد ، «سيروا» ليس بأمر ولكنّه مبالغة في العظة أوأمر على سبيل الاستحباب وروي عن ابن عبّاس أنّه قال : من قرأ القرآن و فهمه سار في الأرض لأنّ فيه أخبار الأمم فتدبّروا كيف صنع بهم من قبل من الملوك العاتية والقرون العاصية كيف أهلكهم الله وصارت قصورهم قبورهم ومحاضرهم مقابرهم .

ثمّ بيّن العلّة أنّه سبحانه فعل بهم لسوء صنيعهم فقال : [كان أكثرهم مشركين] واعلم أنّ العذاب العاجل لم يختصّ بالمشركين حين يقع وقد يكون العذاب بالفسق و المخالفة كما كان على أهل السبت و غيرهم كما قال سبحانه : « و اتّقوا فتنة لا تصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصّة[1] » بل كان على الصغار والمجانين ولكنّ الأغلب في عذاب الاستيصال بسبب الشرك .

قوله تعالى : [فأقم وجهك للدين القيّم] لمّا نهى الكافر عمّا هو عليه أمر المؤمن بما هو عليه و خاطب النبيّ للتشريف و ليعلم المؤمن فضيلة ما هو مكلّف به فإنّ هذا التكليف اُمر به أشرف الأنبياء كما قال صلّى الله عليه وآله : إنّ الله أمر عباده المؤمنين بما أمر به عباده المرسلين أي استقم للدين المستقيم بصاحبه إلى الجنّة [من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له] أي لايقدر على ردّه أحد «من الله» أي يأتي من الله [يومئذ يصّدّعون] أصله يتصدّعون ويتفرّقون فريق في الجنّة وفريق في السعير .

ثمّ أشار إلى التفرّق بقوله تعالى : [من كفر فعليه كفره] أي عقوبة كفره عليه لا يعاقب أحد بذنبه [ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون] أي بالعمل الصالح يوطّئون لأنفسهم منازلهم يقال : مهّدت لنفسي خيراً . و هذا توسّع ومن أصلح عمله فكأنّه فرش لنفسه في القبر وسوّى مضجعه ومثواه .

وروى منصور بن حازم عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إنّ العمل الصالح ليسبق صاحبه إلى الجنّة فيمهّد له كما يمهّد لأحدكم خادمه فراشه .

---

(١) الانفال : ٢٥ .

قوله : [ليجزي الّذين آمنوا و عملوا الصالحات من فضله] أي ليجزيهم (متعلّق يصدّعون) على قدر استحقاقهم ويزيدهم من فضله وبسبب فضله لأنّه تعالى خلقه وهداه ومكّنه [إنّه لايحبّ الكافرين] لايريد كرامتهم جزاءً على كفرهم .

قوله تعالى : ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (٤٦) ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين (٤٧) الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذاهم يستبشرون (٤٧) وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين (٤٩) فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك لمحي الموتى وهو على كل شيء قدير (٥٠) .

أي ومن أفعاله الدالّة على معرفته [أن يرسل الرياح مبشّرات] كأنّها ناطقات بالبشارة بالخير والمطر ومنفعة الزرع وصلاح الأهوية و الأحوال فإنّ الرياح لولم تهب لظهر الفساد والوباء والعفونات .

[وليذيقكم من رحمته] أي ليبشّركم بالمطر وهذه المنافع المذكورة ويصيبكم من رحمته بالمطر ، وعبّر بالإذاقه لأنّ الإذاقة يقال في القليل ولمّا كان مطلق نعم الدنيا و راحتها بالنسبة إلى نعم الآخرة نزر عبّر سبحانه بالإذاقة [ولتجري الفلك بأمره] ولمّا أسند الفعل إلى الفلك عقّبه بأمره أي الجري بأمره [ولتبتغوا] الخير [من فضله] أي ابتغاء الخير لابدّ و أن يكون من فضله ولا استقلال لشيء بشيء [و لعلّكم تشكرون] نعم الله .

ثمّ خاطب نبيّه تسليةً له فقال :[ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً] ولم يكن لهم شغلٌ غير شغلك ولم يظهر عليهم غيرما ظهر عليك [فجاءوهم بالبيّنات] وأتوا لقومهم دلائل على نبوّتهم فمن كذّبهم أصابهم البوار ومن آمن بهم كان لهم الانتصار فكان في قومهم كافرٌ و مؤمن كما في قومك .

[فانتقمنا من] الكافرين و نصرنا المؤمنين [و كان حقّاً علينا نصر المؤمنين] وهذه

بشارة للمؤمنين الّذين آمنوا بمحمّد ﷺ وجاءت الرواية عن اُمّ الدرداء أنّها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : مامن امرىء مسلم يردّ عن عرض أخيه إلّا كان حقّاً على الله أن يردّ عنه نارجهنّم يوم القيامة ثمّ قرأ ﷺ « وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين » .

ثمّ قال سبحانه : مفسّراً لما أجمله في الآية المتقدّمة : [الله الّذي يرسل الرياح فتثير سحاباً] فمن شواهد القدرة أنّه سبحانه يهيّىء ويرسل الرياح فتهيج سحاباً فتزعج السحاب و يجعل من الهواء اللطيف الّذي يشقّه البقّ بسبب التموّج يصير بحيث يقلع الشجر بل الجبل وهو ليس بذاته كذلك بل بفعل فاعل مختار ويحصل من هبوب الرياح إثارة السحب ويبسط السحب مسيرة يوم وأكثر ويجريها إلى أيّ جهة شاء .

[و يجعل] السحاب [كسفاً] أي قطعاً متفرّقة أو مترا كباً بعضه على بعض و تغلظ بحيث تغطّي ضوء الشمس [فترى الودق] أي القطر [يخرج من خلاله] أي من خلال السحاب [فإذا أصاب به] أي بذلك الودق [من يشاء من عباده إذاهم يستبشرون] ويفرحون ويبشّر بعضهم بعضاً [وإن كانوا من قبل أن ينزّل عليهم من قبله لمبلسين] يعني و إنّهم كانوا من قبل إنزال المطر عليهم قانطين وآيسين من نزول المطر والتكرار في «من قبله» قيل : للتأكيد وقيل : من قبل إنزال المطر و « من قبله » أي قبل إرسال الريح .

[فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض] حتّى أنبتت شجراً و مرعى و صارت الأرض خصبة مريعة [بعد موتها] بعد أن كانت يابسةً مواتاً و جعل سبحانه الجدوبة و اليبس للأرض بمنزلة الموت وظهور النبات فيها بمنزلة الحياة توسّعاً .

[إنّ ذلك لمحيي الموتى وهو على كلّ شيء قدير] أي وهو الله ليحيي الموتى في الآخرة بعد كونهم رفاتاً وأمواتاً وإنّما عبّر بقوله تعالى : «لمحيي الموتى» باللام المؤكّدة وباسم الفاعل لأنّ الإنسان إذا قال : إنّ الملك يعطيك لا يفيد ما يفيد قوله : إنّه معطيك لأنّ قوله: معطيك يفيد أنّه أعطاك وهو متّصف بالعطاء، وقوله : يعطيك يفيد أنّه سيتّصف به كما في قوله : « إنّك ميّت » آكد من قوله : «إنّك تموت» والغرض تحقيق وقوع الإحياء بعد الإماتة .

قوله تعالى : و لئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون(٥١) فانك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعا اذا ولوا مدبرين (٥٢) وما انت

بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون (٥٣) الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق مايشاء وهو العليم القدير (٥٤) ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون (٥٥) .

المعنى : ثمّ عاب كافر النعمة فقال :

[ولئن أرسلنا ريحاً] مؤدّية إلى الهلاك للزرع باردة [فرأوا] النبت والزرع الّذي كان من أثر رحمة الله [مصفرّاً] من البرد بعد الخضرة و قيل : إنّ « الهاء » يعود إلى السحاب أي فرأوا السحاب مصفرّاً لأنّه إذا كان مصفرّاً لم يكن فيه مطر [لظلّوا من بعده] أي لصاروا من بعد أن كانوا مستبشرين [يكفرون] بالله وبنعمته ولم يرضوا بقضاء الله .

وسمّى النافعة الرياح والضارّة الريح لأنّ الرياح النافعة تهبّ في أغلب الأوقات ليلاً ونهاراً وأكثر أفراداً والريح الضارّ كالسموم وأمثاله أقلّ أفراداً وأيضاً إنّ النافعة لايكون إلّا رياحاً فإنّ مايهبّ مرّةً واحدة لايصلح الهواء ولاينشىء السحاب ولايجري السفن وأمّا الضارّة تقتل بنفحة واحدة كريح السموم ولذلك قال في المضرّة : ريح وفي النافعة : رياح .

ثمّ بعد أن علّم رسول الله أنواع الأدلّة و أصناف الأمثلة و وعد وأوعد ولم يزدهم دعاؤه إلّا فراراً و أبوه إلّا كفراً وإصراراً قال له : [فإنّك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصمّ الدعاء إذا ولّوا مدبرين] شبّههم في ترك تدبّرهم فيما يدعوهم إليه النبيّ تارةً بالأموات وتارة بالصمّ لأنّهم لايسمعون إذا أعرضوا عن أدلّتنا ذاهبين إلى الضلال .

[وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم] أي لاتقدر على ردّهم عن العمى والكفر إذلم يطلبوا الاستبصار [إن تسمع إلّا من يصدّق بآياتنا] فإنّهم المنتفعون بدعائك [فهم] منقادون [مسلمون] لأمرك .

ثمّ أعاد ذكر الأدلّة فقال : [الله الّذي خلقكم من ضعف] أي من نطف وقيل : معناه خلقكم أطفالاً لاتقدرون على البطش والمشي والتصرّفات [ثمّ جعل من بعد ضعف قوّة] وشباباً [ثمّ جعل من بعد قوّة ضعفاً وشيبة] يعني حال الشيخوخة والكبر [يخلق مايشاء] من ضعف وقوّة [وهو العليم] بما فيه مصالح خلقه [القدير] على فعله .

ثمّ بيّن حال البعث فقال : [ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون] أي يحلف المشركون

[مالبثوا] في القبور [غيرساعة] أومالبثوا في الدنيا « غيرساعة» فإن قيل : كيف يحلفون ما مكثوا «غيرساعة» مع أنّ معارفهم في الآخرة ضروريّة ؟ لأنّهم استقلّوا الدنيا لما عاينوامن أمرالآخرة وعلموا دوامها فكأنّهم قالوا : ماالدنيا في الآخرة إلّا ساعة أو أنّ ذلك القول منهم : قبل أن تصير معارفهم ضروريّة وقبل أن يعرفوا حقيقة الأمر على حسب الكمال وبكمل عقولهم ، عن أبي بكربن الأخشيد .

وللرازيّ بيان لطيف في الآيتين : هذه الآية ومابعدها وهو أنّ الموعود بوعد إذا ضرب له أجل يستكثر الأجل ويزيد تعجيله والموعود بوعيد إذا ضرب له أجلُ يستقلّ المدّة ويطلب تأخيرها فالمجرم إذا حشر وعلم أنّ النار مصيره يستقلّ المدّة من اللبث و المؤمن إذا حشرعلم أنّ مصيره إلي الجنّة فيستكثر المدّة وذلك قوله تعالى : « قال الّذين أُوتواالعلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله » فطال علينا وصبرنا .

[كذلك كانوا يؤفكون] أي مثل ذلك الكذب كانوا في دارالدنيا يكذبون و يصرفون جهلهم عن الحقّ في الدارين ومن استدلّ بهذه الآية على نفي عذاب القبر مردود لأنّه يجوز أنّهم يريدون لم يلبثوا بعدالعذاب إلّا ساعة .

قوله تعالى : وقال الذين اوتواالعلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لاتعلمون (٥٦) فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتهم ولاهم يستعتبون (٥٧) ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا ان أنتم الامبطلون(٥٨) كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون (٥٩) فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لايوقنون (٦٠) .

ثمّ أخبرسبحانه عن الّذين آتاهم الله العلم بما نصب لهم من الأدلّة الموجبةللعلم .

القميّ : هذه الآية مقدّمةومؤخّرة وإنّماهو : «وقال الّذين أُوتواالعلم والإيمان في كتاب الله لقد لبثتم إلى يوم البعث » ومعناه : [وقال الّذين أُوتوا العلم]في كتاب الله وهم الّذين يعلمون كتاب الله [والإيمان] من الأنبياء والملائكة للمجرمين : [لقدلبثتم] إلى يوم

البعث [فهذا يوم البعث] الّذي كنتم تنكرونه في الدنيا [ولكنّكم كنتم لاتعلمون] وقوعه في الدنيا فلا ينفعكم العلم به الآن .

[فيومئذ لاينفع الّذين ظلموا أنفسهم] بالكفر [معذرتهم] فلا يمكّنون من الاعتذار ولو اعتذروا لم يقبل عذرهم [ولاهم يستعتبون] أي لايطلب الإعتاب ؛ استعتبني فلان فأعتبته أي استرضاني فأرضيته والرجوع إلى الحقّ والمراد أنّ التوبة والرجوع لاتفيد والعتب من شأنه أن يزيل آثار الجرم و كذلك التوبة ولكن لايطلب منهم ولايقبل .

ثمّ قال : [ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل] إشارة إلى إزالة الأعذار وبيان أنّه لم يبق من جانب الرسول تقصير وبالغ في البيان للمكلّفين في هذا القرآن الّذي أنزلناه على نبيّنا من كلّ مثل يدعوهم إلى التوحيد والإيمان .

[ولئن جئتهم بآية] أي معجزة باهرة ممّا اقترحوها منك [ليقولنّ الّذين كفروا إن أنتم إلّا مبطلون] أي أصحاب أباطيل وهذا إخبار عن عناد القوم و تكذيبهم بالآيات [كذلك] أي مثل ما أنّ قلوب هؤلاء مطبوعة [يطبع الله على قلوب الّذين لايعلمون] توحيد الله ولايعرفون .

[فاصبر] يا محمّد على أذى هؤلاء الكفّار وإصرارهم على كفرهم [إنّ وعد الله حقّ] بالعذاب والتنكيل لأعدائك و النصر و التأييد لك ولدينك [ولا يستخفّنّك الّذين لايوقنون] أي ولا يحملنّك كفر هؤلاء على الخفّة والقلق والعجلة لشدّة الغضب عليهم لكفرهم بآياتك .

تمّت السورة بحمد الله

سورة لقمان

(مكية سوى ثلاث آيات)

فضلها : اُبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : من قرأ سورة لقمان كان لقمان له رفيقاً يوم القيامة واُعطي من الحسنات عشراً بعدد من عمل بالمعروف وعمل بالمنكر .

وروى محمد بن جبير الغرومي عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام قال : من قرأ سورة لقمان في كلّ ليلة وكّل الله به في ليلته ثلاثين ملكاً يحفظونه من إبليس وجنوده حتّى يصبح ومن قرأها بالنهار لم يزالوا يحفظونه من إبليس وجنوده حتّى يمسي .

بسم الله الرحمن الرحيم

الم (١) تلك آيات الكتاب الحكيم (٢) هدى و رحمة للمحسنين (٣) الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم بالاخرة هم يوقنون (٤) اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون (٥) و من الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم و يتخذها هزوآ اولئك لهم عذاب مهين (٦) واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرآ كأن لم يسمعها كان فى اذنيه وقرآ فبشره بعذاب اليم (٧) ان الذين آمنوا و عملوا الصالحات لهم جنات النعيم (٨) خالدين فيها وعدالله حقآ وهو العزيز الحكيم (٩) خلق السموات بغير عمد ترونها والقى في الارض رواسى ان تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم (١٠) هذا خلق الله فاروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين (١١) .

وجه النصب في « هدى » انتصب عن الاسم المبهم على الحال أي [تلك آيات الكتاب] في حال الهداية و الرحمة و يجوز الرفع على إضمار المبتداء أي هو آياته هدىً ورحمة وبيان ونعمة للمطيعين وللّذين يحسنون العمل .

ثمّ وصفهم فقال : المحسنون هم [الّذين يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة] وغير شاكّين بالبعث ومتيقّنين بالآخرة وهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات على سبيل الهداية من ربّهم ومفلحون وناجون من عذاب الله .

ثمّ وصف سبحانه حال من يخالف حاله حال هؤلاء فقال : [ومن الناس من يشتري لهو الحديث] نزلت الآية في النضر بن الحارث بن علقمة بن عبدالدار بن قصيّ بن كلاب

كان يتّجر فيخرج إلى فارس فيشتري أخبار الأعاجم ويحدّث بها قريشاً ويقول لهم : إنّ محمّداً يحدّثكم بحديث عادٍ وثمود وأنا اُحدّثكم بحديث رستم وإسفنديار وأخبار الأكاسرة فيتوجّهون إلى حديثه ويتركون استماع القرآن .

وقيل : نزلت في رجل اشترى جارية تغنّيه ليلاً ونهاراً ويؤيّده ما رواه أبو اُمامة عن النبيّ قال : لا يحلّ تعليم المغنّيات ولا بيعهنّ وأثمانهنّ حرام وقد نزل تصديق ذلك في كتاب الله : « ومن الناس من يشتري (١) » الآية ثمّ قال صلى الله عليه وآله : والّذي نفسي بيده ما رفع رجل عقيرته يتغنّى إلّا ارتدفه شيطانان و يضربان أرجلهما على صدره حتّى يسكت .

وبالجملة فأكثر المفسّرين على أنّ المراد بلهو الحديث الغناء وهو قول ابن عبّاس وابن مسعود وغيرهما ، وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبدالله وأبي الحسن الرضا عليهم السلام قالوا : منه الغنا وروي أيضاً عن الصادق عليه السلام أنّه قال : هو الطعن في الحقّ والاستهزاء وماكان أبوجهل و أصحابه يجيئون به إذ قال : يا معشر قريش ألا اُطعمكم من الزقّوم الّذي يخوّفكم به محمّد ثمّ أرسل إلى زبد وتمر فقال : هذا هو الزقّوم الّذي يخوّفكم به فعلى هذا فإنّه يدخل فيه كلّ شيء يلهي عن سبيل الله وعن طاعته من الأباطيل والمزامير والملاهي والمعازف ويدخل فيه السخريّة بالقرآن واللّغو فيه والترّهات والبسابس على ماقاله عطاء و كلّ لهو و لعب على ما قاله قتادة و الأحاديث الكاذبة و الأساطير الملهية عن القرآن على ما قاله الكلبيّ وروى الواحديّ بالإسناد عن نافع عن ابن عمر أنّه سمع النبيّ صلى الله عليه وآله في هذه الآية : «ومن الناس من يشتري لهو الحديث » قال : باللّعب والباطل كثير النفقة سمح فيه ولا تطيب نفسه بدرهم يتصدّق به وروى أيضاً بالإسناد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من ملأ مسامعه من غناء لم يؤذن له أن يسمع صوت الروحانيّين يوم القيامة قيل : وما الروحانيّون يا رسول الله ؟ قال : قرّاء أهل الجنّة انتهى .

قوله : [ليضلّ عن سبيل الله] أي ليضلّ غيره ومن أضلّ غيره فقد ضلّ هو قال ابن عبّاس : سبيل الله قراءة القرآن و ذكر الله [ويتّخذها هزوًا] أي يتّخذ آيات القرآن

(١) البقرة : ٢٠٧ .

وسبيل الله هزؤاً يستهزىء بها [أُولئك لهم عذاب مهين] مذلّ يهينهم الله به .

[و إذا تتلى عليهم آياتنا] وقرىء القرآن عليه [ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها] أي أعرض عن سماعه إعراض من لا يسمعه وهو سامع رافعاً نفسه فوق مقدارها [كأنّ في أُذنيه وقراً] كأنّ في مسامعه ثقلاً يمنعه عن سماع تلك الآيات [فبشّره] يا محمد [بعذاب أليم] مؤلم موجع في القيامة فأعلمه بأنّ العذاب المفرط في الإيلام لاحق به لا محالة ، والتعبير بالبشارة للتهكّم .

قوله تعالى : [إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات] بيان لحال المؤمنين إثر بيان حال الكافرين بالآيات أي « الّذين آمنوا » و صدّقو بآياته « وعملوا » بموجبها [لهم] بمقابلة إيمانهم وأعمالهم [جنّات النعيم] أي جنان ذات نعمة أو المعنى « نعيم جنّات » فعكس للمبالغة وتوحيد العذاب وجمع الجنّات إشارة إلى أنّ الرحمة والرحمة واسعة أكثر من الغضب وأيضاً تنكير العذاب وتعريف الجنّة بالإضافة إلى المعرّف إشارة إلى أنّ الرحيم عرّف النعمة إيصالاً للراحة إلى القلب وما بيّن النقمة بل نبّه عليها تنبيهاً .

وأكّد الوعد بقوله : [خالدين فيها وعد الله حقّاً] أي وعد وعداً حقّاً لا خلف فيه [وهو العزيز] الغالب في انتقامه [الحكيم] في جميع أفعاله وأحكامه ولا يفعل إلّا ما يقتضيه الحكمة .

ثمّ قال : [خلق السماوات بغير عمد ترونها] إذ لو كان لها عمد لرأيتموها لأنّها لو كانت كانت أجساماً حتّى تصحّ منها أن تقلّ السماوات ولو كانت كذلك لاحتاجت إلى عمد آخر فكان يتسلسل فإذاً لا عمد لها .

و قيل : إنّ المراد : بغير عمد مرئيّة والمعنى أنّ لها عمداً لا ترونها ، و الصحيح الأوّل .

واعلم أنّ أكثر علماء الإسلام يقولون : إنّ السماوات مبسوطة كصحيفة مستوية والمهندسون والغزاليّ قالوا : مستديرة وقالوا : يؤيّد قولنا : « كلٌّ في فلك يسبحون » والفلك اسمٌ لشيء مستدير وعلى الاختلاف سواء كانت مستديرة أو مسحفة فهي مخلوقة بقدرة الله لا موجودة بإيجاب وطبع لأنّ السماء في فضاء و كون السماء في بعض الفضاء

دون بعض ليس إلّا بقدرة مختار متصرّف .

قوله تعالى : [وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم] أي جعل فيها جبالاً ثابتة راسخة كراهية أن تتحرّك وتزول عن موضعها بسبب المياه والرياح واوخلقها مثل الرمل لما كانت تثبت للزراعة كما ترى الأراضي الرملة ينتقل الرمل الّذي فيها من موضع إلى موضع [وبثّ فيها] وفرّق في الأرض [من كلّ دابّة] تدبّ وتتحرّك على وجهها من أنواع الحيوانات [وأنزلنا من السماء ماء] أي غيثاً ومطراً [فأنبتنا فيها] في الأرض بذلك الماء [من كلّ زوج كريم] أي من كلّ صنف حسن البنية طيّب الثمرة فسكون الأرض فيه مصلحة وكذلك حركة الدوابّ فأسكنّا الأرض وحرّكنا الدوابّ ولوكانت الأرض متحرّكةومتزلزلة لكانت الدابّة الّتي لاتعيش فيموضوع تقع ذلك الموضع فيكون فيه هلاكها ، أمّا إذا كانت الأرض ساكنة و الحيوانات متحرّكة تتحرّك في المواضع الّتي تناسبها وترعى فيهاوتعيش .

والعدول من المغايبة إلى النفس بقوله : «وأنزلنا » فيه فصاحة لصنعة الالتفات لأن السامع إذا سمع كلاماً طويلاً من نمط واحد ثمّ ورد عليه نمط آخر يستطيبه ألا ترى أنّك إذا قلت : قال زيد كذا و كذا و قال خالد كذا و كذا وقال عمر كذا و كذا ثمّ إنّ بكراً قال قولاً حسناً يستطاب لما قد تكرّر القول مراراً .

[هذاخلق اللهفأروني ماذا خلق الّذين من دونه] يعني اللهخالق و غيره ليس بخالق، فكيف تتركون عبادة الخالق وتشتغلون بعبادة المخلوق ؟

ثمّ قال : [بل الظالمون في ضلال مبين] المعنى إنّ العادلين والظالمين لا يجدون لهذا الكلام جواباً ولا يمكنهم أن يشيروا إلىخالق غيره وهم فيضلالة وقد وضعوا الشيء في غير موضعه .

قوله تعالى : ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غنىحميد (١٢) واذ قال لقمان لابنه وهويعظه يابنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم (١٣) و وصينا الانسان بوالديه حملته امه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المصير (١٤) وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما

وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب الي ثم الي مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون (١٥) .

ولمّا ذكر سبحانه الأدلّة الدالّة على قدرته وحكمته بيّن قصّة لقمان وما آتاه من الحكمة فقال :

[ولقد آتينا لقمان الحكمة] أي أعطيناه العقل و إصابة الأُمور واختلف فيه فقيل : إنّه كان حكيماً ولم يكن نبيّاً عن ابن عبّاس وجماعة من المفسّرين و قال عكرمة والسدّي والشعبيّ : إنّه كان نبيّاً وفسّروا الحكمة هنا بالنبوّة و قيل : إنّه كان عبداً حبشيّاً أسود غليظ المشافر في زمن داود عليه السلام وقال : له بعض الناس : ألست كنت ترعى معنا فقال : نعم قال: فمن أين أُوتيت ما أري قال : قدر الله وأداء الأمانة وصدق الحديث والصمت عمّا لا يعنيني وقيل : إنّه كان ابن أُخت أيّوب وقيل : كان ابن خالة أيّوب .

وروى نافع عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله يقول : حقّاً أقول لم يكن لقمان نبيّاً ولكن كان عبداً كثير التفكّر حسن التدبّر و حسن اليقين أحبّ الله فأحبّه و منّ عليه بالحكمة كان نائماً نصف النهار إذ جاءه نداء : يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس بالحقّ فأجاب الصوت إن خيّرني ربّي قبلت العافية ولم أقبل البلاء و إن عزم عليّ سمعاً و طاعة فإنّي أعلم أنّه إن فعل بي ذلك أعانني و عصمني فقالت الملائكة : بصوت لا يريهم لِمَ يا لقمان ؟ قال : لأنّ الحكم أشدّ المنازل وأكدّها يغشاه الظلم من كلّ إن وقى فبالحري أن ينجو و إن أخطأ أخطأ طريق الجنّة و من يكن في الدنيا ذليلاً و في الآخرة شريفاً خير من أن يكون في الدنيا شريفاً و في الآخرة ذليلاً ومن يختر الدنيا على الآخرة تفته الدنيا ولا يصيب الآخرة فتعجّب الملائكة من حسن منطقه فنام نومة فأُعطي الحكمة فانتبه يتكلّم بها ثمّ كان يوازر داود بحكمته فقال له داود عليه السلام : طوبى لك يا لقمان أُعطيت الحكمة وصرفت عنك البلوى .

قوله : [أن اشكر لله] أي قلنا له : أن أشكر لله على ما أعطاك من الحكمة القمّي عن الصادق عليه السلام إنه سئل عن لقمان وحكمته الّتي ذكرها الله عزّ وجلّ فقال : أما والله ما أُوتي لقمان الحكمة بحسب ولا حال ولا أهل ولا بسط في جسم ولا جمال ولكنّه كان

رجلاً قوياً في أمر الله متورّعاً في الله ساكتاً عميق النظر طويل الفكر مستغن عن الغير لم ينم ليلاً قطّ ولا اغتسال لشدّة تستّره وتحفّظه في أمره ولم يضحك في شيء مخافة الإثم ولم يغضب قطّ ولم يمازح إنساناً قطّ ولم يفرح بشيء إن أتاه من أمر الدنيا ولا حزن منها على شيء قطّ وقد نكح من النساء وولد له الأولاد الكثير وقدّم أكثرهم ـ أي مات ـ إفراطاً فما بكى على موت أحد منهم ولم يمرّ برجلين يختصمان ويقتتلان إلّا أصلح بينهما ولم يمض عنهما حتّى تحابّا ولم يسمع قولاً من أحد استحسنه إلّا سأل عن تفسيره وعمّن أخذه فكان يكثر مجالسة الفقهاء والحكماء وكان يغشي القضاة والملوك والسلاطين فيرثي القضاة فيما ابتلوا به ويرحب الملوك والسلاطين لعزّتهم بالله وطمأنينتهم في ذلك ويعتبر ويتعلّم ما يغلب به نفسه ويجاهد هواه ويحترز به من الشيطان ويداوي قلبه بالتفكّر والعبر فبذلك أُوتي الحكمة ومنح العصمة فغشي بالحكمة من قرنه إلى قدمه .

قوله تعالى : [ومن يشكر فإنّما يشكر لنفسه] بيّن سبحانه أنّ الشكر لاينتفع به إلّا الشاكر وبيّن أنّ بالكفران لا يتضرّر غير الكافر فقال : [ومن كفر فإنّ الله غنيّ حميد] أي الله غير محتاج إلى شكر وهو سبحانه في ذاته محمود سواء شكروه الناس أو لم يشكروا .

قوله تعالى : [وإذ قال لقمان لابنه] اذكر إذ قال لقمان لابنه [وهو يعظه] ويؤدّبه ويذكّره : [يابنيّ لا تشرك بالله] ولا تعدل بالله شيئاً في العبادة [إنّ الشرك لظلم عظيم] وأصل معنى الظلم النقصان ومنع الواجب فمن أشرك بالله فقد منع ما وجب لله عليه من معرفة التوحيد وأوبق وظلم نفسه ظلماً عظيماً .

[ووصّينا الإنسان بوالديه] لمّا منعه من العبادة لغير الله والخدمة قريبة من العبوديّة بحسب الصورة بين أنّها غير ممتنعة بل هي واجبة لغير الله في بعض الصور مثل خدمة الأبوين .

ثمّ بيّن السبب فقال : [حملته أُمّه وهناً] يعني لله على العبيد نعمة الإيجاد أبتداءً بالخلق ونعمة الإبقاء بالرزق وجعل بحكمة للأُمّ ماله صورة ذلك وإن لم يكن لها في الحقيقة فإنّ الحمل به يظهر الوجود وبالرضاع يحصل البقاء فقال : «حملته أُمّه» أي

صارت بقدرة الله سبب وجوده [وهناً على وهن] يعني ضعفاً على ضعف ؛ ضعف نطفة الوالد على ضعف نطفة الأمّ وقيل : لإنّ الحمل يؤثّر فيها فكلمّا ازداد الحمل ازدادت ضعفاً على ضعف . و قيل : لأنّها ضعيفة الخلقة فاز دادت ضعفاً بالحمل و شدّة على شدّة وجهد على جهداً .

[وفصاله في عامين] أي وفطامه من الرضاع في انقضاء عامين لأنّ « العامين » كلّه مدّة الرضاع والمراد أنّها بعد ماتلده ترضعه عامين و تربيّه فتلحقها المشقّة بعد المشقّة بذلك فإذا كان منها ماله صورة الوجود والبقاء وجب عليه الخدمة فإنّ الخدمة لها صورة العبادة في الجملة فوصّى الله بالوالدين وذكر السبب في حقّ الأمّ وخصّ الأمّ بالذكر وفي الأب ماوجد في الأمّ فإنّ الأب حمله في صلبه و ربّاه بكسبه سنين فهو أبلغ .

وقوله : [أن اشكر لي ولوالديك] هذا تفسير قوله : «ووصّينا الإنسان» أي وصّيناه بشكرنا وشكر والديه فشكر الله الحمد والطاعة وشكر الوالدين بالبرّ والصلة .

ثمّ بيّن الفرق وقال : [إليّ المصير] يعني نعمتهما مختصّة بالدنيا و نعمتي في الدنيا والآخرة فإنّه « إليّ المصير » والجزاء وقت المصير إليّ .

ثمّ قال : [وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً] أي إنّ خدمتهما واجبة لازمة مالم يكن فيها ترك طاعة الله أمّا إذا أفضى إلى الشرك ومعصية الله فلا .

وفي العيون عن الرضا عليه السلام في حديث وأمر سبحانه بالشكر له و للوالدين فمن لم يشكر والديه لم يشكر الله .

وعن الرضا عليه السلام قال : من لم يشكر المنعم من المخلوقين لم يشكر الله عزّ وجلّ .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام إنّ رجلاً أتى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال يا رسول الله : أوصني فقال : لاتشرك بالله شيئاً وإن حرّقت بالنار وعذبت إلّا وقلبك مطمئنّ بالإيمان و والديك فأطعهما وبرّهما حيّين كانا أوميّتين وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك فافعل فإنّ ذلك من الإيمان وعنه عليه السلام جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال : يارسول الله من أبرّ ؟ قال : أمّك قال : ثمّ من ؟ قال : أمّك قال : ثمّ من قال : أمّك قال : ثمّ من ؟ قال : أباك .

وعن الرضا عليه السلام قيل له : «أدعو لوالدي إن كانا لايعرفان الحق» ؟ قال : ادع لهما وتصدق عنهما وإن كانا حيين لايعرفان الحق فدارهما فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : إن الله بعثني بالرحمة لا بالعقوق .

وفي العيون عنه عليه السلام وبر الوالدين واجب و إن كانا مشركين ولا طاعة لهما في معصية الخالق ولا لغيرهما فإنه ، لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وفي مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام : بر الوالدين من حسن معرفة العبد بالله إذ لاعبادة أسرع بلوغاً بصاحبها إلى رضاء الله من حرمة الوالدين المسلمين لوجه الله تعالى لأن حق الوالدين مشتق من حق الله إذا كانا على منهاج الدين و السنة بشرط أن لا يمنعان الولد من طاعة الله إلى معصية ومن اليقين إلى الشك ومن الزهد إلى الدنيا ولايدعوانه إلى خلاف ذلك فإذا كانا كذلك فمعصيتهما طاعة وطاعتهما معصية قال الله : «وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما » وأما في باب العشرة والمرافقة فدارهما و احتمل أذاهما نحو ما احتملا عنك في حال صغرك ولا تضيق عليهما بما قد وسع الله عليك في المأكول و الملبوس ولا تحول بوجهك عنهما ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما فإن تعظيمهما من الله وقل لهما بأحسن القول وألطفه فإن الله لايضيع أجر المحسنين .

[واتبع سبيل من أناب] أي واسلك طريقة من رجع إلى طاعتي واقبل [إلي] بقلبه وهو النبي والمؤمنون فإنه مربي عقلك كما أن الوالدين مربي جسمك .

ثم قال سبحانه : [ثم إلي مرجعكم] أي إلى حكمي مرجعكم و منقلبكم [فأنبئكم] وأخبركم [بما كنتم تعملون] من الأعمال في الدنيا وأجازيكم عليها بحسبها .

فصل : في ذكر نبذة من حكم لقمان : ذكر في التفسير أن مولاه دعاه فقال : له أذبح لي شاة وائتني بأطيب مضغتين منها فذبح شاة فأتاه بالقلب واللسان فسأله عن ذلك فقال : إنهما أطيب شيء إذا طابا وأخبث شيء إذا خبثا[١] .

وقيل : إن مولاه دخل المخرج فأطال الجلوس فيها فناداه لقمان إن طول الجلوس على الحاجة يفجع فيه الكبد ويورث منه الباسور ويصعد الحرارة إلى الرأس فاجلس هوناً

(١) في الرواية سقط وتمامه في البحار .

وقم هوناً قال : فكتب حكمته على باب الحش[1] .

قال عبدالله بن دينار : قدم لقمان من سفر فلقي غلامه في الطريق فقال : مافعل أبي ؟ قال : مات قال لقمان : ملكت أمري قال : ما فعلت أمرأتي؟ قال : ماتت قال : جدّد فراشي قال : ما فعلت أُختي؟ قال : ماتت قال: قدسترت عورتي قال : مافعل أخي؟ قال : مات قال : انقطع ظهري .

وقيل للقمان : أيّ الناس شرّ قال : الّذي لايبالي أن يراه الناس مسيئاً .

وقيل له : ما أقبح وجهك ! قال : تعيب على النقش أو على فاعل النقش ؟

وقيل : إنّه دخل على داود وهو يسرد الدرع وقد ليّن الله له الحديد كالطين فأراد أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت فلمّا أتمّها لبسها وقال : نعم لبوس الحرب أنت وقال : الصمت خير وقليل فاعله .

و في كتاب فقيه من لايحضر قال لقمان لابنه : يابنيّ إنّ الدنيا بحر عميق وقد هلك فيها عالم كثير فاجعل سفينتك فيها الإيمان بالله واجعل شراعها التوكّل وزادك تقوى الله فإن نجوت فبرحمة الله و إن هلكت فبذنوبك .

و روى سليمان بن داود المنقريّ عن حمّاد بن عيسى عن الصادق عليه السلام قال : في وصيّة لقمان لابنه : يابنيّ سافر بسيفك وخفّك وعمامتك وخبائك وسقائك وخيوطك وتزوّد معك من الأدوية ماتنتفع به أنت ومن معك وكن لأصحابك موافقاً إلّا في معصية الله يا بنيّ إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتهم في أمرك وأكثر التبسّم في وجوههم و كن كريماً على زادك بينهم فإذا دعوك فأجبهم وإذا استعانوا بك فأعنهم ، واستعمل طول الصمت ، و كثرة الصلاة ،وسخاء النفس بمامعك من دابّة أوماء أوزاد ، وإذا استشهدوك على الحقّ فاشهدلهم ، واجهد رأيك لهم إذا استشاروك ثمّ لاتعزم حتّى تتثبّت وتنظر ، ولاتجب في مشورة حتّى تقوم فيها وتقعد وتنام وتصلّي و أنت مستعمل فكرتك في مشورته فإن من لم يمحّض النصيحة لمن استشاره سلبه الله رأيه ، وإذا رأيت أصحابك يمشون فامش معهم وإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم و اسمع لمن هو أكبر منك سنّاً ، و إذا أمروك بأمر و سألوك شيئاً فقل : نعم ، ولا ؛ تقل ،لافإنّ«لا»عيّ ولوم ، وإذا تحيّرتم في الطريق فانزلوا ، وإذا شككتم في المقصد فقفوا

(١) محل قضاء الحاجة .

تؤامروا ، وإذا رأيتم شخصاً واحداً فلاتسألوه عن طريقكم ولا تسترشدوه فإنّ الشخص الواحد في الفلاة مريب لعلّه يكون من اللصوص أو يكون هو الشيطان الّذي حيّركم ، و احذروا الشخصين أيضاً إلّا أن ترون مالا أرى ؛ فإنّ العاقل إذا أبصر بعينه شيئاً عرف الحقّ ، والشاهد يرى مالا يرى الغائب ، يا بنيّ إذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخّرها لشيء صلّها واسترح فإنّها دين وصلّ في جماعة ولو على رأس زجّ ولا تنامنّ على دابّتك فإنّ ذلك سريع في دبرها ، و ليس ذلك من فعل الحكماء إلّا أن تكون في محمل يمكنك التمدّد لاسترخاء المفاصل فإذا قربت من المنزل فانزل عن دابّتك وابدأ بعلفها قبل نفسك فإنّها نفسك ، و إذا أردتم النزول فعليكم في بقاع الأرض بأحسنها لوناً و ألينها تربةً و أكثرها عشباً ، وإذا نزلت فصلّ ركعتين قبل أن تجلس ، وإذا أردت قضاء حاجتك فأبعد المذهب في الأرض ، وإذا ارتحلت فصلّ ركعتين ثمّ ودّع الأرض الّتي حللت بها وسلّم على أهلها فإنّ لكلّ بقعة من الأرض أهلاً من الملائكة ، وإن استطعت أن لاتأكل طعاماً حتّى تبتدىء فتصدّق منه فافعل و عليك بقراءة كتاب الله مادمت راكباً وعليك بالتسبيح مادمت عاملاً عملاً ، وعليك بالدعاء مادمت راكباً ، وإيّاك أن تسير في أوّل الليل إلى آخره ، وإيّاك أن ترفع الصوت في مسيرك .

قوله تعالى : يابنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أوفى السموات أو فى الارض يات بها الله ان الله لطيف خبير (١٦) يابنى أقم الصلوة وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور (١٧) ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الارض مرحاً ان الله لا يحب كل مختال فخور (١٨) و اقصد فى مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الاصوات لصوت الحمير (١٩) الم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات وما فى الارض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولاكتاب منير (٢٠) .

المعنى : ولأجل أن لا يتوهّم ابنه أنّ مايفعله في الخفية يخفى على الله قال :

[يابنيّ إنّها] أي الحسنة والسيّئة إن كانت في الصغر مثل خردلة و تكون مع ذلك الصغر في موضع حريز كالصخرة لايخفى على الله ، وقرىء «مثقال» بالرفع وقد ألحق علامة

التأنيث في الفعل فباعتبار الحسنة و السيّئة أي إن كانت الحسنة مثقال خردلة يعلمها الله كقوله : « فله عشر أمثالها »(١) .

و يروى أنّ ابن لقمان سأل أباه أرأيت الحبّة تكون في قعر البحر أيعلمها الله ؟ فقال لقمان : «إنّها» أي الّتي سألتني عنها [إن تك مثقال حبّة من خردل فتكن في صخرة] أي جبل أو صخرة عظيمة [أو في السماوات أو في الأرض] ذكر السماوات والأرض بعد ذكر الصخرة وإن كان لابدّ وأن تكون الصخرة في الأرض على وجه التأكيد كما قال : « اقرء باسم ربّك الّذي خلق » ثمّ قال : «خلق الإنسان »(٢) .

وقيل : هذه الصخرة ليست في الأرض وهي تحت سبع أرضين والقائل السدّي قال : إنّها صخرة عظيمة عليها الثور وهي لا في الأرض ولا في السماء وقيل : في الآية تقديم الخاصّ وتأخير العامّ ومثل هذا التقسيم جائز أو المراد أنّه خفاء الشيء يكون بطرق منها أن يكون في غاية الصغر فقوله : « مثقال حبّة » إشارة إلى الصغر ومنها أن يكون من وراء حجاب فقوله : «في صخرة» إشارة إلى هذا المعنى ومنها أن يكون الخفاء بسبب البعد فقوله : « أو في السماوات » إشارة إلى أبعد البعاد و منها أن يكون خفاؤه بسبب الظلمة فقوله : « أو في الأرض » إشارة إلى الظلمات فإنّ جوف الأرض أظلم الأماكن .

وقوله : [يأت بها الله] أبلغ من «يعلمها الله» لأنّه يدلّ على العلم والقدرة .

[إنّ الله لطيف خبير] أي نافذ الحكم والقدرة عالم ببواطن الأمور .

[يابنيّ أقم الصلاة و أمر بالمعروف وانه عن المنكر] لمّا منع و حذّر ابنه من الشرك وخوّفه بعلم الله بالخفيّات أمره بإظهار التوحيد وهو الصلاة والعبادة لوجه الله مخلصاً وبهذا يعلم أنّ الصلاة كانت في الملل السابقة غير أنّ هيئتها اختلفت «وأمر بالمعروف» أي إذا كملت أنت في نفسك بعبادة الله فكمّل غيرك فإنّ شغل الأنبياء وورثتهم من العلماء هو أن يكملوا في أنفسهم ويكمّلوا غيرهم .

---

(١) الانعام : ١٦٠ .
(٢) العلق : ١-٢ .

ثمّ قال : [واصبر على ما أصابك] لأنّ من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يؤذى فأمره بالصبر على مكارهه .

وإذا بغى باغ عليك بجهله ✲ فاقبله بالمعروف لا بالمنكر

[إنّ ذلك من عزم الأمور] المعزومة الواجبة ويكون المصدر بمعنى المفعول كما تقول : أكلي خبز أي مأكولي خبز .

قوله تعالى : [ولا تصعّر خدّك للناس ولاتمش في الأرض مرحاً إنّ الله لا يحبّ كلّ مختال فخور] ثمّ نهاه عن التكبّر على الناس والخيلاء ، ولا تكن مفتخراً عليهم . وأصل الصعر داء يأخذ الإبل في رؤوسها وأعناقها وتلوي عنقها بسبب ذلك الداء وحاصل المعنى أنّه لاتمل وجهك من الناس تكبّراً ولاتمش بطريق البطر والخيلاء إنّ الله لايحبّ كلّ متكبّر فخور على الناس .

[و اقصد في مشيك و اغضض من صوتك إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير] أي واجعل في مشيك قصداً مستوياً على وجه السكون والوقار والتواضع ولا تختال فيه بل امش بطريق التوسّط لا بطريق المتكبّرين ولا بطريق المتماوت الّذي يري من نفسه الضعف تزهّداً .

«واغضض من صوتك» ولمّا كان الإنسان محتاجاً في اُموره كما أنّ الحيوانات كذلك محتاجة في اُمورها بالمشي فأقدرالله للإنسان المشي وقد تكون يعجز عن إدراك مطلوبه فيحصل له ذلك المطلوب بالصوت والنداء كما أنّ الحيوانات تشارك الإنسان في تحصيل المطلوب بالصوت كالغنم تطلب السخلة و البقر العجل والناقة الفصيل بالثغاء و الخوار و الرغاء فإذا كان المشي والصوت مفضيين إلى مقصود واحد فلمّا أرشده إلى أحدهما أرشده إلى الآخر فقال : « واغضض من صوتك » إشارة إلى التوسّط في الأفعال والأقوال .

ثمّ قال : «إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير » لأنّ رفع الصوت يؤذي السامع و يقرع الصماخ بقوّة وآلة السمع على باب القلب والمعنى أنّ أنكر أصوات الحيوانات لصوت الحمير و إلّا فمسّ المنشار بالمبرد وحتّ النحاس بالحديد أشدّ تنفيراً ، و « أنكر » أفعل التفضيل من باب أطوعله وأشدّ من أمثاله لأنّ أفعل ليس في باب العيوب والألوان إلّا ماشذّ . وبالجملة فأقبح الأصوات صوت الحمير أوّله زفير وآخره شهيق .

وقيل : المعنى أراد صوت الحمير من الناس وهم الجهّال شبّههم بالحمير كما شبّههم بالأنعام وروي عن أبي عبدالله عليه السلام قال : هي العطسة المرتفعة القبيحة والرجل يرفع صوته بالحديث رفعاً قبيحاً إلا أن يكون داعياً ويقرء القرآن .

ثمّ نبّههم سبحانه نعمه على خلقه للمعرفة بوحدانيّته فقال : [ألم تروا أنّ الله سخّر لكم ما في السماوات] من الشمس و القمر والنجوم و غيرها [وما في الأرض] من الحيوان والنبات وغير ذلك ممّا تنتفعون وتتصرّفون فيه .

[وأسبغ عليكم] وأوسع لكم وأتمّ عليكم [نعمه ظاهرةً وباطنةً] فالظاهرة مالا يمكنكم جحده من خلقكم وإحيائكم وإقداركم على اُموركم وخلق الشهوة فيكم وغيرها من ضروب النعم والباطنة مالا يعرفها إلّا من أمعن النظر وتدبّر فيها .

وقيل : الباطنة مصالح الدين والدنيا ممّا يعلمه الله وغاب عن العباد علمه .

وفي رواية عن ابن عبّاس قال : سألت النبيّ صلى الله عليه وآله فقال : يا ابن عبّاس أمّا ما ظهر فالإسلام وما سوّى الله خلقك وأفاض عليك من الرزق وأمّا ما بطن فستر مساوي عملك ولم يفضحك به يا ابن عبّاس إنّ الله تعالى يقول : ثلاثة جعلتهنّ للمؤمن ولم تكن له الاُولى صلاة المؤمنين عليه من بعد انقطاع عمله و الثانية جعلت له ثلث ماله اُكفّر به عنه خطاياه و الثالثة سترت مساوي عمله ولم أفضحه بشيء منه ولو أبديتها لنبذه أهله .

و قيل : الظاهرة تخفيف الشرائع و الباطنة الشفاعة ، عن عطا . وقيل : الظاهرة نعم الدنيا و الباطنة نعم الآخرة . و قيل : الظاهرة نعم الجوارح و الباطنة نعم القلب . وقيل : الظاهرة ظهور الإسلام والباطنة الإمداد بالملائكة . و قيل : الظاهرة حسن الصورة و امتداد القامة و تسوية الأعضاء و الباطنة المعرفة . و قيل : الظاهرة القرآن و الباطنة تأويله ومعانيه وقال الباقر عليه السلام : النعمة الظاهرة النبيّ صلى الله عليه وآله وما جاء به من معرفة الله عزّ وجلّ وأمّا النعمة الباطنة ولايتنا أهل البيت وعقد مودّتنا ويجوز حمل الآية على كلّها لأنّ جميعها نعم الله .

وفي الأمالي عن الباقر عليه السلام أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال لعليّ عليه السلام : قل : ما أوّل نعمة أنعمك الله بها ؟ قال : قد خلقني ولم أك شيئاً مذكوراً قال صلى الله عليه وآله : صدقت فما الثانية ؟ قال :

أن أحسن إليّ إذ خلقني فجعلني حيّاً لامواتاً قال : صدقت فما الثالثة ؟ قال : أنشأني في أحسن صورة وأعدل تركيب قال : صدقت فما الرابعة ؟ قال : أن جعلني متفكّراً واعياً لا ساهياً قال : صدقت فما الخامسة ؟ قال : أن هداني الله لدينه ولم يضلّني عن سبيله قال : صدقت فما السادسة؟قال : أن جعل لي مرداً في حياة لاانقطاع لها قال : صدقت فماالسابعة؟ قال : أن جعلني مالكاً لامملوكاً قال : فماالثامنة؟قال : أن سخّر لي سماءه وأرضه ومافيهما وما بينهما من خلقه قال : صدقت فما التاسعة ؟ قال : جعلنا ذكراناً قوّاما على حلائلنا لا إناثاً قال : صدقت فمابعدها ؟ قال : كثرت نعم الله يارسول الله فطابت « و إن تعدّوا نعمة الله لاتحصوها » فتبسّم رسول الله وقال : ليهنئك الحكمة والعلم ياأباالحسن فأنت وارث علمي والمبيّن لاُمّتي ما اختلفت فيه من بعدي ، الحديث .

قوله : [ومن الناس من يجادل] أي يخاصم [في الله بغيرعلم] بما يقوله [ولاهدى] أي ولادلالة وحجّة [ولا كتاب منير] يكون من عندالله واضح ، فالعلم تدخل فيه الأشياء الواضحة الّتي تعلم و الهداية يدخل فيها الّذي يكون في كتاب من الله . و حاصل المعنى أنّ المجادل الجاهل يجادل لابعلم آتيناه من لدنّا كشفاً ولابهدىً أرسلناه إليه وحياً ولا بكتاب يتلى عليه وعظاً .

ووصف الكتاب « بالمنير» لأنّ المجادل قديجادل عن كتاب ولكن يحرّفه أوالكتاب محرّف كالتوراة كما أنّ المجوس و النصارى يقولون بالتثنية و التثليث عن كتابهم وهو محرّف وغلط فذلك الكتاب غيرمنير بل مظلم .

قوله تعالى : واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ماوجدنا عليه اباءنا أو لوكان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير (٢١) ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى و الى الله عاقبة الامور (٢٢) ومن كفر فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ان الله عليم بذات الصدور (٢٣) نمتعهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ(٢٤) و لئن سالتهم من خلق السموات و الارض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون (٢٥) .

بيّن سبحانه أنّ مجادلتهم مع كونها من غير علم فهي في غاية القبح فإنّ النبيّ

صلى الله عليه وآله يدعوهم إلى العلم و كتاب الله وهم يأخذون بكلام آبائهم و [قالوا] نترك القول النازل من الله و[نتّبع] ماقال آباؤنا [أولوكان الشيطان] استفهام على سبيل التعجّب في الإنكار وأُدخل على واوالعطف همزة الاستفهام على وجه الإنكار ، وجواب « لو » محذوف تقديره : هل لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير المشتعل لاتّبعوهم و الشيطان يدعوهم إلى تقليد آبائهم و ترك اتّباع ماجاءت به الرسل وذلك موجب لهم عذاب النار فهو في الحقيقة يدعوهم إلى النار .

ثمّ قال : [ومن يسلم وجهه إلى الله] ويخلص دينه لله و يقصد في أفعاله التقرّب إليه [وهو محسن] فيها ويفعلها على موجب العلم والكتاب والشرع والانقياد إلى أمرالله هوالإسلام والتسليم وذلك يوجب العلم والعمل [فقد استمسك بالعروة الوثقى] التوحيد وولاية عليّ عليه السلام ، فقدتعلّق بالوثيقة المحكمة الّتي لايخشى انفصامها،والوثقى تأنيث الأوثق [وإلى الله عاقبةالأُمور] يعني وعندالله ثواب ماصنع .

[و من كفر فلا يحزنك كفره] لمّا بيّن حال المسلم رجع إلى بيان حال الكافر أي لاتحزن إذا كفر كافر ولايغمّك يامحمّد ذلك [إلينا مرجعهم فننبّئهم بما عملوا] ونخبرهم بأعمالهم ونجازيهم بسوء أفعالهم [إنّ الله عليم بذات الصدور] وبمخفيّات الأُمور ومايضمره الصدور [نمتّعهم قليلاً] أي نعطيهم من متاع الدنيا ونعيمها ما يتمتّعون به مدّة قليلة [ثمّ نضطرّهم إلى عذاب غليظ] نصيّرهم مكرهين إلى عذاب يغلظ عليهم ويصعب وحاصل المعنى أنّ بقاءهم في نعيم الدنيا قليل ثمّ وبال كفرهم وتكذيبهم بأن نسلّط عليهم أغلظ عذاب حتّى يدخلوا بأنفسهم عذاباً غليظاً فيضطرّون إلى عذاب النار فراراً من العذاب الأغلظ ومن الملائكة الغلاظ الشداد الّذين يعذّبونهم بمقامع من نار .

ثمّ قال سبحانه : [ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنّ الله قل الحمد لله] بيّن أنّهم معترفون بأنّ الله خالق السماوات والأرض غير منكرين له فهذا الإقرار يوجب أن يكون الحمد كلّه له لأنّه خالقهما ويحتاج أنّ كلّ ما في السماوات والأرض أن يعبده ويلزم أن لايعبد غيره ومع ذلك يشركون غيره معه في العبادة .

[بل أكثرهم لايعلمون] هذا ولا يتعقّلون وليس لهم علم يمنعهم من تكذيبك

مع أنّهم معترفون بأنّ الله خالقهما وهذا الاعتراف تكذيب أنفسهم وتصديقك ومع ذلك لايعلمون .

لله ما في السموات والارض ان الله هو الغني الحميد (٢٦) ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم (٢٧) ماخلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة ان الله سميع بصير (٢٨) الم ترأن الله يولج الليل في النهار و يولج النهار في الليل و سخر الشمس و القمر كل يجري الى اجل مسمى و ان الله بما تعملون خبير (٢٩) ذلك بأن الله هو الحق و أن ما يدعون من دونه الباطل و أن الله هو العلي الكبير (٣٠) .

ثمّ أكدّ بيان خالقيّته ومالكيّته بقوله : [لله ما في السماوات والأرض] لأنّ ما فيهما لمن خلقهما لأنّ من يملك أرضاً فكلّ ماحصل من تلك الأرض لصاحب الأرض و هو مالكه فكذلك كلّ ما في السماوات و الأرض و حاصل فيهما و منهما فهو لمالك السماوات والأرض فتحقّق أنّ العبوديّة له خاصّة .

قوله : [إنّ الله هو الغنيّ الحميد] أي غير محتاج إلى الحمد ولا ينتفع بحمد الحامدين لكن للحامد منافع ، وحميد أي شكور لأنّه يقضي حوائجكم و مصالحكم ، وهو حميد أي محمود .

لمّا قال الله سبحانه « لله ما في السماوات والأرض » وكان ذلك موهماً لتناهي ملكه لانحصار ما في السّماوات وما في الأرض بيّن أنّ مافي قدرته و علمه عجائب لا نهاية لها فقال :

[ولو أنّ مافي الأرض من شجرة أقلام] ويكتب بها والأبحر مداداً لا تفنى عجائب صنع الله وقدرته فالكلمة مفسّرة بالعجيبة لأنّ العجائب بقوله : « كن » كلمة فإطلاق اسم السبب على المسبّب شائع يقول الشجاع لمن يبارزه : أنا موتك ، ويقال للدوا في حقّ المريض : هذا شفاؤك . ودليل صحّة هذا هو أنّ الله سمّى المسيح « كلمة » لأنّه كان أمراً عجيباً وصنعاً غريباً .

النزول : قيل : إنّ الآية نزلت في واحد قال للنبيّ ﷺ : إنّك تقول : « وما

أُوتيتم من العلم إلّا قليلاً » و تقول : « ومن يؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً » فنزلت الآية دالّة على أنّه خيرٌ كثير بالنسبة إلى العباد وأمّا بالنسبة إلى الله وعلومه قليل وقيل : واردة في اليهود حيث قالوا : الله ذكر كلّ شيء في التوراة ولم يبق شيء لم يذكره فقال : سبحانه: الّذي في التوراة بالنسبة إلى كلمات الله ليس إلّا قطرة من بحار وأنزل هذه الآية .

ولا تنافي بين التفسير الّذي فسّرنا في صدر الآية مع النزول لأنّ الحاصل من الكلّ أن عجائب صنع الله لا نهاية لها . ووحّد الشجرة و جمع الأقلام إشارة إلى التكثير يعني ولو أن بعدد كلّ شجرة أقلاماً و تعريف البحر « باللام » لاستغراق الجنس و كلّ بحر مداد ثمّ قوله : [يمدّه من بعده سبعة أبحر] إشارة إلى بحار غير موجودة يعني لو مدّت البحار الموجودة مع سبعة أبحر أُخر ،وقوله : «سبعة » ليس لانحصارها في سبعة وإنّما الغرض الكثرة ولو بألف بحر والسبعة خصّصت بالذكر من بين الأعداد لأنّها تستعمل في عدد كثير في حصر المعدودات بحسب العادة فصارت السبعة كالعدد الحاصر للكثرات الواقعة في العادة فاستعملت في كلّ كثير .

قال قتادة : معنى الآية لوكان شجر الأرض أقلاماً ومع البحر سبعة أبحر مداداً إذاً لانكسرت الأقلام ونفد ماء البحر قبل أن تنفد عجائب الله وخلقه وعلمه .

[إنّ الله عزيز حكيم] غالب في اقتداره على جميع ذلك ، حكيم يفعل من ذلك ما يليق بحكمته .

ثمّ قال سبحانه : [ما خلقكم ولا بعثكم] يا معشر الخلائق [إلّا كنفس واحدة] أي كخلق نفس واحدة في قدرته ولا يشقّ عليه ابتداء جميع الخلق ولا إعادتهم بعد إفنائهم . قيل في النزول : إنّ كفّار قريش قالوا : إنّ الله خلقنا أطواراً نطفة علقة مضغة لحماً فكيف يبعثنا خلقاً جديداً في ساعة واحدة فنزلت الآية [إنّ الله سميع] يسمع ما يقوله القائلون [بصير] بما يضمرونه .

[ألم تر أنّ الله يولج اللّيل في النهار] بنقص من اللّيل في النهار ومن النهار في اللّيل و كلّ منهما يتعقّب الآخر أي إيلاج اللّيل في زمان النهار أي يجعل زمان اللّيل

في النهار ويوجده في وقت كان فيه النهار .

[وسخّر الشمس والقمر كلّ يجري إلى أجل مسمّى] قال : «يولج» بصيغة المستقبل و قال : في الشمس والقمر بصيغة الماضي لأنّ إيلاج اللّيل في النهار أمرٌ يتجدّد كلّ فصل بل كلّ يوم و تسخير الشمس و القمر أمرٌ مستمرّ أي وذلّل الشمس والقمر على نسق و وتيرة واحدة مقهورة لا يختلفان « كلٌ يجري » إلى وقت عيّنه قدرة الله وجعله .

[وأنّ الله بما تعملون خبير] و وجه تعلّق هذا الكلام أنّه لمّا كان اللّيل والنهار محلّ الأفعال بيّن أنّ ما يقع في هذين الزمانين اللّذين هما بتصرّف الله لا يخفى على الله، وقوله تعالى في صدر الآية : « ألم تر » لأنّ الغرض من البيان شرح التكاليف و الوعظ ، والواعظ يخاطب ولا يعيّن أحداً مثلا يقول لجمع عظيم : يا مسكين اتّق الله أو يقول : يا أيّها الغافل لِمَ تعصي الله فهذا الخطاب وأمثاله من هذا القبيل .

قوله : [ذلك بأنّ الله هو الحقّ وأنّ ما يدعون من دونه الباطل] ولمّا ذكر سبحانه تعالى أوصافه الكماليّة بقوله تعالى: « إنّ الله هو الغنيّ الحميد » وقوله : « إنّ الله عزيز حكيم» و«سميع بصير » وبقوله : « ما نفدت كلمات الله » وفي هذه الصفات إشارة إلى الصفات السلبيّة والثبوتيّة فقال : [ذلك بأنّ الله هو الحقّ] أي ذلك الاتّصاف بأنّه هو الحقّ والحقّ هو الثبوت والثابت الله ولا زوال له فهو الحقّ وما عداه الباطل لأنّ الباطل هو الزائل يقال : «بطل ظلّه» إذا زال .

واعلم أنّ الحكماء جعلوا الأشياء على أربعة أقسام : ناقص ومكتفٍ وتامّ وفوق التمام فالناقص ما ليس له ما ينبغي أن يكون له كالصبيّ والمريض والأعمى و أمثاله والمكتفي وهو الّذي أُعطي ما يدفع به حاجته في وقته كالإنسان والحيوان الّذي له ما يدفع به حاجته في وقتها لكنّها في التحلّل والزوال والتامّ ما حصل له كلّ ما جاز له و إن لم يحتج إليه كالملائكة المقرّبين لهم درجات لا تزداد ولا ينقص الله منها لهم شيئاً كما قال جبرئيل : لو دنوت أنملة لاحترقت . لقوله تعالى : « وما منّا إلّا له مقام معلوم » و فوق التمام هو الّذي حصل له ما جاز له من صفات الكمال و نعوت الجلال فهو تامّ وحصّل لغيره كلّ ما ينبغي له ويحتاج إليه فهو سبحانه فوق التمام وإلى هذا المعنى أشار قوله :

[وهو العليّ] أي في صفاته و قوله : [الكبير] أي في ذاته و ذلك ينافي أن يكون جسماً في مكان لأنّه يكون حينئذ جسداً مقدّر بمقدار فيمكن فرض ما هو أكبر منه فيكون صغيراً بالنسبة إلى المفروض لكنّه تعالى في ذاته مطلقاً أكبر من كلّ ما يتصوّر فهو المستحق للإلهيّة .

قوله تعالى : ألم تر ان الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ان فى ذلك لايات لكل صبار شكور (٣١) واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور (٣٢) يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحيوة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور (٣٣) ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الارحام وما تدرى نفس ما ذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت ان الله عليم خبير (٣٤) .

أي ألم تعلم أيّها الإنسان مثل هذا الأمر الواضح من آيات الأرضيّة وأشار إلى ذكر السبب و المسبّب بأنّ السفاين تجري بسبب نعمة الله و هي الريح الّتي يجري بأمر الله وتسوق السفينة إلى حيث تقصدون ولو اجتمع خلق كثير ليجروا الفلك في بعض الجهات المخالفة للرياح لما قدروا عليه .

[ليريكم من] آيات قدرته [إنّ في ذلك] أي في تسخير الرياح و الفلك [لآيات لكلّ صبّار شكور] أي صبّار على مشاقّ العبوديّة والتكليف ، شكور لنعماء الله عليه .

و في الآية دلالة على أنّ الصبر على البلاء والشكر للنعماء أفضل الطاعات كما قيل : الصبر نصف الإيمان و الشكر نصف الإيمان واليقين كلّه . وفي الحديث : الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر فالمؤمن يكون صبّاراً في الشدّة شكوراً في الرخاء فالتكاليف أفعال وتروك والأفعال شكر والتروك صبر كما قال ﷺ : الصوم صبر والأفعال شكر على المعروف .

ثمّ قال : [و إذا غشيهم موج كالظلل] في الآية بيان وهو أنّ البصير العاقل يدرك

آياته وشواهد قدرته ويعترف بإلهيته ومن هو في بصيرته ضعف لا يدركه أولاً فإذا وقع في شدة عظيمة مثل أن يغشاه موج وطوفان دعاه مخلصاً وحده وبترك كل من عداه وينسى جميع من سواه فإذا نجاه من تلك الشدة فقد يبقى على تلك الحالة وهو المراد بقوله :

[فمنهم مقتصد] وقد يعود إلى الشرك وهو المراد بقوله : [وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور] والختار كثير الغدر، والظلل قيل : معناه كالجبال و قيل : كالسحب والختار الكفور في مقابلة الصبار الشكور ومعنى المقتصد قيل : هو الذي انزجر بعض الانزجار من الكفر أو مقتصد في الإخلاص نبقي معه شيء من الإخلاص ولم يبق على ماكان عليه من الإخلاص و قيل : معنى قوله : « فمنهم مقتصد» أي على طريقة مستقيمة و صلاح من الأمر و قيل : ثابت على إيمانه موف بعهده الذي عاهد في البحر من الخلاص

و روي أنه لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الناس إلا أربعة نفر قال ﷺ : اقتلوهم و إن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة وهم عكرمة ابن أبي جهل و عبدالله بن بطل وقيس بن ضبابة وعبد الله سعد بن أبي سرح فأما عكرمة فركب البحر فأصابتهم ريح عاصفة فقال أهل السفينة : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً ههنا فقال عكرمة : لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص ماينجيني في البر غيره اللهم إن لك عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده فلأجدنه عفواً كريماً فجاء فأسلم.

قوله تعالى : [يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لايجزي والد عن ولده] يعني يوم القيامة لايغني فيه أحد عن أحد ولا والد يغني عن ولده أولا يقضي الوالد عن ولده على أن يكون الفعل من «جزى» وبالمعنى الأول من أجزأ أي أغنى.

قوله : [ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً] كل امرىء يهمه نفسه و المقصود قطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر في الآخرة ولا يقدر أن على الإعانة أودفع الإهانة بعضهم عن بعض وفي قوله «يجزي» وقوله «جاز» إشارة إلى نكتة لطيفة وهي أن الفعل يتأتى وإن كان ممن لاينبغي ولايكون من شأنه مثل أن الإنسان إذا كان يخيط شيئاً يقال : أنه يخيط ولا يقال : إنه خياط وإنما يقال له : خياط إذا كانت الخياطة حرفة إذا علمت هذا

فالابن من شأنه أن يكون جازياً عن والده لما له عليه من الحقوق لكنّ الوالد يجزي عن ولده لما فيه من الشفقة و ليس عليه بواجب ذلك ولهذا قال سبحانه : في الوالد «لايجزي» وقال : في الولد « ولا مولود هو جاز » .

قوله : [إنّ وعد الله حقّ] أي اخشوا يوماً هذا شأنه وهو كائن لوعد الله و وعده حقّ لايتخلّف [فلا تغرّنّكم الحياة الدنيا] أي لا يغرّنك الإمهال عن الانتقام و كذا الآمال و الأموال عن الإسلام ولا تغترّوا بطول السلامة و كثرة النعمة فإنّها عن قريب إلى الزوال .

[ولا يغرّنّكم بالله الغرور] والغرور هو الشيطان ويغرّك بالمغفرة من الله في عمل المعصية و تترك ما أمرك الله به و كلّ شيء غرّك حتّى تعصي الله فهو غرور شيطاناً كان أوغيره ، وفي الحديث ، الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والفاجر من اتّبع نفسه هواها وتمنّى على الله . وقرىء «غرور» بضم الغين فيكون المعنى لايغرّنّكم غرور الدنيا بخدعها الباطلة وبشهواتها الموبقة .

قوله تعالى : [إنّ الله عنده علم الساعة] أي استأثر سبحانه به ولم يطّلع عليه أحد من خلقه فلا يعلم وقت قيام الساعة سواه . قال بعض المفسّرين : المقصود إنّ الله نفى علم أمور خمسة بهذه الآية عن غيره وهو كذلك لعلّ المقصود من الآية ليس أنّه غير هذه الأمور الخمسة يعلم غيره أوما يعلمه سبحانه ولا يعلمه غيره مقصورة بهذه الخمسة لأنّ الله يعلم الجوهر الفرد الّذي كان في كثيب رمل في زمان الطوفان و نقله الريح من المشرق إلى المغرب كم مرّة و يعلم أنّه أين هو ولا يعلمه غيره فلا وجه لاختصاص هذه الخمسة بالذكر .

وإنّما التحقيق في الآية أنّه لمّا قال : «اخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده » و ذكر سبحانه أنّه كائن بقوله : « إنّ وعد الله حقّ » فلو قال قائل : فمتى يكون هذا اليوم؟ كما سألوا وقالوا : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » فأجاب الله بأنّ هذا العلم ممّا لا يحصل لغير الله ولكن هو كائن .

[وينزّل الغيث] فيما يشاء من زمان أومكان و يعلم نزول الغيث في مكانه و زمانه

كما جاء في الحديث : إنّ مفاتيح الغيب لايعلمهنّ إلّا الله وقرأ هذه الآية .

قوله : [ويعلم مافي الأرحام] من الحوامل أذكر أم أُنثى أصحيح أم سقيم واحد أم أكثر .

[وما تدري نفس ما ذا تكسب غداً] أي ماذا تكسب في المستقبل وما يعلم بقاءه غداً وما يعلم تصرّفاته في الأُمور .

[وما تدري نفس بأيّ أرض تموت] أي في أيّ أرض يكون موته وإذا رفع خطوة لايدري أنّه يموت قبل أن يضع الخطوة أم لا، والمراد بالأرض المكان ، وروي أنّ هذه الأشياء الخمسة لايعلمها على التفصيل غيره تعالى [إنّ الله عليم] بها [خبير] عنها .

وفي الآية بيان أنّك أيّها السائل عن الساعة : أيّان مرساها ؟ كيف تستعلم وقتها وأنت لاتعلم من نفسك ماذا تكسب غداً مع أنّه فعلك و شغلك و زمانك ولا تعلم أيّ مكان تموت ولا تعلم مافي بطنك أيّها الإنسان فكيف تستعلم قيام القيامة ؟ وفي قوله : «خبير» إشارة إلى أنّ علمه ليس علماً بظاهر الأشياء فحسب بل هو خبير وعلمه واصل إلى بواطن الأشياء .

تمّت السورة

سورة السجدة

(مكية)

وتسمّى سورة المضاجع .

فضلها : أُبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : ومن قرأ « الم تنزيل » و « تبارك الّذي بيده » الملك فكأنّما أحيا ليلة القدر .

وعن جابر كان رسول الله صلى الله عليه وآله لا ينام حتّى يقرأهما قال الليث بن أبي الزبير : ذكرت ذلك لطاوس فقال : فضّلتا على كلّ سورة في القرآن ومن قرأهما كتب له ستّون حسنة ومحي عنه ستّون سيّئة ورفع له ستّون درجة .

وروى الحسين بن أبي العلاء عن أبي عبدالله عليه السلام قال : من قرأ سوة السجدة في كلّ ليلة جمعة أعطاه الله كتابه بيمينه ولم يحاسبه بماكان منه و كان من رفقاء محمّد وأهل بيته .

بسم الله الرحمن الرحيم

الم (١) تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين (٢) أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون (٣) الله الذى خلق السموات و الارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون (٤) يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون (٥) .

«تنزيل الكتاب» خبر مبتدء محذوف تقديره : هذا تنزيل الكتاب ، أو يجوز أن يكون مبتدء و«لاريب فيه» خبره أي هذه الآيات [تنزيل الكتاب] الّذي وعدتم به [لاريب] ولا شكّ [فيه] أنّه وحي [من ربّ العالمين] أي لاريب فيه للمهتدين وإن كان قد ارتاب فيه المبطلون، واللفظ بصورة الخبر ومعناه النهي أي لاترتابوا فيه والريب أقبح الشكّ .

[أم يقولون افتراه] أي أيعترفون به أم يقولون : هو مفترى ؟ وقيل : «أم» منقطعة أي بل يقولون افتراه وليس الأمر على ما يقولونه [بل هو الحقّ] نزل عليك من ربّك . [لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير قبلك] يعني قريشاً إذلم يأتهم نبيّ قبل نبيّنا و إن أتى غيرهم من قبائل العرب مثل خالد بن سنان العبسيّ. وقيل : المراد أهل الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وآله لم يأتهم نبيّ قبل محمد في هذه المدّة فكانوا كأنّهم في غفلة عمّا لزمهم من حقوق الله والعبادة [لعلّهم يهتدون] بمعارفهم وما عليهم من حقوق العبوديّة ، ومعنى قوله : «لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك» ليس أنّه ما أتاهم من قبل محمد نذير لهم فإنّهم كانوا من أولاد إبراهيم و جميع أنبياء بني إسرائيل من أولاد أعمامهم لكن لمّا مضت عليهم وعلى غيرهم السنون المتطاولة و أهل عصرهم ضلّوا بالكلّيّة ولم يبق فيهم من يهديهم وقال سبحانه :

« وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولاً (١) » أرسله عليهم وعلى غيرهم لينذرهم و يمنعهم عن الضلالة وإنذاره ليس مختصّاً بهم .

فإن قيل : التخصيص بالذكر يدلّ على الاختصاص .

فنقول : هذا الكلام فاسد لأنّ التخصيص لا يستلزم نفي ماعداه ولأنّ قوله : « وأنذر عشيرتك الأقربين (٢) » لم يفهم منه أنّه لا ينذر غيرهم أو لم يؤمر بإنذار غيرهم و لكن لمّا كان إنذار المشركين أولى لأنّ إنذارهم كان بالتوحيد والحشر و أهل الكتاب لم ينذروا إلّا بسبب إنكارهم الرسالة فكانوا أولى بالذكر فوقع التخصيص لأجل ذلك كذلك ههنا .

ثمّ قال سبحانه : [الله الّذي خلق السماوات والأرض] استدلّ على قدرته على خلق السماوات والأرض وفي الآية إشارة إلى أنّ الرسول عليه الدعوة إلى توحيد الخالق أي هو الّذي خلق ولم يخلقهما غيره فلاخالق ولا إله غيره فهو واحد [وما بينهما في ستّة أيّام] أي فيما لو يقدّر لكان مقداره ستّة أيّام لأنّ قبل الشمس لم يكن ليل ولا نهار لأنّ الإنسان إذا نظر إلي الخلق رآه فعلاً و الفعل ظرفه الزمان و الأيّام أشهر الأزمنة .

قوله : [ثمّ استوى على العرش] و ههنا تحقيق شريف و هو أنّ مذهب العلماء في أمثال هذه الآيات المتشابهات على وجهين : أحدهما ترك التعرّض إلى بيان المراد ، و الثاني التعرّض إليه ، والأوّل أسلم وإلى الحكمة و السلام أقرب لأنّ من قال : إنّي لا أتعرّض إلى بيان هذا أو لا أعرف المراد في هذا لا يكون حاله إلّا حال من لا يتكلّم عند عدم وجوب الكلام أو لا يعلم شيئاً لم يجب علمه مثلاً كما في الأصول بأنّ الحشر والاعتراف به والعلم بوقوعه واجب قطعاً لكنّ العلم بأنّه متى يكون غير واجب و كذلك الله يجب معرفة وجوده و وحدانيّته واتّصافه بصفات الجلال و نعوت الكمال على سبيل الإجمال و يجب تعاليه سبحانه عن وصمات الإمكان والحدوث وصفات النقصان ولكنّ العلم بجميع صفاته كما هي ممّا لا يجب العلم بها فصفة الاستواء في الآية مثلاً ممّا لا يجب العلم بها فمن ترك

---

(١) الاسراء : ١٥ .
(٢) الشعراء : ٢١٤ .

التعرّض إليه لم يترك واجباً وأمّا من يتعرّض إليه لعلّ أن يخطئ فترك التعرّض من هذا القبيل أسلم غاية ما في الباب أنّه لا يعلم أمراً لكنّ المتعرض لعلّ أن يقع في جهل مركّب وعدم العلم والجهل المركّب نسبتهما كالسكوت والكذب والسكوت خيرٌ من الكذب.

و ليس لقائل أن يقول بأنّ الله بيّن كلّ ما أنزله لأنّ تأخير البيان إلى وقت الحاجة جائز ولعلّ في القرآن ما لا يحتاج إليه أحدٌ غير نبيّه فبيّن له لا لغيره وهو يعلم ولكن هذا المذهب له شرط وهو أن ينفي بعض ما يعلمه قطعاً من اُمور يوجب نقصاً في ذاته كالاستقرار المكاني في معنى « ثمّ استوى » أو الجلوس مثلاً فيجب القطع بنفي ذلك التوقّف هذا بيان مذهب التاركين للتعرّض في مثل هذه الآيات.

والمذهب الثاني خطر ومن يذهب إليه فريقان: أحدهما من يقول في معنى الآية: ظاهر الآية وهو القيام والانتصاب أو الاستقرار المكانيّ وهو جهل محض بل كفرٌ وبدعة. وثانيهما: الاستيلاء والمراد أنّه سبحانه استوى على ملكه واستولى على عرشه كما يقال للرجل المقهور الهارب: فلان هاربٌ لم يبق له مكان مع أنّ المكان واجب له كذلك يقال للقادر القاهر: «هو متمكّن على عرش عظمته وسرير مملكته وسلطانه وله عرش» وإن كان التنزّه عن المكان واجب له.

إذا علمت هذه المقدّمات فعلى هذا يكون معنى « ثمّ استوى على العرش » أنّ الله تعالى خلق السماوات والأرض ثمّ القصّة فثمّ استعملت للحكاية لا المحكيّ أي خلق السماوات والأرض ثمّ ههنا ما هو أعظم منه استوى على العرش وخلقته فإنّ خلقه أعظم من الكرسيّ و السماوات والأرض وهذا كما يقول القائل: فلان أكرمني وأنعم عليّ مراراً و يحكي عنه مكارمه ثمّ يقول: إنّه ما يعرفني و أحسن إليّ. وقد جاء « استوى» بمعنى استولى نقلاً واستعمالاً أمّا النقل فمنقول كثيراً في كتب اللغة منها في ديوان الأدب وغيره ممّا يعتبر النقل عنه وأمّا الاستعمال قال الشاعر:

قد استوى بشرٌ على العراق ❊ من غير سيف و دم مهراق

فعلى هذا لا يفيد معنى الآية أنّه سبحانه في مكان.

وفي الآية بيان آخر وهو أنّ المراد من الاستقرار على فرض معنى الاستقرار لا يفيد أنّه سبحانه في مكان وذلك لأنّ الإنسان يقول: استقرّ رأي فلان على الخروج و معلوم

أنّه لايريد أنّ الرأي في مكان وهو الخروج لما أنّ الرأي لايتصوّر ولا يجوز فيه أن يقال : إنّه متمكّن أو هو ممّا يدخل في مكان ، إذا علم هذا فحينئذ فهم التمكّن عند استعمال كلمة الاستقرار مشروط بجواز التمكّن حتّى إذا قال : استقرّ زيد على الفلك أو على التخت يفهم منه التمكّن و كونه في مكان ولكن إذا قال القائل : استقرّ الملك على فلان لايفهم أنّ الملك يحيّز في فلان فقول القائل : «الله استقرّ على العرش» لاينبغي أن يفهم منه كونه في مكان مادام لم يعلم أنّه ممّا يجوز عليه أن يكون في مكان .

والّذي يدلّ على أنّه لايجوز كون العرش مكاناً له وجوه من القرآن و القرآن يبيّن بعضه بعضاً : أحدها «وإنّ الله لهو الغنيّ» و كلّ ماهو في مكان فهو في بقائه محتاج إلى مكان لأنّ الحيّز إن لم يكن لايكون المتحيّز باقياً فالمتحيّز ينتفي عند انتفاء الحيّز و كلّما ينتفي عند انتفاء غيره فهو محتاج إليه . الثاني قوله تعالى: «كلّ شيء هالك إلّا وجهه[1]» فالعرش يهلك و كذلك كلّ مكان فلايبقى وهو سبحانه يبقى . الثالث قوله : «وهو معكم[2]» ووجه التمسّك به هو أنّ «على» إذا استعمل في المكان يفهم منه عليه بالذات كقولنا : فلان على السطح ، و كلمة «مع» إذا استعملت في متمكّنين يفهم منها اقترانهما بالذات كقولنا : زيد مع عمرو و إذا استعمل هذا فإن كان الله في مكان و نحن متمكّنون فقوله : «إنّ الله معنا» و قوله : «وهو معكم» كان ينبغي أن يكون للاقتران وليس كذلك بل معنى المعيّة في الآية العلم والنصرة والإعانة فكذلك «على العرش استوى» أي حكمه ونظره عليه .

فإن قيل : كلمة «مع» تستعمل في هذا المعنى أي معنى النصرة والإعانة يقال : فلان مع الفلان أي ناصره ومعينه .

فنقول : إنّ كلمة «على» أيضاً تستعمل في الحكم و النظر يقال : لولا فلان على أملاك فلان لما حصل له شيء ولا أكل من حاصلها ومعناه الإشراف والنظر فكيف لاتقول في «استوى على العرش» إنّه سبحانه استوى بحكمه كما تقول : معنا بحكمه و نصرته ؟ ثمّ إنّك إذا فسّرت قوله : «على العرش» على الاستقرار والمكان فأمّا إن حصل

---

(١) القصص : ٨٨ .

(٢) الحديد : ٤ .

عليه بعد مالم يكن عليه فقبل الاستقرار والتمكّن إمّا أن يكون في مكان أولم يكن فكان ففي صورة الكون في المكان يلزم أن يكون المكان أزليّاً فيلزم القول بتعدّد القديم و كون سماء قديم من السماوات و صاحب هذا القول فلسفيّ لا إسلاميّ وعلى القول الثاني لابدّ من القول بالحركة والانتقال والتغيّر و كلّ هذه يفضي إلى الحدوث وما ثبت حدوثه ثبت زواله فالقول بالتحيّز باطل إجماعاً ، انتهى .

قوله تعالى : [مالكم من دونه من وليّ ولا شفيع] أي ليس لكم من دون عذابه وليّ و قريب ينفعكم و يردّ عذابه عنكم «ولا شفيع » يشفع لكم وناصر ينصركم من دون الله [أفلا تتذكّرون] وتتفكّرون فتعلموا صحّة مابيّنّاه لكم .

قوله : [يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض] أي يدبّر الأمور و يقدّرها على حسب إرادته فيما بين السماء والأرض وينزله مع الملك إلى الأرض ولمّا بيّن سبحانه الخلق في قوله : « الله الّذي خلق السماوات والأرض » بيّن في هذه الآية عالم الأمر كما قال في موضع آخر : « ألا له الخلق والأمر » وأمره ينزل من السماء على عباده من اُمور تقديرهم وأحكامهم من اُمور التكليفيّة والتكوينيّة وينزله من الملك إلى الأرض .

[ثمّ يعرج إليه] الملك إلى المكان الّذي أمره الله أن يصعد إليه [في يوم كان مقداره ألف سنة ممّا تعدّون] أي يوم كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة ممّا يعدّه البشر خمسمائة عام نزوله من السماء إلى الأرض وخمسمائة صعوده إلى السماء .

وحاصل المعنى أنّه ينزل الملك بالأمر والوحي والتقدير إلى الأرض ثمّ يصعد الملك و يعرج إليه أي إلى الموضع الّذي يكون أن يعرج إليه و عروج الملائكة كذهاب إبراهيم حيث قال : «إنّي ذاهب إلى ربّي سيهدين [١] » أي إلى أرض الشام الّتي أمرني بالذهاب إليها و كذلك قوله : « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله [٢] » يعني إلى المدينة ولم يكن سبحانه بالشام ولا بالمدينة .

---

(١) الصافات : ٩٩ .
(٢) النساء : ٩٩ .

وقيل : معناه أنّه يدبّر سبحانه ويقضي أمر كلّ شيء لألف سنة في يوم واحد ثمّ يلقيه إلى الملائكة فإذا مضى الألف يدبّر أمر ألف سنة اُخرى في يوم وكذلك أبداً .

وقيل : معناه يدبّر أمر الدنيا فينزل القضاء والتدبير من السماء إلى الأرض مدّة أيّام الدنيا ثمّ يرجع الأمر ويعود التدبير إليه بعد انقضاء الدنيا وفنائها حتّى ينقطع أمر الاُمراء وحكم الحكّام وينفرد الله بالتدبير في يوم كان مقداره ألف سنة وهو يوم القيامة فالمدّة المذكورة مدّة يوم القيامة إلى أن يستقرّ الخلق في الدارين عن ابن عبّاس أيضاً .

فأمّا قوله : «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» وهو يوم القيامة فإنّه أراد سبحانه على الكافر جعل الله ذلك اليوم عليه مقدار خمسين ألف فإنّ المقامات في يوم القيامة للطبقات مختلفة .

قوله : ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم (٦) الذى أحسن كل شيء خلقه وبدء خلق الانسان من طين (٧) ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين (٨) ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ماتشكرون (٩) وقالوا أءذا ضللنا فى الارض ائنا لفى خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون (١٠) .

ولمّا ذكر سبحانه عالم الأشباح من قبل بقوله : «خلق السماوات» وعالم الأرواح بقوله : «يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض» أي ذلك الّذي يفعل ويقدّر هو العالم بما يشاهد ومالا يشاهد وبما غاب عن الخلق وماحضر [العزيز] الغالب المنيع في ملكه [الرحيم] بأهل طاعته ثمّ قال : [الّذي أحسن كلّ شيء خلقه] وهو سبحانه كذلك لأنّك إذا نظرت إلى الأشياء رأيتها على ماينبغي صلابة الأرض للنبات والثبات ولطافة الهواء للاستنشاق والاسترواح ولقبول الانشقاق وسهولة الاستطراق وحركة النار إلى فوق لأنّها لو كانت مثل الماء في السيلان والحركة يمنة ويسرة لاحترقت الدنيا فخلقت طالبة لجهة فوق حيث لاشيء هناك يقبل الاحتراق وفي الآية دلالة على أنّ الكفر والقبائح لا يجوز أن يكون من خلقه .

قوله : [وبدأ خلق الإنسان من طين] أي ابتدأ خلق آدم الّذي هو أوّل البشر

من طين كان تراباً ثمّ صار طيناً ثمّ صلصالاً ثمّ حيواناً .

[ثمّ جعل نسله] أي نسل الإنسان الّذي هو آدم يعني ولده من [سلالة] وهي الصفوة الّتي تنسلّ من غيرها ويسمّى ماء الرجل سلالة لانسلاله من صلبه [من ماء مهين] أي ضعيف حقير « مهان » لاثمن له وإنّما يصير جليلاً إذا صار ذاعمل وعلم .

[ثمّ سوّاه] أي جعله بشراً سويّاً معدّلاً ورتّب جوارحه [ونفخ فيه من روحه] و إضافة الروح إلى نفسه كإضافة البيت إليه للتشريف و النصارى يفترون على الله الكذب و يقولون بأنّ عيسى روح الله فهوابن ولايعلمون أنّ كلّ أحد روحه روح الله بقوله : «ونفخ فيه من روحي»(١) أي الروح الّتي ملكي كما يقول القائل : داري وعبدي [وجعل لكم السمع والأبصاروالأفئدة قليلاًمّاتشكرون] وقوله : «وجعل لكم» مخاطباً ولم يخاطب من قبل لأنّ الخطاب يكون مع الحيّ لأنّ الخطاب وقع بعد نفخ الروح ، جعل لكم أيّها الخلق السمع والأبصار لتسمعوا المسموعات وتبصروا المبصرات وجعل لكم القلوب لتعقلوا بها ومع ذلك « قليلاً مّاتشكرن» « ما » تأكيديّة مثل « هو » فإمّا بيان لكفرهم بتلك النعم بطريق الاعتراض أي شكراً قليلاً أو زماناً قليلة تشكرون و يمكن أن يكون القلّة إشعاراً للنفي .

قوله : [و قالوا أإذا ضللنا في الأرض] كلام مسوق لبيان أباطيلهم وعدم شكرهم بتلك النعم فقالوا : « أإذا ضللنا » وغبنا في الأرض وصرنا تراباً و خلطنا بترابها بحيث لا نتميّز من التراب ، وقرىء بالصادالمهملة من صلّ اللحم إذاأنتن و كلّ شيء غلب عليه غيره حتّى يغيب فيه فقد ضلّ . وقيل : معنى « ضللنا » أي هلكنا .

[أئنّا لفي خلق جديد] أي أنبعث ونحيا ؟ استفهام بمعنى الإنكار كيف نخلق جديداً ونعاد بعدأن هلكنا وتفرّقت أجسامنا ؟

ثمّ قال سبحانه : [بل هم بلقاء ربّهم] أي هؤلاء الكفّار « بلقاء ربّهم » أي بما وعدهم من الثواب وأوعدهم من العقاب [كافرون] وجاحدون فلهذا قالوا : هذا القول .

قوله تعالى : قل يتوفاكم ملك الموت الذى و كل بكم ثم الى ربكم

---

(١) الحجر : ٢٩ .

ترجعون (١١) ولو ترى اذا المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون(١٢) ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لاملئن جهنم من الجنة والناس اجمعين (١٣) فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا انا نسينا كم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون(١٤) انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون (١٥) .

ثمّ أمر نبيّه [قل] يا محمد لهم : لابدّ من الموت ثمّ من الحيات بعد الموت و إليه الإشارة بقوله :[واليه ترجعون] وبقوله : «الّذي وكّل بكم » أنّه لايغفل عنكم وإذا آن أجلكم لايؤخّر كم ملك الموت إذ لاشغل له غير هذا و التوفّي الاستيفاء يقال : استوفى الدين إذا قبضه على كماله و الملك و كّل بقبض أرواحكم عن ابن عبّاس قال : جعلت الدنيا بين يدي ملك الموت مثل جام يأخذ منها مايشاء إذا قضى عليه الموت من غير عناء و خطوته مابين المغرب والمشرق .

وقيل : إنّ له أعواناً كثيرة من ملائكة الرحمة والعذاب ويؤيّد هذا القول قوله : «توفّته رسلنا [(١)] » وقوله تعالى : «تتوفّاهم الملائكة » [(٢)] فعلى هذا المراد بالملك الجنس و أمّا إضافة التوفّي إلى نفسه سبحانه في قوله : « الله يتوفّى الأنفس حين موتها » [(٣)] فلأنّه خلق الموت .

وروى عكرمة عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الأمراض والأوجاع كلّها بريد الموت ورسل الموت فإذا حان الأجل أتى ملك الموت بنفسه فقال : ياأيّها العبد كم خبر بعد خبر و كم رسول بعد رسول و كم بريد بعد بريد؟ أنا الخبر الّذي ليس بعدي خبر وأنا الرسول أجب ربّك طائعاً أومكروهاً فإذا قبض روحه و تصارخوا عليه قال : على من تصرخون و على من تبكون ؟ فوالله ماظلمت له أجلاً ولا أكلت له رزقاً بل دعاه ربّه فليبك الباكي على نفسه فإنّ لي فيكم عودات حتّى لا أُبقيكم .

---

(١) الانعام : ٦١ .
(٢) النحل : ٢٨ .
(٣) الزمر : ٤٢ .

وبالجملة ثمّ إنّ الروح الزكيّ الطاهر بعد القبض عندالملائكة مثل الشخص عند أهله والخبيث الفاجر كأسير بين قوم لايعرفهم ولا يعرف لسانهم والأوّل ينمو و يزيد صفاؤه وقوّته والآخر ويزداد شقاؤه كدورته . والحكماء يقولون : إن الأرواح الطاهرة تتعلّق بجسم سماويّ خير من بدنها وتكمل به والأرواح الفاجرة لا كمال لها بعدالتعلّق الثاني .

قوله : [ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤسهم] أي عند رجوعهم إلى ربّهم ترى المجرمين حالهم واستخجالهم لترى عجباً ويمكن أن يكون خطاباً للرسول تشفّياً لصدره فإنّهم يؤذونه بالتكذيب ويحتمل أن يكون عاماً مع كلّ أحد قوله : [عند ربّهم] أي عند مايتولّى الله حساب خلقه يقولون :

[ربّنا أبصرنا وسمعنا] أي أبصرنا الرشد وصدق وعدك وسمعنا منك تصديق الرسل أوالمعنى أنّا كنّا بمنزلة العمى فأبصرنا وبمنزله الصمّ فسمعنا [فارجعنا] فارددنا إلى دار التكليف [نعمل صالحاً إنّا موقنون] اليوم لانرتاب شيئاً من الحقّ والرسالة .

ثمّ قال سبحانه : [ولو شئنا لآتينا كلّ نفس هداها] بأن نفعل أمراً من الأمور يلجئهم إلى الإقرار بالتوحيد ولكن ذلك يبطل الغرض بالتكليف لأنّ المقصود به استحقاق الثواب والإلجاء لايشتمعه استحقاق الثواب ، قال الجبّائي : و يجوز أن يكون المراد به ولو شئنا لأجبناهم إلى ماسألوه من الردّ إلى دار التكليف ليعملوا بالطاعات .

[ولكن حقّ القول منّي] أن اُجازيهم بالعقاب ولأردّهم وقيل : معناه ولو شئنا لرددناهم إلى الجنّة [ولكن حقّ القول منّي لأملأنّ جهنّم من الجنّة و الناس أجمعين] من كلا الصنفين بكفرهم بالله و كفرانهم نعمته و القول من الله بمنزلة القسم فلذلك أتى بجواب القسم وهو قوله : « لأملأنّ جهنّم » أي وقع القول « منّي » و هو قوله تعالى : لإبليس «لأملأنّ جهنّم منك وممّن تبعك » هذا من حيث النقل .

وأمّا بحسب وجه العقل أنّه تعالى لم يفعل فعلاً خالياً عن الحكمة و هذا أمرٌ متّفق عليه والخلاف في أنّه هل قصد الفعل للحكمة أو فعل الفعل و لزمته الحكمة لا بحيث تحمله الحكمة على الفعل و إذا علم أنّ فعله لايخلو عن الحكمة و حكمة أفعاله بأسرها لاتدرك على سبيل التفصيل فكلّ ضرب يكون في العالم الكون والفساد يخرج من تقسيم عقليّ إلى ثلاثة وهو أنّ الفعل إمّا أن يكون خيراً محضاً أوشرّاً محضاً أوخيراً مشوباً

بشرٌ والقسم الوسط ماخلق أصلاً فانحصرت القسمة إلى قسم وهو خير محض كعالم الملائكة والأنبياء والعالم العلوي وإلى قسم فيه خيرٌ وشرٌ وهو عالمنا وهو العالم السفلي .

ثمّ إنّ العالم السفليّ الّذي هو عالمنا وإن كان الخير والشرّ موجودين فيه لكنّه من القسم الّذي خيره غالب فإنّك إذا قابلت المنافع بالمضارّ تجد المنافع أكثر وإذا قابلت الشرّ بالخير تجد الخير أكثر حتّى أنّ الكافر لايمكن أن يكون وجوده شرّاً محضاً غاية مافي الباب أنّ الكفر يحبط خيره كفره ولا ينفعه ويستحيل أن لايوجد منه خيراً مثلاً لايسقي العطشان شربة ولا يطعم الجائع لقمة خبز ولا يذكر ربّه في عمره وكيف يكون كذلك وهو في زمن صباه كان مخلوقاً على الفطرة المقتضية للخيرات وقد اختار الكافر بسوء اختياره وقلّة تدبّره كفره فقد جعل الشرّ لنفسه لسوء اختيار فإذاً الشر الّذي خلط بالخير أوغلب على الخير في الكافر ليس من فعل الله فما فعله سبحانه في الكلّ خير محض فيرجع القسم الثاني إلي القسم الأوّل والفاعل صيّر الخير شرّاً فحينئذ ترك الخير الكثير للشرّ القليل لايناسب الحكمة .

فإن قال قائل : فالله قادر على تخليص هذا القسم من الشرّ بحيث لايوجد فيه شرّ .

فالجواب أنّ معنى هذا الكلام أن يكون الله مقهوراً بدفع ما اُفسده أنا و تفسده أنت ويكون يمنع غيره قهراً عن القبيح وهذا خلاف مقتضى عالم التكليف والخلق والأمر كما قال سبحانه : «ولو شئنا لآتينا كلّ نفس هداها (١) » .

قوله : [من الجنّة والناس أجمعين] أي حالاً مجموعين من الجنّ والإنس لامن الملائكة ولا يقتضي ذلك دخول الكلّ لأنّ القائل يقول : ملأت الكيس من الدراهم ، ولايلزم أن لايبقى دراهم خارج الكيس .

قوله تعالى : [فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم] يقال لهؤلاء الّذين طلبوا الرجعة إلى دار التكليف إذا جعلوا في العذاب : فذوقوا بمافعلتم فعل من نسي جزاء هذا اليوم فتركتم ما أمركم الله ، و النسيان الترك و الإشارة بقوله : [هذا] إشارة إلى العذاب [وذوقوا العذاب] الخلد الّذي لافناء له بسبب [ما كنتم تعملون] من الكفر والمعاصي .

(١) الم السجدة : ١٣ .

ثمّ أخبر عن حال المؤمنين فقال : [إنّما يؤمن بآياتنا الّذين إذا ذكّروا بها خرّوا سجّداً وسبّحوا بحمد ربّهم وهم لايستكبرون] أي يصدّق بالقرآن وسائر حججنا الّذين إذا وعظوا بها تذكّروا واتّعظوا بمواعظها بأن سقطوا على جباههم ساجدين شكراً لله على أن هداهم بمعرفته ونزّهوه عمّا لايليق به من الصفات وعظّموه وحمدوه وهم لايستكبرون عن عبادته ولا يأنفون أن يعفروا وجوهم صاغرين له ومن كان قلبه خاشعاً ولسانه ذاكراً ولايستكبر عن عبادة ربّه فهو مؤمن حقّاً .

ثمّ بيّن أيضاً صفاتهم بقوله تعالى :

تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا ومما رزقناهم ينفقون (١٦) فلاتعلم نفس ما اخفى لهم من قرة اعين جزاء بما كانوا يعملون (١٧) افمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستوون (١٨) اما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فلهم جنات الماوى نزلا بما كانوا يعملون (١٩) و اما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما ارادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها و قيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون (٢٠) .

التجافي تعاطي الارتفاع عن الشيء وقال عبدالله بن رواحة يصف النبيّ صلّى الله عليه وآله :

يبيت يجافي جنبه عن فراشه ٭ إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

أي ترتفع جنوبهم عن مواضع اضطجاعهم لصلاة الليل وهم المتهجّدون بالليل الّذين يقومون عن فرشهم للصلاة وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام .

وروى الواحديّ بالإسناد عن معاذ بن جبل قال : بينما نحن مع رسول الله صلّى الله عليه وآله في غزوة تبوك وقد أصابنا الحرّ فتفرّق القوم فإذا رسول الله صلّى الله عليه وآله أقربهم منّي فدنوت منه فقلت : يارسول الله أنبئني بعمل يدخلني الجنّة ويباعدني من النار قال : لقد سألت عن عظيم وإنّه ليسير على من يسّره الله تعبدالله ولاتشرك به شيئاً و تقيم الصلاة المكتوبة و تؤدّي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان قال : و إن شئت أنبئتك بأبواب الخير قال : قلت يارسول الله : أجل قال : الصوم جنّة والصدقة تكفّر الخطيئة وقيام الرجل في جوف الليل يبتغي وجه الله ثمّ قرأ هذه الآية .

وبالإسناد عن بلال قال : قال رسول الله ﷺ : عليكم بقيام الليل فإنّه دأب الصالحين قبلكم ، وإنّ قيام الليل قربة إلى الله تكفير للسيّئات ومطردة للداء عن الجسد .

وقيل : هم الّذين يصلّون مابين المغرب والعشاء الآخرة وهي صلاة الأوّابين . وقيل : هم الّذين يصلّون العشاء والفجر بالجماعة وفي الآية الأولى وهي « إنّما يؤمن بآياتنا الّذين إذا ذكّروا(١) » إشارة إلى المرتبة العالية وهي العبادة لوجه الله مع الذهول عن الخوف والطمع وفي الثانية إشارة إلى المرتبة الأخيرة وهي العبادة للخوف كمن يخدم ملكاً مخافة سطوته أو يخدم الملك الجواد طمعاً في برّه .

ثمّ بيّن جزاء فعلهم بقوله : [فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرّة أعين] يعني بما تقرّ العين عنده ولا يلتفت إلى غيره ولا يعلم أحد ماجيء لهؤلاء الّذين « ذكّروا » قال ابن عبّاس «ما» لا تفسير له فالأمر أعظم وأجلّ ممّا يعرف تفسيره وقد ورد في الصحيح أنّه قال : إنّ الله يقول : أعددت لعبادي الصالحين مالا عينٌ رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بل هو ممّا اطّلعتكم هذا عليه اقرءوا إن شئتم « فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرّة أعين » رواه البخاريّ ومسلم جميعاً .

وقد قيل في فائدة الإخفاء وجوه : أحدها أنّ الشيء إذا عظم خطره وجلّ قدره لا يستدرك صفاته على كنهه إلّا بشرح طويل ومع ذلك فيكون إبهامه أبلغ ، وثانيها أنّه جعل ذلك في مقابلة صلاة الليل وهي خفيّة فكذلك ما بإزائها من جزائها ويؤيّد ذلك ما روي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال : مامن حسنة إلّا ولها ثواب مبيّن في القرآن إلّا صلاة الليل فإنّ الله عزّ اسمه لم يبيّن ثوابها لعظم خطرها قال : « فلا تعلم نفس الآية » وقرّة العين رؤية ماتقرّ به العين يقال : أقرّ الله عينك أي صادف فؤادك مايرضيك والمستبشر الضاحك يخرج من عيونه دمع بارد والمحزون المهموم يخرج من عينيه دمع حارّ ويقال : فلان سخين العين وفلان قرير العين .

(١) الم السجدة : ١٣ .

قوله تعالى : [أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لايستوون] استفهام إنكاري أي أيكون من هو مصدّق بآيات الله على الحقيقة عارف بالله عامل بما أوجبه الله عليه مثل من هو فاسق خارج عن طاعة الله مرتكب لمعاصي الله « لايستوون» لأنّ منزلة المؤمن درجات الجنان و منزلة الفاسق دركات النيران .

ثمّ فسّر سبحانه ذلك بقوله : [فأمّا الّذين آمنوا و عملوا الصالحات فلهم جنّات المأوى] يأوون إليها [نزلاً بماكانوا يعملون] أي عطاءً وتشريفاً ينزله الله فيها كما ينزل الضيف يعني إنّهم في حكم الأضياف .

[وأمّا الّذين فسقوا] وخرجوا من الدين والطاعة [فمأواهم النار] و يأوون إلى النار [كلّما أرادوا أن يخرجوا منها] وهمّوا بالخروج منها لما يلحقهم من ألم العذاب [أُعيدوا] وردّوا [فيها] بالمقامع .

وقيل لهم : [ذوقوا عذاب النار الّذي كنتم به تكذّبون] وتجحدونه و في هذا دلالة على أنّ المراد بالفاسق هنا الكافر المكذّب قال ابن أبي ليلى : نزل قوله : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً » في عليّ بن أبي طالب عليه السلام ورجلٌ من قريش وقال : غيره : في عليّ بن أبي طالب عليه السلام والوليد بن عقبة فالمؤمن عليّ والفاسق الوليد وذلك أنّه قال لعليّ عليه السلام : أنا أبسط منك لساناً وأحدّ منك سناناً فقال عليه السلام : لست كما تقول يا فاسق ، قال قتادة : لا والله ما استووا لا في الدنيا ولا عند الموت ولا في الآخرة .

قوله تعالى : ولنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر لعلهم يرجعون (٢١) ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم اعرض عنها انامن المجرمين منتقمون (٢٢) ولقد آتينا موسى الكتاب فلاتكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني اسرائيل (٢٣) وجعلنا منهم ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون(٢٤) ان ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون(٢٥)

ثمّ أقسم سبحانه في هذه الآية فقال :

[و لنذيقنّهم من العذاب الأدنى] أمّا العذاب الأكبر فهو عذاب جهنّم في

الآخرة وأمّا العذاب الأدنى ففي الدنيا . و اختلف فيه فقيل : إنّه المصائب و المحن في الأنفس والأموال عن ابن عبّاس وجماعة وقيل : هوعذاب بدر بالسيف وقيل: هو ما ابتلوا به من الجوع سبع سنين بمكّة حتّى أكلوا الجيف والكلاب وقيل : هو الحدود وقيل : هو هو عذاب القبر عن أبي عبدالله عليه السلام والأكثر في الرواية عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام أنّ « العذاب الأدنى» خروج دابّة الأرض والدجّال .

[لعلّهم يرجعون] إلى الحقّ ويتوبوا من كفرهم وقيل : ليرجعوا الآخرون عن أن يذنبوا مثل ذنوبهم .

فإن قيل : إنّ « لعلّ » للترجّي والله سبحانه محال ذلك عليه ؟ معناه لنذيقهم إذاقة الراجين كقوله : إنّا أنسيناكم ، يعني تركناكم كما يترك الناسي حيث لا يلتفت إليه أصلا فكذلك ههنا نذيقهم على الوجه الّذي يفعل بالراجي من التدريج و كلّ فعل يتلوه أمر مطلوب يصحّ تعليل ذلك الفعل بذلك الأمر ولو علم وقوع ذلك المطلوب أو علم سبحانه وقوعه وهذا مثل قوله : « وارجوا اليوم الآخر » مع أنّ الجزم به لازم غاية ما في الباب أنّ الرجاء في أكثر الأمر استعمل فيما لا يكون الأمر معلوماً فأوهم أن لا تجوز الإطلاق في حقّ الله وليس كذلك بل الترجّي يجوز في حقّ الله ولا يلزم منه عدم العلم و إنّما يلزم عدم الجزم بناءً على ذلك الفعل وعلم الله ليس مستفاد من الفعل .

قوله تعالى : [ومن أظلم ممّن ذكّر بآيات ربّه ثمّ أعرض عنها] يعني لنذيقهم ولا يرجعون فيكونون قد ذكّروا بآيات الله من النعم أوّلاً والنقم ثانياً ولم يؤمنوا فلا أظلم منهم أحد لأنّ من يكفر بالله ظالم وأنّ الله لذوي البصائر ظاهر لا يحتاج المستنير الباطن إلى شاهد يشهد عليه بل هو شهيد على كلّ شيء كما قال سبحانه : « أو لم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد[1] » ولذا قال العارفون : من لم يكفه الله فسائر الموجودات كاف في شواهد وجوده سبحانه وقدرته فالأوّل الّذي لا يحتاج إلى غير الله هو عدل والثاني الّذي يحتاج إلى دليل فهو متوسّط ، و الثالث الّذي لم تكفه الموجودات الآفاقيّة والأنفسيّة

(١) المائدة : ١٢٠ .

ظالم ، والرابع الّذي لم تقنعه نعم أُذيق العذاب في الدنيا لا يرجع عن ضلالته فلا أظلم منه أصلاً فقال : ومن أظلم ممّن ذكّر بآيات ربّه ثمّ أعرض عنها جانباً ولم ينظر فيها .

[إنّا من المجرمين] الّذين يخالفون الله [منتقمون] بأن يحلّ العذاب بهم فكيف بمن كان أظلم من كلّ ظالم ؟

قوله : [ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه] والمراد بالكتاب التوراة فلا تشكّ من لقائك موسى كما أنّه ﷺ لقاه ليلة الإسراء به ﷺ عن ابن عبّاس في الحديث أنّه ﷺ قال : ليلة أُسري بي رأيت موسى بن عمران رجلاً آدم طوالاً جعداً كأنّه من رجال شنوءة ورأيت عيسى رجلاً مربوعاً المائل إلى الحمرة والبياض سبطا الرأس فعلى هذا قد وعده سبحانه أنّه سيلقى موسى قبل أن يموت .

وقيل : المعنى فلا تكن من لقاء موسى إيّاك في الآخرة .

وقيل : معناه فلا تكن في شكّ من لقاء الأذى كما لقي موسى الأذى ، فحينئذ يكون المعنى فلا تك في مرية ممّا تلقى من الأذى كما لقي موسى من قومه فإنّه لقي مالقيت وأُوذي كما أُوذيت فعلى هذا اختصاص موسى بالذكر إشعار لمعنى وهو أنّ سائر الأنبياء لم يؤذيه قومه إلّا من لم يؤمن بهم وأمّا الّذين آمنوا فلم يخالفوه غير قوم موسى فإنّ من لم يؤمن به أذاه مثل فرعون ومن آمن به من بني إسرائيل أيضاً أذاه بالمخالفة وطلبوا منه أشياء مثل طلب الرؤية وغيره .

ثمّ بيّن سبحانه له ﷺ أنّ هدايتك لقومك غير خالية عن المنفعة كما أنّه لم تخل هداية موسى فقال : [وجعلناه هدىً لبني إسرائيل * وجعلنا منهم أئمّة يهدون بأمرنا] جعل الله كتاب موسى هدى وجعل من بني إسرائيل أنبياء وأئمّة في الدين كذلك نجعل كتابك هدىً ومن ذرّيّتك وأُمّتك أصحاباً يهدون الناس .

ثمّ بيّن ذلك أنّ ذلك يحصل بالصبر فقال : [لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون] فكذلك اصبروا و تحمّلوا فإنّ وعد الله حقّ [إنّ ربّك هو يفصل بينهم يوم القيامة] ويحكم بين المؤمن و الكافر والفاسق في مختلفاتهم من التصديق و التكذيب و من أعمالهم وأُمور دينهم .

قوله تعالى : اولم يهد لهم كم اهلكنامن قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ان في ذلك لايات افلا يسمعون (٢٦) اولم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز فنخرج به زرعا تأكل انعامهم وانفسهم افلايبصرون (٢٧) ويقولون متى هذا الفتح ان كنتم صادقين (٢٨) قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا ايمانهم ولا هم ينظرون (٢٩) فاعرض عنهم و انتظر انهم منتظرون (٣٠) .

ولمّا أعاد ذكر الرسالة في الآية السابقة أعاد ذكر معرفة التوحيد فقال :

[أولم يهد لهم] و فاعل « يهد » مضمر يفسّره و يدلّ عليه « كم أهلكنا » أي ما هداهم إلى معرفتنا إهلاك من أهلكناه ، والواجب من الهدية ما يؤدّي إلى ماليس للعبد عنه غنيً في دينه أي أولم يبصرهم و يتبين لهم إهلاكنا قروناً قبلهم بسبب كفرهم بالله فهلكوا و أبادهم الله و يمشون هؤلاء في مساكنهم و ديارهم و يرون آثارهم . و قيل : معناه : أنّا أهلكناهم و هم مشاغيل بنفوسهم وكانوا يمشون في مساكنهم وجاءهم العذاب والهلاك بغتة .

[إنّ في ذلك لآيات أفلا يسمعون] أي في إهلاكنا إيّاهم دلالات على الحقّ [أفلا يسمعون] هؤلاء الكفّار ما يوعظون به من المواعظ .

ثمّ نبّههم على وجه آخر فقال : [أولم يروا] ويعلموا [أنّا نسوق الماء] بالمطر والثلج والأنهار والعيون و سيلان طبيعة الماء [إلى الأرض الجرز] والجرز فيه أربع لغات بضمّ الجيم والراء وبفتحهما وبضمّ الجيم و إسكان الراء وفتح الجيم و إسكان الراء أي الأرض المقطوع عنها الماء اليابسة الّتي لا نبات فيها [فنخرج به] بسبب سوق الماء منها [زرعاً يأكل منه] من ذلك الزرع [أنعامهم] أوّلاً [و أنفسهم] أي الأرض تنبت ما يأكله الإنسان والحيوان [أفلا يبصرون] نعم الله عليهم .

[ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين] قيل : المراد فتح مكّة وقيل: هو القضاء بعذابهم في الدنيا وهو يوم « بدر » وقيل : هو الحكم بالثواب والعقاب يوم القيامة وكانوا يسمعون المسلمين يستفتحون بالله عليهم فقالوا : « متى هذا الفتح » أي متى هذا الحكم فينا .

[قل] يا محمد : [يوم الفتح] يوم [لا ينفع الّذين كفروا إيمانهم] بيّن سبحانه أنّ يوم الفتح يكون يوم القيامة وذلك اليوم لا ينفع الكافرين إيمانهم [ولاهم ينظرون] أي لا يؤخّر عنهم العذاب كما أنّ الّذين قتلوا يوم بدر لم ينفعهم إيمانهم بعد القتل .

[فأعرض عنهم] يا محمد فإنّه لا ينجح الدعاء والوعظ [وانتظر] حكم الله فيهم وانتظر موعدي لك بالنصر على أعدائك [إنّهم منتظرون]

بك حوادث الزمان من موت أو قتل فيستريحوا منك

أو انتظر النصر من الله فإنّهم ينتظرون

النصر من آلهتهم

تمّت السورة

سورة الاحزاب

☼(مدنية)☼

فضلها : أُبيّ بن كعب قال : ومن قرأها وعلّمها أهله وماملكت يمينه أُعطي الأمان من عذاب القبر .

و روى عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال : من كان كثير القراءة لسورة الأحزاب كان يوم القيامة في جوار محمد صلى الله عليه وآله .

وأمر سبحانه نبيّه في تختيم تلك السورة بالانتظار و أمره في مفتتح هذه السورة أن يكون في انتظاره متيقّناً فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ان الله كان عليماً حكيما (١) واتبع ما يوحى اليك من ربك ان الله كان بما تعملون خبيرا (٢) وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا (٣) ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل ازواجكم اللائى تظاهرون منهن امهاتكم وما جعل ادعياءكم ابناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق و هو يهدى السبيل (٤) ادعوهم لابائهم هو اقسط عندالله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليهم جناح فيما اخطأتم به ولكن ماتعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما (٥) .

وههنا تحقيق وهو أنّ الفرق بين قوله : يا رجل و يا أيّها الرجل أنّ «يا رجل» يدلّ على النداء و« يا أيها الرجل » يدلّ على النداء أيضاً وينبىء عن خطرخطب الأمر أو تنبيه غفلة المخاطب أو اعلم هذا فلا يجوز حمل قوله تعالى : « ياأيّها النبيّ » على غفلته لأنّ قوله سبحانه : النبيّ ينافي الغفلة لأنّ النبيّ خبير فلايكون غافلاً فيجب حمله على خطر الخطب والأمر وكلمة «أي» و كلمة «ها» تأكيد على تأكيد لعظمة المنادى له فقال : [يا أيّها النبيّ اتّق الله] .

فلو قيل : إنّ الأمر بالشيء لا يكون إلّا عند عدم اشتغال المأمور بالمأمور به إذ لا يصلح أن يقال للجالس : اجلس ، وللساكت : اسكت ، والنبيّ صلى الله عليه وآله كان متّقياً فما الوجه فيه ؟

فالجواب أنّه أمر بالمداومة فإنّه يصحّ أن يقول القائل للجالس : اجلس هنا إلى

أن أجيئك ، وللساكت : قدنجوت فاسكت ودم على ما أنت عليه . وتقريره وهو أنّ الملك يتّقي منه عباده على ثلاثة أوجه بعضهم يخاف من عقابه و بعضهم يخاف من قطع ثوابه وثالث يخاف من احتجابه فالنبيّ ﷺ لم يؤمر بالتقوى بالمعنى الأوّل ولا بالمعنى الثاني وأمّا الثالث فالمخلص لا يأمنه ما دام في الدنيا و كيف والأمور الدنيويّة شاغلة والآدميّ في الدنيا تارة مع الله و أخرى مقبل على ما لابدّ منه وإن كان معه الله و إلى هذا إشارة بقوله : « إنّما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ » يعني أنّه يرفع الحجاب عنّي وقت الوحي ثمّ أعود إليكم كأنّي منكم فالأمر بالتقوى يوجب استدامة الحضور .

و بعبارة أخرى إنّ النبيّ ﷺ كلّ لحظة كان يزداد علمه ومرتبته حتّى حاله فيما مضى بالنسبة إلى ما هو فيه تركاً للأفضل فكان له في كلّ ساعة تقوى متجدّدة فقوله : « اتّق الله » على هذا البيان أمر بما ليس فيه و إلى هذا أشار ﷺ بقوله : من استوى يوماه فهومغبون ، وهو قوله ﷺ : ربّ زدني علماً ، وهذه نكتة استغفاره ﷺ في كلّ يوم سبعين مرّة ليجدّد له مقام فوق مقام كان عليه .

قوله : [ولا تطع الكافرين والمنافقين] يقرّر قولنا : اتّق الله تقوى تمنعك من طاعتهم . و سبب النزول : نزلت في أبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل و أبي أعور السلميّ قدموا المدينه ونزلوا على عبدالله بن أبيّ بعد غزوة أحد بأمان من رسول الله ليكلّموه فقاموا وقام معهم عبدالله بن أبيّ وعبدالله بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق فدخلوا على رسول الله فقالوا : يا محمّد ارفض ذكر آلهتنا اللّات والعزّى و مناة و قل : إنّ لها شفاعة لمن عبدها ، وندعك وربّك فشقّ ، ذلك على النبيّ ﷺ فقال عمر بن الخطّاب : ائذن لنا في قتلهم فقال : إنّي أعطيتهم الأمان وأمر ﷺ فأخرجوا من المدينة فنزلت : « ولاتطع الكافرين و المنافقين » .

وقيل : نزلت في أناس من ثقيف قدموا على رسول الله فطلبوا منه أن يمتّعهم باللّات والعزّى سنة قالوا : لتعلم قريش مكانتنا منك .

[إنّ الله كان عليماً حكيماً] أي عليم بما يكون قبل كونه ، حكيم فيما يخلقه .

لمّا نهاه عن متابعة الكفّار أمر باتّباع أوامره ونواهيه على الإطلاق فقال : [واتّبع

ما يوحى إليك من ربّك] من القرآن والشرائع فبلّغه واعمل به [إنّ الله كان بما تعملون خبيراً] أي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم فيجازيكم بحسبها إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ .

[وتوكّل على الله] و فوّض أمرك إليه حتّى لا تخاف غيره ولا ترجو إلّا خيره [و كفى بالله و كيلاً] قائماً بتدبيرك حافظاً لك ودافعاً عنك [ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه] نزلت في أبي معمر الفهري واسمه جميل و كان لبيباً حافظاً لما يسمع و كان يقول : إنّ في جوفي لقلبين أعقل بكلّ واحد منهما أفضل من عقل محمّد فكانت قريش تسمّيه ذا القلبين فلمّا كان يوم بدر هزم المشركون وفيهم أبومعمر و تلقّاه أبوسفيان بن حرب وهو أخذ بيده إحدى نعليه والاُخرى في رجله فقال له : يا أبامعمر ما حال الناس ؟ قال : انهزموا قال : فما بالك إحدى نعليك في يدك والاُخرى في رجلك؟فقال أبومعمر : ما شعرت إلّا أنّهما في رجلي فعرفوا يومئذ أنّه لم يكن إلّا قلب واحد . وقيل : إنّ المنافقين كانوا يقولون : إنّ لمحمّد قلبين ينسبونه إلى الدهاء فأكذبهم الله بذلك وقيل : إنّ رجلاً كان يقول : إنّ لي نفسين نفساً تأمرني ونفساً تنهاني فنزل ذلك فيه .

وحاصل المعنى : ليس لأحد قلبان يؤمن بأحدهما و يكفر و إنّما هو قلب واحد فإمّا أن يؤمن وإمّا أن يكفر ونزلت الآية ردّاً على قولهم في هذا المعنى صراحة ومطابقة و تفيد التزاماً معنى آخر بأنّه كما لا يمكن أن يكون لرجل واحد قلبان لأنّ أمر الرجل الواحد لا ينتظم و معه قلبان و كيف يمكن الجمع بين اتّباع أمرين متضادّين اتّباع الوحي والقرآن واتّباع الكفر والطغيان ؟ فالاعتقاد ينشيء من فعل القلب فحينئذ لا يجوز أن يحبّ قوماً بهذا القلب ويعادي قوماً بهذا القلب فإذا كان لا يجوز كون قلبين لرجل واحد كيف يمكن وينتظم اُمور العالم وله إلهان وخالقان ومعبودان ؟

قوله تعالى : [وما جعل أزواجكم اللّائي تظاهرون منهنّ اُمّهاتكم] ظاهر من امرأته:قال لها : أنت عليّ كظهر اُمّي،وكانت العرب تطلّق نساءها في الجاهليّة بهذا اللّفظ فلمّا جاء الإسلام نهوا عنه وأوجب الكفّارة عن من ظاهر من امرأته ، والمعنى أنّ الزوجة لا تصير اُمّاً فبيّن سبحانه أنّ هذه النسوة اللّاتي ظاهر تموهنّ لسن اُمّهاتكم فإنّ اُمّهاتكم

على الحقيقة هنّ اللائي ولدنكم أو أرضعنكم .

[وماجعل أدعياءكم أبناءكم] و« الأدعياء » جمع الدعيّ وهو الّذي يتبنّاه الإنسان فبيّن الله سبحانه أنّه ليس بابن على الحقيقة ونزلت في زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبيّ من بني عبدود تبنّاه النبيّ قبل الوحي وكان قد وقع عليه السبي فاشتراه رسول الله بسوق عكاظ فدعاه ﷺ إلى الإسلام فأسلم فقدم أبوه إلى مكّة وأتى أبا طالب و قال : سل ابن أخيك فإمّا أن يبيعه و إمّا أن يعتقه فلمّا قال ذلك أبو طالب لرسول الله قال : هو حرّ فليذهب حيث شاء ، فأبى زيد أن يفارق رسول الله فقال حارثة : اشهدوا يامعشر قريش إنّه ليس ابني ، فقال رسول الله : اشهدوا أنّه ابني ، فكان يدعى زيد بن محمّد فلمّا تزوّج النبيّ زينب بنت جحش وكانت تحت زيد بن حارثة قالت اليهود والمنافقون : تزوّج محمّد امرأة ابنه وهو ينهى الناس عنها ! فقال الله : ما جعل من تدعونه ولداً وهو ثابت النسب من غيركم ولداً لكم .

[ذلكم قولكم بأفواهكم] أي إنّ قولكم : «الدعيّ ابن الرجل» شيء تقولونه بألسنتكم لا حقيقة له عند الله [والله يقول الحقّ] الّذي يلزم العمل به [وهو يهدي السبيل] يرشد إلى طريق الحقّ .

[ادعوهم لآبائهم] الّذين ولدوهم وانسبوهم إليهم أو إلى من ولدوا على فراشهم [هو أقسط عند الله] أي نسبة الأبناء إلى الآباء أعدل عند الله قولاً وحكماً [فإن لم تعلموا آباءهم] ولم تعرفوه بأعيانهم [فإخوانكم في الدّين ومواليكم] فهم إخوانكم في الدين و الملّة فتقولوا : يا أخي «ومواليكم » أي بنو أعمامكم . وقيل : المعنى أولياؤكم في وجوب النصرة . وقيل : معناه أي إذا أعتقتموهم من رقّ فلكم ولاؤهم .

[وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به] أي ليس عليكم حرج في نسبته إلى المتبنّين إذا ظننتم أنّه أبوه ولم تعلموا أنّه ليس بابن له فلا يؤآخذكم الله به ولكنّ الإثم والجناح في ما تعمّدت قلوبكم وقصدتموه من دعائهم إلى غير آبائهم فإنّكم حينئذ تؤآخذون به وقيل : ما أخطأتم قبل النهي وما تعمّدتم بعد النهي [وكان الله غفوراً] لما سلف من قولكم [رحيماً] بكم .

قوله تعالى: النبي أولى بالمؤمنين من انفسهم وأزواجه امهاتهم واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين الا أن تفعلو؛ الى اوليائكم معروفاً كان ذلك فى الكتاب مسطورا (٦). واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم و منك و من نوح وابراهيم و موسى و عيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً (٧) ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليما (٨) يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً (٩) اذجاءوكم من فوقكم و من اسفل منكم و اذ زاغت الابصار و بلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا (١٠)٠

النزول : قال الكلبيّ آخى رسول الله بين الناس فكان يؤاخي بين الرجلين فإذا مات أحدهما ورثه الثاني منهما دون أهله فمكثوا بذلك ما شاء الله حتّى نزلت : «واُولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين» فنسخت هذه الآية الموارثة بالمؤاخاة والهجرة و ورث الأدنى فالأدنى من القربات و قال قتادة : كان المسلمون يتوارثون بالهجرة وكان لا يرث الأعرابيّ المسلم من المهاجرين شيئاً فلمّا نزلت هذه الآية فصارت المواريث بالقرابات .

قوله : [النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم] أي هو أولى بهم منهم بأنفسهم ، وقيل : في معناه وجوه :

أحدهما: أنّه ﷺ أحق بتدبيرهم وحكمه أنفذ عليهم من حكمهم على أنفسهم لوجوب طاعته الّتي هي مقرونة بطاعة الله .

و ثانيها : أنّه أولى بهم في الدّعوة فإذا دعاهم النبيّ إلى شيء ودعتهم أنفسهم إلى شيء كانت طاعته أولى من طاعة أنفسهم وهذا قريب من معنى الأوّل .

و ثالثها : أنّه أولى بهم من أنفسهم فإذا كان هو أحقّ بهم وهو لا يرث اُمّته مع هذا الحقّ فكيف يرث من توجبون حقّه بالتبنّي ؟

و روي أنّ النبيّ ﷺ لمّا أراد غزوة تبوك و أمر الناس بالخروج قال قوم :

نستأذن آباءنا وأُمّهاتنا ، فنزلت هذه الآية .

وفي قراءة أُبيّ بن كعب وابن مسعود أنّهم كانوا يقرءون : « النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم و أزواجه أُمّهاتهم » و هو أبٌ لهم . و روي ذلك عن أبي جعفر و أبي عبدالله عليهما السّلام .

قال مجاهد : كلّ نبيّ أبٌ لأُمّته و لذلك صار المؤمنون إخوة واشتقاق الأنفس من النفاسة والجلالة لأنّ هذه الصفة أكرم مافيه أو من التنفّس الّذي هو التروّح وبمعنى الأوّل فهي خاصّة الحيوان الحسّاسة الدرّاكة .

قوله : [وأزواجه أُمّهاتهم] المعنى أنّهن للمؤمنين كالأُمّهات في الحرمة وتحريم النكاح ولسن أُمّهات لهم على الحقيقة إذ لو كنّ كذلك لكانت بناته أخوات المؤمنين على الحقيقة فكان لا يحلّ للمؤمن التزويج بهنّ فثبت أنّ المراد به يعود إلى حرمة العقد عليهنّ لا غير لأنّه لم يثبت شيء بين المؤمنين و بينهنّ من الأُمومة سوى هذه الواحدة ألا ترى أنّه لا يحلّ للمؤمنين رؤيتهنّ ولا يرثن المؤمنين كالأُمّهات ولا يرثهنّ .

[و أُولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين و المهاجرين] و أُولو الأرحام هم ذوي الأنساب ولا توارث إلّا بالولادة والرحم والمعنى أنّ ذوي القرابات بعضهم أولى بميراث بعض المؤمنين من الأنصار و المهاجرين الّذين هاجروا من مكّة إلى المدينة والمتؤاخين فصارت هذه الآية ناسخة للتوارث بالهجرة والمؤاخاة ويتعيّن أنّ الميراث بالنسب فمن كان أقرب في قرباه فهو أحقّ بالميراث من الأبعد .

[إلّا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً] هذا استثناء منقطع ومعناه لكن إن فعلتم إلى أوليائكم المؤمنين وخلفائكم مايعرف حسنه وصوابه ، قيل : المراد بذلك وصيّة الرجل لإخوانه وأحبّائه في معروف وقيل : لمّا نسخ آية التوارث بالمؤاخاة والهجرة أباح الوصيّة فيوصي لمن يتولّاه بما أحبّ من الثلث . و فسّروا المعروف بالوصيّة ، وحكي عن محمّد بن الحنفيّة وعكرمة وقتادة أنّ معناه الوصيّة لذوي القرابات الكافرة وقيل : لايصحّ هذا لأنّه تعالى نهى عن ذلك بقوله : « لاتتّخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء » . وقال أصحابنا الإماميّة:

إنّها جائزة للوالدين و الولد .

[كان ذلك] نسخ الميراث بالهجرة وردّه إلى أُولي الأرحام [في الكتاب] أي في القرآن أو في اللوح أو في التوراة [مسطوراً] ومكتوباً .

قوله : [وإذ أخذنا من النبيّين ميثاقهم و منك] و المراد من الميثاق المأخوذ منهم إرسالهم وأمرهم بالتبليغ وخصّ بالذكر أربعة من الأنبياء في الآية لأنّ عيسى و موسى كان لهما في زمان نبيّنا قوم وأُمّة فذكرهما احتجاجاً وبياناً عليهما وإبراهيم كان العرب يقولون بفضله و يتّبعونه في الشعائر بعضها ونوحاً لأنّه كان أصلاً ثانياً للناس حيث وجد الخلق منه بعد الطوفان .

فلو قيل : آدم كان أولى بالذكر على هذه الصورة .

فالجواب أنّه في زمان آدم ماكان إهلاك وتعذيب ولكن نوح كان مخلوقاً للإنذار والنبوّة .

و بالجملة المعنى : واذكر يا محمّد حين أخذ الله الميثاق و العهد على النبيّين خصوصاً بأن يصدّق بعضهم بعضاً . وقيل : أخذ ميثاقهم على أن يعبدوا الله ويدعو إلى عبادة الله وأن ينصحوا لأُمّتهم .

[ومنك] يا محمّد و إنّما قدّمه لفضله وشرفه [ومن نوح وإبراهيم وموسى و عيسى ابن مريم] و تخصيص ذكرهم مرّ بيانه ولأنّهم أصحاب الشرائع [و أخذنا منهم ميثاقاً غليظاً] أي عهداً شديداً على الوفاء بما حمّلوا من إعباء الرسالة وتبليغ الشرائع ، وقيل : المعنى : أخذنا منهم عهداً على أن يعلنوا أنّ محمّداً رسول الله و كذلك يعلن محمّد صلى الله عليه وآله أنّه لا نبيّ بعده .

ثمّ بيّن سبحانه الفائدة في أخذ الميثاق فقال : [ليسأل الصادقين عن صدقهم] أي فعلنا ذلك ليسأل الله يوم القيامة الأنبياء الّذين صدقوا عهدهم فيظهر صدقهم و يعترفون بأنّا قد بلّغنا قومنا وبيّنّا لهم ما كلّفنا الله إبلاغه أو أن يسأل عنهم هل ظلم الله أحداً هل نجازي كلّ إنسان بفعله هل عذاب بغير ذنب ؟ ونحو ذلك فيقولون : عدل في حكمه و

جازى كلاً بفعله ، فهذا حال الصادقين و فيه إشارة إلي تبكيت الكاذب [و أعد للكافرين عذاباً أليماً] .

ثمّ خاطب سبحانه المؤمنين فقال : [يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم] ذكّرهم عظيم نعمته عليهم في دفع الأحزاب عنهم [إذ جاءتكم جنود] هم الّذين تحزّبوا على رسول الله وهم قريش وغطفان وبنو قريظة وبنو النضير أيّام الخندق [فأرسلنا عليهم] ريح الصبا حتّى أكفئت قدورهم (١) ونزعت فساطيطهم [وجنوداً لم تروها] من الملائكة وقيل: إنّ الملائكة لم يقاتلوا يومئذٍ ولكن كانوا يشجّعون المؤمنين ويخوّفون الكافرين [وكان الله بما تعملون بصيراً] من قرء بالتاء وجّه الخطاب إلى المؤمنين ومن قرء بالياء وجّه الضمير إلى الكافرين .

قوله تعالى : [إذ جاؤكم من فوقكم و من أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر وتظنّون بالله الظنونا] أي واذكروا حين جاءكم جنود المشركين «من فوقكم» أي من فوق الوادي من قبل المشرق قريظة والنضير وغطفان « ومن أسفل منكم » أي قبل المغرب من ناحية مكّة أبوسفيان في قريش ومن تبعه « و إذ زاغت » ومالت عن كلّ شيء فلم ينظر إلّا إلى عدوّها مقبلاً من كلّ جانب . وقيل : معناه عدلت الأبصار عن مقرّها من الدهش والحيرة « وبلغت القلوب الحناجر » والحنجرة جوف الحلقوم أي شخصت القلوب من مكانها فلولا أنّه ضاق الحلقوم عنها أن تخرج لخرجت، وقوله : «بلغت القلوب الحناجر» لأنّهم جبنوا و جزع أكثرهم و إنّ الجبان إذا اشتدّ خوفه لابدّ و أن ينتفخ رئته وإذا انتفخت الرّية دفعت القلوب إلى الحنجرة .

قال أبوسعيد الخدري : قلنا يوم الخندق : يارسول الله هل من شيء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر؟ فقال ﷺ : قولوا : اللهمّ استر عوراتنا وآمن روعاتنا ، قال : فقلناها فضرب وجوه أعداء الله بالريح فهزموا.

« وتظنّون بالله الظنونا » أي اختلفت الظنون فظنّ بعضكم بالله النصر و بعضكم آيس و قنط و ظنّوا ظنوناً مختلفة و من كان منهم ضعيف الإيمان و القلب ظنّ ماظنّه المنافقون من أنّ ماوعده من نصرة الدين غرور .

---

(١) جمع القدر ـ بالكسر ـ ما يطبخ فيه .

وقصّة غزوة الخندق مختصرها ذكر أصحاب السير كان من حديث الخندق أنّ نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق وحيّ بن أخطب في جماعة من بني النضير الّذين أجلاهم رسول الله خرجوا حتّى قدموا على قريش بمكّة فدعوهم إلى حرب رسول الله وقالوا : إنّا سنكون معكم عليهم حتّى نستأصلهم فقال لهم قريش : يامعشر اليهود إنّكم أهل الكتاب الأوّل فديننا خير أم دين محمّد؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه و أنتم أولى بالحقّ منه فهم الّذين أنزل الله فيهم : «ألم تر إلى الّذين اُوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للّذين كفروا هؤلاء أهدى من الّذين آمنوا سبيلاً ـ إلى قوله ـ و كفى بجهنّم سعيراً [(١)] » فسرّ قريشاً ما قالوا و نشطوا لما دعوهم فأجمعوا لذلك واستعدّوا له ثمّ أتوا اُولئك النفر من اليهود حتّى جاءوا غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله وأخبروهم أنّهم سيكونون معهم عليه وإنّ قريشاً قد بايعوهم على ذلك فأجابوا غطفان و قبلوا فخرجت قريش وقائدهم أبوسفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصين بن حذيفة بن بدر الفزاريّ وجماعة من أشجع وحلفائهم من بني أسد وغطفان وبني سليم مدداً لقريش.

فلمّا علم رسول الله صلّى الله عليه وآله ضرب الخندق على المدينة وكان الّذي أشار عليه سلمان الفارسيّ وكان أوّل مشهد شهد سلمان مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وهو يومئذ حرّ قال : يارسول الله إنّا كنّا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا فعمل فيه رسول الله صلّى الله عليه وآله و المسلمون حتّى أحكموه.

فممّا ظهر من دلائل النبوّة في حفر الخندق مارواه أبوعبدالله الحافظ بإسناده قال: خطّ رسول الله صلّى الله عليه وآله الخندق عام الأحزاب أربعين ذراعاً بين عشرة فاختلفت المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسيّ وكان رجلاً قويّاً فقال الأنصار: سلمان منّا ، وقال المهاجرون: سلمان منّا. قال عمرو بن عوف : فكنت أنا وسلمان وحذيفة بن اليمان و النعمان بن مقرّن وستّة من الأنصار نقطع أربعين ذراعاً فحفرنا إذاً بلغنا الثرى أخرج الله صخرة بيضاء مدوّرة من بطن الخندق فكسرت حديدنا و شقّت علينا فقلنا : يا سلمان إرق إلى رسول الله و أخبره عن الصخرة فأمّا إن نعدل عنها فإنّ المعدل قريب وأمّا إن تأمرنا فيه بأمره فإنّا

(١) النساء : ٥٤ .

لانحبّ أن نجاوز خطّه فرقي سلمان حتّى أتى رسول الله وهو مضروب عليه قبّة فقال: يا رسول الله خرجت صخرة بيضاء مدوّرة فكسرت حديدنا حتّى ما يحكّ فيها قليل ولا كثير فمرنا فيه بأمرك، فهبط رسول الله مع سلمان في الخندق وأخذ المعول وضرب به ضربة فتألّق منها برقة أضاءت ما بين لابتيها - يعني لابتي المدينة - حتّى لكأنّ مصباحاً في جوف ليل مظلم فكبّر رسول الله تكبيرة فتح فكبّر المسلمون ثمّ ضرب ضربة اُخرى فلمعت برقة اُخرى فقال سليمان: بأبي أنت واُمّي يارسول الله ماهذا الّذي أرى فقال: أمّا الاُولى فإنّ الله عزّ وجلّ فتح عليّ بها اليمن وأمّا الثانية فإنّ الله فتح عليّ بها الشام و المغرب و أمّا الثالثة فإنّ الله فتح عليّ بها المشرق فاستبشر المسلمون بذلك و قالوا: الحمد لله موعود صادق.

قال: وطلعت الأحزاب فقال المؤمنون: «هذا ما وعدنا الله ورسوله» وقال المنافقون: ألا تعجبون يحدّثكم ويعد كم الباطل ويخبر كم أنّه يبصر في يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنّها تفتّح لكم وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا؟

و ممّا ظهر أيضاً من آيات النبوّة ما رواه أبوعبدالله الحافظ بالإسناد عن عبدالواحد ابن أمين المخزوميّ قال: حدّثني أيمن المخزوميّ قال: سمعت جابر بن عبدالله الأنصاريّ قال: كنّا يوم الخندق نحفر فعرضت فيه كدّانة وهي القطعة من الجبل فقلنا: يارسول الله عرضت فيه كدّانة فقال عليه‌السلام: رشّوا عليها ماء ثمّ قام فأتاها وبطنه معصوب بحجر من الجوع فأخذ المعول أو المسحاة فسمّى ثلاثاً ثمّ ضرب فعادت كثباً اُهيل فقلت له: ائذن لي يارسول الله إلى المنزل ففعل فقلت: للمرأة هل عندك من شيء؟ فقالت: عندي صاع من شعير وعناق فطحنت الشعير وعجنته وذبحت العناق وسلختها وخلّيت بين المرأة و بين ذلك ثمّ أتيت إلى رسول الله فجلست عنده ساعة ثمّ أتيت إلى المرأة فإذاً العجين واللّحم قد أمكنا فرجعت إلى رسول الله عليه‌السلام فقلت: إنّ عندنا طعاماً فقم أنت يا رسول الله و رجلان من أصحابك فقال: و كم هو؟ قلت: صاع من شعير وعناق، فقال عليه‌السلام للمسلمين جميعاً: قوموا إلى جابر، فقاموا فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلّا الله وقلت: جاء بالخلق على صاع وعناق فدخلت على المرأة وقلت: قد افتضحت جاءك رسول الله بالخلق أجمعين فقالت: هل سألك كم

طعامك؟ فقلت : نعم، فقالت : الله ورسوله أعلم قد أخبرناه ما عندنا فكشفت عنّي غمّاً شديداً فدخل النبيّ ﷺ فقال لها : دعيني من اللّحم فجعل ﷺ يثرّد ويغرّق اللّحم ثمّ يجمّ هذا ويجمّ هذا فما زال يقرب إلى الناس حتّى شبعوا جميعاً ويعود التنّور والقدر على حاله ثمّ قال رسول الله : كلي وأهدي قالت : فلم نزل نأكل ونهدي قومنا أجمع، أورده البخاريّ في الصحيح .

و عن البراء بن عازب قال : كان رسول الله ينقل معنا التراب يوم الأحزاب و قد وارى التراب بياض بطنه وهو يقول : اللّهمّ لولا أنت ما اهتدينا ، ولا تصدّقنا ولا صلّينا ، فأنزلن سكينة علينا ، وثبّت الأقدام إن لاقينا ، إنّ الأولى وقد بغوا علينا ، إذا أرادوا فتنة أبينا يرفع بها صوته ﷺ رواه البخاريّ أيضاً في الصحيح عن أبي الوليد عن شعبة عن أبي إسحاق عن البراء .

قالوا : ولمّا فرغ رسول الله ﷺ من الخندق وأقبلت قريش حتّى نزلت بين الجرف والغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تابعهم من بني كنانة وأهل تهامة و أقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد حتّى نزلوا إلى جانب اُحد و خرج رسول الله ﷺ حتّى جعلوا ظهورهم إلى الهلع في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هناك عسكره والخلق بينه وبين القوم وأمر بالذراري فرفعوا في الأطام .

وخرج عدوّ الله حيّ بن أخطب النضيريّ حتّى أتى كعب بن أسيد القرظيّ صاحب بني قريظة وكان قد وادع رسول الله على قومه و عاهد على ذلك فلمّا سمع كعب صوت ابن أخطب أغلق دونه حصنه فاستأذن ابن أخطب عليه فأبى كعب أن يفتح له الباب فناداه يا كعب افتح لي اُكلّمك قال : يا حيّ إنّك رجل مشئوم إنّي عاهدت محمّداً ولست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلّا وفاءً وصدقاً، قال : ويحك افتح لي اُكلّمك، قال : ما أنا بفاعل قال : ما أغلقت دوني إلّا على جشيشة (الجشيشة طعام يصنع من البرّ واللّحم والتمر) تكره أن آكل منها معك فاستحيا كعب وفتح الباب فقال حيّ : ويحك يا كعب جئتك بعزّ الدهر و ببحر طام جئتك بقريش على قادتها وسادتها و بغطفان على سادتها و قادتها قد عاهدوني أن لا يبرحوا حتّى يستأصلوا محمّداً ومن معه فقال كعب : جئتني والله بذلّ

وبجهام قد هراق ماؤه يرعد ويبرق وليس فيه شيء فدعني ومحمداً وما أنا عليه فلم أر من محمد إلّا صدقاً ووفاء فلم يزل بكعب حتّى سمح له على أن أعطاه عهداً وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتّى يصيبني ما أصابك فنقض كعب عهده مع رسول الله .

فلمّا انتهى الخبر إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله بعث سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس وهو يومئذ سيّد الأوس وسعد بن عبادة سيّد الخزرج وبعث صلّى الله عليه وآله معهما عبدالله بن رواحة وخوات بن جبير فقال : انطلقوا حتّى تنظروا أحقّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقّاً فالحنوا لنا لحناً نعرفه ولا تفشوه عند الناس وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به فخرجوا حتّى أتوهم فوجدوهم على أخبث ممّا بلغهم عنهم قالوا : لا عقد بيننا و بين محمد ولا عهد فشاتمهم سعد بن عبادة و شاتموه فقال سعد بن معاذ : دع عنك مشاتمتهم فإنّ ما بيننا وبينهم أعظم من المشاتمة ثمّ أقبلوا على رسول الله وقالوا : عضل والقارة ، وهما رجلان من قبيلتين دخلا في الإسلام ثمّ رجعا وغدرا فيضرب بهما المثل لغدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله وهم حبيب بن عديّ وأصحابه أصحاب الرجع فقال رسول الله : الله أكبر ابشروا يا معشر المسلمين .

و عظم عند ذلك البلاء واشتدّ الخوف وأتاهم عدوّهم من فوقهم و من أسفل منهم حتّى ظنّ المؤمنون كلّ الظنّ وظهر النفاق من بعض المنافقين .

فأقام رسول الله صلّى الله عليه وآله وأقام المشركون عليه بضعاً وعشرين ليلة لم يكن بينهم قتال إلّا الرمي بالنبل إلّا أنّ فوارس من قريش منهم عمرو بن عبدودّ أخو بني عامر بن لؤيّ وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطّاب وهبيرة بن أبي وهب ونوفل بن عبدالله قد تلبّسوا للقتال وخرجوا على خيولهم حتّى مرّوا بمنازل بني كنانة فقالوا : تهيّؤا للحرب يا بني كنانة فستعلمون اليوم من الفرسان .

ثمّ أقبلوا حتّى وقفوا على الخندق فقالوا : إنّها والله إنّ هذه لمكيدة ماكانت العرب تكيدها ثمّ يتمسّوا مكاناً ضيّقاً من الخندق فاقتحموا فجالت خيولهم في فسحة بين الخندق وسلع وخرج عليّ بن أبي طالب عليه السلام في نفر من المسلمين حتّى أخذ عليهم الثغرة الّتي اقتحموا

فيها وأقبلت الفرسان نحوهم .

وكان عمرو بن عبدود فارس قريش وكان قد قاتل يوم بدر حتى ارتثّ وأثبته الجراح ولم يشهد اُحداً فلمّا كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مشهده وكان يعدّ بألف فارس وكان يسمّى بفارس يليل ؛ لأنّه أقبل في ركب من قريش حتّى إذا كانوا بيليل ـ وهو واد قريب ـ عرضت لهم بنوبكر في عدّة فقال لأصحابه : امضوا فمضوا فقام في وجوه بني بكر حتّى منعهم من أن يصلوا إليه فعرف بذلك وكان اسم الموضع الّذي حفر فيه الخندق المداد وكان أوّل من طفره عمرو وأصحابه فقيل في حقّه : فارس جزع المداد وكان ينادي : من يبارز؟ وهو مقنّع بالحديد فقام عليّ وقال : أنا له يارسول الله فقال ﷺ : إنّه عمرو اجلس ونادى عمرو ألا رجل وهو يؤنّبهم ويوبّخهم ويقول : أين جنّتكم الّتي تزعمون أنّ من قتل منكم دخلها فقام عليّ وقال : يارسول الله أنا له ، قال ﷺ : إنّه عمرو فقال عليّ عليه السلام وإن كان.
ثمّ نادى الثالثة فقال :

ولقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز ووقفت إذ جبن المشجّع موقف البطل المناجز
إنّ السماحة والشجاعة في الفتى خير الغرائز

فقام عليّ وقال : يا رسول الله أنا لها فقال : إنّه عمرو فقال عليّ : وإن كان عمرواً فاستأذن رسول الله فأذن له .

وفي ما رواه لنا[1] السيّد أبو محمّد الحسيني القايني عن الحاكم أبي القاسم الحسكاني بالإسناد عن حذيفة قال : فألبسه رسول الله درعه ذات الفضول وأعطاه سيفه ذا الفقار وعمّمه عمامة السحاب تسعة أكوار ثمّ قال له : تقدّم فقال ﷺ لمّا ولّى عليّ : اللّهمّ احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوق رأسه ومن تحت قدميه . قال ابن إسحاق : فمشى عليّ عليه السلام إليه وهو يقول .

لا تعجلنّ فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز ذو نيّة وبصيرة والصدق منجا كلّ فائز
إنّي لأرجو أن اُقيم عليك نائحة الجنائز

قال له عمرو : من أنت؟ قال : أنا عليّ قال : ابن عبدمناف؟ فقال : أنا عليّ بن أبي طالب

---

(١) الرواية من مجمع البيان .

فقال : غيرك يابن أخي من أعمامك من هو أسنّ منك فإنّي أكره أن أُريق دمك فقال عليّ عليه السلام : ولكنّي والله ما أكره أن أُريق دمك فغضب ونزل وسلّ سيفه كأنّه شعلة نار ثمّ أقبل نحو عليّ مغضباً فاستقبل عليٌّ بدرقته فضربه عمرو بالدرقة فقدّها و أثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجّه وضربه عليّ على حبل العاتق فسقط .

والمراد من قولهم ضرب زيد عمرواً هذا الخبيث المقتول والمراد من زيد عليّ عليه السلام لأنّ من أسمائه عليه السلام زيد ؛ كما روى الصدوق في حديث أنّه عليه السلام قال يوماً على المنبر في البصرة : أنازيد بن عبدمناف فقام ابن الكوّا في المسجد قال : إنّا لانعرفك إلّا بعليّ بن أبي طالب فقال عليه السلام : يا لكع إنّ أبي سمّاني زيداً باسم جدّه .

و في رواية حذيفة : و تسيّف على رجليه من أسفل فوقع على قفاه و ثارت بينهما عجاجة فسمع عليّ عليه السلام يكبّر فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : قتله والّذي نفسي بيده فكان أوّل من ابتدر العجاج عمر بن الخطّاب فإذاً يمسح عليّ سيفه بدرع عمرو فكبّر عمر بن الخطّاب وقال : يارسول الله قتله .

فجزّ عليّ عليه السلام رأسه و أقبل نحو رسول الله و وجهه يتهلّل فقال عمر : هلّا سلبته درعه فإنّه ليس للعرب درع أنفس منها ؟ فقال عليه السلام : ضربته فاتّقاني بسوأته فاستحيت أن أستلبه .

قال حذيفة : فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : أبشر يا عليّ فلو وزن اليوم عملك بعمل اُمّة لرجح عملك بعملهم وذلك أنّه لم يبق بيت من بيوت المشركين إلّا وقد دخله وهنٌ بقتل عمرو ولم يبق بيت من بيوت المسلمين إلّا وقد دخله عزّ بقتل عمرو .

و بحذف الأسانيد عن عبدالله بن مسعود أنّه كان يقرأ « و كفى الله المؤمنين القتال بعليّ » . وخرج أصحاب عمرو منهزمين وتبادر المسلمون فوجدوا نوفل بن عبدالعزّى جوف الخندق فجعلوا يرمونه بالحجارة فقتله الزبير بن العوّام . وذكر ابن إسحاق أنّ عليّاً طعنه في ترقوته حتّى أخرجها من مراقّه فمات في الخندق و بعث المشركون إلى رسول الله يشترون جيفته بعشرة آلاف فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : هو لكم لا نأكل ثمن الموتى .

و روي عن أبي بكر بن عيّاش أنّه قال : ضرب عليّ ضربة ما كان في الإسلام أعزّ

منها و ضرب ﷺ ضربةً ما كان أشأم منها . يعني ضربة ابن ملجم ألجمه الله بلجام النار .

وبالجملة فكان الأمر على المسلمين في غاية الشدّة والخوف بالغاً إلى الغاية ؛ قال حذيفة بن اليمان والله لقد رأينا يوم الخندق وبنا من الجهد والجوع والخوف مالا يعلمه إلا الله و قام رسول الله ﷺ فصلّى ماشاءالله من اللّيل ثمّ قال : ألا رجل يأتينا بخبر القوم يجعله الله رفيقي في الجنّة قال حذيفة : فوالله ماقام منّا أحد ممّا بنا من الجوع فلمّا لم يقم أحد دعاني فلم أجد بدّاً من إجابته قلت : لبّيك قال : اذهب فجئني بخبر القوم ولاتحدثنّ شيئاً حتّى ترجع قال : وأتيت القوم فرأيت أنّ الله خذلهم فإذاً ريح الله وجنوده يفعل بهم مايفعل من إرسال ريح باردة عليهم في ليلة شاتية وإرسال الملائكة وقذف الرعب في قلوبهم حتّى كان البعض يلتزق بالبعض من خوف الخيل في جوف الليل وهذا معنى .

قوله تعالى : [فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها] فما يستقرّ لهم عزم ولا تثبت لهم نار ولا يطمأنّ لهم قدرٌ قال حذيفة : فلمّا رأيت الأمر على ذلك إذ خرج أبوسفيان من رحله ثمّ قال : يامعشر قريش لينظر أحد كم من جليسه قال حذيفة : فبدأت بالّذي عن يميني فقلت : من أنت قال : أنافلان ثمّ عاد أبوسفيان براحلته فقال : يامعشر قريش والله ماأنتم بدار مقام هلك الخفّ والحافر و أخلفنا بنوقريظة بسبب دهاء رجل يقال له نعيم بن مسعود الأشجعي -وقصّته مشهورة- وهذه الريح لايستمسك لنامعها شيء ثمّ عجّل فركب راحلته وإنّها لمعقولة ماحلّ عقالها إلّا بعد ماركبها قال حذيفة : قلت في نفسي : لو رميت عدوّ الله فقتلته كنت صنعت شيئاً فوترت قوسي ووضعت السهم في كبد القوس وأنا أريد أن أرميه فأقتله فذكرت قول النبيّ ﷺ : لاتحدثنّ شيئاً حتّى ترجع ، فحططت القوس ورجعت إلى رسول الله وهو يصلّي فلمّا فرغ من صلاته قال : ما الخبر؟ فأخبرته وقد كان دعا عليهم : اللهمّ أنت منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب اللّهم اهزمهم وزلزلهم .

وعن أبي هريرة قال : كان ﷺ يقول : لاإله إلّا وحده أعزّ جنده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده .

وعن سليمان صرد قال : قال رسول الله ﷺ : حين أجلي عنه الأحزاب : الآن

تغزوهم ولايغزونا فكان كما قال : فلم تغزهم قريش بعد ذلك .

وقوله : [وتظنّون بالله الظنونا] أي كلّ قسم من أقسام الظنون لأنّ عند الأمر العظيم كلّ أحد يظنّ شيئاً ، ويمكن الألف واللام للاستغراق و يمكن أن يكون العهد فإنّ المعهود من المؤمن ظنّ الخير بالله و الكافر ظنّ السوء كما قال تعالى : « ذلك ظنّ الّذين كفروا (١) » .

فإن قيل : المصدر لاتجمع فما الفائدة في جمع الظنون ؟ فالمراد من بيان أقسام ظنون مختلفة بعضهم صائبين وبعضهم مخطئين و بعضهم كاذبين ولوكان يقول : تظنّون ظنّاً ، ماأفاد هذا المعنى .

قوله تعالى : هنـاك ابتلى المؤمنون وزلزلوازلزالا شديدا (١١) واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ماوعدناالله ورسوله الاغرورآ(١٢) واذ قالت طائفة منهم ياأهل يثرب لامقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون ان بيوتنا عورة وماهي بعورة ان يريدون الافرارآ (١٣) ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لاتوها وما تلبثوا بها الايسيرا(١٤) ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الادبار وكان عهدالله مسئولا(١٥) قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت اوالقتل واذا لاتمتعون الاقليلا(١٦) قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان اراد بكم سوءآ او ارادبكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليآ ولانصيرآ (١٧) قد يعلم الله المعوقين منكم و القائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون الباس الا قليلا (١٨) اشحة عليكم فاذا جاء الخوف رايتهم ينظرون اليك تدور اعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد اشحة على الخير اولئك لم يؤمنوا فاحبط الله اعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا (١٨) يحسبون الاحزاب لم يذهبوا وان يات الاحزاب يودوا لو انهم بادون في الاعراب يسألون عن انبائكم ولو كانوا فيكم ماقاتلوا الا قليلا (٢٠) .

قوله : [هنالك] يقال : « هنا » للقريب و « هنالك » للبعيد و « هناك » للمتوسّط

(١) ص : ٢٧ .

بين القريب والبعيد وسبيله سبيل ذا و ذلك وذاك .

و لمّا وصف سبحانه شدّة الأمر يوم الخندق قال : [هنالك ابتلي المؤمنون] و اختبروا ليظهر حسن إيمانهم وصبرهم في جهاد أعدائه فظهر من كان ثابتاً قويّاً في الإيمان ومن كان ضعيفاً [وزلزلوا زلزالاً شديداً] وحرّكوا بالخوف تحريكاً شديداً عظيماً و ذلك أنّ الخائف يكون قلقاً لا يستقرّ على مكانه بل بعض اضطربوا على دينهم أو في دينهم ، وهذا الابتلاء ليس لاستبانة الأمر له سبحانه لأنّه عالم بما سيكون بل استحقاق الثواب والعقاب لايتحقّق إلّا بعد الوقوع وأراد سبحانه إظهار الأمر للملائكة والأنبياء .

ثمّ قال سبحانه : [وإذ يقول المنافقون] فسّر الظنون فظنّ المنافقون أنّ ما قال الله ورسوله كان زوراً ووعدهما كان غروراً حيث قطعوا بأنّ الغلبة للكفّار واقعة .

واذكر [إذ قالت طائفة منهم ياأهل يثرب لامقام لكم] أي ياأهل مدينة الرسول لاوجه لإقامتكم مع محمّد ، و «يثرب» اسم للمدينة ولها أسماء اُخر ؛ ذكر السيّد المرتضى قدّس الله سرّه أنّ من أسماء المدينة طيبة و طابة والدار و السكينة و جائزة و المجبورة و المحبّة والمحبوبة والعذراء والمرحومة والقاصمة ويندروذاك ثلاثة عشر أسماء . أي لامكان لكم يا أهل يثرب تقومون فيه للقتال إذا فتح الميم [فارجعوا] إلى منازلكم بالمدينة والقائلون المنافقون من أصحاب الرسول مثل عبدالله بن اُبيّ و أصحابه أوبنوسالم أوأوس ابن قبطيّ ومن وافقه قوله : [ويستأذن فريق منهم النبيّ] صلّى الله عليه وآله و استأذنوا من النبيّ وتعلّلوا بأنّ [بيوتنا عورة] أي فيها خللٌ لايأمن صاحبها السارق على متاعه يعني ليست بحصينة أوالمعنى ، أنّ بيوتنا خالية من الرجال نخشى عليها ولانأمن على أهلها فكذّبهم الله فقال : [وماهي بعورة] بل حصينة ، عن الصادق عليه السلام . [إن يريدون إلّا فراراً] أي ما يريدون إلّا هرباً من القتال .

[ولو دخلت عليهم من أقطارها] أي ولو دخل هؤلاء الّذين يريدون القتال وهم العدوّ والأحزاب على الّذين يقولون: إنّ بيوتنا عورة، وهم المنافقون من أقطار المدينة ونواحيها و البيوتات [ثمّ سئلوا الفتنة لآتوها] أي ثمّ دعوا هؤلاء إلى الشرك لأشركوا

والمراد بالفتنة الشرك عن ابن عبّاس . [وما تلبّثوا بها إلّا يسيراً] أي وما احتبسوا عن الإجابة إلى الكفر إلّا قليلاً أو المعنى وما أقاموا بالمدينة بعد إعطائهم الكفر و قبولهم إلّا قليلاً من الزمان حتّى يعاجلهم الله بالعذاب .

ثمّ وبّخهم سبحانه وذكر عهدهم مع النبيّ ﷺ بالثبات في المواطن فقال : [ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل] الخندق [لا يولّون الأدبار] وبايعوا وحلفوا له ﷺ أنّهم ينصرونه ويدفعون عنه كما يدفعون عن نفوسهم ولا يرجعون عن مقاتلة العدوّ ولا ينهزمون قال مقاتل : يريد ليلة العقبة . [وكان عهد الله مسئولاً] يسألون عنه في الآخرة ، وإنّما جاء بلفظ الماضي تأكيداً وتحقيقاً للوقوع من السؤال .

ثمّ قال : [قل] يا محمّد للذين يستأذنوك للرجوع و اعتلّوا بأنّ بيوتنا خالية : [لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً] في هذه الوقعة [لا تمتّعون] في الدنيا [إلّا] أيّاماً قلائل إن لم يحضر كم آجالكم وإن قدّر لكم فالهرب والفرار لا ينفعكم ولا يزيد في آجالكم ولا تسلمون من القتل أو الموت .

[قل] يا محمّد : [من ذا الّذي يعصمكم من الله] ويدفع عنكم قضاء الله ويمنعكم من الله [إن أراد بكم سوءاً] وعذاباً وعقوبة [أو أراد بكم رحمة] أي نصراً و عزّاً فإنّ أحداً لا يقدر على ذلك [ولا يجدون لهم من دون الله وليّاً] يلي اُمورهم [ولا نصيراً] يدفع عنهم السوء .

ثمّ قال سبحانه : [قد يعلم الله المعوّقين منكم] وهم الّذين يمنعون غيرهم من النصرة والجهاد مع النبيّ ﷺ ويثبّطوهم ويشغلونهم لينصرفوا عنه و ذلك لأنّهم كانوا يقولون : ما محمّد وأصحابه إلّا آكلة رأس ولو كانوا لحماً لالتهمهم أبو سفيان و الأحزاب .

قوله : [والقائلين لإخوانهم] يعني اليهود قالوا : لإخوانهم المنافقين [هلّم إلينا] أي أقبل إلينا . وأهل الحجاز يقولون للواحد والاثنين والجمع والمذكّر والمؤنّث بلفظ الواحد وإنّما هي «لمّ» ضمّت إليها هاء الّتي للتنبيه و حذفت الألف إذ صار شيئاً واحداً كقولهم «ويله» وأصله: ويل لاُمّه. فلمّا جعلوهما شيئاً واحداً حذفوا وغيّروا ، وأمّا بنو تميم فيصرفونه تصريف الفعل يقولون : هلمّ يا رجل وهلمّا وهلمّوا و هلمّي يا امرأة و هلممن يا نساء إلّا

أنّهم يفتحون آخر الواحد البتّة وبالجملة فالمعنى: تعالوا وأقبلوا إلينا ودعوا محمّداً.

وقيل: القائلون هم المنافقون قالوا لإخوانهم من ضعفة المسلمين: لاتحاربوا وخلّوا محمّداً فإنّا نخاف عليكم الهلاك.

[ولا يأتون البأس] ولا يحضرون القتال في سبيل الله [إلّا قليلاً] يخرجون رياءً وسمعة قدر ما يوهمون أنّهم معكم ولا يحضرون القتال إلّا كارهين و يكون قلوبهم مع المشركين [أشحّة عليكم] بأبدانهم وأنفسهم وأموالهم في القتال وفي النفقة وبخلاء بالنفقة والنصرة، ثمّ وصف سبحانه جبنهم وجرأتهم [فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالّذي يغشى عليه من الموت] أي إذا عرض لهم أمر صعب في القتال تشخص أبصارهم وتحار أعينهم من شدّة خوفهم كعين الّذي يغشى عليه ويقع عليه غشوة الموت وهي الحالة الّتي تحدث عند الموت من ذهاب العقل وشخوص البصر فلا تطرف العين حينئذ.

[فإذا ذهب الخوف] والفزع وجاء الأمن و الغنيمة [سلقوكم] (وإيّاك و بذاءة اللسان حضوراً وغياباً فقد قيل: من لاحاك فقد عاداك وفي الحديث: إنّ أوّل مانهاني ربّي عنه بعد عبادة الأوثان شرب الخمر وملاحاة الرجال وقيل: من اغتاب خرق ومن استغفر رفع وعليك بحفظ اللسان ولو من الطيّب من القول في غير محلّه قال ﷺ: إذا رأيتم المازحين فاحثوا في أفواههم إنّ البلاء موكّل بالمنطق و شرّ الناس من شرّفوا لبذاءة لسانه مثل عمروعاص). وآذوكم وخاصموكم [بألسنة] سليطة ذربيّة وأيضاً [أشحّة على الخير] حتّى أنّهم يبخلون بكلام فيه خير. وقيل: معناه: بخلاء بالغنيمة يشاحّون المؤمنين عند القسمة [أولئك لم يؤمنوا] أي من تقدّم وصفهم لم يؤمنوا كما آمن غيرهم وإلّا لما فعلوا ذلك [فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً] لأنّها لم تقع على وجوه الإخلاص ولم يقصدوا بها وجه الله ولايستحقّ عليها الثواب.

وفي هذا دلالة على صحّة مذهبنا في الإحباط لأنّ المنافقين ليس لهم ثواب فيحبط وجهادهم الّذي لم يقارنه إيمان لم يستحقّوا عليه ثواباً.

[وكان ذلك] الإحباط أوذلك النفاق منهم [على الله يسيراً] هيّناً.

ثمّ وصف سبحانه هؤلاء المنافقين فقال : [يحسبون الأحزاب لم يذهبوا] أي يظنّون أنّ الأحزاب الّذين تحزّبوا على رسول الله من قريش وغطفان وأسد و اليهود لم ينصرفوا وقد انصرفوا وإنّما ظنّوا ذلك لجبنهم [وإن يأت الأحزاب] أي و إن يرجع الأحزاب إليهم ثانية للقتال [يودّوا لو أنّهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم] أي يودّ هؤلاء المنافقون أن يكونوا في البادية مع الأعراب يسألون عن أخباركم ولا يكونوا معكم حذراً من القتل تربّصاً للدوائر .

[ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلّا قليلاً] أي ولو كان هؤلاء المنافقون معكم و فيكم لم يقاتلوا معكم إلّا قدراً يسيراً ليوهموا أنّهم في جملتكم لا لينصروكم .

قوله : لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الاخر و ذكر الله كثيراً (٢١) ولما راى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله و رسوله و مازادهم الا ايمانا و تسليما (٢٢) من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا (٢٣) ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين ان شاء اويتوب عليهم ان الله كان غفورا رحيما (٢٤) ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً و كفى الله المؤمنين القتال و كان الله قويا عزيزاً (٢٥).

ثمّ حثّ سبحانه على الجهاد والصبر عليه فقال :

[لقد كان] معاشر المكلّفين [لكم في رسول الله اُسوة] قدوة صالحة أي لكم برسول الله اقتداء لو اقتديتم به في نصرته و الصبر معه في مواطن القتال كما فعل هو يوم اُحد إذا انكسرت رباعيّته و شجّ حاجبه و قتل عمّه فواساكم مع ذلك بنفسه فهلاّ فعلتم ما فعله ؟

وقوله : [لمن كان يرجو الله] بدل من قوله «لكم» وهو تخصيص بعد التعميم للمؤمنين أي إنّما الاُسوة برسول الله إنّما يكون لمن كان يرجو الله و يرجو ماعند الله من الثواب و النعيم، أو المعنى: من يخشى الله ويخشى البعث الّذي فيه جزاء الأعمال وهو قوله : [و اليوم الآخر وذكر الله كثير] أي ذكراً كثيراً وذلك لأنّ المتذكّر بخلاف الغافل .

ثمّ عاد إلى ذكر الأحزاب فقال : [ولمّا رأى المؤمنون الأحزاب] أي ولمّا عاين المصدّقون بالله ورسوله الجماعة الّتي تحزّبت على قتال النبيّ مع كثرتهم [قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله] واختلف في معناه على قولين : أحدهما أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان قد أخبرهم أنّه يتظاهر عليهم الأحزاب و يقاتلونهم و وعدهم الظفر بهم فلمّا رأوهم تبيّن لهم مصداق قوله ، وكان ذلك معجزاً له. والقول الثاني : أنّ الله وعدهم في سورة البقرة بقوله : « أم حسبتم أن تدخلوا و لمّا يأتكم مثل الّذين خلوا ـ إلى قوله ـ إنّ نصر الله قريب [(١)] » ماسيكون من الشدّة الّتي تلحقهم من عدوّهم .

فلمّا رأوا الأحزاب يوم الخندق قالوا : « هذا ما وعدنا الله و رسوله » علماً منهم أنّه لايصيبهم إلّا ماأصاب الأنبياء والمؤمنين قبلهم وزادهم كثرة المشركين يقيناً و ثباتاً في الحرب وقولهم : « وصدق الله ورسوله » ليس إشارة إلى ماوقع فإنّهم كانوا يعرفون صدق الله قبل الوقوع وإنّما هي إشارة إلى أنّ جميع ماوعدالله سيقع مثل فتح مكّة و فتح الروم وفارس .

قوله : [من المؤمنين رجالٌ صدقوا ماعاهدوا الله عليه] أي بايعوا أن لايفرّوا فصدقوا في لقائهم العدوّ [فمنهم من قضى نحبه] والنحب النذر والعهد والموت و الخطر أي مات وقتل في سبيل الله فأدرك ما تمنّى و فرغ من عمله الّذي يكون أن يعمل ورجع إلى ربّه ، و المراد منهم الّذين استشهدوا يوم اُحد .

روي عن أنس بن النضر أنّ عمّه غاب عن قتال بدر فقال أنس : غبت عن أوّل قتال قاتله رسول الله مع المشركين لئن أراني الله قتالاً للمشركين ليرينّ الله ماأصنع فلمّا كان يوم اُحد انكشف المسلمون وانهزموا فقال : اللّهم إنّي أعتذر إليك بماصنع هؤلاء يعني المسلمين وأبرأ إليك ممّا جاء به هؤلاء يعني المشركين ثمّ تقدّم فلقيه سعد دون اُحد وقال سعد : أنامعك ، قال سعد : ولم أستطع أن أصنع ما صنع فوجد فيه بضع و ثمانون مابين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم .

---

(١) البقرة : ٢١٤ .

و في أصحابه صلى الله عليه وآله نزلت : « فمنهم من قضى نحبه » [ومنهم من ينتظر] روى البخاريّ في الصحيح فمنهم من قضى نحبه المراد من استشهد يوم بدر و اُحد و منهم ينتظر ما وعد الله من نصرة أو شهادة من أصحابه صلى الله عليه وآله [وما بدّلوا تبديلاً] أي ما غيّروا العهد الّذي عاهدوا ربّهم كما غيّر المنافقون . قال ابن عبّاس : من قضى نحبه حمزة بن عبد المطّلب و من قتل معه و أنس بن النضر و أصحابه . و في رواية الصحيفة بحذف الأسانيد أنّ عليّاً عليه السلام قال : نزلت فينا الآية « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » فأنا والله المنتظر وما بدّلت تبديلاً .

قوله : [ليجزي الله الصادقين بصدقهم] أي صدق المؤمنون من عهودهم ليجزيهم الله بصدقهم [ويعذّب المنافقين] بنقض العهد [إن شاء أو يتوب عليهم] أي إن شاء قبل توبتهم فأسقط عقابهم وإن شاء لم يقبل توبتهم وعذّبهم فإنّ إسقاط العذاب على المذهب الصحيح بالتوبة فضل من الله لايجب عقلاً وإنّما علمنا ذلك بالسمع و الإجماع على أنّ الله سبحانه يفعل ذلك والآية قاضية بما يقتضيه العقل من الحكم و يؤيّد ذلك قوله : « إنّ الله كان غفوراً رحيماً » لأنّ المدح إنّما يحصل إذا رحم سبحانه من يستحقّ العقاب و يغفر ما جاز له المؤاخذة به ولامدح في مغفرة ورحمة من يجب غفرانه ورحمته وقيل : معناه: ويعذّب المنافقين بعذاب عاجل في الدنيا إن شاء أو يتوبوا .

ثمّ عاد سبحانه إلى تعداد نعمه فقال : [وردّ الله الّذين كفروا] يعني الأحزاب أباسفيان وجنوده وغطفان ومن معهم من القبائل [بغيظهم] أي بغمّهم الّذي جاؤوا به وما نالوا ما أرادوا [ولم ينالوا خيراً] أمّلوه و أرادوه من الظفر بالنبيّ و المؤمنين ، و إنّما سمّاه خيراً لأنّ ذلك كان عندهم خيرٌ ، و قيل : أراد بالخير المال لقوله تعالى : « و إنّه لحب الخير لشديد [(١)] » .

قوله تعالى : [و كفى الله المؤمنين القتال] أي مباشرة القتال بما أنزل الله على المشركين من الريح الشديدة الباردة الّتي أزعجتهم عن أماكنهم وبما أرسل من الملائكة و قذف الرعب في قلوبهم . وقيل : بعليّ بن أبي طالب عليه السلام كما أنّه قد قيل : إنّ الآية نزلت

(١) العاديات : ٨ .

« كفى الله المؤمنين القتال بعلي » وذلك بقتله عليه السلام عمرو بن عبدود وكان ذلك سبب هزيمة القوم، عن عبدالله بن مسعود وهو المروي عن الصادق عليه السلام [و كان الله قوياً] وقادراً على مايشاء [عزيزاً] لايمتنع عليه شيء .

قوله تعالى : وأنزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيهم و قذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون و تأسرون فريقاً (٢٦) وأورثكم أرضهم و ديارهم و اموالهم و ارضا لم تطؤوها و كان الله على كل شيء قدير آ(٢٧) .

ثم ذكر سبحانه ما فعل باليهود من بني قريظة فقال : [وأنزل الذين ظاهروهم] أي الذين عاونوا المشركين من الأحزاب أنزلهم الله من قلاعهم [وقذف] الله [في قلوبهم] أي أوقع في قلوب بني قريظة [الرعب] حتى سلموا أنفسهم للقتل و أولادهم و نساءهم للسبي [فريقاً تقتلون] وهم الرجال [وتأسرون فريقاً] وهم الصبيان والنسوان ، وتقديم المفعول على الفعل في قوله : « فريقاً تقتلون » شدة الاهتمام ببيان المفعول كما أن الإنزال بعد قذف الرعب حصل ولكن لما كان بيان الإنزال أهم من بيان قذف الرعب قدم ذكر الإنزال مع أن قذف الرعب كان قبل وقوع الإنزال .

ثم قال سبحانه : [وأورثكم أرضهم و ديارهم وأموالهم] لأن المؤمنين نزلوا أرضهم واستولوا عليها ثم أخذوا أموالهم [وأرضاً لم تطؤوها] بعد،قيل : المراد قلاعهم . وقيل : المراد الروم وأرض فارس. ولما ملكهم تلك البلاد ووعدهم بغيرها دفع استبعاد الضعفاء بقوله : [وكان الله على كل شيء قديراً] .

وروى الزهري عن عبدالرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه قال : لما انصرف النبي صلى الله عليه وآله مع المسلمين عن الخندق ووضع عنه اللامة و اغتسل واستحم تبدّى له جبرئيل عليه السلام غديرك من محارب أراك قد وضعت عنك اللامة وما وضعناه بعد فوثب رسول الله صلى الله عليه وآله فزعاً فعزم على الناس أن لايصلوا صلاة العصر حتى يأتوا قريظة فلبس الناس السلاح فلم يأتوا بني قريظة حتى كادت الشمس أن تغرب و اختصم الناس فقال بعضهم: إن رسول الله عزم علينا أن لا نصلي حتى نأتي قريظة فإنما نحن في عزمة رسول الله

فليس علينا إثم و صلّى طائفة من الناس احتساباً وتركت طائفة منهم الصلاة حتّى غربت الشمس فصلّوها حين جاءوا قريظة .

قال عروة : إنّه صلى الله عليه وآله بعث عليّاً على المقدّم ودفع عليه اللّواء وأمره أن ينطلق حتّى يقف بهم على حصن بني قريظة ففعل وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله على آثارهم فمرّ صلى الله عليه وآله على مجلس من الأنصار في بني غنم ينتظرون رسول الله فزعموا أنّه قال : مرّ بكم الفارس آنفاً فقالوا : مرّ بنا دحية الكلبيّ على بغلة شهباء تحته قطيفة ديباج فقال رسول الله : ليس ذلك بدحية ولكنّه جبرئيل أُرسل إلى بني قريظة ليزلزلهم ويقذف في قلوبهم الرعب .

قالوا : وسار عليّ عليه السلام حتّى دنا من الحصن سمع منهم مقالة قبيحة لرسول الله فرجع حتّى لقي رسول الله بالطريق فقال : يارسول الله عليك أن لا تدنو من هؤلاء ، قال : أظنّك سمعت لي منهم أذى ، فقال : نعم فقال صلى الله عليه وآله : لو قد رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً فلمّا دنا رسول الله من حصونهم قال : يا إخوة القردة والخنازير هل أخزاكم الله و أنزل بكم نقمة؟ فقالوا : يا أبا القاسم ما كنت جهولاً .

و حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وآله خمس و عشرين يوماً حتّى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب وكان حيّ بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت غطفان وقريش فلمّا أيقنوا أنّ رسول الله غير منصرف عنهم حتّى يناجزهم قال كعب بن أسيد : يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإنّي عارض عليكم خلالاً[١] ثلاثاً فخذوا أيّها شئتم قالوا : ماهنّ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدّقه فوالله لقد تبيّن لكم أنّه نبيّ مرسل وأنّه الّذي تجدونه في كتابكم فتأمنوا على دمائكم وأموالكم ونسائكم فقالوا : لانفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره ، فقال : فإذا أبيتم عليّ هذا فهلمّوا فنقتل أبناءنا و نساءنا ثمّ نخرج إلى محمّد رجالاً مصلتين بالسيوف لم نترك وراءنا ثقلاً يهمّنا حتّى يحكم الله بيننا و بين محمّد فإن نهلك لم نترك و راءنا نسلاً يهمّنا و إن نظهر لنجدنّ النساء و الأبناء بعد ذلك فقالوا : نقتل هؤلاء المساكين فماخير العيش بعدهم؟ قال : فإن أبيتم عليّ هذه فإنّ الليلة ليلة السبت وعسى أن يكون محمّد و أصحابه قد أمنوا فانزلوا لعلّنا نصيب

(٢) جمع الخلة ـ بالفتح ـ الخصلة .

منهم غيرة (١) فقالوا : نفسدسبتنا ونحدث فيها ما أحدث من كان قبلنا فأصابهم ما قدعلمت من المسخ ، فقال : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمّه ليلة واحدة من الدهر حازماً .

قال الزهريّ : و قال رسول الله حين سألوه أن يحكم فيهم رجلاً : اختاروا من شئتم من أصحابي فاختاروا سعد بن معاذ فرضي بذلك النبيّ ﷺ فنزلوا على حكم سعد بن معاذ فأمر رسول الله بسلاحهم فجعل في قبّة وأمرهم فكتفوا وأوثقوا وجعلوا في دار أسامة وبعث النبيّ ﷺ إلى سعد بن معاذ فجيء فحكم بما هو الأصلح بأن تقتل مقاتليهم و تسبى ذراريّهم ونساءهم وتغنم أموالهم وأنّ عقارهم للمهاجرين دون الأنصار وقال للأنصار: إنّكم ذوو عقار وليس للمهاجرين عقار فكبّر رسول الله وقال لسعد : قد حكمت فيهم بحكم الله عزّ وجلّ. وفي رواية:قد حكمت فيهم يا سعد بحكم الله من فوق سبعة أرقعة . و«أرقعة» جمع رقيع اسم سماء الدنيا .

فقتل رسول الله مقاتليهم وكانوا في ما زعموا ستّمائة مقاتل وسبى سبعمائة و خمسين و روي أنّهم قالوا لكعب بن أسيد وهم يذهب بهم إلى رسول الله إرسالاً : يا كعب ماترى يصنع بنا ؟ كعب : هو والله القتل . وأُتي بحيّ بن أحطب عدوّ الله عليه حلّة فاختيّة قد شقّقها عليه من كلّ ناحية كموضع الأنملة لئلاّ يسلبها ويداه مجموعة إلى عنقه بحبل فلمّا بصر به رسول الله فقال : أما والله مالمت نفسي على عداوتك ولكنّه من يخذل الله يخذل ؟ ثمّ جلس فضرب عنقه ثم قسّم رسول الله نساءهم وأبناءهم وأموالهم على المسلمين وبعث رسول الله ﷺ بسبايا منهم إلى نجد مع سعد بن الأنصاريّ فابتاع بهم خيلاً وسلاحاً .

قالوا : فلمّا انقضى شأن بني قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ فرجعه رسول الله إلى خيمته الّتي ضربت عليه في المسجد وروي عن جابر بن عبدالله الأنصاريّ قال : جاء جبرئيل؟ إلى رسول الله ﷺ فقال : من هذا العبد الصالح الذي مات؟فتحت له أبواب السماء وتحرّك واهتزّ له العرش فخرج رسول الله فإذا سعد بن معاذ قد قبض ، انتهى .

قوله تعالى : يا أيها النبى قل لازواجك ان كنتن تردن الحيوة الدنيا و زينتها فتعالين امتعكن و اسرحكن سراحاً جميلا (٢٨) وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما (٢٩) يا نساء النبى

(١) الغيرة . الغارة .

من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا (٣٠) ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين واعتدنا لها رزقاً كريما (٣١) .

النزول : قال المفسّرون : إنّ أزواج النبيّ ﷺ سألته شيئاً من عرض الدنيا و طلبن منه زيادة في النفقة فأبى رسول الله منهنّ شهراً فنزلت آية التخيير وهوقوله : «قل لأزواجك» و كنّ يومئذ تسعاً عايشة و حفصة وأُمّ حبيبة بنت أبي سفيان و سودة بنت زمعة و أُمّ سلمة بنت أبي أُميّة فهؤلاء من قريش و صفيّة بنت حيّ بن أخطب الخيبريّة و ميمونة بنت الحارث الهلاليّة و زينب بنت جحش الأسديّة و جويريّة بنت الحارث المصطلقيّة .

المعنى : [قل] يا محمّد [لأزواجك إن كنتنّ تردن] سعة العيش في الدنيا و كثرة المال [فتعالين أُمتّعكنّ] أي اُعطيكنّ متعة الطلاق بتوفير المهر و اُعطيكنّ نحلةً [و اُسرّحكنّ سراحاً جميلاً] و السراح الجميل الطّلاق بغير خصومة ومشاجرة .

القميّ : كان سبب النزول أنّه لمّا رجع رسول الله ﷺ من غزوة خيبر وأصاب كنز آل أبي الحقيق قلن أزواجه : أعطنا ما أصبت فقال لهنّ النبيّ : قسّمته بين المسلمين على ما أمر الله فغضبن من ذلك وقلن: لعلّك ترى أنّك إن طلّقتنا إذاً لا نجد الأكفاء من قومنا فأنف الله لرسوله فأمره أن يعتزلهنّ فاعتزلهنّ رسول الله ﷺ في غرفة أُمّ إبراهيم تسعة وعشرين يوماً حتّى حضن وطهرن .

ثمّ أنزل هذه الآية فلمّا قرأها رسول الله فأوّل من قامت منهنّ أُمّ سلمة فقالت : قد اخترت الله ورسوله فقمن كلّهنّ فعانقنه وقلن مثل ذلك فأنزل الله «ترجي من تشاء وتؤوي إليك من تشاء[1]» قال الصادق عليه السلام : من آوى فقد نكح ومن أرجى فقد طلّق فقوله : «ترجي من تشاء منهنّ» مع هذه الآية «يا أيّها النبيّ قل لأزواجك الآية» وقد أخترت

(١) السورة : ٥١ .

عنها في التأليف وعن الباقر عليه السلام : إنّ بعض نساء النبيّ قال : أيرى محمّد أنّه لو طلّقنا إذاً لا نجد الأكفاء فغضب الله عزّ وجل له من فوق سبع سماوات فأمره فخيّرهنّ . و سئل الباقر عليه السلام عن رجل خيّر امرأته فاختارت نفسها هل تبين؟ قال : لا إنّما هذا كان شيء لرسول الله خاصّة أُمر بذلك ففعل ولو اخترن أنفسهنّ لطلّقهنّ .

قوله تعالى : [و إن كنّ تردن الله ورسوله والدار الآخرة] أي و إن أردتنّ طاعة الله وطاعة رسوله والصبر على ضيق المعاش و الجنّة [فإنّ الله أعدّ للمحسنات] العارفات المطيعات له [منكنّ أجراً عظيماً] .

قوله تعالى : [يانساء النبيّ من يأت منكنّ بفاحشة مبيّنة] أي بمعصية ظاهرة فأدّبهنّ الله وهدّدهنّ المتوقّي عمّا يسوء النبيّ وأوعدهنّ بتضعيف العذاب فقال سبحانه : [يضاعف لها العذاب] في الآخرة ضعفين أي مثلي ما يكون على غيرهنّ و ذلك لأنّ نعم الله عليهنّ أكثر لمكانة النبيّ صلّى الله عليه وآله منهنّ ولنزول الوحي في بيوتهنّ فإذا كانت النعمة عليهنّ أعظم وأوفر كانت المعصية منهنّ أفحش والعقوبة بها أعظم وأكثر .

فالمعنى أنّها يزاد في عذابها ضعف كما زيد في ثوابها ضعف كما في قوله : « نؤتها أجرها مرّتين » [و كان ذلك على الله يسيرا] أي كان عذابها على الله هيّناً .

قوله تعالى : [ومن يقنت منكنّ لله ورسوله وتعمل صالحاً] بيّن سبحانه زيادةً في ثوابهنّ كما بيّن زيادة عقابهنّ [نؤتها أجرها مرّتين] في مقابلة قوله تعالى : « يضاعف لها العذاب ضعفين » و ههنا لطيفة وهي عند إتيان الأجر ذكر المؤتي وهو الله وعند العذاب لم يصرّح بالمعذّب فقال : « يضاعف » إشارة إلى كمال الرحمة و الكرم .

[وأعتدنا لها رزقاً كريماً] وصف رزق الآخرة بكونه « كريماً » مع أنّ الكريم لايكون إلّا وصفاً للرازق لأنّ رزق الدنيا ولو أنّه منه سبحانه لكنّه مقدّر على أيدي الناس مثل أنّ التاجر يسترزق من السوق والصنّاع من المستعملين و الملوك من الرعيّة و الرعيّة بعضهم من بعض بالأسباب فالرزق في الدنيا لايأتي بنفسه وإنّما هو مسخّر للغير

يمسكه ويرسله وأمّا في الآخرة فلايكون له مرسل وممسك فهوالّذي يأتي بنفسه فلذلك يوصف رزق الآخرة بالكريم و بالجملة فمعنى الرزق الكريم ما سلم من كلّ آفة و نقصان .

قوله تعالى : يانساء النبى لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفاً (٣٢) وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى واقمن الصلوة وآتين الزكوة واطعن الله ورسوله انما يريدالله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا(٣٣) واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ان الله كان لطيفاً خبيرا(٣٤) ان المسلمين و المسلمات و المؤمنين و المؤمنات و القانتين و القانتات و الصادقين و الصادقات والصابرين والصابرات و الخاشعين و الخاشعات و المتصدقين والمتصدقات و الصائمين و الصائمات و الحافظين فروجهم و الحافظات و الذاكرين الله و الذاكرات اعدالله لهم مغفرة و أجرا عظيماً (٣٥) .

ثمّ أظهر سبحانه فضلهنّ علىسائر النساء بقوله :

[يانساء النبيّ] ولم يقل : كواحدة من النساء لأنّ «أحد» للنفي العامّ أي ليس قدر كنّ كقدر غير كنّ من النساء وأنتنّ أكرم وأنا بكنّ أرحم و ثواب عملكنّ أعظم لمكانتكنّ من رسولالله [إن اتّقيتنّ] الله وشرط لهنّ هذا الشأن بشرط التقوى فإنّ الأكرم عندالله هو الأتقى .

قوله : [فلا تخضعن بالقول] فأدّبهنّ الله عن كلّ قبيح ومنعهنّ عنمقدّماته وهي المحادثة مع الرّجال بالرقّة أي لا ترققن القول ولاتلنّ الكلام مع الرجال ولا تخاطبن الأجانب مخاطبة يؤدّي إلى طمعهم [فيطمع الّذي في قلبه مرض] و فجور و شهوة فإنّ ذلك أبعد من الطمع لأهل الريبة [وقلن قولاً معروفاً] مستقيماً جميلاً بريئاً من التهمة موافقاً للدين [و قرن في بيوتكنّ] أمرهنّ بالاستقرار في بيوتهنّ أي أثبتن في منازلكنّ وألزمنها وإن كانت مادّة الكلمة من وقر يقر فمعناه كنّ من أهل الوقار والسكينة [ولا

تبرّجن تبرّج الجاهليّة الأُولى] أي لاتخرجن على عادة النساء اللاّتي في الجاهليّة ولا تظهرن زينتكنّ كما كنّ يظهرن ذلك .

و «التبرّج» إظهار المرأة محاسنها مأخوذ من «البرج» وهوالسعة في العين ، و قيل : التبرّج التبختر والتكبّر في المشي . وقيل : هوأن تلقي الخمار على رأسها ولا تشدّه فتواري قلائدها وقرطيها فيبدو ذلك منها . والمراد « بالجاهليّة الأُولى » ماكان قبل الإسلام و قيل ماكان بين آدم ونوح ثمانمائة سنة وقيل : مابين عيسى ومحمّد ﷺ . و قيل برج الجاهليّة الأُولى أنّهم كانوا يجوّزون أن تجمع امرأة واحدة زوجاً وخلاًّ فتجعل لزوجها نصفها الأسفل وتجعل لزوجها ولخلّها نصفها الأعلى يقبّلها ويعانقها .

ثمّ قال سبحانه : [وأقمن الصلاة] أي الأداء في أوقاتها وشرائطها [وآتين الزكاة] المفروضة في أموالكنّ [وأطعن الله ورسوله] فيما يأمركنّ به وينهاكنّ عنه .

ثمّ قال : [إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهّركم تطهيراً] و الرجس عمل الشيطان ومالیس لله فيه رضى . والتعريف في «البيت» للعهد والمراد به بيت النبوّة والرسالة والعرب تسمّي ما ينتسب به بيتاً و لهذا سمّوا الأنساب بيوتاً فقالوا : بيوتات العرب يريدون النسب قال الشاعر :

ألا يابيت بالعلياء بيت ❊ ولو لا حبّ أهلك ما أتيت

و قيل : البيت « بيت الحرام » و قيل : البيت مسجد رسول الله ، وأهله من مكّنه رسول الله فيه ولم يخرجه ولم يسدّ بابه .

وقد اجتمعت الأُمّة بأجمعها على أنّ المراد بأهل البيت في الآية أهل بيت نبيّنا ثمّ اختلفوا فقال عكرمة : أراد أزواج النبيّ ﷺ وقال أبوسعيد الخدريّ وأنس بن مالك و واثلة بن الاسقع و عايشة وأمّ سلمة : إنّ الآية مختصّة برسول الله وعليّ و فاطمة و الحسن والحسين عليهم السلام . وإنّما ترك خطاب المؤمنات وخاطب بخطاب المذكّرين بقوله : « ليذهب عنكم الرجس » القمّي قال : ثمّ انقطعت مخاطبة النساء و خاطب أهل بيت الرسول فقال : « إنّما يريد الله الآية » .

وعن الباقر عليه السلام قال : نزلت هذه الآية في رسول الله وعليّ و فاطمة و الحسن و

الحسين وذلك في بيت أمّ سلمة زوجة الرسول فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين وفاطمة و الحسن والحسين عليهم السلام ثمّ ألبسهم كساءله خيبريّ ودخل معهم فيه ثمّ قال : اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي الّذين وعدتني فيهم ماوعدتني اللّهمّ أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً ، فقالت أمّ سلمة : وأنا معهم يا رسول الله قال : أبشري يا أمّ سلمة فإنّك على خير .

وعن زيد بن عليّ بن الحسين عليه السلام أنّ جهّالاً من الناس يزعمون أنّه إنّما أراد الله بهذه الآية أزواج النبيّ وقد كذبوا و أثموا وأيمن الله أنّه لو عنى سبحانه أزواج النبيّ لقال : « ليذهب عنكنّ الرجس و يطهّركنّ تطهيراً » و لكان الضمير مؤنّثاً كما قال : « أذكرن مايتلى في بيوتكنّ » ولا تبرّجن ولستنّ لأحد من النساء .

والعيّاشيّ عن الباقر ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن إنّ الآية ينزل أوّلها في شيء وأوسطها في شيء وآخرها في شيء ثم قال : « إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ويطهّركم تطهيراً » من ميلاد الجاهليّة ومن الذنوب و المعاصي و يلبسكم خلع الكرامة .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال : يعني الأئمّة وولايتهم من دخل فيها دخل في بيت النبيّ وعنه عليه السلام عن النبيّ أنّه قال في حديث : أوصيكم بكتاب الله و أهل بيتي فإنّي سألت الله أن لايفرّق بينهما حتّى يوردهما عليّ الحوض فأعطاني ذلك وقال : لاتعلّموهم فإنّهم أعلم منكم و قال : إنّهم لن يخرجوكم عن باب هدى ولن يدخلوكم في باب ضلالة وقال : لوسكت رسول الله ولم يبيّن من أهل بيته لادّعاها آل فلان ولكنّ الله أنزل في كتابه « إنّما يريد الله الآية » وكان عليّ و فاطمة و الحسن والحسين فأدخلهم رسول الله تحت الكساء في بيت أمّ سلمة ثمّ قال : اللّهمّ إنّ لكلّ نبيّ أهلاً و ثقلاً وهؤلاء أهل بيتي وثقلي فقالت أمّ سلمة : ألست من أهلك ؟ فقال صلى الله عليه وآله : إنّك على خير ولكنّ هؤلاء أهلي وثقلي و قال : في آخر الحديث : الرجس هو الشكّ والله لانشكّ في ربّنا أبداً .

وفي الخصال في احتجاج عليّ على أبي بكر . فأنشدك بالله ألي و لأهلي و ولدي نزلت آية التطهير أم لك ولأهل بيتك ؟ قال : بل لك ولأهل بيتك قال : فأنشدك بالله أنا صاحب دعوة رسول الله وأهلي وولدي يوم الكساء حين قال رسول الله صلى الله عليه وآله : اللّهمّ هؤلاء

أهلي إليك لا إلى النار أنا أم أنت ؟ قال : بل أنت و أهل بيتك . و في احتجاجه على الناس يوم الشورى قال : أنشدكم الله هل فيكم أحد أنزل الله فيه آية التطهير على رسول الله فأخذ رسول الله كساء خيبرياً فضمّني فيه وفاطمة و الحسن والحسين ثمّ قال : يارب هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً غيري قالوا : اللّهمّ بلى .

وفي العلل عن الصادق عليه السلام نزلت هذه الآية في النبيّ و أمير المؤمنين و فاطمة و الحسن و الحسين فلمّا قبض الله نبيّه كان أمير المؤمنين وفاطمة والحسن و الحسين ثمّ وقع تأويل قوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » لهم وكان عليّ بن الحسين ثمّ جرت في الأئمّة من ولده الأوصياء فطاعتهم طاعة الله ومعصيتهم معصية الله .

و بالجملة فالروايات في نزول هذه الآية في شأن الخمسة من طريق الخاصّة و العامّة أكثر من أن تحصى ، مثل الثعلبيّ . وقد روى في المجمع من طريق العامّة منها ما ذكر من أراده فليطلبه هناك .

و استدلّت الشيعة على اختصاص الآية بهذه الخمسة الطاهرة بأن قالوا : إنّ لفظة «إنّما» محقّقة لما أثبت بعدها نافية لما لم يثبت فإنّ قول القائل : إنّما لك عندي درهم و إنّما في الدار زيد يقتضي أنّه ليس عنده سوى الدرهم وليس في الدار سوى زيد وإذا تقرّر هذا فلا تخلو الإرادة أن يكون إرادة محضة أو الإرادة الّتي يتبعها التطهير و إذهاب الرجس ، ولا يجوز الوجه الأوّل لأنّ الله أراد من كلّ مكلّف هذه الإرادة المطلقة و لا اختصاص لها بأهل البيت دون سائر الخلق و المكلّفين و لأنّ هذا القول يقتضي المدح و التعظيم لشأنهم بغير شكّ و شبهة ولا مدح و اختصاص في الإرادة المجرّدة فثبت الوجه الثاني .

وأيضاً قد اتّفقوا أنّ هذه الإرادة قد وقعت لأنّ عصمتهم قد ثبتت بالإجماع من جميع القبائح وقد علمنا أنّ من عدا هؤلاء من أهل البيت غير مقطوع في عصمته .

فثبت أنّ الآية مختصّة لهم لبطلان تعلّقها بغيرهم حيث لم يقطع بعصمة غيرهم و متى قيل . إنّ صدر الآية وما بعدها في الأزواج فالجواب أنّ هذا أمر لا ينكره من عرف

عادة الفصحاء وأهل المحاورة في الكلام فإنّهم يذهبون من خطاب إلى غيره ويعودون إليه والقرآن مملوء من ذلك وكذلك كلام العرب مثل الجمل الواقعة في الكلام انتهى .

ثمّ عاد سبحانه إلى ذكر حكم الأزواج فقال : [واذكرن مايتلى في بيوتكنّ من آيات الله والحكمة] المعنى واشكرن الله تعالى إذ صيّركنّ في بيوت يتلى فيها الوحي و القرآن والسنّة وقيل : المعنى احفظن مايتلى عليكنّ من القرآن لتعملنّ بموجبه وهذا حثّ لهنّ على حفظ القرآن و السنّة ومذاكرتهنّ بهما و الخطاب وإن كان لهنّ فغيرهنّ يشاركهنّ فيه لأنّ بناء الشريعة على القرآن و السنّة [إنّ الله كان لطيفاً] بأوليائه [خبيراً] بجميع أعمال خلقه فيأمرهم بفعل مافيه صلاحهم و ينهاهم عن مافيه فسادهم .

قوله تعالى : [إنّ المسلمين والمسلمات] النزول : قال مقاتل بن حيّان : لمّا رجعت أسماء بنت عميس من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب دخلت على نساء رسول الله ﷺ فقالت : هل نزل فينا شيء من القرآن ؟ قلن لا فأتت رسول الله ﷺ فقالت يارسول الله إنّ النساء لفي خيبة وخسار فقال ﷺ : وممّ ذلك ؟ قالت : لأنّهن لايذكرن بخير كمايذكر الرجال فأنزل الله هذه الآية « إنّ المسلمين و المسلمات » أي إنّ الداخلين في الإسلام خالصاً من الرجال و النساء المخلصين منهم والمخلصات أو المعنى المستسلمين والمنقادين من الرجال والنساء لطاعة الله .

[والمؤمنين و المؤمنات] أي والمصدّقين بالتوحيد والمصدّقات وعند بعض المفسّرين أنّ الإسلام والإيمان واحد وإنّما كرّر لاختلاف اللفظين ولكنّ البعض منهم يقولون : إنهّما مختلفان فالإسلام الإقرار باللسان والإيمان التصديق بالقلب و يعضد هذا المعنى قوله تعالى : « قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا(١) » وقيل : الإسلام اسم الدين والإيمان التصديق به قال البلخي : فسّر رسول الله المسلم والمؤمن بقوله ﷺ : المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه و المؤمن من أمن جاره بوائقه وما آمن بي من بات شبعان وجاره طاو .

(١) الحجرات : ١٤ .

وقوله : [والقانتين والقانتات] يعني الدائمين على الأعمال الصالحة و الدائمات و الداعين والداعيات [والصادقين والصادقات] في أقوالهم وإيمانهم وفيما سرّهم وساءهم [و الصابرين والصابرات] على الطاعة و على ما ابتلاهم الله به [و الخاشعين و الخاشعات] المتواضعين لله الخاضعين ، وقيل : معناه الخائفين والخائفات [و المتصدّقين والمتصدّقات] أي المخرجين الصدقات و الزكاة من أموالهم [و الصائمين و الصائمات] لله بنيّة صادقة [و الحافظين فروجهم و الحافظات] من الزنا و الفجور ، و حذف لدلالة الكلام عليه .

[والذاكرين الله كثيراً و الذاكرات] و روى أبوسعيد الخدريّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فتوضّآ وصلّيا كتبا من الذاكرين الله كثيراً و الذاكرات وقال بعض : لايكون العبد من الذاكرين حتّى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً . وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال : من بات على تسبيح فاطمة عليها السلام كان من الذاكرين كثيراً والذاكرات .

[أعدّ الله لهم] لهؤلاء الموصوفين بهذه الصفات والخصال [مغفرة] لذنوبهم [وأجراً عظيماً] في الآخرة ولعلّ المراد أنّهم في جميع هذه الأحوال يذكرون الله ويكون إسلامهم وإيمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم و صدقتهم وصومهم بنيّة صادقة متوجّهة إلى قرب الله وقد قرّر سبحانه في أكثر المواضع الذكر بالكثرة مثل قوله : « ياأيّها الّذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً (١) » و كذلك قال سبحانه : « لمن كان يرجوا الله و اليوم الآخر وذكر الله كثيراً (٢) » وإنّ الانسان الأفضل له أن يكثر من الأفعال البدنيّة مثل الصلاة والتسبيح ولكنّه لمّا كان محتاجاً إلى الأكل والشرب وتحصيل مأكوله ومشروبه وذلك يمنعه أن يشتغل دائماً بالصلاة وهو غير ممكن للغالب أو متعسّر ولكن لامانع لمن أن يذكر الله وهو آكل ويذكره وهو شارب أوماش أو بائع أوشار و جعل سبحانه لخلقه هذا الذكر مندوحة للعباد في العبادة وإلى هذا أشار سبحانه بقوله : « الّذين يذكرون الله

(١) الاحزاب : ٤١ .
(٢) الاحزاب : ٢١ .

قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم [(١)] ».

ثمّ قال سبحانه :

وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله و رسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم ومن يعص الله و رسوله فقد ضل ضلالا مبيناً (٣٦) و اذ تقول للذى أنعم الله عليه وانعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله و تخفى فى نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس و الله أحق ان تخشه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى ازواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطرا و كان امر الله مفعولا(٣٧) ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل و كان امر الله قدرا مقدوراً (٣٨) الذين يبلغون رسالات الله و يخشونه ولايخشون احدا الاالله وكفى بالله حسيبا (٣٩) ماكان محمداباأحد من رجالكم ولكن كان رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً (٤٠) .

قوله : [وماكان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله] .

النزول : نزلت في زينب بنت جحش الأسديّة وكانت بنت اُميمة بنت عبدالمطّلب عمّة رسول الله ﷺ فخطبها رسول الله على مولاه زيد بن حارثة ورأت أنّه يخطبها على نفسه فلمّا عرفت أنّه يخطبها على زيد أبت وأنكرت وقالت : أنا ابنة عمّتك فلم أكن لأفعل و كذلك قال أخوها عبدالله بن جحش فنزلت : «وماكان لمؤمن ، الآية» أي لعبدالله و اُخته فلمّا نزلت الآية قالت : رضيت يارسول الله و جعلت أمرها بيد رسول الله و كذلك أخوها فأنكحها رسول الله زيداً فدخل بها وساق إليها رسول الله عشرة دنانير مهراً وخماراً وملحفة ودرعاً وإزاراً وخمسين مدّاً من الطعام وثلاثين صاعاً من تمر .

وقالت زينب : خطبني عدّة من قريش فبعثت اُختي حمنة بنت جحش إلى رسول الله لتستشيره فأشار ﷺ بزيد فغضبت اُختي وقالت : أتزوّج بنت عمّتك مولاك ثمّ أعلمتني اُختي بالأمر فغضبت أشدّ من غضبها فنزلت الآية فأرسلت إلى رسول الله وقلت : زوّجني

(١) آل عمران : ١٩١ .

ممّن شئت فزوّجني من زيد .

وقيل : نزلت في اُمّ كلثوم بنت عقبةبن أبي معيطوكانت وهبت نفسها للنبيّ فقال: قدقبلت وزوّجتها زيدبن حارثة فسخطت هي وأخوها وقالا : إنّا أردنا رسول‌الله فزوّجنا عبده ، فنزلت‌الآية.

وذكر عليّ بن إبراهيم في تفسيره أنّ رسول‌الله كان شديد الحبّ لزيد و كان إذا أبطأ عليه زيد أتى‌منزله فيسأل عنه فأبطأ عليه يوماً فأتى رسول‌الله منزله فإذا زينب‌جالسة وسط حجرتها تسحق طيباً بفهرلها قال : فدفع رسول‌الله الباب فلمّا نظر إليها قال : سبحان الله خالق النور تبارك الله أحسن الخالقين ، و رجع فجاء زيد و أخبرته زينب بما كان فقال لها : لعلّك وقعت في قلب رسول‌الله فهل لك أن اُطلّقك‌حتّى يتزوّجك رسول الله فقالت أخشى : أن تطلّقني ولا يتزوّجني . فجاء زيد إلى رسول‌الله إلى تمام القصّة فنزلت الآية : « وإذ تقول للّذي أنعم الله عليه و أنعمت عليه » الآية .

وبالجملة فمعنى قوله تعالى : « وماكان لمؤمن ولامؤمنة » أي إذا أوجب الله‌ورسوله أمراً وحكماً به لايكون الاختيار لهم بما شاءوا من أمرهم وليس لأحد مخالفته و ترك ما اُمر به إلى غيره .

[ومن يعص‌الله ورسوله] فيما يختاران [فقد ضلّ ضلالاً مبيناً] وذهب عن‌الحقّ ذهاباً ظاهراً .

ثمّ خاطب النبيّ صلى الله عليه وآله فقال : [وإذ تقول] واذكريا محمّدحين تقول : [للّذي‌أنعم الله عليه] بالهداية والإيمان [وأنعمت عليه] بالعتق وهو زيد وقيل : أنعم الله عليه‌بمحبّة الرسول وأنعم الرسول عليه بالتبنّي [أمسك عليك زوجك] يعني زوجك زينب و تقول : لاتطلّقها واحبسها وهذا الكلام يقتضي مشاجرة جرت بينهما حتّى وعظه الرسول و قال له : أمسكها واتّق الله في مضارّتها ومفارقتها [وتخفي في‌نفسك ماالله مبديه وتخشى‌الناس والله أحقّ أن تخشاه] والّذي أخفاه صلى الله عليه وآله في‌نفسه هوأنّه إن طلّقها زيد ويزوّجهاخشي لائمة الناس أن يقولوا : أعجبته و أمره بطلاقها ثمّ تزوّجها وقيل : إنّ الّذي أخفاه في

نفسه هو أنّ الله سبحانه أعلمه أنّها ستكون من أزواجه وأنّ زيداً سيطلّقها فلمّا جاء زيد وقال له : أُريد أن أُطلّق زينب قال له : « أمسك عليك زوجك » فقال سبحانه : لم قلت: « أمسك عليك زوجك » وقد أعلمتك أنّها ستكون من أزواجك ؟

وروي ذلك عن عليّ بن الحسين عليه السلام و هذا التأويل مطابق لتلاوة الآية لأنّه سبحانه أعلم أنّه يبديء ما أخفاه ولم يبد سبحانه غير التزويج فقال : « زوّجناكها » فلو كان الّذي أضمره صلى الله عليه وآله وسلم محبّتها أو إرادة طلاقها لأظهره الله ذلك مع وعده بأنّه يبديه فدلّ ذلك على أنّه صلى الله عليه وآله وسلم عوتب على قوله : « أمسك عليك زوجك » مع علمه بأنّها ستكون زوجته و كتمانه فيما أعلمه الله السبب فيه أنّه صلى الله عليه وآله وسلم استحيا أن يقول لزيد : إنّ الّتي تحتك ستكون امرأتي أو النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم استحسنها تمنّى أن يفارقها زوجها فيتزوّجها .

وقيل : كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يريد أن يتزوّج بها إذا فارقها زيد ولكن عزم أن لا يتزوّجها مخافة أن يطعنوا عليه فأنزل الله هذه الآية كيلا يمتنع عن فعل المباح خشية ملامة الناس ولم يرد بقوله : « والله أحقّ أن تخشاه » خشية التقوى لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يخشى الله حقّ الخشية ويتّقي حقّ تقاته ولكنّه أراد خشية الاستحياء لأنّ الحياء كان غالباً على شيمته الكريمة كما قال سبحانه : « إنّ ذلكم كان يؤذي النبيّ فيستحيي منكم » .

وقيل : إنّ زينب كانت شريفة فلمّا زوّجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من زيد مولاه و لحقها بذلك بعض العار فأراد أن يزيدها شرفاً بأن يتزوّجها لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان السبب في تزويجها لزيد فعزم أن يتزوّج بها إذا فارقها زيد .

وقيل : إنّ العرب كانوا ينزلون الأدعياء منزلة الأبناء في الحكم فأراد أن يبطل ذلك بالكلّيّة وينسخ سنّة الجاهليّة فكان يخفي في نفسه تزويجها لهذا الغرض كيلا يقول الناس : إنّه تزوّج بامرأة ابنه ولهذا قال : « أمسك عليك زوجك » و يؤيّد هذا التأويل قوله : [فلمّا قضى زيد منها وطراً زوّجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطراً] و المعنى : فلمّا قضى زيد حاجته من نكاحها فطلّقها و انقضت عدّتها ولم يكن في قلبه ميل إليها ولا وحشة له من فراقها فإنّ معنى القضاء هو

الفراغ من الشيء على التمام زوّجنا كها و أذنّاالك في نكاحها و إنّما فعلنا ذلك توسعة للمؤمنين حتّى لايكون عليهم إثم ويعلموا جواز أزواج أدعيائهم الّذين تبنّوهم إذا قضى الأدعياء حاجتهم وفارقوهنّ و الغرض بيان حكم أنّ المتبنّي غير الابن من النسب أو الرضاع في تحريم امرأته إذا طلّقها على الأب .

[وكان أمر الله مفعولاً] كائناً لامحالة وفي الحديث إنّ زينب كانت تفتخر على سائر نساء النبيّ ﷺ وتقول : زوّجني الله من النبيّ وأنتنّ زوّجكنّ أولياؤكنّ .

وروى ثابت عن أنس بن مالك قال : لمّا انقضت عدّة زينب قال رسول الله لزيد : اذهب فاذكرها عليّ،قال زيد : فانطلقت فقلت : يازينب ابشري قدأرسلني رسول الله يذكرك وجاء رسول الله فدخل عليها بغير إذن لقوله تعالى : «زوّجنا كها» .

و في رواية أخرى فانطلقت فإذا هي تخبز عجينها فلمّا رأيتها عظمت في نفسي حتّى ما أستطيع أن أنظر إليها حين علمت أنّ رسول الله ذكرها فولّيتها ظهري و قلت : يازينب ابشري فإنّ رسول الله يخطبك ففرحت بذلك و قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتّى يأمرني ربّي فقامت إلى مسجدها ونزل : « زوّجنا كها » فتزوّجها النبيّ و دخل بها وما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها ؛ ذبح شاة وأطعم الناس الخبز واللحم حتّى امتدّ النهار . وعن الشعبيّ قال : كانت زينب تقول للنبيّ : إنّي لأدلّ عليك بثلاث مامن نسائك تدلّ بهنّ : جديّ و جدّك واحد ، و إنّي أنكحنيك الله في السماء ، و إنّ السفير لجبرئيل .

وبالجملة ثمّ قال سبحانه : [ماكان على النبيّ من حرج فيمافرض الله له] أي ماكان على النبيّ من إثم وضيق فيما أحلّ الله له من التزويج بامرأة الابن المتبنّي بل أوجب عليه من التزويج بزينب ليبطل حكم الجاهليّة .

[سنّة الله في الّذين خلوا من قبل] أي هذا الحكم وهذه السنّة كسنّة الله في الأنبياء الماضين وشريعة الله فيهم في زوال الحرج عن هذا الأمر أوفي كثرة الأزواج سنّة سنّها الله في الأنبياء وأممهم كما فعله داود وسليمان وكان لداود مائة امرأة ولسليمان ثلاثمائة

امرأة و سبعمائة سرية كما قال النبي ﷺ : النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني أوالحديث فمن رغب عنه فقد رغب عن سنتي .

[وكان أمرالله قدراً مقدوراً] أي كان ماينزله الله على أنبيائه من الأمر الذي يحكم به قضاءً مقضياً جارياً على مقدار من غير زيادة ولا نقصان .

ثم وصف سبحانه الأنبياء الماضين وأثنى عليهم فقال : [الذين يبلغون رسالات الله] أي يؤدونها إلى من بعثوا إليهم ولا يكتمونها [ويخشونه] ويخافون الله مع ذلك في ترك ماأوجبه عليهم [ولا يخشون أحداً إلا الله] فيما يتعلق بالأداء والتبليغ وفي هذا دلالة على أن الأنبياء لايجوز عليهم التقية في تبليغ الرسالة .

ومتى قيل : فكيف ماقال : لنبينا « وتخشى الناس» ؟

فالقول والجواب أنه لم يكن ذلك فيما يتعلق بالتبليغ وإنما خشي المقالة القبيحة فيه والعاقل كما يتحرز عن المضار يتحرز عن إساءة الظنون به والقول المسيء به ولا يتعلق شيء من ذلك بالتكليف .

[و كفى بالله حسيباً] حافظاً لأعمال خلقه ومحاسباً مجازياً عليها .

ولما تزوج رسول الله ﷺ زينب قال الناس : إن محمداً تزوج امرأة ابنه فقال سبحانه : [ماكان محمد أبا أحد من رجالكم] الذين لم يلدهم فبين سبحانه أنه ﷺ ليس بأب لزيد فيحرم عليه زوجته فإن تحريم زوجة الابن متعلق بثبوت النسب فمن لا نسب له لاحرمة لامرأته ولهذا أشار إليهم فقال : « من رجالكم» وقد ولد له أولاد ذكور إبراهيم و القاسم و الطيب و المطهر فكان أباهم وقد صح عنه أنه ﷺ قال للحسن و الحسين:ابناي هذان إمامان قاما أوقعدا .

[ولكن رسول الله] لايترك ما أباحه الله بقول الجهال ويجب عليكم طاعته لابسبب الأبوة بل بسبب النبوة التي حقها أعظم من حق الأبوة [وخاتم النبيين] أي ختمت النبوة به فشريعته ناسخة لجميع الشرائع و باقية إلى يوم القيامة و هذه فضيلة اختص ﷺ بها من دون الأنبياء و كذلك دينه .

[وكان الله بكلّ شيء عليماً] لايخفى عليه شيء من مصالح العباد و صحّ الحديث عن جابر بن عبدالله عن النبيّ ﷺ قال : إنّما مثلي في الأنبياء مثل رجل بنى داراً فأكملها وحسّنها إلّا في موضع لبنة فكان من دخلها فيها ونظر إليها قال : ما أحسنها إلّا في موضع هذه اللبنة قال : فأنا موضع اللبنة ختم بي الأنبياء أورده البخاريّ ومسلم في صحيحيهما .

قوله تعالى : يـا ايها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً (٤١) وسبحوه بكرة و اصيلا (٤٢) هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما (٤٣) تحيتهم يوم يلقونه سلام و اعدلهم اجرا كريما (٤٤) يا ايها النبى انا ارسلناك شاهداً ومبشرا ونذيرا (٤٥) و داعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً (٤٦) وبشر المؤمنين بان لهم من الله فضلا كبيرا (٤٧) ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع اذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا (٤٨) .

ثمّ خاطب سبحانه عباده المؤمنين بعد أن أحكم أمر النبيّ فشرع بتأديب المؤمنين فأمرهم بكثرة الذكر وودوا مهم عليه وإذا ذكرتموه فينبغي أن يكون ذكركم إيّاه على وجه التعظيم والتنزيه عن كلّ سوء وهو المراد بقوله : [و سبّحوه بكرة و أصيلاً] و قيل : المراد من التسبيح الصلاة والمراد من البكرة و الأصيل المداومة وذلك لأنّ مريد العموم قد يذكر الطرفين ويفهم منهما الوسط كقوله ﷺ : لوأنّ أوّلكم و آخركم ،ولم يذكر وسطكم وفهم منه المبالغة في العموم .

وروى ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ قال : من عجز عن الليل أن يكابده وجبن عن العدوّ أن يجاهده وبخل بالمال أن ينفقه فليكثر ذكر الله عزّ و جلّ ثمّ اختلف في الذكر الكثير فقيل : أن لاينساه أبداً وقيل : أن يذكره بصفاته العليا وأسمائه الحسنى وينزّهه عمّا لايليق به وقيل : هو أن يقول : سبحان الله و الحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر على كلّ حال .

وقد ورد عن أئمّتنا عليهم السلام أنّهم قالوا : من قالها ثلاثين مرّة فقد ذكر الله ذكراً كثيراً وعن زرارة وحمران بن أعين عن الصادق عليه السلام قال : من سبّح تسبيح فاطمة الزهراء

فقد ذكر الله ذكراً كثيراً .

وروى الواحدي بإسناده عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس قال : جاء جبرئيل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال : يا محمد قل : سبحان الله و الحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر ولا حول ولاقوة إلّا بالله عدد ما علم وزنة ما علم و ملء ماعلم فإنّ من قالها كتب الله له بها ستّ خصال : كتب في الذاكرين الله كثيراً ، وكان أفضل من ذكره بالليل والنهار ، وجعل له غرساً في الجنّة وتحاتّت عنه خطاياه كما تحاتّ ورق الشجرة اليابسة فينظر الله إليه و من نظر الله إليه لم يعذّبه .

وقد قيل في قوله : « وسبّحوه بكرة وأصيلاً » : المراد صلاة الصبح وصلاة العصر . و قال الكلبي : أمّا « البكرة » فصلاة الفجر وأمّا «الأصيل» فصلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء الأخيرة وسمّي الصلاة تسبيحاً لما فيها من التسبيح والتنزيه .

قوله: [هو الّذي يصلّي عليكم وملائكته] والصلاة من الله المغفرة والرحمة والكرامة ومن الملائكة طلبهم إنزال الرحمة لكم من الله [ليخرجكم من الظلمات إلى النور] من الجهل إلى المعرفة ومن الضلالة إلى الهدى أو من ظلمات النار إلى نور الجنّة [وكان بالمؤمنين رحيماً] و خصّ المؤمنين بالرحمة دون غيرهم لأنّه جعل الإيمان بمنزلة العلّة في إيجاب الرحمة .

[تحيّتهم يوم يلقونه سلام] أي يحيّي بعضهم بعضاً يوم يلقون كرامة الله وثوابه بأن يقولوا : السلامة لكم . ولقاء الله لقاء ثوابه .

وروي عن البراء بن عازب أنّه قال : يوم يلقون ملك الموت لايقبض روح مؤمن إلّا سلّم عليه . فعلى هذا يكون المعنى تحيّة من ملك الموت يوم يلقونه أن يسلّم عليهم وليس إضمار قبل الذكر لأنّ ملك الموت مذكور في الملائكة [و أعدّ لهم أجراً كريماً] وثواباً جزيلاً .

قوله : [يا أيّها النبيّ إنّا أرسلناك شاهداً] على اُمّتك فيما يفعلونه من طاعة أو معصية و إيمان أو كفر لتشهد عليهم ولهم يوم القيامة ونجازيهم بحسبه [ومبشّراً] لمن

أطاعني وأطاعك بالجنّة [ونذيراً] لمن عصاني وعصاك بالنار .

[و داعياً] وبعثناك داعياً [إلى الله] والإقرار بوحدانيّته [بإذنه] أي بعلمه و وأمره [وسراجاً منيراً] يهتدى بك في الدين كما يهتدى بالسراج ، والمنير ، الّذي يصدر النور من جهته إمّا بفعله وإمّا لأنّه سبب له فالقمر منيروالسراج منير بهذا المعنى .

و قيل : المراد بالسراج المنير القرآن والتقدير : بعثناك ذا سراج منير ، و حذف المضاف .

[و بشّر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلاً كبيراً] زيادةً على ما يستحقّونه من الثواب .

[ولا تطع الكافرين] نهى عن المداراة في الدعوة بسبب تصلّبهم أي لا تستعمل لين الجانب في التبليغ والإنذار ، كنّى عن ذلك بالنهي عن طاعتهم مبالغة في الزجر و المنع عن المنهيّ عنه [و دع أذاهم] أي دع أذاهم إلى الله فإنّه يعذّبهم بأيديكم و بالنار .

و بيّن هذا المعنى قوله : [و توكّل على الله و كفى بالله و كيلاً] أي فوّض أمرك إليه والله كاف عبده والله و كيل عباده لعجزهم عن التصرّف .

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلا(٤٩) ياايها النبى انا احللنا لك ازواجك اللاتى آتيت اجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك و بنات عمك و بنات عماتك و بنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى ان اراد النبى ان يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى ازواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما (٥٠) .

المعنى : لمّا بيّن سبحانه شأن نبيّه وأمره بتقوى الله وأدّب عباده المؤمنين بمكارم الأخلاق فذكر في هذه الآية ما يتعلّق بجانب من تحت أيديهم بقوله :

[يا أيّها الّذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات] والتخصيص في الذكر بالمؤمنات إشعار و إرشاد بأنّ المؤمن ينبغي أن يتزوّج بالمؤمنة فإنّها أشدّ تحصيناً لدينه أي إذا تزوّجتم من المؤمنات ثمّ بعد العقد طلّقتموهنّ ولم تقاربوهنّ وتمسّوهنّ لم يثبت لكم عليهنّ عدّة [تعتدّونها] وتستوفونها بالعدد و تحصون عليها بالأقراء والأشهر وأسقط الله العدّة عن المطلّقة قبل المسيس لبراءة رحمها فإن شاءت تزوّجت عن يومها .

[فمتّعوهنّ] قال ابن عبّاس : هذا إذا لم يكن سمّي لها صداقاً فإذا سمّي لها صداقاً فلها نصفه ولا تستحقّ المتعة و هو المرويّ عن أئمّتنا والعمل عليه فحينئذ الآية عندنا الإماميّة محمولة على الّتي لم يسمّ لها مهراً فيجب لها المتعة أي أن يجعلوا ويعطوها شيئاً ونحلة ويحسنون بها إحساناً يليق بها وعند الجماعة فمنهم من قال : يجب مع نصف المهر أيضاً المتعة بناء على حمل الأمر للوجوب ومنهم من قال : للاستحباب فيستحبّ أن يمتّعها مع نصف الصداق بشيء .

قوله : [وسرّحوهنّ سراحاً جميلاً] أي طلّقوهنّ طلاقاً للسنّة من غير ظلم عليهنّ وقيل : معناه سرّحوهنّ عن البيت فإنّه ليس عليها عدّة فلا يلزمها المقام في منزل الزوج سراحاً بغير أذيّة وقيل : السراح الجميل هو دفع المتعة بحسب الميسرة والمعسرة .

ثمّ خاطب النبيّ صلّى الله عليه وآله فقال : [يا أيّها النبيّ إنّا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهنّ] أي اللاتي أعطيت مهورهنّ حلال لك لأنّ المهر أجر على البضع و الإيتاء قد يكون بالأداء وقد يكون بالالتزام ، و قيل : هذا الحكم خاصّ للنبيّ دون أمّته والمشهور أنّ تقييد الإحلال له عليه السلام ليس لبيان توقّف الحلّ على إتيان الصداق بل لإيثار الأولى والأفضل له صلّى الله عليه وآله كتقييد إحلال المملوكة المسبيّة في قوله : « وما ملكت يمينك ممّا أفاء الله عليك » .

و بالجملة فذكر سبحانه للنبيّ ما هو الأولى فإنّ الزوجة الّتي أوتيت مهرها أطيب قلباً من الّتي لم تؤت والمملوكة المسبيّة أطيب من الّتي اشتراها الرجل لأنّها لا تدري كيف حالها وهذا معنى [وما ملكت يمينك] من الإماء [ممّا أفاء الله عليك] من الغنائم

و الأنفال و كانت مارية القبطيّة من الغنائم و من الأنفال صفيّة و جويرية أعتقهما و تزوّجهما .

[وبنات عمّك] أي و أحللنا لك بنات عمّك [وبنات عمّاتك] من قريش [و بنات خالك وبنات خالاتك] من نساء بني زهرة اللاتي [هاجرن] من قريش إلى المدينة وهذا الحكم كان قبل تحليل غير المهاجرات ثمّ نسخ شرط الهجرة في التحليل وعمّ الحكم .

[وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبيّ] أي وأحللنا لك امرأة مصدّقة بتوحيد الله وهبت نفسها منك بغير صداق أمّا غير المؤمنة إن وهبت نفسها لا يجوز [إن أراد النبيّ أن يستنكحها] أي إذا رغب النبيّ صلى الله عليه وآله في نكاحها تحلّ له وينعقد النكاح له بلفظ الهبة وتحلّ له وهذا الحكم [خالصة لك من دون المؤمنين] أي لا يشاركك أحد من المؤمنين في هذا الأمر .

و في الكافي عن الباقر عليه السلام جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فدخلت عليه وهو في منزل حفصة والمرأة متلبّسة متمشّطة فدخلت على رسول الله فقالت : يارسول الله إنّ المرأة لا تخطب الزوج وأنا امرأة أيّم لا زوج لي منذ دهر ولا ولد فهل لك من حاجة فيّ ؟ فإن تك فقد وهبت نفسي لك إن قبلتني فقال لها رسول الله : خيراً فدعا لها ثمّ قال : يا اُخت الأنصار جزاكم الله عن رسول الله خيراً فقد نصرني رجالكم و رغبت فيّ نساؤكم فقالت لها حفصة : ما أقلّ حياءك وأجرأك وأنهمك للرجال ! فقال رسول الله : كفّي عنها يا حفصة فإنّها خير منك رغبت في رسول الله .ثمّ قال صلى الله عليه وآله للمرأة : انصرفي رحمك الله فقد أوجب الله لك الجنّة لرغبتك فيّ وتعرّضك لمحبّتي وسروري سيأتيك أمري إن شاء الله فأنزل الله « وامرأة مؤمنة » الآية .

و في الخصال عن الصادق قال : تزوّج رسول الله صلى الله عليه وآله بخمس عشر امرأة و دخل بثلاثة عشر منهنّ وقبض عن تسع فأمّا اللّتان لم يدخل بهما فعمرة والشنباء ، وأمّا الثلاثة عشر اللّواتي دخل بهنّ فأوّلهنّ خديجة بنت خويلد ، ثمّ سودة بنت زمعة ، ثمّ اُمّ سلمة واسمها هند بنت أبي اُميّة ، ثمّ اُمّ عبدالله ثمّ عائشة بنت أبي بكر ، ثمّ حفصة بنت عمر ، ثمّ زينب بنت خزيمة بن الحارث اُمّ المساكين ، ثمّ زينب بنت جحش ، ثمّ جويرية بنت

الحارث ، ثمّ صفيّة بنت حيّ بن أخطب ، فالّتي وهبت نفسها للنبيّ خولة بنت حكيم السلمى وكان له سريّتان : مارية القبطيّة و ريحانة الخندقيّة . والتسع الّتي قبض عنهنّ عائشة وحفصة وأُم سلمة وزينب بنت جحش و ميمونة بنت الحارث وأُمّ حبيب بنت أبي سفيان وصفيّة و جويرية وسودة . وأفضلهنّ خديجة بنت خويلد ثمّ أُمّ سلمة ثمّ ميمونة .

واختلف في أنّه هل كانت عند النبيّ امرأة وهبت نفسها له أم لا؟ فقيل : لم يكن عنده امرأة وهبت له نفسها . وقيل : كانت عنده ميمونة بنت الحرث وهبت نفسها للنبيّ وزينب بنت خزيمة وقيل : خولة بنت حكيم ولمّا وهبت نفسها للنبيّ قالت عائشة : ما بال النساء يبذلن أنفسهنّ بلا مهر ؟ فنزلت الآية فقالت عائشة : ما أرى الله إلا يسارع في هواك فقال رسول الله ﷺ : و إنّك إن أطعت الله يسارع في هواك .

قوله تعالى : [قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم] .

المعنى : أنّ ما ذكر نا فرضك وحكمك مع نسائك وأمّا حكم أُمّتك فعندنا علمه ونبيّنه لهم في أزواجهم وملك يمينهم وإنّما ذكر هذا البيان لئلّا يحمل واحد من المؤمنين نفسه على ما كان للنبيّ ﷺ فإنّ له ﷺ في النكاح خصائص ليست لغيره و كذلك في السراري .

وحاصل المعنى أنّا قد علمنا ما أخذنا وفرضنا على المؤمنين في أزواجهم من حيث العدد و الحصر والمهر و وضعناه عنك تخفيفاً عنك وتشريفاً لك و كذلك في ملك اليمين للمؤمنين بأن لا يقع لهم الملك إلّا بوجوه معلومة من الشراء والهبة والإرث و أبحنا لك غير ذلك وهو الصفيّ الّذي تصطفيه لنفسك من السبي و إنّما خصّصناك على علم منّا بالمصلحة فيه .

[لكيلا يكون عليك حرج] أي ليرتفع عنك الحرج والضيق والإثم [و كان الله غفوراً رحيماً] غفوراً لذنوب عباده رحيماً بك و بهم في مصالحهم و مصالحك .

قوله تعالى : ترجي من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى ان تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما فى قلوبكم وكان الله عليما حليما (٥١) لا يحل لك

النساء من بعد ولا ان تبدل بهن من أزواج ولو اعجبك حسنهن الا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيباً (٥٢) يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه ولكن اذا دعيتم فادخلوا و اذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذي النبي ويستحيي منكم والله لايستحيي من الحق واذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ان ذلكم كان عند الله عظيما (٥٣) ان تبدوا شيئاً أو تخفوه فان الله كان بكل شيء عليما (٥٤) لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا اخوانهن ولا ابناء اخوانهن ولا أبناء اخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت ايمانهن واتقين الله ان الله كان على كل شيء شهيداً (٥٥) .

[ترجي من تشاء] جاء هذه الكلمة بالهمزة وبغير الهمزة والإرجاء التأخير وتبعيد وقت الشيء نزلت الآية حين غار بعض نساء النبيّ على النبيّ ﷺ وطلب منه بعضهنّ زيادة النفقة فهجرهنّ شهراً حتّى نزلت آية التخيير فأمره الله أن يخيّرهنّ بين الدنيا والآخرة وأمره ﷺ أن يخلّي سبيل من اختار الدنيا و يمسك من اختار الله ورسوله على أنّهنّ أُمّهات المؤمنين ولا ينكحن أبداً وعلى أنّه يؤوي ويضمّ من يشاء منهنّ ويرجي من يشاء منهنّ وعلى أن يرضين به قسّم لهنّ أولم يقسّم أو قسّم لبعضهنّ ولم يقسّم لبعضهنّ أو فضّل بعضهنّ على بعض في النفقة والعشرة أو سوّى بينهنّ والأمر في ذلك إليه يفعل ما يشاء وهذه من خصائصه فرضين بذلك كلّه واخترنه على هذا الشرط إلّا امرأة منهنّ أراد طلاقها وهي سودة بنت زمعة فرضيت بترك القسم وجعلت يومها لعائشة ومع ذلك فكان ﷺ يسوّي مع هذا بينهنّ .

وقيل : لمّا نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلّقن فقلن : يارسول الله اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت ودعنا على حالنا فنزلت الآية .

و كان ممّن أرجى منهنّ سودة وجويرة و صفيّة وميمونة و أُمّ حبيبة فكان يقسّم

لهن ماشاء كما شاء وكان ممّن آوى إليه عائشة وحفصة و امّ سلمة و زينب و كان يقسّم بينهن على السواء لايفضّل بعضهن على بعض .

ونزلت آية الحجاب لمّا بنى رسول الله بزينب بنت جحش وأولم عليها قال أنس :أولم عليها بتمر وسويق وذبح شاة وبعثت إليه أمّي بحبس أمرني رسول الله أن أدعو أصحابه إلى الطعام فدعوتهم فجعل القوم يجيئون ويأ كلون الطعام ويخرجون قلت : يانبيّ الله قددعوت حتّى ما أجد أحداً أدعوه فقال : ارفعوا طعامكم فرفعوا وخرج القوم وبقي ثلاثة نفر يتحدّثون في البيت فأطالوا المكث فقام صلى الله عليه وآله وقمت معه لكي يخرجوا فمشى حتّى بلغ حجرة عائشة ثمّ رجع ورجعت معه فإذاهم جلوس مكانهم فنزلت هذه الآية وهي « يا أيّها الّذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبيّ الآية » .

و عن سعيدبن جبير عن ابن عبّاس قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يريد أن يخلو له المنزل لأنّه كان حديث عهد بالعرس وكان يكره أذى المؤمنين.وقيل : كان يطعم رسول الله ومعه بعض أصحابه فأصابت يدرجل منهم يد عايشة و كانت معهم فكره صلى الله عليه وآله ذلك فنزلت آية الحجاب و نزلت قوله تعالى : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله» إلى آخرالآية في رجل من الصحابة قال : لئن قبض رسول الله لأنكحنّ عائشة بنت أبي بكر و الرجل هو طلحةبن عبيدالله .

وبالجملة قوله : [ومن ابتغيت ممّن عزلت فلا جناح عليك] أي و إن أردت أن تؤوي إليك ممّن عزلتهنّ وتضمّها إليك فلاسبيل عليك بلوم ولا إثم عليك ولك أن تردّ المعزولة [ذلك أدنى أن تقرّ أعينهنّ ولا يحزنّ و يرضين بما آتيتهنّ كلّهنّ] المعنى أنّهن إذا علمن أنّ له ردّهنّ إلى فراشه صلى الله عليه وآله بعد مااعتزلهنّ قرّت أعينهنّ ولم يحزنّ ويرضين بما فعله النبيّ صلى الله عليه وآله من التسوية والتفضيل وأطيب لنفوسهنّ إذا علمن أنّ لك الرخصة بذلك من الله ، وقيل : نزول الرخصة من الله أقرّ لعينهنّ وأدنى إلى رضاهنّ لعلمهنّ بمالهنّ من الثواب .

[والله يعلم مافي قلوبكم] من الميل إلى بعض دون بعض و يعلم من الرضا و السخط [وكان الله عليماً] بمصالح عباده [حليماً] عنهم في ترك المعاجلة بالعقوبة .

قوله تعالى : [لاتحلّ لك النساء من بعد] أي من بعد النساء اللواتي أحللناهنّ لك في قوله : « إنّا أحللنالك أزواجك اللاتي آتيت آجورهنّ » الآية وهنّ ستّة أصناف : النساء اللاتي آتيت ، وبنات عمّه وبنات عمّاته وبنات خاله وبنات خالاته اللاتي هاجرن معه ، ومن وهبت نفسها له ولا يحلّ له غيرهنّ من النساء . وقيل : يريد المحرّمات في سورة النساء عن أبي عبدالله عليه السلام . وقيل : المراد اليهوديّات ولا النصرانيّات .

[ولا أن تبدّل بهنّ من أزواج] أي ولا يحلّ لك أن تبدّل المسلمات بالكتابيّات لأنّه لاينبغي أن يكنّ اُمّهات المؤمنين إلّا ماملكت يمينك من الكتابيّات فأحلّ له أن يتسرّاهنّ . وقيل : معناه : لايحلّ لك النساء من بعد نسائك اللاتي خيّرهنّ الله فاخترن الله و رسوله وهنّ التسع و صرت مقصوراً عليهنّ و ممنوعاً من غيرهنّ ومن أن تستبدل بهنّ غيرهنّ .

[ولو أعجبك حسنهنّ] أي وقع في قلبك حسنهنّ مكافاةً لهنّ على اختيارهنّ الله ورسوله . وقيل : إنّه منعت من طلاق من اختارته من نسائه كما اُمر بطلاق من لم يختره فأمّا تحريم النكاح عليه فلا . وقيل : إنّ هذه الآية منسوخة واُبيح له بعد تزويج من شاء فروي عن عائشة أنّها قالت : مافارق رسول الله الدنيا حتّى حلّل له النساء ما أراد . قوله : « ولا أن تبدّل بهنّ من أزواج » فقيل : إنّ معناه أنّ العرب كانت تتبادل بأزواجهم فيعطي أحدهم زوجته رجلاً فيأخذ بها زوجته منه بدلاً عنها فنهي عن ذلك وقيل في معنى قوله : « ولو أعجبك حسنهنّ » يعني إن أعجبك حسن ماحرم عليك من جملتهنّ ولم يحللن لك وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام .

وفي الكافي عن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال : إنّما عني بقوله : « لاتحلّ لك النساء من بعد » النساء اللاتي حرّم الله في هذه الآية وهو « حرّمت عليكم اُمّهاتكم وبناتكم وأخواتكم إلى آخر الآية » ولو كان الأمر على مايقولون : كان قد أحلّ لكم مالا يحلّ له لأنّ أحدكم يستبدل كلّما أراد ولكنّ الأمر ليس كما يقولون إنّ الله أحلّ لنبيّه أن ينكح من النساء كلّما أراد إلّا ما حرّم في هذه الآية الّتي في سورة النساء و مثله عن

الصادق عليه السلام في عدّة روايات و في بعضها : أراكم تزعمون أنّه يحلّ لكم مالم يحلّ لرسول الله ، انتهى .

[وكان الله على كلّ شيء رقيباً] عالماً حافظاً للأمور .

قوله : [ياأيّها الّذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبيّ إلّا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه] المعنى: أدّب الله عباده المؤمنين فنهاهم عن دخول دار النبيّ صلى الله عليه وآله بغير إذن وهو قوله : « إلّا أن يؤذن لكم » في الدخول، إلّا أن يدعوكم إلى طعام فادخلوا غير ناظرين أي منتظرين إدراك الطعام فيطول مقامكم أي لا تدخلوها بغير إذن و قبل نضج الطعام انتظار النضجة فيطول مكثكم وقد ذكرنا شأن نزول الآية في قصّة الوليمة وأنى الطعام يأني أنىً مقصوراً إذا بلغ حالة النضج .

[ولكن إذادعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا] أي إذا أكلتم فتفرّقوا واخرجوا [ولا مستأنسين لحديث] أي ولا تدخلوا فتقعدوا بعد الأكل يحدث بعضكم بعضاً .

ثمّ بيّن السبب في المنع فقال : [إنّ ذلكم كان يؤذي النبيّ فيستحيي منكم] أي قعودكم ولبثكم في منزل النبيّ يؤذيه فيمنعه الحياء أن يأمركم بالخروج من منزله [والله لا يستحيي من الحقّ] ولا يترك إبانة الحقّ فيأمركم بما هو أدبٌ وصلاح لكم ، قال بعض العلماء : هذا أدبٌ أدّب الله الثقلاء .

[وإذا سألتموهنّ متاعاً فاسألوهنّ من وراء حجاب] يعني إذاسألتم أزواج النبيّ شيئاً تحتاجون إليه فاسألوهنّ متاعاً من وراء ستر قال مقاتل : أمر الله المؤمنين ألّا يكلّموا نساء النبيّ إلّا من وراء حجاب .

[ذلكم] أي سؤالكم المتاع إيّاهنّ من وراء الحجاب [أطهر لقلوبكم وقلوبهنّ] من الريبة و من وسائس الشيطان الّتي تدعو إلى ميل الرجال إلى النساء و النساء إلى الرجال .

[وماكان لكم أن تؤذوا رسول] أي ليس لكم إيذاء رسول الله بمخالفة ما أمر به في نسائه ولا في شيء من الأشياء [ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً] أي بعد

وفاته [إنّ ذلكم كان عندالله عظيماً] أي إيذاء الرسول بما ذكرنا كان ذنباً عظيم الوقع عندالله.

قوله : [إن تبدوا شيئاً أو تخفوه] أي تظهروا أوتضمروا ممّا نهيتم عنه [فإنّ الله كان بكلّ شيء عليماً] من الظواهر و السرائر و هذا تهديد لهم بأنّكم اذا تعزمون على إيذائه أونكاح أزواجه فهو عليم بذات الصدور.

ثمّ إنّه لمّا أنزل الحجاب استثنى المحارم بقوله : [لاجناح عليهنّ في آبائهنّ ولا أبنائهنّ ولاإخوانهنّ ولا أبناء إخوانهنّ ولاأبناء أخواتهنّ] و في الآية لطيفة وهي أنّ عندالحجاب أمرالله الرجل بالسؤال من وراء حجاب فيفهم منه كون المرأة محجوبة عن الرجل بالطريق الأولى ، وقدّم في الآية الآباء لأنّهم أقرب إلى بناتهم و كيف وقد رأوا جميع بدن البنات في الصغر ثمّ الأبناء ثمّ الإخوة ثمّ بني الإخوة ثمّ بني الأخوات.

[ولا نسائهنّ] يريد نساء المؤمنين لانساء اليهود والنصارى فيصفن نساء رسول‌الله ونساء المؤمنين لأزواجهنّ ورجالهنّ إن رأينهنّ. وقيل : جميع النساء.

[ولا ماملكت أيمانهنّ] من الوصائف أوالوصائف و العبيد قبل البلوغ أو مطلقاً.

وإنّما لم يذكرالله العمّ و الخال مع أنّهما من المحارم فلم يقل : ولا أعمامهنّ ولا أخوالهنّ لوجهين : أحدهما أنّ ذلك علم من بني الإخوة ومن بني الأخوات لأنّ من علم أنّ بني الأخ للعمّات محارم علم أنّ بنات الأخ للأعمام محارم و كذلك الحال في أمر الخال.

والوجه الثاني أنّ الأعمام ربّما يذكرون بنات الأخ عند أبنائهم وهم غير محارم و كذلك الحال في ابن الخال و هو غير محرم.

ومن الأئمّة من قال « في ماملكت أيمانهنّ » : من العبيد من كان دون البلوغ.

[واتّقين الله] من دخول الأجانب عليكنّ من عقاب الله [إنّ الله كان على كلّ شيء شهيداً] أي حفيظاً لايغيب عنه شيء.

قوله ان الله وملائكته يصلون على النبى ياايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما (٥٦) ان الذين يوذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والاخرة

واعدلهن عذاباً مهينا (٥٧) و الذين يوذون المؤمنين و المؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً واثما مبيناً (٥٨) ياايها النبى قل لازواجك و بناتك و نساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى ان يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيما (٥٩) لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لايجاورونك فيها الاقليلا (٦٠) ملعونين أينما ثقفوا اخذوا وقتلوا تقتيلا (٦١) سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا (٦٢) .

المعنى : لمّا أمر الله المؤمنين بالاستيذان في دخول بيته ﷺ احتراماً له فبيّن في هذه الآية أنّ شرفه ﷺ في الملأ الأعلى أعظم فقال :

[إنّ الله و ملائكته] الآية ، و الصلاة الدعاء أي دعاله وهذا المعنى غير معقول في حقّ الله لأنّ الدّعاء للغير طلب نفعه من ثالث فمعناه أنّه تعالى يرحمه ويثني عليه بالثناء الجميل [وملائكته يصلّون عليه] ويثنون عليه بأحسن الثناء ويدعون له بأزكى الدعاء .

[ياأيّها الّذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً] قال أبوحمزة الثمالي : حدّثني السدّي وحميدبن سعد الأنصاري ويزيدبن أبي زياد عن ابن أبي ليلى عن كعب بن عجزة قال : لمّا نزلت هذه الآية قلنا : يارسول الله هذا السلام عليك قدعرفناه فكيف الصلاة عليك قال : قولوا : اللّهم صلّ على محمّد وآل محمّد كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد وبارك على محمّد وآل محمّد كما باركت على إبراهيم وآل ابراهيم إنّك حميد مجيد .

و عن عبدالله بن مسعود قال : إذا صلّيتم على النبيّ فأحسنوا الصلاة عليه فإنّكم لاتدرون لعلّ ذلك تعرض عليه قالوا : فعلّمنا قال : قولوا : اللّهم اجعل صلواتك و رحمتك وبركاتك على سيّد المرسلين وإمام المتّقين وخاتم النبيّين محمّد عبدك و رسولك إمام الدين و قائد الخير والرسول الرحمة اللّهم ابعثه مقاماً محموداً يغبطه الأوّلون والآخرون اللّهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

وعن أبي بصير قال : سألت أباعبدالله عليه السلام عن هذه الآية فقلت : كيف صلاة الله على رسوله؟ فقال : يا أبا محمّد تزكيته له في السماوات العلى فقلت : قد عرفت صلواتنا عليه فكيف التسليم؟ فقال : هو التسليم له في الأمور فعلى هذا يكون معنى قوله : « و سلّموا تسليماً »

انقادوا لأوامره وابذلوا الجهد في طاعته وفي جميع ما يأمركم به و قيل : معناه سلّموا عليه بالدعاء أي قولوا : السلام عليك يارسول الله .

و عن أنس بن مالك عن أبي طلحة قال : دخلت على النبيّ صلى الله عليه وآله فلم أره أشدّ استبشاراً منه يومئذ ولا أطيب نفساً قلت : يا رسول الله ما رأيتك قطّ أطيب نفساً ولا أشدّ استبشاراً منك اليوم فقال : وما يمنعني وقد خرج جبرئيل آنفاً من عندي قال : قال الله تعالى : من صلّى عليك صلاة صلّيت بها عشر صلوات و محوت عنه عشر سيّئات و كتبت له عشر حسنات .

وفيما ورد عن الصادق عليه السلام قيل له : كيف نصلّي على محمد وآله ؟ قال : تقولون : صلوات الله وصلوات ملائكته وأنبيائه ورسله وجميع خلقه على محمد وآله والسلام عليه وعليهم ورحمة الله وبركاته، قيل : فما ثواب من صلّى على النبيّ بهذه الصلوات؟ قال : الخروج من الذنوب كهيئة يوم ولدته اُمّه .

و في المحاسن عن الصادق أنّه سئل عن هذه الآية فقال : أثنوا عليه و سلّموا له بالولاية تسليماً .

وفي العيون عن الرضا عليه السلام في مجلسه مع المأمون قال : وقد علم المعاندون منهم أنّه لمّا نزلت هذه الآية قيل : يارسول الله قد عرفنا التسليم عليك فكيف الصلوات عليك ؟ فقال : تقولون : اللّهمّ صلّ على محمد وآل محمد كما صلّيت وباركت على إبراهيم وآل ابراهيم إنّك حميد مجيد فهل بينكم معاشر الناس في هذا خلافٌ ؟ قالوا : لا. قال المأمون : هذا ممّا لاخلاف فيه أصلاً وعليه إجماع الاُمّة فهل عندك في الآل شيء أوضح من هذا في القرآن ؟ قال عليه السلام نعم أخبروني عن قول الله : « يس * والقرآن الحكيم * إنّك لمن المرسلين * على صراط مستقيم » فمن عني بقوله تعالى : « يس » قال العلماء : « يس » محمد صلى الله عليه وآله لم يشكّ فيه أحد قال عليه السلام : فإنّ الله أعطى محمداً و آل محمد من ذلك فضلاً لايبلغ أحدٌ كنه فضله إلّا من عقله و ذلك أنّ الله لم يسلّم على آل أحد من الأنبياء فقال تعالى : « سلام على نوح في العالمين [1] » وقال : « سلام على إبراهيم [2] » وقال : « سلام على موسى و هارون [3] » ولم

(١) الصافات : ٧٩ . (٢) الصافات : ١٠٩ . (٣) الصافات : ١٢٠ .

يقل : سلام على آل نوح ولم يقل : سلام على آل إبراهيم ولم يقل : سلام على آل موسى وهارون ولكن قال : « سلام على آل يس [1] » يعني آل محمد.

وعنه عليه السلام فيما كتبه في شرائع الدين : والصلاة على النبيّ واجبة في كلّ وقت يذكر اسمه الشريف .

وفي الكافي والفقيه عن الباقر عليه السلام : وصلّ على النبيّ كلّما ذكرته أو ذكره ذاكر عندك في أذان وغيره .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : سمعت رسول الله يقول : إنّما اُنزلت هذه الآية عليّ في الصلوات بعد قبض الله لي .

و روي مرفوعاً أنّ موسى لمّا ناجاه الله وفي مناجاته قد ذكر محمد فقال الله تعالى : صلّ يا ابن عمران عليه فإنّي اُصلّي عليه وملائكتي .

و في الاحتجاج عن عليّ عليه السلام قال : لهذه الآية ظاهر و باطن و الظاهر قوله : « صلّوا عليه » و الباطن قوله : « سلّموا تسليماً » أي سلّموا لمن وصّاه وجعله النبيّ وصيّاً وما عهد به إليه قال : وهذا ممّا أخبرتك أنّه لا يعلم تأويله إلّا من لطف وصفا ذهنه .

قوله تعالى : [إنّ الّذين يؤذون الله ورسوله] قيل : هم المنافقون و الكافرون و الّذين وصفوا الله بما لا يليق به و كذّبوا رسله و على هذا يكون معنى « يؤذون الله » يخالفون أمره ويصفونه بما هو منزّه عنه فإنّ الله تعالى لا يلحقه أذىً و المخالفة تسمّى إيذاء خوطبنا بما نتعارفه وقيل : معناه : يؤذون رسول الله فقدّم ذكر الله على وجه التعظيم حيث جعل أذى رسول الله أذىً له تشريفاً وتكريماً له فكأنّه سبحانه يقول : لو جاز أن ينالني أذىً من شيء لكان ينالني من هذا .

واتّصال الآية بما قبلها حيث أمرهم بالصلاة والثناء عليه ونهاهم عن أذاه فإنّ من من أذاه فهو كافر .

ثمّ أوعد عليه بقوله : [لعنهم الله في الدنيا والآخرة] أي يبعدهم من رحمته و يحلّ

(١) الصافات : ١٣٠ في قراءة غير مشهورة .

قالوا لكن قيل : إنّ ذلك لايجوز لأنّ فيه إشهار النبيّ ﷺ وابداء سوأته على رؤوس الأشهاد وذلك ينفّر عنه في حقّ النبيّ.

و القول الرابع أنّهم نسبوه إلى السحر والجنون والكذب فبرّأه الله.

[و كان عند الله وجيهاً] أي عظيم القدر ورفيع المنزلة يقال : فلان وجيه إذا كان ذا جاه وقدر ، قال ابن‌عبّاس : كان موسى عندالله خطيراً لا يسأله شيئاً إلّا أعطاه.

قوله تعالى : يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا (٧٠) يصلح لكم اعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما (٧١) انا عرضنا الامانة على السموات و الارض و الجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولا (٧٢) ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمومنات وكان الله غفورا رحيما (٧٣).

المعنى : لمّا نهاهم سبحانه عمّا يؤذي الأنبياء ومنعهم عن ما لا يصلح لهم في الآية السابقة أردفها في هذه الآية بذكر مايصلح لهم وأمرهم إلى ما ينبغي أن يصدر منهم وهو ملازمة التقوى والأقوال الصادقة الحسنة قال بعض‌المفسّرين : القول السديد كلمة لا إله إلّا الله وقيل : [قولوا قولاً سديداً] بريئاً من الفساد والكذب‌واللّغو موافق‌الظاهر للباطن. وقال جماعة : الكلام متّصل بالنهي عن الإيذاء فالمراد أن لا تنسبوا إلى رسول الله ما لا يليق به.

[يصلح لكم أعمالكم] أي إن فعلتم ذلك يصلح لكم أعمالكم بأن يلطف لكم فيها حتّى تستقيموا على الطريقة السليمة من الفساد . و قيل : معناه يزكّ أعمالكم و يتقبّل حسناتكم [ويغفر لكم ذنوبكم] بسبب استقامتكم في الأقوال والأفعال [و من يطع الله ورسوله] في الأوامر والنواهي فقد أفلح فلاحاً عظيماً وظفر برضوان و كرامة.

قوله : [إنّا عرضنا الأمانة على‌السماوات] الآية لمّا أرشد الله تعالى المؤمنين إلى مكارم الأخلاق وأدّبهم بأحسن الآداب بيّن في هذه الآية أنّ التكليف أمر عظيم فقال :

« إنّا عرضنا الأمانة » .

واختلف في المراد من الأمانة : قيل : هي التكليف وسمّي أمانة لأنّ من قصّر فيه فعليه الغرامة و من أدّاها فله الكرامة و قيل : هو قول لا إله إلّا الله و هذا الكلام بعيد لأنّ الملك والفلك والجبال والرمال بألسنتها ناطقة بأنّ الله واحد وقيل : المراد الأعضاء فالعين أمانة ينبغي أن يحفظها والاُذن واليد كذلك والرجل والفرج واللّسان وهكذا وبعض هذه الوجوه متقارب للبعض .

وبعض المفسّرين فسّروا معنى « الحمل » بالخيانة قال الزجّاج : كلّ من خان الأمانة فقد حملها ومن لم يحمل الأمانة فقد أدّاها و كذلك كلّ من أثم فهو احتمل الإثم قال الله : « وليحملنّ أثقالهم » وأنشد بعضهم في حمل الأمانة بمعنى الخيانة قول الشاعر :

إذا أنت لم تبرح تودّي أمانة * وتحمل اُخرى أفرحتك الودائع

قال الطبرسيّ : إنّ الظاهر لا يدلّ على ذلك لأنّه يجوز أن يكون المراد بالحمل قبول الأمانة .

وقيل : المعنى في قوله « عرضنا الأمانة » أي عارضنا و قابلنا و الأمانة تكاليف الله من إنزال الكتب وإرسال الرسل فالمعنى أنّ هذه الأمانة في جلالة موقعها وعظم شأنها لو قيست بالسماوات والأرض والجبال وقوبلت بها لكانت هذه الأمانة أرجح وأثقل وزناً و معنى والسماوات والأرضين ضعفن عن حملها [وأشفقن منها] والشفقة ضعف القلب و لذلك صار كناية عن الخوف الّذي يضعف عنده القلب .

ثمّ قال سبحانه : هذه الأمانة الّتي صفتها كذلك وأثقل و أعظم من السماوات والأرض والجبال تقلّدها الإنسان فلم يحفظها وضيّعها لظلمه على نفسه و لجهله بمبلغ الثواب والعقاب .

وقيل : المراد من السماوات ليس هي بأعيانها بل أهل السماوات والأرض ولم يكن إباؤهنّ كإباء إبليس لأنّ السجود كان فرضاً والأمانة عرضاً و إباء إبليس كان استكباراً و إباؤهنّ استصغاراً .

وقيل : المعنى لوكانت السماوات والأرض والجبال عاقلة ثمّ عرضت عليها وظائف التكليف لاشتاقت ذلك مع عظمها وقوّتها ولامتنعت من حملها خوفاً من القصور عن أداء حقّها .

[فحملها الإنسان] مع ضعف جسمه لجهله والمراد بقوله : « الإنسان » لم يرد جميع الناس بل هومثل قوله : «إنّ الإنسان لفي خسر»[1] «وإنّ الإنسان لربّه لكنود[2] » والأنبياء والأولياء والمؤمنون الماحضون خارجون ولا يجوز أن يكون الإنسان محمولاً على آدم لقوله : « إنّ الله اصطفى آدم » وكيف يكون من اصطفاه الله من بين خلقه موصوفاً بالظلم والجهل ومن المعلوم أنّ التكليف هو الأمر بخلاف ما في الطبيعة وهذا النوع من التكليف ليس في السماوات ولا في الأرض لأنّ الأرض والجبل والسماء كلّها على ما خلقت عليه فالجبل لا يطلب منه السير والأرض لا يطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط ولا من الملائكة لأنّ الملائكة وإن كانوا مأمورين بأُمور ومنهيّين عن أُمور لكن ذلك لهم كالأكل والشرب لنا فيسبّحون الليل والنهار لا يفترون كما يشتغل الإنسان بأمر موافق لطبعه ولذلك إذا أطاع الإنسان ما أُمر به وانتهى عمّا نهي عنه وأعرض عن موجبات ما كره الله وانغمر في العبادة فضّل على الملك .

قوله تعالى : [ليعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات] ثمّ بيّن سبحانه الغرض الصحيح في عرض هذه الأمانة يعني بتضييع الأمانة يعذّب المنافقين والمنافقات والمعنى أنّا عرضنا ذلك ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك فيعذّبهم الله ويظهر إيمان المؤمن فيتوب الله عليه إن حصل منه تقصير في بعض الطاعات لعدم خلعهم ربقة الطاعة بالكلّيّة ويمكن أن يكون اللام للعاقبة أي كان عاقبة أمرها ما كان .

[وكان اللّه غفوراً رحيماً] غفوراً للمظلوم رحيماً على الجهول إن عاد عن الظلم والجهل كما وعد عباده بغفران الظلم إلّا الظلم العظيم الّذي هو الشرك كما قال تعالى:

---

(١) العصر : ٢
(٢) العاديات : ٦

« إنّ الله لايغفر أن يشرك به و يغفر مادون ذلك لمن يشاء » .

قال أبوالسعود صاحب التفسير : فجمل تفسير الآية أنّ الله تعالى لمّا خلق هذه الأجرام السماويّة و الأرضيّة خلق فيها فهماً و قال لها : إنّي فرضت فريضةً و خلقت جنّةً و ناراً لمن أطاعني و عصاني فقلن : نحن مسخّرات لما خلقتنا لا نحتمل فريضةً ولا نبغي ثواباً ولاعقاباً والإباء إباء الاستصغار لاإباء الاستكبار مثل إبليس والأمروالعرض مفهومان متغايران .

تمّت السورة بحمدالله

هنا ينتهي الجزء الثامن من الكتاب وقد جمع بين دفّتيه سور الفرقان ، الشعراء النحل ، القصص العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة والأحزاب ومن الله التوفيق .

Library of
Dei Sub Numine Viget
Princeton University.

Princeton University Library
32101 072714031